

ISSN: 2090 - 0449

https://kan.journals.ekb.eg

Dawriyyat Kān al-Tārīḫiyyat

تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

53

السنة الرابعة عشرة

أول دورية عربية الكترونية محكّمة ربع سنوية متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

سبتمبر ٢٠٢١
محرم ١٤٤٣

Historical Kan Periodical

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء





تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هـ وصدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨ م



دورية كان التاريخية.- س١٤، ع٥٣ (سبتمبر ٢٠٢١/ محرم ١٤٤٣)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 14, no. 53 [Sep 2021]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢١.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2021.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



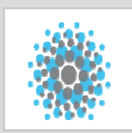
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة

www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية

www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

المشرف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

الهيئة العلمية

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام

هيئة التحرير

حسب الترتيب الأبجدي



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المّحكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



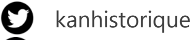
An Arab Schoolmaster, 1901
(oil on panel)
Deutsch, Ludwig (1855-1935)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com








historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلّات العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التَّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التَّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.
يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

COPE

دَّورية كـان التَّاريْخية هـي دورية علميـة عالميـة مُحَكَمـة تعتمـد سياسـة المراجعـة المزدوجـة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمـة والنشر. إن الهـدف الـرئيس مـن الدورية هـو دعـم الدراسـات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعـة أعـداد في السـنة وتقبـل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربيـة والإنجليزيـة. كما تنشر الدوريـة مقـالات أصلية وعاليـة الجـودة في مجـالات العلـوم المساعدة ذات العلاقـة، ويشمل ذلـك كـل العلـوم نظـرًا لطبيعـة التـاريْخ كعلـم يتنـاول النشـاط الإنسـاني كافـة. ويشـمل ذلـك مجموعـة واسـعة مـن مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيـف كبـير مـن القـراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدَة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية،... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشْرِ

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية **https://www.facebook.com/historicalkan**
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير: **mr.ashraf.salih@gmail.com**

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّابُ الْعَدَدِ

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

الأمازيغ بين الدين الرسمي والتدين الشعبي في المغرب الإسلامي
بداية من العصر القديم وصولاً للعهد الوسيط



د. مروى بن سالم
الدكتوراه في التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

نستعرض في هذا المقال أهم الديانات التي توافدت على بلاد المغرب الإسلامي من وثنية ومسيحية ويهودية وصولاً للفتوحات الإسلامية التي راوحت المصادر في مواقفها منها أثناء نقلها وسردها للأحداث، وفي مستوى آخر لم يقلل حضور الدين الرسمي أو يؤثر على حضور التدين الشعبي لدى المجتمع البربري مما جعله نقطة قوة وأداة حاسمة لبعض القادة والدعاة الذين استغلوا هذه الميزة والعقدة لقيام وتأسيس الدول فقد كانت الحاجة ملحة لهذا النوع من التدين الذي تمثله فئة من المتصوفة والأولياء الصالحين خاصة في الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما يؤدي بطريقة مباشرة لميلهم إلى المغيبات وتصديق السحر والخرافات فكانت هذه التصورات بمثابة الحل لتجاوز المشاكل والصعوبات التي تسود هذه الفترة، والملاحظ هنا أن هذه المعتقدات كانت في أغلبها مستوحاة من حالة الفقر والفاقة حيث تدفع بهم الرغبة لتحسين أوضاعهم إلى تصديق الخرافات أو حتى اختراعها ونشرها بين الناس. مثلت هذه العوامل حافزًا كبيرًا لاستغلالهم من قبل الدعاة والحكام وذلك بتوجيه هذه الرؤية في مسار محدد لخدمة أطماعهم السياسية والمالية. سنحاول في هذا المقال تقديم نبذة عن علاقة البربر بالدين بمختلف مذاهبه وتوجهاته، ودراسة وتحليل هذه العلاقة المزدوجة معتمدين في ذلك على مقاربات ومقارنات تأليفية شاملة تمتد من الفترة القديمة حتى العصر الوسيط. فتميزت الفترة القديمة بمحاولات الحضارات الغازية فرض ثقافتها وديانتها على بربر شمال إفريقيا، وهو ما فشلت فيه بسبب سوء معاملتها واضطهادها لهم، وفي نفس الوقت استغل البربر هذه السياسة التعسفية لصالحهم للانقلاب على الحكم الروماني والبيزنطي في شكل حروب دامية متواصلة. ومع وصول العنصر العربي أمل البربر في العدل الاجتماعي والمساواة ولكن جور الولاة حال دون ذلك وقُسمت بلاد المغرب من جديد، كل هذه الثغرات والتجاوزات التي ارتكبها أصحاب الدين الرسمي أدت آليا إلى زيادة نفوذ التدين الشعبي عند بربر بلاد المغرب فكان ملجأهم الوحيد لقضاء الحاجات والطلبات، علاوة على شعور الأمان والطمأنينة الذي يجدونه في هذه الأماكن ويفتقدونه مع الدين الرسمي القائم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٢	يونيو	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	١٩	يوليو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الأمازيغ؛ الديانات؛ الوثنية؛ الفتح؛ البربر.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.245808

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مروى بن سالم. "الأمازيغ بين الدين الرسمي والتدين الشعبي في المغرب الإسلامي: بداية من العصر القديم وصولاً للعهد الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٤ – ٢٤.

Corresponding author: marwabensalem590@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

ورد هذا البحث في فترة ممتدة مهمة من تاريخ بلاد المغرب الإسلامي اهتممنا فيه بدراسة أهم الديانات القديمة التي تبناها البربر من ديانة وثنية ومسيحية ويهودية وصولا إلى الفتح الإسلامي في العهد الوسيط بما في ذلك الظروف العامة والخاصة التي ساهمت في ظهور هذه الأديان وانتشارها بربوع المغرب الإسلامي وتقصي أحوال السكان ومدى إقبالهم على الأديان المتعاقبة، وفي مرحلة ثانية سنتطرق إلى المعتقدات الشعبية التي رسخت في أذهان البربر وانطبعت فيها عبر العصور، فمن الأكيد أن الأمازيغ مثل الشعوب البدائية لهم معتقداتهم الدينية الخاص بهم ولهم طقوسهم السحرية التي تعبر عن تفكيرهم الذي ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالطبيعة والكون في علاقة مع النظام السياسي القائم، لاسيما ونحن بصدد دراسة مجتمع مفكك في الأعراق والأنساب، فقد لعبت الثقافة البسيطة وانتشار الأمية وشيوعها إضافة للفقر والحاجة في هذه الأوساط دورا حاسما في درجة إقبالهم العالية على هذه المعتقدات.

فماهي العوامل الأساسية التي أدت لظهور الأديان وانتشارها ببلاد المغرب الإسلامي؟ وهل كان لدين الرسمي أو الشعبي تأثير عميق على المسار السياسي لدول المغرب؟ وما هي أهم الآثار السلبية التي برزت على إثر خلط الديني بما هو سياسي؟

أولاً: لمحة عن معتقدات الأمازيغ القديمة

١/١-الديانة الوثنية والمسيحية واليهودية

عرف الأمازيغ عبر التاريخ العديد من الديانات في إطار التأثر بالحضارات التي تعاقبت عليهم، وفي هذا الإطار تذكر حياة عمامو عن الأمازيغ في العصور القديمة بأن لهم معتقدات دينية وثنية مثل كل الشعوب:" كانوا ككل الشعوب القديمة يملكون آلهة خاصة امتزجت بآلهة الشعوب الأخرى بنفس التداخل والتمازج وهو من عمق المعتقد البربري"[١]. هذه الطقوس الوثنية يمارسها البربر بأساليب عديدة ومختلفة عن طريق السحر والشعوذة وتقديم القرابين والهدايا إيمانا منهم بالميتافيزيقا والخوارق والمعجزات وعبادة الطبيعة والحيوانات[٢].

توجه تركيز الأمازيغ في الديانة الوثنية على النتوءات التضاريسية والمشاهد الطبيعية فراقت لهم عبادة الجبال والمغارات والصخور واعتبروها آلهة أو مسكنا للآلهة، وذلك لارتفاع قامتها باتجاه السماء أو الغوص في باطن الأرض، ففي المغرب الأقصى عبدوا مرتفع الأطلس لضخامته وعلوه نحو السماء وفي هذا السياق ينقل كامبس عن بلين الأكبر أن جبال الأطلس كانت تتألق في الليل بألف شمعة وتتعالى فيها أصوات آلهة الرعاة Egipans والساتيريين Satyres الضاربين على الطبول، وفي المغرب الأدنى كان جبل بوقرنين الآلهة المحببة لهم، أما وجود المغارة والكهف في باطن الأرض فيعتقدون أنه يسهل الاتصال بين الآلهة الأرضية والإله الأعلى، بالتالي يقتربون منه إذا غاصوا في الأرض ومثال ذلك الإله باكاكسBaccax في جبل طاية (بو حمدان) قرب المدينة الرومانية Thibilis، حيث يتوافد سكان المغرب على هذه المناطق محملين بالقرابين والهدايا مثل القناديل والقلال ليتردد عليها الجن (الجنون) أو أحصيص (الحراس) لإكرامهم أو على الأقل لاتقاء شرورهم[٣].

كما توجه الأمازيغ إلى عبادة الكواكب منها الشمس والقمر والنجوم وقدموا لها القرابين ومنحوها أسماء مخصوصة مثل نعت النجوم الستة على سواحل ليبيا بـ"ماجك" أو "أمان" والذي يعني سلطان أو إلاه في لغة الطوارق وكانوا يقدمون لها قرابين في شكل حيوانات خاصة الخرفان التي يطلقون عليها اسم "أمن" بمعنى الوسيط بينهم وبين الآلهة الذي يجلب لهم الأمن ويبعد عنهم الشر[٤]. وهو ما اتفق عليه هيرودوت بدوره حين ما أقر بأن كل الليبيين كانوا يقدمون القرابين للشمس والقمر وأكد ذلك ابن خلدون في إشارته لعبادة جزء كبير من البربر للكواكب إبان الفتح الإسلامي.

وعرف الأمازيغ عبادة الحيوانات وتقديسها، فحسب المصادر القديمة لاسيما النقائش الصخرية التي حملت الكثير من الرسوم الحيوانية تبين وجود أشكال حيوانات مختلفة منها الكباش ذات الرؤوس الكروية المزينة بالريش أو أغصان الأشجار، وهي رسوم واسعة الانتشار بين سائر الأطلس الصحراوي، كما كانت القردة محل عبادة وتقديس خاصة في منطقة تخوم تونس والجزائر في ما وراء سلاسل الجبال الساحلية، يذكر ديودوروس في هذا الصدد:" إن تلك القردة كانت تحتل المساكن ومخازن المؤن دون أن يسعى أحد إلى طردها منها، لأن السكان يعتبرونها بمثابة آلهة، فيكون في قتلها انتهاك لمحرم يجر على مقترفه عقوبة القتل"، وكذلك الثعابين، فهي مصدر خوف وتقديس في نفس الوقت وكانت عبادة "دراكو" واسعة النطاق تمتد من نوميديا إلى موريتانيا، ويُوجد بمدينة "تيبازا الموريتانية" صنم من البرونز في شكل حية برأس مذهب.

أمّا عبادة الأسد فقد نالت الحظ الأكبر من عبادة الحيوانات، ودليل ذلك الكم الهائل من الزخارف التي تجمع الأسد والشمس على قبور الأمازيغ في هذه الفترة، وفي هذا الأمر أدرجت المصادر ما يلي:" هما صورتان لإله واحد، وإنّ حضورهما داخل القبر ينور الميت ويرشده ويجمله هو الذي جعل تحت حماية الإله المعظم، سيد الزمن والحياة والموت"[٥].

ولم يكن الأمازيغ بشمال إفريقيا بمنأى عن شعوب البحر الأبيض المتوسط، فتأثروا بعديد المعتقدات للشعوب المجاورة والحضارات المتعاقبة مثل الحضارة الفارسية والرومانية واليونانية، وروى ليون الإفريقي أنّ الأمازيغ قد تأثرو بالفرس وعبدوا النار في معابد يحرسونها ليلا نهارا حتى لا تنطفئ وهو نفس التقليد كان يعتمد في معبد "فيستا" عند الرومان[٦]، كما عبدوا الآلهة المصرية "ايزيس" واحتراما لها حرموا أكل لحم البقر وتربية الخنازير وأكد على ذلك هيرودوت في حديثه عن الليبيين، وعند قدوم الفينيقيين تمازجوا معهم وشاركوهم في عبادة الآلهة وتبنوا معتقداتهم وعاداتهم وأعرافهم وأصبح الإله "بعل حمون" الذي اتخذ شكل الكبش إلاههم المعظم، وعبدوا مع قرطاج "بعل حمون" و"تانيت القرطاجية" اللذيْن مثلا بالترتيب إلاه الشمس والقمر ويذكر محمد محي الدين المشرقي:" هذا ولم يحذ المغاربة حذو القطاجين في الشؤون المادية والاقتصادية فحسب بل اقتفوا آثارهم في سائر الميادين الأخرى، فأخذوا عنهم ما كانوا يتحلون به من أخلاق وقلدوهم حتى في وثنيتهم، فجعلوا يعبدون الكبش "عامون" كما كان يعبد القرطاجيون من قبلهم، قلدوهم في كل شيء حتى كادت تبتلعهم تلك الحياة الجديدة"[٧]. هذا وقد تأثر البربر بغزاتهم المتعاقبين عليهم مثل الوندال والبيزنطيين والرومان، واتبعوا دياناتهم الوثنية فتُدووِل بينهم مصطلح "جيني" الذي أرجعه الباحثين لإله لاتيني مرتبط بالمناطق الخضراء حيث توجد العيون الجارية مثل "جيني الشعب" بعين زينة بقسنطينة و"جيني المستعمر" بهنشير سيدي علي بلقاسم بتونس و"جيني القصر الأحمر" بمنطقة عين البيضاء بالمغرب[٨].

ولقد مثلت الديانة اليهودية أولى الديانات السماوية التي تعرف إليها الأمازيغ واعتنقوها، وصلت إليهم اليهودية عن طريق هجرة اليهود إلى منطقتهم في القرن الثالث قبل ميلاد المسيح تزامنا مع انهيار مدينة القدس وخرابها إثر هجرتهم مع الفينيقيين لغايات اقتصادية وسياسية وفي هذا الشأن يذكر محمد الصلابي:" لا يخفى أنّ تواجد هذا العنصر في العصور الأولى كان ضئلا جدا وسبب تواجده في منطقة الشمال الأفريقي كان لعدة أسباب منها سبب سياسي وهو حب السيطرة وتوسيع نفوذهم في أرجاء المعمورة وسبب اقتصادي حيث كان الشمال الأفريقي ينعم بخيرات البر والبحر، كل هذه الأسباب والدوافع مجتمعة كان وراء مجيء العنصر اليهودي للمنطقة، حيث وصلوا على هيئة جماعات صغيرة مع الفينيقيين قبل وصولهم الأخير إلى بلاد المغرب وأيام الرومان"[٩].

ورغم الاختلافات الواضحة بين المؤرخين حول استقرار اليهود في هذه المنطقة فإن عددهم وصل في مدينة قرطاجنة إلى حوالي ٣٠٠ألف وتكاثرت أعدادهم مع الغزو الروماني واستقروا في تونس والجزائر وموريتانيا والمغرب. وقد انصهر اليهود مع البربر وسكنوا جبالهم ومغاراتهم وتعايشوا معهم في سلام واستطاعوا أن يؤثروا عليهم فاعتنقت أعداد كبيرة من البربر الديانة اليهودية.

وفيما يخص الديانة المسيحية فقد عرفها الأمازيغ مع دخول الرومان إلى شمال إفريقيا واعتنقوها أملا منهم في أن تكون دين الخلاص من الذل والعبودية، ويشير أحمد توفيق المدني لذلك في قوله:" ظهرت بالشرق أنوار المسيحية في أول عهد القياصرة فاعتنقها جما كثيرا من الرومان وتسربت بواسطتهم إلى المغرب قدم مبشروها إليه فأعجب البربر بهذا الدين الآمر بالإخوة والمساواة ومكارم الأخلاق وتسارعوا إلى الدخول في دين الله أفواجا وأًصبحت بيع صغيرة في كافة أنحاء البلاد المغربية"[١٠].

وعن أسباب تسارع البربر لاعتناق الديانة المسيحية فهي تتمحور أساسا حول الرغبة في العدالة الاجتماعية وتحقيق العدل والمساواة ورفع ظلم الأباطرة الرومانيين وجورهم، حيث كان المعتقد القائم هو عبادة الأباطرة الذين لم يتوانوا عن اضطهاد البربر واستغلالهم حتى أنهم يعتبرونهم مسخرين لخدمة الدولة الرومانية[١١]، يمارسون عليهم كل أشكال التعسف، لا يتمتعون بأية أملاك وحقوق من ذلك أن الأراضي الزراعية كلها كانت تحت تصرف وملك الإمبراطور وكبار العائلات الأرستقراطية، إضافة إلى أن كل من يملك أرض من صغار الفلاحين يجب عليه دفع الضرائب المجحفة علاوة على الخراج[١٢]، وتبعا لهذا الأسلوب ولهذا النظام الظالم الذي لم يحقق الوئام والوحدة الاجتماعية بل زاد في تعميق أزمة البربر وبروز الطبقية بشكل واضح وجلي وذلك بوجود طبقة مُرفها عليا وطبقة كادحة فقيرة، سارع البربر إلى تبني الدين الجديد الذي يحمل في طياته ضالتّهم من العدل والمساواة.

وفي هذا الصدد اتبع مبشرو الدين الجديد سياسة استراتيجية دقيقة تقوم على التدرج في اختيار أماكن توزعهم لنشر ديانتهم والتركيز على الطبقات الفقيرة والكادحة لكسب ودهم واستمالتهم بالترغيب في الدين الجديد، فقصدوا المراكز الحضرية والساحلية ومن هناك نزحوا إلى المناطق الداخلية خاصة الأرياف والجبال أين تقع مواطن البربر(١٣)، وانتشر الرهبان بين البربر الذين بدورهم أبدوا قبولا للديانة المسيحية وترحيبا بها، كما لعبت الكنائس دور الوساطة للاتصال بالبربر لتفقيههم في الدين الجديد ومعالجة الأمور المستعصية والإصلاح ولم الشمل وهو ما عجز عنه الحكام الرومان(١٤).

أخذ الرهبان في التقرب من هذه الفئات الضعيفة بأساليب شتى مثل التصدق بالأموال والزهد في الحياة وإظهار التقشف والتعريف بقيم ديانتهم في التآزر وغياب التمييز العنصري مما انجر عنه توافد مجموعات البربر على هذا الدين، ونشير إلى أن موقف السلطة الحاكمة لم يظهر العداء بعد أو المعارضة للديانة المسيحية خاصة وأن هذه الديانة لم تتعرض للمصلحة العليا للإمبراطورية(١٥)، ولكن ذلك لم يدم طويلا فقد ازداد عدد المنتسبين إلى هذا الدين الجديد وأضحى في تصاعد مستمر ، كما بدأت حركات المعارضة تخرج إلى العلن خاصة بعد هروب الجنود التابعين للإمبراطور وهو ما أزعج السلطة الحاكمة وكان نقطة البداية في الحرب بين السلطة والديانة المسيحية.

انطلقت السلطة الحاكمة في بث العراقيل والحواجز أمام أصحاب هذه الديانة للحد من انتشارها وتعطيل أفرادها وساندتهم في ذلك الجاليات الرومانية القاطنة بالمدن الكبرى خوفا من تضرر مصالحهم وممتلكاتهم، فذاق المقبلون على هذا الدين شتى أنواع التعذيب وخير مثال على ذلك ما قامت به السلطة الرومانية سنة ١٨٠م حيث أًصدرت حكم الإعدام على مجموعات كبيرة من السكان في مشهد مشين ومفزع، كانوا يجمعون المحكومين في يوم محدد بأحد الملاعب الكبيرة ويطلقون عليهم الأسود الجائعة فتفترسهم وتقطعهم على مسمع المتفرجين وأنظارهم، علاوة على سجن أعداد كبيرة منهم (١٦). وزادت الأمور تعقيدا باعتلاء الإمبراطور "ذيوقليسياس" الحكم فأعاد فرض عبادة الأباطرة الرمانيين على الجند من جديد مما اضطرهم إلى الفرار مجددا، وأمر بهدم الكنائس ومنع الاجتماعات الدينية وصادر أملاكهم، وقد أتت هذه السياسة أُكلها حيث ارتد جزء كبير من النصارى عن الديانة المسيحية خوفا من بطش الإمبراطور(١٧).

ولكن الصراع الداخلي في أوائل القرن الرابع الميلادي بين الإمبراطور "ماكنوس" والإمبراطور "قسطنطين" حسم الأمر بعد حرب أهلية دامية بانتصار "قسطنطين" الذي اعتنق الديانة المسيحية سنة ٣١٢م وجعلها الديانة الرسمية للبلاد وشّرع بناء المعابد والكنائس في كل مناطق الإمبراطورية وأصدر مرسوما يقرّ بحرية المعتقد لجميع السكان.

وبالرجوع إلى وضعية بربر بلاد المغرب فإنهم لم يتفاعلوا إيجابيا مع هذه القرارات الجديدة فيما يكشف أنّ نيتهم الحقيقة من تبني هذا الدين هي أساسا بعيدة كل البعد عن كل ما هو ديني وإنما كان حجتهم وتعلتهم للثأر من الحكم الروماني الذي عمل على تحقيرهم وتهميشهم واستعبادهم، فلم تكن هذه القرارات إلا شرارة الانطلاق في البحث عن وسيلة جديدة معادية للدولة، كما أن هذا الدين الجديد لم ينجح كُليًا في القضاء على رواسب التّصوّر الديني القديم عند البربر(١٨).

٢/١-الأمازيغ والفتح الإسلامي

مثل الفتح الإسلامي النقطة الحاسمة التي حررت بلاد المغرب من الديانة المسيحية وذلك بنشر الدين الإسلامي، حيث كانت منطقة شمال إفريقيا تعاني من ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية صعبة، فهي خاضعة للحكم البيزنطي الذي يمتد نفوذه من حدود مصر ويضم برقة وطرابلس وتونس الحالية وجبال لأوراس ثم يقترب من الساحل وينتهي عند طنجة، غير أن هذا المجال الشاسع بدأ يصغر تدريجيًا جراء الغارات المستمرة من قبل البربر الذين لا يضيعون فرصة للاصطدام معهم ومحاربتهم مما أنهك القوى البيزنطية وأجبرها على التراجع إلى المناطق الساحلية وتقليص مجالها(١٩).

أمّا اجتماعيًا فقد كان التفكك والتمزق الاجتماعي هو الطاغي على سكان بلاد المغرب، فسكان شمال إفريقيا الأصليون هم البربر، مقسمون لقبائل وعشائر منهم البدو الرحل وهم أًصحاب السهل والبسط والخيام يتنقلون بين مناطق المغرب حسب الفصول والمواسم، والبربر المستقرون سكان الجبال والمغارات مرتبطون بالأرض والزرع والحرث، من أهم سمات هذه القبائل أنها غليظة وحادة الطبع، يميل أهلها إلى الحروب والنزاعات، قبائل متفرقة لا يجمعها رابط إلا كونهم أبناء الجد الواحد، لا يتركون ثأرا لهم إلا وأخذوه بالقوة، يتحالفون وينقلبون حسب مصالحهم. عاش الأمازيغ فترات عصيبة في ظل التواجد البيزنطي حيث كانوا يعاملونهم معاملة العبيد ويغالون في فرض الضرائب عليهم إضافة إلى إبعاد الجند عن أراضيهم وعائلاتهم ما أثار الحقد والكراهية في نفوس البربر

تجاههم حتى استقرت رغبة الثأر والنيل منهم في أذهانهم، فلما كان قدوم الفاتحين المسلمين رأى الكثير منهم أنه سبيلهم في التخلص من الغازي البيزنطي[٣٠].

أمّا الحياة الدينية بالمغرب فقد كانت تشهد فوضى عارمة وشاملة تشبه إلى حد كبير حالة الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، فأغلبية البربر لا يدينون بدين واحد فكان شمال إفريقيا مركزا للأديان المختلفة، منها المسيحية التي انتشرت بين سكانه واليهودية ولكن بنسبة أقل وفي هذا الإطار يورد ابن خلدون:" البربر بإفريقية والمغرب قبل الإسلام تحت ملك الإفرنج وعلى دين النصرانية الذي اجتمعوا عليه مع الروم"[٣١]ويبدو أن الآراء والعقائد كثيرة منها الوثنية فالكاهنة التي ثارت مع قومها على حسان ابن النعمان تخبرنا المصادر أنها هربت إلى جبال لأوراس وهي تحمل صنما عظيما من خشب تعبده وهو ما يؤكده ابن عذارى في قوله:" خرج رحمة الله عليه –يعني عقبة ابن نافع- غازيا للروم والبربر وهم آنذاك مجوس ونصارى"[٣٢].

(٢/١) ١-أدوات نشر الإسلام في بلاد المغرب ووسائله

انطلقت الفتوحات الإسلامية في شكل حملات عسكرية نحو أرض شمال إفريقيا الأمازيغية لنشر الدين الجديد وتطهير البلاد من الشوائب الدينية الأخرى، فراوح الولاة في سياستهم مع السكان بين اللين والشدة، حيث امتاز الفاتحون الأوائل بحسن التدبير والرفق واللين لاستمالة البربر واستقطابهم للدين الإسلامي، واعتمدوا في ذلك تدابير ووسائل وأدوات دقيقة وناجعة أتت أكلها بمرور الوقت، منها بناء المساجد التي تعتبر المركز الأساسي لنشر الدين الإسلامي باعتبارها أماكن تعليم وتنوير يقبل عليها كل من وفد إلى بلاد المغرب وتشير المصادر إلى أن القيروان وحدها احتوت ما يزيد عن عشرة مساجد ووردت عدة أسماء قامت ببناء المساجد على غرار أبي عبد الله بن رباح اللخمي وأبي رشد بن عبد الله السباني وغيرها كثيرة[٣٣]. وصحب المساجد الكتاب وهو مكان بسيط البناء صغير المساحة ملحق بالمسجد يتعلم فيه الصبيان تعاليم الدين الإسلامي ومبادئه.

كما كان للمخالطة التي عمل الولاة على تكثيفها أثر بالغ لأسلمه بربر بلاد المغرب، حيث اطلع الأمازيغ على سلوك المسلمين وتعاملوا معهم وتأثروا بهم فتفتحت له قلوبهم، وكان لحسان بن النعمان دور بارز في هذا الشأن فلم يقبل أمان البربر إلا بعد أن أمدوه باثني عشر فارسا من جميع قبائلهم ليشاركوا مع المسلمين في الحرب فأجابوه وأسلموا على يديه، وكانت غاية حسان حصول الاختلاط والتمازج بين البربر والمسلمين خاصة وأن هؤلاء الجند من جميع قبائلهم ويذكر مؤنس:" وكانت تلك خطة موفقة استطاع بها حسان أن يضمن ولاء البربر ويحبب إليهم الإسلام، فالبربر شعب محارب ميال إلى الغزو والسلب فأرضاهم اشتراكهم مع المسلمين في الحرب جنبا إلى جنب ولم يلبثوا أن أسلموا"، كما مثل فتح المسلمين للأندلس حدثا مهما ساهم في تزايد تواتر البربر على الإسلام ليلتحقوا بالمسلمين للمشاركة في الفتح[٣٤].

ولا يمكننا أن نغفل عن الهجرات الداخلية والخارجية التي ساهمت بدور كبير في أسْلمة البربر حيث وفدت أفواج كبيرة من المسلمين استقرت ببلاد المغرب نهائيا بعد قدومهم من كل أرجاء البلاد.

ومن أهم الأحداث والإنجازات التي ساعدت في نشر الإسلام اختطاط مدينة القيروان في ولاية عقبة بن نافع، فتأسيس مدينة القيروان كان بمثابة الإعلان الرسمي عن توطين المسلمين بشمال إفريقيا واستقرارهم بها وكان لذلك تأثير كبير من الناحية الشعبية، وهنا يورد الحاجري: "ويعتبر بناء مدينة القيروان سنة ٥١ للهجرة من الأعلام البارزة في تعريب الشمال الإفريقي، فقد بُنيت لتكون مدينة إسلامية عربية تجتمع فيها وجوه النشاط الإسلامي"، ويضيف ابن عذاري:" وهكذا لم يكن بناؤها حاجة عسكرية في عملية الفتح وتنظيمها فحسب يأوي الجند إليها وينتشرون منها، وترسم الخطط فيها، وإنما كانت مع ذلك نواة النشاط الإسلامي العربي في إفريقيا ومركزا دينيا وثقافيا تنتشر منه تعاليم الإسلام ومبادئه واللغة العربية وثقافتها وتتيح لهذا المجتمع الجديد المؤلف من العرب والبربر ألوانا من الاتصال والمشاركة في الحياة، وتولد العوامل المختلفة التي تلائم بينه وتربط بين عناصره في أسواقها ومساجدها"[٣٥].

لم تكن مدينة القيروان المدينة الوحيدة التي عمرها المسلمين لتقريب البربر من المسلمين للأخذ عنهم والاقتداء بهم، ففي ولاية حسان بن النعمان بُنيت مدينة تونس وهدفه من بنائها كان لغايتين، الغاية الأولى هي أن تكون ميناء حربيا للمسلمين وحصنا متينا أمام هجمات الروم البحرية، أمّا الغاية الثانية تتمثل في تسهيل الاتصال والتواصل بين البربر والمسلمين أثناء العمل بدار الصناعة التي بناها لصناعة السفن والمراكب داخل المدينة نفسها. ومن المشروعات الحيوية الأخرى التي ساعدت في الاختلاط والتمازج بين العرقين ما قام به عبد الرحمان ابن حبيب الفهري آخر وال لبني أمية على شمال

إفريقيا وذلك بحفر شبكة من الآبار التي تصل واحات إفريقيا الداخلية بمدينة "أودغشت" بصحراء المغرب الأقصى، وبهذا أصبح الطريق ممهدا أمام قوافل التجارة للعبور في غرب إفريقيا عبر الصحراء بعد أن كان الطريق الرئيسي الوحيد هو طريق الساحل[٢٦].

وفي إطار البحث عن الوسائل والطرق التي اعتمدها الفاتحون لنشر الإسلام، كانت الأولوية للدعوة بالتعليم وهنا لابد أن نعرج على أهمية البعثات العلمية التي أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز وكذلك الولاة لتفقيه البربر في الدين الإسلامي حتى أن هذه البعثات وصلت أقصى المغرب قبل أن يستقر الفتح، ويذكر ابن عذاري متحدثا عن فتح عقبة للمغرب الأقصى:" وقد كان عقبة بن نافع الفهري ترك فيهم بعض أصحابه يعلمونهم القرآن والإسلام"، وفيما يخص المغرب الأقصى يُورد عن موسى بن نصير:" وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلا من العرب ليعلموهم القرآن وشرائع الإسلام"، أما الخليفة عمر فقد مدهم ببعث علمية تشتمل على عشرة رجال يعرفونهم الحلال من الحرام ويدعونهم إلى الإسلام وكان لهذه البعث بالغ الأثر، فقد أقام معظمهم بالقيروان واختطوا المنازل والمساجد لتعليم القرآن وتلقين مبادئ العربية للكبار والصغار من البربر[٢٧].

وعليه انتشرت حلقات التعليم ومجالسه التي تُعنى بعلوم التفسير والحديث والفقه، ولم يقتصر ذلك على المدن والحواضر وإنما امتد إلى المناطق الداخلية الريفية والجبلية، حيث كان لمرور الجيش في طريقه بالقرى والبوادي تأثير واسع على السكان وتذكر المصادر أن أول من تعّلم القرآن في جبل نفوسة "عمر بن يمكنين"[٢٨]، وعجت المصادر بأخبار إسلام رؤساء قبائل البربر وزعمائهم منذ بداية الفتح وفي هذا يقول ابن خلدون:" وانساح المسلمون في البسائط بالغارات ووقع بينهم وبين البربر أهل الضواحي زحوف وقتل وسبي حتى لقد حصل في أسرهم يومئذ أمير مغراوة وسائر زناتة ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فأسلم على يده ومن عليه وأطلقه وعقد له على قومه"[٢٩]. ومع أبي المهاجر دينار كان الحدث الأكبر وهو إسلام الزعيم البربري "كسيلة" الذي أدى آليا إلى إسلام قبيلته وهو ما يؤكده حسين مؤنس:" ولا نزاع في أن إسلام كسيلة كان حدثا عظيما له معناه وأثره البعيدان، فأما معناه فنجاح الفاتح الإسلامي في تأدية الغرض الأسمى من هذا الفتح وهو نشر الإسلام، وأما تأثيره فلا نزاع في أن كسيلة لم يسلم بمفرده وإنما تبعه نفر كبير من قومه من القادة والأقارب والأتباع والأصاغر"[٣٠].

وعلى هذا المنوال استمرت أسلمة بربر بلاد المغرب حتى عمت كامل أرجائه، فعندما أراد عقبة في ولايته الثانية التوجه إلى طنجة أعلمه أبو المهاجر دينار بإسلام أغلب سكانها وورد على لسانه: "ليس في طنجة عدو لك، لأن الناس قد أسلموا"، ومن الشواهد الدالة على انتشار الإسلام بدواخل ما ذكرته المصادر عند وصول عقبة لجبل درن "نهضت زناتة وكانت خالصة للمسلمين منذ إسلام مغراوة" وحول تدرج الجماعات البربرية في الدخول للإسلام ومناطق انتشاره، فقد أشار حسين مؤنس إلى أن القبائل القاطنة بالجنوب والتي تشبه طريقة عيشها إلى حد كبير نمط عيش العرب هي السباقة في الدخول للإسلام بينما انحصرت المقاومة للفتح في القبائل الشمالية التي لا تزال متأثرة بالحضارة البيزنطية[٣١].

(٢/١) ٢-ثورة البربر على الولاة

نستشف مما سبق ذكره حرص الخليفة عمر بن عبد العزيز على دعوة البربر إلى الإسلام بالترغيب والإحسان واللين، كما كان له الدور الأبرز في أسلمة بربر شمال إفريقيا فقد تميز بنظرة ثاقبة في اختيار ولاة بلاد المغرب وأحسن توجيههم ووضعهم في المسار الصحيح الذي يقوم على مبادئ أخلاقية وإنسانية تتماشى مع قيم الإسلام، وعن حسن اختياره لولاته يذكر المالكي:" ولى عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد لله فكان خير وال وخير أمير، ومازال حريصا على دعوة البربر إلى الإسلام فأسلم بقية البربر على يديه"[٣٢]، ويضيف ابن عذاري:" ولى إسماعيل بن أبي المهاجر إفريقية من قبل أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ...، وهو الذي علم أهل إفريقية الحلال والحرام، وبعث معه عمر رضي الله عنه عشرة من التابعين أهل علم وفضل.. وكانت الخمر بإفريقية حلالا حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها رضي الله عنهم"[٣٣].

وتصاعدت أسلمة بربر بلاد المغرب في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز وتضاعفت وبلغت أوج ازدهارها وثروتها في التعايش السلمي والتمازج بين العرقين، فقد وضع حد لتسلط الولاة واستعاد ثقة البربر في الزعامة الإسلامية، وأمر الوالي إسماعيل بن عبيد بإسقاط الجزية على من أسلم منهم، وتحرير من استرق من نسائهم وأمره بإرجاع الأراضي إلى أصحابها والاكتفاء بأخذ الخمس ودفع الخراج المعلوم وحمّله مسؤولية أعباء الإدارة والحرب مع جمع الخراج والصدقات ليحول دون جور الجباة وظلمهم[٣٤]. عمل الخليفة عمر بن عبد العزيز بما يتوافق مع

الشريعة الإسلامية خاصة بضمان المساواة بين المسلمين والبربر أي لا تمييز لجنس أو لون أو عرق إلا بالتقوى والعمل الصالح، والمسلم له جميع الحقوق وعليه جميع الواجبات سواء كان عربيا أو بربريا أو رومانيا.

ولكن هذه السياسة السلمية انتهت بمجرد وفاته وخلفه يزيد بن عبد الملك الذي عزل إسماعيل بن عبيد الله وعين مكانه يزيد بن مسلم سنة ١٠٢هـ/٧٢٠م، فاستبد بالبربر واضطهدهم وأعاد فرض الجزية على من أسلم من الموالي لتحصيل المزيد من الأموال والغنائم، واستفز كبرياءهم وشموخهم عندما قام بوشم حرسه من البربر بكلمة "حرسي" ما أثار نقمتهم وأجج مشاعر الثأر في نفوسهم فاتفقوا وأجمعوا على قتله وقتلوه، ولما وصل نبأ قتله للخليفة لم يبد أي سخط أو انزعاج وذلك حسب ما ورد على لسانه في المصادر حيث كتب لهم "إني لم أرض كما صنع يزيد بن أبي مسلم"[٣٥].

واتبع نفس الأسلوب عبيدة بن عبد الرحمان، وازداد الأمر سوءا إبان ولاية عبيد الله بن الحبحاب الذي قاد جيشه لسلب البربر وسبيهم في أطراف المغرب، ونشر الرعب والهلع في صفوفهم، وعين عمر بن عبد الله المرادي واليا على طنجة فأساء التسيير والتدبير واعتبرهم فيء وعبيد سواء أسلموا أو لم يسلموا، وقد أشار الرقيق لذلك في قوله:" فأساء السيرة وتعدى في الصدقات والقسم، وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيء المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله"[٣٦]. وولى ابنه إسماعيل على السوس الأقصى فجار على أموالهم وعبث بنسائهم، وتقر المصادر بأن فترة ولاية ابن الحبحاب "كانت سببا لانتفاض البلاد ووقوع الفتن العظيمة" ولم تنته الصراعات عند البربر والمسلمين وإنما توازت فترة ولايته مع احتداد النزاعات بين العرب القيسية والعرب اليمنية وباعتباره قيسيا فقد نكل من باليمنية واضطهدهم شر اضطهاد، ومن جهة أخرى تتباين الروايات وتتناقض حول علم مركز الخلافة بما يقترفه العمال في بلاد المغرب والذي يمثله هشام بن عبد الملك في هذه الفترة أو أنّ أعمال الولاة كانت إرادة شخصية نابعة عنهم دون الرجوع إلى مركز الخلافة وهو ما يطرح تساؤلات كثيرة[٣٧].

أدت هذه السياسة التعسفية التي اتبعها الولاة إلى تنفير البربر من الدين الإسلامي الذي لم يجدوا فيه ما كانوا يوعدون من عدل ومساواة حيث استشرى الظلم الاجتماعي في كامل بلاد المغرب من صنع الخلافة وعمالها، فوجد البربر تناقضًا كبيرًا بين تعاليم الإسلام وأفعال الخلافة وعمالها خاصة في ظل سياسة الأمويين الأواخر، وتزامن هذا الوضع العام المتأزم مع ظهور حركة الخوارج بالمغرب بعد أن قام مركز الخلافة في المشرق بالقضاء عليها وتشتيت شمل أصحابها والتنكيل بهم، فسار من بقي منهم باتجاه المغرب لنشر مذهبهم والتعريف به بين البربر الذين كانوا يعانون بدورهم من وضعية صعبة. ونظرا لما امتاز به مذهب الخوارج من سماحة دين وديمقراطية باعتبار الإمامة حق متاح لكل مسلم فمن الطبيعي أن يلقى قبولاً واستحسانًا من قبل البربر الذين طال حرمانهم من الأمان وتحقيق المساواة مع العنصر العربي.

منذ ذلك الحين لم تهدأ بلاد المغرب من الصراعات والنزاعات الداخلية والخارجية، وشهدت البلاد جميع أوجه الانقسامات وبروز دويلات صغيرة تقوم على تحالفات قبلية، وعمت الثورات كافة البلاد ضد الولاة الأمويين ودخلت في حروب طويلة الأمد مع الخلافة العربية، علاوة على الصراع الدامي الذي دار بين الخوارج الإباضية والخوارج الصفرية الذي أدي للقضاء على هذه الأخيرة أولاً، أما الإباضية فقد ساهمت بالقضاء على نفسها بعد وفاة زعمائها الأولين وبروز الصراعات العائلية الداخلية وظهور للعلن تدخل النساء في الشؤون السياسية، كل هذه الظروف ساعدت الخلافة العربية على القضاء عليها على يد يزيد بن حاتم.

ثانيًا: الأمازيغ والتدين الشعبي في بلاد المغرب

لم يمنع الدين الرسمي البربر من ممارسة معتقداتهم الروحية الحاضرة بقوة في المجتمع المغربي، حيث تعود سكان بلاد المغرب على زيارة الفضاءات المقدسة المختلفة من أضرحة وزوايا... علاوة على إقبالهم على الأولياء الصالحين والمتصوفة للتبرك بهم وكسب رضاهم والتذلل لهم لقضاء الحاجة وفك الكرب، كما كانت الوضعية العامة للبلاد من ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية هي العامل الرئيسي في بروز هذه الظواهر الدينية الشعبية.

٢/١-أصناف المقدسات الشعبية

(٢/١) ١-الأولياء الصالحون والمتصوفة

من الصفات التي تميز بها سكان بلاد المغرب في الفترة القديمة والوسيط وحتى المعاصرة تعظيمهم للأولياء والإيمان بالخوارق والإقبال المكثف عليهم للتبرك بهم، خاصة في الأوقات العصيبة فكلما اندلعت أزمة اجتماعية أو اقتصادية كانت الأماكن المقدسة والأولياء والمتصوفة ملجأهم الوحيد، كما كانوا يجدون ضالتهم عندهم في البحث عن السعادة والحلول لمشاكلهم والراحة النفسية والجسدية، وتورد المصادر: "إن

ظاهرة تقديس الأولياء عريقة وشديدة الاتساع، والأولياء لهم القدرة على حل المعضلات، يرشد ويشفي ويكون ملجأ لأصحاب الحاجات، والشاعرين بالجور والشاكين بالإحباط، وهم قادرون على الانتقام من السارقين والمشككين به..".

إن ظاهرة تقديس الأولياء لم تكن وليدة فترة زمنية معينة وإنما يمكن إرجاعها إلى مرحلة الاستقرار وبداية الحضارة حيث رافق هذا الاستقرار المكاني استقرار روحي ونفسي يتمثل في البحث عن إجابات لأسباب التحولات الطبيعية. وقد تعددت أنواع الأماكن المقدسة وأصنافها في بلاد المغرب التي نجدو في مقدمتها الأضرحة والزوايا، والزوايا لغة: جمع زاوية وهي مأخوذة من فعل زوى وانزوى بمعنى ابتعد وانعزل، أما اصطلاحًا: فيُراد بها مأوى المتصوفين والفقراء(٣٨)، ويطلق مصطلح الزاوية على البناية ذات الطابع الديني والثقافي، يعرفها ابن مرزوق بأنها: "والظاهر أن الزوايا عندنا في المغرب هي المواضع المعدة لإرفاق الواردين وإطعام المحتاج من القاصدين".(٣٩)

تشير المصادر إلى أن بلاد المغرب عرفت انتشار الزوايا بعد القرن الخامس للهجرة، وأطلق عليها في بادئ الأمر مصطلح "دار الكرامة" حتى جاء المرينيون بتسمية جديدة وهي "دار الضيافة"(٤٠). إضافة إلى الزوايا والأضرحة لم يتوان البربر عن عبادة الأشجار مثل شجرة الزيتون المباركة وكذلك عيون المياه الجارية ومنابعها وبعض الآثار الحيوانية والإنسانية. عموما مثلت كل هذه المقدسات المختلفة قوة دينية وعرفية منافسة للديني الرسمي حتى أنها تتجاوزه أحيانًا كثيرة من حيث المواظبة على الزيارات وتقديم الهدايا.

وعجت المصادر التاريخية بأخبار النوادر والأحداث المصاحبة لشتى أنواع الخوارق والمعجزات التي تخص الأولياء الصالحين وكذلك السحر والشعوذة وأشادت بالتعلق الشديد لسكان المغرب بهم، ويذكر البكري في القرن ٤هـ/١٠م: "أن هناك كاهنة ساحرة تعرف بتانفيت وهي عمة حاميم بن منّ الله بن حريز تقطن بالقرب من تيطاوان فكان النساء يزورونها ويتبركون بها بعد وفاتها، وكذلك أخت دجو فكانت هي أيضا ساحرة كاهنة فكانوا يستغيثون بها في كل حرب وضيق ويزعمون أنهم يجدون نفعًا"(٤١)، علما وأن الزائر لهذه الفضاءات يمارس طقوسا وشعائر مختلفة حسب حاجته إذا يكاد يكون لكل نوع من المزارات أعرافه وتقاليده سواء كان ضريحا أو زاوية أو غار أو شجرة.

اشتهر سكان المغرب بتعظيمهم للأولياء الصالحين والمتصوفة حتى أن بعض القبائل اختصت بتخريج الأولياء على غرار هسكورة ويشير ابن قنفذ لذلك في قوله: "وقد سألت عن جملة الطوائف التي هي بالمغرب الأقصى في الأرض التي تنبت الصالحين كما تنبت الكلأ، فوجدتها معددة باعتبار تعدد الأشياخ"(٤٢). وفي هذا الإطار ضمت مدينة بجاية بالمغرب الأوسط خلال القرنين ٥و٦هـ/١١و١٢م عددًا كبيرًا من الأولياء الصالحين حتى أطلق عليها "مكة الصغيرة"(٤٣)، وكان ببوادي ماسين بشمالي ندرومة حصن ورباط حسن يقصده الناس للتبرك به وإذا سرق أحد فيه وأتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته. ونال بعض الشيوخ أعلى درجات التقديس مثل الشيخ أبي عبد الله الذي ينسبون إليه جملة من الخوارق كتلك الزوبعة التي هبت بالكبش من البادية لإكرام الضيوف وخروج الجراد من ضيعته بعد أن دعا عليه(٤٤).

اختلفت الدوافع والأسباب لإقبال السكان على هذه الأماكن، فنجدو منها الأمراض المستعصية التي عجز الأطباء عن مداواتها من ذلك أن رجلاً من أهل مكناسة كان له صبي عمره أربعُ سنوات لم يقدر على الكلام فنصحوه بزيارة أبي الحسن علي بن إسماعيل أحد أولياء فاس المشهورين، فدعا الولي للابن بالشفاء فنطق لسانه بالكلام. ومن الأولياء الصالحين ذوي الشهرة الواسعة ببلاد المغرب أبو يعزي يلنور (٥٧٢هـ/١١٧٨م) الذي لعب دورًا مهمًا على المستوى الاجتماعي فكان يصلح بين الأزواج ويسعى لتزويج النساء ومباركتهن، تذكر المصادر في حديثها عنه: "وكان عنده من حسن السياسة والرفق بالقلوب والسعي في صلاح ذات البين وتواد الزوجين ما تشتهي سماعه الأنفس... فقلما كانت تهدى عروس من أهل تلك البلاد المجاورة لبعلها حتى يؤتى بها إليه برسم الدعاء لهما والتبرك عليهما فيفعل ذلك يكلمهما حتى يذهب النفار والشراد ويسرهما ويضحكهما حتى يقوم بينهما من الأنس والتأليف المأمول والمراد، وينصرفا إلى بيت أبنائهما"، ومن أعماله التي دونتها الكتب أيضا قدرته على إرجاع بصر رجل مسن بواسطة قطعة من القماش من برنسه الذي احترق وكذلك معالجته للمرض مثل العضال والإسهال والأمراض الجلدية وداء البرص والقرع وغيرها كثير(٤٥). هذا ولم يقتصر اعتقاد سكان المغرب على الأولياء الأحياء فقط وإنما تجاوزوا ذلك فمنهم من يستشفي بتراب قبور بعض الأولياء.

كما كانت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سببًا مفصليًا في ارتفاع نسبة الإقبال على الأولياء والمتصوفين، فعندما طالت فترة الجفاف بمدينة فاس لجأ العوام إلى الشيخ يعلي أبي جبل ليدعو لهم بنزول المطر، وكذلك عند انتشار الجراد.

(١/٢) ٢-الخرافات والأساطير

صاحبت الاعتقاد بالصالحين مجموعة من القصص الخرافية التي تناقلها البربر على مر السنوات مثل قصة الرجل المقتول في الطريق المؤدي إلى بسكرة في الجبل المعروف بـ"زيغيري" في وسط كهف ولا يزال دمه يقطر بالرغم من مرور زمن طويل على قتله، وكذلك بالقرب من جبل تبسة مرتفع يعرف بـ"الكتف" وفي أعلاه مغارة لا يُقدر على الوصول إليها لا من فوق الجبل ولا من تحته، يقال إن فيها مالا عظيما وأن الطير إذا نزلت في تلك المغارة وطارت سقطت منها دنانير كبار من الذهب وهذا متعارف عليه في تلك البلاد[٤٦].

وفي ما يتعلق بالمقدسات المرتبطة بالمياه فقد ورد أنه يوجد بين جيجل وبجاية موضع يسمى المنصورية عليه جبل عظيم ينبعث منه ماء في "كل وقت من الأوقات المعهودة بالصلوات الخمس، ينبعث الماء هكذا ليلاً ونهارًا"، قصدت أغلب شرائح المجتمع المغربي منابع المياه المباركة اعتقادا منهم في نجاعة مياهها في الشفاء وتطهير الأبدان وفي هذا السياق تشير المصادر إلى أن البربر المجاورين لأحد عيون المياه بمغارة بلاد فازاز إذا أرادوا معرفة شفاء المريض أو موته حملوه لرأس العين، فيغطسونه فيها حتى يقرب أن يطفو ثم يخرجونه فإن خرج على فمه دم يستبشرون بحياته وإن لم يخرج من فمه دم أيقنوا هلاكه وهذا بالنسبة إليهم محتوم لا جدال ولا شك فيه[٤٧].

كما كانت الفتيات العوانس الراغبات بالزواج في بعض مناطق المغرب يتوجّهن إلى منابع المياه المعروفة لتسهيل زواجهن وتيسيره مثل عين "للا رحمة" في منطقة ابزو التي تقع على جبل شاهق من جبال الأطلس الكبير، وحسب العرف الجاري يغتسلن في مائها ويتركن بعض ملابسهن الداخلية وخصلات من شعرهن والمشط بعد أن يوقدن الشموع ويضعن بعض قطع السكر والتمر بالمكان، وقبل كل هذا يقمن بنثر "البسيسة" في مدخل العين وهذا التقليد سار للفترة المعاصرة[٤٨]. وفي مسألة التنبؤ بالمستقبل خاصة تسهيل الزواج والإنجاب اشتهرت عدة نساء صالحات متصوفات زاهدات واختصت في هذا الأمر منهن "لالة مغنية الفاسية" والصالحة "لالة سيتي" التي لها كرامات تشهد لها مما جعل ضريحها محل استقطاب وتبرك وفي حياتها كانت تفرض الزيارة على البنت العانس فقط خشوعا وتضرعا لأهل المكان لقضاء حاجتها.

٢/٢-توظيف التصوف في الحياة السياسية

يبدو أن هذا الإيمان المطلق بالصالحين ومعجزاتهم علاوة على سذاجة عقول البربر وبساطتها قادهم إلى المحظور وجعلهم فريسة سهلة الابتلاع في يد بعض الزعماء السياسيين الدهاة، وخير مثال على ذلك الداعية المهدي بن تومرت مؤسس الدولة الموحدية وباعثها حيث استغل بساطة فهمهم للمعتقد الديني وتصديقهم لكل ما يسمعون خاصة وأنهم أميون لا يفقهون شيئا عن القراءة والكتابة، ولا يغادرون جبالهم ولا يخالطون أي غريب منغلقين لحد التزمت، فنزل عندهم ابن تومرت بعد عودته من رحلته العلمية في المشرق واستقر بينهم لنشر دعوته وهو مدرك جيدا لنقاط ضعفهم وطباعهم الحادة فاستمالهم بالكذب والدهاء واستعملهم لبلوغ غايته المنشودة وهي الإحاطة بدولة المرابطين وتأسيس دولته، ورسم لذلك العديد من الخطط بمساعدة أصدقائه المقربين منها أنه اتفق مع صديقه المقرب عبد الله الونشريسي ليخفي ما هو عليه من علم وفصاحة ويظهر الغباء والسذاجة ليطلع على أسرار السكان وأحوالهم ويفصح عن ذلك عندما يطلب منه ابن تومرت بعد قراءة بعض التعويذات والطقوس فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويؤمنون بدعوته، فأتقن الونشريسي الخداع والدجل وانطلت الحيلة عليهم، إضافة إلى هذا بلغ به الحد أن أمر بعض التابعين له بحفر القبور ودفن أنفسهم فيها والإبقاء فقط على الأنف والفم لتنفس والكلام، فيصطحب جماعته للمقبرة ويزعم أنه يحدّث الموتى وهم يجيبونه وعند الانصراف يأمر بإكمال دفنهم احتياط منهم في كشف سره يوما ما[٤٩]،ما دفع البعض من قومه لنفي الصفة البشرية عنه وأنزلوه منزلة الرسل بعد أن نسب إلى نفسه صفة المهدي المنتظر.

يمكن أن نرجح هنا أن دخول الإسلام لبلاد المغرب لم يشمل بعض المناطق الداخلية خاصة الجبلية الوعرة والتي تقطن بها في نفس الوقت أشرس القبائل البربرية مثل المصامدة فهم لا يسمعون لغاز ولا وارد عليهم ولا يختلطون بأية أقوام أخرى وفي بعض الأحيان لا ينزلون من جبالهم إلا للحاجة الشديدة فهم منعزلون تماما عن العالم الخارجي، فعندما وصلت جيوش صنهاجة الجنوب لتطهير المغرب من الشوائب

الدينية وجدوا قبيلة برغواطة لا تعرف شيئا عن الإسلام ومبادئه ووجدوا أفرادها منغمسين في الجاهلية، حيث ادعى أحد أفرادها وهو صالح بن ظريف بن شمعون البرباطي النبوة، فأصبحت كلمة برباطي تطلق على كل من اعتنق مذهبه ثم حُرفت إلى برغواطي نسبة إلى قبيلة برغواطة المصمودية وهم عشائر وبطون كثيرة تجمعها وحدة الأصل، ويعتقد بربر هذه القبيلة أن صالح بن ظريف هو المقصود في سورة التحريم:" وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير"[٥٠]. وزعم صالح أنه كذلك المهدي المنتظر الذي يظهر في أخر الزمان لقتال المسيح الدجال وإن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه، وأمر قومه بإتباع شريعته التي ضمنها صوم شهر رجب بدل رمضان وأَضاف إلى طريقة الوضوء المعمول بها في الإسلام غسل الصرة والخاصرتين، وفرض عليهم خمس صلوات في الليل وخمسا في النهار وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود، وأباح لهم تزوج النساء أكثر من أربع وأباح لهم الطلاق وحرم عليهم زواج بنت العم وزواج المسلمات وشرّع قتل السارق ورجم الزاني ونفي الكاذب، وحرم ذبح الديك والبيض عندهم حرام ولا يجوز أكله حتى أن المرابطين حين وصلوا بلادهم ذُهلوا من كمية البيض الموجودة وكثرة الديوك والدجاج، وليس عندهم أذان ولا إقامة يعرفون قدوم الصبح بصياح الديوك[٥١].

ومن جهة أخرى استغل بعض خلفاء بلاد المغرب نفوذ أصحاب هذا الاتجاه الديني وتأثيرهم لتحقيق شعبية أكبر بالتقرب منهم واستقطابهم والثناء عليهم بالعطايا والهدايا لأغراض سياسية، وأبرزهم المنصور الموحدي الذي أمر بجمع الصالحين والمتصوفين من جميع البلاد في حملته الكبرى ضد الأندلس متبركا بهم لتحقيق النصر، وفي حديث أخر بلغ به الأمر في تكريم أحد المتصوفين إلى أن توجه إليه بنفسه وصعد إليه الجبل مع جمع من الفقهاء والتابعين والصالحين للتبرك به حتى نزل معه وحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس وزاوية للفقراء ودارًا لسكناه[٥٢].

خَاتِمَةٌ

حاولنا في هذا البحث تقديم لمحة عن علاقة الأمازيغ بالديانات التي مرت بهم من وثنية ومسيحية ويهودية حتى قدوم الفتح الإسلامي، فتميزت الفترة القديمة بمحاولات الحضارات الغازية فرض ثقافتها وديانتها على بربر شمال إفريقيا، وهو ما فشلت فيه بسبب سوء معاملتها واضطهادها لهم، وفي نفس الوقت استغل البربر هذه السياسة التعسفية لصالحهم للانقلاب على الحكم الروماني والبيزنطي في شكل حروب دامية متواصلة. ومع وصول العنصر العربي أمل البربر في العدل الاجتماعي والمساواة ولكن جور الولاة حال دون ذلك وقُسمت بلاد المغرب من جديد، كل هذه الثغرات والتجاوزات التي ارتكبها أصحاب الدين الرسمي أدت آليا إلى زيادة نفوذ التدين الشعبي عند بربر بلاد المغرب فكان ملجأهم الوحيد لقضاء الحاجات والطلبات، علاوة على شعور الأمان والطمأنينة الذي يجدونه في هذه الأماكن ويفقدونه مع الدين الرسمي القائم.

وعلى الصعيد الاجتماعي يمكن أن نستنتج من ارتفاع وتيرة الزيارات للأماكن المقدسة والإيمان بالخوارق والمعجزات تعمّق أزمة الأمية والجهل عند البربر خاصةً الذين لم يصلهم الإسلام وهم المنعزلون في مواطنهم الجبلية والريفية البعيدة والوعرة، مما جعلهم أداة ووسيلة للسياسيين الطغاة الذين استغلوا سذاجة تفكيرهم وبساطة عيشهم للاستحواذ على عقولهم وقيام الدول على أكتافهم.

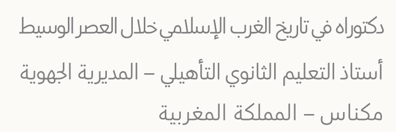
الاحالات المرجعية:

(١) عمامو (حياة)، **أسلمة بلاد المغرب**، دار الأمل للنشر والتوزيع، تونس ٢٠٠٤، ص٢٢.
(٢) إكزال (ستيفان)، **تاريخ شمال إفريقيا قديما**، ترجمة محمد التازي سعود، ج١، مطبعة المعارف الجديدة، ط١، المغرب، ٢٠٠٧، ص ٢٠٩.
(٣) كامبس (كبريال)، **البربر ذاكرة وهوية**، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٤، ص ٢٤١-٢٤٢.
(٤) اكزال (ستيفان)، المرجع نفسه، **تاريخ شمال**...، ص ٢٠٩.
(٥) كامبس (كبريال)، المصدر نفسه، **البربر ذاكرة**...، ص ٢٤٩-٢٥٩.
(٦) الإفريقي (ليون)، **وصف إفريقية**، ترجمة حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٦.
(٧) محي شرف الدين (محمد)، **إفريقيا الشمالية في العصر القديم**، دار الكتب العربية، ط٤، ١٩٦٩، ص٤٦.
(٨) روني، **أبحاث في دين الأمازيغ**، ترجمة وتقديم حمو بوشخار، الرباط، ٢٠١٢، ص ١٠٦.
(٩) محمد الصلابي (علي)، **صفحات تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي**، دار البيارق، الأردن، ط١، ١٩٩٨، ص ١٢٢-١٢١.
(١٠) المدني (أحمد توفيق)، **قرطاجن في أربعة عصور**، طبعة تونس، ١٩٢٦، ص ١١٤-١١٧.
(١١) المرجع نفسه.
(١٢) عبد الحميد (عمران)، **الديانة المسيحية في المغرب القديم-النشأة والتطور (١٨٠-٤٣٠م)**، رسالة دكتوراه، جامعة منتوري-قسنطينة، الجزائر، ٢٠١١، ص ١٠٠.
(١٣) حارش، **التاريخ المغاربي القديم، السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي**، المؤسسة الجزائرية، ١٩٩٢، ص ٢٢٤.
(١٤) خطاب (محمود شيت)، **قادة فتح المغرب العربي**، ج١، دار الفكر، بيروت، ط٧، ١٩٨٤، ص ٣٩-٤٠.
(١٥) حارش، المرجع نفسه، **التاريخ المغاربي**...، ص ٢٢٤-٢٢٥.
(١٦) المدني (أحمد توفيق)، المرجع نفسه، **قرطاجن في أربعة**...، ص ١١٣.
(١٧) حارش، المرجع نفسه، **التاريخ المغاربي**...، ص ٢٢٧-٢٢٨.
(١٨) بل (ألفرد)، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم**، ترجمة: عبد الرحمان بدوي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨١، ص ٦٠.
(١٩) مؤنس (حسين)، **فتح العرب للمغرب**، دار الثقافة الدينية، مصر ص ١٤-١٥.
(٢٠) مؤنس (حسين)، **فتح العرب للمغرب**، دار الثقافة الدينية، مصر ص ٢٣-٢٤.
(٢١) ابن خلدون (عبد الرحمان)، **العبر**، ضبطه خليل شحادة، راجعه سهيل زكار، دار الفكر لط، ن، ت، ٢٠٠١، ج٦، ص ١٢٦.
(٢٢) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح ج.س كولان وليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ج١، ص ٢٤.
(٢٣) الدباغ (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الأنصاري)، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تعلق وتحقيق أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى ومحمد الأحمدي أبو النور، مكتبة الخانجي، مصر، المكتبة العتيقة، تونس، ج١، ص ٢٧.
(٢٤) مؤنس (حسين)، المرجع نفسه، **فتح العرب**...، ص ٢٧٥.
(٢٥) طه الحاجري (محمد)، **دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ط١، ص ٣٧.
(٢٦) هويدى (يحيي)، **تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية**، ج١، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥، ص ١٤٥.
(٢٧) ابن عذاري، المصدر نفسه، البيان...، ج١، ص ٢٤-٤٢.
(٢٨) المالكي (أبو بكر)، **رياض النفوس في طبقات علماء إفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم**، تح : بشير البكوش، مر: محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ١٩٩٤، ط١، ج١، ص 255.
(٢٩) ابن خلدون، المصدر نفسه، **العبر**، ج ٦، ص ١٠٨.
(٣٠) مؤنس (حسين)، المرجع نفسه، **فتح العرب**...، ص ١٧٦.
(٣١) المرجع نفسه، ص ٢٢٠.
(٣٢) المالكي، المصدر نفسه، **رياض النفوس**...، ج١، ص ١١٦.
(٣٣) ابن عذاري، المصدر نفسه، **البيان**، ج١، ص ٤٨.
(٣٤) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ج١، ص ٢٨٠.
(٣٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، راجعه وحققه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ط١، ج٥، ص ١٠١.
(٣٦) الرقيق القيرواني (أبو إسحاق)، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تح: عبد الله العلي الزيدان وعزالدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ط١، ص ١٠٩.
(٣٧) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه، **فتوح مصر**...، ص ٢٩٣.
(٣٨) العقبي (صلاح مؤيد)، **الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشأتها**، دار البراق، بيروت-لبنان، ٢٠٠٢، ص ٣٠١-٣٠٢.
(٣٩) ابن مرزوق التلمساني (محمد)، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، تح: ماريا خيسوس، تق: محمد بو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص ٤١١-٤١٣.
(٤٠) البوعبدلي (المهدي)، "**الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى**"، مجلة الأصالة الجزائرية، العدد ١٣، الجزائر، ١٩٧٣، ص ٢٦.
(٤١) البكري (أبو عبيد الله)، **المسالك والممالك**، تح: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢، ص ٧٧٦.
(٤٢) ابن قنفذ (أبو العباس)، **أنس الفقير وعز الحقير**، تصحيح: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، ١٩٦٥، ص ٦٣.
(٤٣) عويس (عبد الحليم)، **دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري**، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٤٢.
(٤٤) الدرجيني (أبو العباس)، **طبقات المشائخ بالمغرب**، تح: الشيخ إبراهيم محمد طلاى، مكتبة التراث، الجزائر، ج٢، ص ١٩٨-٢٠٥.
(٤٥) عبد الرؤوف (أحمد)، **الدلالات التاريخية لكرامات الأولياء بتلمسان الزيانية**، مذكرة ماجستير، عبد الحميد العابد، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي، ٢٠١٥، ص ٨٤.
(٤٦) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق عبد الحميد سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، ص ١٦٣-١٧٨.
(٤٧) الجزنائي (علي)، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تح: عبد الوهاب بن منصور، المكتبة الملكية، الرباط، ١٩٩١، ص ٧٣-٧٤.
(٤٨) فرحات (المصطفى)، **طقوس وعادات أهل "أبزو"**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٧، ص ٣٤.
(٤٩) ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج٥، تح: إحسان عباس، دار صابر، بيروت، د-ت، ص ٤٨.
(٥١) مجهول، **مفاخر البربر**، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، ٢٠٠٥، ص ٧٧.
(٥٢) المراكشي (عبد الواحد)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: محمد سعيد العريان، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٨٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

مجال وادي نول في خريطة التجارة الصحراوية خلال العصر الوسيط ق ٥ - ٦ هـ/ ١١ - ١٢م





د. المحجوب قدار

دكتوراه في تاريخ الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي – المديرية الجهوية

مكناس – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

ارتبط ازدهار تجارة القوافل الصحراوية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط بالعديد من المراكز التجارية النشيطة، التي انتشرت على طول شبكة التجارة الصحراوية الرابطة بين طرفي الصحراء الكبرى، وبين هذه الأخيرة والمدن الساحلية المتوسطية ومنها نحو شمال المتوسط. وقد شكل مجال وادي نول إحدى تلك المراكز التي بصمت خلال الفترة الوسيطية على أدوار مهمة في التجارة الدولية في غرب المتوسط، فقد أهلها موقعها الوسطي بين عدة مراكز مهمة مثل سلجماسة وأوداغست لتصنف ضمن المراكز الحيوية في الحركة المرورية، لا سيما مع موقعها المتقدم في طرف الصحراء الشمالي قبل حاضرة سجلماسة. وإذا أضفنا إلى موقع نول الاستراتيجي خصوصيات موضعها المتميز سنكون أمام مجال مؤهل لاستقطاب عدة عناصر بشرية، وهكذا شهدت المنطقة بروز مدينة نول لمطة التي واكب نموها النمو التجاري والاقتصادي للغرب الإسلامي عمومًا خلال الفترة الوسيطية عمومًا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين. وتروم هذه الدراسة تتبع إسهام مجال وادي نول في التجارة الدولية في غرب المتوسط خلال العصر الوسيط، من خلال إبراز مؤهلات الموقع والموضع التي تختص بها المنطقة، وبيان دورها في إشعاع هذا المجال خلال الفترة الوسيطية، ثم محاولة توضيح عوامل تراجعها. إذا كان العامل التجاري قد تحكم في نشأة مدينة نول لمطة في هذا الموقع خلال القرن الخامس أو السادس الهجري، فتدهورها وتراجع مكانتها من مسرح الخريطة التجارية مع نهاية القرن السادس الهجري يعزى إلى دواعي سياسية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٤	أبريل	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	١٥	مايو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

تاريخ الغرب الإسلامي؛ وادي نول؛ نول لمطة؛ التجارة الصحراوية؛ القوافل التجارية؛ التاريخ الاقتصادي والاجتماعي

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.245814

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

المحجوب قدار. "مجال وادي نول في خريطة التجارة الصحراوية خلال العصر الوسيط ق ٥ - ٦ هـ/ ١١ - ١٢م".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٢٥ – ٣٠.

Corresponding author: elmahjoubkeddar@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

شهدت تجارة القوافل الصحراوية في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط ازدهارًا ملحوظًا، الشيء الذي جعلها محط اهتمام الأسر المتطلعة إلى حكم المنطقة خلال تلك الفترة. وقد أسهمت تلك التجارة في تنشيط العديد من المراكز التجارية التي انتشرت على طول شبكة التجارة الصحراوية الرابطة بين طرفي الصحراء الكبرى، وبين هذه الأخيرة والمدن الساحلية المتوسطية ومنها نحو شمال المتوسط. ويشكل مجال وادي نول إحدى تلك المراكز التي بصمت خلال الفترة الوسيطية على أدوار مهمة في التجارة نحو السودان، فقد أهلها موقعها الوسطي بين عدة مراكز مهمة كسلجماسة وأوداغست لتصنف ضمن المراكز الحيوية في الحركة المرورية، لا سيما وأنها تحتل موقعا متقدما في طرف الصحراء الشمالي قبل حاضرة سجلماسة. وإذا أضفنا إلى موقع وادي نول الاستراتيجي خصوصيات موضعه المتميز سنكون أمام مجال مؤهل لاستقطاب عدة عناصر بشرية، وهكذا شهدت المنطقة بروز مدينة نول لمطة التي واكب نموها النمو التجاري والاقتصادي للمنطقة والغرب الإسلامي عمومًا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. وإذا كانت الإشارات الواردة في المصادر حول مجال وادي نول قليلة بالمقارنة مع ما أوردته حول سجلماسة مثلا، فإنها مع ذلك وعلى قلتها تُبرز أهمية هذا المجال في السيرورة الاقتصادية للمغرب الأقصى وعموم الغرب الإسلامي، لا سيما وأن نول شكلت قاعدة سوس الكبرى. وتروم هذه الدراسة تتبع إسهام مجال وادي نول في التجارة الدولية في غرب المتوسط خلال العصر الوسيط، من خلال إبراز مؤهلات الموقع والموضع التي تختص بها المنطقة، وبيان دورها في إشعاع هذا المجال خلال الفترة الوسيطية، ثم محاولة توضيح عوامل تراجعها.

أولاً: وادي نول (المجال والأهمية التاريخية)

ارتبط انتقال الإنسان إلى طور الاستقرار بنقط تواجد المياه، كما هو الحال بالنسبة للحضارات القديمة مثل حضارتي بلاد الرافدين ومصر القديمة، لذلك ليس من المستغرب أن تعرف بعض المناطق بأسماء أودية معينة، وهذا حال منطقة وادي نول ووادي درعة وغيرها من الأودية. فدلالة الاسم في الحالات الأخيرة يتجاوز الوادي بشكله الطبغرافي إلى ما يرتبط به من استقرار بشري وما يرافقه من نظم اقتصادية واجتماعية. فما هو التحديد الجغرافي لوادي نول؟

يكتسي التحديد الجغرافي للمجال المدروس أهمية كبيرة في الدراسة التاريخية، لكن هذا المبحث غالبا ما يطرح صعوبات جمة للباحث في مواضيع العصر الوسيط، وتعزى تلك الصعوبات إلى ندرة الإشارات المصدرية الخاصة بالتحديد المجالي، وفي حالة إثباتها من قبل بعضهم فغالبا ما توقع الباحث في حيرة من أمره بفعل تضاربها، وطابعها الفضفاض أحيانًا، فضلاً عن مشكل الطبونيميا أو الأماكنية المرتبطة بالمجال، فكثيرا ما تتم الإشارة إلى نفس المجال بتسميات متعددة قد تكون متقاربة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى، مع قد يطرأ على أسماء الأماكن من تغيير من فترة إلى أخرى؛ ويرتبط جزء كبير من هذه الإشكالات بطبيعة التصنيف الجغرافي والتاريخي الذي يغلب عليه الطابع الاخباري.

تربط جل المصادر موقع مجال نول بجنوب المغرب الأقصى والصحراء[١]، لكن يبقى هذا التحديد غير دقيق، مما يجعل معرفتنا بحدود مجال نول وفق الإشارات المصدرية بعيد المنال، لا سيما مع التداخل الحاصل في تلك الإشارات، فتسمية نول لم تقتصر على اسم وادي[٢]، بل أطلقها البعض على اسم مدينة[٣]، بينما ربطها البعض الآخر باسم مجال أكبر[٤]. ولعل هذا ما يدفعنا إلى ضرورة التمييز بين مدينة نول المركز الحضري الذي شهدته المنطقة وبين بلاد نول أول إقليم وادي نول[٥]، الذي أخذ اسمه في الغالب من اسم المدينة، وذلك بناء على إشارة البكري الذي أشار إلى نول ونهرها[٦]. الأكثر من ذلك أن إقليم نول يدخل بدوره ضمن تقسيم ترابي آخر، هو بلاد السوس الأقصى، حيث اعتبر ابن خلدون بلاد نول قاعدة بلاد السوس[٧]، ويتقاطع معه ابن أبي زرع الذي أدخل بلاد نول ضمن إطار أوسع هو السوس الأقصى[٨]، ويعتبر الإدريسي نول "مدينة كبيرة عامرة على نهر يأتي إليها من جهة المشرق وعليه قبائل لمتونة ولمطة"[٩]، بينما نجده في المقابل يميز بين نول الغربية ونول الشرقية، ويجعل بين نول الغربية والبحر ثلاثة أيام[١٠].

ويستشف من نص ابن سعيد أن وادي نول قد حاز شهرة كبيرة وقتئذ في هذا المجال الواسع من الصحراء[١١]، لكن يبدو أن ما أعطى للمنطقة شهرتها ليس الوادي لوحده بل حاضرة نول التي وصفها الادريسي بأنها مدينة كبيرة عامرة[١٢]، وإن كان المراكشي قد نقص من حجم المدينة، "ومدينة لمطة فلا يسافر إليهما إلا أهلهما خاصة"[١٣]. وربما هذا ما جعل البعض يعتبرها "آخر مدن الإسلام من ناحية جنوب المغرب الأقصى، وأوّل العمران الصحراء"[١٤].

وغني عن القول إن المنطقة قد لعبت أدورًا مهمة في تاريخ المغرب بدءا باحتضانها لتجمع قبلي مهم[١٥]، إذ يطالعنا الإدريسي أن بلاد نول الأقصى هي بلاد لمتونة الصحراء ولمطة[١٦]. وإنما سميت مدينة نول لمطة "لأن قبيلة لمطة يسكنونها وما وراءها وهي آخر بلاد السوس"[١٧]. أما ابن أبي زرع فيشير إلى أن قبائل صنهاجة تعمر هذا المجال الشاسع، وهي سبعين قبيلة تمتد بين "حوز بلادهم في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولا ومسيرة أربعة أشهر عرضا من نول لمطة إلى قبلة القيروان من بلاد إفريقية"[١٨].

وارتباطا بالدور التاريخي لبلاد نول فقد سجلت هذه الأخيرة حضورها منذ ما قبل الميلاد، ففضلاً عن أدوارها التاريخية في الحقبة القديمة مع الفينيقيين والقرطاجيين، فقد دخلت المدينة ضمن نفوذ الأدارسة، كما شكلت جزءا من المجال الشاسع للدولتين المرابطية والموحدية[١٩]. وفي أواخر الدولة الموحدية خرجت المنطقة عن طوع الموحدين وآلت إلى علي بن يدر بالسوس الذي جاهر بالخلاف سنة ٦٥١ هـ، واستطاع أن يفرض سيطرته على بلاد السوس، وأطاعته قبائل كزولة وزكن ولخس من شعوب لمطة وصناكة، لكن بعدما تمكن المرينيون من حكم المغرب استطاعوا ضم المنطقة لحكمهم، فظلت المنطقة تحت الحكم المريني[٢٠].

من جهة أخرى ارتبط اسم بلاد نول في الاسطوغرافيا الوسيطية بالتحديد الجغرافي لنفوذ الدول الوسيطية، لا سيما وأنها تقع في أقصى الطرف الغربي لبلاد الإسلام المطل على البحر المحيط؛ وفي هذا الصدد يوظف ابن أبي زرع بلاد نول لتحديد نفوذ الدولة الموحدية والتي تمتد "من بلاد افريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى"[٢١]. وللتدليل على الأمن الذي ساد في عهد الخليفة الموحدي أبو يوسف تشير النصوص إلى أن "الظغينة تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل برقة وحدها لا ترى من يعارضها ولا يكلمها"[٢٢].

لكن وادي نول اليوم أصبح يعرف بوداي نون، والظاهر أن الاسم قد عرف تحريفا بسيطا في نطقه، فأضحت اللام تنطق نونا[٢٣]، ويتحدد موقع هذا المجال من منتهى أرض السوس عند قدم النهاية الجنوبية الغربية للأطلس الصغير، إلى الجنوب على هامش الصحراء الإفريقية الكبرى[٢٤].

ثانيًا: موقع مجال وادي نول في شبكة طرق القوافل التجارية

تجمع المصادر التاريخية والجغرافية على أهمية تجارة القوافل الصحراوية الرابطة بين طرفي الصحراء الكبرى في التاريخ العام للمنطقة عموما خلال العصر الوسيط، إذ لم تسهم تلك التجارة في تنشيط الحركة الاقتصادية في المنطقة فحسب بل كانت سببًا في نمو عدة مراكز حضرية على طول شبكة خطوط التجارة الصحراوية مثل سجلماسة ونول لمطة في الطرف الشمالي للصحراء، وحاضرة أوداغست في طرفها الجنوبي. ونظر لطبيعة الأرباح التي ارتبطت بهذه التجارة البعيدة المدى فقد كانت محط أطماع القوى السياسية، التي حاولت السيطرة عليها ثم تأمين طرقها.

في هذا الإطار استطاعت منطقة وادي نول أن تكتسب مكانة مهمة ضمن محاور تجارة القوافل الصحراوية، فموقعها العرضي على بوابة الصحراء الكبرى جعلها نقطة مرورية محورية، لكن الواقع أن أهميتها التجارية لم تبدأ مع الحقبة الوسيطية بل استطاعت المنطقة أن تجذب التجار الفينيقيين الذي ربطوا علاقات تجارية مع سكان المنطقة منذ القرن ١٢ ق. م وإلى حدود القرن ٦ ق.م، في إطار رحلاتهم التجارية في غرب المتوسط والتي قادتهم نحو السواحل الجنوبية للمغرب الأقصى[٢٥]. واستمرت المنطقة بعد ذلك تستقبل كل من القرطاجيين والرومان[٢٦]، مما يفيد أن المنطقة قد راكمت خبرة تجارية مهمة عبر التعامل مع ثقافات متعددة بما فيها سكان إفريقيا جنوب الصحراء، في إطار تجارة الوساطة التي درت عليهم أموالاً كبيرة.

لكن يبدو أن منطقة وادي نول خلال الفترة الوسيطية لم تكن أقل حظا من الناحية التجارية مقارنة بالفترة القديمة، لا سيما مع ازدهار قوافل التجارة الصحراوية العابرة للصحراء الكبرى، مما أسهم في الزيادة من إشعاع المنطقة اقتصاديا وسياسيا. فمعظم أخبار المصادر حول المنطقة خلال الحقبة الوسيطية تؤكد على الأهمية التجارية لوادي نول. ويبدو أن المنطقة وبالنظر لموقعها الوسطي وموضعها الواحي قد كانت مؤهلة لاحتضان مركز حضري يستفيد من الحركة التجارية النشيطة مع بلاد السودان، وهكذا ظهرت إلى الساحة مدينة ناشئة هي مدينة نول لمطة، نسبة إلى قبائل لمطة التي كانت تعمر المنطقة. وبالرغم من أننا لا نعلم تاريخ نشأة هذه الحاضرة على وجه التدقيق إلا أن الواضح أن نشأتها كانت بين القرنين الرابع والخامس الهجريين، فصاحب كتاب البلدان الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي لم يشر إلى أي مدينة بهذا الاسم في هذه المنطقة علما أنه قام بجرد مختلف المراكز المنتشرة في هذا المجال الصحراوي خاصة المؤدية إلى بلاد السودان، لكنه أشار في المقابل إلى قوم لمطة بين زويلة

ومدينة كوار[٢٧]، والأمر نفسه بالنسبة لابن حوقل الذي تحدث عن لمطة ولم يورد اسم نول سواء كوادي أو كبلاد أو مدينة[٢٨]، وكلاهما أي اليعقوبي وابن حوقل أكدا على اشتهار المنطقة بالدرق اللمطية[٢٩]. لكن اسم المدينة بدأ يتردد في المصادر مع حلول القرن الخامس الهجري الحادي عشر كمدينة مهمة[٣٠]. وبالمثل لا نجد ذكرا لوادي نول ضمن الاسطوغرافيا السابقة للقرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي مما يفيد بأن وادي نول قد أخذ اسمه من اسم المدينة الناشئة، لكونها قد أنشأت على ضفافه.

ولا شك أن ارتباط نشأة مدينة نول بهذه الفترة ليس أمرًا غريبًا، فمعظم مدن الغرب الإسلامي إنما نشأت خلال الفترة الوسيطية تبعا لدواعي سياسية أو تجارية أو مذهبية. ومن المؤكد أن تأسيس مدينة نول لمطة لم يخرج عن هذا الإطار، وإن كنا نرجح أن ازدهار الحركة التجارية الصحراوية قد كان عاملا محفزا لظهور المدينة في هذا التوقيت بالذات إلى جانب عوامل أخرى قبلية وسياسية.

إن الاطلاع على النصوص التي تتحدث عن دور المنطقة في تجارة القوافل الصحراوية خلال الفترة الوسيطية يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك محورية المنطقة ضمن شبكة طرق التجارة الصحراوية، إذ يستشف من نص اليعقوبي أن المجموعة القبلية لمطة كانت تضطلع بدور مهم في هذه التجارة، ففضلا عن كونها منطقة مرورية تتوسط زويلة ومدينة كورا فإنها اشتهرت في الدرق اللمطية البيض التي شكلت بدورها إحدى السلع الرائجة في تلك التجارة[٣١]. وفي سياق حديثه عن المراكز الصحراوية وشبكة طرق القوافل يطالعنا ابن حوقل عن أهمية موقع لمطة وأهميتها المحورية في طريق سجلماسة شمالاً وأداغست جنوبًا[٣٢].

وبظهور مدينة نول لمطة أضحت للمنطقة إشعاع أكبر، ظهر من خلال تعدد نقط الاتصال بالمدينة شمالاً وجنوبًا، إذ يبدو أن المنطقة قد شهدت نشأة عدة مراكز أخرى[٣٣]، لكن الظاهر أن مدينة نول لمطة برزت كقاعدة أساسية في التجارة الصحراوية، وهذا ما يظهر على الأقل في حديث المصادر عن المسافات بين المراكز التجارية، فوفقا للبكري فنول تبعد عن درعة بثلاث مراحل[٣٤،٣٥]، بينما تبعد عن سجلماسة بحوالي ثلاثة عشر مرحلة[٣٦]، ومن "وادي السوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل في عمارة جزولة ولمطة"[٣٧]، أما تينزرت فتقع إلى الشرق من نول[٣٨].

كما أن موقعها كأهم مدينة على بوابة الصحراء الكبرى أعطى لها أهمية خاصة عبر اتخاذها كمركز للتزود بأهم الحاجيات من أجل الرحلة في الصحراء، إذ وصفها بعضهم بأنها "آخر بلد الإسلام وأوّل العمران من الصحراء"[٣٩]، كما أن المراكب تنتهي إلى وراء ساحل نول ولا تجاوزه"[٤٠]. وبالإضافة إلى أهمية موقعها في تجارة القوافل استطاعت المنطقة أن تنشط على مستوى التجارة البحرية، إذ يشرف مجالها على ساحل البحر المحيط، مما أهلها لربط علاقات تجارية بحرية مع بلاد السوس التي تفصلها عنها مسافة ثلاثة أيام بحرا[٤١].

وإلى جانب حاضرة نول لمطة ظهرت مدينة أخرى لقبيلة لمطة هي أزقى أو أزكى[٤٢]، واعتبرها الحميري أولى مراقي الصحراء، وتبعد عن نول بسبع مراحل، وهي ليست بالكبيرة ولكنها متحضرة، كما أنها اكتست قيمة تجارية مهمة، إذ "لا بد من الدخول على هذه المدينة لمن أراد تكرور وغانة من بلاد السودان"[٤٣]، إلى جانب مدينة تِينَزَرْتُ التي تقع إلى الشرق من نول، وتشكل بدورها مركزًا لتجمع التجار لمعاملة البربر[٤٤].

ثالثًا: مؤهلات مجال وادي نول وإسهامها في التجارة الصحراوية

لم تكتسب منطقة وادي نول أهميتها انطلاقًا من موقعها الاستراتيجي في طريق القوافل التجارية الصحراوية فحسب، بل إن عوامل متعددة قد أسهمت في تنشيط المنطقة برمتها خلال الفترة الوسيطية، صحيح أن ازدهار تجارة السودان خلال هذه الفترة قد أفرز ولادة مجموعة من المراكز الحضرية مثل نول لمطة، وسرع من إشعاع المنطقة في الجنوب المغربي، لكن لا ننسى أن علاقة المنطقة مع التجارة تسبق هذه المرحلة بقرون عديدة، مما يعني أن هذا المجال الصحراوي قد وفر مقومات أخرى أهلته للتعاملات التي اقتضتها عملية التبادل التجاري، فأين تتجلى مؤهلات المنطقة الفلاحية والحرفية.

يتأسس قيام أي النشاط التجاري على الإنتاج الفلاحي والحرفي وسائر الموارد الطبيعية، وبتأمل مجال وادي نول سنجد أن أهم نشاط اعتاد عليه سكان المنطقة هو رعي الماشية والانتجاع، كما اشتهرت المنطقة بأنشطتها الزراعية التي مارستها على ضفاف وادي نول الذي وصفه أحد الجغرافيين بأنه "نهر كبير يصب في البحر المحيط وعليه قبائل لمطة ولمتونة"[٤٥]. لكن مع ذلك يبقى أبرز نشاط مارسه السكان هو تربية الماشية، وفي هذا الصدد تطالعنا المصادر بكثرة مواشيهم وتنوعها ومنها حيوان اللمط والأبقار والأغنام زيادة على الإبل والفنك، والأكباش الدمانية "وهي على خلقة الضأن

إلا أنها أعظم وشعرها كشعر المعز لا صوف عليها، وهي من أحسن الغنم خلقاً وألواناً"[٤٦].

أسهمت الحرف والصنائع التي مارسها سكان المنطقة بدورها في تنشيط التجارة المحلية والخارجية، وتعكس طبيعة الصنائع السائدة في وادي نول نمط الحياة السائدة والمعتمد بالأساس على الموارد المحلية، وقد استطاعت ساكنة هذه المناطق أن تطور حرفا متنوعة استفادت من الموارد المحلية وما تخلفه المواشي من جلود وصوف. غير أن أكثر ما اشتهرت به ساكنة وادي نول هو صناعة الدرق اللمطية، وقد أشار اليعقوبي إلى وجود هذه الصناعة بها قبل نشأة مدينة نول لمطة؛ ويستمد اسمها من حيوان اللمط، وهو عبارة عن "دابة دون البقر لها قرون رقاق حادة تكون لذكرانها وإناثها، وكلما كبر هذا الحيوان طال قرنه حتى يكون أزيد من أربعة أشبار، وأجود الدرق وأغلاها ثمناً ما عمل من جلود الإناث المسنات التي قد طالت قرونها لكبر سنها حتى منعت الفحل أن يعلوها"[٤٧]. وقد وصفت الدرق اللمطية التي تصنع من جلود بأنها "لا شيء أبدع منها ولا أصلب ظهراً، ولا أحسن منها صنعًا، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها"[٤٨]. كما عرفت المدينة أيضا بصناعة السروج واللجم وأقتاب الإبل[٤٩]. ويستشف من إحدى النصوص أن المنطقة كانت تصنع إلى جانب ذلك الأكسية السفسارية والبرانس التي يباع الواحد منها بخمسين دينارا[٥٠]. ولا شك أن الغنى الحرفي المميز للمنطقة هو ما جعل أحد الباحثين يصنف نول لمطة كإحدى الحواضر الصناعية في الغرب الإسلامي خلال العصر المرابطي[٥١]، فإشعاعها بلغ الآفاق كما أثبتت سلعها موقعها في السوق خاصة مع كثرة الطلب على الدروع اللمطية في مختلف أنحاء المغرب بشهادة الرحالة والجغرافيين[٥٢].

وقد أهل غنى المنطقة بثرواتها الحيوانية والزراعية ومنتوجاتها الصناعية لممارسة الاستقطاب على المناطق المجاورة، كما مثلت في الوقت ذاته محجا لها من أجل التسوق، و"إليها يلجأ أهل تلك الجهات في مهم حوائجهم"[٥٣]، مما يرجح أن المنطقة كانت نقطة ارتكاز لسكان المنطقة، حيث يتجمعون في مدينة نول لمطة مرة في السنة أو بضع مرات للتسوق في إطار مواسم، فيختلط التجاري بالقبلي والسياسي والمذهبي. كما عرف هذا المجال الصحراوي بكثرة الأسواق[٥٤]، وأخذ بعضها شكل مواسم مثل موسم ماست "وماست الّتي أضيف إليها الوادي رباط مقصود عندهم له موسم عظيم ومجمع جليل وهو مأوى للصالحين"[٥٥].

ومن الطبيعي أن يتأثر الوضع المادي للسكان خاصة بوادي نول بفعل ازدهار الحركة التجارية والحرفية، فجمعهم بين الصنائع والتجارة إلى جانب الانتجاع در على المنطقة أموالاً مهمة عادت عليهم بالرخاء، وهو ما تعكسه إحدى النصوص التي تفيد بإقبال الساكنة على الكماليات مثل العطور، وفي هذا السياق يذكر الحميري أن "الريحان في بلاد الصحراء وفي بلاد السوس عزيز لأن بلادهم لا تنبته، وهو عندهم من أطيب الطيب"[٥٦].

خَاتمِةٌ

إذا كان العامل التجاري قد تحكم في نشأة مدينة نول لمطة في هذا الموقع خلال القرن الخامس أو السادس الهجري، فتدهورها وتراجع مكانتها من مسرح الخريطة التجارية مع نهاية القرن السادس الهجري يعزى إلى دواعي سياسية، فخروج المنطقة عن طوع الموحدين في أواخر عهدهم وبروزها كإمارة مستقلة بقيادة بني يدر جعلها في مرمى القوى السياسية التي تنافست على حكم المغرب، وفي مقدمتهم القادم الجديد وهم المرينيون الذين لم يألوا جهدا في سبيل السيطرة على المنطقة برمتها، بحكم حيوتها في استمرار تدفق القوافل الصحراوية وتأمين استمرارية موارد بيت مال الدولة[٥٧]. وهو ما جعل المدينة قبلة لغارات المرينين ومسرحًا لعدة حروب، وهو ما عجل في الغالب باختفاء أهميتها التجارية لصالح مراكز أخرى، وحسبنا أن ابن خلدون لم يسم نول بالمدينة، بل اكتفى بذكر مجال وادي نول عند حديثه عن المنطقة، مما قد يحيل على اختفاء المدينة وتلاشي دورها التجاري، في المقابل نجده يتحدث عن مراكز جديدة ضمن الخريطة التجارية للمجال الصحراوي وهم بلدتا تاكاوست وايفري، وكلاهما على وادي نول، وبينهما مرحلتان، ويبدو أنهما عوضتا نول في عملية تأمين حاجيات القوافل والسلع المحلية من درق لمطية وغيرها، إذ أضحت "كاوصت محطّ الرفاق والبضائع بالقبلة، وبها سوق في يوم واحد يقصده التجار من الآفاق، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان"[٥٨].

ويحتمل أن يكون تراجع المدينة قد بدأ منذ وصول القبائل العربية إلى المنطقة مع القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، فبوصول المعقل وتغلبهم على بسائط أرض السوس بما فيها مجالات نزول لمطة اقتسموا المنطقة فيما بينهم، "فكان الشبانات أقرب إلى جبال درن، وصارت قبائل لمطة من أحلافهم، وصارت كزولة من أحلاف ذوي حسّان، والأمر على ذلك لهذا العهد"[٥٩]. ولا نستبعد أن تكون هذه الأحلاف الجديدة التي

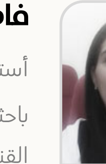
شهدتها المنطقة سببًا في تخريب مركز نول لمطة، مما جعل إشعاع المنطقة ينسحب إلى مراكز أخرى ناشئة.

الاحالات المرجعية:

(١) البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسي (ت: ٤٨٧هـ)، **المسالك والممالك**، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢ م، ج. ١، ص ٢٢١. ج ٢، ص ٧٦٢. ابن شمائل القطيعي البغدادي (ت. ٧٣٩هـ)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطبعة. ١، ١٤١٢ هـ. ج. ٣، ص ٣٩٦.
(٢) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣. ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري والنشر والتوزيع، بيروت، ط. ١، ١٩٧٠، ص ١٢٣.
(٣) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٤) ابن خلدون أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، الحضرمي الإشبيلي (ت. ٨٠٨هـ)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط. ٢، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، ج. ٧، ص ٧٧.
(٥) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٧، ص ٧٧.
(٦) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٧) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٧، ص ٧٧.
(٨) ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة** فاس، دار المنصور للطباعة والنشر- الرباط، ١٩٧٢، ص ٢١٧.
(٩) الإدريسي محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي (ت. ٥٦٠هـ)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، ط. ١، ١٤٠٩ هـ. ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤.
(١٠) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(١١) ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، ص ٢٦.
(١٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(١٣) المراكشي عبد الواحد بن علي التميمي محيي الدين (ت. ٦٤٧هـ)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت ط. ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦، ص ٢٥٨-٢٥٩.
(١٤) البكري، **المسالك**، ج ٢، ص ٧٦٢. ج. ٢، ص ٨٥٣.
(١٥) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٧، ص ٧٧.
(١٦) الحِميري أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت. ٩٠٠هـ)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، مطابع دار السراج، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٠ م، ص٥٨٤. الإدريسي، نزهة المشتاق، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(١٧) مجهول (ت. ق ٦هـ)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦، ص ٢١٣. ابن شمائل، مراصد الاطلاع، ج. ٣، ٣٩٦.
(١٨) ابن أبي زرع، **الأنيس**، ص ١٢٠.
(١٩) المصدر نفسه، ص ١٩٩، ٢٣٠.
(٢٠) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٦، ص ٣٦٧- ٣٧٠.
(٢١) ابن أبي زرع، **الأنيس**، ص ١٩٩. ٢٣٠.
(٢٢) المصدر نفسه، ص ٢١٧.
(٢٣) محمد الصافي، **جوانب من التاريخ الاقتصادي للجنوب المغربي مدينة نول لمطة نموذجا**، دورية كان التاريخية، العدد ٢٨، السنة الثامنة، يونيو ٢٠٢٥، ص ١٩.
(٢٤) ابن أبي زرع، **الأنيس**، هامش الصفة ٢١٧. الحسن المحداد، **معلمة المغرب**، مادة نون، ص ٧٤٨١
(٢٥) ناعمي مصطفى، **الصحراء من خلال بلاد تكنة**، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٨، ص ٢٢.
(٢٦) المرجع نفسه، ص ٢٣- ٢٤.
(٢٧) اليعقوبي أحمد بن إسحاق (ت. بعد ٢٩٢هـ)، **البلدان**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ١٤٢٢ هـ، ج. ١، ص ١٨٣.
(٢٨) ابن حوقل محمد البغدادي الموصلي (ت. بعد ٣٦٧هـ)، **صورة الأرض**، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨ م، ج. ١، ص ٨٤- ٩١.
(٢٩) اليعقوبي، **البلدان**، ج. ١، ص ١٨٣. ابن حوقل، **صورة الأرض**، ج. ١، ص٨٤ - ٩١.
(٣٠) البكري، **المسالك**، ج. ١، ص ٢٢١. الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤.
(٣١) اليعقوبي، **البلدان**، ج. ١، ص ١٨٣.
(٣٢) ابن حوقل، **صورة الأرض**، ج. ١، ص ١٥٧.
(٣٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤.
(٣٤) البكري، **المسالك**، ج. ١، ص ٢٢١.
(٣٥) مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص ٢١٣.
(٣٦) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤.
(٣٧) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣. الحِميرى، **الروض المعطار** ٥٨٤.
(٣٨) ابن شمائل، **مراصد الاطلاع**، ج ١، ص ٢٢٨.
(٣٩) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٧٦٢.
(٤٠) ابن خلدون، **العبر**، ج. ٦، ص ١٢٩.
(٤١) المصدر نفسه، ج. ٢، ص ٧٦٢.
(٤٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ص ٢٨.
(٤٣) الحميري، **الروض**، ص ٢٨.
(٤٤) الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت. ٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط. ٢، ١٩٩٥ م، ج. ٢، ص ٦٩.
(٤٥) الحميري، **الروض**، ٥٨٤.
(٤٦) المصدر نفسه، ٥٨٤.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٥٨٤.
(٤٨) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ..٥٨٤
(٤٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ٥٨٤.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٥٨٤.
(٥١) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج. ١، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص ٢٢٠.
(٥٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج. ١، ص ٢٢٣- ٢٢٤. الحميري، **الروض**، ص ٥٨٤.
(٥٣) الحميري، **الروض**، ص ٥٨٤.
(٥٤) البكري، **المسالك**، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٥٥) المصدر نفسه، ج. ٢، ص ٨٥٣.
(٥٦) الحميري، **الروض**، ص ٥٨٤.
(٥٧) ابن خلدون، **ديوان**، ج. ٦، ص ٣٦٧- ٣٧٠.
(٥٨) المصدر نفسه، ج. ٦، ص ٣٦٩- ٣٧٠.
(٥٩) المصدر نفسه، ج. ٦، ص ٣٦٩- ٣٧٠.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

حرفة النخاسة في المغرب الوسيط
خلال القرنيين السابع والثامن الهجريين
جوانب من التاريخ المسكوت عنه



فاطمة بوزاد
أستاذة التعليم الثانوي
باحثة في سلك الدكتوراه – جامعة ابن طفيل
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ
يتناول البحث بالدراسة جانبًا مهمًا من النشاط الاقتصادي بالمغرب الأقصى، ويتعلق بحرفة النخاسة التي سادت خلال العصر الوسيط، باعتماد النهج التاريخي لرصد جذور الظاهرة والوقوف على تطورها حتى نهاية العصر الوسيط. إذ تشير مختلف المصادر الوسيطية إلى وجود الرقيق كأحد عناصر المجتمع المغربي، ارتبط وجوده بنشاط حرفة النخاسة التي اتسع نطاقها بشكل واضح مع بداية العصر الوسيط إلى حدود عصر بني مرين، في إطار الوساطة التجارية التي لعبها بين صحراء افريقيا والمشرق وأروبا. أولاها اهتماما بعدد من الإجراءات التي استهدفت تنشيطها وإزالة ما يعترض سبيلها. حيث تنوعت روافدها، وتعددت أسواقها بعد التأكد من سلامتها، واختلفت أسعار رقيقها باختلاف أنواعه، وامتهنها الراغبون في الربح السريع من مختلف الملل؛ من المسلمون واليهود والمسيحيون. لذا يكتسي الكشف عن أساليب حرفة النخاسة، أهمية كبرى على عدة مستويات، أبرزها كونها تكشف النقاب عن وضعيتها ووظيفتها في تحريك دواليب الاقتصاد المغربي الوسيط والمريني على وجه التحديد، خاصة أن هذه الفترة عرفت تراجعا في استيراد الرقيق الأبيض بفعل حروب الاسترداد في الأندلس، وازدياد الطلب على الرقيق الأسود من الصحراء الافريقية، وكقوة منتجة وفعالة في مجموعة من الميادين. من خلال الإحاطة بالمفهوم لغة واصطلاحا ووضعه في سياقه التاريخي. ثم تناولها بالدراسة والتحليل على عصر بني مرين، من خلال تسليط الضوء على أهم روافدها، والأصول الاجتماعية للنخاسين، والمعاملات التي خصت حرفة النخاسة بأسواق العبيد، إلى جانب رسم صورة عن الأسعار التي ميزت أنواع الرقيق التي سادت خلال عصر بني مرين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٧	أغسطس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٨	أغسطس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
النخاسة؛ النخاسون؛ المغرب الأقصى؛ بني مرين؛ أسواق النخاسة؛ العصر الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.246083

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
فاطمة بوزاد. "حرفة النخاسة في المغرب الوسيط خلال القرنيين السابع والثامن الهجريين: جوانب من التاريخ المسكوت عنه".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص٣١ – ٤٦.

Corresponding author: fatimabouzad85@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

يكتسي موضوع حرفة النخاسة خلال العصر المريني أهمية كبرى على عدة مستويات، فالنخاسة كظاهرة اقتصادية واجتماعية ظهرت مع بداية استقرار الإنسان واحتياجه لعناصر الإنتاج من حيوانات ويد عاملة، كقوة منتجة وجب تسخيرها، وذلك بالاستيلاء على المستضعفين من المحيطين به وتسخيرهم لخدمته. وكانت الحروب التي يشتعل فتيلها لأتفه الأسباب الرئة التي تعطي الديمومة لمؤسسة الرق، إذ أصبح الحصول على الرقيق عاملا في شن الحروب[١]، وازدهار تجارته، فكان أسرى الحروب يعاملون كغنائم يبيعونهم للنخاسين الذين يرافقون الجيوش، ليتم نقلهم بعد ذلك إلى الأسواق حيث يتم عرضهم بغرض البيع، وبطبيعة الحال كان سعرهم يتحدد حسب قدراتهم ومهاراتهم. شكل الرقيق سلعة تجارية مربحة ومهمة في ربط العلاقات التجارية مع المشرق والعالم الأوروبي، حيث تعددت مصادر استيراده، وأصبح يمثل ظاهرة اجتماعية وركيزة أساسية في تاريخ اقتصاد المغرب الوسيط، لعبت دورًا طلائعيًا في بناء توازنات الدول التي تعاقبت على حكم المغرب. إلى درجة جعلت بعض الدارسين يصفون الحضارة العربية الإسلامية بأنها حضارة رقيق. إذ بات يشكل قوة منتجة وفعالة في مجموعة من الميادين. وتُعَدّ التجارة الصحراوية المصدر الأول للعبيد بالنسبة للمغرب خاصة مع مجيء العرب الفاتحين، وازدادت أهميته خلال عصر بني مرين، حيث كانت الحاجة إلى الذهب والعبيد أثرها في اندفاع التجار المغاربة إلى بلاد السودان عبر الصحراء، مما أدى إلى نشاط حركة نقل العبيد إلى الأسواق المغربية والأوربية انطلاقا من مراكز النخاسة ببلاد السودان الغربي، حيث كان هذا التعامل التجاري يدر أرباحًا كثيرة[٢]، كما جاء ذلك في المصادر التاريخية بمختلف أنواعها.

أولاً: دلالة النخاسة

(وضع المصطلح في السياق التاريخي)

قبل وضع حرفة النخاسة في سياقها التاريخي، كان لزامًا علينا الخوض في المعنى الدلالي لمفهوم النخاسة والوقوف عند الحرفة التي انبثقت عنها، وتحليل تلك الصورة النمطية التي عرفت عن العبيد (البضاعة)، بوصفهم دواب ولا يمكن التعرف عليهم إلا في سوق النخاسة. إن النخاسة في الأصل هي بيع الدواب، والنخاس هو بائع الدواب، فحسب ابن منظور «النخاسة: نخس الدابة وغيرها ينخسها وينخسها وينخسها، نخس، أي غرز جنبها أو مؤخرها بعود أو نحوه، وهو النخس، والنخاس بائع الدواب، وسمي بذلك لنخسه إياها حتى تنشط وحرفته النخاسة، ويسمى بائع الرقيق نخاسًا"[٣]. ومن خلال هذا التعريف يتبين لنا بأن بائع الدواب هو نفسه بائع الرقيق، وهذا الأخير إنما سمي نخاسًا لأن بضاعته لا تختلف عن بضاعة النخاس الأصلي (بائع الدواب) فكما أن هذا الأخير ينخس دوابه لتنشط فتغري المشتري بشرائها، كذلك فإن بائع الرقيق يزيف بضاعته بالصبغ أو التدليس أو الاحتيال.

ولعل اقتران الرقيق والدواب في بعض النوازل الفقهية دليل قاطع على النظرة إليهما نظرة التشابه والتماثل، في كونها تعتبره كشيء وتجعله بمنزلة الدواب المستخدمة يتصرف فيه بحسب رغبة صاحبه، بدليل اقتران بيع العبد أو الجارية بالدابة، فقد سئل أحد الفقهاء "عن رجل باع دابة أو جارية من رجل"[٤]. بل إن كتب الحسبة تدرج شروط بيع العبيد في الأسواق ضمن حديثها عن موضوع بيع الدواب، حيث نجد ذلك عند عبد الرحمان الشيرازي[٥]، الذي أدرج فصلاً عنونه بـ (في الحسبة على نخاسي العبيد والدواب)، وكذلك عند الونشريسي[٦]، الذي أثبت عيوب الدواب مباشرة بعد عيوب الرقيق. وما كان سبب إدراجنا لهذا التعريف إلا بغرض تمهيد الطريق من أجل الوصول إلى المعنى الذي سمح للرقيق بالتحول لسلعة يتم بيعها في أسواق النخاسة. ولفهم استمرار الظاهرة وتجلياتها في عصر بني مرين، سنتناول حرفة النخاسة في المجتمع المغربي في الفترات السابقة لحضور المرينيين.

ولما كان المغرب جزءًا من الإمبراطورية الرومانية قديما والإمبراطورية الإسلامية بعد ذلك، فبدون شك عرف وضعًا مماثلاً لرواج حرفة النخاسة مع بعض الاختلاف الذي قد تقتضيه الخصوصية المحلية[٧]. فالعبودية لم تكن ممارسة جديدة أدخلها الإسلام إلى المغرب الأقصى وإلى بلاد المغرب عامة، بل إن وجودها فيه قديم ويعود إلى زمن الاحتلال الروماني[٨].

ونسجل مع بداية العصر الوسيط الذي تزامن مع الفتح الإسلامي لبلاد المغرب مع ما تحصل لديهم من الأسلاب والسبي وذلك منذ الطلائع الأولى لعمليات الفتح[٩]، إقبال هؤلاء على هذه السلعة، حيث أصبحت النخاسة ركيزة أساسية في الاقتصاد المغربي، فبما أن الاسترقاق حقق فائضا في القيمة فقد تقبله العقل التجاري العربي كأمر طبيعي، ويكفي للتأكد من ذلك الرجوع إلى كتب النوازل والحسبة، المليئة بالفتاوى التي تهم هذا المجال. لقد كان إقبال العرب على السبي البربري وراء قيام أسواق النخاسة في بلاد المغرب وتهافت النخاسين

وغيرهم من جميع الأقطار لشرائه وترحيله إلى بلاد المشرق وبيعه.

وإذا ما ترصدنا الإشارات الواردة في المصادر التاريخية العربية والمغربية الوسيطية، سنجد إشارات واضحة حول تجارة العبيد، فقد اشتهرت القيروان كسوق للعبيد الكبرى، وظل عنصر الرقيق البربري الأكثر انتشارا بعد الفتح بقليل وطيلة زمن طويل أيضًا، إذ لا تتوانى الروايات في التأكيد على ميل المشارقة للنساء البربريات، فقد وقعت الإشارة في القيروان نفسها، إلى النشاط التجاري الكبير الذي كان يقوم به إسماعيل الأنصاري- تاجر الله-، الذي كان في نفس الوقت ناسكا تقيا وتاجر عبيد، يبعث القوافل إلى المشرق[١٠]، كما كان الولاة الأمويون من بين الممارسين لها وهو ما عبر عنه ابن عذاري بقوله، "وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عمال إفريقية فيبعثون لهم البربريات السنيات"[١١].

وترصد لنا المصادر إشارات عديدة في هذا الموضوع، "فعمرو بن العاص صالح أهل برقة على ثلاثة ألف يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم"[١٢]، كذلك عقبة عندما وصل إلى بلاد السوس، وافتتحها "أخرج منها سبيا لم يرى مثله حسنا، كانت تباع الجارية الواحدة منهن (ب) ألف دينار وأكثر لحسنها وتمام خلقها"[١٣].كما تقدم لنا ذات المصادر تفاصيل مهمة تؤكد على وفرة السبي، يقال إن موسى بن نصير لما دخل بلاد المغرب، "نازل مدينة سكوما وحصرها حتى افتتحها عنوة، وأخذ فيها سبيا كثيرا، وكتب إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان يقول له: "قد بعثت إليك سبي مدينة سكوما، وهو مائة ألف رأس، قيل فكتب إليك الوليد بن عبد الملك، ويحك أظنها من بعض كذباتك، فإن كنت صادقا، فهذا حشر الأمم"[١٤].

إن إقبال حكام دمشق على جواري المغرب هو الذي جعل الولاة يتسابقون إلى كسب ودهم عن طريق إرسال أكبر عدد ممكن، الشيء الذي جعلهم يستعملون شتى الأساليب لجمع ذلك العدد[١٥]. إذ أفضى الأمر إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، إلى التعسف وإطلاق يده في بلاد المغرب، إذ "لم يقابله أحد إلا وظهر عليه، وأصاب من الذهب والفضة والسبي أمرا عظيما، ولم يدع في المغرب قبيلة إلا دخلها فملئوا منه رعبا وخوفا"[١٦]. وسوف تتوج هذه السياسة بما أقدم عليه العامل على طنجة، وما ولاها عبد الله المرادي، الذي لم يكتف بمد يده إلى الصدقات والأعشار[١٧]، بل أراد تخميس البربر، وزعم أنهم فيء للمسلمين، وذلك مالم يرتكبه عامل قبله، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام[١٨]. فرغم أن الإسلام نادى بالمساواة بين الناس، كما طالب بتحرير الرقيق، إلا أن كثيرًا من السادة لم يطبقوا بجدية تعاليمه في هذا المجال، ومن ثم بقيت العبودية قائمة في المجتمع العربي الإسلامي حتى مرحلة متأخرة من تاريخه[١٩]. وحتى الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب، هي الأخرى عرفت إقبالا واسعا على اقتناء العبيد، ويظهر ذلك جليا إذا ما تتبعنا الخط الزمني في تعاقبها.

ففي العهد المرابطي، احتل الرقيق من الجواري والغلمان قائمة الصادرات إلى جهات كثيرة من أنحاء العالم وكانوا يحصلون عليه من سبي الفرنجة وجليقية[٢٠]، والخدم الصقالبة وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود[٢١]، كما كانت قوافل التجار المغاربة خلال العصر الوسيط، تتجه إلى مراكز النخاسة خصوصًا بنهر السينغال لجلب الرقيق، وهو ما أشار إليه ابن عذاري في بيانه، إلى أن يوسف بن تاشفين بعد استيلائه على مدينة فاس سنة ٤٦٢هـ ، بعث إلى بلاد السودان لشراء العبيد فجاءه ألفين منهم[٢٢]، لاستخدامهم في الجيش.

ويقدم دخول الموحدين مدينة مراكش سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م، صورة عما آل إليه المرابطون وأتباعهم، فقد "ابتيع النساء"[٢٣]، "وبيع عيال مراكش وأولادهم بيع العبيد"[٢٤]، بينما "باع عبد المومن جارية بدراهم يسيرة بعد إخماده لثورة دكالة سنة" ٥٤٣هـ[٢٥]، كما انتشر خطف النساء والأطفال، ووجد فيها بعض أشياخ الموحدين وطلبتهم تجارة رابحة فباعوا النساء دون استبراء، واعتدوا عليهن، فلما علم الخليفة عبد المومن بذلك أمر بعدم بيع النساء دون استبراء، ولا يتولى بيعهن إلا من اتصف بالدين و الأمانة، وأمر بالتوقف عن بيعهن في جميع ما يغنمن حتى يخاطب بأصل أمرهن و كيفيته[٢٦].

إلى جانب ذلك، كانت الحروب مع الأندلس من أنجع الوسائل للحصول على العبيد، إذ يفهم من غارة موحدية قرب مدينة غرناطة سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، ضد المسيحيين، أنهم" حازوا أسلابهم ودوابهم، وسبوا من أعلاج النصارى ثلاثة وخمسين علجا استاقوهم إلى غرناطة"[٢٧]، كما غنموا من غارتهم على حصن قليج، "أربع مائة من النساء، بين كبيرة وصغيرة، ومن الرجال مائة وعشرين،(...)، ودخل اشبيلية، وباع السبي بها وكثر عند النساء الخدم وامتدت النعم"[٢٨]، وكانت حصيلة جواز المنصور الموحدي إلى الأندلس عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م، وبالضبط إلى

غربها، اشبونة ونواحيها، إذ حمل معه إلى فاس، "ثلاثة عشر ألف سبية من النساء والذرية"[٢٩]، وحصل من شلب وقصر أبي دانس وباجة ويابورة "خمسة عشر ألف سبية وثلاثة آلاف أسير من الروم، حملوا إلى قرطبة"[٣٠]، أما ابن عذاري فيقدر عدد أسرى الأرك، "خمسة آلاف شخص بين صغير و كبير ذكرا وأنثى"[٣١].

وفي نهاية الدولة الموحدية يرصد لنا ابن عذاري إشارة مهمة عن الوضع الذي آلت إلية الأمور، حين عزم الخليفة الموحدي عبد الواحد الرشيد، على الفتك بعرب الخلط، امتلأت على إثرها "أيدي الأجناد والناس من أموالهم وسيق الناس والذرية إلى حضرة مراكش فامتلأت منهم الأسواق والسكك من كل عذراء ما تجاوزت قط خدرها... وتساوت الحرة العربية الصريحة والأمة في العبودية...وحشر الناس والذرية بدار الأشراف فضاقت عليهم وامتلأت رحاب الجامع"[٣٢]. يظهر إذن، أن الحروب وغنائمها، شكلت المنفذ الذي سمح بالرقيق للتحول إلى سلعة يتم بيعها في أسواق النخاسة، والمنبع الذي يغذي أسواق النخاسة بالرقيق، نظرا للحاجة المتزايدة لهم، خاصة في الجندية ومن قبل الخاصة علاوة على استخدام عدد كبير منهم من كلا الجنسين للعمل في مختلف الأعمال الشاقة.

ثانيًا: روافد النخاسة في عصر بني مرين

انحدر الرقيق الذي وجد بأسواق النخاسة في العصر المريني من مصدريين أساسيين؛ من الحروب التي كانوا ضمن المغانم التي غنموها في حملاتهم العسكرية، وجزء آخر كبير منهم انتهى بهم المطاف في الأسواق عبر التبادل التجاري، سواء من أفريقيا جنوب الصحراء أو من الغرب المسيحي.

٢/١-التجارة

شكل العبيد أهم السلع، التي كان المغاربة يستوردونها من السودان إلى جانب الذهب حيث لعبوا دور الوسيط التجاري مع الأقطار الأوربية والمشرقية. وقد لاحظ عبد العزيز العلوي أن المغرب أصبح يقبل على هذه البضاعة (العبيد السود) أكثر منذ العصر المريني، بسبب ركود ذلك التدفق الهائل من الأسرى المسيحيين من شبه جزيرة إيبيريا منذ هذه الفترة[٣٣]، بالإضافة إلى نهجهم لسياسة صحراوية اعتمدت على الإبقاء على الوجود التجاري المغربي قويا مع إمبراطورية مالي، في وقت أصبح فيه منافسًا بشدة من قبل باقي بلدان الشمال الإفريقي[٣٤].

ظل السودان الغربي ما بين القرن الثاني الهجري والتاسع الهجري الممون الرئيسي للمغرب فيما يخص مادة الذهب والعبيد، ذلك أن الرقيق(البضاعة) احتل المكانة الثانية بعد الذهب نظرا لكون العبيد السود أبهظ ثمنا من أولئك الذين كان يتحصل عليهم المغربي في حركاته الجهادية في الأندلس[٣٥]، فابن بطوطة ذكر أن القافلة التي انتقل معها من تكدا إلى المغرب، كانت تضم ستمائة خادم[٣٦]. وقد قدر رايمون موني R.Mauny عدد العبيد السود المصدرين نحو بلدان البحر الأبيض المتوسط سنويا في العصر الوسيط بعشرين ألف، ويشير إلى أن الرق بدأ يتقوى منذ القرن ١٥م بصفة خاصة، ويفترض أن مليون عبد أسود ثم نقلهم خلال القرن ١٤م إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط، ومليونين خلال كل من القرن ١٦م و١٨م[٣٧].يبدو أن عملية جلب الرقيق السود ترجع إلى عهود قديمة وسابقة لهذا العصر، وهو ما أكده بوفيل بقوله: كان الرقيق السود ينقلون عبر الصحراء، خلال قرون عديدة، ليقضوا أيامهم وهم يشتغلون خدما في البيوت أو محضيات أو عمالاً، أو جنودًا بين الجماعات التي تقطن المغرب[٣٨].

ويكفي الرجوع إلى المصادر الجغرافية التي أطنبت في هذا الموضوع، فالإدريسي يصف لنا مدينة التكرور، بأنها أكثر تجارة و"إليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز و يخرجون منها بالتبر والخدم"[٣٩]، كما يتحدث البكري عن مدينة أودغشت التي كانت مقصدا للتجار المغاربة، لتوفرها على مطلبهم، إذ "بها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر، تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزيقات والقطائف وأصناف الحلويات وغير ذلك، وبها جواري حسان الوجوه بيض الألوان منثنيات القدود، لا تنكسر لهن نهود لطاف الخصور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف ضيقات الفروج المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا"[٤٠]. فالظاهر، أن تجارة الرقيق ظلت على حالها، ضمن العمل التجاري الكلاسيكي منذ العصور القديمة، بين المغرب وبلاد السودان الغربي حتى خلال العصر المريني، بل لم تتأثر تلك التجارة بالتوسع الكبير في صيد رجال القبائل وإرسالهم عبر البحار الذي باشره النخاسون الأوربيون بعد ذلك[٤١]، حيث كان أغلب العبيد يجمعون من الغارات ويباعون في الأسواق الإسلامية[٤٢]، بالإضافة إلى ذلك كانت بعض الأسر تبيع أبنائها وقت المجاعات أو تقدم الدية أو الهدية للحكام، وعند اقتراف بعض النساء لجريمة الزنى يقع طردهن وبيعهن في أسواق النخاسة.

فقد كان التجار من المغرب الأقصى(...) يقومون برحلة طويلة وخطيرة عبر الصحراء لشراء الرقيق الزنوج الذين كان يطلب شراؤهم في الشمال دائما، وكانت كمبى مشهورة بسوق رقيقها الذي كان يزود على الدوام بما يؤتى بهم عن طريق الغارات على القبائل البدائية الساكنة في الأدغال على الحدود

الجنوبية وكانت هذه الغارات شائعة ويمارسها السودانيون[٤٣]. فـابن خـلـدون أشـار إلى أن " أهـل بريسي وسـلي وغانـة كـانوا يترددون على بلاد لملم فيسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم ويبيعـونهم للتجـار فيجلبـونهم إلى المغـرب وكلهـم عامـة رقيقهم"[٤٤]، وهي نفس الإشارة التي سجلها الإدريسي في وقت سابق عن الفترة المدروسة، والملاحظة نفسها سجلها الوزان غير بعيد عن الفترة مدار البحث، حين ذكر أن "ملك تمبوكتو كان يحارب الأعداء مع جيرانه، وممن يتمنعون عن أداء الخراج إليه، وإذا انتصـر باع في تمبوكتـو كـل مـن أسره في القتـال حـتى الأطفال"[٤٥].

إلى جانب التجارة، كانت **المقايضة** من بين الطرائق التي حصل بموجبها التجار المغاربة على العبيد السود، فالمصادر أشارت إلى مجموعة من المواد التي كان يتم الحصول في مقابلها على العبيد، "فملك بورنو يأتوه تجار من بلاد البربر بخيل يستبدلونها بعبيد يأخذونه مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبدا"[٤٦]، كما كان العبيد يباعون ويشترون بالودع[٤٧]، ومن السلع التي كان الإقبال عليها كبيرا الملح، حيث يذكر ابن حوقل أنه "بلغ حمل الملح في دواخل بلد السودان وأقاسيه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار"[٤٨]. ويبدو من خلال النص أن الملح كسلعة كانت لها أهمية في أسواق بلاد السودان، مثلها مثل الذهب والرقيق في بلاد المغرب، الشيء الذي جعل تجار المغرب يستغلون هذه المادة في استيراد الرقيق، كذلك شكلت المعادن رصيدًا هامًا من صادرات المغرب إلى بلاد السودان وأهمها النحاس، وقد كان ثمنه باهظا نظرًا لقلته أولا وقبل كل شيء، وثانيًا لأنه كان يستعمل كعملة للتبادل التجاري داخل السودان الغربي، هذا وكان يستعمل لصناعة الحلي وصناعة تماثيل صغيرة لعبادتها، نشط على إثرها منجم تكدا الذي كان «يصنعون منه قضبانا فيشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم"[٤٩].

أما المصدر الثاني الذي كان يقتني منه المغرب العبيد الأبيض، فهو الغرب المسيحي فقبل اجتياح الطاعون الأسود لغرب أوربا وما أحدثه من استنزاف بشري، عرفت هذه المنطقة فائضًا في أعداد العبيد، حتى إن دولها كانت تبيع العبيد للدول الإسلامية المتوسطية لبناء توازناتها المالية، وعلى سبيل المثال فقد كان بإمكان شراء مجموعة من الرجال بمملكة أرغون مقابل ثمن فرس واحد[٥٠].

واستنادًا إلى ما سبق، يتبين لنا أن بلاد السودان الغربي مثلث خزانا للعبيد وبضاعة يتاجر بها التاجر المغربي في الأسواق المغربية، - تستبدل بالملح والخيول- ومع الدول الأوربية فالمغرب في عهد السلطان فارس كان يصدر الرقيق والجلود بكل أنواعها(...)في حين كان يستورد الزيوت والخمور والنسيج[٥١]. ففي هذه الفترة تزايد طلب الأوربيين على العبيد فكنتيجة لاحتلال الأتراك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م، صار من الصعب على أوربا الغربية الحصول على العبيد من الشمال والشرق عبر البحر الأسود ومن هنا اتجه اهتمامها إلى أفريقيا الجنوبية وصارت أفريقيا الشمالية والجنوبية الممون الرئيسي لها في هذا الميدان[٥٢] رغم أن بعض الدراسات تنكر ضلوع المغاربة في التجارة[٥٣].

٢/٢-الحروب

من المصادر المهمة التي أغنت أسواق العبيد إلى جانب التجارة، الحروب باعتبارها السبب الرئيسي في قيام الرق منذ استقرار الإنسان، ذلك أن عرف الحرب يقضي بأن الغالب يصبح سيدا شرعيا للعدو الذي قهره وأبقى على حياته، فكان الظافر يتبع ركب أسلابه بصف طويل من الأسرى الذين غدوا بأحكام الحرب رقيقا وملكا خاصا له يتصرف فيه كما يتصرف في أية سلعة. وفي هذا الإطار، ترد إشارات عديدة في المصادر عن السبي المسلم وغير المسلم، فكل حملة عسكرية أو غارة تذيل في نصوص الفترة المدروسة إلى مقدار ما غنمه المنتصر، مما غرم من المنهزم من أسرى وسبايا[٥٤]، سواء داخل المغرب الأقصى أو مع الواجهة الشرقية ضد الزيانيين وافريقية، أو مع الواجهة الشمالية ضد نصارى إسبانيا، فقد كان من شأن هذه الصدامات المسلحة أن تخلف وراءها سبيا وأن تؤجج نار الاسترقاق، لأن النخاسين كانوا يرافقون الجيوش، فكثيرا ما كان يتفق على بيع الأسرى عقب الفوز في المعركة بثمن بخس ليعاد بيعهم مرة أخرى في أسواق النخاسة بعدما يكون تم تدريبهم على حرفة معينة ليحققوا بها الربح المؤكد.

فعلى **المستوى الداخلي**، استمر الأسر والسبي بشكل مكثف أثناء تثبيت المرينيين لحكمهم في المغرب الأقصى من خلال الحملات التي نظموها نحو مختلف المناطق، ويبدو ذلك واضحا من خلال مواجهاتهم الأولى مع السلطة الموحدية، فبعد هزيمة هذه الأخيرة أمام المرينيين سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م، "غنموا عددًا هائلاً من الأثاث والسلاح والأموال والخيل والعبيد"[٥٥]. وأثناء غزوة يعقوب بن عبد الحق على عرب الخلط، "سبى حريمهم وأموالهم"[٥٦]، "وأقبل يدور في أحواز مراكش،

يقتل ويأسر ويسبي"[٥٧]، كما قاد الأمير أبو يعقوب يوسف حملة أخرى سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، ضد ذوي حسان وذوي منصور ببلاد درعة، "فقتل من العرب خلقا كثيرا وسبى نساءهم وأموالهم"[٥٨].

وتسجل لنا النصوص مزيدًا من الإشارات التي تدل على وقوع حالات السبي في أيدي المرينيين، فكما هو وارد في الأنيس المطرب، أن أبا ثابت عامر وجه حملة ضد عرب رياح سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م، "فغزاهم وقتل منهم خلقا وسبى ذراريهم وأموالهم"[٥٩]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدد السبي يظل قليلاً إذا ما قورن بسبي الحروب التي خاضها المرينيون ضد بني عبد الواد أو ضد الغرب المسيحي.

فبالنسبة للجهة الشرقية، تجب الإشارة إلى أن العلاقات بين المرينيين وبني زيان تميزت بالتوتر، مما يفسر العدد الكبير من السبي الذي يبدو جليا من خلال الإشارات المصدرية، ففي سنة (٦٦٦هـ/١٢٦٧م)، انهزم بنو عبد الواد أمام يعقوب بن عبد الحق، "وخلفوا النواهد والأبكار وانتهبوا أموالهم ومضاربهم وعيالهم"[٦٠]. وفي حملة أخرى قادها أبو يوسف يعقوب ضد يغمراسن بايسلي، " انتهب معسكره واستبيحت حرمه (...) وأطلق الأيدي في ساحتها بالنهب والعيث، وشن الغارات على البسائط فاكتسحها سبيا ونسفها نسفا"[٦١]، وفي عهد كل من أبي الحسن وابنه أبي عنان تضاعف عدد السبي، حيث تعتبر حملة أبي عنان إلى تلمسان مثالاً واضحًا على ذلك، "إذ اتبع بنو مرين أثارهم فاستولوا على معسكرهم واستباحوهم واستلحموهم قتلاً وسبيًا، وصفدوهم أسارى(...) واستاقوا أموالهم ودوابهم ونساءهم"[٦٢]، "وبعث بهم السلطان أبو عنان في السلاسل كالأسرى، فادخلوا فاس على تلك الحالة"[٦٣].

أما **مع الغرب المسيحي** فباستثناء الانتصارات التي حققها المرينيون في بداية حكمهم والتي أوقعت أعدادًا هامة من السبي المسيحي في قبضتهم، تسجل لنا المصادر بعد ذلك خمولاً في النشاط الجهادي تجاه الأندلس[٦٤]. فخلال الجواز الأول لأبي يوسف يعقوب سنة ٦٧٤هـ إلى الأندلس، "أمر بالغنائم فجمعت، فاجتمع من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والنساء والذرية (...) ما ملأ السهل والوعر، ولا يحويه عد ولا حصر، حيث بلغ عدد الاسرى حوالي ثلاثين وثمانمائة وسبعة ألاف"[٦٥]، ثم "ارتحل أمير المسلمين والغنائم تساق أمامه وتقاد الروم بين يديه في الأصفاد مُقَرَّنين"[٦٦]. وفي الجواز الثاني له على نواحي اشبيلية، غنم أعدادا كثيرة من السبايا لدرجة أن "بيعت الرومية بمثقال ونصف لكثرتهن"[٦٧]، وتسجل لنا حملة أبي سعيد بن أبي العلاء المريني على النصارى بغرناطة العدد الهائل الذي بلغ حسب المقري، "سبعة ألاف نفس واستمر البيع في الأسرى والأسلاب ستة أشهر"[٦٨]، كما حصل أثناء حملته على حصن اركش سنة ٦٨٤هـ، "نحو ثمانين امرأة من الروميات، وسبوا النساء والذرية"[٦٩]. إجمالاً يمكن الإقرار بأن الحروب أسهمت في تزويد أسواق العبيد بعدد كبير منهم، ذلك أن الأسرى شكلوا (رأسمال) هام ومصدرًا أساسيًا للحصول على الأموال[٧٠].

ولما كانت تجارة الرقيق تمثل نشاطًا اقتصاديًا رائجًا خلال هذه المرحلة، فقد كان الحصول على الأسرى واسترقاقهم قصد البيع، من الأمور التي دفعت بالكثير إلى احتراف الغزو وامتهانه[٧١]، وهذا ما حق للباحثين في هذا الموضوع الحديث عن العلاقة الوطيدة بين الحرب والاسترقاق، ونذكر في هذا الصدد عبد الاله بنمليح[٧٢] Henri Wallong[٧٣]، إذ كانت من عادة التجار أن يلتحقوا بالجيش لشراء الأسرى وهي عادة قديمة كما أشرنا إليها سلفا.

٣/٢-روافد أخرى

فضلاً عن الحروب مثلث **القرصنة** المغربية خلال هذه المرحلة مصدرًا هامًا للعبيد بالحوض الغربي للمتوسط[٧٤]، وتمكنت من جلب عدد هام منهم إلى حدود عهد السلطان أبي الحسن على الأقل، حيث ظلت البحرية المغربية قادرة على مواجهة نظيرتها الأوربية ومنافستها[٧٥]. إذ خلفت القرصنة نشاطًا حقيقيًا ومصدرًا أساسيًا لتجارة العبيد الأبيض في الحوض الأبيض المتوسط. وإلى جانب الحروب والقرصنة كانت هناك روافد أخرى يتم بها تزويد سوق العبيد ومنها **الخطف**، حيث تكشف النصوص التاريخية عن خطف العبيد والأحرار، وغالبا ما كانت ترتبط هذه العملية بفترات الفوضى وانعدام الأمن، وهي ظاهرة استمرت حتى عصور متأخرة[٧٦]. والظاهر أن الأرباح الكثيرة التي كانت تدرها تجارة الرقيق، كانت وراء عمليات نهب وخطف واسعة، فقد كان النخاسون يرحلون إلى بلاد السودان ليسرقون أبناءهم ويبيعوهم في أسواق النخاسة[٧٧]. وإذا كانت الحروب أهم رافد للعبيد في فترة الحرب، **فالفقر** شكل أهم رافد في فترة السلم حيث اضطر الذين استحكم فيهم الفقر وباتوا جياعا إلى بيع أنفسهم أو بيع أولادهم[٧٨]، فقد ورد عند ابن عذاري، أن قاضي رقادة بافريقية محمد بن عبد الله المعروف بابن جيحال مولى بني أمية اضطر إلى بيع نفسه أيام الشدة[٧٩].

وفي رواية منقبية لدى البادسي، يروي عن مجاعة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م، أثناء ترجمته لإبراهيم بن عيسى بن داوود بقوله: "كانت مجاعة شديدة (...) كان بعض الناس يسلمون أنفسهم للنصارى ليشبعوا عندهم الطعام"[٨٠] . وهو ما تحدث عنه الحسن الوزان على أن المنطقة الواقعة بين بلاد البربر ومصر، التي اضطر شظف العيش أهلها إلى طلب القمح من أهل صقلية، وإيداع أبنائهم رهائن لديهم، كما أن في حالة عدم الوفاء بالدين يحتفظ الدائنون بالأطفال كرقيق لهم[٨١]. ومن الروافد الأخرى التي تم استعمال الرقيق فيها كبضاعة ثمينة، **الهدية والصداق** فملك السنغاي الأسكيا محمد الكبير(٨٩٨-٩٣٤هـ)، "أرسل هدية سنية إلى ملك فاس، مشتملة على خمسين عبدًا أسودًا وخمسين أمة كذلك، وعشر خصيان (...) وتقدر قيمة العبد الأسود بعشرين مثقالاً للرأس، والإماء بخمسة عشر مثقالاً للواحدة، والخصيان بأربعين مثقالاً"[٨٢] كما قدم شيخ منطقة تانيستا بدرعه هدية إلى ملك فاس عبارة عن خمسين عبدا وعشرة خصيان وخمسين أمة[٨٣].

لقد اعتبر العبيد قيمة مالية تمنح في المبارزة وفي الزواج، لأنه يحقق فائض في القيمة باعتباره بضاعة تملك ومن حق المالك التصرف بها كما يشاء، وهو ما جعلهم من الأعطيات والمنح التي يقدمها السلاطين لحاشيتهم أو عامة الناس، فقد جرت العادة لدى السلاطين المرنيين أن يمنحوا الشاعر المبرز مائة قطعة من الذهب وفرسا وجارية[٨٤]. وبالمثل شكل الرقيق في الصداق من الأشياء التي تملك بغرض الخدمة، كما هو الحال في كتاب صداق الحرة عزونة بنت السلطان أبي يحيى أبي بكر على سلطان المغرب أبي الحسن المريني، الذي قدم لها "خمسة عشر ألف دينار ذهبا ومائتا خادم"[٨٥]. فضلاً عن تضمن صداق كثير من بنات الأعيان الالتزام بتوفير رقيق الخدمة.

هكذا تنوعت مصادر العبيد في العهد المريني بين عبيد الأسرى، والعبيد المستوردين عن طريق التجارة والقرصنة ويمثلون المصادر الخارجية، أما المصادر الداخلية فتمثلت في وقوع أشخاص محليين في العبودية لأسباب اقتصادية واجتماعية، كالفقر والخطف. ونظرا للعائدات الضخمة التي كانت توفرها تجارة الرقيق فإن كثيرا من النخاسين أصبحوا يبيعون الأحرار على أساس أنهم عبيد[٨٦]. حيث اختلفت أثمانهم في أسواق النخاسة باختلاف ألوانهم وخصائصهم المهنية وقوتهم الجسمانية ودرجة جمالهن.

ثالثًا: الأصول الاجتماعية للنخاسين

يصعب الحديث عن الأشخاص أو الأسر التي امتهنت النخاسة في العهد المريني، ويبقى السؤال الذي يفرض نفسه في هذا الباب هو من هم هؤلاء التجار؟ وماهي أصولهم الاجتماعية؟ وما الدوافع التي جعلتهم يمتهنونها؟ لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة أن نستقرئ المعلومات الواردة في المصادر، للوقوف على التجار الذين امتهنوا حرفة النخاسة، في غياب إشارات مصدرية واضحة حولهم، باستثناء اليهود الذين أشارت إليهم بشكل صريح.

١/٣-التجار المغاربة

إذا ما عدنا إلى المصادر نجدها تشير إلى تجار المغرب جملة دون تفصيل أو تتحدث عن تجار مدينة معينة، كما هو الحال في حديثها عن تجار أغمات[٨٧]، أو سجلماسة[٨٨]، بل نجدها أحيانا تشير إلى التجار الأوربيين كما هو وارد عند روجيه لوتورنو، "والذي نعرفه عن تجار الجملة في أيام بني مرين (...) فقد كانوا هم الذين يبتاعون من التجار الأوربيين المستوطنين في مليلة و باديس وسبتة (...) وهؤلاء - التجار المغاربة - هم الذين ينظمون القوافل التي كانت تحمل إلى السودان الأقمشة والجلود من فاس وكانت تعود حاملة التبر وريش النعام و الرقيق"[٨٩].

وفي هذا الصدد يمكننا أن نتساءل حول الحوافز التي جعلت التجار المغاربة لا يترددون في ركوب طريق المغامرة نحو طريق الصحراء؟! لا شك أن الربح كان مغريا، فقد كان التبادل التجاري مع السودان يدر أرباحا كثيرة على المشتغلين به وهو الأمر الذي شجع التجار المغاربة على تحمل مشاق السفر، حيث كانوا يتعمدون جلب بضاعة نفيسة ونادرة أهمها الذهب والرقيق[٩٠]، وهو ما حدى بابن خلدون إلى القول: "لهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفه الناس وأكثرهم أموالا لبعد طريقهم ومشقته واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش...فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا فتختص بالغلاء"[٩١].

كما يجب الإشارة إلى أن الوجود المغربي ببلاد السودان الغربي كان كثيفا، نظرا للعلاقات التجارية التي تعود إلى أزمنة قديمة، وتعززت مع المغرب المريني، وبما أن العبيد شكلوا أهم السلع التي كان المغاربة يستوردونها من السودان إلى جانب الذهب فقد لقوا إقبالا كبيرا نظرا للانتكاسة التي عرفتها السلطة المغربية في محاولاتها الجهادية بالأندلس.

وسندنا الرئيس هو ابن بطوطة، حيث تعتبر معلوماته ذات أهمية قصوى، فهي تصور لنا المكونات الاقتصادية والثقافية والذهنية، كما تعطينا معلومات عن بعض أفراد الجالية المغربية في السودان الغربي المستقرة بأغلب مدنها التجارية مثل ولاتة وكاو وتكدا، والمتمتعة بعدة امتيازات، بقيامهم بدور بارز في تحريك التجارة المحلية، حيث كانوا يتولون تزويد الأسواق السودانية بالبضائع الشمال الصحراوية وفي الوقت نفسه يصرفون سلعها في دول البحر المتوسط[٩٢]. وهو ما يبدو واضحا من الرحلة، إذ أنه عند وصول التجار المغاربة إلى المراكز الحضرية السودانية كانوا يقومون بكراء المنازل لسكناهم ولتخزين سلعهم طيلة مقامهم هناك[٩٣]، وهي إقامة كانت تطول شهورا كما هو وارد عند صاحب وصف افريقيا[٩٤]، بقوله "أن التجار المغاربة يأتون بالخيل ويستبدلونها بالعبيد، فكانوا ينتظرون أحيانا سنة كاملة حتى يفي بالثمن".

ويمكننا التأكيد على أن وجود التجار المغاربة في مدن السودان كان مهما وتمثل في أسر تجارية، بدليل وجود أحياء خاصة بهم، فابن بطوطة يشير إلى محلة البيضان بمدينة مالي، حينما "اكترى له محمد بن الفقيه دارا إزاء داره"[٩٥]. كما يمكن تأكيد ذلك من خلال أسماء بعض المغاربة الذين ثم ذكرهم في المصادر، فقد كانت التجارة الصحراوية تستقطب التجار من جميع أنحاء بلاد المغرب، وخاصة من المدن الكبرى كأبي بكر أحمد بن خلوف الفاسي الذي استقر بغانة[٩٦]، وأخوي المقري عبد الواحد وعلي اللذان كانا يمثلان شركتهما العائلية بولاتة[٩٧]، كما يذكر العمري أبا عثمان سعيد الدكالي الذي سكن مدينة بيتي خمسا وثلاثين سنة[٩٨]، أما ابن بطوطة فذكر جملة من التجار المغاربة القاطنين بالسودان منهم؛ علي اغيول التادلي، والقاضي أبو إبراهيم، والخطيب محمد وغيرهم[٩٩]، بالإضافة إلى كلامه عن جماعة البيضان التي تمت الإشارة إليها سلفا، ومع ذلك فهذه الأسماء لا تنم إلا عن جزء من التجار المغاربة ببلاد السودان.

وليس غرضنا من هذا الحديث عن التجار المغاربة تحديد وجودهم بالسودان الغربي فقط، بل الإشارة إلى مدى الثروة التي يتحصلون عليها والتي دفعت بهم إلى تحمل مشاق الصحراء والعيش وسط بيئة صعبة. كما يصعب الجزم بأن الفقهاء والقضاة وغيرهم من المستقرين ببلاد السودان، كانوا مقتصرين على وظائفهم الرسمية، فهم كما قال محمد الشريف بلا شك كانوا ميالين إلى الأعمال التجارية المربحة التي تفسر وحدها عبورهم للصحراء والإقامة في بلاد بعيدة مثل السودان[١٠٠]، كما يمكننا القول بأن الحكام هم الآخرون ساهموا في عملية النخاسة، سواء بإرسال قوافلهم الخاصة، أو بالاشتراك مع تجار كبار. ورغم ذلك فالمعلومات التي تقدمها المصادر في هذا الموضوع لا تساعد على معرفة ما إذا كان هؤلاء التجار يعملون لحسابهم الخاص، أم أن من بينهم من كان وكيلا لغيره في هذه العمليات التجارية دون حضورهم شخصيا، أو اكتفوا بإرسال عبيدهم وأجرائهم على رأس تجارتهم. إلا أنه يمكن القول إن تجارة الرقيق كانت وراء ثراء عدد كبير من النخاسين والوسطاء والتجار، مما جعلها نشاطا بارزا أتخذه بعض التجار وكثير من المغامرين وسيلة للإثراء السريع.

٣/٢-اليهود

إلى جانب التجار المغاربة، كان خير مستفيد من هذه التجارة اليهود، فقد وجد هذا العنصر الإثني بالتخوم الصحراوية منذ القرن الثالث الهجري، وذلك في كل من درعة وسوس وسجلماسة[١٠١]. فقد أشار صاحب الروض المعطار إلى أنهم داخلوا المسلمين في سجلماسة[١٠٢]، واندمجوا معهم وتعاطوا للتجارة والصنائع، نظرا لموقعها الإستراتيجي فهي باب الصحراء الكبرى موطن الرقيق، وبما أنهم كانوا من أكبر مروجي هذه التجارة التي تحقق الربح السريع فقد ظلوا يستفيدون منها رغم ما عانوه من اضطهاد زمن المرابطين والموحدين. أما في العهد المريني فقد كثرت هذه الجماعات القادمة من الأندلس إلى المغرب إثر نشاط حركة الاسترداد[١٠٣]، ففي هذه الفترة وجد اليهود ضالتهم فشاركوا في تنمية التجارة الصحراوية، حيث تظهر لنا وثائق تاريخية ممارسة اليهود لجميع المهن[١٠٤]، كما لعبوا دورا لا متناهيا في الاقتصاد المغاربي في جميع الحقب وفي جميع المجالات.

وتجدر الإشارة إلى أن الجماعات اليهودية كانت تتمتع بالحرية التجارية تحت الحكم المريني، إذ ربطت علاقات محكمة مع أوربا، بدليل احتفاظ المصادر الأجنبية بأسماء أسر يهودية استقرت بفاس وبميورقة في آن واحد بهدف التجارة، مثل إسحاق ليفي، وصمويل بن شولون، وصمويل وحيون ومردخاي بن هارون بكري، وأبرهام، ويحيى بن نجار[١٠٥]، فكانت تصدر لها مختلف البضائع كالعسل والشمع والجلود والرقيق(...) مقابل الأنسجة[١٠٦]، بل أكثر من هذا نجد أن السلاطين المرينيين اعتمدوا عليهم في الوساطة التجارية بين المغرب وأوربا وافريقيا الغربية[١٠٧]. ذلك أن التحول الذي عرفته أوروبا من ثورة صناعية جعلها في حاجة ماسة إلى المواد الأولية، فكان المغرب المزود لها والسوق المصرفة للمنتجات الأوروبية، الشيء الذي

تطلب سماسرة ووسطاء لترويج البضاعة الأوروبية وتوفير المواد الأولية لأوروبا، فكان هذا الدور لا يقوم به إلا من كان ذا صلة بالأوروبيين ويتكلم لغتهم، فكان اليهود يتوفرون على هذه المواصفات فاستأثروا بالوساطة بين أوروبا والمغرب، حيث كانت توجد شبكة من اليهود تنتشر في جنوب أوربا والمغرب الأقصى والسودان الغربي، نشطت في التجارة الصحراوية التي تجلب الذهب والرقيق، فكانوا على مر العصور في مقدمة النخاسين.

حيث استفاد عدد كبير منهم من الإجراءات التي قامت بها الدولة المرينية، والتي استهدفت تنشيط وإزالة كل ما يعترض سبيل تجارة العبيد، ويأتي في مقدمة ذلك حرصهم على تأمين سير تجارتها، بإقرارها للأمن في جميع ربوع الدولة مما ساهم في الحركة التجارية، ذلك أن المسالك التجارية كانت تحفها بعض الأخطار خاصة أثناء سقوط الدولة الموحدية. إلى جانب إلغاء بعض الضرائب التي كانت تفرض على السلع المارة من أماكن العبور خاصة في عهد السلطان أبا يعقوب يوسف.

لقد كانت هذه الضرائب تلغى في عهد السلاطين الأقوياء، لكنها كانت تُفَعَّل في حالة الانهيار الاقتصادي وتفرض على اليهود والمسلمين وغيرهم على حد سواء. إضافة إلى هذه الإجراءات قامت الدولة ببناء الأسواق وتمهيد الطرق، وإنشاء فرق من الجنود لحماية الطرق التجارية، وكان هذا الإجراء في عهد السلطان أبي الحسن، وقد ازدادت قوة اليهود التجارية، حيث كانوا يتحكمون في الأسواق (خاصة قيسارية فاس)، إذ "شكلوا طبقة كبيرة وامتلكوا كثيرا من الدور بالمدينة، وحققوا من خلالها- التجارة- أموالا طائلة"[١٠٨]، وتحكموا في التجارة مع السودان وميورقة[١٠٩]، فهم لم يدخروا جهدا للحصول على مكانة متميزة في النشاط الاقتصادي للمدينة، رغم بعض التجاوزات التي كان يتم تجاوزها عن طريق إهداء الهدايا للسلطان.

وعليه، يظهر أن الطائفة اليهودية لعبت دورًا مزدوجًا في المجتمع المريني، من خلال الدور الذي لعبته في الحياة السياسية، وكذلك في الجانب التجاري خاصة النخاسة التي جذبت اهتمامهم طيلة زمن طويل، لأرباحها الهائلة، ولكونها شكلت قطاعا اقتصاديا مفضلا لمردوديته المالية ومصدر ثروتهم الأول منذ القدم، احتلوا على إثرها مكانة بارزة في أسواق الرقيق في بلاد المغرب، كما لعبوا نفس الدور منذ القرن الثاني الهجري في مدينة نربونة الفرنسية، حيث اشتهروا بتجارة الرقيق والجواري والخصيان مع بلاد الأندلس، وصدروا الرقيق من جنوب إيطاليا ونابولي وبالرمو إلى العالم الإسلامي[١١٠].

٣/٣-المسيحيون

بالموازاة مع تزايد العنصر اليهودي بالمغرب المريني، عرفت البلاد تزايدا في توافد العنصر المسيحي عليه، على إثر ازدهار العلاقات الاقتصادية بين المرنيين والممالك النصرانية، فكان أن عمل عدد كبير من التجار إلى جانب المرتزقة النصارى في النشاط التجاري في المغرب، غير أننا لا نستطيع الجزم ما إذا كانوا مستقرين في المناطق المتاخمة للتجارة الصحراوية كاليهود، فهم بلا شك اقتصروا على السواحل لتفوقهم في التجارة البحرية، ولعبوا دور الوسيط التجاري وتاجروا في الرقيق شأنه شأن أي بضاعة أخرى وجدت في الأسواق.

لقد تمكنت القوى النصرانية من الحصول على امتيازات وتسهيلات في مراسي بلاد المغرب[١١١]، وهو ما يفهم من رسالة بعثها فرناندو الأول ملك أرغون إلى السلطان أبي سعيد، يشير إلى الحيف والضرر الذي لحق ببعض التجار المستقرين بسبتة... ويوصيه بهم خيرا[١١٢]، ولهذا كانت السلطة المرينية مدعوة إلى ضمان حماية التجار النصارى الذين ترددوا على الموانئ المغربية[١١٣]، إلى جانب توفيرها لعدة فنادق بأهم المدن التجارية خاصة للتجار الأوربيين[١١٤]، وكانت فاس أهم وجهة لهؤلاء التجار، حيث عمل عدد منهم من المسيحيين خاصة القطلانيون في تجارة العبيد، والتي كان يحصلون عليها من فاس مقابل المنسوجات والأحجار الكريمة والمعادن[١١٥].

٤/٣-فئة الوسطاء

وهي الفئة العاملة في التجارة إلى جانب التجار، أو كما يطلق عليهم الونشريسي[١١٦] اسم الدلالين والسماسرة، وهؤلاء لا تقل أهميتهم عن التجار الكبار في المجال التجاري. فالدلال أو السمسار هو الوسيط بين التجار فيما يتبايعونه أو يبيعونه إلى المشتري وقد يمتلك حانوتا لتصريف بضاعته، وكان ينزل عنده التجار الغرباء والسفار وعن طريقه يصرفون تجارتهم[١١٧]، وقد كان يستفيد من هذه العملية المربحة التي لا تكلفه رأسمالا سوى صوته الذي ينادى به على السلعة المراد بيعها، حيث كان يتقاضى نصف الربح من التاجر، وأحيانا قد يبيع السلعة بأكثر من السعر الذي حدده التاجر[١١٨]. وقد أشار مارمول إلى زقاق الدلالين بسوق فاس وقدرهم بنحو سبعين دلالا يحملون السلع من دكان إلى آخر ولا يسلمونها إلا للتاجر الذي يدفع أكثر[١١٩].

والمتاجرة بالعبيد لم تخرج عن هذا النطاق، فقد أشار المقري[١٢٠]، إلى "دلال في سوق الخدم"، حيث كان يسبق العبد مناديا بأعلى صوته: "مملوك! مملوك!"[١٢١]، حتى يلفت نظر الزبائن ومعلنا على السعر المطلوب أو الثمن المقترح عن كل رأس[١٢٢].

ورغم أن هذا النمط في البيع يعود للفترة الحديثة إلا أن هذا لم يمنعنا من الوقوف عنده، إذ في نظرنا لا يمثل سوى استمرار للظاهرة حتى فترة متأخرة.

خلاصة القول إن مهنة النخاسة جذبت لها تجارا من مختلف الأجناس وطبقات المجتمع، بغرض تحقيق الربح السريع، ورغم أن المصادر لم تشر إلى مهنتهم بشكل صريح إلا أنها مثلت حرفة أساسية في الأسواق، كما شكلت ركيزة أساسية في النشاط الاقتصادي خلال العصر الوسيط، لعب فيها المغرب دور الوسيط التجاري مع باقي الأقطار، ومع ذلك فإننا لا نستطيع الحديث عن تجارة منتظمة، أحدثت لها مؤسسات وشركات عالمية لها تجار محددين ومعروفين كما هو الحال في القرون التي تلتها، بل إن هؤلاء التجار كانوا يمارسون تجارة العبيد، إلى جانب تجارتهم بمواد أخرى.

رابعًا: أسواق النخاسة (آليات البيع والشراء)

٤/١-الاسواق

شكلت أسواق[١٢٣] النخاسة، قناة هامة من القنوات التي توفر الرقيق وتزخر كتب الحسبة والنوازل بذكر الأسواق، وإبراز ما شابها من عيوب مع ذكر حيل التجار لإخفائها أو تمويهها على المشتري. يعتبر السوق محطة رئيسة في حياة العبد/الأمة، باعتباره حدًا فاصلاً بين حياة الحرية والعبودية لدى بعضهم ومحطة أخرى داخل إطار العبودية، أي انتقالهم من سيد إلى آخر[١٢٤]. وقد عرفت المدن المغربية محطات وأسواق خاصة لبيع العبيد، وعرفت بأسماء مختلفة، مثل "المعرض"[١٢٥]، أو البركة[١٢٦]، أو سوق الخدم والعبيد[١٢٧].

ومن المدن التي شكلت مركز انطلاق قوافل الرقيق، درعة التي اعتبرت كأحد المراكز الرئيسة الموزعة لهذه البضاعة البشرية، فقد شكلت نقطة استراحة وعبور للقوافل التجارية المتجهة صوب السودان، ونظرًا لكثرة الرقيق بها، فقد كان حاكمها يخص ملك فاس بهدية، تشتمل على "خمسين عبدا وعشرة خصيان وخمسين أمة كلهم زنوج"[١٢٨]، لأن أهل هذه المنطقة يمتلكون عبيدا سودا من كلا الجنسين يلدون الأولاد[١٢٩]. ضف إلى ذلك مدينة تارودانت التي كانت قاعدة للإتجار برقيق الزنوج[١٣٠].

ومن المدن التي اهتمت بترويج تجارة العبيد، مدينة **سجلماسة** نظرًا لموقعها عند ملتقى عدة طرق تجارية وبوابة الصحراء، ومنها كانت تنطلق القوافل التجارية نحو بلاد السودان ومنها أيضًا كانت تتم عملية توزيع البضائع السودانية على المدن المغربية، وهي كما جاءت في وصف ابن الخطيب "إن الركبان كانت تسافر إليها من كل ناحية وصوب، ومنها كانت الأركاب تسافر إلى بلاد السودان للتجارة"[١٣١]، لأن أسواقها كانت مقصدا للنخاسين لشراء العبيد، فقد كان " يخرج أهلها إلى بلاد السودان بالملح والنحاس والودع، ويخرجون منها بالذهب والرقيق"[١٣٢]. لقد تعددت أسواق العبيد في المغرب المريني وكان سوق البركة أهمها على الإطلاق، فقد أشارت المصادر إلى تواجدها بمدينة **سلا**، التي عرفت بأسواقها "الممتازة حتى برقيق الحبشان"[١٣٣]، وهي إشارة توحي بوجود سوق للرقيق يشتمل على مختلف الأصناف، ضمت النوع الجيد والوحش منهم.

كما شاع في أسواق **فاس** بيع الرقيق وكان من السلع التي ازدهرت في مدن المغرب بوجه عام ومدينة فاس بوجه خاص، نظرا للإقبال الكبير عليه من لدن عامة وخاصة أهل فاس، ذلك أنها كانت من أكبر زبائن العبيد السود الذين استعملوا في جيش السلاطين، وفي حريم القصور ومنازل الخاصة[١٣٤]، حسب ما خصه ابن الخطيب في وصفه للمدينة في العصر المريني حين أشار إلى "وجود الرقيق (...) وتعدد الخدام"[١٣٥]. وقد أشار كل من الحسن الوزان[١٣٦]، وابن الخطيب[١٣٧]، إلى بيع العبيد السود في نفس سوق الخضر بمدينة فاس، هذا السوق الذي وصف حالته ابن عباد بأنها متسخة على الدوام[١٣٨]. إلى جانب بيعه في دور التجار، فقد أشار مارمول إلى منزل كبير بمدينة فاس يباع فيه الزنوج من الجنسين في كل مساء أو بعد الظهر قرب سوق الكتان[١٣٩].

ونظرًا لموقع فاس الاستراتيجي الذي مكنها من ربط طرق تجارية مع باقي أسواق بلاد المغرب، فقد كانت أهم صادراتها الرقيق الذي كان يجلب بالدرجة الأولى من بلاد السودان الغربي. والذي كان يوجه إلى الموانئ قصد تصديره، حيث شكل ميناء سبتة محط إقبال التجار من مختلف المناطق، فهي كما قال الإدريسي[١٤٠] "فالتجار يقصدونها من سائر البلاد، ويخرجون منها إلى جميع الجهات"، فإليها كان ينتهي ذهب ورقيق إفريقيا ليشحنها التجار الأجانب بعد ذلك إلى أوطانهم[١٤١]. يظهر إذن أن أسواق النخاسة قد انتشرت في عدد من مدن المغرب وهو ما أورده الونشريسي[١٤٢]، بـ "أن كل سوق من أسواق المغرب كان يحوي مكانا لبيع الرقيق".

٢/٤-معاملات البيع والشراء

كان يشترط في عملية بيع وشراء الرقيق، وجود عدد من الأطباء لإجراء الفحص اللازم للرقيق والتحقق من مدى سلامتهم ومدى قدرتهم وقابليتهم على الخدمة، قبل عرضهم للبيع في الأسواق التي كانت تعرف إقبالاً للزبناء من مختلف شرائح المجتمع.

حيث تميز النخاسين بأسلوب متميز في عرض بضاعتهم، ويتمثل في إبرازها للناظرين وربما هذا سبب تسمية سوق العبيد بالمعرض، كما هو الحال بالنسبة للأندلس[١٤٣]، والصورة نفسها ظلت في المغرب الأقصى حتى فترة متأخرة من القرن التاسع عشر بسوق مراكش، فالدلال يجر أمة أو أمتين، يدور دون توقف حول السوق عارضا سلعته لجذب انتباه الزبائن المشترين[١٤٤]، وعندما يحدث التوافق بين البائع والمشتري، كان يشترط أن تكتب عهدة أو وثيقة تثبت سلامة البيع والشراء وتؤكد على صحة ملكية المشتري للعبد أو الأمة[١٤٥]، مع تحديد تاريخ البيع وصفة المبيوع وثمنه واسم البائع والمشتري[١٤٦]. وفي حالة غياب البائع، أشار السقطي إلى ضرورة التحري عن أمر البائع وضرورة البحث عن (ضامن بلدي) يعوض غيابه، بقوله "ويؤمر النخاسون ألا يبيعوا لغير مشهور بالعين والاسم مملوكا أو مملوكة إلا بأن يعطي ضامنا بلديا معروفا بالعين والاسم، ولاسيما الغرباء الذين يحمرون المماليك من البلدان"[١٤٧]. هكذا كان للعقود أهمية كبرى في بيع الرقيق وشرائه، فليس هو من البضائع التي تباع وتشترى بمجرد "المعاطاة" أي تسليم المبيع، وإنما يعتبر من الممتلكات النفيسة التي لا يجوز انتقالها من ملك إلى آخر إلا بعد إمضاء عقد خاضع لصيغ شرعية مضبوطة، وإعلان عن بيع صريح لا لبس فيه[١٤٨].

لكن هناك ما ينفي هذا القول - أن الرقيق من الممتلكات النفيسة-، فالملاحظ من عقود البيوع أنها شبيهة بتلك التي كان يتعاقد عليها بالنسبة للحيوان[١٤٩]، وهي إشارة واضحة إلى مدى انحطاط وضعية العبيد إلى مرتبة الدواب. أما فيما يخص مواعيد البيع وقياسا على عادات أسواق الرقيق بالمشرق الإسلامي فإن بعضها كان يعطل يوم الجمعة، وأخرى تعطل أيامًا معلومة من الأسبوع، وينعقد السوق من الصباح - عادة منذ الساعة الثامنة - إلى الزوال، وأحيانًا إلى ما بعد الزوال[١٥٠].

أما بخصوص تنظيم الأسواق وتوفير الأمن، فقد حرص السلاطين المرينيون على تعيين محتسبين على الأسواق يقومون بشؤونها، ويسهرون على تنظيم الأسواق من خلال مراقبة السلع المعروضة ومدى سلامتها، غير أن المهمة الرئيسة التي انصب عليها اهتمام المحتسب تتجلى أساسًا في مقاومة كل أشكال الغش والتدليس خاصة تلك التي كانت سائدة في تجارة العبيد، حيث كان للمحتسب غلمان وأعوان ملتزمون بالأمانة والعفة في عملهم[١٥١]، وهذا ما دفع بالكثير من فقهاء ذلك العصر إلى استنكار الوضع والتأليف فيه.

٣/٤-الأسعار

كان الرقيق شأنهم شأن الدواب، يعتبرون سلعة وجب تحديد ثمنها، ولم يكن أصلهم يساهم في تحديد السعر وحده بل أيضًا استعمالهم ومدى مهارتهم، فبحث التجار عن مناطق التموين بهذه البضاعة الهامة، فاستوردوا الرقيق من بلاد الترك بآسيا الوسطى ومن بلاد الصقالبة، ومن مناطق قديمة كالنوبة والحبشة وسواحل أفريقيا الشرقية، ثم السودان الغربي الذي شكل المصدر الأول لتجارة الرقيق في تاريخ التجارة المغربية. وبهذا الخصوص سمحت لنا المصادر بتكوين نظرة بسيطة عن أسعار العبيد خلال العصر المريني. حيث كان الرقيق الأسود المصدر الأكثر أهمية لبلاد المغرب في تلك الآونة، وإن كان دون الرقيق الأبيض في المنزلة، إذ حظي بإقبال كبير من طرف الأسر والبيوتات الكبرى بالنظر إلى صبره على الأعمال الشاقة التي لا يطيقها غيره، وكذلك لوفائه وإخلاصه لمالكه، بالقياس إلى تصرفات الرقيق من عناصر أخرى[١٥٢].

فإتقان الجواري السود للطبخ أثار انتباه المغاربة منذ زمن مبكر، فقد أشار البكري إلى وجود "طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر، تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلويات وغير ذلك"[١٥٣]، وقد شجعت مهارتهن على اقتنائهن من قبل المغاربة وهو ما يبدو واضحا من رحلة ابن بطوطة الذي ذكر أن القافلة التي انتقل معها من تكدا إلى المغرب كانت تضم نحو ستمائة خادم[١٥٤]، وكان امتلاكهم من مؤشرات البذخ والترف، ولهذا انحصر الإقبال عليهن من طرف الفئة الثرية من المجتمع المغربي، كما أن الحصول على المتعلمات من العبيد السود كان نادرا وبالثمن الكثير، وقد تحدث ابن بطوطة عن صعوبة شراء الخادمة عند دخوله مدينة تكدا[١٥٥].

لم يكن الجانب المهاراتي وراء إقبال المغاربة على الجواري السود، بل نجد في ثنايا المصادر اعترافات بجمالهن وشبقهن، فهن " جواري حسان الوجوه، بيض الألوان، منثيات القدود، لا تنكسر لهن نهود، لطاف الخصور، ضخام الأرداف، واسعات الأكتاف، ضيقات الفروج المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا"[١٥٦]. ومدام كان هناك خبراء النخاسة فهم بلا شك نوهوا

بنساء أودغشت. كما استخدم هذا العنصر في الجيش، وكان يطلق عليهم الوصفان لسواد بشرتهم جنبًا إلى جنب المماليك، وكانت مهمتهم في الغالب حماية السلطان، كما جاء ذلك عند القلقشندي أن "السلطان كان دائما محاطا بعبيده ووصفانه ونقباءه"[١٥٧]. ويبدي استبدال العبيد بالدواب النظرة الدونية التي ميزت الإنسان (البضاعة)، ففي مملكة بورنو كان يمنح مقابل فرس واحد خمسة عشر أو عشرين عبدا[١٥٨]، أما في مدينة كاغوا التي تتوفر على سوق للعبيد، كانت تساوي الفتاة ذات خمس عشرة سنة نحو ستة مثاقيل، وكذلك الفتى تقريبا[١٥٩]، بينما في مدينة تكدا اشترى ابن بطوطة فتاة متعلمة بخمسة وعشرين مثقالاً[١٦٠] لأنهن كن باهظات الأثمان، ولهذا نجد البكري قبله قد حدد ثمنهم بمائة مثقال للواحدة بأودغشت[١٦١].

كما كان العبيد يباعون ويشترون بالودع[١٦٢]، إلى جانب الملح الذي كان ثمنه يستغل في شراء العبيد من بلاد السودان الغربي كما ذكر ذلك ابن حوقل[١٦٣]، وبالمثل شكل النحاس الذي كان يستعمل كعملة للتبادل التجاري داخل السودان الغربي، مادة، "يشترون بغلاظها العبيد والخدم"[١٦٤]. إلى جانب المعادن، شكل العبيد كبضاعة ثمينة استعمل في الهدية والصداق فملك السنغاي الأسكيا محمد الكبير(٨٩٨-٩٣٤هـ)، "أرسل هدية سنية إلى ملك فاس، مشتملة على خمسين عبدا أسودا وخمسين أمة كذلك، وعشر خصيان (...) وتقدر قيمة العبد الأسود بعشرين مثقالا للرأس، والإماء بخمسة عشر مثقالا للواحدة، والخصيان بأربعين مثقالا"[١٦٥] كما قدم شيخ منطقة تانيستا بدرعه هدية إلى ملك فاس عبارة عن خمسين عبدا وعشرة خصيان وخمسين أمة[١٦٦].

أما المصدر الثاني الذي كان يقتني منه المغرب العبيد الأبيض، فهو الغرب المسيحي فقبل اجتياح الطاعون الأسود لغرب أوربا وما أحدثه من استنزاف بشري، عرفت هذه المنطقة فائضا في أعداد العبيد، حتى إن دولها كانت تبيع العبيد للدول الإسلامية المتوسطية لبناء توازناتها المالية. فقد كان بإمكان شراء مجموعة من الرجال بمملكة أرغون مقابل ثمن فرس واحد[١٦٧]. وهو ما يمكن تأكيده من خلال الجواز الثاني للسلطان المريني أبو يوسف إلى نواحي اشبيلية أن "الرومية بيعت بمثقال ونصف، "لكثرتهن".[١٦٨]

وعندما نمعن النظر في الأسعار، يتبين أن الرقيق الأبيض كان أقل ثمنا مقارنة مع الرقيق السود. كما يمكن القول إن ثمن العبيد تفاوت بحسب الظروف والجنس والعمر والحالة الجسمانية شأنه شأن أي بضاعة تخضع لمتطلبات السوق. وحسب الصفات التي تميزه، من حنكة في الطبخ أو علم أو صنعة...، لذلك حرص النخاسون على تلقين الرقيق ما يرفع من ثمنه. هذا عن ثمن العبيد بمراكزه، لكن بمجرد ترحيله إلى الأسواق المغربية فبدون شك يزداد ثمنه بالنظر إلى المخاطر التي تحف تنقله وتكلفته، "فقد كان التجار مستائين وراغبين في ترك هذه التجارة، وعدم الرجوع إلى هذه البلاد أبدا"[١٦٩]، كما أن ثمن الخصيان قد يعادل ضعف ثمن العبد العادي[١٧٠]، وربما قد يفوقه نظرا لما تخلفه العملية من مخاطر الموت المحقق كما أشرنا إلى ذلك سلفا.

خَاتِمَةٌ

قصارى القول، أن حرفة النخاسة نشطت وتعاظمت مع انتشار الفتوحات الإسلامية، ومثلت منعطفًا جديدًا عندما لقيت رواجًا كبيرًا بسبب ازدياد الطلب على العبيد، وقد جر هذا التعاظم معه وظائف عدة لتسيير أمور هذه التجارة، فظهر الخاطفون في البر والقراصنة في عرض البحار إلى جانب الحرب والتجارة، بقصد جمع العبيد وتصديره إلى التجار والنخاسين، ليخرج الرق عن مفهومه الضيق الذي عرف في العصر القديم، ويصبح نخاسة وتجارة، ومهنة امتهنها الراغبون في الربح السريع من مختلف الملل، حيث عمل بها التجار المسلمون واليهود والمسيحيون بصورة منفصلة جغرافيا ولكنها متداخلة المجالات التجارية، وتاجروا بمختلف أنواع الرقيق بين أبيض وأسود كل حسب موقعه الجغرافي.

ولما كان الموقع الجغرافي لبلاد المغرب الأقصى قد جعل منه ممرًا حيويًا بالنسبة للمبادلات التجارية خلال العصر القديم وطيلة العصر الوسيط، فقد أهله بأن يقوم بدور الوسيط التجاري بين عوالم مختلفة وبلاد السودان بالخصوص، شكل العبيد فيه أهم هذه السلع التي كان يتم التبادل بها، نظرًا لما تمثله هذه التعاملات من إمكانيات مادية هامة أسهمت في تحقيق توازناته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، والعصر المريني لم يشكل استثناء في هذه العلاقات بل على العكس من ذلك ازدادت الروابط متانة وقوة.

الاحالات المرجعية:

(١) عبد السلام الترمانيني، **الرق ماضيه وحاضره**، مجلة عالم المعرفة، عدد ٢٣، ١٩٧٩، ص.١٧
(٢) حسن حافظ العلوي، التبادل التجاري بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في العصر الوسيط، **مجلة المناهل**، عدد ٣٩، سنة ١٩٩٠، ص. ٢٣٦
(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، مجلد ٦، دار صادر، بيروت، ص.٢٢٨
(٤) بنمليح عبد الاله، **الرق في بلاد المغرب والأندلس**، الانتشار العربي، بيروت – لبنان، ٢٠٠٤، ص. ٢٧٠
(٥) عبد الرحمان بن نصر الشيرازي، **نهاية الرتب في طلب الحسبة**، تحقيق، السيد الباز العريني، ط ٢، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ص. ٨٥
(٦) أبو العباس بن يحيى الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق، محمد حجي واخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٨١، م ٦، ص.٤٧
(٧) عبد العزيز عينوز، كلمة ألقاها في، **الرق في تاريخ المغرب**، ندوة نظمها مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني أحسن، ١٥ دجنبر، ط، ٢٠٠٩، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ٢٠١٠، ص.٦
(٨) محمد الناجي، الرق في المغرب جند وخدم وسراري، ترجمة محمد الغرايب، مطبعة التومي، سلا، ٢٠١٨.ص. ١٨
(٩) عبد الاله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، ص. ٧٠.
(١٠) أبو بكر المالكي، **رياض النفوس**، تحقيق، بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة الثانية، ١٩٩٤، ج.١، ص.١٠٧
(١١) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، ج ١، ص.٥٣
(١٢) البكري أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر افريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص.٤
(١٣) مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ٢١٢. البكري، مص. س، ص. ٢٨٦
(١٤) مجهول الاستبصار، ص ١٩٤. البكري، ص. ٢٢٨. أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، تاريخ **افريقية والمغرب**، تحقيق عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، طبعة الأولى، ١٩٩٠، ص.٧٧
(١٥) بولقطيب لحسين، **أوضاع الرقيق في المجتمع العربي الوسيط**، ندوة نظمها مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني أحسن، ١٥ دجنبر، ط، ٢٠٠٩، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ٢٠١٠، ص.٢٨
(١٦) أبو إسحاق ابراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني، مص. س، ص. ٧٢
(١٧) عبد الاله بنمليح، **الاسترقاق بين الحرب والتجارة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، رقم، ٦٦، سلسلة دراسات وبحوث، ٢٠، ٢٠٠٣، ص.٢٥
(١٨) الرقيق القيرواني، م.س، ص.٥١ -٥٢
(١٩) بولقطيب لحسين، مرجع سابق، ص. ٢٦
(٢٠) عصمت عبد اللطيف دندش، **الاندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطوائف الثاني**، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، طبعة الأولى، ١٩٨٨، ص.٢٠٨.
(٢١) أبو القاسم بن حوقل، **صورة الارض**، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ١٩٩٢، ص.١١٠
(٢٢) ابن عذاري، بيان المغرب، ج ١، ص.٢٣
(٢٣) البيدق، **اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور، الرباط،١٩٧١، ص. ٦٦
(٢٤) مجهول، **الحلل الموشية في الاخبار المراكشية**، تحقيق، سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة الأولى، ١٩٧٩ص.١٣٧
(٢٥) نفسه، ص.١٤٧
(٢٦) ابن القطان المراكشي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق، محمود مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة الأولى، ١٩٩٠، ص.١٦٠
(٢٧) عبد الملك بن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، تحقيق، عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٧، ص.٢٧٥
(٢٨) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، قسم الموحدين، تحقيق، محمد ابراهيم الكتاني واخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة الأولى، ١٩٨٥، ص.١٤٤-١٤٥
(٢٩) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة، عبد الوهاب بن منصور، طبعة ٢، ١٩٩٩، المطبعة الملكية، الرباط، ص.٢١٨
(٣٠) نفسه، ص.٢١٩. الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق، جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج ٢، ص.١٨٤
(٣١) ابن عذاري، مص. س، ص.٢٢٨
(٣٢) ابن عذاري، مص. س، ص. ٣٤٦
(٣٣) عبد العزيز العلوي، العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وإمبراطورية مالي، **مجلة كلية الآداب بفاس**، عدد ٥،١٩٨٩، ص.٦٣
(٣٤) نفسه، ص. ٥٧-٧١
(٣٥) ماجدة كريمي، **العلاقة بين المغرب والسودان على عهد المرينيين** (٦٦١-٩٥٧هـ/١٢٦٩-١٣٥٨م)، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ١٩٨٧-١٩٨٨، ص. ٣١٧
(٣٦) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق، علي المنتصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ج ٢، ص. ٨٠١
(٣٧) عن محمد الشريف، م.س، ص. ١٣٦
(٣٨) بوفيل، مرجع سابق، ص.١٧
(٣٩) أبو عبد الله الشريف الإدريسي، **م.س**، ص. ١٨
(٤٠) أبو عبيد الله البكري، **م.س**، ص.٢٨١-٢٨٢
(٤١) بوفيل، م.س، ص.٦٠٤
(٤٢) الناصري، م.س، ج.٥، ص.٩٧
(٤٣) نفسه، ص. ١٥٢
(٤٤) ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص ٩١. الإدريسي، م.س، ص. ١٩
(٤٥) الوزان، م.س، ج ٢، ص.١٦٦
(٤٦) نفسه، ج ٢، ص.١٧٦

(٤٧) الودع: من ضمن الأشياء التي وقع تحديد أسعارها العبيد، فقد تحدد سعر العبد ب ٣٠٠ ودع، والودع هو الصدف السوداني المعروف وكان يسمى بالسودانية كورى. محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، ج.٢، مؤسسة الفلج للطباعة والنشر، ص. ٥٧
(٤٨) ابن حوقل، م.س، ص. ٩٨
(٤٩) ابن بطوطة، م.س، ٧٩٨
(٥٠) مصطفى نشاط، جوانب من الديمغرافيا التاريخية لليهود والنصارى بالمغرب في العصر الوسيط، **مجلة كنانيش**، عدد ١، ص. ٧٣
(٥١) العروي عبد الله، مرجع سابق، ج ٢، ص.٢٢٤
(٥٢) ماجدة كريمي، مرجع سابق، ص. ٣١٧
(٥٣) بولقطيب لحسين، **حفريات في تاريخ المغرب الوسيط**، جذور للنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، ص.٧٧
(٥٤) حميد تيتاو، **المجتمع والحرب**، منشورات عكاظ، ٢٠١٠، ص.٣٢٤.
(٥٥) علي بن ابي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الرباط، ١٩٧٢، ص.٢٨. الانيس المطرب، ص.٣٨٦. ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ج ٧ ص.٢٢٥
(٥٦) علي بن أبي زرع، الانيس المطرب، ص.٣٩٩
(٥٧) علي ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص.١١٧. العبر، ج.٧، ص. ٢٤١
(٥٨) علي بن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص.١٢٢.الانيس المطرب، ص.٤٠١.ابن خلدون، ج ٧، ص.٢٤٢. الاسقصا، ج ٣، ص.٢٧
(٥٩) علي بن أبي زرع، روض القرطاس، ص.٤٩٢
(٦٠) الذخيرة السنية، ص.١١٦ .الأنيس المطرب، ص.٣٩٩. ابن الأحمر، **روضة النسرين**، تحقيق، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص.٦٠، العبر، م.س، ج ٧، ص.٢٤٤.
(٦١) ابن خلدون، ج.٧، ص.٢٤. ج. ٤-٢٤٥
(٦٢) ابن خلدون، ج.٧، ص. ٣٨١-٣٨٢
(٦٣) ابن الأحمر، روضة النسرين، ص.٦٥ -٦٦
(٦٤) حميد تايتاو، م.س، ص. ٣٢٩
(٦٥) ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص.٤١٢
(٦٦) نفسه، ص. ٤١٢. إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، طبعة ٢٠٠٠، ج.٢، ص. ٢٠
(٦٧) علي بن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص. ١٥٩. روض القرطاس، ص. ٤١٩
(٦٨) أحمد بن المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، ج.٥، تحقيق، يوسف الشيخ محمد اللبقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر، ص. ٢٥٢
(٦٩) الأنيس المطرب، ص.٤٤٧ -٤٥١
(70) Gautier-Dalché,Jean, Islam et chrétienté en Espagne au XII siècle , contribution à l'étude de la notion de frontière,Hespéris,Année,3-4 trimestre,Tom XLXII ,1959,p.214
(٧١) إبراهيم القادري بوتشيش، **الإسلام السري في المغرب العربي**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص.٢٣٥-٢٣٦
(٧٢) عبد الاله بنمليح، **الاسترقاق بين الحرب والتجارة**، منشورات كلية الآداب، وجدة، رقم ٦٦، ٢٠٠٣
(73) Henri Wallon, **Histoire de l' esclavage dans l'antiquité**, Rebert la Font, Paris,1988.
(٧٤) نشاط مصطفى، **جوانب من الديمغرافيا التاريخية** ....، ص.٧٣.
(٧٥) حميد تيتاو، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني**، منشورات عكاظ،٢٠١٠، ص.٣٣٢.
(٧٦) بنمليح عبد الإله، مرجع سابق، صص.٦٥-٦٧
(٧٧) محمد سالم ولد محمدو، **الرق في موريطانيا وأبعاده الشرعية والسياسية**، طبعة أولى،٢٠١٢، الرباط، ص. ٤٣
(٧٨) الترمانيني عبد السلام، ص.١٧
(٧٩) ابن عذاري، المراكشي، **البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب**، ج ١، تحقيق كولان ج س وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ط، ص. ١٤٠.
(٨٠) عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف للتعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٢، ص. ٦١.
(٨١) الحسن الوزان، م.س، ج ١، ص.٦٥.
(٨٢) الوزان، مص. س، ج.٢، ص.١٧٤
(٨٣) نفسه، ج.٢، ص.١٧٤
(٨٤) نفسه، ص. ٢٦٠
(٨٥) الزركشي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، د.ت، ص.٧٩
(٨٦) ابن سهل، **ديوان الأحكام الكبرى**، تحقيق، يحيى مراد، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠٧، ص.٣٢٣
(٨٧) الإدريسي، مص. س، ص.٢٣٢.
(٨٨) ابن حوقل، مص. س، ص.٦٥.
(٨٩) روجية لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة نقولا زيادة، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٦٨، ص. ١٥٩
(٩٠) محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط الدولة المدينة الاقتصاد**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، رقم ٢٤، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، طبعة الأولى، ١٩٩٩، ص.٣٣٢. حسن حافظي العلوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٧، ص. ٣٩٢
(٩١) ابن خلدون، المقدمة، ج.١، ص. ٢٧١
(٩٢) العلوي عبد العزيز، علاقة التجارة الصحراوية بالتجارة البحرية في المغرب المريني، **أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، ج.٢، جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، الدار البيضاء، فبراير، ١٩٨٩، ص. ٢٦٧-٢٦٨
(٩٣) ابن بطوطة، مص. س، ص.٦٧٧-٦٨١
(٩٤) الحسن الوزان، مص. س، ص.١٧٦-١٧٧
(٩٥) ابن بطوطة، مص. س، ص. ٦٨١.
(٩٦) البكري، مص. س، ص. ٢٨٢
(٩٧) المقري، مص. س، ج.٥، ص. ٢٠٥
(٩٨) ابن فضل الله العمري، مص. س، ص. ٦٠
(٩٩) ابن بطوطة، مص. س، ص.٧٩٨

(١٠٠) محمد الشريف، مرجع سابق، ص. ١٣٩
(101) Rosenberger,**Les vieilles exploitations Minières et les anciens métallurgique du Maroc,** (2) 1 partie, N17,p. 75.
(١٠٢) الحميري، الروض المعطار، ص. ٣٠٦
(١٠٣) ماجدة كريمي، مرجع سابق، ص. ٢٨٩
(104) André Chouraqui, **Histoire des juifs en Afrique du Nord**, Nouvelle édition Mise à jour, 1987, p. 147.
(١٠٥) مصطفى نشاط، مرجع سابق، ص. ٦٧-٦٨.
(١٠٦) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج ٢، ص.٢٤٦.
(١٠٧) ماجدة كريمي، م. س، ص.٢٩
(١٠٨) ابن الأحمر، **بيوتات فاس**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص. ٢٤
(١٠٩) مصطفى نشاط، **إطلالات على تاريخ الحضارة المرينية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، رقم ٧٣، مطبعة شمس وجدة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣، ص. ٦٧-٧٠
(١١٠) عبد الرحمان بشير، **اليهود في المغرب العربي**، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، الهرم، ص. ٨٦
(١١١) عزاوي أحمد، المغرب بين الصمود والتراجع، قراءة وثائقية في رسائل القرون ٦-٨هـ/١٤١٢م، **مجلة أمل**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، السنة السابعة، عدد ٢١، ٢٠٠٠، ص. ١٤٠
(١١٢) محمد بن تاويت التطواني، **تاريخ سبتة**، دار الثقافة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص. ١٧٦
(١١٣) مصطفى نشاط، مرجع سابق، ص. ٦٩
(١١٤) الحسن الوزان، ج١، ص. ٩٧. مارمول، ج.٢، ص. ١٧٥
(115) Mas Latrie, (L.De) , **Relations et commerce de l'Afrique septentrionale au Maghreb avec Les nations chrétiennes au moyen âge,** bibliothèque de l'école des chartes, Paris, 1886, PP. 376-116
(١١٦) الونشريسي، المعيار، ج.٨، ص. ٣٥٥
(١١٧) السقطي، م.س، ص. ٦٠
(١١٨) الونشريسي، المعيار، ج.٥، ص. ١٩٢
(١١٩) مارمول، افريقيا، ج.٢، ص. ١٤٩
(١٢٠) المقري، نفح الطيب، ج.٥، ص. ٤٨٦
(١٢١) ليون كودار، **العبيد والمجتمع في مغرب القرن التاسع عشر**، ترجمة محمد العيوض، ضمن ندوة الرق... ص. ٢١١
(١٢٢) أ. مارسي، **سوق تقليب وبيع العبيد بمراكش مع نهاية القرن التاسع عشر**، ترجمة محمد الغرايب، ضمن ندوة الرق، ص. ٢١٥
(١٢٣) السوق كما جاء عند ابن منظور، هو موضع البياعات والسوق الذي يتعامل فيها تذكر وتؤنث...والجمع أسواق ...وتسوق القوم إذا باعوا واشتروا، وفي حديث الجمعة: إذا جاءت سويقة أي تجارة، وهي تصغير السوق سميت بها لأن التجارة تجلب إليها وتساق المبيعات نحوها. ابن منظور، م.س، ج ١، ص.١٦٧-١٦٨.
(١٢٤) عبد الاله بنمليح، الرق في بلاد المغرب والأندلس، ص.٢٢٣.
(١٢٥) السقطي، مص. س، ص. ٤٨.
(١٢٦) تطلق البركة في كتب الحوليات على سوق النخاسة التي يباع فيها العبيد ببعض المدن المغربية كمراكش والرباط وسلا. ففي فاس التي كانت تحتل الصدارة في تجارة الرقيق بعد مراكش. كان بيع العبيد بالمزاد العلني يتم في سوق الغزل بين صلاة العصر وغروب الشمس. هذا السوق الذي هو عبارة عن ساحة محاطة بحوانيت، له تسميات أخرى مرتبطة بالبضاعات المعروضة فيه، ففي أول الصباح تباع فيه الصوف ومن هنا تسميته بسوق الغزل. ثم بعد ذلك أي في الثامنة أو التاسعة حسب الفصول، تباع فيه الحبوب ويدعى بين السواري. أما البركة فتطلق عليه إبان بيع العبيد، وكانت بركة العدوتين الرباط وسلا في باب القنانط أمام باب قصبة الأوداية...ونعت سوق النخاسة بالبركة الموجود في عدة مدن بافريقيا الشمالية. ولا يعرف بدقة كيف تم ذلك وهل له علاقة بتسمية سوق البهائم رغم أن العبيد تباع برحبة البهائم في عدة أماكن وخصوصا في الأسواق القروية. وحسب Marçais ربما أطلقت البركة في البداية على سوق للعبيد في مدينة ما من مدن شمال افريقيا يوجد قرب بركة ماء، ثم بعد ذلك عممت التسمية على أسواق النخاسة. محمد الناجي، **معلمة المغرب، مادة البركة**،ج ٤ ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا ، ١٩٩١ص. ١١٨٤
(١٢٧) ابن عباد الرندي، **الرسائل الكبرى**، طبعة حجرية، د. ت، ص. ٢٤١.المقري، ص.٤٨٦
(١٢٨) الحسن الوزان، ج ٢، ١٧٤
(١٢٩) نفسه، ص. ١٢٠
(١٣٠) مارمول كربخال، مص. س، ص. ٣١
(١٣١) ابن الخطيب لسان الدين، م. س، ص. ٤١٧
(١٣٢) القلقشندي احمد بن علي، م. س، ج. ٥، ص. ١٤٦
(١٣٣) نفسه، ص. ١٥٢.
(١٣٤) عبد العزيز العلوي، م.س، ص.٩١-٩٦.
(١٣٥) نفسه، ص. ١٧٢
(١٣٦) الحسن الوزان، م.س، ج ١، ٢٤١.
(١٣٧) لسان الدين بن الخطيب، **معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق، محمد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك، المحمدية، ١٩٧٦، ص.١٧٢
(١٣٨) ابن عباد الرندي، م س، ص.٢٤١.
(١٣٩) مارمول، مص. س، ج ٢، ص. ١٥٣.
(١٤٠) الإدريسي، مص. س، ص. ١٨٣
(١٤١) لحسين بو لقطيب، م. س، ص. ٦٠
(١٤٢) كمال السيد أبو مصطفى، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي**، من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، جامعة الإسكندرية، ط ١٩٩٦، ص.٧٢
(١٤٣) السقطي، مص. س، ص. ٤٨
(١٤٤) أ.مارسي، مرجع سابق، ص. ٢١٦
(١٤٥) ابن سهل، مص. س، ص. ٤٨. انظر الملحق كتب البيوع، ص.
(١٤٦) القاضي أبي إسحاق الغرناطي، **الوثائق المختصرة**، تحقيق، مصطفى ناجي، مركز إحياء التراث المغربي، ط.١ الرباط، ١٩٨٨، ص. ٣٠
(١٤٧) السقطي، مص. س، ص. ٥٢
(١٤٨) توفيق بن عامر، **الحضارة الإسلامية وتجارة الرقيق خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة**، أطروحة دكتوراه الدولة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ١٩٩١، ص. ٣٣٨
(١٤٩) نفسه، ص. ٣٢
(١٥٠) عبد الإله بنمليح، م. س، ص. ٢٢٥
(١٥١) الشيرازي، م. س، ص. ١٠

(١٥٢) إبراهيم حركات، المجتمع الإسلامي ... ص.٩٢
(١٥٣) البكري، م.س، ص. ٢٨٢
(١٥٤) ابن بطوطة، م.س، ص. ٨٠١
(١٥٥) ابن بطوطة، ص.٧٩٨
(١٥٦) البكري، م.س، ص. ٢٨٢. محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تح، إحسان عباس، لبنان، ص.٦٤
(١٥٧) القلقشندي، م. س، ص. ٢٠٢
(١٥٨) الحسن الوزان، ج ٢، ص. ١٧٦
(١٥٩) نفسه، ص. ١٦٩
(١٦٠) ابن بطوطة، ج ٢، ص. ٧٩٩
(١٦١) البكري، م.س، ص. ٢٨٢
(١٦٢) الودع: من ضمن الأشياء التي وقع تحديد أسعارها العبيد، فقد تحدد سعر العبد ب ٣٠٠ ودع، والودع هو الصدف السوداني المعروف وكان يسمى بالسودانية كورى. محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، ج.٢، مؤسسة الفلج للطباعة والنشر، ص. ٥٧
(١٦٣) ابن حوقل، م.س، ص. ٩٨
(١٦٤) ابن بطوطة، م.س، ٧٩٨
(١٦٥) نفسه، ج.٢، ص.١٧٤
(١٦٦) نفسه، ج.٢، ص.١٧٤
(١٦٧) مصطفى نشاط، جوانب من الديمغرافيا التاريخية لليهود والنصارى بالمغرب في العصر الوسيط، **مجلة كنانيش**، عدد ١، ص. ٧٣
(١٦٨) علي بن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص. ١٥٩. روض القرطاس، ص. ٤١٩
(١٦٩) حسن الوزان، ج.٢، ص ١٧٧
(١٧٠) نفسه، ج.٢، ص. ١٧٤



ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب مشرقة من تاريخ العلاقات المغربية الشامية
خلال العصر الوسيط



د. نور الدين امعيط
أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة شعيب الدكالي
الجديدة – المملكة المغربية

مُلَخّص

يكتسي استدعاء الذاكرة التاريخية لمواضيع تخص العلاقات بين البلدان العربية والإسلامية، أهمية قصوى، ليس بقصد استحضار مظاهر وجدور العلاقات المتميزة بين أقطار الأمة الواحدة فحسب، ولكن بهدف استنهاض الهمم ورص الصفوف والتذكير بالثوابت، وذلك بعدما ابتعدت الأجيال الصاعدة عن تأمل تاريخها، حيث أعمت بصيرتها فواصل الحدود والدعاية الإقليمية التي كرستها الدوائر الاستعمارية. ولئن كان الحديث عن العلاقات بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد الشام التاريخية الكبرى، يقتضي الوقوف على مظاهر التأثير والتأثر بين هذين الجناحين من العالم الإسلامي، وأن لفظة العلاقات دون إضافة، تحيل على موضوع شاسع يشمل مختلف الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإننا نسعى من خلال هذه الدراسة إلى التركيز أساسًا على الجوانب المشرقة في العلاقات المغربية الشامية من خلال الوقوف على أصالة هذه العلاقات، ودواعي استقرار المغاربة ببلاد الشام، ومشاركتهم الفعالة إلى جانب إخوانهم الشاميين في صد الهجمات الصليبية، مع إبراز مظاهر المحبة والإشادة المتبادلة بين المغاربة وأهل الشام خلال العصر الوسيط. وقد أوضحت الدراسة أصالة العلاقات المغربية الشامية وعراقتها، وروح التآزر والتضامن والشعور بالوحدة الذي ميز أبناء الأمة الإسلامية خلال مراحل مختلفة من العصر الوسيط، وذلك على الرغم مما شهدته الأمة الإسلامية من انقسامات سياسية واختلافات مذهبية، وقد ظهرت روح التآزر جلية في انخراط أعداد هائلة من المغاربة على اختلاف أصولهم في الجهاد ضد الصليبيين، والمساهمة بفعالية إلى جانب إخوانهم المشارقة في المعارك البرية والبحرية ضد الغزو الصليبي لحماية البقاع المقدسة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٨	يونيو	٢٠٢١
تـاريخ قبـول النشـر:	٠٢	يوليو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

المغاربة؛ الفتوحات الإسلامية؛ بلاد الشام؛ الحروب الصليبية؛ صلاح الدين الأيوبي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2021.247100 DOI

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

نور الدين امعيط. "جوانب مشرقة من تاريخ العلاقات المغربية الشامية: خلال العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٤٧ – ٥٦.

Corresponding author: nour7404@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةٌ

يكتسي استدعاء الذاكرة التاريخية لمواضيع تخص العلاقات بين البلدان العربية والإسلامية، أهمية قصوى، ليس بقصد استحضار مظاهر وجذور العلاقات المتميزة بين أقطار الأمة الواحدة فحسب، ولكن بهدف استنهاض الهمم ورص الصفوف والتذكير بالثوابت، وذلك بعدما ابتعدت الأجيال الصاعدة عن تأمل تاريخها، حيث أعمت بصيرتها فواصل الحدود والدعاية الإقليمية التي كرستها الدوائر الاستعمارية.

ولئن كان الحديث عن العلاقات بين بلاد المغرب الإسلامي[١] وبلاد الشام التاريخية الكبرى[٢]، يقتضي الوقوف على مظاهر التأثير والتأثر بين هذين الجناحين من العالم الإسلامي، وأن لفظة العلاقات دون إضافة، تحيل على موضوع شاسع يشمل مختلف الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، فإننا نسعى من خلال هذه الدراسة التركيز أساسًا على الجوانب المشرقة في العلاقات المغربية الشامية من خلال الوقوف على أصالة هذه العلاقات ودواعي استقرار المغاربة ببلاد الشام ومشاركتهم الفاعلة إلى جانب إخوانهم الشاميين في صد الهجمات الصليبية، مع إبراز مظاهر المحبة والإشادة المتبادلة بين المغاربة وأهل الشام خلال العصر الوسيط.

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة أساسًا على كتب الجغرافيا والرحلات كجغرافية الزهري (ت.٥٤١ هـ)، ونزهة الإدريسي (ت.٥٥٩هـ) ورحلة ابن جبير البلنسي (ت.٥٨١هـ) ومعجم ياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـ) ورحلة ابن بطوطة الطنجي (ت٧٧٩هـ)، فضلا عن بعض كتب التراجم كالذيل على الروضتين لأبي شامة المقدسي (ت.٦٦٥هـ)، وعيون الأنباء لابن أبي أصيبعة الدمشقي (ت.٦٦٨هـ) والوافي بالوفيات للصفدي(ت٧٦٤هـ)، إضافة إلى مصادر أخرى، ودراسات ذات صلة بالموضوع.

أولاً: ملاحظات منهجية

إن حدود بلاد الشام التاريخية خلال العصر الوسيط، كانت ممتدة على مجال جغرافي شاسع، يضم أرض سوريا ولبنان وفلسطين والأردن، وهو تقسيم حديث من صنيعة الدوائر الاستعمارية.

إن تسمية الأردن، هي تسمية تاريخية أصيلة، لها ما يبررها في المصادر المغربية والمشرقية خلال العصر الوسيط، ليس كجزء من بلاد الشام فحسب، ولكن ككيان له مميزاته ومعالمه الجغرافية والتاريخية، ولا غرو، فهناك إشارات واضحة عند كل من الإدريسي في نزهته[٣]، والزهري في جغرافيته[٤]، وياقوت الحموي في معجمه[٥]، فهؤلاء جميعا يذكرون نهر الأردن، ومدينة عمان، والعقبة والكرك وغيرها.

ندرة الدراسات التي اعتنت بالعلاقات المغربية الشامية خلال العصر الوسيط، لا سيما تلك التي تخص الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، ولعل مرد ذلك إلى قلة الإشارات المصدرية الواردة بشأنها، وهو ما انعكس سلبا على حصيلة أبحاث الدارسين في هذا المجال، فباستثناء كتاب الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام للدكتور أحمد علي[٦]، وكتاب وقفات في تاريخ بلاد الشام للدكتور عبد المجيد بهيني[٧]، وكتاب بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب للدكتور إبراهيم القادري بوتشيش[٨] وكتاب زكي النقاش[٩]، لا نكاد نصادف دراسة متخصصة، ذات صلة مباشرة بالموضوع[١٠].

ثانيًا: أصالة العلاقات المغربية الشامية

لا شك أن تاريخ العلاقات المغربية الشامية، يعود إلى فترات تاريخية ضاربة في القدم، فقد كان لبلاد الشام دور كبير في تعريب المغرب الكبير منذ أوائل القرن الحادي عشر قبل الميلاد، أي أزيد من ثلاثة آلاف سنة حيث دخل الكنعانيون العرب إلى القسم الشمالي-الغربي من القارة الأفريقية، وأسسوا عام ١١٠١ قبل الميلاد العديد من المدن والمراكز التجارية من قبيل "ليكسو" في المغرب الأقصى وعتيقة (Utique) في تونس ولبدة (Leptis Magus) في ليبيا، كما أعقب ذلك تأسيس مدينة قرطاج(Carthage) سنة ٨١٤ ق.م[١١].

ويبدو أن الحضور القرطاجي بالشمال الإفريقي، قد فسح المجال للكنعانيين العرب لنشر لغتهم البونية (Langue punique) بمناطق شاسعة من المغرب الكبير، إلى جانب العامية الدارجة بالمنطقة، وهو ما توصلت إليه بعض الأبحاث الأنثربولوجية التي أكدت تسرب اللغة البونية إلى المغرب مع القرطاجيين وظلت متغلغلة بالبادية المغربية إلى نهاية عهد الوندال أي إلى عهد الفتح الإسلامي[١٢].

وإذا كانت الفتوحات الإسلامية قد دشنت لعلاقات رسمية بين بلاد المغرب الإسلامي وبلاد الشام، منذ عهد الفاتح العربي عقبة بن نافع، فإن هذه العلاقات ستترسخ أكثر بفتح الأندلس سنة ٩٢هـ/٧١٢م، إثر انطلاق جند الخليفة الأموي من دمشق بقيادة موسى ابن نصير، وخليفته طارق بن زياد، ضمن جيش يقدر بنحو عشرة آلاف رجل، معظمهم من العرب القيسية واليمنية، وهو ما أسفر عن استقرار عدد مهم من الأسر الشامية بالأندلس محققة اندماجا أثنيا وثقافيا مع السكان المحليين بالبيئة الجديدة.

وقد ازدادت الروابط السياسية والثقافية، بين بلاد الشام والمغرب الإسلامي متانة، منذ دخول الأمير الأموي الشامي عبد الرحمان بن معاوية بن هشام المعروف بعبد الرحمان الداخل، إلى المغرب ومنها إلى الأندلس سنة ١٣٧هـ، حيث فر هذا الأمير رفقة مولاه بدر إلى مصر ومنها إلى القيروان، ثم إلى قبيلة نفزة حيث أخواله بسبتة التي مكث بها خمس سنوات قبل هجرته إلى الأندلس مستغلا الشقاق القائم بين القيسية واليمنية هناك[١٣]. وذكر المقري عددًا مهمًا من الشاميين ممن دخلوا بلاد الأندلس من ولاة الأمويين، ففضلا عن عبد الرحمان الداخل، هناك جزي بن عبد العزيز، وزرعة بن روح الشامي، ويحيى بن عبد الرحمان القيسي الدمشقي، وزرياب علي بن نافع المغني، والولي يوسف الدمشقي، وغيرهم كثير[١٤].

وبحكم التواصل التاريخي بين العدوتين المغربية والأندلسية، فقد دخلت عبر الأندلس العديد من الأسر الشامية الأصل إلى مدينة فاس، خاصة بعد وقعة الربض سنة (٢٠٢هـ/٨١٨م)[١٥]، وهي الوقعة التي أسفرت عن طرد الأندلسيين من طرف الحكم بن عبد الرحمان الداخل حين انهمك في ملذاته فخلعه العلماء بقرطبة، فكان رده أن أجلاهم إلى فاس والإسكندرية[١٦]. واستمرت علاقات التأثير والتأثر بين بلاد المغرب وبلاد الشام خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، على مستويات عدة أهمها الحضارة والفكر، فقد دخلت في بناء جامع القرويين سنة ٢٤٥هـ عناصر من فنون دمشق، وأضاف الناصر الأموي سنة ٣٤٥هـ اثني عشر بلاطًا جديدًا لمسجد قرطبة، وحول المنارة إلى مكانها الحالي، وغلف بابها بصفائح النحاس الأصفر مع قبة صغيرة مزينة بتفافيح مموهة بالذهب، وبذلك اندمجت عناصر المعمار الشامي بإضافة الفن الأندلسي المغربي بالمسجد الأموي بقرطبة وبمدينتي الزهراء والزاهرة[١٧]، كما اصطبغت معظم كبريات المدن المغربية بالطابع الشرقي حتى شبه المؤرخون مدينة فاس بدمشق، بل إن مدينة حمص أحد أرباض فاس الجديد، هي عبارة عن قصبة أسست للرماة الغز الواردين من مدينة حمص السورية[١٨].

وإذا كان التواصل الحضاري المباشر بين بلاد الشام والمغرب الإسلامي، قد ظل محافظا على استمراريته منذ القرن الأول الهجري إلى القرن العاشر الهجري، في رأي أحد الباحثين[١٩]، فإن هذا التواصل لم ينقطع يوما، إذ لا يزال مستمرًا، بحسب تقديرنا، إلى حدود الفترة الراهنة.

ثالثًا: دواعي الحضور المغربي في بلاد الشام

لا شك أن الحضور المغربي العريق ببلاد الشام، يعكس مظاهر العلاقات المتينة بين المغرب الإسلامي، وأرض الشام التاريخية الكبرى، فهي علاقات ضاربة في أعماق التاريخ، تتعدى الحقبة الوسيطية إلى العصور القديمة. وإذا كانت رحلات المغاربة والأندلسيين حتى القرن الخامس الهجري، هي رحلات مؤقتة، فإن رحلاتهم اللاحقة صارت من أجل الاستقرار الدائم والمجاورة في محيط الأماكن المقدسة ببلاد الشام والحجاز، كما غذا المشرق العربي ومنه بلاد الشام، مقصدا للمغاربة والأندلسيين الذين ضاع ملكهم بالأندلس، وقد وجدوا هنالك أرضا خصبة وظروفا ملائمة للاستقرار فانخرطوا في الحياة الاجتماعية[٢٠].

وعلى الرغم من ارتباط المغاربة ببلاد الشام، ارتباطا روحيا ووجدانيا، فإن الإشارات المصدرية لا تسعف في تحديد تاريخ محدد ودقيق لبداية توافد المغاربة على البلاد الشامية، غير أن بعض الرحالة المغاربة، قد أفصحوا عن تاريخ رحلاتهم التي استمر بعضها مدة طويلة، ففضلا عن الرحلات الدينية التي كانت تهدف لزيارة البقاع المقدسة خاصة المسجد الأقصى، هناك رحلات علمية لمغاربة قصدوا المشرق الإسلامي وزاروا بلاد الشام، وكان مقصدهم استكمال تكوينهم العلمي على يد الشيوخ المشارقة والحصول على الإجازات[٢١]. وقد تعددت دواعي وأسباب الحضور المغربي ببلاد الشام خلال العصر الوسيط، كما تعددت مظاهر هذا الحضور من خلال المجالات التي اشتغل فيها المغاربة هناك، وما لقوه من ترحاب وكرم الضيافة، فاندمجوا اندماجا كليا داخل المجتمع الشامي، ولا أدل على ذلك من تداول بعض الألقاب المغربية بالشام كلقب الفاسي والمغربي والتاهرتي والطرابلسي وغيرها.

ويبدو أن الحضور المغربي بالشام، قد ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالظروف الاقتصادية والسياسية والفكرية للبلدان المستقطبة، حيث استقبلت بلدان الشام ومصر النصيب الأوفر من هؤلاء المهاجرين، عكس مدن الحجاز التي لم تشكل منطقة جدب، رغم مكانتها الروحية، ويرجح أن يكون ذلك راجع إلى قساوة مناخها وفقر مواردها الطبيعية خلال الحقبة الوسيطية[٢٢]. وقد أبرز أحد الباحثين[٢٣] أن دواعي استقرار المغاربة ببلاد الشام خلال العصر الوسيط، قد ارتبطت بالساحتين الشامية والمغربية-الأندلسية على حد سواء، على أن الدواعي المرتبطة بالساحة المغربية كمنطقة طرد، اتسمت

بالسلبية في مجموعها، مما أجبر العديد من الأسر على النزوح عن وطنهم بصفة دائمة.

ولعل من أسباب نزوح المغاربة والأندلسيين إلى أرض الشام، سقوط الخلافة الأموية سنة٤٢٢هـ، وظهور دويلات ملوك الطوائف، مع ما نتج عن ذلك من تدهور أوضاع أهل الأندلس اقتصاديا واجتماعيًا ونفسيًا. فضلاً عن خضوع المجال المغربي الأندلسي لحكم دول ذات مبادئ مذهبية وسياسية مختلفة كدولتي المرابطين(٤٨٥-٥٤١هـ) والموحدين(٥٤١-٦٦٨هـ)، وهو ما صاحبه تبدل عقائدي انعكس سلبًا على فئة مهمة من الأندلسيين الذين تضررت مصالحهم فتحولوا إلى فئات معارضة للحكم وبحثوا عن مواطن جديدة آمنة لهم من خلال الهجرة إلى المشرق ومنها بلاد الشام[٢٤]. وفي هذا الصدد ذكر المقري[٢٥] هروب والد أبي بكر بن العربي إلى بلاد الشام إثر سقوط ملوك الطوائف، كما ذكر ابن جبير[٢٦] في رحلته أن أمين الربوة المباركة بدمشق المدعو أبو الربيع ابن سليمان بن إبراهيم بن مالك، قد نزح إلى بلاد الشام عقب سقوط الدولة المرابطية.

ويبدو أن الحضور المغربي ببلاد الشام قد تعزز أكثر، بعد النصف الثاني من القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، بفعل تراجع النفوذ الإسلامي بالأندلس وتزايد عمليات الطرد وحروب الاسترداد وسقوط أغلب المدن الأندلسية بيد المسيحيين، خاصة بعد سنة ٦٥٩هـ وتوالي الحملات الصليبية على بلاد المشرق، فضلا عن عوامل أخرى ارتبطت باضطرابات الفترات الانتقالية، وتحركات القبائل الهلالية بالمنطقة، مما دفع بلجوء الكثير من المغاربة إلى بلاد الشام[٢٧]. ولا شك أن ما توفرت عليه ربوع بلاد الشام من خيرات اقتصادية وافرة[٢٨]، وإنتاج زراعي وصناعي متنوع، وتجارة نشيطة بالحوض المتوسطي، وموقع استراتيجي رفيع، قد شكل عوامل جذب للمغاربة قصد الاستقرار بالشام، فضلا عما تميز به الشاميون من شيم الكرم والجود، ومساعدة الغريب، وكرم الضيافة، ومحبتهم للمغاربة، وغيرها مما سنستبثه في حينه.

رابعًا: بعض مجالات الحضور المغربي في بلاد الشام

تعددت مجالات حضور المغاربة والأندلسيين ببلاد الشام، إذ تؤكد المصادر أنهم شاركوا في جميع مناحي الحياة العامة، وعبروا في كثير من الأحيان عن صدقهم وتفانيهم في كل الأعمال التي أوكلت إليهم، حتى أنهم غدوا روادا ومعلمين في ميادين اختصاصاتهم، وترك بعضهم آثارًا علمية خالدة في عدد من العلوم العقلية والنقلية، وفيما يلي نورد بعض المجالات التي سجلوا فيها حضورًا بارزًا.

٤/١-المجال العلمي

عمل قسم كبير من الأطباء المغاربة والأندلسيين ببلاد الشام، كما درسوا الطب والصيدلة وتخرج على أيديهم عدد كبير من الطلاب الشاميين الذين استطاع بعضهم أن يصل إلى مستوى عال من المهارة في صناعة الطب، ومن هؤلاء نذكر مؤيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمان الحارثي الدمشقي (ت ٥٩٩هـ/١١٨٤م) الذي درس الطب والهندسة على يد الطبيب الأندلسي أبي المجد محمد بن أبي الحكم(ت٥٧٠هـ/١١٧٤م)[٢٩]، والطبيب الأندلسي عمر بن علي البدوخ (٥٧٦هـ/١١٨٠م)[٣٠] الذي أسدى خدمات جليلة لطبقة العامة من المجتمع الشامي خلال فترة وجوده بدمشق.

وفي صناعة الصيدلة، سجل المغاربة والأندلسيون حضورًا لافتًا من خلال بعض مؤلفاتهم في هذا المجال، حيث استفاد الطبيب الدمشقي ابن أبي أصيبعة (ت ٦٨٦هـ/١٢٧٠م)[٣١] في كتابه "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، من كتاب الصيدلاني الأندلسي المعروف بابن (ت٥٧٠هـ/١١٧٤م) صاحب كتاب "الجامع في الأدوية المفردة". وإذا كان علم الكيمياء والهندسة من العلوم التي ظلت منبوذة بالمجتمع الإسلامي عامة، لما ساد عند العامة والخاصة من اعتقاد اتصالها بالسحر والدجل والشعوذة، فإن اجتهادات طيبة ببلاد الشام، أبرزها علماء مغاربة في هذا المجال، ومنهم نذكر الطبيب والمهندس المغربي يحيى البياسي (ت ٥٤٢هـ)[٣٢] نزيل دمشق الذي ابتكر آلات هندسية قدمها هدية لأستاذه الدمشقي ابن النقاش.

وفي مجال العلوم الدينية، بلغ حضور المغاربة والأندلسيين، من الصيت والشهرة، ما جعلهم يتقلدون مناصب مهمة في التدريس والإفتاء والخطابة والقضاء، وبرز منهم الحفاظ والمحدثين والقراء، ومن هؤلاء تذكر المصادر بعض النماذج من القرنين السادس والسابع للهجرة، ممَنْ تبوؤا مكانة مرموقة كمحمد بن علي الجياني أمين خزانة الكتب بالمدرسة النورية بحلب سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م، ومحمد بن سراقة الشاطبي شيخ الحديث بالمدرسة البهائية بنفس المدينة سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٥م[٣٣]. وخلال القرن الثامن الهجري، ذكر ابن بطوطة أن بعض المغاربة صاروا يشغلون مناصب دينية مرموقة، حيث ذكر أن من فضلاء القدس رجلاً مغربيًا هو "مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس"[٣٤]. بل من الباحثين[٣٥] من أحصى أسماء عشرين قاضيا تعاقبوا على

قضاء المالكية بطرابلس الشام منذ سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م حتى نهاية دولة المماليك سنة ٧٩٢هـ/١٥١٦م، وجميعهم من أصول أندلسية ومغربية من تلمسان وطنجة وغيرها.

٢/٤-المجال الاقتصادي

لم يقتصر الحضور المغربي الأندلسي ببلاد الشام على المجال العلمي فحسب، بل امتد إلى المجال الاقتصادي أيضا، إذ عمل المغاربة في القطاع الزراعي، بحكم تمرسهم في هذا المجال، لا سيما الأندلسيين، كما عملوا في حراسة البساتين بحسب الإفادات التي قدمها أبي بكر الطرطوشي (ت٥٢٠هـ) حين عبر عن آماله قبيل هجرته من الأندلس، بالعمل "في الزراعة وحراسة البساتين بالأجر"[٣٦]، ونفس الأمر أكده الرحالة ابن جبير (ت. ٦١٤هـ)[٣٧] متحدثا عن الحضور المغربي ببلاد الشام حين قال "وكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للانفراد، يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش، ناعم البال، وينثال الخبز عليه من أهل الضيعة"[٣٨].

وإذا كان حضور المغاربة ببلاد الشام في قطاع الحرف والصنائع، يبدو باهتًا، فإن ذلك لا يعكس البتة الواقع التاريخي، بحسب تقدير أحد الدارسين[٣٩]، بقدر ما يعزى أساسًا إلى ضعف الإشارات المصدرية التي تفيد حضورهم في هذا المجال، إذ نصادف جملة من المغاربة الذين اشتغلوا في قطاع الصناعة بالشام خاصة في حقل صناعة الحرير والنجارة وصناعة السفن[٤٠]، ومن هؤلاء نذكر المغربي المسمى محمد السبتي (ت٦٢٦هـ) الذي اشتغل نجارا وجمع ثروة طائلة مكنته من تقديم المساعدة للغرباء المقيمين بدمشق لا سيما المغاربة منهم[٤١]، ويذكر أبو شامة أن هذا الرجل يعود له فضل تجديد بناء أحد المساجد من ماله الخاص[٤٢].

ولئن كانت الإشارات المصدرية الدالة على حضور المغاربة بقطاعي التجارة والخدمات، نادرة ومتناثرة، فإن منها ما يفيد اشتغال مغاربة بالتجارة كأبي الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأنصاري الأندلسي البلنسي المحدث الذي توفي سنة ٥٤١هـ، وكان " فقيها عالما متقنا (...) رحل إلى المشرق وسافر في التجارة إلى الصين، وتفقه على الغزالي"[٤٣]، ثم يوسف بن يحيى بن إسحاق السبتي الطبيب الذي اشتهر بالعمل في التجارة منذ وصوله أرض الشام في بداية القرن السابع الهجري، وقد وظف جزءًا من أمواله في أعمال الخير[٤٤].

وبالمثل، فقد اشتغل المغاربة في بعض الخدمات كالعمل في الحمامات وحراسة البساتين، وغيرها، واستطاع بعضهم تحسين ظروفهم المعيشية، بل تسلقوا مناصب مرموقة، ومن هؤلاء نذكر أبو حفص عمر بن سعيد التلمساني (ت ٧٥٦هـ) الذي كان أمينا على طاحونة، فأصبح قاضي قضاة المالكية بدمشق، والمغربي علي بن عثمان بن يحيى الصنهاجي الذي عمل شواء للحم، قبل أن يصبح أمينا للسجن بنفس المدينة[٤٥]. هكذا يبدو أن الجالية المغربية الأندلسية، قد سجلت حضورا لافتا ببلاد الشام، إذ ساهمت، وخلال فترات مختلفة من العصر الوسيط، بنصيب وافر في إثراء مختلف مناحي الحياة العلمية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية، خاصة وأنهم وجدوا بها "أرضًا صالحة، تقيهم شر العوز والحاجة وتخفف عنهم مرارة الشوق والبعد عن الوطن الأم"[٤٦].

خامسًا: روح التضامن والوحدة بين المغاربة وأهل الشام زمن الحروب الصليبية

عبر المغاربة عن حس عربي إسلامي في محطات كثيرة من تاريخ العلاقات المغربية الشامية، وترجموا هذا الحس إلى حقيقة وفعل تضامني مع أشقائهم الشاميين مدافعين ومضحين بأنفسهم وأموالهم في سبيل نصرة أهل الشام زمن الحروب الصليبية. لقد خلفت الحملة الصليبية الأولى أصداء محزنة وشعورا بالفجيعة[٤٧]، لما بلغ إلى مسامع المغاربة أخبار هزيمة المسلمين سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، بعد أن ألح الصليبيون "على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا طرابلس وعسقلان وصور وعكا، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام، وغلبوا على بيت المقدس، وبنوا عليه كنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم"[٤٨]، غير أن المغاربة سرعان ما استعادوا رباطة جأشهم فصمموا على مضاعفة الجهود والانخراط بالنفس والمال دفاعا عن المقدسات ونصرة لإخوانهم الشاميين.

وبعد انتصار صلاح الدين الأيوبي، وفتح بيت المقدس، عمت الفرحة والابتهاج أهل المغرب الإسلامي، وهو ما يتضح من خلال ترجمة ابن عبد الملك للرحالة ابن جبير حين قال "ولما شاع الخبر المبهج المسلمين جميعا حينئذ بفتح بيت المقدس(...) وكان ذلك من أقوى الأسباب التي بعثته (ابن جبير) على الرحلة الثانية، وقال: وقضى الله برحمته لي بالجمع بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفى، وزيارة المساجد الثلاث في عام واحد متوجها، وفي شهر واحد منصرفا"[٤٩]. وتزخر المصادر بإشارات مهمة عن المغاربة الذين شاركوا بفعالية ضمن المتطوعين في جيش نورالدين محمود زنكي وفي جيش

صلاح الدين الأيوبي في حروبهما ضد الصليبيين خلال القرن السادس الهجري، سواء في الجهاد البري أو البحري[٥٠]، إذ لم يكن للمغاربة المتواجدين ببلاد الشام، أن يتخلفوا عن موعد نصرة إخوانهم المسلمين ضد الصليبيين، ومن الإشارات الدالة على أهمية هذه المشاركة، التدخل المغربي الأول في هذه الحروب سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م، و استشهاد الإمام المغربي يوسف بن دوناس الفندلاوي[٥١] نزيل دمشق، وهو من أحواز مدينة فاس[٥٢]، دفاعًا عن مدينة دمشق التي حاصرها الصليبيون، وكذا المساهمة المغربية الفاعلة في فتح حصن الأحزان بمدينة عكا سنة ٥٧٤هـ[٥٣].

وتجسيدًا لروح التضامن والوحدة بين المغاربة وإخوانهم الشاميين، قام المغاربة بأدوار طلائعية في الجهاد البحري ضد الصليبيين، بل تولوا مناصب مهمة في التنظيمات الجهادية البحرية، ويذكر ابن الأثير المجاهد المسمى "عبد السلام المغربي" الذي اشتغل رئيسا لأساطيل صلاح الدين الأيوبي، وعرف بالحذق والشجاعة، حتى قضى نحبه غريقا في حصار مدينة صور سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م[٥٤]، وكذا المجاهد القيرواني "عبد العزيز بن شداد" الذي هاجر إلى الشام واستشهد هنالك، وقد كان من أمراء جيش صلاح الدين الأيوبي أواخر القرن السادس الهجري[٥٥]. وقد سار على نهج المجاهد عبد السلام المغربي عدد من البحريين المغاربة، الذين شاركوا إلى جانب حسام الدين لؤلؤ الحاجب، قائد الأسطول المصري، فكانت مهمتهم موفقة حين أفلحوا "بالإقامة في البحر، يقطعون الطريق على الفرنج، كلما رأوا لهم مركبا غنموه وشانيا أخذوه"[٥٦] بحسب تعبير ابن الأثير.

وعن المجاهدين المغاربة الذين أبلوا البلاء الحسن في مواجهة الصليبيين ببلاد الشام خلال القرن الثامن الهجري، انفرد النويري بإشارة عن الرئيس البطرني المغربي قاضي طرابلس[٥٧] الذي شارك في جهاد الفرنجة حين خرج مع نائب السلطنة بالمدينة أسندمر الكرجي لحصار جزيرة أرواد سنة ٧٠٢هـ، بعد أن كان الفرنجة قد اتخذوا منها قاعدة لمواصلة اعتداءاتهم على سواحل الشام، وقد تم فتح الجزيرة بعد قتال لم يدم سوى ساعة واحدة[٥٨]. ومما يعكس روح التضامن والوحدة بين المغاربة وأهل الشام، أن هؤلاء المجاهدين المغاربة، لم يكونوا جيوشا منظمة أرسلتها حكوماتهم لنصرة إخوانهم، ولكن جهودهم كانت جهود أفراد وجماعات، كانت تأتي إلى المشرق لأغراض عدة أهمها الحج أو طلبا للعلم والتجارة أو هما معا، أو خصيصًا للجهاد وإغاثة إخوانهم الشاميين ضد الصليبيين[٥٩].

ويبدو أن حدث الرسالة التي وجهها صلاح الدين إلى الخليفة الموحدي يعقوب المنصور سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م[٦٠]، أثناء الحملة الصليبية الثالثة، لم يؤثر أبدًا على متانة العلاقات المغربية الشامية، حيث استمرت حركة المتطوعين إلى ما بعد العهد الأيوبي، واستمرت معها عمليات الوقف على المغاربة ببلاد الشام[٦١]حتى بعد حدث الرسالة بكثير، وحسبنا أن نذكر أن الملك الأفضل، نجل صلاح الدين الأيوبي، قد حبس المكان الذي اعتاد المغاربة أن يجاوروا عنده في بيت المقدس ليسكنوا في مساكنه وينتفعوا بمنافعه. وعلى الرغم مما شاع من امتناع يعقوب المنصور عن تقديم المساعدة لأسباب أمنية وسياسية، فإن المؤرخ المغربي الناصري السلاوي، قد أورد نصا يشير فيه إلى النصرة والمعونة التي قدمها المنصور الموحدي لصلاح الدين الأيوبي بقوله "ويقال إنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولا، ومنع النصارى من سواحل الشام، والله أعلم"[٦٢].

وفيما ذكر أحد الباحثين[٦٣] أن صلاح الدين الأيوبي لم يتمكن من تجييش مسلمي الغرب الإسلامي للكفاح المستمر ضد الفرنجة، أكد آخر[٦٤] أن أصداء استجابة المنصور لطلب صلاح الدين لم يتردد في الدراسات الغربية التي اهتمت بالتأريخ لهذه الحقبة. ومهما يكن من أمر، فإن عددًا من الباحثين[٦٥]، قد أكدوا قوة العلاقات المغربية الشامية، التي ظلت في أوجها، فهي لم تتأثر بهذا الحدث، بقدر ما حافظت الإرادة الشعبية والسياسية على نفس الحماس والمحبة والتضامن.

سادسًا: المغاربة والشاميون، محبة وإشادة متبادلة

لعل من بين المصادر التي تنقل صورة واضحة عن التقدير والمحبة المتبادلة بين أهل الشام وأشقائهم المغاربة، نذكر كتب الرحلات التي قام بها بعض المغاربة خلال العصر الوسيط، ومنهم ابن جبير الكناني البلنسي وابن رشيد السبتي والعبدري الحاحي وابن بطوطة الطنجي وغيرهم ممن زاروا أو سمعوا عن بلاد الشام فدونوا مشاهداتهم وارتساماتهم ضمن مصنفاتهم.

ذكر ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبي، كان يكن محبة خاصة للمغاربة، لا سيما البحارة والغرباء منهم، فقد جعل المسجد الكبير المنسوب لأبي العباس بن طولون "مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر"[٦٦]، كما جعل أحكامهم إليهم، ولم يجعل يدًا لأحد عليهم، فقدموا من أنفسهم حاكمًا يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده[٦٧]. ولم يتردد ابن بطوطة في التنويه

بملوك الشام، حيث وصف السلطانين صلاح الدين ونور الدين بالعدل والصلاح[٦٨]، كما ذكر أن بطرابلس القديمة رجلاً من الأعلام يسمى بهاء الدين بن غانم، عرف بالسخاء والكرم"[٦٩]، مؤكدا أن أهل الشام يعتنون بكرم الغرباء، "فحصن المرقب من الحصون العظيمة(...) وخارجه ربض ينزله الغرباء"[٧٠].

ولم يقتصر كرم أهل الشام على المسلمين والخاصة منهم داخل الجوامع والخانقات فحسب، بل شمل حتى المسيحيين "فبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر (...) وكل من نزل به من المسلمين، فالنصارى يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل البكر"[٧١]، وعندما ذكر مدينة حمص، أورد ابن بطوطة أن أهلها "عرب لهم فضل وكرم"[٧٢]. وقد حظي المغاربة بمكانة متميزة في نفوس أهل الشام، وذلك بحكم العلاقات الروحية والثقافية التي تربط جناحي العالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا، وفي هذا الصدد يذكر ابن بطوطة أن "أهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد، وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق، لا بد أن يتأتى له وجه المعاش"[٧٣]. ومما ينم عن روابط المحبة بين الشاميين والمغاربة، كثرة أعمال الوقف التي كانت تتم لفائدة المغاربة بالشام، فالسلطان نورالدين محمود بن زنكي، عين للمغاربة الغرباء أوقافا كثيرة منها سبعة بساتين وأرض بيضاء، وأن المشرف عليها كان هو الأخر مغربي يدعى أبو الحسن علي بن سردال الجياني[٧٤].

ولما كانت المحبة بين الشاميين والمغاربة، عامة وراسخة لدى العامة والخاصة منهم، فإن الوقف المخصص للمغاربة، لم يقتصر على حكام الشام فحسب، بل شمل كل طبقات المجتمع الشامي، وفي هذا الصدد يطالعنا أبو شامة المقدسي أن أحد الشاميين ممن عرفوا بالصلاح والمسمى خليل بن زويزان قد أوقف أرضه لتكون مقبرة خاصة بالمغاربة، و كان أول من دفن بها "الفقيه الصالح أبو الحسن علي المراكشي، والمحب اللبلي المعروف بالمغربي والتقي أبو عبد الله المغربي الجابري"[٧٥]، فضلا عن "مقبرة فقراء المغاربة" التي تقع في سفح جبل قاسيون في مغارة الدم بشمال دمشق[٧٦]، كما وجد من أغنياء دمشق من وقف جزءا من ثروته الخاصة على الفقهاء المغاربة، ويتعلق الأمر بأحمد بن عبد الله الذهبي الكتبي المتوف سنة ٦٦٣هـ، وكان ممن "خلف كتبا كثيرة وثروة، ووقف داره على فقهاء المالكية"[٧٧]، وهو ما ينم عن المحبة المتبادلة و المكانة الرفيعة التي يحظى بها المغاربة في نفوس الشاميين.

خَاتِمَةٌ

يتضح مما تقدم أصالة العلاقات المغربية الشامية وعراقتها، وروح التآزر والتضامن والشعور بالوحدة الذي ميز أبناء الأمة الإسلامية خلال مراحل مختلفة من العصر الوسيط، وذلك على الرغم مما شهدته الأمة الإسلامية من انقسامات سياسية واختلافات مذهبية، وقد ظهرت روح التآزر جلية في انخراط أعداد هائلة من المغاربة على اختلاف أصولهم في الجهاد ضد الصليبيين، والمساهمة بفعالية إلى جانب إخوانهم المشارقة في المعارك البرية والبحرية ضد الغزو الصليبي لحماية البقاع المقدسة.

وفي وقت صارت فيه مشاكل الحدود تتناسل بين أقطار الأمة الواحدة، وتعمقت فيه مظاهر الجفاء التي زرع بذورها المستعمر، وظل يغديها بقوة خدمة لأطماعه البئيسة، أصبح من أوجب الواجبات على المؤرخ تصحيح الصورة ونزع الاستلاب وتأكيد الروابط، لأن الوطن العربي مشرقًا ومغربًا، يمتلك من مقومات الوحدة والتضامن وأسس القوة والتجاوز، ما يجعل منه قوة ضاربة ومهابة الجانب في جميع المجالات. ولعل من أهم تلك المقومات والأسس، ما يرتبط بالمقوم الثقافي، فلم تكن الثقافة العربية في المغرب والأندلس غير الثقافة بالشام أو الحجاز، فهي ثقافة واحدة، ظهرت في المشرق وانتقلت إلى بلاد المغرب والأندلس مع الفاتحين المسلمين لتتطور في عهد الدول المركزية التي حكمت بلاد الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، والتي ظلت على صلة وطيدة ببلاد المشرق الإسلامي بمجالاتها الثلاث الشام والحجاز ومصر.

الاحالات المرجعية:

(١) إن المقصود بالمغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، المغرب الأقصى والأوسط وإفريقية ثم الأندلس، انظر التفاصيل عن الحدود السياسية لبلاد المغرب الإسلامي عند: عزالدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص. ٣٩ وما بعدها.

(٢) ونقصد بلاد الشام التاريخية الكبرى التي وصف حدودها الزهري بقوله: "ومما يلي هذه المدينة (عسقلان) لناحية المغرب على ساحل البحر مدينة أسفاقس واطرابلس الشام ومدينة صور ومدينة عكة، وهذا آخر حد الشام من ناحية الجنوب على ساحل البحر، وأما في البر من ناحية الجنوب فأرض مدين وجبل الطور(...) وفي أرض مدين (...) وهذا أخر الشام في الجنوب، وقيل إن حد الشام، ما جاوز النيل إلى المشرق وكذلك حده في الشمال مدينة هرقلة وهي من بنيان هرقل ملك الروم وإليه نسبت". انظر: الزهري، **كتاب الجغرافية**، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، الظاهر، د ت، ص.٧٢.

(٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج١، ص. ٣٥٥- ٣٦٦.

(٤) الزهري، م س، ص. ٦٣.

(٥) يقول ياقوت الحموي عن مدينة عمان مثلاً "عمان (...) بلد في طرف الشام، وكانت قصبة أرض البلقاء(...) وعمان هي مدينة دوقيانوس، وبالقرب منها الكهف والرقيم معروف عند أهل تلك البلاد والله أعلم"، انظر: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج٤، ص.١٥١-١٥٢. وعن وصف مدن الشام في العصر الوسيط، راجع: -محمود مؤنس عوض، **الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، منشورات عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط١، القاهرة، ١٩٩٥م.- أيضًا: حسين عطوان، **الجغرافية التاريخية لبلاد الشام في العصر الأموي**، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٦) أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس إلى نهاية القرن التاسع الهجري**، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، ط١٩٨٩، ١م.

(٧) عبد المجيد بهيني، **وقفات في تاريخ بلاد الشام زمن الحروب الصليبية**، مطبعة الكرامة، ط١، الرباط، ٢٠٠٥م.

(٨) إبراهيم القادري بوتشيش، **بين أخلاقيات العرب وذهنيات الغرب**، دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥.

(٩) زكي النقاش، **العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية**، دار الكتاب اللبناني، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

(١٠) ومن الدراسات القليلة التي لامست الموضوع، يمكن أن نذكر أيضًا: كتاب أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم، **تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام**، بيروت، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٢م. أيضا: عبد المجيد نعنعي وآخرون، **صورة المرأة الصليبية في ظل الاحتلال الإفرنجي**، بحث ضمن كتاب" المناطق اللبنانية في ظل الاحتلال الإفرنجي"، منشورات فيلون، لبنان، ١٩٩٧م، ص.٣١٤-٣٣٧. أيضا: عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي من أقدم العصور إلى اليوم**، مطابع فضالة، المحمدية، المجلد:٦، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، المجلد:٧، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

(١١) عبد العزيز بنعبد الله، **ثلاثة قرون بين الشام والمغرب عبر الأندلس**، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٤، ربيع ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص.١٠٧-١٠٨.

(١٢) كشف الباحث البرازيلي "ألاديز لو نيتو" ضمن كتابه: الأنثروبولوجيا، ومن خلال رخامة تحمل تاريخ ١٢٥ ق.م، أن العديد من الألفاظ مفرغة في قالب عربي مع تحريف بسيط. انظر: **نفسه**، ص.١٠٨.

(١٣) عبد العزيز بنعبد الله، **م س**، ص.١١٠.

(١٤) المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص.١٤ وما بعدها.

(١٥) ثورة الربض: قام بها أهل قرطبة ما بين ١٨٩هـ/ ٨٠٤م- ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، وخاصة سكان ربض شقندة منهم، ضد الأمير الحكم بن هشام (١٥٤-٢٠٦هـ/٧٧١-٨٢٢م)، و قد كادت أن تنهي حكمه، كان من نتائجها إجلاء عدد كبير من سكان الربض عن قرطبة، فقد كان هذا الأمير "طاغياً مسرفاً وله آثار سوء قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم، وهدم ديارهم ومساجدهم، (...) فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة أول المغرب، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا"، انظر: عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه وعلق على حواشيه، محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة القاهرة، ط١، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م، ص.١٩-٢٠. وراجع أيضًا: إضافات مفيدة عند: محمد خالد مصطفى المومني، **الفقهاء وثورة الربض في الأندلس (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م)**، رسالة لنيل درجة الدكتوراه، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص. ١٣٦-١٩٢.

(١٦) المقري، **م س**، ج١، ص.٣١٨. أيضا: عبد العزيز بنعبد الله، **م س**، ص.١٠٩.

(١٧) عرف عهد عبد الرحمان الناصر الأموي(٢٧٧-٣٥٠هـ/٨٩١-٩٦١م)، ازدهارًا كبيرًا شمل كل القطاعات الاقتصادية، إضافة إلى العلوم والفنون وعرف عهده تحولا مهما في تاريخ الحضارة المغربية الأندلسية. انظر: ابن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمود بشار عوا، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ج٢، ص٢٠٦ وما بعدها.

(١٨) عبد العزيز بنعبد الله، **م س**، ص.١١٨.

(١٩) **نفسه**، ص. نفسها.

(٢٠) أحمد علي، **م س**، ص.١٢.

(٢١) عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص.٢٥٠.

(٢٢) أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة**، م س، ص.٩٢.

(٢٣) أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين منذ بداية القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، مجلة التاريخ العربي، العدد: ١٥، صيف ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص.٣٧.

(٢٤) عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص. ٢٢٧ وما بعدها.

(٢٥) **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/١٩١٩٦٨م، ج٢، ص٣٤.

(٢٦) **الرحلة، المسماة بتذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار**، دار صادر، بيروت، د ت، ص٢٢٥.
(٢٧) انظر تفاصيل عوامل أخرى ساهمت في نزوح المغاربة والأندلسيين إلى بلاد الشام، عند أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام**، م س، ص ص.٨٣-١٠٨. أيضا: عبد المجيد بهيني، **وقفات**، ص.٢٢٧ وما بعدها.
(٢٨) عن موارد وخيرات بلاد الشام الاقتصادية خلال العصر الوسيط، انظر: **الإدريسي** واصفا إحدى حواضرها بقوله "ومدينة دمشق من أجل بلاد الشام وأحسنها مكانا (...) وأكثرها مياه وأزرها فواكه وأعمها خصبا وأوفرها مالا (...) ولها جبال ومزارع تعرف بالغوطة(...) وبها ضياع كالمدن"، انظر: **م س**، ج١، ص.٣٦٦.
(٢٩) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، طبع بعناية س. ديدر ينغ، دار النشر بفيسبادن، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ج٤، ص.٢٤. أيضًا: أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة**، م س، ص.٤١.
(٣٠) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج٢، ص.١٥٥-١٥٧.
(٣١) ينتسب ابن أبي أصيبعة الدمشقي إلى بيت علم وجاه، فقد كان والده من أمهر الكاحلين (أطباء العيون) في دمشق، ولد سنة٦٠٠هـ وتوفي سنة ٦٤١هـ/١٢٤٩م. انظر، **نفسه**، ج١، ص.٥.
(٣٢) ابن أبي اصيبعة، **م س**، ج٢، ص.١٦٣.
(٣٣) الصفدي، **م س**، ج٤، ص.١٦٢.
(٣٤) ابن بطوطة، **تحفة النظار في عجائب الأمصار وغرائب الأسفار**، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، راجعه وأعد فهارسه مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص.٧٧.
(٣٥) عبد السلام تدمري، **الأندلسيون والمغاربة في طرابلس الشام**، مجلة التاريخ العربي، العدد ١٢، خريف ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص.٢٦.
(٣٦) يقول الطرطوشي: "فلما هممت بالرحيل من بلدي إلى الشرق في طلب العلم، كنت لا أعرف بالتجارة، ولا لي حرفة أرجع إليها فجزعت من الخروج(...) وكانت أقوى الآمال في نفسي أن أحفظ البساتين بالأجر"، انظر: **سراج الملوك**، دار صادر، بيروت، د. ت، ص.٢٩٣.
(٣٧) ابن جبير، **م س**، ص.٢٥٥.
(٣٨) **نفسه**، ص.٢٣٣.
(٣٩) عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص.٢٣٧. وعن تفاصيل الحضور المغربي الأندلسي في القطاعات الاقتصادية ببلاد الشام، انظر: أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة**، م س، ص.٧٤ وما بعدها.
(٤٠) أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة**، م س، ص.٢٤٦.
(٤١) أبو شامة، **م س**، ص.١٥٧-١٥٨.أيضا: بهيني، **وقفات**، ص.٢٣٨.
(٤٢) نفسه، ص.١٥٧-١٥٨.
(٤٣) ابن عماد الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٤، ص.١٢٨.
(٤٤) أحمد علي، **الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام**، م س، ص. ٢٤٧. أيضًا: عبد المجيد بهيني، **م س**، ص.٢٣٩.
(٤٥) **نفسه**، ص.٢٥١.
(٤٦) أحمد علي، **بلاد الشام في نظر المغاربة والأندلسيين، م س**، ص.٥٥.
(٤٧) عن الأصداء التي خلفتها الهجمة الصليبية الأولى لدى المغاربة، راجع: ممدوح حسين وشاكر مصطفى، **الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري، ٦٦٨هـ-٧٩٢هـ/١٢٧٠-١٣٩٠م**، دار عمار للنشر، عمان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص.١٤٩ وما بعدها.- أيضًا: أحمد بن خيرة، **أصداء الحروب الصليبية في مصر والشام على المغاربة "ردود الفعل الأولية"**، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد: ١٧، ص.٥٢ وما بعدها.
(٤٨) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق أبو عبد الله السعيد المندوه، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج١، ص.٢٦٩.
(٤٩) ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس ومحمد بنشريفة وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ٢٠١٢م، السفر الخامس، ترجمة رقم ٦٢٧.
(٥٠) ابن جبير، **م س**، ص ص.٢٤٧-٢٥٣.
(٥١) ياقوت الحموي، **م س**، ج٦، ص.٤٠١.- أيضًا: محمد المنوني، **نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليه**، مجلة كلية الآداب، الرباط، العدد: ٢١-٢٢، السنة ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص. ١٤٤.
(٥٢) ينتسب يوسف بن دوناس الفندلاوي الى قبيلة فندلاوة بأحواز فاس، وهي قبيلة كانت تستوطن بين مدينة صفرو وقرية رباط الخير (هرمومو) حيث جبال بني يازغة الحالية، وقد اندثر اسم فندلاوة بعد اندماجها في قبيلة بني يازغة، ولم يبق لها ذكر سوى في الكتب القديمة، انظر: ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، راجعه عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص.٢٤، الهامش رقم: ٢٥.
(٥٣) انظر: رسالة للقاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى وزير بغداد يبشره بفتح حصن الأحزان وتخريبه سنة ٥٧٤هـ، وينوه بدور المغاربة في مساندة المسلمين عندما ضيق الفرنجة الخناق على عكا، عند: أبو شامة، **م س**، ج٢، ص.١٤.- أيضًا: بهيني، **المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين**، مجلة التاريخ العربي، العدد١٥، السنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص.١٥١.أيضًا: بهيني، **وقفات**، م س، ص.٢٥٥-٢٥٦.
(٥٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، راجعه وصححه، محمد يوسف الدقاق، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٢م، المجلد ١٠، ص.١٦٠.
(٥٥) محمد المنوني، **م س**، ص.١٤٤.
(٥٦) ابن الأثير، **م س**، ج١٠، ص.١٥٤.
(٥٧) النويري، نقلاً عن عبد السلام تدمري، **م س**، ص.٢٤.
(٥٨) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٢، (٦٦٢-٧١٧هـ) ص.٣٥٣ وما بعدها.
(٥٩) ممدوح حسين ومصطفى شاكر، **الحروب الصليبية في شمال إفريقية وأثرها الحضاري**، دار عمار للنشر، عمان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص.١٨١.
(٦٠) انظر نص الرسالة عند: أبو شامة، **م س**، ج٢، ص.١٧٠-١٧١.
(٦١) عبد الهادي التازي، **م س**، ج١، ص. ٣١٥.

(٦٢) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، البيضاء، ١٩٥٤م، ج٢، ص.١٨٢-١٨٣.

(٦٣) كلود كاهن، **الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية**، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص.٢٤٢.

(٦٤) بهيني، **المغاربة والجهاد البحري ضد الصليبيين**، م س، ص.١٥٣-١٥٤.

(٦٥) عبد الهادي التازي، **م س**، المجلد (٦)، ص.٣١٤-٣١٥. أيضًا: عبد المجيد بهيني، **وقفات**، م س، ص.٢٥٩.

(٦٦) ابن جبير، **م س**، ص.٢٥.

(٦٧) **نفسه**، ص. نفسها.

(٦٨) ابن بطوطة، **م س**، ص.٨٠.

(٦٩) **نفسه**، ص.٨٢-٨٣.

(٧٠) **نفسه**، ص.٩٩.

(٧١) **نفسه**، ص.٩٨.

(٧٢) **نفسه**، ص.٨٣.

(٧٣) **نفسه**، ص.١٢٠-١٢١.

(٧٤) عبد الهادي التازي، **م س**، المجلد، ٦، ص.٣١٤-٣١٥.

(٧٥) أبو شامة المقدسي الدمشقي، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين**، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص.١٥٣.

(٧٦) **نفسه**، ص.١٧٣.

(٧٧) أبو شامة، **م س**، ص.٢٣٥.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من قضايا الأرض والمجتمع الإنتاجي في المغرب الأقصى

خلال عهد دولة الموحدين



نادية هاشمي
أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه من جامعة ابن طفيل
القنيطرة – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

اعتبرت الأرض بالمغرب خلال العصر الوسيط هي عصب الاقتصاد وأساس الثروة والجاه، بل كانت وسيلة السلطة المركزية في إلحاق العقاب بالمتمردين، كما اعتبرت وسيلة لإرضاء الموالين للسلطة الجديدة. وبهذا المعنى تكون الأرض وسيلة لتشكيل المجتمع السياسي المؤيد للسلطة الحاكمة داخل المجتمع بمفهومه العام بل المطلق. وتأسيسًا على هذه الرؤية، فنحن نعتقد أن عدم استقرار الوضع العقاري لأرض المغرب الوسيط ساهم وبدون شك في عدم استقرار المجتمع الإنتاجي الفلاحي المتأثر سلبًا بمفهوم الفتح الذي أقحم ضمن منعطفات سياسة أبعدته عن مفهومه الديني المحض. مما مكن الدولة من السيطرة على المجال الجغرافي وإعادة ترتيب الوضع الاقتصادي وفق منظورها المذهبي والسياسي؛ ولعل وضعا من هذا النوع أدى إلى تأرجح المجتمع الإنتاجي بين الغنى والفقر، بين الاحتفاظ بالملكية الزراعية وبين نزع هذه الملكية ومن ثَمَّ وجب علينا النظر من جديد في عوامل البناء والهدم الاجتماعي من خلال دراسة عوامل صناعة الغنى والفقر بمغرب المرحلة موضوع الدراسة. مما يدفع بنا إلى الإقرار بأن الأرض لم تكن وسيلة إنتاجية فحسب وإنما وسيلة الخليفة في بسط هيمنته على الإنسان والمجال. نريد من خلال هذه الدراسة بسط موضوع الأرض والمجتمع الإنتاجي زمن دولة الموحدين، خصوصًا وأن هذه الدولة تشكل استثناء في تاريخ المنطقة اقتصاديًا وسياسيًا ومذهبيًا، وهو الواقع الذي يجعلنا مندفعين بين الفينة والأخرى إلى إعادة سبر أغوار تاريخ التجربة السياسية الموحدية. ولعل اللافت للانتباه هذه المرة هي الأسس المادية لعلاقة السلطة بالمجتمع عامة والمجتمع الفلاحي على وجه من التحديد. ومن أجل إبراز وجهة نظرنا هاته سنحاول النبش في علاقة السلطة المركزية بالفلاحين الذين ظلوا يتأرجحون بين الخضوع والثورة حسب الموقف من السلطة، وهو الواقع الذي سيجعلنا نتعرف على الأسس المادية لتشكل الطبقة الاجتماعية. كما سيمكننا هذا الموضوع من مقاربة موضوع نمط الإنتاج لكن من خلال رؤية ذاتية وداخلية في إطار العلاقة بين البنية الفوقية والبنية التحتية بمغرب الموحدين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٣ أغسطس ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ أغسطس ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الموحدين؛ الأرض؛ السلطة؛ الطبقة الاجتماعية؛ المغرب الأقصى

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.247213

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

نادية هاشمي، "جوانب من قضايا الأرض والمجتمع الإنتاجي في المغرب الأقصى خلال عهد دولة الموحدين".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص٥٧ – ٧٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: nadia.hachimi2@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

نبتغي من خلال هذه الدراسة طرق أبواب موضوع ينتمي إلى مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ويتعلق الأمر بالنظام القانوني للأرض في علاقته بالفئات الإنتاجية الزراعية خلال عهد الدولة الموحدية. وحسب اعتقادنا فإن دراسة الوضع القانوني للأرض يعتبر أحد المسالك القويمة التي تمكننا من سبر أغوار قضية النمط الإنتاجي السائدة خلال هذه المرحلة التاريخية بعيدا عن مزالق الأحكام المسبقة التي من شأنها أن تجعل الباحث ينزاح عن التعليل العلمي السليم للظاهرة موضوع الدراسة. إن من شأن الوضعية العقارية أن تطالعنا عن طبيعة العلاقات الإنتاجية ونوعية الضرائب وقيمتها وكذلك أثرها على الساكنة في إطار دراسة علاقة السلطة بالمجال الفلاحي. ومن ناحية أخرى يعتبر هذا النوع من الدراسات معبرًا مهمًا للكشف عن خبايا علاقات الإنتاج والقوى الإنتاجية، بالإضافة إلى معرفة الطريقة التي تأسست بها الثروة لدى المستفيدين والكيفية التي أسست لمفهوم العوز والفقر المؤدي إلى العيش على هامش المجتمع؛ وكيف يمكن لهذا الهامش أن يكون أحد عوامل تحريك تاريخ المنطقة.

إن الأهمية التي تكتسيها دراسة الوضعية العقارية أو القانونية للأرض تتجلى كذلك في التعرف على آليات إنتاج الفئات الاجتماعية. إلى جانب الكشف عن العوامل السياسية المسؤولة عن تدهور الإنتاج الفلاحي أو قلته بالمغرب الوسيط. ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل لعب الوضع العقاري لأرض المغرب خلال العصر الوسيط دورا كبيرا في تحريك المجتمع المنتج للرأسمال الرمزي، بمعنى الإيديولوجية المهيمنة التي تشكل الجزء الأكبر من البنية الفوقية المسيطرة والموجهة للبنية التحتية. وسوف تتضح الرؤيا العامة إذا أخذنا بعين الاعتبار الظروف السياسية والاقتصادية والتحركات البشرية على مستوى المجال الجغرافي؛ حيث سيتبدى لنا مدى تضارب المصالح الاقتصادية للطبقات الاجتماعية في علاقتها بالفئة الحاكمة عندئذ. لأن التوترات السياسية التي مرت بها المنطقة جعلت الأرض ووضعها القانوني يعيش نفس التقلبات. مما ينهض دليلا على ظننا هذا، هو اعتبار أن كل دولة تمكنت من بسط سيطرتها على مغرب العصر الوسيط اعتبرت نفسها فاتحة للمجال موضوع الدراسة؛ واستعمال لفظ "الفتح" يحمل معنى ثقيلا يجعله مرتبطا بالمصلحة المادية للدولة وبواجبات الرعية إزائها. وبالتالي يلزم على الباحث المهتم بمثل هذه المواضيع، أن يضع في الحسبان فسيفساء المصطلحات السياسية ذات الأبعاد الاقتصادية في علاقتها بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية، بما تحمله من معاني تسعف في معرفة أسلوب التعامل مع الأرض باعتبارها مصدرًا للمادة من جهة ومن جهة أخرى فهي المرآة العاكسة للمجتمع الذي شكل البنية التحتية للنظام السياسي والاقتصادي القائم.

أدى عدم استقرار الوضع القانوني لأرض المغرب الأقصى، إلى عدم استقرار الوضع المادي للفئات الاجتماعية الشيء الذي سوف يؤدي إلى ميوعة الصراع الطبقي[1]؛ الشيء الذي سيحكم على الفئات الإنتاجية العيش وفق نظام منتظم من الرتابة التي طبعت مختلف نواحي الحياة الاقتصادية. غير أن النظر إلى خصوصية التربة الاجتماعية للمنطقة من شأنها أن تدفع بنا إلى تقديم بعض التوضيحات من خلال دراسة المؤسسات ودور الدولة وانعكاس ذلك على الوعي الطبقي. وما يدفعنا إلى الانسياق خلف هذه الفكرة أن تكوين الطبقات الاجتماعية ارتبط أوثق الارتباط بطبيعة ملكية الأرض؛ فكل نوع أفرز بنية اجتماعية معينة حيث نجد: أراضي الإقطاع/أراضي الدولة، الأراضي الجماعية/ الملكية الفردية/أراضي الأحباس. فهناك أراضي قام أصحابها بتقديمها كوقف وأراضي أخرى اضطر أصحابها إلى التخلي عنها.

لقد أسهم وبشكل مباشر عدم وجود نظام ثابت للملكية في عدم تبلور تكوينات طبقية خالصة ومحددة وهذا ما سيؤدي إلى تحكم البنية الفوقية في البنية التحتية وليس العكس. إذ صار المجتمع سواء الإنتاجي أو الديني أو غيرهما يشكلان النموذج المقولب الذي أرادته له السلطة المركزية بأن يكون عليه. فقد أُريد له أن يكون مجتمعًا خاضعًا لا يملك من القدرات ما يؤهله ليغير تشكيلته الاجتماعية الاقتصادية وبالتالي يغير من أسلوبه الإنتاجي، ونظرًا لهذه الظروف ظل الواقع المعيش انعكاس للمجتمع[2].

إننا نحاول من خلال هذه الدراسة تسليط ضوء البحث والنقاش عن قضية الأرض في علاقتها بالمجتمع الإنتاجي من خلال جوانب تعود إلى عهد دولة الموحدين. ومن أجل الخروج بهذه الورقات إلى بر الأمان نقترح الجواب على شبكة من الأسئلة الإشكالية من قبيل: ما هو الوضع القانوني لأرض بلاد المغرب الأقصى خلال عهد دولة الموحدين؟ وكيف تم تسييس المفاهيم الشرعية ذات الصبغة الدينية من أجل خدمة الأهداف السياسية؟ ثم ما هو الأثر ذلك على البنية الاجتماعية الإنتاجية خلال هذه المرحلة من تاريخ المغرب الوسيط؟ وكيف

عمل هذا الوضع على صناعة الفقر و التفقير وأيضا صناعة النخب الموالية للسلطة القائمة؟

إننا نروم من خلال هذه الدراسة إلى المساهمة في ذلك الجدل الذي قاده العديد من الباحثين والمتمأسس حول الأرض ووضعها القانوني وما أفرزه هذا الوضع من انزلاقات اجتماعية داخل نمط إنتاجي مطاط تأرجح ما بين الإقطاع ونمط اقتصاد المغازي[٣].

أولاً: الأرض من خلال تنظيرات الفقهاء

يُعَدّ المدخل الفقهي المعبر القويم لفك شفرة الوضع القانوني لأرض المغرب خلال العصر الوسيط، سواء تعلق الأمر بالفترة التأسيسية المرتبطة باتصال الإسلام بأرض المغرب زمن الفتوحات أو ما أعقبها من فترات. ومن بين الأمور المتدخلة في مجال تنظيم الأرض هي المستجدات الدينية والسياسية والاقتصادية التي سوف تدلي بدلوها في ترتيب الوضع العقاري للأرض التي اعتبرت المصدر الأول للثروة المادية بجانبيها الإنتاجي والجبائي. وتبعًا لنظام الإسلام فإن النوع العقاري للأرض أو وضعها القانوني يترتب عليه تحديد قيمة الضرائب ونوعها. وبالتالي فإن تحديد طبيعة البنية العقارية لأرض المغرب من شأنه أن يسعفنا في فتح ملف الضرائب التي فرضت على الساكنة كشكل من أشكال التعاقد الاتفاق الرمزي للتبعية إلى الدولة غير أن المقام لن يسعفنا في المقاربة هذا الموضوع.

هناك العديد من التآليف التي اتخذت من الأرض والقضايا المرتبطة بها موضوعا لها، والتي صنفت بغية المساهمة في معالجة قضايا الأرض المفتوحة بهدف وضع إطار تشريعي يتم الاستناد إليه من أجل التعامل معها وفق قاعدة شرعية بكل البلاد المفتوحة، كما استهدفت هذه الكتب وضع آليات لتنظيم المجتمع الإنتاجي من خلال تنظيم العلاقات بين الأطراف المتدخلة في العملية الإنتاجية المرتبطة بالأرض، وتندرج هذه الكتب ضمن الكتب الخراجية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- كتاب الخراج لصاحبه يعقوب بن إبراهيم الذي اشتهر بالقاضي أبي يوسف (١٨٢هـ/ ٧٩٨م).
- كتاب رجب الحنبلي المعروف بالاستخراج لأحكام الخراج (ت. ٧٩٥هـ/١٣٩٣م).
- كتاب الأحكام السلطانية للماوردي (ت. ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).

وحسب ما يظهر فإن الفقهاء عملوا على تقسيم الوضع القانوني للأرض إلى أربعة أنواع:

الأراضي التي أسلم عليها أهلها: فقد منحهم الفقه الإسلامي حق تملكهم مقابل دفع ضريبة العشر، ويمارسون عليا جميع الحقوق كالبيع والإرث، أما الأراضي التي فتحت وظل أصحابها على دينهم، فهي أراضي خراج وتنظيم بموجب اتفاق ضمني بين أصحاب الأرض والدولة[٤].

بينما اختلف الفقهاء حول الأراضي التي فتحت عنوة ولعل هذا الوضع إنما هو ناتج عن اختلاف الظروف السياسية لمراحل الفتح. ومن أجل تجاوز هذا الخلاف اعتمد الفقهاء على ما عمل به الرسول صلى الله عليه وسلم، في أراضي مكة حيث تبثت وضعيتها على ما كانت عليه من قبل والمستجد الذي طرأ عليها أنها أصبحت أرضًا عشرية. كما اعتمدوا على التوجه الذي رام إليه النبي في أراضي خيبر حيث جعلها فيئا فخمسها بمعنى أن الدولة أخدت الخمس وقسمت الأربعة أخماس أجزاء أخرى على المسلمين فكانت الأراضي عشرية.

كما استند الفقهاء أيضًا إلى ما عمل به عمر بن الخطاب بعد فتح الشام والعراق حيث جعل ملكية هذه الأراضي جماعية لصالح كل المسلمين، كما فرض على أصحابها الجزية والخراج لفائدة بيت مال المسلمين. حيث ترك عمر بن الخطاب ملكية هذه الأراضي في يد أهلها وصنفهم ضمن أهل الذمة فأوجب عليهم الجزية وعلى باقي السكان ضريبة الخراج[٥]. إضافة إلى هذه الأنواع المذكورة نضيف حالة أراضي الموات؛ وهي تنقسم إلى صنفين: الأراضي التي مات عنها أهلها أو التي لم تكن متملكة من الأصل، أو أراضي كانت عبارة عن مفيض ماء أو أجمة كما سماها الماوردي[٦]. أما النوع الثاني من هذا الصنف فهو يندرج ضمن ما يعرف بالصوافي، والذي غالبًا ما يقصد به ما أصفته الدولة واستخلصته من مساحات وأصبحت هي المالكة لها، وتجمعت لديها مساحات هامة وثروات لا بأس بها عبر الأراضي التي تخلى عنها أهلها وبالتالي انتقلت ملكيتها إلى الدولة، أو أن أصحابها هربوا أو ماتوا إبان الحروب.[٧]

حظي هذا النوع بالذات من الأراضي باهتمام الفقهاء فعملوا على تحديد علاقاته بالدولة كما وضعوا المسالك القانونية التي عبر منها التمليك أو التفويت. خاصةً وأنها ارتبطت بمصطلح الموات كما ارتبطت بمفهوم الإحياء بمعنى إحياء هذه الأراضي. ولعل القالب الفقهي الذي اعتمد عليه الفقهاء في تدبير هذا النوع من الأراضي هو الأحاديث النبوية[٨]، والمناقشات الفقهية التي اتخذت من وضعية هذه الأراضي موضوعا لها غير

أن الاختلاف وعدم الوضوح ظلا يحفان هذا الموضوع. ويبدو الأمر جليا من خلال الارتباك في التحديد واستمرارية الجدل حول الموضوع من خلال طرح عدة تساؤلات: فهل يعتبر عمارة الأراضي الموات آلية لتملكها؟ أم أن الإمام وموافقته أمر ضروري بهذا الخصوص؟ هذا إضافة إلى أن مناصري المالكية قاموا بالتمييز بين الأراضي المجاورة للعمران والأراضي البعيدة عنه إضافة إلى تحديدهم للآليات الكفيلة بإحياء أراضي الموات باعتبار زراعتها أمر ضروري لضمان الأمن الغذائي للمسلمين ولاستقرار المجتمع.

يبدو أن قضية التحديد القانوني لأرض المغرب قد استأثر باهتمام الفقهاء نظرا للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تقام وتكون الأرض أساسا لها. وحسب ما توفر لدينا من معلومات فإن الأرض بالمغرب الأقصى استقر حالها على ما جاءت به الحالتين الأخيرتين: وهما الأراضي العنوية وأراضي الصوافي، التي تعددت آليات تملكها مما جعلها خاضعة ومتأثرة بالتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عاشتها المنطقة طوال العصر الوسيط؛ ومنذ مرحلة الفتح الإسلامي وما جاء به من تغيير سياسي وإيديولوجي جعل المنطقة تدخل في مرحلة جديدة من تاريخها[٩]. دليلنا في ذلك ما ورد لدى الونشريسي الذي اعتبر أن البلاد الغربية لم تجر في الافتتاح على قانون واحد، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صُلحًا. أما عن بلاد الأندلس فقد نص بن حبيب على أن أكثرها افتتح عنوة، أما بلاد "إفريقية وهي معظم المغرب ففيها بلاد ليست بصلحية ولا عنوية وبالجملة نفيها من خلاف ما تقدم"[١٠].

يظهر إذن أن الجدال كان واسعًا حول الوضع القانوني لأرض المغرب؛ مما لم يسعف في تحديد دقيق للنظام العقاري وهذا ما سيفتح الباب على مصراعيه أمام تقاطع المصالح السياسية والأنظمة القانونية مما سيفرز نوعا من التعايش الوثيق بين السياسي والتشريعي/ الشرعي عبر اختلاف الوضع القانوني لأرض المغرب حسب اختلاف المذاهب والتوجهات السياسية للدول التي تعاقبت على حكم البلاد.

ثانيًا: الوضعية القانونية لأرض المغرب نماذج من حتمية الواقع السياسي

من بين الأسئلة الرصينة التي طرحت حول تحديد الوضعية القانونية لأرض المغرب داخل الدين الجديد هو ما تعلق بصدى وواقعية المفاهيم المشرقية في الرصيد الفقهي المغربي وداخل الجغرافيا السياسية للمغرب الوسيط[١١]. غير أن الحصيلة التاريخية لمنطقة المغرب تختلف تمام الاختلاف عن تلك التي وجدت بالشرق الإسلامي، دليلنا في ذلك أن أرض المغرب ظلت مضوع نقاش مطول بين الفقهاء حول: هل فتحت عنوة أم صلحًا؟ فهذا الجدال كان الأكثر حقيقة والأكثر واقعية بين الفقهاء؛ وذلك نظرا لما سيترتب عن هذا الجواب من نتائج مجالية وأيضًا مالية سواء تعلق الأمر بالسلطة أو المجتمع لأن تنظيم الجباية سوف يتحدد انطلاقا من موقف هؤلاء الفقهاء من الأرض. فالأمر إذا مرتبط باقتصاد الدولة كما بدينامية الجماعة الإنتاجية داخل السلم الاجتماعي والنظام الاقتصادي العام.

من أبرز مواضيع هذه النقاشات المطولة ندرج ما أورده الونشريسي حول جواب ابن مرزوق (ت.٨٤٢هـ/١٤٣٨م)، عن سؤال يتعلق بأرض القانون حول حكم بيعها وإرثها فكان جوابه: "العادة بيع الأرض القانونية بالمغرب وإرثها والظاهر من حالها أنها مملوكة"[١٢]. ولعل الونشريسي لم يقتنع بهذا الجواب المختزل لذلك أتبعه بتعقيب مطول ندرجه كالتالي:" اختلف في أرض المغرب فقيل عنوية، وقيل صلحية، وقيل التفصيل بين السهل والجبل وقيل بالوقف، وأما أرض إفريقية، فقال بن أبي زيد في أرض العنوة والصلح من النوادر عن سحنون قال: كشفت عن أرض إفريقية فلم أقف منها على حقيقة من عنوة أو صلح، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال: لم يصح عندي فيها شيء، وأما بلاد المصامدة وأرض مراكش فقال بن عبد الحكم: اتفق أشياخ بلادنا من أهل العلم أنها أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة، وقال عن أبي الأصبع القرشي: أدركنا أهل الفقه والورع في بلاد الأندلس يشترون الأرض فيها ويبيعون ونحن متبعون لهم وأنتم متبعون أسلافكم في المغرب"[١٣] وعلى نفس الدرب سار الجزنائي الذي استهل مؤلفه جنى زهرة الآس بمحاولة في تحديد الوضع الشرعي لأرض المغرب الأقصى. وقد أفرد لنا ثلاث شهادات بهذا الخصوص وهي تعود إلى أبو الحسن القابسي في شرح موطأ مالك[١٤]، حيث أقر من خلال هذه الشهادات أن هناك اختلاف كبير حول أرض المغرب هل فتحت عنوة أو صلحًا أم أنها مختلطة. **وتتضمن هذه الآراء ما يلي:**

- **الاتجاه الأول**: الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك أنها فتحت عنوة بالسيف لأنه جعل في المعادن النظر للأمام ولو صح ذلك لم يجز لأحد بيع شيء منها كأرض مصر وطنجة لأنها افتتحت بالسيف.
- **الاتجاه الثاني**: قيل صلحا صالح عليها أهلها فإن كان كذلك جاز بيع بعضهم من بعض.

- **الاتجاه الثالث**: قال أصحابه بأنها مختلطة هرب عنها أهلها في بعض المناطق، ومن ظل بيده أرضا فقد صارت له، واعتبر أن هذا هو الصحيح[١٥].

من جديد نجد أنفسنا أمام ارتباك فقهي واضح حول تحديد الوضع القانوني لأرض المغرب، ومن جهة ثانية، استوقفتنا مجموعة من العبارات التي تتميز بوزن تاريخي بالغ الأهمية؛ مما يحتم علينا تمعين الملاحظة حولها؛ وهي: "يوجب النظر فيها أن تجري على ما توالت عليه القرون الماضية في آخرها وتقرر في أيدي مالكها " و"...اغتصب أو أجلي عنه أهله". فحمولة هذه العبارات تدفعنا إلى تقديم ثلاثة استنتاجات: الأول يتعلق العمل بالتقليد الموروث في التعامل مع الأرض، ولربما تم الاعتماد على التقاليد المعمول بها قبل الفتح الإسلامي لأن المنطقة اشتهرت بالرعي والزراعة منذ فترات مبكرة من تاريخها، حيث أن الأهالي الذين قاوموا الاحتلال الروماني فقدوا أرضهم وحريتهم وممتلكاتهم أمام قوة القانون الروماني[١٦]، وهذا ما ينطبق على المبدأ الذي صارت عليه الأرض العنوية. أما الاستنتاج الثاني يتجلى في وجود الملكية الخاصة للأرض، بينما يتمثل الاستنتاج الثالث في أن هناك أراضي اغتصبت من أصحابها أو أجلي عنها أهلها وهي الأراضي التي تندرج ضمن أرض الصوافي والموات.

هناك إشارة وردت لدى الجزنائي توضح تلك العلاقة الموجودة بين التنظيم القانوني للأرض ومسألة الضرائب، وهي تعود إلى عهد أحد عمال المنصور بن أبي عامر حين سيطر على أراضي فاس فسأل عن وضعية الأرض؛ هل هي صلحية أم عنوية فكان الجواب بالنفي وأن الجواب لدى الفقيه أبا جيدة بن أحمد، فكان جوابه أنها أسلم عليها أهلها، فقال لهم خلصكم الرجل ولعل هذا الجواب يحتمل وجود مرجعية مادية ضرائبية أكثر منها سياسية لأن الوضع الشرعي للأرض هو ما يحدد قيمة ما يفرض عليها من جبايات[١٧].

بعودة إلى أحداث القرن الأول والثاني الهجريين بالغرب الإسلامي، نجد إشارتين على غاية من الأهمية تستحقان شيئًا من التأمل المتأني؛ الإشارة الأولى تعود إلى السياسة التي اتبعها عمال الأمويين بالمغرب الأقصى ورد فعل الأمازيغ. فتارة نجد مفهوم الجزية عهد يزيد بن أبي مسلم الذي قتله الأمازيغ بسبب اعتزامه السير في أهل المغرب بسيرة الحجاج في أهل العراق؛ بمعنى الإبقاء على ضريبة الجزية على رقاب الذين أسلموا، مع إرجاع السكان إلى قراهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الإسلام[١٨]. وتتمثل الإشارة الثانية في السياسة التي نهجها عمر بن عبد الله المرادي الذي أساء السيرة وتعدى في الصدقات العشر. وأراد أن يخمس البربر وهذا ما نتج عنه ثورة سنة ١٢٢هـ[١٩].

وقد اختلفت تفسيرات الباحثين حول الدوافع التي أدت إلى تخميس البربر، فهناك من قال بأنهم لم يسلموا إسلاما حقيقيا وأن خفوت درجات الإيمان في قلوبهم هو ما أدى إلى تخميسهم[٢٠]. وفي اتجاه مغاير نحى أحد الباحثين[٢١] الذين أبانوا عن علو كعبهم في مجال التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد المغرب خلال العصر الوسيط، إلى إبراز الأسباب المادية التي كانت وراء حركات البربر ضد الحكم الأموي بالمغرب حيث اعتبر أن السبب المباشر لهذه الثورات هو رفضهم لسياسة الإقطاع التي بدأت تتكون مع الفتح الإسلامي بالمغرب الأقصى والتي ظهرت أبرز معالمها في السياسة المالية المجحفة التي نهجها الأمويون بالمغرب، الذين استهدفوا بالأساس خيرات الأرض والثروة الحيوانية إضافة إلى استرقاق السكان. وعلى هذا الأساس يظل التفسير الديني تفسيرًا مبتورًا وغير متكامل أبدًا، إذ من شأنه أن يعتم الطريق نحو الحقيقة الموضوعية.

تتضح معالم هذه السياسة في كيفية أجرأتها، فقد ذكر أنه من أجل الحصول على الفراء الأبيض للبقر تم ذبح ألفا منها نزولا عند رغبة السلطان[٢٢]. ولم تقف السياسة الضرائبية للفاتحين عند هذا الحد بل تجاوزته إلى تشيئ الساكنة واعتبارها شيئا قابلا للمبادلة، يظهر ذلك بشكل واضح من خلال المكتوب الذي أرسله عمر بن العاص إلى أهل لواتة البربر من ساكنة برقة، ومضمونه أنه بإمكانهم أن يبيعوا أبنائهم ونسائهم مقابل ما عليهم من الجزية. وفي حالة أخرى جاء لدى البلاذري عن ميسرة المطغري أن عمال الخلافة في المغرب قد ساوموا البربر على أن يأخذوا كل جميلة من بناتهن وكان جوابه "أن ذلك لم يوجد لا في الكتاب ولا في السنة ونحن مسلمون"[٢٣]، هذا إضافة إلى أن خلفاء المشرق عملوا على استجلاب البربريات عن طريق عامل إفريقية والظاهر أن ابن الحبحاب سهل لهم الطريق للحصول على الفتيات الجميلات غير أن ذلك لم يتأتى له إلا عبر سياسة التعسف والقوة التي نهجها في أهل المغرب[٢٤].

تنجلي العتمة شيئا فشيئا لما نغوص في مثل هذه الممارسات التي تشكل الشق التنفيذي من السياسة العامة المتبعة في البلاد المفتوحة، هذه السياسة التي تأسست على الإقطاع والاسترقاق، مما أغضب البربر وجعلهم يتخذون من الثورة كتعبير عن رفضهم لسياسة الأمر الواقع هاته. والظاهر أن مسألة التشكيك في إسلام أهل المغرب سوف تصبح

متجاوزة بدليل جواب ميسرة المطغري الذي أورده الطبري حول مقارنه ما جاء في الكتاب والسنة مع ممارسات الباحثين عن المال تحت ذريعة الهلال. والواضح أنه لم تكن أية علاقة بين المكتوب على المستوى النظري والسياسة المطبقة على أرض الواقع؛ ولعل هذا ما دفع البربر إلى الالتفاف نحو مذهب جديد جمع بين أصحابه نفس الدافع الاجتماعي والسياسي وأيضًا الاقتصادي وهو بسيط لكنه ثوري وكن الكراهية للخلافة الأموية ووقف حاجزًا أمام تجاوزاتها التي مست الإنسان والمجال خلال المرحلة موضوع الدراسة. إنه المذهب الخارجي الذي تلاءمت مبادئه مع طبيعة إسلام البربر الذي كان بسيطًا وخاليًا من أي تعقيد.

ولا غرو، فقد تجاوز الأمر كل ما ذكر حيث مس الإقطاع الأراضي الزراعية وظهرت الملكية الخاصة لفائدة الطبقة الاجتماعية الجديدة، المكونة من السياسيين أهل الإدارة والتسيير من الفاتحين العرب وهم الأكثر حظا. ولا جدال في أن السياسة التي انتهجها يزيد بن أبي مسلم حول إرجاع الأمازيغ إلى قراهم وعلى الأرجح أنها القرى التي عاشوا فيها زمن الاستعمار الروماني. حث لم يتغير الحال المادي للبربر عن الفترة السابقة لقدوم الفاتحين العرب. وهنا نملك مشروعية التساؤل عن مآل الأراضي الخصبة التي كانت في حوزة الوندال والرومان من قبل؛ هي نفسها الأراضي التي كانت من نصيب الطبقة الأرستقراطية الهجينة التي تكونت في بلاد المغرب عقب عملية الفتوحات، والتي استحوذت على السلطة ومارست العنف المشروع وإلزامية الإكراه[٢٥]؛ تكريسا للسلطة الجديدة وحماية لمصالح حقوق الخلافة المركزية بالمنطقة الجديدة كنوع من أنواع التبعية وامتدادًا للسياسة التي كان معمولاً بها في جميع المناطق المفتوحة.

تعزيزًا لنفس الطرح أورد لنا ابن عذاري نصين تتجلى أهميتهما في توضيحهما لطرق الاستفادة والاستغلال للثروة. جاء في النص الأول "روي أن بعض وكلائه زرع فولاً كثيرًا في بعض رياضاته، فقال له ابن اللخناء أتريد أن أعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم البقلاني"[٢٦]؛ بينما يفيد النص الثاني تملك أحدهم لثروة حيوانية هامة هو وابنه[٢٧]. وعلى ما يبدو أن النصين قد يسهلان على الباحث مأمورية البحث والتقصي عن آليات وطرق الاستغلال، فقد كان يتم ذلك عبر وكلاء وهذا يعني أن صاحب الأرض لم يكن من ساكنة المجال الريفي بل كان من الملاك التغيبين الذين قطنوا المدينة واستفادوا من ريع الأرض عبر وكلاء أو مستأجرين. بينما يوضح النموذج الثاني توسع دائرة الفائدة من الشخص إلى أبنائه وليس من المستبعد أن تكون هذه الامتيازات الإقطاعية وراثية فيزداد الغني غنى بينما يزداد الفقير فقرًا.

لم تكن العقارات هي الوسيلة الوحيدة لتكوين الثروة، بل اهتدى العرب الفاتحين ومنذ زمن مبكر إلى أهمية التجارة مع السودان الغربي وأهمية المواد المجلوبة من تلك الرقعة الجغرافية والمتمثلة في الرقيق والذهب، يبدو ذلك جليًا من خلال وصول عقبة بن نافع إلى بلاد كوار ثم اتباع حبيب بن أبي عبيدة طريق سوس في اتجاه الصحراء الكبرى واستيلائه على كميات من الذهب، وفي سنة ١٢٧هـ، قام عبد الرحمان بن حبيب وهو أمير القيروان بحفر عدة آبار على طول الطريق العابرة للصحراء بين تادمكت و أوداغست ولعل الهدف من وراء ذلك هو إدراك الأهمية الجيو اقتصادية للمناطق الجنوبية لبلاد المغرب ويظهر هذا الإدراك من خلال إدخال الصحراء في الدورة الاقتصادية المغربية الجديدة وذلك عبر السيطرة على مسالك الذهب والرقيق، وسحب البساط من الأمازيغ الذين دخلوا في صراع طويل مع العرب من أجل كسب الرهان والحفاظ على دورهم التجاري بالمنطقة[٢٨].

وغير بعيد عن هذه المرحلة المتزامنة والمرحلة التأسيسية للغرب الإسلامي، تحدث الرقيق القيرواني عن فتوح موسى بن نصير في إفريقية؛ حيث أمر بسر بن أرطأة بالدخول إلى قلعة مجانة التي فتحت عنوة، وجرى عليها ما يجري من أحكام على المناطق العنوية. حيث سبى أهلها وغنم منها أموالا كثيرة إضافة إلى الكميات المهمة من الذهب والفضة التي تم العثور عليها بالإضافة إلى الغلمان والصبايا، فخمس ذلك وكانت قيمته الإجمالية تناهز الخمسة وعشرين ألف دينار فبعث بكل هذه الثروة إلى الوليد بن عبد الملك بمركز الخلافة[٢٩].

وفي إطار بحث عمال الأمويين على رضى الخليفة نجد حسان بن النعمان الذي تم تلقيبه بالشيخ الأمين، ففي إطار رغبة الخليفة عبد العزيز بن مروان في عزل بن النعمان قام هذا الأخير باتقاء شر حاشية السلطان وذلك بإخفائه للجواهر والذهب والفضة عن أنظار مساعديه. حيث أهدى لعبد العزيز أجمل الجواري، ولما حضر أمام الخليفة فاجأه بكميات الذهب والفضة التي جاء بها من إفريقية رغبة منه في أن يظهر له حسن نواياه بل أن يظهر له أنه رمز للأمانة وأهل لها وبهذا الإجراء عدل الخليفة عن قراره في أن يعزل بن النعمان بل أثنى عليه ولقبه بالشيخ الأمين[٣٠]. وكما هو ظاهر أن هذا الرضى كان باهض

الثمن وعلى حساب الأهالي البربر من ساكنة بلاد المغرب المتغلب عليهم.

ويرى أحد الدارسين[٣١] أن انخراط البربر في إطار الحركة الخوارجية، واحتضانهم لحركة الأدارسة، كانت مناسبة للتخلص من الضرائب المجحفة المفروضة عليهم لأنه تم اعتبار أراضيهم عنوية وخراجية في الآن نفسه مما سيجعلهم عرضة لاستغلال ضريبي جائر. غير أن أمل سكان المنطقة سيخيب خاصة مع الدولة المرابطية حيث سيفرض خلفاء يوسف ابن تاشفين نظاما ضريبيا لن يكون في مصلحة الدولة التي سقطت وهي في زهرة عمرها؛ حيث استغل الموحدون هذا الواقع ليؤسسوا لحملتهم الشعواء ضد الحكم المرابطي. فماهي مميزات وضعية الأرض خلال عهد دولة الموحدين؟

ثالثًا: الموحدون والتنظيم القانوني لأرض المغرب الأقصى

لا مراء في أن تاريخ قيام دولة الموحدين ظل مرتبطًا بالعقيدة التومرتية التي شكلت الحافز السياسي والمذهبي لقيام هذه الدولة، وليس من المستبعد أن تكون سياسة الموحدين الاقتصادية بما فيها نظام ملكية الأرض مشبعة بهذا المذهب العقدي الذي أثر بدون شك على كل مناحي الحياة داخل دولة المصامدة. فمعلوم أن الموحدين قد أكنوا العداء المغرض لنظرائهم المرابطين بل ولمناصريهم أيضا، لذلك نجد أن مرحلة قيام الدعوة الموحدية ظلت مرتبطة بسياسة الاعتراف الدموية التي نظمت سواء في المجال الحضري أو على مستوى الأرياف خصوصا منها المناطق الجنوبية وذلك سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م[٣٢]. وقد دشنت هذه العملية بتصفية قبائل بورغواطة المستوطنة بسهل تامسنا، كما استهدفت هذه السياسة إضعاف قبائل دكالة المستوطنة نفس السهل، ومرد ذلك أن هذه القبائل رفضت العقيدة الجديدة والصحيحة في نظر أهلها. مما يجعلنا نقر بأن الغلاف المذهبي لدولة الموحدين سوف يؤثر بشكل مباشر على نظام ملكية الأرض كما سيأثر على طريقة تنظيم مجال المغرب الأقصى.

يمكننا أن نلمس هذا الواقع من خلال إجراءين: الأول ويندرج ضمن ما يعرف بالتطهير الذي يقصد به تطهير العاصمة مراكش، بعدما رفض الموحدون الدخول إليها إلا بعد استئصال شأفة أواخر المرابطين ومناصريهم. ولم يقتصر الأمر عن الأشخاص بل شملت هذه العملية هدم جوامع المدينة وإقامة جوامع أخرى. هذا على الرغم من أن المدينة تتميز بموقعها الاستراتيجي الهام فهي في سفح الجبل على هضبة مهمة تمكنها من مراقبة القبائل الجبلية المحيطة بها، كما أنا تشرف على سهل دكالة الغني وهذا ما نستفيده من خلال شهادة معاصرة لكل هذه الأحداث[٣٣].

أما الإجراء الثاني فيعود إلى استقدام القبائل العربية الهلالية وتوزيعها على هذه المناطق السهلية وذلك سنة ٥٥٥هـ/١١٦١م، وذلك بعد عملية الاعتراف بشكل مباشر وهذا يستدعي التساؤل عن وضعية الفئات الاجتماعية القارة وكذلك الوافدة. من المستفيد؟ فهذا التدافع البشري سوف يؤثر بشكل مباشر على الجماعات الإنتاجية كما أن منح الأراضي على شكل إقطاعات سوف يدفعنا كذلك إلى طرح تساؤلات عدة حول الجماعات البشرية المنتجة من يشتغل لصالح من؟ أي نظام اقتصادي واجتماعي عرفته المرحلة؟ وما يجعل هذه الأسئلة تزداد مشروعية هو اعتبار أن الأرض هي الوسيلة الإنتاجية الأولى خلال هذه المرحلة التاريخية.

يظهر أن مبدأ المتغلب هو الذي طبع طريقة تعامل الموحدين مع الأرض، فالأرض التي فتحت عنوة تعود إلى الدولة وإلى السلطان هو الذي ينظر في أمرها. أما صاحبها فيتحول إلى عبد مسترق في أرضه كما أنه يفقد ملكيته لفائدة السلطان. ويظهر ثقل هذا الوضع من خلال الإجراءات التي قام بها الموحدون لما فتحوا مدينة مكناسة عنوة حيث: "تملك الموحدون البلاد والأموال وصار الناس عمارا في أملاكهم يؤخذ منهم نصف الفواكه الصيفية وثلثا غلة الزيتون"[٣٤]، وعلى ما يبدو أن هذا التعامل دفع الفلاحين إلى الفرار والهجرة من أراضيهم. أما بالنسبة للأراضي الفارغة من جراء الحروب الطاحنة التي دارت بمجال سهل دكالة وأراضي بورغواطة فقد أسندت إلى القبائل الهلالية على شكل إقطاع انتفاع لا تمليك مقابل أداء الخدمة العسكرية وأداء الزكاة لبيت مال الدولة[٣٥]. مع العلم أن هذه الأراضي في أصلها عنوية حيث أن أمرها كان في يد السلطان هو الذي يحدد وضعيتها.

عرف الموحدون سياسة الإقطاع هذه منذ عهد بن تومرت، لما اقتحموا أملاك قبيلة هزميرة، حيث اتخذ الإقطاع خلال هذه المرحلة شكل "الجزاء". وحسبنا أن ما جاء به ابن القطان ليؤكد ظنوننا حيث قال: " فقتل منهم في ذلك اليوم نحو خمسة عشر ألف وسبى حريمهم وغنمت أموالهم فقسم أرضهم وكرومهم بين الموحدين(...)، وأصفى ديارهم جوائز جوائز لكل جائزة قبيلة"[٣٦]. ويعتبر الإجراء الذي قام به عبد المومن سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م، والمعروف تاريخيا بالتكسير وهو الإجراء الذي حسم في مسألة الأرض بالمجالات التابعة للدولة الموحدية،

فهو عبارة عن عملية إحصائية للأراضي وأنواعها وذلك بغية تحديد ما يدخل في ملكية الدولة وما يدخل في ملكية الغير و ما يتوجب على الرعية من واجبات ضرائبية حسب نوع الأرض والمحصول، فقد أمر عبد المومن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب بالفراسخ والأميال طولاً وعرضًا، فأسقط من التكسير الثلث في الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات وما بقي قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق فاعتبر أول من أحدث ذلك بالمغرب(٣٧).

ولعل هذه السياسة قد أثرت بشكل مباشر على الوضعية القانونية للأرض، حيث ألغي التخميس الذي من المحتمل أن يكون أحد أسباب قيام الثورات التي عرفتها الدولة الموحدية في مختلف مراحل عمرها السياسي. غير أن هذه الثورات نشبت في المناطق التي تم اعتبارها عنوية مثل ثورة بن هود الماسي بسوس، وثورة البورغواطيين الذين تحالفوا مع القاضي عياض بسبتة(٣٨)، وثورات غمارة المتكررة. وإذا عدنا إلى كتب الجغرافيا بغية استبيان طبيعة منطقة غمارة، سنجد أنها اعتبرت من أغنى المناطق خصوصا على مستوى الطبيعة ذلك أنها توفرت على ثروة غابوية مهمة(٣٩) جعلتها تعرف بصناعة السفن إلى جانب اشتهارها بإدخال الخشب في البناء(٤٠)، لذلك لم تتوانى كتب الجغرافيا عن إبداء إعجابها بمجال غمارة التي اعتبرت من "أخصب جبال المغرب فهي توفرت على الأعشاب والفواكه والعسل"(٤١).

هذا إضافة إلى البعد الاستراتيجي لمنطقة غمارة، كانت هذه البلاد قريبة من مجموعة من المدن المراسي ذات الأهمية التجارية مما مكن سكانها من تحقيق الاكتفاء الذاتي بالاعتماد على الأسواق المحيطة بهم؛ فلم يكونوا بحاجة إلى السفر لمسافات طويلة بهدف الحصول على البضائع ومختلف مستلزمات المعيشهم. فيتحدث الإدريسي عن مدينة بادس ويقول بأنها مدينة متحضرة فيها أسواق وصناعات، يلجأ إليها الغماريون في حوائجهم(٤٢). وتظهر استراتيجية موقع منطقة غمارة أيضا في وقوعها في أقصى شمال المغرب في نقطة اتصال العدوتين وعلى هذا الأساس كانت تأثر كما تتأثر بمختلف الأحداث السياسية والثورات التي تعرفها الأندلس حينئذ.

وما يجعلنا مندفعين إلى القول بأن الثورات التي عرفتها هذه المنطقة كانت ذات نزعات مادية أكثر منها سياسية هو رغبة هذه القبيلة في الحفاظ على مكتسباتها ضد سياسة الإقطاع والتخميس التي كانت وسيلة الدولة لفرض السلطة والسيطرة على المنطقة. فهذا التمرين الطويل الذي خاضته هذه القبائل ضد السلطة المركزية تارة تلون بأسباب سياسية وتارة بأسباب اقتصادية خصوصًا وأن أرض غمارة اعتبرت عنوية. إذا فالدولة ستفرض على ساكنتها العديد من المغارم كرمز للسيادة والتبعية للسلطة المركزية. وعلى العكس من ذلك تمامًا نجد قبائل زرهون التي بادرت بإرسال بيعتها إلى عبد المومن الذي كان في أحواز تلمسان فاعتبر فعلهم هذا السبب الذي جنبهم الوقوع في مطب الأراضي العنوية وما يترتب عنها من حقوق لصالح الدولة كما حصل مع جيرانهم من أهل مكناسة الزيتون "فلم يتعرض لأموالهم كما فعل بالأملاك التي أخذت عنوة"(٤٣).

يظهر من خلال النص الذي أوردناه أن الإعفاءات التي ظفرت بها قبائل زرهون قد جنبتهم مجموع المغارم الناجمة عن التمرد ورفض الدخول تحت طاعة الموحدين، ولا غرو فإن ما لحق بقبائل مكناسة من عقوبات جعل الدولة تعتبر نفسها شريكًا في المحاصيل الزراعية حيث أخذ منهم نصف الفواكه الصيفية والخريفية وثلث غلات الزيتون(٤٤). غير أن السلطة الموحدية سرعان ما تراجعت عن العقوبات المفروضة على هذه القبائل ولعل سبب هذا التراجع يعود إلى تلك الثورات المزمنة التي نشبت في الجسم الموحدي وفي مختلف المناطق في الجنوب بسوس، والوسط ببورغواطة وأيضًا الشمال في منطقة غمارة(٤٥).

تمكننا نصوص مثل هذه، من تكوين فكرة متكاملة على أسس الثروة التي جمعتها دولة الموحدين كما تمكننا من ملامسة مدى تأثير مبدأ الغنيمة، وما صاحبها من فروض مالية وجبائيه على المجتمع الإنتاجي خلال هذه المرحلة التاريخية. ومن أجل التمكن من بناء الخلاصات الضرورية حول الموضوع نريد إبداء ملاحظات حول طريقة تكوين الموحدين لثروتهم باعتبارهم تمكنوا من تكوين أكبر إمبراطورية عرفها الغرب الإسلامي خلال الفترة الممتدة من ٥١٨هـ/ وهي السنة الموافقة لانطلاق الحركة الموحدية وسنة ٥٥٥هـ، السنة التي توافق استكمال عبد المومن إخضاع المناطق التي دخلت تحت النفوذ الموحدي.

فيظهر إذن أن الدولة الموحدية كونت أول رصيد من ثروتها عبر استيلائها على أراضي وأملاك مختلف الكيانات السياسية التي تم القضاء عليها سواء على مستوى شمال إفريقيا أو الأندلس. مما يجعلنا ننفتح على الأراضي التي فتحت عنوة؛ وهي الأرض التي آلت ملكيتها إلى الدولة أو الفاتحين على حد التعبير

الفقهي، وعن الجماعات السكانية التي تأبى الدخول في الدعوة الجديدة فهي تحول إلى عبيد وعلى أراضيها وممتلكاتها التي تشتغل بها لكن الوضع القانوني يتغير حسب الظرف السياسي، لأن الساكنة هنا تشتغل لفائدة الدولة الشريكة المالكة لوسائل الإنتاج فيما تسقط هذه الملكية عن أصحابها الأصليين لفائدة المالكين الجدد، ومن أبرز التجليات التي تدل على تطبيق الموحدين لسياسة الأرض المفتوحة عنوة، هو ما حدث في كل من مراكش ووهران وتلمسان. وحسب النويري فإن سكان دكالة كانوا كثيري العدد سنة ٥٤٤هـ، "فقتل أكثرهم وغنمت أموالهم ونساؤهم فبيعت الجارية بدراهم يسيرة"[٤٦]، ويتحدث صاحب الحلل الموشية عن كل من مراكش زمن الفتح الموحدي ويصف حال البلاد والعباد فيقول: "إذ قتل الرجال وبيع النساء والأطفال بيع العبيد وخمست أملاكهم"[٤٧]. ويقدم لنا بن القطان أرقاما إحصائية دقيقة عن مدينة تازكورت خلال هذه المرحلة، إذ قتل أزيد من ٢٠٠٠٠ من سكانها[٤٨]، وعن تامسنا مجال قبيلة بورغواطة فيظهر أنها لم تكن خالية من الساكنة إذ تحدثنا المصادر عن بقاء صغار الفلاحين بها بعد هزيمة البرغواطيين أمام الموحدين سنو ٥٤٣هـ[٤٩].

وإلى جانب ذلك نجد الأراضي التي فتحت صلحا، والملاحظ فيها وعلى الرغم من أنها أراضي صلحية إلا أن الأملاك والعقارات تصبح ملكا للمنتصرين، بينما يظل ملاكها الأصليين مكترين لها أو يدخلون مع المخزن في علاقة شراكة. غير أن هذا النوع من الشركات يستوجب وقفة خاصة؛ فقد حصل في تونس لما تغلب الموحدون عليها سنة ٥٥٥هـ، وتم إخضاعها لعبد المومن أجبر سكانها على دفع نصف قيمة كراء منازلهم للمخزن الموحدي، وليس هذا فحسب وإنما أملاك وعقارات أهل تونس كلها آلت للموحدين باستثناء ما يستر عوراتهم من اللباس فقط. ولاحقا سوف يقوم عبد المومن بإعفاء أهل تونس لكن هذا الإعفاء كان مشروطًا؛ ومن أبرز شروطه مشاطرتهم في رباعهم وأموالهم، واعتبر أنها ملكا للمخزن ما عدا ملبوس رقابهم. وبعد فتح تونس رحل عبد المومن منها إلى المهدية وخلف عليها عبد السلام الكومي ومعه بعض الأشياخ الموحدين فدخلوا دور الأهالي بحثا عن الأموال وحمل جميع ما فيها. وبيع ما تم بيعه من الأملاك، هذا الإجراء طبق على سائر بلاد إفريقية وذلك لمشاطرة الرعية في جميع ما بأيديهم حتى لم يبقى من هذه المدينة بقعة إلا عمها ذلك[٥٠]. ونفس الحال سوف يعيشه سكان المناطق الثائرة كمدينة قفصة سنة ٥٨٢هـ[٥١].

اعتبرت الأراضي الفارغة التي مالك لها من ضمن ممتلكات الدولة وذلك في إطار ما اصطلح عليه فقهيا بأراضي الصوافي. وهي على الأغلب أراضي فر عنها سكانها كنتيجة للاضطرابات والحروب التي تعرفها البلاد خلال المراحل السياسية الانتقالية من دولة إلى أخرى. فالجماعات البشرية التي تستقر في بعض الأراضي سواء كمالكين أو معمرين كانوا يفرون هربا من الحروب والفتن، ونجد في المصادر التاريخية نماذج عديدة عن هذه الحالات التي لطالما تكررت خلال الفترة مدار الدراسة. وعلى الأغلب كانت هذه الجماعات تهرب من المناطق السهلية نحو الجبال والصحاري بهدف التحصن، كما هو الحال بالنسبة لأهل سوس الذين فروا إلى المناطق المجاورة لهم[٥٢]؛ كما تحدث الإدريسي عن مدينة بني تاودا القريبة من فاس والتي كانت معمورة أيام المرابطين، غير أن أهلها فروا هربا وحل بها الفساد بعد أن استأصلها المصامدة ولم يعد إليها بعد إخماد الفتنة إلا ١٠٠ رجل وما دفع هؤلاء إلى إعادة تعميرها هي أرضها الخصبة الصالحة للزراعة[٥٣]؛ ونفس الحال تعرض له سكان منطقة تازكورت[٥٤]. ويتحدث بن عذاري عن هروب سكان منطقة الهبط التي أطلق عليها تسمية قصر عبد الكريم حيث "أخلاها تهرج الفتن ولا يوجد فيها إلا القليل من الناس والأرض موحشة قفرة"[٥٥]. وبعد استتباب الوضع للموحدين سيعود إليها أهلها لكن هذه المرة ليس كمالكين ولكن كشركاء أو مستأجرين في إطار شركة مرابعة أو خماسة أو عبر عقود كراء لصالح المخزن الموحدي. وليس لصالح الأهالي.

تطالعنا نماذج الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأقصى، وكيفية قيامها وسيطرتها على المجال، على إمكانية وضع عدة تصورات ولعل أولها أن الظواهر السياسية أو العسكرية لها قوتها في تسيير الأحداث وتملك الثروة المادية والتحكم فيها أيضا. وأن وسائل الإنتاج وعلى الرغم من فاعليتها في تكوين وتنميط الأنظمة الاجتماعية فإن طبيعة التسيير الإداري تؤثر بقوتها أيضًا في تشكيل الأنماط الإنتاجية باعتبار العلاقة القائمة بين البنية الفوقية والبنية التحتية المشكلة لكيان الدولة وماهيتها.

ويظهر أيضًا أن الميكانيزمات المتحكمة في الجماعات البشرية والتحولات التي تلحق بها إنما هي ناتجة أساسا عن تغيير أنماط الحكم ولا ترتبط بالتحولات التلقائية التي قد تلحق الأنماط الإنتاجية المستندة على الأسس الفكرية المتينة. فالنظام العسكري والسياسي الخاص بكل دولة له دوره الفاعل في الدينامية الاجتماعية داخل كل بلد[٥٦]. فيظهر أن التجربة

السياسية لدول المغرب الأقصى أبانت بشكل واضح على أن المعاملات الاقتصادية التي قامت في كنفها جاءت لتكريس وضع سياسي ما قائم أو مستحدث عن طريق إغناء فئات وتفقير أخرى في إطار صناعة الفئات والطبقات المؤيدة للنظام الحاكم حتى تضمن هذه الدولة استمراريتها عبر استعمالها للعنف المشروع.

إن طرائق التعامل مع الأرض ووضعها القانوني يفسح فعلا المجال للانفتاح على سياسة الواقع الممارسة ومقارنتها بالإطار النظري الذي من المفترض أن ينظمها وهو الشريعة الإسلامية. لكن واقع الحال يقول إن الحتميات السياسية كانت أقوى من أي إطار تشريعي؛ وهذا ما جعل نوعًا من الصراع يطفو على سطح الأحداث وهو صراع المادة والتنظيم الشرعي المقحم ضمن متطلبات العمل السياسي. فعلينا الاعتراف بأن الظرف السياسي يسير وفق مجرى خاص يجعله يحور الحدث التاريخي الذي يدفعه إلى تبيئة القانون وفق مجريات المعيش التاريخي. على الأقل هذا ما يظهر من خلال العديد من المفاهيم الاقتصادية التي كانت مطروحة على الساحة السوسيو-اقتصادية للدولة الموحدية. وبالرجوع إلى الدينامية الاجتماعية زمن الموحدين نجد أن الدولة لعبت الدور الوظيفي في تشكيل الطبقات الاجتماعية سواء على مستوى العقل والوعي أو حتى الممارسة الفعلية. تم ذلك عبر خلق طبقة مؤيدة ترتبط مصالحها بمصالح الدولة والحاكم والظرفية المعاشة أيضا؛ ومن جانب آخر عملت الدولة على إضعاف ومن تم إبعاد أي عنصر مناوئ أو مخالف لتوجهات الدولة القائمة[٥٧]، عبر نهج سياسة الاستعباد والقهر وإدارة العنف وتقنينه إذا لزم الأمر[٥٨].

وعلى هذا المنوال، يظهر أن جل الموحدين قد عاشوا نوعا من حالة الرضى على ما تجمع لديهم من ثروات وأموال. فقد تغيرت حالتهم الاقتصادية نتيجة عاملين: الأول ويعود إلى تعدد مصادر تمويل الدولة لبيت مالها والثاني يعود كما أسلفنا إلى سياسة الدولة الموحدية التي استهدفت خلق مجتمع داخل المجتمع فهو مجتمع إنتاجي وسياسي مناصر لها ومؤيد لمذهبها ومعتقداتها. وكنتيجة لهذه السياسة فقد خرج العديد من الموالين للسلطة الموحدية من العدم والخصاصة إلى حيازة الرفاهية والتأنق في الملبس والمسكن والمطعم، وغرس البحيرات والمنتزهات[٥٩]، ويبدو أن عهد يوسف بن عبد المومن كان عهد رخاء اقتصادي وفرصة لتكوين الثروات. وتشير المصادر إلى هذه الثروات بشكل واضح "ونمت الأرزاق وعمرت الأسواق وزادت المخازن وفورا وردت الخيرات على الناس دورا، وابتنوا بمراكش الديار العتيقة واغترسوا خارجها أينع حديقة"[٦٠]، وحسب شهادة رسمية أوردها أحد الطلبة فقد شبه المغتنين في عهد يوسف بن عبد المومن باغتناء الصحابة زمن عثمان بن عفان[٦١]. حيث تملك الموحدون الأموال والضياع وكانت ثرواتهم كبيرة جدا ولم تفوت المصادر التاريخية الحديث عن ثرواتهم ومصادرها في العديد من المناسبات[٦٢]. مما جعلنا نكتشف تعدد الفئات المتملكة للضياع بين فئات مخزنية كحام وفئات غير مخزنية، لكنها على الأغلب موالية للسلطة ومساندة لها.

يتحدث صاحب الاستبصار عن بحيرة عبد المومن الكائنة غرب مدينة مراكش والتي غرسها بنفسه وجلب لها الماء من أودية جبل درن[٦٣]. ويظهر أن حجم إستغلاليات الموحدين كان كبيرًا وخاصة بمراكش عاصمة ملكهم، يزداد هذا المعطى وضوحًا عندما نتطلع إلى حجم المبيعات كما وصفتها المصادر، فزيتون استغلاليات عبد المومن بمراكش أكثر من استغلاليات مكناسة وتازة وأحسنها جودة[٦٤].

رابعًا: السلطة وعلاقتها بالتشكيلة الاجتماعية الإنتاجية على ضوء نظام الأرض

يظهر من خلال ما سبق مدى تدخل الدولة في العملية الإنتاجية، فها نحن أمام نموذج الدولة الموحدية التي عملت فيها السلطة الزمنية على التدخل في توجيه العملية الإنتاجية. ويظهر ذلك من خلال دخول الدولة كشريك مباشر وأولي للفلاح الصغير في المحاصيل الزراعية فقد ورد لدى ابن عذاري: "عمر الموحدون بلادهم ومجاشرهم وضموا شركائهم وأقبلوا على أشغالهم وصلاح أحواله في خدمة بواديهم"[٦٥]. مما ينهض حجة على اتباع الموحدين سياسة مشاركة الفلاح في المحاصيل الزراعية ابتداء من سنة ٥٥٥هـ. وقد تراوحت أسهم المشاركة والأرباح ما بين النصف والخمس من المنتوج الفلاحي، مما جعلهم لا يكتفون في نظمهم بالخراج فقط بل الانتقال إلى خراج المقاسمة. وعلى ما يبدو أن الموحدين قد تراجعوا عن هذه السياسة بنهجهم لسياسة خراج التقسيط أو الوظيف والمقصود به أن يدفع الشريك مقدارا جزافيا معينا حسب مساحة الأرض ودرجة خصوبتها، على أساس أن يقسط المبلغ المدفوع حسب مساحة الأرض لذلك فهو يسمى بخراج المساحة، وباعتبار المبلغ المدفوع أمام استغلال الأرض فإن العلاقة الإنتاجية تتحول من علاقة شراكة إلى علاقة الإجارة لصالح الدولة المالكة لوسائل الإنتاج وعلى حساب الفلاح المستضعف الذي يحول إلى أجير على أرضه[٦٦].

هذا الوضع يدفع بنا إلى الإقرار بأن الشراكة التي تجمع بين الدولة كبنية فوقية بكل ما يتضمنه المعنى من قوة تنظيم مؤسساتي وتشريعات وأفكار وإيديولوجيات وبين الفلاح الذي يعتبر عنصرًا مجهريا ينتمي إلى البنية التحتية المستضعفة والمفعول بها في أغلب الأحايين، فنحن إزاء علاقات إنتاجية غير متكافئة أبدًا. فالخسارة التي تكبدها الفلاح معلنة عن نفسها أشد الإعلان، ففي ظل هذا الوضع القائم كان الفلاح الشريك مرغم على اختيار وضعية من إثنين: الأولى وهو أن يشتري نصيب الدولة لنفسه وبثمن مرتفع أو أن يبيع نصيبه للدولة بثمن منخفض. وهذين الحالتين تعكسان مدى الابتزاز الذي كان الفلاح يتعرض له وتحديدًا في حقوقه المادية، ولعل مثل هذه التعسفات هي ما دفعه إلى هجرة الأرض والإنتاج الفلاحي مما يؤثر أيضًا على المصالح المادية للدولة القائمة.

وباستقرائنا للأحداث التي عاشتها دولة الموحدين سنوات ٥٤١هـ إلى حدود ٥٤٤هـ، يمكن أن نجد ذلك الخيط الرابط بين العوامل الاقتصادية والأحداث السياسية التي عاشت الدولة على إيقاعها خلال هذه المرحلة. فقد قام عبد المومن ابن علي الكومي بتغيير استراتيجيته الاقتصادية والمتمثلة في مشاركة الفلاحين وتخمسهم تخميس إقطاع خصوصا بعد عودته من الحملة على إفريقية سنة ٥٥٥هـ، حيث عرفت الدولة نشوب ثورتين عارمتين خلال هذه المرحلة: حيث ثار الماسي بسوس وسيطر على نقط جغرافية بالغة الأهمية من الناحية الفلاحية وهي البلاد الغربية بما فيها مناطق دكالة ذات الأراضي الخصبة. غير أنه تم إخماد هذه الثورة في العام ذاته وهو عام فتح مراكش سنة ٥٤١هـ[٦٧]، وما فتئت الدولة الناشئة خلال هذه المرحلة تتنفس الصعداء حتى ظهرت ثورة ثانية بكل من دكالة وبرغواطة المتحالفتين مع بقايا المرابطين، وبإيعاز من فقهاء المالكية المساندين للحكم المرابطي منذ نشأته حيث تم القضاء على هذه الثورة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م.[٦٨]

ومن الملاحظات التي يمكن تسجيلها بهذا الخصوص هو العلاقة الموجودة بين المناطق الجغرافية لنشوء الثورات والنظام الاقتصادي المفروض من طرف دولة متمذهبة على إيديولوجية ابن تومرت؛ على هذا الغرار اعتبروا أن كل مخالف رافض لدعوتهم فهو مجسم كافر. وهذا الحكم النوعي له تداعيات مادية لان مقابل رفض الدعوة الناشئة تم الإقرار بوجوب اغتصاب أموال المعارضين تأديبا لهم. هذا الوضع شرعن العنف والتقتيل الذي مارسه الموحدون في إطار عملية الاعتراف، غير أنه لا مجال للهروب من الإقرار بأن سياسة التخميس هي السبب الأساسي والمباشر في قيام الثورات كلها، إلى درجة أن هذه السياسة كانت موقع انتقاد من طرف فقهاء المالكية الذين وجهوا انتقادا لاذعا لابن تومرت الموحدي[٦٩]. لذلك نجد أنه ولأول مرة البنية التحتية ترغم البنية الفوقية على التراجع عن بعض من قراراتها، فقد غير عبد المومن مفهوم التوحيد من معناه الديني إلى معناه السياسي حيث صار يشمل كل من أظلتهم الدولة بظلها[٧٠]. كما أكد على ضرورة احترام الملكية الخاصة وعدم التسلط على أموال الناس لأنه مخالف لما جاء في الشرع[٧١]. ومن ناحيته شدد عبد المومن على الموحدين ليسمحوا للقبائل الثائرة بالرجوع إلى أوطانها وإعمارها[٧٢]، وهنا نلامس مدى تراجع الموحدين عن سياسة اغتصاب الأرض واحترام الملكية الخاصة[٧٣]، ونفس النهج اتبعه المنصور الموحدي الذي لما أراد نفي بني حمدون وبني قايد عن بجاية من جراء تعاونهم مع الميورقيين لم يقم بمصادرة أملاكهم لكنه أجبرهم على بيعها[٧٤].

غير أن الأراضي التي فتحت عنوة لم تكن محظوظة بهذا التساهل الموحدي فقد اعتبرت أن الأراضي التي فتحت عنوة هي للدولة وحتى المناطق الثائرة التي عاودت العيش تحت رهبة التخميس والمصادرة مثل ما حدث خلال ثورات مارتلة (٥٣٩هـ/١١٤٤م)[٧٥]، وابن همشك (٥٥٧هـ/١١٦٢م)[٧٦]، وثورة قرطبة (٥٥٧هـ/١١٦٢م)[٧٧]، وثورة غمارة(٥٦١هـ/١١٦٦م)[٧٨]. ولما قامت ثورة الوهيبي التي نشبت في غرب الأندلس والتي اتخذت من لبلة قاعدة لها، اضطر الموحدون إلى إخمادها وتجميد كل ممتلكات الثوار خصوصًا وأن الوهيبي كان مساندًا من طرف كبار الملاك الذين منعوا من حق التصرف في أموالهم[٧٩]. وفي مقابل ذلك كله قبل هؤلاء تربيع ممتلكاتهم التي صار المخزن الموحدي شريكا لهم فيها عوض المصادرة النهائية. معتبرين بذلك بأن الضرر سيكون بالنسبة إليهم أخف وأهون. هكذا ونظرًا لقوة المصادرات والضرر الناتج عنها فإن الملاك نظروا في مشاركة الدولة لهم في أملاكهم نوعًا من الأمان وطريقة لتثمير هذه الممتلكات خصوصا خلال عهد يوسف ابن عبد المومن[٨٠].

يظهر إذن، أن البنية الاجتماعية تتشكل وفق النمط الاقتصادي السائد والمدعم من طرف الدولة، وعلى ما يبدو فإن هذا النمط قد تأرجح بين الإقطاع الذي صاغته الدولة وفق احتياجاتها وظرفيتها السياسية. لذلك وفي اعتقادنا فإن التراجع هو السمة المميزة لاقتصاد المرحلة؛ حيث أن الظرف العام لم يسمح بحصول نمو مالي ناتج عن العمل التجاري. إذ أن التاجر وبذات نفسه لم يسلم من مضايقات ومصادرات المخزن

لأمواله فالعديد تحولوا من أرستقراطية تجارية إلى عوام الناس هذا فضلا عن أعمال النهب واللصوصية التي طفت على سطح الأحداث. في هذا السياق وفر لنا ابن عذاري نصًا وصفيًا لأعمال النهب التي تعرض لها تجار قيسارية مراكش" وذهب في هذه الكائنة للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانين من الأموال الجسيمة ما لا يحصى. وافتقر فيها أمة من ذوي اليسار وأصبحوا يتكففون الناس حيارى على الأقطار"[٨١]. فالأرستقراطية بحد ذاتها لم تكن طبقة متجانسة أو طبقة ثابتة فقد تميز وضعها بالمطاطية المتأرجحة بين الثراء والفقر في ظل نظام اقتصادي هو الآخر غير ثابت.

كما تأثر الفلاح المتوسط والصغير هو الآخر بهذا الوضع، فكل الجهود المبذولة من طرف الدولة تعمل على تقوية الوضع المادي لكبار الملاك في حين تعمل على تفقير الفلاحين الصغار. وهكذا فكلما تجمعت الثروة في الطرف الآخر تجمع الفقر في الجانب الآخر من المجتمع، خصوصا وأنه لم يحصل وأن قامت الدولة باستثمارات في المجال الفلاحي حيث ظلت تعمل على توزيع الامتيازات على الموالين للسلطة في الوقت الذي كان فيه الفلاح الصغير مطالبًا بدفع الضرائب المالية والعينية للسلطة الزمنية.

خَاتِمَةٌ

من حصاد ما سبق، يظهر أننا مازلنا في حاجة ماسة إلى إعادة فتح ملف النمط الاقتصادي بالمغرب خلال العصر الوسيط؛ كما أن هناك حاجة وضرورة علمية إلى إعادة النظر في العديد من المصطلحات التاريخية والسياسة كما هو الحال بالنسبة لمفهومي الفتح وسياسة الإقطاع وما ترتب عنهما من نتائج مست المجتمع والاقتصاد. والنظر إلى الموضوع بعين من التأني والتمحيص الدقيق، وذلك بغية إمعان النظر في العوامل الذاتية المساهمة في خلق هذه المطاطية التي اتسم بها الوضع الاقتصادي العام. غير أن الملاحظ هو أن الدولة الوسيطية لم تسمح بتشكل طبقة اجتماعية إنتاجية بإمكانها الإسهام الفعال في خلق وضع اقتصادي واضح ومحدد. ويبدو الأمر جليا من خلال الآليات التي وظفتها الدولة قصد نزع الثروات وحرمان الفلاحين من حقوقهم؛ ومن ناحية ثانية كانت هذه الدولة هي نفسها تعمل على تقوية الفئات الموالية لها ماديًا مما جعل الفئات الاجتماعية تعيش نوعا من الميوعة الطبقية وهو الحال الذي قادها إلى الخضوع إلى محرار السياسة مما جعلها لا تعرف استقرارًا يذكر داخل سلم اجتماعي متحرك.

التوصيات

شكلت الأرض الدعامة الأولى للاقتصاد المغربي خلال العصر الوسيط، حيث جعلتها الدول المسيطرة على الحكم وسيلتها في بسط السيطرة على الإنسان والمجال. وذلك اعتمادًا على مفهوم الفتح الذي تم إخراجه عن المفهوم الديني ليُزج به في متهات السياسة؛ ويبدو الأمر أكثر وضوحًا لما نرى وضعية الفئات التي تم سلبها وسيلتها الإنتاجية والمتمثلة في الأرض، إلى جانب فئات أخرى لم تكن تملك شيئًا فتحولت إلى الاغتناء عبر موالاتها للسلطة الحاكمة. ومن خلال نموذج الدولة الموحدية يمكننا أن نلمس هذا الواقع، فأهل إفريقية تمت مشاطرتهم في ممتلكاتهم، إلى جانب حالة أهل مكناسة الزيتون الذين جنبوا أنفسهم مطب السلب عبر بعثهم بالبيعة اضطراريًا لعبد المومن بن علي الكومي والذي قرر من جانبه إعفاءهم من سياسة التأديب عبر الحرب، وتأسيسًا عليه بمكننا التأكيد على أن موضوع الأرض بالمغرب الوسيط سيرغمنا على تسجيل مجموعة من التوصيات والتي نسوقها كالتالي:

- أنه من الضروري جدًا إعادة النظر في ملف الفقر والتفقير بالمغرب الوسيط من خلال اعتماد مدخل الأرض والسلطة وتأثيرها على الإنسان.
- اعتبار موضوع الإقطاع بالمغرب خلال العصر الوسيط من بين المواضيع الشائكة التي ماتزال إلى مزيد من النبش وسبر الأغوار، خاصةً وأن الإقطاع بمجال المغرب الأقصى كان مختلفًا عن مثيله بالمشرق الإسلامي وعن الإقطاع الأوربي خلال نفس الفترة التاريخية.
- كما نرى بأن مفهوم الفتح ما يزال في حاجة ملحة إلى مزيد من النبش والتنقيب نظرا لما ترتب عنه من نتائج مادية ومجالية.
- ضرورة إعادة استقراء تاريخ نزوح أو تهجير القبائل العربية إلى مجال المغرب الأقصى وأثرها على مجال ومالية للدولة الوسيطية.
- أنه وإلى جانب حجية أطروحة اقتصاد المغازي أو الاقتصاد الحربي، من الضروري جدًا دراسة العوامل الذاتية، وضرورة استبيان دورها في التراجع الاقتصادي للمغرب الوسيط ونخص بالذكر: السياسة، الإطار التشريعي، المستوى التعليمي ونوع التعلم المتاح بمغرب العصر الوسيط.

الاحالات المرجعية:

(١) محمود إسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، سينا للنشر والانتشار العربي، لندن، بيروت، القاهرة، ٢٠٠٠، ط.٤، ج.١، ص. ٣١.
(٢) فلاديمير رازين، **حول نظرية التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية**، ترجمة عادل إسماعيل، مراجعة نوفل نيوف، دار الفرابي، بيروت، لبنان، ط.١٩٨٠،١، ص. ٨.
(٣) حول التفصيل في أطروحة نمط اقتصاد المغازي تراجع كتابات الدكتور إبراهيم القادري بوتشيش من خلال كتاب **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط.٢٠٠٦،١، ص.٩-٣٠؛ **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع- الذهنيات- الأولياء؛ أثر الحروب في المجال الضرائبي**، مقال ضمن مجلة **الاجتهاد**، العددان ٣٤و٣٥،السنة التاسعة، شتاء وربيع ١٩٩٧م/١٤١٧ه، ص. ٧٩-٩٢.
(٤) عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ٦٧، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط.١، ٢٠١٢، ص.١٢٧.
(٥) المودودي أبو الأعلى، **مسألة ملكية الأرض في الإسلام**، ترجمة محمد عاصم الحداد، الدار العربية للدعوة الإسلامية، لاهور، باكستان، ١٩٦٩، د.ط.، ص.٢٨، القاضي أبو يوسف، **كتاب الخراج**، نشر ضمن كتاب الخراج في ثلاثة كتب، دار المعرفة، بيروت، د.ت. ص. ٢٨-٢٩.
(٦) المودودي، م.س.ص.٣٢.
(٧) نفسه، م.س.ص.٣٣.
(٨) نفسه، م.س. ص. ٣٣-٣٥.
(٩) حول وضعية الأرض في بلاد المغرب من العهد الروماني وبداية العهد الإسلامي، يُنظر مقال لمحمد البشير شنتيني، **وضعية الأرض وطرق استغلالها في بلاد المغرب في العهد الروماني وبداية العهد الإسلامي**، مجلة **دراسات تاريخية**، السنة ١٣، عدد ٤٣-٤٤، ١٩٩٢، ص. ٣٣-٤٦.
(١٠) الونشريشي (أبو العباس، أحمد بن يحيى، ت. ٩١١هـ/١٥١٩م)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي وآخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠١ه/١٩٨١م، ج.٨، ص.٧٣-٧٤.
(١١) عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م.س.ص.١٢٩.
(١٢) الونشريسي، م.س.ج.٩، ص.٧٣، وأيضا لدى عمر بنميرة، م.س.ص.١٣٠.
(١٣) نفسه.
(١٤) الجزنائي علي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط.١٤١١،٢ ه/١٩٩١م ص. ٧.
(١٥) نفسه، ص.٣٨.
(١٦) محمد البشير الشنتيني، م.س.، ص. ٣٦.
(١٧) الجزنائي، جنى زهرة الآس، م.س.، م.س.ص.٢٩.
(١٨) الناصري أبو العباس أحمد بن خالد، **الإستقصا لدول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،١٤١٨ه/١٩٩٧١٩٩م، ج.١، ص.١٥٧؛ عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، م.س.ص.١٣٤
(١٩) ابن عذاري المراكشي (توفي بعد ٧١٢ه)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط.١، ٢٠٠٩، ج.١، ص.٥٢.
(٢٠) عمر بنميرة، النوازل والمجتمع، م.س.ص.١٣٤-١٣٥.
(٢١) محمد بن حسن، **الأرياف والقبائل المغربية في العصر الوسيط**، دار الرياح الأربعة، تونس، ١٩٨٦، ص. ٧٨.
(٢٢) الطبري، محمد بن جرير (٣١٠ هـ - ٩٢٣م)، **تاريخ الطبري**، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط.٢، ١٣٨٧ه/١٩٦٧م، ج.٥،ص.٤٩-٥٠.
(٢٣) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود، (ت.٢٧٩ه)، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ١٤٠٧ه/١٩٨٧م، ص. ٣١٨-٣١٩-٣٢٠.
(٢٤) ابن عذاري، م.س.ج.١، ص. ٥٢.
(٢٥) إكرام عدنني، **سوسيولوجيا الدين والسياسة عند ماكس فيبر**، منتدى المعارف، ط.١، ٢٠١٣، ص.١٥٦-١٥٧.
(٢٦) ابن عذاري، م.س.ج.اص.٨١-٨٢.
(٢٧) نفس المصدر والجزء، ص.٨٢.
(٢٨) محمد بن حسن، **الأرياف والقبائل المغربية في العصر الوسيط**، م.س. ص.٨١.
(٢٩) الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، ط.١، ١٤١٤ه/١٩٩٤م، ص.٥٢.
(٣٠) الرقيق القيرواني، م.س. ص.٥١.
(٣١) عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، م.س.ص.١٣٥.
(٣٢) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين**، باريس، ١٩٢٨، ص.٩٠-١٠٢.
(٣٣) نفسه، م.س. ص. ٦٥-١٠٦.
(٣٤) ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، المطبعة الملكية، ط.٢، ١٩٨٨، ص.٢٧.
(35) H. TERRASSE, **L'ancien Maroc, pays d'économie égarée**, in Revue de la Méditerranée, 1947,pp.37-53; G. Marçais, **les arabes en Bérbérie du XIe au XIVe siècle**, Canstantine,Paris,1913, pp. 191-192-198-199-327-338-530-548.
(٣٦) ابن القطان، أبو الحسن علي (ت.٦٢٨ه/١٢٣٠م)، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط. ١٤١٠،٢ه/١٩٩٠م، ص.١٤٠.
(٣٧) عز الدين عمر موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠٣م، ١٣٥.
(٣٨) نفس المرجع والصفحة.
(٣٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، ١٤٢٢ه/٢٠٠٢م، ج.٢، ص.٥٣٢.
(٤٠) ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠م، ص.١٣٩.
(٤١) مجهول (من أهل القرن ٦ه/١٢م)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، العراق، د.ت.، صص.١٩٠-١٩١.

(٤٢) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س.ج.٢، ص.٥٣٢، عبد العزيز التوري، **المسح الأثري لحوض سبو ومنطقة غمارة**، كلية الآداب، الرباط، عدد ١١، سنة ١٩٨٥، ص.١٦١.

(٤٣) ابن غازي، الروض الهتون، م.س.ص.١٩-٢٣

(٤٤) ابن غازي، م.س.ص. ١٩-٢٣

(٤٥) عمر بنميرة، **النوازل والمجتمع**، م.س. ص.

(٤٦) النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت.٧٣٣ه)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق أبو ضيف مصطفى، منشورات تحت عنوان تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، دار النشر المغربية، د.ت.ص.٤١٢

(٤٧) مجهول، **الحلل الموشية**، م.س.ص.١٤٣-١٤٤، وعن فتح تونس، ص.١٥٣، التجاني، **رحلة التجاني**، قدمها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨١م، د. ط.، ص.٣٤٥.

(٤٨) ابن القطان، نظم الجمان، م. س. ص. ١٩٥.

(٤٩) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، م.س.ص.٧١، التادلي أبي يعقوب يوسف بن يحيى (ت. ٦١٧ه/١٢٢٠م)، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، سلسلة نصوص ووثائق رقم ٤، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٠م، ط.٣، ص. ٣٠٩ -٣٨٣.

(٥٠) النويري، **نهاية الأرب**، م.س.ص.٤٢٢، التجاني، **رحلة التجاني**، م.س.ص.٣٤٥

(٥١) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، (ت. ٨١٨هـ/١١١٥)، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الطباعة الخديوية، ١٨٧٦، ج.٦، ص.١٩٣؛ عبد الواحد المراكشي، (ت.٦٤٧ه/١٢٥٠م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، مصر، ط.١٣٦٨،١/١٩٤٩م، ص. ٣٩٤-٣٩٥، أحمد عزاوي، **رسائل موحدية مجموعة جديدة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق، رقم٢، ط.١، ٢٠٠١م، ج.٢، ص.٢٣٩.

(٥٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ق.م. م.س.ص.٢١٠

(٥٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س.ص.٢٤٩

(٥٤) ابن القطان، **نظم الجمان**، ص.١٩٥

(٥٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ق.م.ص.٤٣-٤٤

(٥٦) برتر انبادي، بيار بيرنبوم، **سوسيولوجيا الدولة**، ترجمة جوزف عبد الله وجورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ط.١، د.ت.، ص.١٧

(٥٧) برهان غليون، **ملاحظات حول الدولة في المجتمعات النامية**، آليات السيطرة والعنف، **مجلة الفكر العربي المعاصر**، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، عدد ١٥/١٤، ١٩٨١م، ص.٤٠-٤١.

(٥٨) نفسه، ص.٤٣

(٥٩) ابن عذاري، **البيان المغرب**، ق.م.ص.٣٥٩.

(٦٠) ابن عذاري، نفسه، ص.٩٩، المراكشي، **المعجب**، م.س. ص. ٣٧١.

(٦١) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك بن أحمد الباجي (ت.٥٩٤ه/ ١١٩٧م)، **المن بالإمامة تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.٤، ٢٠١٢، ص. ١٦٦.

(٦٢) ابن عذاري، **البيان**، ق.م. ص.٣١٨.

(٦٣) مجهول، **الاستبصار**، م.س.ص.٢٠٩-٢١٠

(٦٤) مجهول، **الحلل الموشية**، م.س. ص. ١٤٦، **الاستبصار**، س.ص.٢١٠، الجزنائي، م.س.ص.١٤٦

(٦٥) ابن عذاري، **البيان المغرب**، **قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط.١، ١٤٠٦ه/١٩٨٥م، ص. ٣٣٨.

(٦٦) الحسين أسكان، **الدولة والمجتمع في العصر الموحدي ٥١٨-٦٦٨ه/ ١١٢٥م-١٢٧٠م**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم٤، ٢٠١٠، ص.١٥٦.

(٦٧) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، م.س.ص.، ٢٦، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، م.س.، ص. ١٢٤.

(٦٨) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، م.س.ص.١٢٤.

(٦٩) ابن القطان، **نظم الجمان**، م.س، ص. ١٠.

(٧٠) عز الدين عمر موسى، **النشاط الاقتصادي**، م.س.، ص.١٣٦.

(٧١) ابن القطان، **نظم الجمان**، م.س. ص. ١٥٣،١٥٤، عزين عمر موسى، **النشاط الاقتصادي**، م.س.ص. ١٣٦.

(٧٢) ابن القطان، **نظم الجمان**، م.س. ص. ١٥٧.

(٧٣) ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**، م.س.، ص. ٣٠٢-٣٠٦. في إطار الحديث عن توحيد ابن همشك ودخوله في طاعة الموحدين.

(٧٤) ابن عذاري، **البيان المغرب**، قسم الموحدين، م.س.ص. ١٥٤.

(٧٥) محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي أبو عبد الله، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق إحسان عباس، محمد بن شريفة، بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط.١، ٢٠١٢م، ج.٥، ص.١٧٦.

(٧٦) ابن صاحب الصلاة، **المن بالامامة** ،م.س.، ص. ١٨٧-٢٠١.

(٧٧) نفسه، ص. ٢٠٣-٢٠٤

(٧٨) البيان، ق.م.م.س.، ص. ٦٩-٧١.

(٧٩) نفسه، ص. ٣٠ وص. ١٠١-١٠٢-١٠٧، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**، م.س.،ص. ١٢٧و ١٧٧

(٨٠) ابن صاحب الصلاة، **المن بالامامة**، م.س.ص. ٢٣٧- ٢٤٥.

(٨١) ابن عذاري، البيان المغرب، ق.م.م.س.، ص. ٢٥٨.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

موقف اليمانيين من حركات المعارضة للدولة الأموية (٤١هـ - ١٣٢هـ/٦٦١م - ٧٥٠م)



د.علي مسعد أحمد قايد الهويدي
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة ذمار – الجمهورية اليمنية

مُلَخّص

يستعرض هذا البحث موقف اليمانيين من الحركات المعارضة للدولة الأموية في الفترة ما بين (٤١- ١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م)، وما شكله اليمانيون من عنصر فاعل، وعامل حيوي ومهم لتلك الحركات، تأييدا ومعارضة، ويهدف هذا البحث إلى إظهار موقف اليمانيين من تلك الحركات التي أخذت بالتوالدية والتوسع، ولا يبدو أنها كانت متجانسة، ولكنها تظافرت مع بعضها لتفجير الوضع مدفوعة باعتبارات متباينة سياسية واقتصادية وعصبوية، وتظهر أهمية هذا البحث في تناوله مواقف اليمانيين من قوة تأثيرهم على تلك الحركات في النشأة والتكون، والتفاف بعضهم حول الدولة وسيادتها بما لديهم من مسوغات كافية لهذا القرار، إذ وجدوا في ظهور هذه الحركات، استهدافا للنظام الإسلامي، وليس للبيت الأموي الحاكم، ولكن تحول غالب اليمانيين في نهاية العصر الأموي لدعم المعارضة تحت ضغط العصبية وضع كفاءة الدولة القيادية أمام الامتحان الصعب، وتركت أثرًا عميقًا وجذريًا على مستقبل الدولة ومشروعها الاستراتيجي، فآلت إلى السقوط. يحتوي البحث على المحاور التالية: المقدمة. وقد تضمنت المشكلة والأهمية والأهداف والمنهج والفرضيات والمحتوى. المحور الأول تناول موقف اليمانيين من حركة الحسين بن علي وتطرق المحور الثاني إلى موقف اليمانيين من حركة أهل المدينة. في حين خصص المحور الثالث لاستعراض موقف أهل اليمن من خلافة ابن الزبير. أما المحور الرابع فقد تناول موقف أهل اليمن من حركة التوابين. وكذلك المحور الخامس تناول موقف أهل اليمن من حركة المختار الثقفي، والمحور السادس موقف أهل اليمن من حركة زيد بن علي. وأيضًا المحور السابع استعرض موقف أهل اليمن من حركة يزيد ابن الوليد. وأخيرًا المحور الثامن خصص لتناول موقف أهل اليمن من الثورة العباسية، ومؤازرة اليمانية لأبو مسلم الخرساني، وتأييدهم للعباسيين في الكوفة. أما الخاتمة فقد لخصت ما خرج به البحث من استنتاجات.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	أغسطس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٣٠	أغسطس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

حركة التوابين؛ حركة المختار الثقفي؛ مصعب بن الزبير؛ يزيد بن الوليد؛ الدعوة العباسية؛ الدولة الأموية.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.247276

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

علي مسعد أحمد قايد الهويدي. "موقف اليمانيين من حركات المعارضة للدولة الأموية (٤١هـ- ١٣٢هـ/٦٦١م -٧٥٠م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٧١ – ٨٦.

Corresponding author: dr.huwidy@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

يُعَدّ العصر الأموي من العصور الإسلامية المزدهرة، لاسيما في جانب قوة الدولة وبسط سلطتها المركزية على جميع الأطراف والأقاليم الإسلامية، وعلى الرغم من ذلك إلا أنه لم يمنع بشكل نهائي حدوث تمردات أو ثورات هنا وهناك، أو يلغي بصورة كلية بروز حركات معارضة للدولة الأموية في مختلف مراحلها التاريخية، حيث شهد العصر الأموي ظهور حركات معارضة عدة ومتنوعة، وذلك تبعا للمتغيرات السياسية والاجتماعية التي طرأت واستجدت على أرض الواقع وقتئذ، والتي تمثلت في غياب الشورى، وتوريث الحكم، إضافة إلى ظهور العصبية القبلية من جديد، وتسيد مفهوم (الملك العضوض) ومنطق القوة والغلبة.

ولقد اتخذت حركات المعارضة ضد الحكم الأموي أشكالاً متعددة، وأساليب متنوعة في التعبير عن مواقفها، وطبيعة أهدافها ومطالبها، وكان أهل اليمن ضمن تشكيلات ذلك الواقع السياسي والاجتماعي موالاة، ومعارضة، بحيث شكلوا عنصرًا فاعلاً وحيويًا في سيرورة وصيرورة ذلك الواقع الشائك إما مع أو ضد، لا يمكن إغفاله أو تجاهله، ففي الوقت الذي مثلوا عصب المعارضة وعمودها الفقري إن صح التعبير. إن لم يكونوا رافعتها وشريانها الحيوي الذي أمدها بالحياة، مثلوا– أيضا – وفي المقابل عنصرًا مُهمًا بالنسبة للدولة الأموية في صد تلك الحركات وساهموا بشكل فاعل في وأدها في كل مراحلها التاريخية. هذه الازدواجية في المواقف، بطبيعة الحال، ليست حصرًا على اليمانية فقط فقد مارسها اغلب العناصر المشكلة للنسيج الأموي، وذلك تبعًا لطبيعة المصالح والعلاقة مع الدولة المركزية.

مشكلة البحث:

يسعى هذا البحث، الذي يتناول موقف اليمانيين من الحركات المعارضة للدولة الأموية، إلى محاولة الإجابة الموضوعية على جملة من التساؤلات الإشكالية التي أثارها، والتي بالضرورة أجلت حقيقة وطبيعة تلك المواقف، كما حددت دوافعها، وبينت خلفيتها، على نحو:

هل كان لليمانيين دور في نشوء الحركات المعارضة في العصر الأموي؟ ولماذا وقف اليمانيون حاجز صد أمام تلك المعارضات على الرغم من انتماء بعضهم إليها وقت تشكلها؟ وهل كان للعصبية أثرها على مواقفهم؟ وما تأثير مواقفهم المعارضة على مستقبل الدولة؟ وغيرها من التساؤلات.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في تفرده بتناوله بصورة مستقلة موقف أهل اليمن من حركات المعارضة للدولة الأموية، مع الإشارة الضمنية لأدوارهم المزدوجة موالاة ومعارضة، كما تكمن أهميته -أيضًا -في كونه -حسب ما نخاله -دراسة علمية لموضوع حيوي وحساس جدير بالدراسة والاهتمام.

أهداف البحث:

تتركز أهداف البحث في الآتي:

- التأريخ الموضوعي لدور أهل اليمن في حركات المعارضة للدولة الأموية تأييدا ومعارضة.
- التعرف على طبيعة تلك المواقف في كلا الاتجاهين المؤيد والمعارض.
- استكناه مضامين تلك المواقف والوقوف عند دوافعها وخلفياتها.
- تبيين مدى ما لعبته تلك المواقف من أدوار على الصعيدين الموالي والمعارض.
- إظهار الأهمية الكبيرة لليمانيين في تشكيل الأحداث التاريخية في عهد الدولة الأموية.

منهج البحث:

اعتمد البحث بشكل أساسي المنهج التاريخي القائم على الوصف والتحليل والمقارنة.

فرضيات البحث:

يتوخى هذا البحث جملة من الفرضيات يمكن تلخيصها في الاتي:

- توضيح ما التبس في بعض القراءات التاريخية حول موقف اليمانية من حركات المعارضة للدولة الأموية.
- إزالة شبهة الشعوبية والتعصب الأعمى عن أهل اليمن في مواقفهم المزدوجة من حركات المعارضة.
- تقديم قراءة تاريخية أكثر موضوعية وأحفل حيادية لموضوع الدراسة والبحث.
- افتراض مقاربة منهجية-علمية تؤسس لإمكانية إعادة قراءة التاريخ.
- تصحيح ما شاب التاريخ الرسمي الإسلامي من هالة تنزية وتقديس، وتقديمه باعتباره تاريخ بشري وحسب.

الدراسات السابقة:

توجد بعض الدراسات السابقة تناولت المعارضات في العصر الأموي مثل: الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية، د. أحمد شلبي ١٩٨٤م، وملامح التيارات السياسية في القرن

الأول الهجري، د. إبراهيم بيضون، ١٩٧٩م، وبحث المعارضة اليمانية السياسية في عصر الدولة الأموية (٤١هـ -١٣٢هـ/٦٦٢م-٧٥٠م) د. علي مسعد الهويدي مجلة المهرة للعلوم الإنسانية، العدد التاسع،٢٠٢٠م، والمعارضة اليمنية المسلحة للدولة الأموية في اليمن والأمصار(٤١هـ-١٣٢هـ/٦٦١م ـ ٧٥٠م)، د. علي مسعد الهويدي، مجلة الآداب، جامعة ذمار، العدد ١٧،٢٠٢٠م، وبينما تناول د. أحمد شلبي ود. إبراهيم بيضون هذه الحركات بشكل عام، وأبحاث الهويدي اقتصرت على المعارضة اليمنية فقط دون التطرق لغيرها من المعارضات، فإن هذا البحث يميز موقف اليمانيين من تلك الحركات المعارضة غير اليمانية بين التأييد والرفض.

تمهيد

تعرض بنو أمية قبل وصولهم إلى السلطة، وأثناء حكمهم لمواقف ناقدة وآراء متنوعة عدة، تباينت بين الجفاء والحرص، بين غياب الوعي ويقظته الصادقة. هكذا تقول الكتابات، والأبحاث التي أُلّفت في ذلك، غير أن أحدًا لم يقرأ قراءة دقيقة ومتعمقة وشمولية للتاريخ تقول لنا كيف كتب على الأرض، ومن بعد ذلك فلنقل ما نقول، ونكتب ما نشاء؛ كي نطمئن إلى أننا نقرأ تاريخًا موضوعيًا لا مجرد تهويمًا وانطباعًا.

كان اليمانيون من جملة رعايا الدولة، تحملوا عبء قيامها، وأسهموا بأوفر نصيب في دعم وجودها، حيثما خطط له أن يصل ناشرا للإسلام، باذلين جهدهم كله أيا كان باذله، وبأي قدر كان البذل. وكانت القبائل اليمانية أسرع إلى المناصرة من الآخرين؛ ليكون لهم الفضل في قيام هذه الدولة أولاً، وثانيًا، لما كان يحدوهم من آمال في البحث وراء تطلعاتهم في هذه الدولة التي كانت تجذبهم بالمهمات التي انتدبتهم لها، وبمناصبها وعطاءاتها، فجعلهم الأمويون في أحسن الأعمال وأفضل المناصب، ولم يقف الأمر عند ذلك، بل تعداه إلى الاعتماد عليهم في كثير من الأمور العامة، إلا أن هذا الأمر كان موضع تباين بسبب السياسات والمواقف المختلفة، من خليفة إلى آخر، خاصة الخلفاء المتأخرين، حيث استبد بعضهم بالحكم، بإبعاد القائم، وتقريب الآخر في إدارة شؤون البلاد، وبذلك حرموا الدولة من خبراتهم، ولم يقف الأمر عند ذلك بل تجاوزه إلى سوء المعاملة والإهانة، فتعقدت علاقة اليمانيين بالدولة في عهد الوليد بن يزيد، إذ مارس ضدهم التنكيل والإقصاء[١]، وما رافقه من عسف بحق اليمانيين تحت إدارته[٢]، وتبعه في ذلك مروان بن محمد، فرأوا أن معركتهم أصبحت معركة وجود أكثر منها خلافا سياسيا، فتحولوا إلى المعارضة، أو إعانة المعارضين.

كما كانت ممارسات جيش مروان بن محمد ضد اليمانيين في الشام دافعًا لهم للوقوف مع المعارضين والثائرين[٣]، فأقدموا على المعارضة في الشام، حينما بلغت أنباء حركة بني عمومتهم في خراسان، مع أن موقفهم كان يصب في مصالح بني العباس أكثر منه تحقيقا لمصالحهم[٤]، فحققوا لهم انتصارات متتالية في خراسان عقب معارك دامت عشرين شهرا؛ مما شجع إخوانهم في مصر على الانخراط في الثورة ضد ولاة بني أمية [٥].

انقسم اليمانيون علماء وعامة إلى فريقين، واحتشدوا في إطار ذلك الصراع، واتسم الجو العام بالانقسام على مستوى الأمصار، حيث كانت الكوفة وبلاد المشرق والحجاز واليمن طالبية، بينما البصرة والشام ومصر وأفريقية والأندلس أموية، وفي كل مصر مؤيد ومعارض، وسرى ذلك الانقسام إلى القبيلة، وربما وصل إلى الأسرة[٦] في ظل استقطاب حاد جعل المواقف تتبدل لدى الشخص الواحد بين عشية وضحاها[٧]، ويمكن أن نعرض مواقفهم من خلال مواقعهم بين مؤيد ومعارض؛ لتتضح الصورة وتُجلى الحقيقة.

أولاً: موقف اليمانيين من حركة الحسين بن علي(٦١هـ/٦٨١م)

شكلت المعارضة العلوية عامل جذب في استقطابها لبعض اليمانيين، وما من شك أن التعاطف معها مبعثه الميل لقربهم من الرسول (ﷺ)، ويظهر أن تأييد الخروج ضد الأمويين في الكوفة محصلةُ كُرْهٍ دفينٍ لبني أمية عقب تجرئهم على سفك دم وائل بن حجر الكندي[٨]، وبعض أتباعه أيام معاوية[٩]، فوجدوا في دعوة الحسين للخروج سبيلا للتخلص من بني أمية، فلعب اليمانيون دورًا في حركته، فقدموا عليه بكتب أهل الكوفة الداعية إلى قدومه، ومتضمنة البيعة له، وكانت الوفود اليمانية تترا عليه، وفدا بعد وفد، فأولهم عبيد الله بن سبيع الهمداني، الذي وافى الحسين بن علي بمكة لعشر خلون من شهر رمضان سنة (٦٠هـ/٦٨٠م) فأوصل إليه الكتاب، ولم يمر يومان حتى ورد عليه عبد الرحمن بن عبد اللّه بن الكدر الأرحبي، ومعه خمسون كتابا من أشراف أهل الكوفة ورؤسائها، فلما أصبح وافاه سعيد بن عبد الله الخثعمي، ومعه أيضا نحو من خمسين كتابا[١٠].

وهكذا ظلت الوفود متوالية يردف بعضها بعضا، ولا يخلو وفد إلا ورؤساء اليمن ممثلون فيه؛ مما أكسبه الثقة بوجوه القوم من أهل الكوفة[١١]، فما كان منه إلا أن أرسل مسلم بن

عقيل[١٢] ليرتب له أمر الكوفة، حتى يصل إليها فيعلن خلافته[١٣]، إذ رأى أنه خير من يزيد بن معاوية، ومن ثم فهو أحق منه بالخلافة[١٤]. لكن أهل الكوفة تفاعلوا مع مسلم بن عقيل بداية مقدمه، فما لبثوا أن خذلوه عند قدوم عبيد الله بن زياد واليًا على الكوفة[١٥]، وتنكروا له، فلم يجد من يؤويه إلا هانئ بن عروة المذحجي[١٦] الذي فتح داره في الكوفة لإيواء مسلم بن عقيل، مدركا تبعات إنزاله في بيته[١٧]، وانتمت القبائل اليمانية لهذه الحركة، وفي مقدمها قبيلة مذحج [١٨]، ثم تبعتها كندة، وكان على رأسها عبيد الله بن عمرو الكندي في مواجهة جيش عبيد الله بن زياد[١٩].

فشلت الحركة في تحقيق مرادها ووئدت في مهدها، فقد اعتقل هانئ بن عروة المرادي، بعد أن انكشف أمره، بأن بيته كان مركزا لإيواء أنصار الحسين[٢٠]. ورغم أن حركة تأييد الحسين قامت على أكتاف اليمانيين مثل هانئ بن عروة المرادي[٢١]، وعمرو بن الحجاج المذحجي[٢٢]، وعبيد الله بن عمرو الكندي[٢٣]، ومعظم المؤيدين له من أهل الكوفة كانوا يمانيين؛ فإننا نستطيع القول إن إفشال حركة الحسين، وترتيبات مسلم بن عقيل لقدومه، كان بأياد يمنية أيضا، فأمرُ الحركة تتبّعه عبد الله بن مسلم الحضرمي وكشفه، وجنَّد نفسه عينا ليزيد على مسلم وأتباع الحسين، فكان يرفع له كل نشاطاتهم وتحركاتهم، مما سهل القبض عليهم، وشل حركتهم كليا[٢٤]. كما عمل عمرو بن الحجاج الزبيدي مع القاضي شريح على تهدئة خواطر الناس بطمأنة مذحج على حياة هانئ بن عروة، على الرغم من تلقيه الضرب والإهانة، وتعرض حياته للخطر[٢٥]. أضف إلى ذلك ما قام به محمد بن الأشعث[٢٦] زعيم كندة[٢٧] من قيادة المواجهة ضد أتباع الحسين إلى جانب ابن زياد، وأعانه على ذلك عبيد الله بن كثير الحارثي[٢٨].

وكان دور ابن الأشعث محوريًا في وأد الحركة، وفرض الهزيمة عليها[٢٩]، ناهيك عما قام به عبيد الله بن كثير الحارثي من دور كبير في تخذيل قومه مذحج الذين كانوا غالبية جيش مسلم وركنه الأساس[٣٠]. وعلى أية حال، لم تغن قبيلة هانئ عنه شيئا، ولا أتباعه ممن بايعه للحسين، فقد أُخرج إلى السوق، وظل يستصرخ قبيلته دون جدوى، فقتل ثم صلب مع مسلم في سوق أمام الناس، وبجوار الكناسة[٣١].

تفاعلت الأحداث في الكوفة أواخر سنة (٦٠هـ/٦٨٠م)، ووصلت إلى نقطة الصفر بالنسبة لأتباع الحسين، فقد أحبط مخطط بيعته، وقبض على أصحابه، وأعدم رسوله وداعيته، كما أعدم هانئ بن عروة كبير مؤيديه من أهل الكوفة، ومع كل ما حدث أقبل الحسين نحو الكوفة، وهو ما لا تعيننا المصادر على تفسيره، فوصل إلى مشارف الكوفة ونزل الطف[٣٢]. ولم يكن معه سوى اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا[٣٣]. وكان يسأل الناس في الطريق، فيخبرونه أن أهل الكوفة ليسوا محل ثقته، فقلوبهم معه وسيوفهم عليه، فلم يلق بالا لنصائحهم[٣٤]، وأعد له عبيد الله بن زياد ألف فارس لملاقاته رغم عدده وعدته المحدودة [٣٥]، وقيل أربعة آلاف وجههم لمحاربة الحسين، وكان معظم قادة جيشه من أهل اليمن، فكان على ربع أهل المدينة يومئذ عبد اللّه بن زهير بن سليم الأزديّ، وعلى ربع مذحج وأسد عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي، وعلى ربع ربيعة وكندة قيس بن الأشعث بن قيس، وكان قائد ميمنة الجيش الأموي عمرو بن الحجاج الزبيدي، وعلى الخيل عزرة بن قيس الأحمسي[٣٦].

تردد الناس عن قتال الحسين، فكلما وجه ابن زياد قائدًا لقتال الحسين في الجمع الكثير لا يصلون إلى كربلاء إلا وقد تنصل عنه معظم أصحابه، ولم يبق معه إلا القليل، وكانوا يكرهون قتال الحسين، فيرتدعون ويتخلفون[٣٧]. وقبل بدء القتال طلب الحسين السماح له بمقابلة الخليفة، أو الرجوع إلى مكة، أو إرساله إلى ثغر من الثغور، فانبرى قيس بن الأشعث، ورفض كل تلك المطالب[٣٨]. كما كان محمد بن الأشعث -زعيم كندة- أول من تهجم على الحسين بألفاظ نابية وأراد مصاولته[٣٩]؛ رغم مبايعته للحسين مع أخيه قيس بن الأشعث، ولكنهما أصبحا رؤساء في قتال الحسين[٤٠]، الأمر الذي يجعل جزءًا كبيرًا من مسؤولية قتل الحسين يقع على عاتق اليمانيين، الذين نقضوا عهودهم وبدلوا مواقفهم؛ كونهم بايعوه ودعوه للمجيء لتولي الخلافة [٤١].

على إثر ذلك قامت مجموعة من أهل اليمن ممن استجاب لمغريات السلطة الأموية ومغريات المال، فقاتلوا الحسين ونكلوا به وبإخوته، فإذا بهانئ بن ثبيت الحضرمي يحمل على اثنين من إخوة الحسين فيقتلهم[٤٢]، وحتى الأطفال لم يسلموا من بطشه[٤٣]، وعمرو بن صبح الصدائي، قتل اثنين من أولاد عقيل بن أبي طالب[٤٤]. وتوالت الأعمال الوحشية ضد الحسين وإخوته ومن معه مقابل أجر زهيد يطلبونه، ومع ذلك لم يجدوا من ذلك شيء[٤٥].

أعرضت القبائل عن قتل الحسين وهو جالس قد فقد العدد والعدة، وكانت كل قبيلة تتكل على غيرها، وتكره الإقدام على قتله، غير أن فرقة من أهل اليمن أقدمت على ما تحاشاه الآخرون، فحمل عليه مالك بن بشر الكندي، فضربه بالسيف على رأسه، فجرحه، ثم حمل عليه سنان بن أوس النخعي، فطعنه،

فسقط. ونزل إليه خولي بن يزيد الأصبحي ليحز رأسه، فارتعدت يداه، فنزل أخوه شبل بن يزيد، فاحتز رأسه، فدفعه إلى أخيه خولي[٤٦].

وقيل قتله سنان بن أنس النخعي، وأجهز عليه، واحتز رأسه خولي بن يزيد الأصبحي، وحمل رأسه إلى ابن زياد[٤٧]. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إنهم انتهبوا متاعه، فأخذ قيس بن الأشعث عمامته[٤٨]، وقطيفته، وأخذ نعليه رجل من بني أود يقال له الأسود[٤٩]، وقام عبد الرحمن البجلي، وعبد الله بن قيس الخولاني بنهب الحلل والورس الذي كان معه[٥٠]، كما قام إسحاق بن حياة الحضرمي بسلب قميصه[٥١].

شعر اليمانيون بفداحة خطئهم بعد أن ذهبت عنهم نشوة النصر، وكان ذلك الشعور هو المسيطر على بعض أفراد أسرهم والقريبين منهم[٥٢]، فكانت العيوف بنت مالك بن نهار الحضرمي - زوجة خولي بن يزيد الأصبحي- تبغضه بسبب فعلته وظلت توبخه وتلومه على ذلك[٥٣]. وفي المقابل سجلت مواقف رائعة لبعض اليمانيين، وحسبت لهم، تمثلت في خروج بعض اليمانيين من الكوفة لمناصرة الحسين مثل مجمع بن عبدالله العائذي من مذحج، إذ التحق بالحسين وأحاطه بوضع أهل الكوفة وموقفهم منه قائلا له: "أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم، وملئت غرائرهم، يستمال ودهم، ويستخلص به نصيحتهم، فهم ألب واحد عليك، وأما سائر الناس بعد، فإن أفئدتهم تهوي إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك"[٥٤].

كما دافع نافع بن هلال المرادي عن الحسين دفاع المستميت، وصد عنه هجمات متكررة تقديرًا لمقامه، ورعاية لحرمته[٥٥]، وقدر الحسين هذه المواقف فقال: "هؤُلاء أنصاري وأعواني"[٥٦]، ووقف معه عبد الأعلى بن زيد بن الشجاع الكلبي، والحجاج بن مسروق بن مالك الجعفي. وقاتلوا معه حتى قتلوا جميعا[٥٧]، فهؤلاء النفر من اليمانيين لم ينحرف بهم طلب المكانة والمسؤولية إلى وقوفهم ضد معارض قاده اجتهاده إلى الخروج لتغيير الواقع السياسي، ولم تلههم المناصب عما يجب أن يكونوا عليه من الوقوف ضد همجية السلطة.

أصبح استشهاد الحسين نقطة تحول في التاريخ الفكري والعقدي لأنصاره، إذ لم يقتصر أثر هذه الحادثة الأليمة على إذكاء التشيع في نفوس الشيعة وتوحيد صفوفهم، بل دفعت هذه الحادثة بالتشيع إلى الاستنفار الشعوري المقترن بالمظلومية عبر الأزمان، وحولته من مجرد رأي سياسي، إلى انتماء عقائدي راسخ في نفوسهم[٥٨]، وقد جلبت تداعياته دمارًا على الأمة عبر دهورها المختلفة وأزمانها المتعاقبة.

ثانيًا: موقف اليمانيين من حركة أهل المدينة (٦٣هـ/٦٨٣م)

كانت حركة أهل المدينة (المعروفة بالحرّة)[٥٩] ضد بني أمية سنة (٦٣هـ/٦٨٣م) في عهد الخليفة يزيد بن معاوية (ت:٦٤هـ/٦٨٤م) من أخطر حركات المعارضة المسلحة، التي هددت الكيان الأموي، لأن أهل المدينة هم أنصار الرسول (ﷺ)، وأبناؤهم هم من قاموا بالحركة، ولأهل المدينة في نفوس المسلمين مكانة على مر التاريخ.

تسارعت الأحداث في عهد يزيد، فبعد مقتل الحسين سنة (٦١هـ/٦٨١م) حملت المدينة راية المعارضة، وكانت المدينة تعج بالعلماء الذين لا يبالون سطوة حاكم، ولا يرهبون قوة ظالم، وفي الوقت نفسه كانت من أهم المراكز الدينية في عالم الإسلام[٦٠]. أعلن أهل المدنية اعتراضهم على سلطة بني أمية، وقاموا بعزلهم ومحاصرتهم رغم عددهم الذي بلغ نحو ألف، وبعد محاصرة دامت أيام أفرج قادة المدينة عن الأمويين آخذين عليهم العهد بعدم القتال إلى جانب بني أمية، وفعلا وفّوا جميعهم، ما عدا عبدالملك بن مروان الذي رسم خطة الهجوم على المدينة[٦١].

أعطى يزيد تعليماته لجيشه بإعطاء أهل المدينة مهلة ثلاثة أيام لدخولهم في الطاعة فإن رفضوا فعلى الجيش الهجوم الشامل لاقتحام المدينة، ولم تنفع المساعي التي بذلت لإقناعه بالعدول عن قرار المواجهة العسكرية[٦٢]. ولم يستجب قادة المدينة لهذا الطلب، وتمسكوا بخيار المواجهة العسكرية، وفعلا تمت المواجهة بين جيش المدينة بقيادة عبدالله بن حنظلة الغسيل أميرا على الأنصار، وعبدالله بن مطيع أميرا على قريش[٦٣]، وبين جيش يزيد بقيادة مسلم بن عقبة المري، ولكنها كانت معركة غير متكافئة بين جيش الشام المعزز بالسلاح والغذاء والعدد والعدة، والمتمرس على القتال على مدار سنين، وجيش لا يملك إلا الحماسة وعدالة القضية فقط[٦٤].

بدأت المعركة بهجوم من عدة محاور استخدم فيها أهل الشام خبراتهم العسكرية، وفعلا تقدم عبد اللّه بن عضاة الأشعري بخمسمائة رام حتّى دنوا من ابن الغسيل وأصحابه، فأخذوا ينضحونهم بالنبل[٦٥]. ففاجأ هذا الاختراق أهل المدينة، وأربك جيشها، ولم يملك قادتها إلا الاستبسال في الدفاع عن مدينتهم التي انهارت دفاعاتها سريعا، وبروح الدفاع عن مدينة محرمة قدم قادة جيشها أنفسهم وأبناءهم فداء لها[٦٦]، وكل

ذلك لم يفد شيئا، فتمكن الجيش الأموي من هزيمة أهل المدينة، وتمت استباحة المدينة[٦٧].

لعب قادة الدولة من أهل اليمن دورًا بارزًا في مواجهة أهل المدينة، فالحصين بن نمير السكوني، قائد أهل حمص في جيش بلغ تعداده اثني عشر ألفا، وهو المستشار العام، ونائب القائد العام مسلم بن عقبة المري[٦٨]. ومعروف عنه أنه أحد قادة بني أمية العسكريين البارزين[٦٩]، وهو من قاد الهجوم الكاسح على جيش المدينة[٧٠]، كما كان عبد الله بن عضاة الأشعري هو من نفذ خطة الاختراق المفاجئ بخمسمائة فارس تمكن من خلالها الوصول إلى قائد جيش المدينة عبدالله بن حنظلة الغسيل، فقتله مع أبنائه، مما عجل بكسر الثورة، وإنهاء المعركة لصالح الأمويين[٧١].

قدّر الأمويون المساهمة اليمانية الفاعلة في قتال أهل المدينة، فعينوا روح بن زنباع الجذامي، أحد قادة اليمانيين، واليا عليها، كونه شارك بفاعلية في وقعة الحرة[٧٢]. ولم تفد معركة الحرة بني أمية بمقدار ما شوهت حكمهم وتاريخهم وزرعت في نفوس الناس بغضا لبني أمية ترسخت جذوره في أهل المدينة خاصة، والمسلمين عامة.

ثالثًا: موقف اليمانيين من خلافة ابن الزبير (٦١هـ -٧٢هـ/٦٨١م- ٦٩٢م)

استغل ابن الزبير مقتل الحسين رضي الله عنه سنة (٦١هـ /٦٨١م)، وجعل يؤلب الناس على بني أمية ويدعوهم للشورى، ورفض الاستبداد بالحكم[٧٣]. فقام يزيد بن معاوية باتباع الطرق الدبلوماسية لإقناع ابن الزبير بالبيعة دون اللجوء إلى القوة؛ تعظيمًا لحرم مكة وتجنبًا لإراقة الدماء، فأرسل وفدا مكونا من عشرة من رجالات الشام، مثّل أهل اليمن غالبية ذلك العدد[٧٤]، رأس الوفد النعمان بن بشير الأنصاري، وكان الناطق باسم الوفد الفارس اليماني والسياسي البارع عبدالله بن عضاة الأشعري[٧٥]. لم يستجب ابن الزبير لمساعي السلام التي قدم بها الوفد بسبب تعنت الوفد واشتراطه عليه الذهاب إلى دمشق لمبايعة يزيد في صورة مهينة[٧٦].

أمر الخليفة جيشه بالتوجه نحو مكة، وبعد هلاك قائده مسلم بن عقبة استلم الحصين بن نمير السكوني قيادة الجيش، فقدمها وعسكر بالحجون، وحاصرها أربعة وستين يومًا يتقاتلون فيها أشد القتال، ونصب الحصين المنجنيق على ابن الزبير وأصحابه، ورمى الكعبة، وقُتل من الفريقين بشر كثير، وجاء نعي يزيد بن معاوية، سنة (٦٤هـ/٦٨٤م)[٧٧]، فنزل الخبر على الحصين بن نمير السكوني كالصاعقة، فلم يجد بدا من أن يطلب الهدنة وإيقاف الحرب، فوضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس، وفي هذه الأثناء استأذن الحصين بن نمير، ومن معه من أهل الشام عبد الله بن الزبير بأن يسمح لهم بالطواف بالبيت وينصرفوا عنه، فأذن لهم في ذلك بعد مشاورة أصحابه[٧٨].

توفي يزيد ولم يكن لدى أهل الشام الشخصية الجامعة، فاتجهت الأنظار نحو ابن الزبير، وما إن ورد عليهم كتابه بتولية الضحاك بن قيس دمشق، حتى سارعوا إلى طاعته وبيعته، ومن المعروف أن الضحاك كان من أشد الناس ولاء لمعاوية، وعلى إثر ذلك بايعت حمص وفلسطين وقنسرين، فاستقامت لابن الزبير الشام كلها، ولم يبق إلا الأردن[٧٩]. ويتبين من الروايات أن مروان بن الحكم نفسه رأى في بادئ الأمر أن ينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه[٨٠]، ولكن قدوم عبيد الله بن زياد من العراق أدى إلى تغيير الموقف، حيث أطمعه فيه[٨١].

كان لابن الزبير قبول عند أهل الشام، وهذا نجده واضحا في موقف الحصين بن نمير السكوني الذي كان محاصرا لمكة عندما التقى ابن الزبير بالأبطح فقال له: "إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر، يعني الخلافة، فارحل معي إلى الشام، فوالله لا يختلف عليك اثنان"[٨٢]. حتى أنه أراد المبايعة، لكنه اشترط عليه أن يؤمن أهل الشام، وتهدر الدماء التي كانت بينهم في وقعة الحرة ومحاصرة مكة، لكن ابن الزبير لم يكن لديه من السياسة والدهاء ما يجعله يتلقف الدعوة ويحتوي الحصين وأصحابه، فرفض وكان برفضه بعيدا عن منطق الساسة والحكم فقال: "لا أفعل، ولأقتلن بكل رجل عشرة. فقال الحصين: قد كنت أظن أن لك رأيا، أنا أدعوك إلى الخلافة وأنت تعدني بالقتل"[٨٣].

بعد الرد الموجع من ابن الزبير خرج الحصين بأصحابه، فأقبل بهم نحو المدينة، وندم ابن الزبير على ما صنع، فأرسل إليه يطلب منه البيعة، وأن يأخذها له من أهل الشام، فلم يفلح في إقناعه بعد فوات الفرصة [٨٤]، ويبدو أن ابن الزبير لم يثق بما قاله الحصين لما سلف منه في حربه على المدينة المنورة، ومهاجمته مكة المكرمة[٨٥]. وفي هذه الأثناء قام روح بن زنباع والي المدينة المنورة بتأمين الانسحاب عن طريق المدينة، حيث ساد الخوف لدى الجيش الأموي من انقضاض أهل المدينة عليهم بسبب أفعالهم بهم يوم وقعة الحرة، وبذلك وصل الحصين ومن معه إلى الشام [٨٦].

استتب الأمر لابن الزبير في مكة ومصر والعراق واليمن، وأغلب مناطق الشام، ولكنه لم يملك من الدهاء السياسي ما يمكنه من إدارة الأمور، إذ تجمع الأمويون في الجابية بالأردن، ثم

أعادوا انتخاب مروان بن الحكم خليفة، وكان لليمانيين الدور الأكبر في اختياره[٨٧]. وبعد انتصار عبد الملك على مصعب ابن الزبير بالكوفة أرسل جيشًا بقيادة الحجاج بن يوسف إلى مكة استطاع أن يقضى على عبد الله بن الزبير سنة (٧٣هـ/٦٩٣م)[٨٨]، وشارك اليمانيون بفاعلية ضد ابن الزبير بقوة قدر عددها بثلاثة آلاف رجل من أهل مصر تحت قيادة مالك بن شراحيل الخولانيّ[٨٩]، وظلت تلك المناصرة مقدرة لدى بني أمية وولاتهم ، فكان الحجّاج يرسل إليه في كل سنة بحلّة وثلاثة آلاف درهم لمؤازرته ضد ابن الزبير[٩٠]. وكانت نهاية ابن الزبير على أياد يمنية[٩١]، حيث قتله عبد الرحمن بن بجنس التجيبي[٩٢].

رابعًا: موقف اليمانيين من حركة التوابين (٦٥هـ/٦٨٥م)

تشكلت هذه الحركة من بقايا أنصار العلويين، فانتمى إليها جمع من أهل اليمن، يأتي في مقدمهم عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي[٩٣]، كما انتمى إليها سيّد القرّاء رفاعة بن شداد البجلي[٩٤]، أحد شيعة علي المتعصبين[٩٥]، ومن أنصار حجر بن عدي ضد بني أمية، ولما طلب زياد أصحاب حجر بن عدي هرب رفاعة بن شداد البجلي إلى الموصل، فصار إلى جبل من جبالها، حتى نجا بنفسه وأمسكوا عن طلبه[٩٦].

دفعتهم أفكارهم المعادية لبني أمية إلى أن يكونوا من مؤسسي حركة التوابين سنة (٦٥هـ/٦٨٥م)، حيث قامت هذه الحركة على مبدأ التوبة الصادقة من خذلان الحسين بن علي، وعلامة صدق توبتهم الأخذ بثأر الحسين ومقاتلة بني أمية، وخصوصا قتلة الحسين مثل عبيد الله بن زياد[٩٧]. وعلى هذا النحو سارت حركتهم، فقرروا المواجهة مع بني أمية في عين الوردة سنة (٦٥هـ/٦٨٥م)، بإشارة من عبدالله بن سعد الأزدي[٩٨]، وكان هو قائد الميمنة لجيشهم، بينما تولى رفاعة البجلي مسؤولية التعبئة الميدانية للحركة أثناء المواجهة[٩٩].

شاركت حمير وهمدان إلى جانب حركة التوابين بعدد من فرسانها ورجالاتها، بقيادة كُريب بن زيد الحميري، وعند اقترابهم من الجند الأموي، فعرفهم ابن ذي الكلاع الحميري، وكان قائدا في جيش الأمويين، وأعطاهم الأمان، ولكنهم رفضوا وقاتلوا حتى قتلوا جميعا [١٠٠]. انقض الجيش الأموي على جيش التوابين، ومزقوا صفوفهم وأوسعوا فيهم القتل، واستبسل التوابون في صد جميع هجمات الأمويين [١٠١]، ورغم استبسال قادتهم، فإن الأمر انتهى بهزيمة منكرة للتوابين، غير أن رفاعة البجلي لم يصب بأذى، فكان حتما عليه أن يأخذ الراية والقيادة فأخذها، بعد تردد [١٠٢].

هدأت المعركة مساء يومها، فنظر رفاعة إلى أن الوسيلة الوحيدة لإنقاذ من بقي من جيشه هو الانسحاب، فسار بالنّاس وأسرع، حتّى وصل بهم العراق، فأعاد كل جند إلى مصره من أهل المدائن، والبصرة، والكوفة[١٠٣]، وبخطة رفاعة نجا من بقي من جيش التوابين، وواضح للعيان الوجود اليمني النشط في كلا الفريقين، حيث كان اليمانيون من مؤسسي حركة التوابين، وممن قاتل تحت لوائها ، وفي الوقت نفسه لم يغب اليمانيون عن الوجود الفاعل في الجيش الأموي الذي أجهز على هذه الحركة واستأصل شأفتها.

خامسًا: موقف اليمانيين من حركة المختار الثقفي (٦٦هـ/٦٨٦م)

التف حول المختار قادة كبار من أهل اليمن مثل رفاعة البجلي، ومن بقى معه من جيش التوابين، وأصبح أحد قادته، والقائم على حراسته الخاصة[١٠٤]، بل كان قائد اليمانيين أجمع في حركة المختار، وقد عرف زيف ادعائه، وهم بقتل المختار، إلا أنه كره أن يكون غادرا، ومع ذلك قُتِل معه في حربه مع مصعب بن الزبير[١٠٥].

وكان إلى جانبه في حركة المختار أحمر بن شميط البجلي[١٠٦]، ومعهم إبراهيم بن الأشتر النخعي[١٠٧] الذي عينه المختار قائدا لجيشه [١٠٨]. وكان مع المختار من أهل العلم من اليمانية السائب بن مالك الأشعري، بعثه في مهمات عدة فأفلح فيها[١٠٩]، فوثق به، وجعله على شُرطه[١١٠]، وخليفته على الكوفة[١١١]، وظل معه إلى النهاية، ولكنه اكتشف في نهاية المطاف أن المختار كذاب بعد أن كان يؤمن بنبوته، ومع ذلك قاتل في صفه وقتل معه[١١٢].

حقق إبراهيم بن الأشتر النخعي للمختار نصرا قل نظيره ضد الدولة الأموية، وبجيش قوامه ثمانية آلاف رجل فقط من الكوفيين، فلقي عبيد الله بن زياد يوم عاشوراء سنة (٦٦هـ/٦٨٦م) بالخازر من أرض الموصل، ومعه جيش قوامه أربعون ألفا من الشاميين ومعظم قادة تشكيلاتهم يمانيون[١١٣]، فانتصر جيش ابن الأشتر، وقضى على عبيد الله بن زياد وحصين بن نمير السكوني، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وشكلت ضربة قاصمة للأمويين [١١٤]. وقد تواجد اليمانيون في كلا الفريقين، لكن غالبيتهم كان في جيش الشام الأموي، ولكنهم هذه المرة أصيبوا بمقتل بفقدان فرسانهم الذين سطروا البطولات الأموية في معظم الوقائع.

انحياز اليمانيين لمصعب بن الزبير:

لم يتشبث اليمانيون بحركة المختار، فبمجرد اختلافه مع ابن الزبير، ووصول أخيه مصعب بن الزبير واليا على العراق، ومحاربا

للمختار، انضم إليه محمد بن الأشعث بن قيس الكندي-زعيم كندة بأجمعها-وكانت له مكانته في قلوب أهل اليمن وغيرهم[١١٥]، فأكرمه مصعب وأدناه لشرفه، ثم ما لبث أن أقنع المهلب بن أبي صفرة -عامل فارس- بالانضمام إلى ابن الزبير بعد تردده عن تأييد ابن الزبير، فجاء معينا لمصعب بعسكره ودهائه، فأكرمه وولاه أمر فارس[١١٦]. وقد انطقّت بتأييد المهلب جيوش وأموال عظيمة لابن الزبير، وانظم إلى مصعب سراقة بن مرداس البارقي، فقاد حملة إعلامية حرض فيها الناس بشعره على المختار[١١٧].

نشط ابن الأشعث في مناصرة ابن الزبير، وذهب إلى البصرة يستنصرها ضد المختار، وحدثت بينه وبين المختار موقعة المذار[١١٨] سنة (٦٧هـ/٦٨٧م)، فانهزم فيها جند المختار، فأتبعوهم حتى أدخلوهم الكوفة، وقتل من عسكر مصعب محمد بن الأشعث الكندي زعيم كندة، ودخل أهل البصرة الكوفة، فحصروا المختار في قصر الإمارة، حتى قتل[١١٩]. وعندما أدركت المختار الهزيمة أخرج خمسمائة أسير يمني من همدان حبسوا بتهمة التواطؤ على قتل الحسين، فقام بإعدام مائتين وخمسين أسيرا منهم على الفور[١٢٠].

مارس اليمانيون الضغط لإكراه مصعب على قتل خلق بدار الإمارة غدرًا بعد أن أمنهم، وبعد استعطاف الأسرى لمصعب رق لهم، وأراد أن يخلي سبيلهم، فقام عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فقال: "تخلي سبيلهم؟ اخترنا أو اخترهم، ووثب محمد بن عبد الرحمن الهمداني فقال: قتل أبي وخمسمائة من همدان، وأشراف العشيرة ثم تخليهم؟ ووثبوا عليهم، فقتلوا خمسة آلاف أسير"[١٢١].

نجا قائد جيش المختار إبراهيم بن الأشتر النخعي من القتل والأسر، فكتب إليه مصعب يدعوه إلى طاعته ويقول: إن أجبتني فلك الشام وأعنة الخيل. وكتب إليه عبد الملك بن مروان أيضا: إن بايعتني فلك العراق، ثم استشار أصحابه فترددوا، ثم قال: "لا أؤثر على مصري وعشيرتي أحدا، ثم سار إلى مصعب"[١٢٢]، ويبدو الموقف اليمني المؤيد للحركة متقلبا وغير مستقر، حيث بدأ متصلبا مع المختار، فحقق له مكاسب كبيرة ضد الدولة الأموية تمثلت بقتل عبيد الله بن زياد، إلا أنه مع قدوم ابن الزبير تحول ذلك الموقف نحو ابن الزبير وانضووا تحت لوائه، مما رجح غلبته على المختار وجيشه، وإنهاء حركته.

سادسًا: موقف أهل اليمن من حركة زيد بن علي (١٢٢هـ/٧٤٠م)

تشير هذه الحركة إلى أن معارضة العلويين للدولة الأموية قد تأصلت، غير أن خذلان مؤيديهم كان سمة في جميع مواقفهم. يقف المتتبع لحياة زيد على شخصية صلبة المواقف، فقد عارض هشام بن عبدالملك سنة (١٢٢هـ/٧٤٠م)، معتمدا على أهل الكوفة، وغالب الكوفة يمانية، ولكنهم خذلوه كما خذلوا من قبله، وإذا بالكوفة تجدد نكبتها به[١٢٣]، رغم إدراكه لطبيعتها منذ دعوتهم له وإصرارهم على رجوعه إليها بعد خروجه منها.

كان أهل اليمن المحرك لزيد بن علي في حركته، إذ كان خالد بن عبدالله القسري والي العراق الممول لهذه الحركة، بستمائة ألف درهم، وقد اعترف داوود بن علي بذلك الدعم أمام الخليفة هشام[١٢٤]، ويؤكد ذلك كتاب يوسف بن عمر إلى هشام: "إن أهل هذا البيت من بني هاشم قد كانوا هلكوا جوعا، حتى كانت همة أحدهم قوت عياله، فلما ولي خالد العراق أعطاهم الأموال فقووا بها، حتى تاقت أنفسهم إلى طلب الخلافة"[١٢٥]، وكان أهل الكوفة السبب في إغراء زيد بن علي في معارضته للخلافة الأموية[١٢٦].

تنامت الأنباء عن زيد إلى هشام فطلب من واليه يوسف بن عمر أن يعجل بإشخاصه إلى الحجاز، وألا يسمح له بالإقامة بالكوفة، وقال له: "فإنه إن أعاره القوم أسماعهم فحشاها من لين لفظه، وحلاوة منطقه، مع ما يدلى به من القرابة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وجدهم ميلا إليه، غير متئدة قلوبهم ولا ساكنة أحلامهم، ولا مصونة عندهم أديانهم، وبعض التحامل عليه فيه أذى له، وإخراجه وتركه مع السلامة للجميع والحقن للدماء والأمن للفرقة أحب إلي من أمر فيه سفك دمائهم، وانتشار كلمتهم وقطع نسلهم، والجماعة حبل الله المتين، ودين الله القويم وعروته الوثقى"[١٢٧]. والواقع أنه كان لليمانيين حضور مقدر في الحركة قبل المواجهة، ضمن أهل الكوفة، الذين بلغ عددهم مائة الف وقد تكفلت قبيلة مذحج وهمدان بالدفاع عنه [١٢٨]، فلم يزالوا به حتى ردوه إلى الكوفة[١٢٩].

أمر زيد بن علي أصحابه سنة (١٢٢هـ/٧٤٠م) بالتأهب للخروج والاستعداد، فاكتشف يوسف بن عمر الأمر، فبعث يطلب زيد بن علي في منازل مؤيديه، فلم يجده. وحينها تخوف زيد بن علي من أن يؤخذ، فتعجل بالثورة قبل الأجل الذي جعله بينه وبين أهل الكوفة[١٣٠]. قرر زيد بن علي الخروج، فواعد أصحابه في أول ليلة من صفر (١٢٢هـ/٧٤٠م) وبلغ الأمر يوسف بن عمر، فبعث إلى الحكم بن الصلت -والي الكوفة-، فأمره أن يجمع أهل الكوفة

في المسجد الأعظم يحصرهم فيه، فأدخلهم المسجد، ثم نادى مناديه:" ألا إن الأمير يقول: من أدركناه في رحله فقد برئت منه الذمة، ادخلوا المسجد الأعظم، فأتى الناس المسجد قبل خروج زيد بيوم"[١٣١].

انطلقت ثورة زيد ليلا بترديد أصحابه للشعار أمت، أمت يا منصور، وكان المسؤول المباشر عن المناداة بشعار الثورة القاسم التنعي ثم الحضرمي، ففطن له جعفر بن العباس الكندي، فقبض عليه، ورفض الإدلاء بأية معلومة عن زيد وحركته، فأمر به فضربت عنقه على باب القصر، فكان أول من قتل من أصحاب زيد بن علي صبرا هو اليماني الحضرمي القاسم التنعي -صاحب الشعار-[١٣٢]، وظاهر زيد في حركته أبو الجارود - زياد بن المنذر الهمداني-[١٣٣]. والجدير ذكره أن من بايعوا زيدا بلغوا ثمانين ألفا[١٣٤]، وقيل مائة الف[١٣٥]، لكن عندما قرر الخروج في اليوم المتفق عليه لم يوافه سوى مائتي رجل وثمانية عشر رجلا، ولمّا تساءل: "أين الناس؟ قيل له: هم في المسجد الأعظم محصورون"[١٣٦].

خرج زيد بمن معه متجها نحو المسجد لفك الحصار عن المحصورين، فظهرت شخصيات يمانية قاومت هذه الثورة، حيث تصدى له عبيد الله بن العباس الكندي في أهل الشام، ولكنه انهزم أمام زيد، وأصحابه[١٣٧]، واستمر زيد في مقاتلتهم أياما وهو يهزمهم[١٣٨]، إلا أنه أصيب بسهم في جبهته اليسرى، فمات رحمه الله، فانتهت الثورة بموته[١٣٩].

وهكذا نرى أن اليمانيين كان لهم حضور في كلا الطرفين، لكن أثناء المواجهة كان الحضور اليمني فاعلا إلى جانب بني أمية بقيادة عبيد الله بن العباس الكندي، وأخوه جعفر بن العباس الكندي[١٤٠]. وما تبعه من قيام اليمانيين بإحكام القبضة الأمنية على الكوفة عندما أمر واليها –الحكم بن الصلت– بذلك، فتولى القادة اليمانيون إغلاقها، كونهم المسؤولين عن تلك المربعات الأمنية[١٤١]، كما كان جعفر بن العباس الكندي قائد الاستطلاع، وكان يزود يوسف بن عمر بكل المعلومات عن تحركات زيد، وكان يرافقه في هذه المهمة خمسون فارسا[١٤٢].

لم يكتب لهذه الحركة النجاح مثل مثيلاتها السابقة، ويرجع ذلك إلى خذلان أهل الكوفة، وعدم مناصرتهم لزيد، والتوقيت المفاجئ الذي أعلنه زيد قبل اكتمال الإعداد واتساع الرقعة المؤيدة، وقد لعب اليمانيون دورًا في نهايتها، إذ تخاذلوا عن نصرة زيد كونهم غالبية من انتمى إلى حركته في الكوفة، أضف إلى ذلك قيام اليمانيين المناصرين لبني أمية بأدوارهم في محاربته على أكمل وجه، وفي الوقت نفسه قدم بعض اليمانيين دماءهم دفاعا عنه، إذ قتل القاسم التنعي الحضرمي مدافعًا عن زيد وثورته.

سابعًا: موقف اليمانيين من حركة يزيد بن الوليد (١٢٦هـ/٧٤٤م)

فرضت سلوكيات الخليفة الوليد بن يزيد المشينة[١٤٣]، وممارسته السياسية التعسفية ضد اليمانية مستعينا بالقبائل القيسية[١٤٤] على اليمانية التحرك ضد الخليفة[١٤٥]. لما رأوا من تتابع عسفه عليهم وقتله خالد بن عبدالله القسري، بعد تعذيب وحشي استمر عدة أيام[١٤٦]، وما أعقبه من تشف بقتله وتعذيبه[١٤٧]، الأمر الذي أدى إلى استياء اليمانيين، وتناديهم من مختلف المدن الشامية، باذلين كل جهد للقضاء على الخليفة الذي قتل زعيمهم واستهان بهم[١٤٨].

تحرك اليمانيون عبر تخطيط سري منظم، باحثين عن زعيم يثقون به، ويشاركهم آلامهم وآمالهم، فوجدوا في يزيد بن الوليد بن عبد الملك الزعيم، المنشود[١٤٩]، إذ كان حانقًا على الوليد مثلهم، وكان يُفتش عن أنصار مخلصين[١٥٠]، وزاد من اطمئنانهم إليه وإقبالهم عليه أنه كان مُصهرًا إليهم، فقد كان متزوجًا هند بنت زبان الكلبي[١٥١].

عُرف يزيد بالتنسك والتألّه والتواضع، وكان الوليد بن عبد الملك يراه صالح أولاده[١٥٢]، فأتته رؤساء اليمانية وفاوضوه في خلع الوليد والمبايعة له بالخلافة، فوافقهم وتعاهدوا على أمرهم[١٥٣]، ثم طلبه زعيم اليمانية محمد بن خالد القسري فبايعه، فلبث الوليد مخلوعًا أيامًا كثيره[١٥٤]، وقاد العمل السري لأخذ البيعة ليزيد بن الوليد كلٌ من الأحنف الكلبي، ويزيد بن عنبسة السكسكي وقوم من ثقاته[١٥٥]. وكان بعض اليمانيين يتتبعون أخبار الناس ويرصدونها ويرسلونها إلى يزيد بن الوليد، من مختلف أجناد الشام[١٥٦]، وقد أسهم كل من عمران بن هلباء الكلبي، ومنصور بن جمهور الكلبي في تحميس القبائل اليمانية وحثها على عزل الخليفة، متهمين إياه بالطغيان والعدوان، ودامغين خلفاءهم المتأخرين بأنهم ولدان وغلمان، ومنددين بسياستهم، وفتكهم برؤساء اليمانية وتقريبهم للمضرية[١٥٧]، وقد أفلح عملهم السري في مبايعة أكثر أهل دمشق والمزة ليزيد سرا [١٥٨].

استطاع اليمانيون عبر تخطيطهم إسقاط العاصمة دمشق في يوم وليلة، ودون إراقة قطرة دم سنة (١٢٦هـ/٧٤٤م)[١٥٩]، وصارت عاصمة الخلافة الأموية بيد يزيد بن الوليد، وفورا أصدر أوامره بإغلاق أبواب دمشق، وعدم فتحها إلا للموالين له فقط[١٦٠]، وتنادى الثائرون من أهل اليمن من المدن الشامية من

كل جانب [١٦١]، وفتحت لهم أبواب دمشق لتدخل كل قبيلة من الباب التي أتت منه[١٦٢]. وصعد عمير بن هانئ العنسي المنبر، وقد تقدم سنه ووهن عظمه[١٦٣]، فخاطب الناس قائلاً: "سارعوا إلى هذه البيعة، إنما هما هجرتان: هجرة إلى الله ورسوله، وهجرة إلى يزيد"[١٦٤]، فبايعه الناس[١٦٥].

حدثت مواجهات متعددة مع الوليد خارج دمشق قادها رؤساء اليمانية[١٦٦]، وقاتل الخليفة الوليد قتالا شديدا، لما رأى المواجهة حتمية، غير أنه لم يلبث أن انهزم، وطلب التفاوض، فتقدم إليه يزيد بن عنبسة السكسكي، ليفاوضه لكن السكسكي قطع عليه كل سبل البقاء في الخلافة، كونه استخف بالتعاليم الشرعية، وانتهت المفاوضات إلى تمسك كل طرف بموقفه، فرجع الوليد إلى الدار، وأخذ مصحفا، وقال: يوم كيوم عثمان[١٦٧].

لم يترك له اليمانيون أي فرصة للنجاة فاقتحموا القصر، يتقدمهم يزيد بن عنبسة السكسكي، فنزل إلى الوليد فلم يُبد أي مقاومة، فقبض عليه، وفي لحظة خاطفة أحاطوا به وقتلوه، ويزيد السكسكي يريد أن يتريث في أمره، في حصن البخراء (سنة١٢٦هـ/٧٤٤م)، وقتلوا ولديه: الحكم وعثمان، حتى لا يبايع أحدهما وليًا للعهد بعده، فلا يستبقي أحدا ممن قام على أبيه، وقام اليمانيون بتهنئة يزيد بالنصر، فقسم عليهم الأعطيات مكافأة لهم، ومن ثم انطلقوا إلى العراق وأخذوا له البيعة[١٦٨].

وأيًا كان الأمر فقد لعبت القبائل اليمانية الشامية دورًا كبيرًا في تأليب الناس ضد الخليفة الوليد، دفعها إلى ذلك انحطاط مكانتها السياسية وفتك بني أميه بالمتمردين من زعمائها، وتعاظم سلطان القبائل القيسية في دمشق والعراق وخراسان، وكان المتسرعون من زعماء اليمانية بدمشق يُفضّلون العمل في سبيل خلافة يمنية خالصة، فلما صعب ذلك عليهم، لاذوا بيزيد بن الوليد، وعبّأوا أنفسهم لمؤازرته، وظلوا ينتظرون اليوم الموعود للخلاص من الوليد، واستعادة نفوذهم المفقود. فقد كان يزيد يستهويهم بكثرة الصلاة طول الليل، وقيم الزهد التي عرف بها، حتى بلغ به الحد أن يعطي امرأته -هند الكلبية- ثيابه الخاصة لتبيعها وتقيت نفسها دون أن يعطيها درهمًا واحدًا من بيت مال المسلمين[١٦٩].

ثامنًا: موقف اليمانيين من الدعوة العباسية (١٣٢هـ/٧٥٠م)

قام بالخلافة من بعد يزيد بن الوليد أخوه إبراهيم بن الوليد، فبايعه الناس بالشام، إلا أن المضرية تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها، وقتلهم الخليفة الوليد بن يزيد، فاجتمع بعضهم إلى بعض، وأقبلوا من أقطار الأرض، وبايعوا مروان بن محمد بن مروان بن الحكم، وكان يومئذ شيخ بني أمية وكبيرهم، وطلبوا منه الأخذ بثأر ابن عمه الوليد بن يزيد، فاستعد مروان، وتوجه نحو مدينة دمشق بجنوده من قبائل مضر، فدخلها وأخذ إبراهيم بن الوليد وولي عهده عبد العزيز بن الحجاج، وطرد اليمانيين منها فتوجه قادتهم نحو العراق واستخفوا فيها[١٧٠].

استتب الأمر لمروان بن محمد، وأعطاه أهل البلدان الطاعة، ولكن العصبية بخراسان بين المضرية واليمانية كانت قد بلغت أوجها[١٧١]. بدأ اليمانيون ثورتهم في خراسان من عهد يزيد بن الوليد سنة (١٢٦هـ/٧٤٤م)[١٧٢]، على يد سيد اليمانية بأرض خراسان جديع بن علي المعروف بالكرماني[١٧٣]، ضد نصر بن سيار[١٧٤]، لعزله إياه عن رئاسة اليمانية سنة (١٢٦هـ/٧٤٤م) ولتعصبه على اليمانية، فكان لا يستعين بأحد منهم، وعادى أيضا ربيعة لميلها لليمانية[١٧٥].

بُذلت مساع متعددة لرأب الصدع، وإزالة ما بينهما، لكن الكرماني رفض تلك المساعي الحميدة وطالب بتنازل نصر واختيار والٍ جديد من قبل الناس[١٧٦]. التفت اليمانية حول الكرماني فقويت شوكته، ثم انضم إليه المناوئون للسلطات الأموية بخراسان سنة (١٢٨هـ/٧٤٦م)[١٧٧]، فقوي بهم ساعده وأعلن الحرب على نصر بن سيار سنة (١٢٨هـ/٧٤٦م) فهُزم نصر، وقتل ابنه تميم، وغلب الكرماني على مرو[١٧٨] عاصمة إقليم خراسان[١٧٩]. ظلت الحرب متواصلة بين الطرفين قرابة عشرين شهرًا[١٨٠]ـ فأفادت أبا مسلم-[١٨١]، إذ شغلهم ذلك الصراع عن طلبه وأصحابه، حتى قوي أمره واشتد ركنه ، وعلا شأنه في جميع كور خراسان[١٨٢].

شعر نصر بن سيار بالخطر فكتب إلى الخليفة مروان بن محمد يطلب نجدته، ويخبره بخروج الكرماني عليه، وعلو أمر أبي مسلم في خراسان، حيث تعدى جيشه مائة ألف رجل[١٨٣]، ثم عزز نصرا برسالة ثانية وثالثة، فلم يجد عند مروان شيئا[١٨٤]، غير اعتقاله لإبراهيم بن محمد صاحب الدعوة العباسية، وإعدامه[١٨٥].

١/٨-المؤازرة اليمانية لدعوة أبي مسلم في خراسان

قادت حزازات الصراع بين اليمانية ونصر بن سيار وما نتج عنه من اغتيال الكرماني غيلة من قبل نصر بن سيار سنة (١٢٩هـ/٧٤٧م)[١٨٦]، إلى انضمام اليمانية إلى أبي مسلم، وعلى رأسهم علي بن الكرماني رغبة منه في الأخذ بثأر أبيه، وسلمه مرو، فصارت عاصمة الإقليم تحت إمرته[١٨٧].

والجدير بالذكر أن أبا مسلم بعد تمكنه من خراسان بتضحيات اليمانيين الجسيمة، قام بقتل زعيم اليمانية علي بن جديع الكرماني، الذي كان له الدور الكبير في انتصار ثورته، إذ أدخله مرو وقدمها له، وبرغم التضحيات الجسيمة التي قدمها اليمانيون للظفر بخراسان، فإن أبا مسلم أباد اليمانية مع زعيمهم في خراسان سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م)، واستأصل آل الكرماني برمتهم، بعد أن قاموا معه ونصروه، وفرّقوا كلمة العرب فيها[١٨٨].

لم تدرك اليمانية الباقية في جيش أبي مسلم مغزى أبي مسلم، ولم يلتفتوا لما حل بإخوانهم من نكبة، إذ توجه مقاتل بن حكيم العكي-أبو عون-بمن معه من صناديد الجنود وأبطالهم، نحو العراق والشام في ثلاثين ألف فارس لملاقاة مروان بن محمد بالزاب[١٨٩]. التقى الطرفان يقود الجيش العباسي أبو عون العكي، وأثناء المواجهة حدثت المفاجأة من اليمانيين على جيش مروان بن محمد، إذ رفضوا المواجهة مع أبي عون العكي، فحلت بمروان هزيمة منكرة، كان بطلها اليمانيون في كل من جيشه وجيش عدوه من العباسيين[١٩٠].

وسار أبو عون العكي في إثر مروان، وقصد دمشق، فقتل من أهلها مقتلة عظيمة، فيهم ثمانون رجلا من ولد مروان بن الحكم[١٩١]. ثم عبر العكي الشام سائرا نحو مصر حتى وافاها، ليلتقي بمروان فيمن كان معه، من أهل الوفاء له، وكانوا نحوا من عشرين ألف رجل، فاقتتلوا، فلم يكن لأصحاب مروان ثبات، فانهزم مروان وتبدد جيشه، فهرب على طريق إفريقية، حتى نزل قرية بويصير بمصر، ونام في مسجدها لشدة ما قد مر به من التعب[١٩٢]. وأقبل رجل يمني من أصحاب أبي عون، يسمى عامر بن إسماعيل المرادي في طلب مروان، حتى أتى المكان الذى هو فيه، وهو مستثقل نوما، فضربه بالسيف حتى قتله[١٩٣].

٢/٨-مساندة اليمانيين لبني العباس بالكوفة

سمع اليمانيون بالكوفة بما قام به اليمانيون في خراسان، من تحالف مع أبي مسلم الخراساني، وما حققوه من انتصارات على الدولة الأموية، فخرج محمد بن خالد بن عبد الله القسري من مخبئه الذي تستر به من الأمويين بالكوفة، وجمع إليه نفرًا من أشراف قومه، ثم أخذ القصر[١٩٤]، واستعطف اليمانيين في الجيش الأموي، فمالوا إليه جميعًا[١٩٥]. فلما رأى عامل الأمويين التفاف الناس حول محمد بن خالد غادر الكوفة مع جيشه، وتوجه نحو واسط، فخرج محمد بن خالد، فأتى المسجد الأعظم في جمع كثير من اليمانيين، وقد أظهروا السواد، وذلك يوم عاشوراء من المحرم سنة(١٣٢هـ/٧٥٠م)[١٩٦]. ودعا الناس إلى البيعة، وتولى أمر الكوفة من قبل دعاة العباسيين - فضبطها، وكان يقال له الأمير- حتى ظهر أبو العباس السفاح[١٩٧].

٣/٨-مبايعة أبي العباس السفاح وسقوط خلافة بني أمية

بعد أن ضبط اليمانيون الكوفة، وانتصرت جيوش العباسيين في خراسان، ظهر أبو العباس السفاح سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م)، من مختبئه في الكوفة بين اليمانيين منذ أن فر مع أسرته من مروان من الشام بعد قتل أخيهم إبراهيم بن محمد[١٩٨]. وأقبل حتى دخل المسجد الأعظم، واجتمع له الناس، فصعد المنبر، فخطب فيهم مذكرا بمساوئ بني أمية[١٩٩]. ثم تلاه داوود بن علي وأشارت خطبته بقوله: "... وإن لكل أهل بيت مصرا، وإنكم مصرنا"[٢٠٠]، إلى علم الخليفة أبي العباس السفاح، وأهل بيته بولاء القبائل اليمانية لهم، واعترافهم بدورها في الدعوة[٢٠١].

والجدير بالذكر أن سياسة مروان أحدثت اضطرابًا قبليًا ظل يتفاعل طيلة أيام حكمه، ويحدث انقسامات رهيبة بين اليمانية والقيسية، حتى انتهى الأمر بانحياز اليمانيين لبني العباس في خراسان[٢٠٢]، والعراق، حيث سَلَّمت القبائل اليمنية لهم الكوفة وواسط بقيادة محمد بن خالد القسري، وفي الشام قام اليمانيون بهدم أسوار دمشق[٢٠٣]، وكان خذلان القبائل اليمانية لمروان في معركة الزاب عاملاً مهمًا من العوامل التي أدت إلى هزيمته[٢٠٤]، وكانت نتيجة ذلك سقوط الدولة الأموية[٢٠٥].

وعلى أية حال فإن ظهور حركات المعارضة كان نتيجة ظهور المظالم التي غابت في عصر النبوة والخلافة الراشدة، ولا يعني ذلك أن ظاهرة الاستبداد كانت عامة ، ولا توجد عدالة مطلقًا، فهذا مجانب للصواب، فإن من المعلوم أن خلفاء بني أمية كانوا يجلسون للناس ويستمعون لشكاواهم، ويخصصون أوقاتًا للنظر في حوائج الرعية ، فكان معاوية يخرج إلى المسجد، ويطلب من غلامه أن يضع له كرسيا يسند ظهره إلى المقصورة ، فيقوم إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ، ومن لا أحد له فينظر في أمرهم ، ثم يخصص وقتا لأشراف الناس الذين يرفعون حوائج من لا يستطيع الوصول إلى الخليفة[٢٠٦].

وفاق عمر بن عبد العزيز كل من جاء بعد الخلفاء الراشدين في الاهتمام بالمظالم، حتى كان همه بالناس أشد من همه بأمر نفسه، فكان يقعد لحوائجهم يومه فإذا أمسى، وعليه بقية من حوائجهم، وصله بليلته[٢٠٧]. أما عبدالملك بن مروان فقد أفرد للظلامات يوما معينا كل أسبوع [٢٠٨]، بينما عمد هشام إلى تخصيص ستين يوما وليلة للناس لا يهتم فيها بشيء سوى رد

المظالم والأخذ على يد الظالم، من جميع الناس وأطراف البلاد، فيصل إلى مخاطبته في ذلك الموضع راعي السوام والأَمَة السوداء فمن دونهما[٢٠٩].

نتائج الدراسة

- كان غياب الشورى وظهور نظام التوريث من أهم دوافع الحركات المعارضة التي هدفت إلى تغيير الواقع السياسي.
- اتفقت كل الحركات المعارضة على هدف تغيير الحكم، وسلكت مسلك التغيير المسلح الذي أدى إلى هدر الدماء وتضييق الفرص أمام مساحة التغيير، بسبب ما سلكته من عنف.
- ظهر اليمانيون في فريقي الموالاة والمعارضة في معظم الأحداث، في حين أن انتماءهم الأكبر كان للدولة الأموية.
- أفشل اليمانيون معظم حركات المعارضة رغم انتماء البعض إليها في بداية تشكلها.
- عند تخلي اليمانيين عن مساندة الدولة، فقدت هيبتها؛ مما أدى إلى اضطراب أمر الخلافة وسقوطها.
- مرت مواقف اليمانيين بتقلبات متعددة، حيث كان اليمانيون يؤيدون قيام تلك الحركات، وعند بداية المواجهة سرعان ما تتغير مواقفهم إلى جانب الدولة، مما يؤدي إلى انهيار تلك الحركات.
- عند شعور اليمانيين بفقدان مكانتهم السياسية تحولت وجهتهم الكبرى إلى المعارضة، الأمر الذي أدى إلى سقوط الدولة الأموية سنة (١٣٢هـ/٧٥٠م)، وقيام دولة بني العباس.

الاحالات المرجعية:

(١) الذهبي، محمد بن أحمد (ت: ٧٤٨هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ٨/ ٢٨٧-٢٨٩، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، ٥/ ٤٢٥، ٤٣٢، الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (ت:٧٦٤هـ)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت،١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م، ١٣/ ١٥٥، الزركلي، خير الدين بن محمود، **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م، ٨/٢٤٣.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى (ت: ٢٧٩هـ) **أنساب الأشراف**، تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر – بيروت، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م، ٩/ ١٠٩-١١١، الدينوري، أحمد بن داود (ت: ٢٨٢هـ)، **الأخبار الطوال**، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدكتور جمال الدين الشيال، دار إحياء الكتاب العربي - عيسى البابي الحلبي وشركاه/ القاهرة، ط١، ١٩٦٠م، ٣٤٨، ٣٤٧، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٥/ ٣٧٣، بانقا، إلهام معتصم، **أثر العصبية القبلية في قيام الدولة العباسية وتطورها وتدهورها، ١٣٢هـ - ٢٣٢هـ/٧٤٩-٨٤٧م**، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، ٢٠١٠م، ٨٠

(٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٧٩، الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ)، **تاريخ الرسل والملوك**، دار التراث – بيروت، ط٢- ١٣٨٧ هـ، ٧/ ٢٤٧.

(٤) الشريف، عبدالله بن الحسين، **الدولة الأموية في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك**، دار القاهرة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ١٦٠، ١٦١، الهويدي، علي مسعد، **المعارضة اليمنية المسلحة للدولة الأموية في اليمن والأمصار(٤١هـ-١٣٢هـ/٦٦١م – ٧٥٠م)**، مجلة الآداب، جامعة ذمار، العدد ١٧، ديسمبر،٢٠٢٠م، ص٣٤٥.

(٥) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٨/ ٧٨.

(٦) ابن سعد، محمد بن سعد، (ت:٢٣٠هـ)، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ٣/ ٣٧.

(٧) ابن سعد، محمد بن سعد، (ت: ٢٣٠هـ)، **الجزء المتمم الطبقة الرابعة من الصحابة**، تحقيق: عبد العزيز عبد الله السلومي، مكتبة الصديق - الطائف، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ، ٨٣٠، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله (ت: ٤٦٣هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م، ١/ ٢٣٩، ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت: ٧١١هـ)، **مختصر تاريخ دمشق**، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق – سوريا، ط١، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٤م، ٦/ ٣٠،. ٢٧

(٨) حجر بن عدي بن جبلة الكندي، وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد القادسية، وسكن الكوفة، فما لبث أن عرفت عنه الدعوة إلى مناوأة بني أمية والاشتغال في السر بالقيام عليهم، فجيء به إلى دمشق فأمر معاوية بقتله في مرج عذراء سنة ٥١هـ. الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٣/ ٤٦٢، ٤٦٣، الزركلي، **الأعلام**، ٢/ ١٦٩

(٩) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٥/ ٢٥١، ٢٥٧.

(١٠) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٥٨

(١١) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٢٢٩.
(١٢) مسلم بن عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم: تابعي، من ذوي الرأي والعلم والشجاعة. كان مقيما بمكة، وانتدبه الحسين بن علي ليتعرف له حال أهل الكوفة حين وردت عليه كتبهم يدعونه ويبايعون له. فرحل مسلم إلى الكوفة فأخذ بيعة ١٨٠٠٠ من أهلها وكتب للحسين بذلك، فشعر به عبيد الله بن زياد -أمير الكوفة-فطلبه، فمنعه الناس، ثم تفرقوا عنه، فقبض عليه ابن زياد وقتله. سنة٦٠هـ. الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٤/٣٠١-٣٠٤، الزركلي، **الأعلام**، ٧/ ٢٢٢.
(١٣) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٢٣٠، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٥٩ ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت: ٥٩٧هـ)، **المنتظم** في تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م، ٥/ ٣٢٥؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٥/ ٥.
(١٤) ابن الأثير، علي بن محمد (ت: ٦٣٠هـ)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م،٣/ ١٣٣.
(١٥) عبيد الله بن زياد بن أبيه: ولد بالبصرة، وولاه معاوية خراسان سنة ٥٣ هـ، ثم ولاه البصرة سنة ٥٥ هـ، وأقرّه يزيد على إمارته سنة ٦٠ هـ، فكانت الفاجعة بمقتل الحسين رضي الله عنه في أيامه وعلى يده، قتله إبراهيم بن الأشتر، في "خازر" من أرض الموصل، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٣/ ٥٤٥، الزركلي، **الأعلام**، ٤/ ١٩٣
(١٦) هانئ بن عروة بن الفضفاض المرادي، سكن الكوفة، وكان من خواص عليّ، ولما بايع أهل الكوفة مسلّم بن عقيل نزل عليه، قتله ابن زياد سنة ٦٠هـ، وهو ابن بضع وتسعين سنة، ابن حجر، أحمد بن علي (ت: ٨٥٢هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ،٦/ ٤٤٥
(١٧) ابن سعد، **الطبقات**، ٤/ ٤٢.
(١٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣ /١٣٣
(١٩) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٣٦٩.
(٢٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٣٦٤.
(٢١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٣٦٤.
(٢٢) ابن مسكويه، أحمد بن محمد (ت: ٤٢١هـ)، **تجارب الأمم وتعاقب الهمم**، أبو القاسم إمامي، سروش، طهران، ط٢، ٢٠٠٠ م،٢/ ٤٠.
(٢٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٣٦٩.
(٢٤) الدينوري، **الأخبار الطوال**،٢٣١، ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت: ٧٧٤هـ)، **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، ٨/ ١٦٣.
(٢٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٣٦٨.
(٢٦) محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، أبو القاسم: قائد. من أصحاب مصعب بن الزبير. شهد معه أكثر وقائعه. وكان على مقدمة جيش مصعب في حربه مع المختار الثقفي. وقتل في معركته ضد المختار، قبل مقتل المختار بأيام سنة (٦٧هـ/٦٨٧م)، الزركلي، **الأعلام**، ٦/ ٣٩
(٢٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٣٦٧.
(٢٨) الأصبهاني: علي بن الحسين (ت: ٣٥٦هـ)، **مقاتل الطالبيين**، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعرفة، بيروت، ١٠٤.
(٢٩) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٨/ ١٦٧.
(٣٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٣٦٩، الأصبهاني: مقاتل الطالبيين، ١٠٤.
(٣١) ابن مسكويه، تجارب الأمم،٢/ ٤٧؛ ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**،٣/ ١٤٠؛ ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٢٧/ ٦٠.
(٣٢) أرض من ضاحية الكوفة مشرفة على أرض السواد فيها كان مقتل الحسين رضي الله عنه فيها، وتعرف اليوم بكربلاء، الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت: ٦٢٦هـ)، **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٥ م، ٤/ ٣٦.
(٣٣) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٢٥٦
(٣٤) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٥/ ١٠
(٣٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ١٥٧
(٣٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٢٢
(٣٧) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٢٥٤
(٣٨) يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٨٣
(٣٩) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٩٣.
(٤٠) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٠٠، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٨٣، الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤١٧.
(٤١) يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٨٣
(٤٢) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٢٥٧، الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٣٦
(٤٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٤٩. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ١٨١
(٤٤) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** - متمم الصحابة - الطبقة الخامسة،١/ ٤٧٧
(٤٥) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٢٥٧
(٤٦) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٢٥٨، العقيلي، عمر بن أحمد (ت: ٦٦٠هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر، ٦/ ٢٦٢٩
(٤٧) ابن سعد، **الطبقات الكبرى** -متمم الصحابة - الطبقة الخامسة، ١/ ٤٧٥، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٨/ ٢٠٦.
(٤٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٥/ ٣٤١.
(٤٩) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ٢٠٤الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٥٣.
(٥٠) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٦/ ٤٠٩، ابن عبدالملك، عبد الملك بن حسين (ت: ١١١١هـ)، **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود-علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م،٣/ ٢٣٤
(٥١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ٢٠٤
(٥٢) الصَّلاَّبي، علي محمد، **الدولَة الأمويَّة عَوامِلُ الازدهار وتَداعيات الانهيار**، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط٢، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م، ١/ ٤٧٩
(٥٣) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٨/ ٣٠٠.
(٥٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٠٥
(٥٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٣٤، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ١٧٤
(٥٦) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٧٢
(٥٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/ ١٩٩
(٥٨) الصلابي، **الدولة الأموية**، ١/ ٥٢٢ نقلاً عن: مواقف المعارضة.

(٥٩) هي حرة واقم: إحدى حرّتي المدينة، وهي الشرقية، سميت برجل من العماليق اسمه واقم، وكان قد نزلها في الدهر الأول، وقيل: واقم اسم أطم من آطام المدينة إليه تضاف الحرة، الحموي، **معجم البلدان**،٢/ ٢٤٩.

(٦٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٠٠؛ خفاجي، محمد عبد المنعم، الأدب العربي وتاريخه في العصرين الأموي والعباسي، دار الجيل، بيروت، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م،٤٠.

(٦١) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٦/ ١٢- ١٤، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٨/ ٢٣٨.

(٦٢) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٥/ ٢٥.

(٦٣) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٦/ ١٤.

(٦٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٨/ ٢٤٠.

(٦٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٩٠.

(٦٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٩٠، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ٢١٦.

(٦٧) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٦/ ٢٦٢.

(٦٨) ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٧/ ١٩٠.

(٦٩) ابن عساكر، علي بن الحسن (ت: ٥٧١هـ)، **تاريخ دمشق**، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م، ١٤/ ٣٨٨.

(٧٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ٢١٥.

(٧١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٤٩٠.

(٧٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٥/ ٣٤٨.

(٧٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٥/ ٣٠٤.

(٧٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٥/ ٣٠٨.

(٧٥) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٥/ ٣٠٩.

(٧٦) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٥/ ٣٠٨.

(٧٧) خليفة بن خياط العصفري الليثي (ت، ٢٤٠هـ/٨٥٥م)، **التاريخ**، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق- بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ، ٢٥٤.

(٧٨) ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٧/ ١٩١.

(٧٩) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٦/ ٢٥٩، الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**،٥/ ٥٣٤.

(٨٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**،٥/ ٥٣٠، خماش، نجدة خماش، **الشام في صدر الإسلام، من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية**، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة دمشق،١٩٨٤م،١١٦.

(٨١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**،٥/ ٥٣٤، يُنظر خماش، **الشام في صدر الإسلام**،١١٧.

(٨٢) الحلبي، علي بن إبراهيم (ت: ١٠٤٤هـ)، **السيرة الحلبية**، دار الكتب العلمية - بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ، ١/ ٢٤٤.

(٨٣) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٦/ ٢٣، الحلبي، **السيرة الحلبية**،١/ ٢٤٤.

(٨٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٨/ ٢٤٨.

(٨٥) خماش، **الشام في صدر الإسلام**،١١٦

(٨٦) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٥/ ٣٤٨.

(٨٧) فروخ، **تاريخ صدر الإسلام**، ١٤٤.

(٨٨) ابن الجوزي، **المنتظم**، ٦/ ١٢٤.

(٨٩) الكندي، **الولاة والقضاة**، ٤٠.

(٩٠) ابن يونس، **فتوح مصر**، ٢٦٤.

(٩١) الكندي، **الولاة والقضاة**،٤١.

(٩٢) مولى بني أندى بن عديّ من تُجيب، فهو الذي قتل ابن الزُّبير، ففُرِض له في الشرَف وعُرِّف على موالي تُجيب، الكندي، **الولاة والقضاة**، ٤١.

(٩٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**،٥/ ٥٥٢، الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٥/ ٤٦.

(٩٤) رفاعة بن شداد البجلي: قارئ، من شجعان أهل الكوفة من شيعة علي. ولما قتل الحسين، وخرج المختار يطالب بدمه انحاز إليه رفاعة، ولما نشبت الحرب بين أهل الكوفة والمختار كان رفاعة في صفوف مقاتليه وأبلى بلاء عجيباً إلى أن صاح أحد الكوفيين: يا لثارات عثمان، فغضب رفاعة وقال: لا أقاتل مع قوم يبغون دم عثمان. وعاد عنهم، فقاتل مع المختار حتى قتل، الرازي، **الجرح والتعديل**، ٣/ ٤٩٣، الزركلي، **الأعلام**، ٢٩/٣.

(٩٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ٣٠٦.

(٩٦) يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٥/ ٢٧٢.

(٩٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٥٥٢، ابن عساكر، تاريخ دمشق،٣٧/ ٤٥٨.

(٩٨) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٥٨٥.

(٩٩) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٥٩٨.

(١٠٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٦٠٤.

(١٠١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٦٠٠، ٦٠١

(١٠٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٦٠٣، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ٢٦٩.

(١٠٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٦٠٥.

(١٠٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ٣٠٦، الذهبي، **تاريخ الإسلام**، حاشية،٢٢٧/٥.

(١٠٥) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٦/ ٤٠١.

(١٠٦) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٣/ ٣٠٦.

(١٠٧) إبراهيم بن مالك الأشتر بن الحارث النخعي: قائد شجاع، من أصحاب مصعب بن الزبير. شهد معه الوقائع وولي له الولايات وقاد جيوشه في مواطن الشدة. كان مصعب يعتمد عليه ويثق به، وآخر ما وجهه فيه حرب عبد الملك بن مروان بمسكن فقتل ابن الأشتر فيها سنة (٧٢هـ/ ٦٩٢م)، ودفن بقرب سامراء، الصفدي، **الوافي بالوفيات**،٦/ ٦٥، الزركلي، **الأعلام**، ١/ ٥٨.

(١٠٨) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٥/ ٥٩.

(١٠٩) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٤٠٩/٦.

(١١٠) الكلبي، هشام بن محمد (٢٠٤هـ) نسب معد واليمن الكبير، تحقيق: ناجي حسن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م،١/ ٣٤١.

(١١١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٥/ ٥٩.

(١١٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٦/ ٤٤١.

(١١٣) الزركلي، **الأعلام**، ٣/ ١٥٩.

(١١٤) ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٧/ ١٩٢، الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٥٧/٥.

(١١٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٥/ ٢٦٣.

(١١٦) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٦/ ٤٢٨.

(١١٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٦/ ٤٠١.

(١١٨) المذار: بلدة بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط، الحموي، **معجم البلدان**، ٨٨/٥.

(١١٩) خليفة بن خياط، التاريخ، ٢٦٤، الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ١٥٩/٥.

(١٢٠) البلاذري، **أنساب الأشراف**،٦/ ٤٠١.

(١٢١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**،٥/ ٥٩، ٦٠.
(١٢٢) الذهبي، **تاريخ الإسلام**،٥/ ٦٠.
(١٢٣) شلبي، أحمد، الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية، موسوعة ال**تاريخ الإسلام**ي، مكتبة النهضة، القاهرة، ط٧، ص١٧٢، ١٧٣.
(١٢٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١١٢.
(١٢٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٥٥.
(١٢٦) خماش، **الشام في صدر الإسلام**، ١٣٧.
(١٢٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٧٠، ١٦٩، خماش، **الشام في صدر الإسلام**، ١٣٨
(١٢٨) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٦٦.
(١٢٩) ابن الجوزي، **المنتظم**،٧/ ٢٠٩.
(١٣٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٠.
(١٣١) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨١، ابن الجوزي، **المنتظم**،٧/ ٢١١
(١٣٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٢.
(١٣٣) الأصبهاني: مقاتل الطالبيين، ١٣٣.
(١٣٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٦٦.
(١٣٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٦٦.
(١٣٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٢.
(١٣٧) الأصبهاني، مقاتل الطالبيين، ١٣٥.
(١٣٨) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٣-١٨٥
(١٣٩) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٦
(١٤٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٢
(١٤١) يُنظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٢.
(١٤٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٨٢.
(١٤٣) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (ت، ٢٧٦هـ)، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م،١/ ٣٦٦.الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٨/ ١٤.
(١٤٤) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٠٩-١١١، بانقا، أثر العصبية القبلية،٨٠.
(١٤٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٣٩.
(١٤٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٣٩.
(١٤٧) يُنظر: الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٤٨.
(١٤٨) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٤٨.
(١٤٩) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٦٩. الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٤٠، ٢٣٧، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠/ ١١.
(١٥٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٣٧.
(١٥١) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٩٠، ١٩١، الصلابي، الدولة الأموية، ٢/ ٤٩٦.
(١٥٢) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٩٠.
(١٥٣) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٣٧.
(١٥٤) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٤٨.
(١٥٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٣٧.
(١٥٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٦٧، الصلابي، الدولة الأموية، ٢/ ٤٩٦.
(١٥٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٠٩، الصلابي، **الدولة الأموية**، ٢/ ٤٩٦.
(١٥٨) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٤٠، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠/ ١١.
(١٥٩) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٤٠ – ٢٤٢، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠/ ١١.
(١٦٠) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠/ ١١.
(١٦١) يُنظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٤٢، ابن عساكر، تاريخ دمشق،١٨/ ١٤٥.
(١٦٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠/ ١١.
(١٦٣) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٨/ ١٩١. ابن منظور، **مختصر تاريخ دمشق**، ٧/ ١٨٧.
(١٦٤) الذهبي، محمد بن أحمد (ت: ٧٤٨هـ)، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ت: علي محمد البجاوي (بيروت – لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط١، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣ م)، ٣/ ٢٩٧، **تاريخ الإسلام**، ٨/ ١. ٩٧
(١٦٥) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ١٠/ ١١.
(١٦٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٤٣، ٢٤٩،٢٤٥،٢٤٤
(١٦٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٧٨، الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٤٦.
(١٦٨) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٥٠، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٧٩، ١٩٣، الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٤٧،٢٥٢، الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٨/ ١٧.
(١٦٩) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٩/ ١٩١، الصلابي، **الدولة الأموية**، ٢/ ٤٩٧.
(١٧٠) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٥٠، ٣٥١.
(١٧١) خليفة بن خياط، **التاريخ**، ٣٨٣.
(١٧٢) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٨٤
(١٧٣) جديع بن علي الأزدي المعنيّ: شيخ خراسان وفارسها في عصره، وأحد الدهاة الرؤساء. ولد بكرمان. وإليها نسبته، وأقام في خراسان إلى أن وليها نصر بن سيار، فاجتمع معه ثلاثة آلاف، فصالحه نصر، فأقام زمنا يؤلف الجموع سرا، ثم خرج من جرجان وتغلب على مرو، فقتله نصر بن سيار غيلة سنة (١٢٩هـ/٧٤٧م)، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٤/ ٣١٧، الزركلي، **الأعلام**٢/ ١١٤.
(١٧٤) نصر بن سيار بن رافع بن حرّي بن ربيعة الكناني: أمير، من الدهاة الشجعان. كان شيخ مضر بخراسان، ووالي بلخ. ثم ولي إمرة خراسان سنة (١٢٠ هـ/٧٣٨م) بعد وفاة أسد بن عبد الله القسري، وقويت الدعوة العباسية في أيامه، وتغلب أبو مسلم على خراسان، فخرج هاربا منه فمات بساوه سنة (١٣١هـ/٧٤٩م)، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٥/ ٤٦٣، ٤٦٤، الزركلي، **الأعلام**٨/ ٢٣.
(١٧٥) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ١٥٤، ٢٨٥- ٢٨٧.
(١٧٦) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٢٩٢.
(١٧٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٩٥، ٣١٠، ٣٣٩.
(١٧٨) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٥٥، خليفة بن خياط، التاريخ، ٣٨٣، يُنظر: الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٣٤٠،٣٣٥-٣٤٢، ٣٦٨
(١٧٩) الصلابي، **الدولة الأموية**، ٢/ ٥٥١.
(١٨٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٣٦٨.
(١٨١) عبد الرحمن بن مسلم، انتمى إلى الدعوة العباسية منذ مراحلها الأولى، ثم ظهر بمرو سنة تسع وعشرين ومائة، ونشر دعوة بني العبّاس، وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة استولى على إقليم خراسان، فكان مؤسس خلافة بني العبّاس، وقتله المنصور سنة سبع وثلاثين ومائة. بعد أن

أظهر العصيان. وكان رجلاً فاسقاً مذكوراً بفساد دينه. صاحب جماعة اتهموا بالزندقة. يُنظر: **الطبقات الكبرى** -متمم التابعين –، ٢٦٤، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٦/ ٤٨- ٧٤.

(١٨٢) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٥٥.

(١٨٣) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٥٧، ٣٦١.

(١٨٤) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨/ ١٦٣

(١٨٥) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٥٨، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٤/ ٣٦٦.

(١٨٦) ابن حبيب، المحبر، ٤٨٤، الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٦٢، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ٤/ ٣٦٤، ٣٦٥.

(١٨٧) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ٤/ ٣٦٥.

(١٨٨) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٤/ ١٣١، ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ) جمهرة أنساب العرب، لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤٠٣/١٩٨٣، ١/ ٣٨١، ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (ت: ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ٣/ ١٥٠، الصلابي، **الدولة الأموية**، ٢/ ٥٥٨

(١٨٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ٤/ ٣٩٣.

(١٩٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٤٣٤.

(١٩١) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٦٦.

(١٩٢) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٦٦.

(١٩٣) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٦٧.

(١٩٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٤١٧.

(١٩٥) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٦٨، الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٤١٧

(١٩٦) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٦٧.

(١٩٧) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٤١٨.

(١٩٨) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٥٨.

(١٩٩) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ٣٧٠.

(٢٠٠) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ٧/ ٤٢٨.

(٢٠١) بانقا، **أثر العصبية القبلية**،٢٦

(٢٠٢) الدوري، عبد العزيز، مقدمة في **تاريخ صدر الإسلام**، مطبعة المعارف، بغداد،١٩٤٩م، ٣٠.

(٢٠٣) بانقا، **أثر العصبية القبلية**، ٦٧.

(٢٠٤) خماش، **الشام في صدر الإسلام**،١٥٠

(٢٠٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**،٥/ ٣١، السيد، رضوان، **الجماعة والمجتمع والدولة سلطة الأيديولوجيا في الفكر العربي الإسلامي**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م، ١٠٤

(٢٠٦) خماش، **الشام في صدر الإسلام**، ١٨٢ نقلاً عن: المسعودي.

(٢٠٧) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبتة الأنصاري (ت: ١٨٢هـ)، **الخراج**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد، المكتبة الأزهرية للتراث، ٢٦

(٢٠٨) الماوردي، علي بن محمد (ت:٤٥٠هـ) **الأحكام السلطانية**، دار الحديث، القاهرة،٧٨

(٢٠٩) الصلابي، **الدولة الأموية**، ٢/٤١٠ نقلاً عن: الكامل لابن الأثير.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تعيين مَعْن بن زائدة واليًا على اليَمَن
الأسباب والنتائج (١٤٢ - ١٥٠هـ/٧٥٩ - ٧٦٧م)
دراسة للنصوص ضمن سياقها التاريخي

د.حسين صالح حسين العنسي

أستاذ مشارك التاريخ الإسلامي
رئيس قسم التاريخ والعلوم السياسية – كلية الآداب
جامعة ذمار – الجمهورية اليمنية



مُلَخّص

يتناول البحث بمنهجية علمية أسباب تعيين معن بن زائدة واليًا على اليمن، كما يتطرق إلى نتائج حكمه، وذلك من خلال وضع النصوص في سياقها التاريخي العام. وتكمن هنا أهمية البحث بأنه سيتفرد بدراسة مستقلة تتناول هذا الموضوع، وإن كانت ثمة إشارات ضمنية، أو تناولات جزئية في بعض الدراسات؛ لكنها لم تأتِ بالغاية الأساسية التي سيتناولها هذا البحث، والمتمثلة في معرفة طبيعة الأهداف التي أراد الخليفة المَنْصُور تحقيقها من وراء تكليف معن بن زائدة واليًا على اليمن عام (١٤٢هـ/٧٥٩م)، ومقارنة تلك الأهداف بنتائج حكمه لليمن، والتي استمرت حتى عام (١٥٠هـ/٧٦٧م)، وذلك وفق المتاح من المصادر الأصلية، من خلال مناقشة نصوصها وتحليلها ومقارنتها، مع العودة إلى خلفيات تلك الأحداث التاريخية بصورة تراتبية، وبما يتوافق مع سياقها التاريخي العام، والواقعي الذي انتجتها، دون الخوض في تفاصيل تاريخ حياة معن بجميع جوانبها. متبعًا في ذلك المنهج التاريخي الوصفي، القائم على التحليل والمقارنة والنقد والاستنتاج. ويتكون البحث من ثلاثة محاور: (المحور الأول: يتناول، كخلفية تاريخية نبذة مختصرة عن الخليفة المَنْصُور ومعن بن زائدة. المحور الثاني: يناقش أسباب تعيين معن بن زائدة واليًا على اليمن. المحور الثالث: نتائج حكم معن بن زائدة على اليمن). ولعل أهم نتيجة خرج بها البحث، وهي النتيجة العامة أن هدف الخليفة المَنْصُور من تعيين معن بن زائدة واليًا على اليمن هو إخضاع اليمنيين لسلطته، أينما حلوا سواء داخل اليمن، أم في الأمصار الإسلامية المختلفة التي سكنوها، وذلك بهدف ضمان عدم خروج الخلافة من يد العباسيين، لاسيما بعد أن انتصر اليمنيون على قرشية الخلافة في معركة (قديد)، وما تلي ذلك من دورهم الأساسي في إزالة الدولة الأموية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٥	أغسطس	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٣١	أغسطس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

الخليفة المَنْصُور؛ معن بن زائدة؛ اليمنيون؛ اليمن؛ قرشية الخلافة؛ ولاية اليمن.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.247287

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسين صالح حسين العنسي. "موقف اليمانيين من حركات المعارضة للدولة الأموية (٤١هـ -١٣٢هـ/٦٦١م -٧٥٠م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٨٧ – ١٠٤.

Corresponding author: hsynansy8@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

أصبح اليمن بعد دخول أهله الإسلام، جزاء من الدولة العربية الإسلامية، كولاية من ولاياتها، يحكم من قبل ولاة يعينون من عاصمة الدولة، حيث تعاقب على ولايته عدد كبير من الولاة منذُ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء من بعده، والدولتين الأموية والعباسية، لتعرف تلك الحقبة من تاريخ اليمن (بعصر الولاة)، فمن الولاة الذين كلفوا (مَعْن بن زائدة)، من قبل الخليفة العباسي الثاني الْمَنْصُور، والذي أراد بتعيينه واليًا على اليمن تحقيق عدة أهداف، الأمر الذي جعل اليمن تشهد أحداثًا سياسية وعسكرية كبيرة.

وثمة أسئلة إشكالية أثارها البحث، وحاول الإجابة عليها على نحو:

- كيف كانت أحوال اليمن قبل تعيين مَعْن واليًا عليها. ما أسباب اختيار مَعْن واليًا على اليمن؟ وما طبيعة الأهداف التي أراد الخليفة الْمَنْصُور تحقيقها من وراء تكليف مَعْن على رأس حملة عسكرية إلى اليمن؟ وهل تحققت تلك الأهداف؟ وغيرها من الأسئلة. وهذا البحث سيحاول الإجابة الموضوعية على تلك التساؤلات، من خلال النصوص التي تناولتها، والمدونة في كتب المؤرخين.

وتكمن هنا أهمية البحث بأنه سيتفرد بدراسة مستقلة تتناول هذا الموضوع، وإن كانت ثمة إشارات ضمنية، أو تناولات جزئية في بعض الدراسات منها: دراسة إيمان أحمد شمسان "اليمن في العصر العباسي الأول (١٣٢-٢٠٢هـ/٧٥٠-٨١٨م)، ط/١، ٢٠٠١م، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة"، لكنها لم تجب على تلك التساؤلات. كما يهدف البحث بشكل أساسي إلى عقد مقارنة بين أهداف تعيين معن بن زائدة واليًا على اليمن ونتائج حكمه، وفق المتاح من المصادر الأصلية، من خلال مناقشة نصوصها وتحليلها ومقارنتها، مع العودة إلى خلفيات تلك الأحداث التاريخية بصورة تراتبية، وبما يتوافق مع سياقها التاريخي العام، والوقعي الذي انتجتها، دون الخوض في تفاصيل تاريخ حياة معن بجميع جوانبها. متبعًا في ذلك المنهج التاريخي الوصفي، القائم على التحليل والمقارنة والنقد والاستنتاج.

ويحتوي البحث ثلاثة محاور رئيسة قسمت على النحو الآتي: **الأول**: خلفية تاريخية مختصرة عن الخليفة الْمَنْصُور ومَعْن بن زائدة. **والثاني**: يناقش أسباب تعيين مَعْن بن زائدة واليًا على اليمن. **والثالث**: الوقوف على نتائج حكم مَعْن بن زائدة لليمن. وانتهى البحث بخاتمة اشتملت على أهم الاستنتاجات التي خلص إليها.

أولاً: خلفية تاريخية مختصرة عن الخليفة الْمَنْصُور ومَعْن بن زائدة

١/١-الخليفة الْمَنْصُور

هو الخليفة أبو جعفر الْمَنْصُور، ثاني الخلفاء العباسيين، وأمكرهم وأدهاهم بلا منازع، وأكثرهم فتكًا بخصومه والمقربين إليه على حد سواء، ولهذا تعد شخصيته من الشخصيات المتناقضة التي تميزت بحنكة وفراسة سياسية جعلته بالفعل المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ومثبت مداميكها[١]. تولى الخلافة بعد وفاة أخيه أبي العباس الملقب بـ(السفاح) سنة (١٣٨هـ/٧٥٥م)، وكان مدركًا أن أركان الدولة لم تكن ثابتة بَعْد، فهناك مخاطر كثيرة لا تزال تهدد زوال ملكه منها: قوة عمه عبد الله بن علي وطلب الخلافة لنفسه[٢]. وأبو مسلم الخرساني ونفوذه الكبير في الدولة[٣]، وبنو عمومته من العلويين الباحثين عن الخلافة والإمامة يرأسهم محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية)[٤]. وحركة الخوارج الرافضة لمبدأ الإمامة في قُرِيْش[٥]، والتمردات والتكتلات القبلية التي كانت تَشُب نارها بين الفينة والأخرى.

والخليفة تعامل مع تلك الأخطار بشتى الطرائق والوسائل المشروعة وغير المشروعة، فكانت غايته تثبيت أركان مملكته واستقرارها؛ بأي وسيلة كانت، بغض النظر لأي اعتبارات أخلاقية، أو غير أخلاقية، فـ: الدهاء، والقُوة، والشِّدَّة، والْقَتْل، والتشريد، والمكر، والْخِداع، والغدر، ونقض العهود والمواثيق، كانت كلها من سمات نهجه؛ طالما وأن ذلك سيمكنه من القضاء على تلك المخاطر، وإزالتها من أمامه لتثبت سلطته على جميع أراضي مملكته؛ لهذا النهج الذي اتخذه تمكن من إزالة تلك الأخطار الواحد تلو الآخر حتى أزالها جميعًا[٦]. ومما سهل على الخليفة الْمَنْصُور إنجاز ذلك؛ أولئك القادة والولاة الذي كان يختارهم بعناية متناهية، فينتقي الأشخاص انتقاءً، بعد اصطفائهم، وترويضهم، وفحص نواياهم، وبما يجعلهم أمر طوعه، يضرب بهم أعداؤه ومنافسيه وخصومه، فبهم تمكن من إذلال ما كان صعب أمامه، وسوى ما كان معوجًا وخارجًا عن طاعته، وخير دليل على ذلك أن من أحد ولاته (مَعْن بن زائدة) الذي عينه واليًا على اليمن. وهذا ما سيتناوله البحث تباعًا.

٢/١-مَعْن بن زائدة

هو أبو الوليد، مَعْن بن زائدة بن عبد الله بن مطر بن شريك يتصل نسبه إلى بني شيبان من قبيلة رَبِيعَة العدنانية، والتي كانت مساكنها ما بين البحرين والعراق[٧]. ويُعدُّ مَعْن من أشهر

أجواد العرب في العطاء والكرم، وواحدًا من الأبطال الشجعان الفصحاء، أدرك العصرين الأموي والعباسي، فنال كرم بني أمية، نتيجة وقوفه إلى جانبهم ضد العباسيين، واستمر معهم يناصرهم حتى انهارت دولتهم، لتقوم على أنقاضها الدولة العباسية[٨].

ونتيجة لتحيز مَعْن اتخذ العباسيون منه موقفًا معاديًا، وصاروا يبحثون عنه في كل مكان؛ لكنه ظل متسترًا عنهم هائمًا في الأرض، فلما استقام الأمر للخليفة الْمَنْصُور، رأى مَعْن أن من حسن السياسة أن ينضم إليه؛ لكنه تمهل حتى تحين له الفرصة المناسبة، فأتته تلك الفرصة (يوم الهاشمية)[٩]، إذ ثار فيه جماعة من أهل خراسان على الخليفة الْمَنْصُور سنة١٤١هـ/٧٥٨م، فحاصروا قصره بهدف قتله، فجرت معركة بينهما، وكان مَعْن متواريًا بالقرب منها، فخرج متنكرًا ملثمًا للقتال إلى جانب الخليفة، حيث قاتل قتالاً فيه نجدة وشهامة حتى هزمهم، ونتيجة لهذا الموقف الشجاع الذي أثبته؛ منحه الخليفة الْمَنْصُور الأمان، وعفا عنه وأكرمه، وصار بعد ذلك من كبار قادته، ومستشاريه المخلصين[١٠].

يتضح جليًا، أن مَعْن أوقف نفسه لخدمة الخليفة الْمَنْصُور، وسخر قوّته وحكمته في توطيد أركان مملكته، وحراستها، وحماية سلطانها من كلّ ما يضعفها، أو ينال من هيبتها، ولهذا كان جنديًا مستميتًا في سبيل المحافظة عليها من أي عصابة، أو جماعة، أو حركة خارجة عن سلطتها.

ولكرم مَعْن وجوده مدحه كبار شعراء عصره، فجاد عليهم بالعطايا والأموال. وتم اغتياله سنة ١٥١هـ٧٦٨م ثأرًا[١١].

ثانيًا: أسباب تعيين مَعْن واليًا على اليَمَن

٢/١-الأسباب كما جاءت لدى المؤرخين

سوف يُثبت في هذه المساحة نصوص المؤرخين التي تتحدث عن أسباب اختيار مَعْن واليًا على اليَمَن، ليتسنى بعد ذلك تحليلها ومقارنتها، بهدف استنباط الأسباب والأهداف، وهي على النحو الآتي:

(٢/١) ١-رواية الطبري

رواية الطبري المتوفي سنة (٣١٠هـ/٩٢٢م)[١٢] وعلى لسان عن معن بن زائدة قال فيها: (فدخلت على الْمَنْصُور ذات يوم ...فسلمت عليه وخرجت، فلما صرت عند السِّتْر صاح بي: يا مَعْن، صيحة أنكرتها! فقلت: لبيك يا أمير المؤمنين! ... فقال: يا مَعْن، إن لي باليَمَن هَنَات، قلت: يا أمير المؤمنين ليس لمكتوم رأي... فقال لي: إن صاحب اليَمَن قد هم بمعصيتي، وإني أريد أن آخذه أسيرًا، ولا يفوتني شيء من ماله، فما ترى؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ولني اليَمَن، وأظهر أنك ضممتني إليه. ومر الرَّبيع[١٣] يزيح علي في كل ما أحتاج إليه، ويخرجني من يومي هذا، لئلا ينتشر الخبر، قال: فأستل عهدًا من بين فراشين، فوقع فيه اسمي وناولنيه، ثم دعا الربيع، فقال: يا ربيع، إنا قد ضممنا مَعْنًا إلى صاحب اليَمَن، فأزح علته فيما يحتاج إليه من الكراع والسلاح[١٤]، ولا يمسي إلا وهو راحل. ثم قال: ودعني، فودعته...، فخرجت إلى اليَمَن، فأتيت الرجل، فأخذته أسيرًا، وقرأت عليه العهد، وقعدت في مجلسه).

(٢/١) ٢-رواية أخرى للطبري

يقول الطبري: على لسان الخليفة: (أيظن أن أمير المؤمنين لا يغفر ذنبه (أي مَعْن بن زائده) بعد ما كان من بلائه، أعطه الأمان، وأدخله علي، فأدخله، فأمر له بعشرة آلاف درهم، وولاه اليَمَن)[١٥].

(٢/١) ٣-رواية الزبير بن بكار

يقول الزبير بن بكار المتوفي سنة (٢٥٦هـ/٨٧٠م)[١٦] على لسان معن بن زائدة: (قال: كنّا في مجلس ننتظر الإذنَ فيه على الْمَنْصُور، فتذاكرنا الحجّاج، فمنّا من حمده ومنّا مَنْ ذمّه، فكان ممّن حمده مَعْن بن زائدة، وممّن ذمّه الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، وأُذن لنا، فدخلنا على أبي جعفر، فابتدأ الحسن بن زيد فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت أحسبني أبقى حتى يذكر الحجّاج في دارك وعلى بساطك، فيثنى عليه. فقال أبو جعفر: وما تنكر من ذلك؟ رجلٌ استكفاه قومه فكفاهم، والله لوددت أني وجدت مثل الحجّاج حتى استكفيه أمري، وأنزل الحرمين حتى يأتيني أجلي، قال: فقال له مَعْن بن زائدة: يا أمير المؤمنين إن لك مثل الحجّاج عددًا من أصحابك، لو استكفيتهم كفوك. قال: ومن هم؟ كأنّك تريد نفسك؟ قال: وإن أردتُها فَمَهْ؟ قال: كلاّ لست هناك، إن الحجّاج ائتمنه القوم فأدّى إليهم الأمانة، وائتمنّاك فختنتنا!)[١٧].

(٢/١) ٤-رواية الأزدي

يقول الأزدي المتوفي سنة (٣٣٤هـ/٩٤٦م)[١٨]: (عن السّري بن عبد الله الهاشمي[١٩] قال: إني لمع أبي جعفر بمكة في حجة حجها بعد بناية بغداد[٢٠]، وأهل اليَمَن يشكون مَعْن بن زائدة، فقلت له: يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنينَ غلامٌ من غلْمَان بني شَيبَان، والله ماله عندك يد فتكافئه عليها، ولا قرابة فتصله بها، ولا رحم عليه، فبسر في وجهي بسرة لو أمكني الدخول في الأرض لفعلت، قال: ثم تواريت عن وجهه أيامًا، ثم جئت فقال: ما غيبك عني؟ فأعتللت بما يعتل به الناس، ثم قال لي: فما فعل رجل كان يصلي عن يمين منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقلت:

ذاك أمية بن عمر بن عثمان بن عفان، قال: فما فعل؟ قلت: قتل يوم قُدَيْد، قال: فما فعل آخر كان يصلي قريبا منه؟ قلت: ذاك فلان بن فلان، قال: فما فعل؟ قلت: قتل يوم قُدَيْد، قال: فو الله ما زال يقترع المجالس ويقترع أسواقها، فأقول: إذ سألني قتل فيقول: متى؟ فأقول يوم قُدَيْد، فلما أكثر علي من ذلك وأكثرت عليه، قال: لا كثر الله في عشيرتك مثلك، بالله أنك عجزت عن ثأرك أن تطلبه حتى قام به هذا الْغُلَام الشَّيْبَانِيّ، وأنت تنفس عَلَيْهِ الرّفْعة، وما زال يؤنبني)[٢١].

(٢/١) ٥-رواية الأصفهاني

المتوفي (٣٥٦هـ/٩٦٧م)[٢٢] يقول: (عن مروان بن أبي حفصة... وكان رضاء الْمَنْصُور عن مَعْن، أنه لم يزل مستترًا... فلما وثب القوم على الْمَنْصُور وكادوا يقتلونه، وثب مَعْن ، وهو ملثم، فانتضى سيفه، وأبلى بلاء حسنًا، وذب القوم عنه حتى نجا... فقال له الْمَنْصُور: من أنت لله أبوك؟ قال: أنا طلبتُك يا أمير المؤمنين مَعْن بن زائدة، قال: قد أمنك الله على نفسك، ومالك، ومثلك يُصْطَنع، ثم أخذه معه، وخلع عليه وحباه وزينه، ثم دعا به يومًا وقال له: إني قد أملتك لأمر، فكيف تكون فيه؟ قال: كما يحب أمير المؤمنين، قال: قد وليتك اليَمَن، فابسط السيف فيهم حتى يُنْقَض حلف رَبِيعَة واليَمَن، قال: أَبْلُغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين، فولاه اليَمَن، وتوجه إليه، فبسط السيفَ فيهم حتى أسرف).

(٢/١) ٦-رواية اليعقوبي

المتوفي سنة (٢٩٢هـ/٩٠٥م) في أحداث سنة (١٤٢هـ/٧٦٠م)[٢٣] يقول: (وخرج أبو جعفر في هذه السنة إلى البصرة يريد الحج... فأتاه الخبر بأن أهل اليَمَن قد أظهروا المعصية، وأن عبد الله بن الربيع والي اليَمَن قد هرب ممن وثب عليه وضعف،... فوجه بمَعْن بن زائدة الشيباني إلى اليَمَن ... ولم يحج).

٢/٢-مناقشة الأسباب وتحليلها

من خلال تك النصوص – السالفة الذكر- التي أوردها المؤرخون، يستخلص منها أسباب تعيين مَعْن واليًا على اليمن، فـ(الطبري) يرجع السبب إلى تمرد والي اليمن على الخليفة. وفي مكان آخر يذكر أن الخليفة منح ولاية اليمن لمَعْن مكافئة له. بينما (الزبير بن بكار) يعزوا ذلك إلى تنقيب الخليفة عن شخصية كشخصية الحجّاج، يخضع بها اضطرابات في دولته، أما (الأزدي) فيذكر أن الدافع هو الثأر لقُرَيْش من اليمنيين ليوم قُدَيْد، في حين يرى (الأصفهاني) أن السبب هو نقض الْحِلْف بين رَبِيعَة واليَمَن. أما (اليعقوبي) فيرجع السبب إلى فوران أهل اليمن وتمردهم.

وفي هذه المساحة سوف يتم مناقشة تلك النصوص، وفقًا لبعدها الزماني التراتبي، وسياقها التاريخي العام، مع بيان الظروف التي انتجت تلك الأحداث الواردة فيها وخلفياتها التاريخية، على النحو الآتي:

(٢/٢) ١-تمرد والي اليمن على الخليفة

وهذا السبب كما تبين أورده الطبري، وذلك بأن الخليفة استشار (مَعْن) بأن واليه على اليَمَن أعلن التمرد والعصيان، فأراد أسره، بحيث لا يفوته من ماله الذي جمعه من اليَمَن شيء، فأبدى مَعْن استعداده تنفيذ المهمة، إذ توجه إلى اليَمَن على رأس قوة عسكرية، فقبض على الوالي، وصادر أمواله، ليجلس بعد ذلك على كرسي الولاية ليدير شؤونها. ومن الملاحظ أن الطبري أنفرد بهذا السبب دون غيره من المؤرخين- على حد علم الباحث-وليس ذلك فحسب؛ بل إن المؤرخين الذي أتوا من بعده، ونقلوا عنه من كتابه كـ: الأزدي المتوفي سنة (٣٣٤هـ/٩٤٦م) والأصفهاني المتوفي سنة (٣٥٦هـ/٩٦٧م)، وابن الخطيب البغدادي المتوفي سنة (٤٦٣هـ/١٠٧١م) وابن الأثير المتوفي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، وابن خلكان المتوفي (٦٨١هـ/١٢٨٢م)، والذهبي المتوفي سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، لم يأخذوا برواية الطبري، وهذا كاف بأن الرواية ضعيفة وغير صحيحة.

كما أن المصادر التي سردت أسماء ولاة اليَمَن كـ: خليفة بن خياط المتوفي سنة (٢٤٠هـ/٨٥٥م) وابن جرير الصنعاني المتوفي في حدود سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، والحمزي المتوفي سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م)، والجندي المتوفي سنة (٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، والخزرجي المتوفي سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م)، لم تذكر أن أحد من ولاة اليمن خرج عن طاعة الخليفة الْمَنْصُور؛ على الرغم من أهمية هذا الحدث الذي لا يمكن إغفاله من قبل تلك المصادر التاريخية، أو السكوت عنه. والمطلع على أسماء ولاة اليَمَن في عهد أبو العباس السفاح والخليفة الْمَنْصُور، يجد جلهم من نسل بني الحارث بن كعب[٢٤]، وهم أخوال أبو العباس السفاح؛ كون أمه منهم؛ لهذا لا يمكن أن أحد من منهم سيعلن عصيانه عليهما، بل أنهم كانوا سندًا ودعمًا لسلطة بني العباس[٢٥].

يتبين مما سبق أن السبب الذي شمله نص الطبري عن تعيين مَعْن واليًا على اليَمَن من قبل الخليفة الْمَنْصُور؛ هو القضاء على تمرد واليه على اليَمَن، قد انفرد به دون غيره من المؤرخين؛ بل إن المؤرخين الذين نقلوا عنه أهملوا ذلك النص،

ولم يأخذوا به، كما أن المصادر التاريخية لم تذكر أن أحدًا من ولاة اليَمَن في عهد الخليفة الْمَنْصُور خرج عن سلطته، وهذا ما يجعل الباحث يميل إلى بطلان هذا السبب وعدم صحته.

(٢/٢) ٢-مكافئة لمَعْن

وهذا السبب ذكره الطبري أيضًا أن دافع تعيين مَعْن من قبل الخليفة الْمَنْصُور واليًا على اليمن، كان بمثابة المكافئة له، كونه من أنقذ حياة الخليفة، يوم (الهاشمية) ممن هجم عليه، فقاتلهم قتالاً شديدًا حتى هزمهم، فمنحه الخليفة الأمان، وكافئه بعشرة آلاف درهم، وولاه اليَمَن[٢٦]. ومن الملاحظ أن هذا السبب فيه شيء من الصحة؛ كونه جاء في سياق الأحداث التاريخية العامة، التي وقعت يوم الهاشمية عام (١٤١هـ/٧٥٩م)، فعقب هزيمة المحاصرين للخليفة من قبل مَعْن، تم تعيينه واليًا على اليَمَن، حيث وصل إليها في شهر ربيع الأول من سنة (١٤٢هـ/٧٦٠م) حسبما جاء في المصادر[٢٧]، كما أن هذا السبب أكد على صحته بعض المؤرخين[٢٨].

(٢/٢) ٣-إخضاع أهل اليمن

والذي أورده الزبير بن بكار، بأن الخليفة كان يبحث عن قائدٍ كالحجّاج بن يوسف الثقفي، يكلفه بضبط أمور مملكته، وقمع أي حركات مناوئة لحكمه، يقول الخليفة: (والله لوددت أني وجدت مثل الحجّاج حتى استكفيه، وأنزل الحرمين حتى يأتيني أجلي)[٢٩]، وإن كان في كلام الخليفة شيء من المبالغة، حينما ذكر أنه سوف يسلم له كل أمور مملكته، وينزل الحرمين للتعبد والصلاة حتى يأتيه أجله؛ إلا أن وحي كلامه يدل على أنه كان في أمس الحاجة لشخصية كشخصية الحجّاج، يستكفيه أمورًا مهمة فيكفيه، دون الحاجة لغيره؛ لاسيما وأن هناك بعض الولايات كان يكثر فيها التمرد والخروج عليه مثل (اليمن)، وتحتاج إلى شخصية كشخصية الحجّاج.

ومن خلال بعض نصوص المؤرخين يتبين أن الخليفة أراد أن يصنع له حجاجًا في عصره مثيلاً بالحجّاج بن يوسف الثقفي، حجاجًا يكون ولاؤه الخالص له ولدولته، يمتشق السيف سبيلاً لتنفيذ سياسته، ويحمل الناس على منهاجه وخططه، يؤدب المعارضين له بأشد أنواع العقاب، بما فيها القتل والتشريد، ولهذا نجده يقول لمَعْن بن زائدة (ومثلك يُصْطنع)[٣٠]، أي من الاصطفاء والاختيار لأمر مهم، واصطنعه له اصطناعًا، قدم له معروف وأسداه له، بمَعْنى أن مَعْن قدم معروفًا للخليفة، وأسداه له حينما أنقذ حياته (يوم الهاشمية)، فكافئه الخليفة بالعفو والصفح عنه من أعماله العدائية، أثناء مناصرته لبني أميه ضد قيام دولة بني العباس.

ويرجح أن غاية الخليفة من كلمة (ومثلك يُصْطنع)، أي ومثلك يختار لأمر مهم؛ لكن قبل أن يولي مَعْنًا أمرًا مهمًا من أمور دولته؛ لابد من اختبار نواياه وتمحيصها؛ خصوصًا وأن ولائه الخالص كان للأمويين، فضلاً عن تهيئته وأعداده لهذه المهام الجسيمة.

لهذا ظل الخليفة يستخدم مع مَعْن نوعًا من الترهيب والترغيب، يتضح ذلك من قول الخليفة له: (إن الحجّاج ائتمنه القوم، فأدّى إليهم الأمانة، وائتمنّاك فخنتنا!)[٣١]، أي أن الحجّاج كان أمينًا على ما أوكل إليه، ولهذا أدى الأمانة، أما أنت يا مَعْن فقد ائتمناك فغدرت بنا، ووقفت إلى جانب أعدائنا، فكيف سنوكل إليك أمورًا جسيمة قد تكيد فيها وتغدر.

وبعد أن تأكد الخليفة من صدق نوايا مَعْن وإخلاصه الكامل له، قال لمَعْن: (إني قد أملتك لأمر)[٣٢]؛ أي يا مَعْن تأمل الأمر الذي سأكلفك به، ويجب أن لا تخيب أملي فيما سأكلفك فيه، ثم سأل الخليفة مَعْن بقوله: (كيف تكون فيه)[٣٣]، وإيمانٌ وإخلاص ووفاء للخليفة قال: (كما يحب أمير المؤمنين)[٣٤]، أي سأعمل وفقًا لمشيئتك وتوجهاتك بعزيمة صادقة.

ولا يستبعد رغبة مَعْن في التشبه بالحجّاج وإعجابه بشخصيته، فعندما تذاكروا سيرته في حضرة الخليفة، فمنّهم من حمده ومنّهم مَنْ ذمّه، (فكان ممّن حمده مَعْن بن زائدة)[٣٥]، وهذا ما دفع مَعْن إلى الظهور والتمثل بشخصية الحجّاج؛ بدليل رده على الخليفة بقوله: (يا أمير المؤمنين إن لك مثل الحجّاج عددًا من أصحابك، لو استكفيتهم كفوك. قال: ومن هم؟ كأنّك تريد نفسك؟ قال: وإن أردتها فمه؟)[٣٦].

إن تلك النصوص التاريخية السالفة الذكر تبرهن الرغبة المشتركة بين الخليفة من جهة، ومَعْن من جهة أخرى، فالأول يريد قائدًا كالحجّاج يمتشق السيف سبيلاً إلى تنفيذ سياسته، وتأديب المعارضين له بأشد أنواع العقاب حفظًا لمملكته. بينما مَعْن يريد التشبه بإخلاص الحجّاج وولائه وحزمه وشدته وقوة بأسه، فالتقت الرغبة بين الطرفين، ولهذا كانت أول مهام يكلف الخليفة بها مَعْن استعادة ولاية اليَمَن التي أزعجته بكثرة عصيانها وتمردها، مع القضاء على مراكز تجمع الخوارج فيها[٣٧].

ونختم الحديث عن تحليل هذا السبب بما قاله: مجاعة بن الأزهر للخليفة الْمَنْصُور، حينما وفد عليه من اليَمَن إلى بغداد، يشفع لمَعْن من تبذيره للمال: (يا أمير المؤمنين، مَعْن بن زائدة عبدُك، وسيْفُك، وسهْمُك، رميت به عدوّك، فضرب وطعن ورمى، حتى سهُل ما حزن، وذل ما صعب، واستوى ما كان معوجًا من اليَمَن، فأصبحوا من خول أمير المؤمنين، فإن كان في

نفس أمير المؤمنين هَنَة من ساعٍ، أو واشٍ، فأمير المؤمنين أولى بالفضل على عبده، ومن أفنى عمره في طاعته. فقبل عذره)[٣٨].

(٢/٢) ٤-الثأر لقتلى قُرِيْش في معركة قُدَيْد

والذي أشار إليه الأزدي أن سبب تعين مَعْن واليًا على اليَمَن من قبل الخليفة، هو (الانتقام والثأر) من اليَمَنيين على ما اقترفوه من مجزرة، بحق أشراف قُرِيْش وساداتها في معركة (قُدَيد). ولمناقشة هذا النص مناقشة موضوعية؛ لابد من وضعه في إطاره الزمني، وسياقه التاريخي العام، من خلال تناول خلفيات الأحداث التي أفرزت وقائع معركة (قديد)، من خلال العودة إلى خلفية الصراع بين اليَمن وقُرِيْش، وتحديد طبيعة ذلك الصراع.

ويرجع علماء الأنساب أن أصل العرب قحطان وعدنان، و(قحطان) جد عرب الجنوب اليَمَنيون. و(عدنان) جد عرب الشمال (معد)، ومن معد نزار، ومن نزار: مُضَر، ورَبِيعَة، وإياد، وأنمار، ومن مُضَر قُرِيْش التي ينسب إليها الرسول صلى الله عليه وسلم[٣٩].

وقبائل قحطان اليَمَن اعتنقت الدين الإسلامي جميعها إما رغبة، وإما رهبة، وصارت اليَمَن ولاية تابعة للمدينة[٤٠]، وكان اليَمَنيون يأملون أن يكون لهم السلطة من بعد الرسول (ص)، بحكم إرثهم التاريخي في الملك، بدليل إفصاح وفد (كِنْدة) إلى المدينة على رأسه الأشعث بن قيس الكندي للرسول (ص) ومحاورته عن مكانتهم السياسية كملوك[٤١]. وكذلك موقف الأنصار (الأوس والخزرج) مع المهاجرين (قُرِيْش) في سقيفة بني ساعدة، وإصرارهم على أحقيتهم بتولي الأمر من بعد الرسول؛ لكن قُرِيْش القبيلة تغلبت على الأمر وصارت وريثة الحكم من بعده دون سواها[٤٢].

ومن هنا انتصرت قُرِيْش القبيلة على اليَمَن، فأدى ذلك إلى تململ في أوساط اليَمَنيين، كان أحد مظاهره، ما عرف بـ(حركة الردة في اليمن) التي تزعمها: عَبْهَلَة بْنِ كَعْب العنسي، وقيس بن مكشوح المرادي، والأشعث بن قيس الكندي، وعمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدِي؛ برفضهم سلطة قُرِيْش؛ لكن قُرِيْش القبيلة، وقفت موقفًا متشددًا ضد المرتدين، واستطاعت التغلب على حركة زعماء (الردة) في اليَمَن بقوة السلاح، لتحكم بعد ذلك البلدان اليَمَنية بمنطق الغلبة والقوة[٤٣].

ولإيمان اليَمَنيين بوحدة أصول الاعتقاد الديني المجمع عليه، اندمجوا في المجتمع الإسلامي، الذي تحكمه قُرِيْش، من خلال مشاركتهم في الفتوحات الإسلامية؛ لكنهم في الوقت نفسه كانوا يبحثون عن (ذاتهم ووجودهم)، وهذا ما دفعهم بأن يلعبوا دورًا فعالاً في (الفتنة) التي نشبت في أوساط قبيلة قُرِيْش على الحكم، بين الفرع الهاشمي والفرع الأموي، وما كان دور عبد الله بن سبأ، وعبد الرحمن بن ملجم المرادي، وغيرهم من اليَمَنيين في هذه الفتنة إلى دليلاً على ذلك[٤٤].

ولعل زعامة قُرِيْش تنبهت لخطورة نفوذ اليمنيين ومحاولتهم انتزاع سلطة الخلافة من أيديهم، خصوصًا بعد أن بدأ يتسرب حديث (القحطاني)، الذي سيظهر ويملك البلاد، وهذا مالا ينسجم مع (نظرية قرشية الخلافة)، مما حدى بمعاوية بن أبي سفيان إلى حصرها في قُرِيْش بـــ(حديث الأئمة من قُرِيْش)، بهدف صرف التفكير في إمكانية أن يكون لغير قُرِيْش حظ في الخلافة، وبالتالي تحويل الأمر الواقع، والنظرية السياسية القبلية إلى شِرْعَة دينية، وظفت لها نصوصًا دينية، وجعلت الخروج عن سلطتها يعني الخروج عن الدين، كون الدولة والدين صارتا شيئًا واحدًا[٤٥].

وبعد أن حصرت الخلافة في قُرِيْش حاول اليَمَنيون أن يجدوا لهم مكانة في السلطة القرشية، إذ أضحت قبيلة (كَلْب اليَمَنية)[٤٦] بعد مصاهرتها لمعاوية بن أبي سفيان مشاركة في القيادة والحكم، كما صار لها دورٌ بارزٌ في تعيين خلفاء بني أمية، حال انتقال الحكم من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني، كل ذلك على حساب نفوذ قُرِيْش وتسلطها، وما معركة (مَرْجَ رَاهِطٍ) التي حدثت سنة (٦٤هـ/٦٨٤م)، إلا معركة خالصة بين اليَمَانية والقرشية، والتي انتصرت فيها اليَمَانية ونجحت في تثبيت السلطة في الفرع المروان[٤٧].

لكن مشاركة اليمانيين في السلطة كانت مقيدة بقرشية الخلافة، الذي أضحت حقًا دينيًا لقُرِيْش دون غيرها؛ ولهذا تحول اليمنيون إلى مهزومين وبائسين، بدليل أنه تولد لديهم فكرة ظهور (المنقذ، المخلص، المهدي، القحطاني، منصور حمير، الأصفر القحطاني)، كي يخلصهم من الفئة المنتصرة عليهم (قُرِيْش)، ويعيد لهم ملك أجدادهم (التَّبَابِعَة) وأمجادهم[٤٨].

ظلت قُرِيْش المتعالية متسلطة ومستأثرة بالحكم دون غيرها، وهذا ما عزز الخصام بينها وبين اليَمَنيين، فاستدعيت العصبية بكل صورها، لينقسم المجتمع المسلم إلى معسكرين، معسكر تمثله (اليمانية)، وآخر تمثله (المُضَرية) بزعامة قُرِيْش، فتوتر الصراع بينهما لينحا منحنًا تاريخيًا وأدبيًا وحضاريًا، فصار كل فريق يبحث عن أنسابه وأمجاده وحضارته ومكانته بين الأمم، أنتج هذا التنافس حركة نشطة في تأليف كتب

(الأنساب)، وظهور شعراء من كلا الطرفين، كل طرف يتغنى بأمجاده وتاريخه وأنسابه، معريًا الطرف الآخر ومتهكمًا عليه[٤٩].

وفي مقام آخر، كانت هناك حركة يمنية أخرى، وجدت من فكر الخوارج السياسي بارقة أمل للتمرد والخروج عن قرشية الخلافة وتسلطها، خصوصًا وأن فكر الخوارج يرفض فكرة الأئمة من قُرِيْش، وأن الخليفة يختار من قبل المسلمين سواءً قرشيًا كان أم غير قرشي عربيٍّ أو غير عربيٍّ، وسبيلهم لهذا الاختيار الشورى بين المسلمين، ولهذا ألتحق عدد من اليَمَنيين بحركة الخوارج، وصاروا يتزعمون هذا الفكر وينشرونه؛ بل أسند الخوارج الخلافة إلى رجل يمني هو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي في العراق، كما انتشرت أفكار الخوارج في اليَمَن[٥٠].

من ذلك يتبين أن اليَمَنيين طوال القرن الأول الهجري حتى معركة قُدَيْد سنة (١٣٠هـ/٧٤٨م) ظلوا يميلون إلى الخروج عن سلطة قرشية الخلافة بحثًا عن وجودهم[٥١]، مما جعلهم حركة معارضة متماهية مع فكر الخوارج، كونه سيحقق لهم ذاتهم واستقلالهم عن هيمنة قُرِيْش، فصاروا يلتفون حول أي زعامة معارضة تنادي بإزالة الحكم القرشي، وكان أخطرها حركة (الخوارج الإباضية) التي اعلنت ثورتها من حضرموت بقيادة عبد الله بن يحيى الكندي[٥٢].

تدافع غالبية اليمنيين حول عبد الله بن يحيى الكندي، ومبايعته إمامًا، فانطلق من حضرموت سنة (١٢٦هـ/٧٤٤م)، ليتمكن خلال مدة وجيزة من بسط سلطته على كامل اليَمَن، ثم اتجهت قواته بقيادة المختار بن عوف الأزدي[٥٣] صوب (مكة والمدينة)؛ لما لهما من أهمية دينة وسياسية كبيرة في نفوس المسلمين جميعًا، فاستولى على مكة دون قتال، ومن ثم قصد المدينة بعد رفض أهلها إعلان الولاء والطاعة للإمام، وحينما سمع والي المدينة بقدوم جيش الخوارج الآتي من اليَمَن؛ شرع بالتجهيز لصد هذا الزحف، فجمع جنده ورجال قُرِيْش ليلتقي الجمعان في (قُدَيْد) سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م وهناك دارت معركة بين الطرفين، انتهت بهزيمة جيش المدينة ومقتل كثير من سادة قُرِيْش ورجالها[٥٤].

لقد اعتبره بعض اليَمَنيين -من الأنصار الساكنين في المدينة- الانتصار على قُرِيْش يوم (قُدَيْد)، هو انتصار كبير لليمنيين؛ خصوصًا بعد تلك الهزائم التي لحقت بهم طوال أكثر من قرن على يد قُرِيْش، فمحمد بن النعمان بن أبي عياش الزُرَيْقي الأنصاري[٥٥] يقول: (الحمد لله الذي أقر عيني بمقتل قُرِيْش، فقال له ابنه: الحمد لله الذي أذلهم بأيدينا، فما كانت قُرِيْش تظن أن من نزل على عُمان من الأزد عربي)[٥٦].

ومما يؤكد احتدام الصراع بين اليَمَن وقُرِيْش؛ أن (الزُرَيْقي وابنه) دفعا حياتيهما ثمنًا لحديثيهما ذلك، على يد حمزه بن مصعب بن الزبير وابنه عمارة، فحينما شاهدًا ابتهاج الزُرَيْقي وابنه بالانتصار، وسماع محادثتهما، أشتد غيضهما فقتلاهما، ثم تقدما حمزة وابنه بحماس شديد للقتال في صف جيش المدينة حتى قتلا[٥٧].

كما يؤكد أنها كانت حرب بين اليَمَن وقُرِيْش، تعامل جيش الخوارج الآتي من اليَمَن بعد انتصاره مع أسرى قُرِيْش، فمن كان (مهاجرًا) قرشيًا قتلوه، ومن كان من (الأنصار) وثبت أنه يمنيًا عفوا عنه، يقول الأصفهاني: (فكان إذا رأى رجلاً من قُرِيْش قتله، وإذا رأى رجلاً من الأنصار أطلقه)[٥٨].

وبعد انتصار اليَمَن في (قُدَيْد) على قرشية الخلافة، ثارت ثائرة الأخيرة، لتتحول إلى أداة منتقمة من اليَمَنيين، أينما حلوا، سواءً داخل اليَمَن أو خارجه، ظهر تجليات ذلك في الحرب المدمرة التي أعلنها آخر حكام الدولة الأموية مروان بن محمد المتعصب لمُضَر على اليَمَانية[٥٩]، إذ أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة مروان بن محمد بن عطية السعدي لاستعادة مكة والمدينة، والتوجه نحو اليَمَن لإخماد الثائرين فيها، والانتقام منهم لقتلهم قُرِيْش يوم قُدَيْد، فتمكن ذلك الجيش من هزيمة عبد الله بن يحيى الكندي، وقتله مع قادته؛ لكن اليَمَنيين ظلوا يقاومون حتى تمكنوا من الظفر بقائد الجيش وقتله[٦٠].

وبعد مقتل قائد الجيش أسندت قيادته إلى عبد الرحمن بن يزيد بن عطية السعدي، ليقود حربًا ضروسًا ضد اليَمَنيين؛ يقول الأصفهاني في وصفها: (فقتل الرجال والصبيان، وبقر بطون النساء، وأخذ الأموال، وأخرب القرى، وجعل يتتبع البري والنطف؛ حتى لم يبق أحد من قتلة ابن عطية، ولا من الإباضية إلا قتله)[٦١].

وكان لحرب الإبادة التي قام بها الجيش الأموي في اليَمَن صداها لدى (يَمنْ) الشام، إذ ثارت ثائرتهم بقيادة ثابت بن نعيم الجذامي[٦٢]، فخلع طاعة مروان بن محمد، وأعلن الحرب ضده، تحت شعار (الأصفر القحطاني)، فحدثت معارك ضارية بين الطرفين، انتهت بهزيمة يَمن الشام وقتل قائدهم[٦٣].

ومن خلال عرض أحداث الصراع بين اليمنين وقُرِيْش (المُضَرية) وخلفياته على مدى أكثر من قرن، يتبين أنه كان هناك صراع بين إرادتين، الإرادة اليَمَنية التي تبحث عن وجودها وذاتها، والإرادة القرشية المنتصرة والمتسلطة على دولة الخلافة، فانتصار اليَمَنيين في (قُدَيْد) هو انتصار لإرادتهم، وكسر شوكة الإرادة القرشية بين العرب.

وحينما تحولت قرشية الخلافة من البيت الأموي إلى البيت العباسي، خشي الأخيرون من تزايد نفوذ اليَمَنيين وقوتهم؛ فنظروا إليهم نظرة خطر حقيقية يتهدد خروج الحكم من أيديهم، إن لم يكن زوال قرشية الخلافة، ولهذا تحرك ثاني الخلفاء العباسيين الْمَنْصُور إلى الحد من نفوذ اليمنيين، بكسر شوكتهم وإذلالهم، سواء من هم في داخل اليمن أو في الأمصار الإسلامية القاطنين فيها، حينما حرك جيشًا كبيرًا إلى اليمن بقيادة مَعْن بن زائدة فقتل من بها قتلاً فاحشًا(٦٤).

وبعد هذا الطواف عن خلفية الصراع بين اليمن وقُرِيْش، يعود الحديث إلى النص التاريخي الذي أورده الأزدي، والذي تشير فكرته العامة، إلى أن سبب تعيين مَعْن بن زائدة واليًا على اليمن من قبل الخليفة، هو الثأر من اليمنيين لقتلهم قُرِيْش يوم قُدَيْد.

وبعد فحص النص وتحليله يتبين أنه أتى على شكل حوار بين الخليفة والسّري بن عبد الله بن الحارث بن العباس، حال سماع الأخير شكوى تقدم بها أهل اليمن للخليفة من ظلم مَعْن وجبروته وقتله لهم، فأدان هذه الأعمال على شكل احتجاج، قائلاً للخليفة: (يا أمير المؤمنين غلام من بني شيبان، والله ماله عندك يد فتكافئه عليها، ولا قرابة فتصله بها، فسر في وجهي بسرة لو أمكني الدخول في الأرض لفعلت، قال: ثم تواريت عن وجهه أيام)(٦٥).

ويفهم من كلام السري أن رد الخليفة عليه كان ردًا انفعاليًا غاضبًا؛ نتيجة انعدام سبب مقنع يقبل به السّري عن أعمال القتل الذي يقوم بها مَعْن في اليمن، مما يدلل أن الخليفة لم يكن يريد الكشف عن أهدافه السياسية والعسكرية في اليمن، ولو كان هدفه من تلك الأعمال الثأر من اليمنيين لقتلهم قُرِيْش يوم قُدَيْد، كما تحمله الفكرة العامة للنص لوضح ذلك للسّري في حينه، دون الرد عليه ردًا انفعاليًا أخافه وجعله يتوارى عن وجهه أيامًا.

وبعد أيام من القطيعة حضر السري إلى الخليفة، فعاتبه الخليفة عن غيابه، إذ أخذ يبرر له بأن ما يقوم به مَعْن في اليمن هو ثأر وانتقام لقتلهم قُرِيْش يوم قُدَيْد، مذكرًا إياه بأسمائهم بقوله له: (فما فعل رجل كان.... (فيرد السّري): قتل يوم قُدَيْد...، فما فعل آخر... (فيجيب السّري): قتل يوم قُدَيْد... (فيقول السري): فو الله ما زال يقترع المجالس ويقترع أسواقها فأقول: إذ سألني قتل فيقول: متى؟ فأقول يوم قُدَيْد، فلما أكثر علي من ذلك، وأكثرت عليه، قال: لا أكثر الله في عشيرتك مثلك)(٦٦).

ومن خلال تلك المحادثة بين الخليفة والسّري يتبين أن الأول استخدم مع الثاني الدهاء والخداع لإقناعه، بإثارت عصبيته القرشية، بهدف اشعال نار الثأر والانتقام في نفسه من اليمنيين ليوم قُدَيْد فقال له: (بالله أنك عجزت عن ثأرك تطلبه حتى قام به هذا الغلام الشيباني، وأنت تنفس عليه الرفعة) (٦٧).

إن رد الخليفة الْمَنْصُور على السّري، يتوافق ومنهجه السياسي في التعامل مع المخاطر التي تحدق بمملكته، فيعلن هدفًا غير هدفه الحقيقي، وهو الثأر لقُرِيْش من اليمنيين حتى يجمع حوله قُرِيْش بوجه خاص ومُضَر بوجه عام؛ لكن الهدف الحقيقي من إرسال مَعْن على رأس جيش لليمن هو إخضاع فوران أهل اليمن، وكسر شوكتهم حتى لا يشكلون خطرًا يزلزل أركان دولة بني العباس، إن لم يكن القضاء عليها؛ كونهم أصحاب الفضل في القضاء على الأمويين، ونقل سلطة دولة الخلافة القرشية للعباسيين (٦٨).

ومما يؤكد هذا الاستنتاج أن الخليفة تعامل مع عصيان وتمرد قبيلة (رَبِيعَة) التي ينتمي إليها مَعْن بنفس النهج والأسلوب الذي تعامله مع أهل اليمن، ففي سنة (١٥١هـ/٧٦٨م) انتفضت عليه بقيادة سليمان بن حكيم العبدي، فأراد ضربها وإذلالها؛ ولكن بأيدي يمنية، بإشعال نار الثأر في نفوس قادة اليمن ورجاله للانتقام من رَبِيعَة، لما اقترفه مَعْن من مقتلة بحق أهلهم باليمن، إذ عين عقبة بن سليم الهنائي الأزدي اليمني واليًا على البحرين وربيعه، فأبادهم.(٦٩)

وحينما انتهت مهمة عقبة بن سليم الهنائي، بإخماد تمرد قبيلة رَبِيعَة، وقتل قائدها، مع إبادة أغلب أهلها، سارع الخليفة إلى عزله متبرًا مما قام به قائلاً: (لا يراني الله أبوء بإثمه ولا أرضي فعله)(٧٠).

(٢/٢) ٥-نقض الْحِلْف بين اليمن ورَبِيعَة

والذي تضمنه نص الأصفهاني، بأن الدافع للخليفة الْمَنْصُور من وراء تعيين مَعْن واليًا على اليَمَن، هو (نقض الْحِلْف بين رَبِيعَة واليَمَن). وهذا السبب سيتم مناقشته وتحليله من خلال وضعه في سياقه التاريخي العام، والخلفية التاريخية للحلف بين اليَمَن ورَبِيعَة، كون الْأَحْلَاف كانت ظاهرة أساسية بين القبائل العربية قبل الإسلام، ولها قداسة خاصة وحرمة كبيرة بين المتحالفين.

فالْحِلْف في اللغة هو: العهد بين القوم والمعاهدة، وتحالفوا أي تعاهدوا، والمحالفة أي يحلف كل للآخر، وأصله اليمين الذي يؤخذ من المتحالفين. والْحِلْف في الأصل المعاقدة والمعاهدة

على التعاضد والتكاتف والاتفاق، وتحالفوا بمَعْنى تعاهدوا وعقدوا اتفاقًا وعهدًا، وتآخوا على العمل يدًا واحدة(٧١).

ويكون الحِْلْف بين الأفراد، كما يكون بين الجماعات والقبائل والحكومات، والأحلاف تكون معلومة ومعلنة بين الأفراد والقبائل والجماعات، تعقد فيما بينها لضرورة الدفاع عن مصالحها الخاصة أو العامة، وأخذ الحقوق وردع ظالم، وإنصاف مظلوم، وتنتهي آجالها بانتهاء الغاية التي من أجلها عقد الحِْلْف، وتكون الهيمنة في الأحلاف التي تعقد بين قبائل غير متكافئة للقبائل القوية. ونظرًا إلى ما للحلف من قدسية في النفوس، أصبح من المعتاد عقده في مراسيم مؤثرة، ويدون بنوده في كتاب، وينسخ بحيث يكون لكل طرف نسخة(٧٢).

وحلف اليَمَن ورَبِيعَة عقد بين الطرفين قبل الإسلام في عهد تبع بن حسان بن تبع بن مَلْكِيكرْب بن تُبَّع بن الأقرن(٧٣)، (في القرن الخامس الميلادي)، وقد تضمن الحِْلْف عدة بنود منها: المناصرة والمؤازرة، والإخاء، والتكاتف، ولا غدر، ولا خذلان، والدفاع عن مصالح الطرفين، ويحمل هذا الحِْلْف الصغار عن الكبار، ويستمر حتى أبد الآبدين(٧٤).

ولأهمية الحِْلْف بين اليَمَن ورَبِيعَة استمر في صدر الإسلام وبعده، بدليل أن علي بن أبي طالب حاول أن يقيم نوعًا من الانسجام وشحذ الهمم في جيشه للقتال معه ضد معاوية بن أبي سفيان، فعمل على تجديد الحِْلْف بين رَبِيعَة واليَمَن في مواجهة قُرَيْش(٧٥).

استمر الحِْلْف بين اليمن ورَبِيعَة في عهد الدولة الأموية، وشكل تكتلاً قويًا ضد صلف المُضَرية (قرشية الخلافة) وظلمها وتعاليها، وذلك دفاعًا عن مصالحهما الخاصة والعامة، وأخذ حقوقهما وردع المظالم عنهما، وكل ما وقعت مظلمة على أحد الحُلَفاء تنادى الحيين لتجديد بنود الحِلْف، بدليل أنه تم تجديد بنوده سنة (٦٤هـ/٦٨٤م) عقب هزيمة رَبِيعَة على يد المُضَرية في العراق، فطلب زعيمها مالك بن مسمع بن شيبان من رئيس اليَمَانية –آنذاك- عمرو بن مسعود بن عدي الأزدي إلى تجديد بنود الحِْلْف بينهما، من أجل أن يكونوا يدًا واحدة لقتال مُضَر انتصارًا لرَبِيعَة، مع انتزاع حقوقهم منها، وفي هذا يقول ابن عساكر: (انطلق مالك بن مسمع... إلى مسعود ليحالفوه، ...أكد بينهم الحلف، فكتبوا بينهما كتابًا وختمه مسعود بخاتمه، وكتب لمالك بن مسمع كتابًا وختمه بخاتمه، ودفع الكتاب إلى ذراع النميري أبي هارون بن ذراع فوضعوهما على يده)(٧٦) تأكيدًا للحلف.

وبتجديد بنود الحِْلْف بين اليَمَن ورَبِيعَة في العراق صار تكتلاً رادعًا حد من نفوذ مُضَر وتسلطها؛ وليس ذلك فحسب، بل أجبرها بعد التفاوض على دفع ديات قتلى ربيعه، كما منحها حقوقها ومصالحها التي سلبت منها، فضلاً عن علو مكانة الحِْلْف اليمني الرَّبْعي وزيادة قوته ونفوذه، ليصبح بعد ذلك شوكة في خاصرة الدولة الأموية يتهدد وجودها(٧٧).

ونتيجة لهذا التهديد الذي شكله الحِْلْف، حاول الخليفة هشام بن عبد الملك (حـ١٠٥-١٢٥هـ/٧٣٤-٧٤٣م) الوقوف أمامه والحد من قوته ونفوذه، مع إظهار عصبيته لمُضَر، إذ انتهج سياسة عزل الولاة والعمال المنتمين لحلف (اليمن ورَبِيعَة)، وإحلال محلهم من مُضَر، فعزل زعيم اليمانية في خراسان جُدَيْع بن علي الْكَرْمَانِيّ الأزدي اليمني(٧٨) من ولايتها، وعين بدلاً عنه نصر بن سيار الكناني -أحد زعماء المُضَرية-، فأظهر الأخير تعصبه لمُضَر ضد اليمانية التي يبغضها (فكان لا يستعين بأحد منهم، وعادى أيضًا ربيعه لميلها إلى اليمانية... وأمر بالْكَرْمَانِيّ الى الحبس)(٧٩).

ونتيجة لذلك التعصب الذي أظهره الخليفة هشام بن عبد الملك، وواليه على خرسان تجاه اليمانية وزعيمها الذي نجا بنفسه من السجن، اجتمعت إليه الأزد، وسائر من بخراسان من اليمانية، مع انحياز ربيعه إليهم، وللوقوف صفًا واحدًا أمام ذلك الصلف والتعنت، تنادى الحيين إلى تجديد الحِْلْف التاريخي بينهما، ومما يؤكد أهمية الحِْلْف وقداسة بنوده اجتهاد (الْكَرْمَانِيّ) في الحصول على نسخته الأصلية، التي تعود إلى ما قبل الإسلام، وبعد عناء من البحث، وجدها عند عمر بن إبراهيم، من ولد أبرهة بن الصباح من سلالة حمير، وكان يسكن الكوفة، فكتب إليه يسأله أن يوجه إليه بالنسخة الأصلية، ليحييه، ويجدده(٨٠).

وحال وصول نسخة الحِْلْف إلى الْكَرْمَانِيّ جمع كبار القوم من اليمن وربيعه، وقرأ عليهم بنوده، فأجمعوا على أن ينصر بعضهم بعضًا، ويكون أمرهم واحدًا، فألتئم الجميع تحت قيادة الْكَرْمَانِيّ ليشن حربًا ضروسًا ضد المُضَرية بوجه خاص والدولة الأموية بوجه عام في خرسان، والتي استمرت عدة سنوات، لتنتهي بهزيمتهما والسيطرة على (مَرْو) عاصمة ولاية خرسان عام ١٢٨هـ/٧٤٦م، من يد الوالي نصر بن سيار الكناني(٨١).

وفي خضم تلك الانتصارات، ظهر خصمًا جديدًا للدولة الأموية يسعى لإزالتها، وهذا الخصم هم العباسيون، إذ كلف الإمام العباسي أبي مسلم الخرساني لنشر الدعوة في خرسان، موصيًا إياه باستغلال الصراع القائم في خرسان بين مُضَر من جهة وبين اليَمَن ورَبِيعَة من جهة أخرى قائلاً له: (انظر هذا الحي

من اليَمَن فألزمهم، وأسكن بين أظهرهم، فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم،... وَأَمَا مُضَر فَإِنَّهُمُ الْعَدُوُّ الْقَرِيبُ الدَّار)[٨٢].

استغل أبو مسلم ذلك الصراع، ليعلن دعمه للكرماني ويميل إليه، يقول اليعقوبي[٨٣]: (فمال أبو مسلم إلى الْكَرْمَانِيّ فقال له: أدع إلى آل محمد ! وجعل يمايل أصحابه، ويدعوهم إلى ذلك... فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي، وتعصبه لقومه من نزار على اليَمَن، وانحراف اليَمَن عنه إلى الدعوة العباسية، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية).

وعلى الرغم من قيام الدولة العباسية على أكتاف رجال اليمن ورَبِيعَة في خرسان؛ إلا أن حكامها كانوا يرون في استمرار تحالفهم خطرًا يتهدد دولتهم، وهذا ما يوحي إليه كلام الأزدي أن رَبِيعَة واليمن جددتا بنود الْحِلْف بينهما، فأنزعج لذلك الخليفة الْمَنْصُور، وغلظ على أحد قادته (ما جددت اليَمَن ورَبِيعَة الْحِلْف، فأراد فسخه)[٨٤].

وكان سبب انزعاج الخليفة الْمَنْصُور من تجديد الْحِلْف ناتج من توجسه الشديد تجاه أي خطر يتهدد دولته، مهما صغر شأنه، ولخطورة ذلك على مملكته باشر بنفسه إلى تفكيكه، مستخدمًا سياسة المكر والخداع سبيلاً لذلك، حينما قام بضرب اليمن بأحد قادة رَبِيعَة وفرسانها مَعْن بن زائدة، فقد بعثه على رأس جيش إلى اليمن قائلاً له: (قد وليتك اليَمَن فأبسط السيف فيهم حتى ينقض حلف رَبِيعَة واليَمَن)[٨٥]، فاستعد مَعْن لتنفيذ أمر الخليفة قائلاً له: (عليا أن أضرم بينهم النار)[٨٦].

ولم يكتف الخليفة بما قام به مَعْن من مقتلة فاحشة في حق اليَمَنيين حتى ينقض حلف رَبِيعَة واليمن، بل أراد إشعال نار الفتنة والثأر بين الحيين حتى لا تقوم للحلف قائمة بعد ذلك، وتحقيقًا لذلك استدعى والي البصرة عقبة بن سالم الهنائي الأزدي وعينه واليًا على اليمامة والبحرين قائلاً له: (قد علمت ما فعل بكم مَعْن، فإن وليتك اليمامة والبحرين تستشفي من رَبِيعَة، قال: كفيتك يا أمير المؤمنين، فولاه فخرج إليها، فأبادهم)[٨٧].

استعد عقبة بن سلم الهنائي استعدادًا كاملاً لتنفيذ توجيهات الخليفة حاملاً في مخيلته روح الانتقام والثأر من رَبِيعَة، لما فعل مَعْن بأهل اليَمَن، فارتكب مجازر في حق رَبِيعَة كادت تفني رجالها، حتى قال عقبة معاتبًا نفسه: (لو كان مَعْن على فرس جواد، وأنا على حمار أعرج لسبقته إلى النار)[٨٨]، كما أن الحسن بن قحطبة عاتب عقبة على أعمال القتل قائلاً له: (يا عقبة أدخلت نفسك النار، فقال: ما أنصفتني يا أبا الحسن، أدخلت نفسي النار لأنفي عنك العار)[٨٩]، ويقصد بذلك عار الثأر.

مما سبق يتبين أن التحالف بين اليمن ورَبِيعَة الذي عقد بينهما قبل الإسلام، كان له أهمية كبيرة في المؤازرة والإخاء والتناصر والتعاضد بين الحيين، وظل هذا التحالف بعد الإسلام ليمثل تكتلاً عسكريًا كبيرًا معارضًا لقرشية الخلافة وهيمنتها وتعصبها لـ(مُضَر)، وكلما أحس طرف من طرفي الْحِلْف بظلم في حقوقه تداعا الطرفين إلى تجديده وفقًا لبنوده الأصلية لانتزاع الحقوق، كما أن الْحِلْف لعب دورًا كبيرًا في نقل السلطة من الأمويين إلى العباسيين، ليصبح بعد ذلك قوة لها نفوذها ومكانتها في جسم الدولة العباسية، فخشي الخليفة الْمَنْصُور من استمرار هذا التحالف، كونه سيشكل خطرًا يتهدد زوال دولة بني العباس، كما كان سببًا في زوال الدولة الأموية.

ولدهاء الخليفة ومكره ضرب رَبِيعَة باليمن بتعيين أحد فرسانها مَعْن واليًا على اليمن، وأمره بوضع السيف في رقاب أهله، حتى ينقض حلف رَبِيعَة واليمن، كما أنه ضرب اليمن برَبِيعَة حينما عين أحد قادته عقبة بن سليم الهنائي الأزدي واليًا على ربيعه للانتقام والثأر منها جزاء ما اقترفه مَعْن بأهل اليمن، وبهذه السياسة تمكن الخليفة من إنهاء فوران اليمن ورَبِيعَة ضده مملكته، مع تفتيت التحالف التاريخي بإشعال نار الثأر والفتنة بينهما حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك، بدليل أن مصادر التاريخ لم تذكر بعد ذلك أن ربيعه واليمن -على حد علم الباحث- تناديا لتجديد الْحِلْف بينهما بعد تفتيته من قبل الخليفة الْمَنْصُور.

(٢/٢) ٦-إعلان أهل اليمن العصيان وطرد والي الخلافة العباسية

وهذا السبب أشار إليه اليعقوبي في أحداث سنة (١٤٢هـ/٧٦٠م)[٩٠]. ولمناقشته يجب التعريج على أوضاع اليَمَن السياسية قبيل تعيين مَعْن بن زائدة واليًا عليها، والتي كانت في مجملها مضطربة ومقلقة، نتيجة الحروب المدمرة التي شنتها الدولة الأموية عليها لإخماد حركة الخوارج الإباضية فيها، فنال أهله الجور والظلم والعسف والقتل، وكان اليَمَنيون عقب تحول الحكم من الأمويين إلى العباسيين يأملون أن تتحسن أوضاعهم برفع الظلم والجور عنهم؛ لكنهم نهجوا السياسة نفسها التي خطها الأمويون في جميع التعاملات الإدارية والمالية والسياسية، بل إنهم حولوا ولاية اليَمَن إلى منحة يهبون حكمها للمقربين لهم، أو مكافئة لمن أسدل معروفًا لهم[٩١].

ففي السنوات العشر الأولى من عهد الدولة العباسية، تناوب على ولاية اليمن، أخوال السفاح من بني الحارث بن كعب؛ فانحصرت مهمتهم على جباية الأموال، دون الاهتمام بحل المشاكل العالقة، إنما زادوها تعقيدًا، فمنهم من اتجه إلى

تدمير (الْقُلَّيْس) والاستحواذ على بها من ثروات ماليه هائلة[٩٢]، ومنهم فكر بحرق المرضى (المَجْذُومِين)، كونهم يشكلون عبئًا على الخزينة المالية للولاية، ومنهم من لم يمض على ولايته لليمن سوى أربعة أشهر، ثم يعزل نتيجة تصرفاته وكثرة الخروج عليه، بينما البعض منهم غرقوا في خلافات مع أهل صنعاء[٩٣].

كل ذلك خلق في أوساط المجتمع اليَمَني تذمرًا أتبعه عصيان وتمرد، لينفجر الوضع ضد الوالي عبد الله بن الربيع بن عبيد الله الحارثي، فهاجموا صنعاء، لينجوا بنفسه منها دون القدرة على مواجهتها لقوتها واتساعها، يقول اليعقوبي معبرًا عن ذلك: (أن عبد الله بن الربيع والي اليَمَن، قد هرب ممن وثب عليه وضعف)[٩٤].

لقد شكلت الأوضاع الخطيرة والمتردية في اليمن مع وقوع غالبية أراضيه في يد حركة الخوارج، قلقًا كبيرًا وإزعاجًا شديدًا لدى الخليفة الْمَنْصُور، ولهذا قطع حجه لذلك العام، وعاد إلى بغداد فورًا، لتدارس أمر اليَمَن، فقرر إرسال حملة عسكرية بقيادة مَعْن بن زائده، مستعيدًا بذلك ولاية اليمن إلى سلطة الدولة العباسية، ومن ثم صار واليًا عليها طيلة تسع سنوات[٩٥].

ثالثًا: نتائج حكم مَعْن بن زائدة لليمن

بعد أن تم مناقشة الأسباب التي دفعت الخليفة الْمَنْصُور إلى تعيين مَعْن بن زائدة واليًا على اليمن، وفقًا لما جاء في نصوص المؤرخين، يتضح أن الخليفة أراد تحقيق عدة أهداف سياسية وعسكرية من تعيينه له. وعلى الرغم من أن المعلومات التاريخية عن شجاعة مَعْن وكرمه وجوده وبطولاته ومدح الشعراء له ثرية في كتب التاريخ العام، وكتب التراجم والطبقات والأدب؛ لكنها في المقابل تتكتم عن أهم محطة من محطات حياة مَعْن، وهي التسع السنوات التي قضاها واليًا على اليَمَن، إذ لم يجد الباحث ذلك الثراء من المعلومات والنصوص التاريخية التي تعطي صورة واضحة عن إنجازاته في اليَمَن، سوى نتف من الكلمات المتناثرة في بطون الكتب وبين السطور، تأتي على شكل جمل وكلمات اعتراضية؛ أحيانًا تكون غير مفهومة الفكرة والمَعْنى والغرض.

ولكي يتمكن الباحث من إعطاء صورة تقريبية لنتائج حكم مَعْن لليمن، أرتأى وجوب لملمة تلك الكلمات والجمل من بطون الكتب، وجمعها مع النصوص التاريخية التي تم العثور عليها في كتب التاريخ اليَمَني، ومقابلتها وتحليلها وتفسيرها، مع مقارنتها بالأهداف التي أراد الخليفة الْمَنْصُور تحقيقها من وراء تعيين مَعْن واليًا على اليمن، والمتمثلة في إخضاع فوران أهل اليَمَن، وكسر إرادتهم، ونقض الْحِلْف التاريخي بين اليَمَن ورَبِيعَة، وهي في مجملها أعمال عسكرية وحربية، لهذا ستكون أهم أعمال مَعْن في اليَمَن أعمال حربية (معارك انتصارات هزائم قتل). ومن هذا المدخل الموجز سوف يقف الباحث على مُحصلة إنجازاته في اليَمَن، وهي على النحو الآتي:

٣/١-القضاء على حركة الخوارج في اليمن

على الرغم من هزيمة حركة الخوارج التي ظهرت في اليمن بقيادة عبد الله بن يحيى الكندي من قبل الدولة الأموية؛ إلا أن فكر الحركة ظل منتشرًا، يتجمع أتباعه وأنصاره في بعض المناطق التي لا تزال خارجة عن سلطة دولة الخلافة، كـ(الْمَعَافِر[٩٦] وحضرموت، وكِنْدَة)[٩٧]، تلك البلدان التي يشتهر رجالها بالشدة والبأس، وعدم الخضوع مهما كانت قوة الدولة الحاكمة، ولهذا صارت تأوي إليها كل معارض ومتضرر، فشكلوا بذلك تجمعًا قبليًا كبيرًا يستعد للخروج وإعلان العصيان في أي لحظة يتاح له ذلك.

ومما زاد الوضع فورانًا واضطرابًا في اليمن، أنه أصبح خارج سلطة الخلافة العباسية، خصوصًا بعد فرار واليها عبد الله بن الربيع الحارثي من صنعاء والسيطرة عليها، وهذا ما أقلق الخليفة الْمَنْصُور، ليقرر إرسال حملة عسكرية إلى اليَمَن، بقيادة مَعْن بن زائدة (١٤٢هـ/٧٦٠م)، لاستعادتها والقضاء على تحركات الخوارج فيه[٩٨]. وهنا تختلف روايات المؤرخين حال وصول مَعْن صنعاء، فالهمداني يذكر أنه فور وصوله (غزى الْمَعَافِر، وقتل صاحبها إسماعيل بن إبراهيم، وعاث فيها)[٩٩]، بينما ابن جرير الصنعاني يرى أن مَعْن عين ابن عمه سليمان عاملاً على الْمَعَافِر (فوثب أهل الْمَعَافِر على سليمان فقتلوه)[١٠٠]، في حين يذكر الجندي أن مَعْن (قدم صنعاء واليًا لمخلافها ومخلاف الجند، فبعث أخاه، وقيل ابن عمه، واليًا على الجند... فساءت سيرة خليفة مَعْن على أهل مخلاف الجند، بحيث... احتقرهم، وصار مولعًا بإذلالهم)[١٠١].

ونظرًا لأن مساحة البحث ليست كافية لمناقشة تلك الروايات؛ إلا أنها في المجمل تؤكد أن الْمَعَافِر ظلت متمردة عن سلطة الدولة العباسية، فأراد مَعْن إخضاعها حال نزوله صنعاء، فبعث بابن عمه سليمان على رأس جيش للإنهاء عصيانها، لتدور معركة بين الطرفين انتهت بهزيمته وقتله. وكان رد الفعل من قبل مَعْن قويًا، بدليل أنه قاد جيشًا كبيرًا، واجتاح بلدان الْمَعَافِر وقراها، وقتل قائدهم إبراهيم بن إسماعيل، ثم توجه لتدمير قرية (الزَّرِيْبَة) التي قتل فيها نائبه، يقول الجندي: (وهي على ذلك خراب إلى عصرنا، وقتل من أهل القرية نحو الألفين، وكان إذا خوطب بالكف عن القتل قال: لا أكف حتى أقتل ألفين ثم ينشد:

إذا تمت الألفان كادت حرارة `` على الصدر من ذكرى سليمان تبرد)[١٠٢].

وبذلك استعاد مَعْن بلاد الْمَعَافِر إلى سلطة الخلافة العباسية، بعد أن قتل قائدها، وألفين من أهلها، مع تدمير قرية الزُّرَيْبَة.

ونتيجة للمقتلة التي قام بها مَعْن بأهل الْمَعَافِر تنادت حضرموت لنصرتها، على اعتبار أن من يسكنها هم من أهلها، إذ توجهت بجحافلها نحو الْمَعَافِر، وحينما علم مَعْن بتحركها، ذهب نحوها لقتالها، فالتقى الجمعان في منطقة (الكثيب الأبيض قرب أبين)، ودارت معركة شديدة، (انتصف كلاً منهما من الآخر)[١٠٣]. ومن الملاحظ أن المصادر التي أشارت إلى تلك المعركة لم تحدد المنتصر؛ لكن الراجح أن حضرموت هي من انتصرت، بدليل أن مَعْنًا عاد بعد هذه المعركة إلى صنعاء للإعداد والتجهيز تمهيدًا لغزو حضرموت. من هنا تبدأ حروب مَعْن في (حَضْرَمُوت)، إذ دارت رحى معارك شديدة مع أهلها في عدة مناطق، يقول الحمزي: (وأوقع فيهم وقعات، قيل أن قتلاهم بلغت خمسة عشر ألف، فأعظم الناس ذلك وتحدثوا فيه)[١٠٤]، وهذه المقتلة الكبيرة تؤكد استخدام مَعْن الشدة والقسوة ضد أهلها، ومن ضمن القتلى ملكها عمرو بن عبد الله بن زيد الحضرمي غيلة[١٠٥].

وبتلك المذابح الفاحشة استعاد مَعْن سلطة الخلافة العباسية على حضرموت، بعد حوالي خمسة عشر عامًا من سيطرة الخوارج عليها. ومما يؤكد أهمية تلك الانتصارات، تبادل التهاني بين مَعْن والخليفة الْمَنْصُور، الذي استصوب ما قام به في القضاء على بقية الخوارج في تلك المناطق، وقد تمثل في رده بأبيات شعر الأعشى منها هذا البيت:

أولى وأولى كل فلست بظالم

وطئتهم وطء البعير المقيدِ[١٠٦]

كما قام الشعراء بنظم الشعر حول تلك الانتصارات التي حققها مَعْن في اليمن، فمروان بن أبي حفصه هب إلى اليمن بقصيدة من ثمانية وعشرين بيتًا ليهنئ بها مَعْن منها هذه الثلاثة الأبيات:

فما بلغت صنعاء حتى تواضعت

ذراها وزل الجهل عنها وأقلعا

لقد أصبحت في كل شرق ومغرب

بسيفك أعناق المريبين خضعا

وطئت خدود الحضرميين وطأة

لها هد ركنًا عزهم فتضعضعا[١٠٧]

٢/٣-كسر شوكة اليَمَنين

نوقش في السابق خلفية الصراع بين اليَمَن وقُرِيْش، فتبين أنه صراع بين إرادتين، الإرادة اليَمَنية التي اندمجت في المجتمع الإسلامي، والإرادة القرشية التي استأثرت بالحكم وتسلطت عليه، فصارت الإرادة اليمنية مهزومة تبحث عن وجودها ومجدها الغابر في الملك والسلطة[١٠٨] طوال أكثر من قرن، فانتصرت أخيرًا على قُرِيْش وأذلتها في معركة قُدَيْد عام (١٣٠هـ/٧٤٨م) على يد الجيش القادم من اليمن بقيادة عبد الله بن يحيى الكندي. وكانت تلك الهزيمة أول انتكاسة لقُرِيْش بين العرب على يد اليمانيين؛ كونها صاحبة الريادة والقيادة في دولة الخلافة دون منازع، وأن الناس تُّبع لها، مما هيج ثائرتها ضد اليمانية، ومن هذا المنطلق سكب الخليفة العباسي الْمَنْصُور جام غضبه عليها حينما رفع شعار (يا لثارات قُدَيْد)، فبعث مَعْن بن زائدة أحد فرسان رَبِيعَة على رأس جيش إلى اليمن ليبسط السيف في رقاب أهله[١٠٩]. وحال وصول مَعْن إلى اليَمَن شن حرب إبادة جماعية في حق أهله (فقتل من بها قتلاً فاحشًا)[١١٠]، كما كان يأتي باليَمَنيين بشكل جماعي، قد يصل عددهم إلى ثلاث مئة شخص، فيأمر بقطع رؤوسهم جميعًا، ثم يدعو مَعْن (بأبناء اليمانية الذين حضروا قُدَيْدًا، فيضرب أعناقهم، وكلما ندر رأس عن رقبته قال: يا لثارات قُدَيْد)[١١١].

إن تلك الأعمال التي قام بها مَعْن في اليمن أعادت للأذهان سياسة الحجّاج بن يوسف الثقفي التي انتهجها في العراق في عهد الدولة الأموية، ولهذا لا غرابة أن يطلق على مَعْن حجاج بني العباس في عصره؛ ولكن ليس في العراق، إنما كان في اليَمَن، كون تلك الأعمال كانت تلقى تشجيعًا من قبل الخليفة الْمَنْصُور حتى وصفه البعض بأنه ظالم جائر، حينما عين مَعْن واليًا على اليمن يقتلهم، ويأخذ أموالهم، ويبلغه ذلك، فلا يغير شيء[١١٢].

مجمل القول إن من أحد نتائج حكم مَعْن لليمن كسر شوكة أهلها وإذلالهم، وقهرهم وإخضاعهم، تنفيذًا لرغبة الخليفة الْمَنْصُور حتى لا تقوم لهم قائمة بعد ذلك سواءً داخل اليمن أو خارجه.

٣/٣-نقض الْحِلْف بين رَبِيعَة واليَمَن

تناول الباحث بشيء من التفصيل الْحِلْف بين اليَمَن ورَبِيعَة، وهنا سيعرض أدوات تنفيذ نقضه من قبل الخليفة الْمَنْصُور، إذ نجده يضرب اليمنيين بأحد فرسان رَبِيعَة مَعْن بن زائدة الذي أبدي استعداده الكامل بأن يضرم النار بين اليَمَن ورَبِيعَة، يقول المسعودي[١١٣]: (ثم ما تلا ذلك من قصة مَعْن بن زائدة باليَمَن، وقتله أهلها تعصبًا لقومه من رَبِيعَة وغيرها من نزار، وقطعه

الْحِلْف الذي كان بين اليَمَن ورَبِيعَة في القدم). وكان لأعمال القتل الذي قام بها مَعْن في اليَمَن الشرارة الأولى لنقض الْحِلْف؛ فتلك المجازر أشعلت نار الثأر والانتقام في نفوس اليَمَنيين من رَبِيعَة، فضلاً عن إذكاء الخليفة الْمَنْصُور روح الثأر بين الحليفين، كلما دعت الحاجة لإخماد هذا الطرف أو ذاك، بدليل أن رَبِيعَة حينما أعلنت العصيان عليه ضربها باليمنيين، وتحت داعي الثأر ومحو العار خرج اليمنيين إليها فأبادوا أهلها[١١٤].

وبهذا فإن من أحد نتائج حكم مَعْن لليمن نقض الْحِلْف التاريخي بين اليمن وربيعه، إذ صار الثأر والانتقام بينهما هو السائد، بدليل عدم العثور على بعض الإشارات في كتب التاريخ، توحي بتجديد الْحِلْف بينهما بعد هذه الأحداث، ليحقق بذلك الخليفة الْمَنْصُور مراده في القضاء على ذلك الْحِلْف الذي باستمراره سيشكل خطرًا على دولته.

٤/٣-دخول مَعْن في صراع مع بعض قادة اليَمَن

انتهج مَعْن في اليَمَن سياسة القتل، والإذلال، والغدر بقادتها، منتقصا من مكانتهم وقدرهم، وهذا ما ألب عليه بعض قادة اليَمَن، ودفعهم للتصدي لأفعاله تلك؛ لينفتح بابًا من الصراع الدموي استمر حتى مغادرته لليَمَن.

ومن أعمال مَعْن في اليَمَن قيامه بقتل سيد بني غالب بن سعد بن خولان، وشاعرها وفارسها عمر بن زيد بن غالب بن سعد بن سعد بن الغالبي الخولاني، وهذا ما أثار حفيظة أحدد قادة اليمن في عصره محمد بن أبان بن ميمون بن حريز بن حجر بن زرعة الحنفري، فأعلن الحرب ضد مَعْن طلبًا للثأر منه، لتدور بينهما معارك عدة في بلاد صعدة، منها معركة (يوم المنضج)، واستمرت الحرب بين الطرفين عدة سنوات، لم يتمكن مَعْن من هزيمته أو النيل منه[١١٥].

ونتيجة لاستمرار الصراع الحربي بين مَعْن وبعض قادة اليمن، توسعت الفتن واشتعلت، فطلب الخليفة من مَعْن مغادرة اليَمَن سنة (١٥١هـ/٧٦٨م)[١١٦].

٥/٣-الجور والظلم والعسف

ومن نتائج حكم مَعْن لليمن ظلمه وجوره وعسفه للرعية، من ذلك أنه دمر قرية (الزَّرِبْيَة) من مخلاف الْمَعَافِر، لتصبح خرابة لا يسكنها أحد، كما (غور مياه كانت بقاع الجند... ومنها أنه ألزم الناس لبس الثياب المصبغة بالنيل، وترك شعورهم منشورة، فصار ذلك لهم عادة)[١١٧]. ومن ألوان الجور والعسف التي فرضها مَعْن على أهل اليَمَن إجبارهم على دفع أموال باهظة على زروعهم وثمارهم، مثال على ذلك: أنه وفي أثناء سيره إلى حضرموت مر بأراض زراعية، (فعظم في عينه ما رأى من خزائن الزبيب بها، فقال لنائبه: لا تقبل منهم دون عشرة ألف ذهب، زبيب فلم يزالوا به حتى حط لهم ألفًا)[١١٨]. ونتيجة لجود مَعْن وكرمه كان يتوافد عليه الناس إلى اليمن (من أقطار الأرض)[١١٩]، فيعطيهم عطايا لَمْ يعط مثله أحد، والأمثلة كثيرة على تبديده للأموال لا يتسع المكان لسردها[١٢٠]، كل هذا الإنفاق قابله الشدة في طلب المال من أهل اليمن، فألحق بهم أشد أنواع الجور والظلم، بدليل غضب الخليفة عليه من كثرة تبذيره للأموال، وكاد أن يعاقبه[١٢١].

٦/٣-إفناء رجال مَعْن في حرب اليَمَن

وصل مَعْن إلى اليمن بأعداد كبيرة من فرسان رَبِيعَة ورجالها، فاستخدمهم في حروبه التي خاضها مع أهل اليمن وأعيانها، فقتل منهم أعدادًا كثيرة منذ نزل أرضها حتى غادرها، بدليل اعترافه بذلك حينما غضب عليه الخليفة الْمَنْصُور قائلاً: (قد أفنيت عمري في طاعته، وأتعبت نفسي، وأفنيت رجالي في حرب اليَمَن ثم يسخط علي)[١٢٢].

٧/٣-الثأر من مَعْن بن زائدة

كان الثأر من الثقافة السائدة في المجتمع اليَمَني بشكل خاص، والمجتمع العربي بشكل عام، بل يُعد الثأر واحدًا من الأعراف القبلية، وقيمة من قيمها لمحو العار، ولا يتم ذلك إلى من خلال وجوب أخذ الثأر من القاتل، والبحث عنه لقتله مهما طال من الزمان؛ لأن (الدم لا يغسل إلا بالدم)[١٢٣]. ومن نتائج حكم مَعْن لليمن انبعاث باب الثأر بينه وبين أهله، من ذلك أنه أقدم على قتل ملك حضرموت عمرو بن عبد الله بن زيد الحضرمي غدرًا بعد أن أعطاه عهدًا وميثاقًا عام (١٤٢هـ/٧٦٠م)[١٢٤]، والغدر في عرف القبيلة يعد عارًا، وجب محوه بأخذ الثأر من قاتله، مهما طال الزمان، وتباعدت الأوطان، ومهما كلف من جهد ومشقة ومال وعناء.

وكان لملك حضرموت حال مقتله ولدان صغيران لم يبلغا الحلم، فلما أدركا حقيقة قتل والدهما غدرًا، اعتبرا ذلك انتهاكًا لشرف القبيلة، وعارًا عليهما سيلاحقهما، إذا لم يأخذا بثأر أبيهما من قاتله مَعْن، الذي غادر اليَمَن إلى العراق عام (١٥٠هـ/٧٦٧م) بطلب من الخليفة فولاه سِجِسْتَان[١٢٥]. ولهذا أخذ محمد بن عمرو الحضرمي يعد نفسه للرحيل، فجهز نفقة كبيرة له ولأخيه الصغير تكفيهما لسنوات، ورحلا من حضرموت إلى مكة لأداء فريضة الحج، فأخذا يسألان حجاج العراق عن مكان إقامة مَعْن، فقيل لهما: أن الخليفة ولاه (بُسْت)[١٢٦].

لم يكن أمام محمد وأخيه إلا مواصلة رحلتهما إلى مدينة (بُسْت)، وأقاما عند رجل من اليَمَنيين سنة كاملة، يترصدان تحركات مَعْن لأخذ الثأر منه، فأتتهما الفرصة عندما أمر مَعْن ببناء دار له، فانضم محمد وأخوه إلى عمال البناء، فأقاما قريب سنة لا يجدون الفرصة المناسبة للظفر به، (فلما قرب كمال بناء الدار خرج إليهم مَعْن لينظرها، ومحمد وأخوه يختلفان مع الأجراء بالأجر والطين، ومحمد يرصد مَعْنًا، ثم إن مَعْنًا دخل بعض دهاليز تلك الدار ليقضي حاجته، وكان قد احتجم ذلك اليوم، فتبعه محمد، فوجده مكبًا على حاجته، فقط بطن مَعْن بسكين مسمومة كانت معه)[١٢٧].

وبعد أن تمكن محمد من قتل مَعْن أشار لأخيه الأصغر، وخرجا متخفيان من باب خلفي، ولمعرفتهما أنه سيتم ملاحقتهما، تواريا داخل المدينة في بيت أحد اليَمَنيين الثقات مدة، حتى خف الطلب عليهما، فخرجا إلى الشام، ومنها إلى مصر[١٢٨]، ومن ثم إلى عدن، فاستقبلهما كبار أهل اليمن مهنئين لهما بالظفر والنصر، ومتوجين محمدًا بن عمر بتاج النصر لطلبه الثأر، (وضربت به العرب المثل، كما ضربت بقصير)[١٢٩]. وقد لقيت واقعة الثأر من مَعْن صدى واسعًا في المجتمع اليمني بوجه خاص، والإسلامي بوجه عام، بدليل تلك القصائد الشعرية التي قيلت في ذلك[١٣٠].

نتائج الدراسة

- بعد أن تسلم الخليفة الْمَنْصُور دولة الخلافة القرشية عمل على تثبيت أركان مملكته بشتى الطرق والوسائل المشروعة وغير والمشروعة، ولتحقيق ذلك كان يختار ولاته وقادته بعناية متناهية، فينتقي الأشخاص انتقاءً، وبما يجعلهم أمر طوعه، يضرب بهم أعداؤه ومنافسيه وخصومه، فمن ولاته الذين وهبوا أنفسهم لخدمته وصاروا طوع أمره (مَعْن بن زائدة) الذي عينه واليًا على اليمن.
- تبين من خلال البحث أن الدوافع الحقيقية للخليفة الْمَنْصُور من وراء تعيين معن بن زائدة واليًا على اليمن هي دوافع (سياسية وعسكرية) أهمها: إخضاع فوران أهل اليمن الذين كثر تمردهم وعصيانهم على دولة الخلافة القرشية أينما حلوا سواءً داخل اليمن، أو في الأمصار الإسلامية المختلفة التي سكنوها، وذلك بهدف ضمان عدم خروج الخلافة من يد العباسيين بشكل خاص وقريش الخلافة بشكل عام، لاسيما بعد أن انتصرت الإرادة اليمنية على الإرادة القرشية في معركة (قُدَيْد)، وما تلي ذلك من دورها الأساسي في إزالة الدولة الأموية.
- كما بين البحث أن والي اليمن (معن بن زائدة) سعى منذُ أن نزل أرض اليمن إلى تنفيذ أوامر الخليفة الْمَنْصُور وتحقيق أهدافه، فدحر حركة الخوارج في (المعافر وحضرموت)، كما قضى على فوران أهل اليمن، ليستعيد بذلك سلطة الدولة العباسية على جميع أراضيه، كما كسر شوكة أهل اليمن وأذلالهم، نتيجة الشدة والقسوة التي انتهجها، من قتل، وقهر، وعسف، وجور، وظلم، لينقض بتلك الأعمال الْحِلْف التاريخي بين اليمن وقبيلته ربيعه –المنتمي أليها معن-، كون استمراره سيشكل خطرًا على دولة بني العباس، وبالتالي صار الثأر والانتقام بين اليمن وربيعة هو السائد بعد ذلك، بدليل أن معن بن زائدة قتل على أيدي يمنية ثأرًا منه لقتل بعض قادتها.

الاحالات المرجعية:

(١) للمزيد عن الْمَنْصُور يُنظر: البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، **أنساب الأشراف**، حققه وقدمه له: سهيل زكار، ورياض زركلي، ط/١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٤/١٨٣-٢٠٠. البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب (ت٤٦٣هـ/١٠٧١م)، **تاريخ بغداد وذيوله**، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطاء، ط/١٤١٧هـ/١٩٩٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٠/٥١-٦٢.

(٢) هو: عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، عم الخليفة الْمَنْصُور، أحد دهاة الرجال، وكان من الشجعان الأبطال، أنتدب لحرب آخر خلفاء بني أمية وهزمه، ثم نافس الخليفة الْمَنْصُور على الخلافة في الشَّام، فجهز له الخليفة أبو مسلم الخراساني، فدارت حرب كبيرة انتهت بهزيمة عبد الله، وسجنه حتى توفي سنة١٤٧هـ/٧٦٥م، ترجمته لدى: ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، (ت٥٧١هـ/١١٧٦م)، **تاريخ دمشق**، تحقق: عمرو بن غرامة، طبعة عام ١٤١٥هـ/١٩٩٥، دار الفكر للطباعة، بيروت، لبنان، ٣١/٥٥-٦٨.

(٣) هو عبد الرحمن أبو مسلم الخرساني، صاحب الدعوة العباسية، والقائم بإنشاء الدولة العباسية، يقال: أنه كان سفاكًا للدماء، قتل على يد الخليفة الْمَنْصُور سنة ١٣٧هـ/٧٥٥م، ترجمته لدى: البغدادي، **تاريخ بغداد**، ١٠/٢٠٥-٢٠٩، ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، **وفيان الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، إعداد داود القاضي، وعز الدين أحمد موسى، طبعة عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م. دار صادر، بيروت، ٣/١٤٥-١٥٤، الذهبي، محمَّد بن أحمد بن عثْمَّان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **سِيَرَ أَعْلَام النُّبَلَاء**، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة، ط/١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٦/٤٨-٧٢.

(٤) محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طلب الملقب بـ(النفس الزكية)، أعلن خروجه عن الخليفة الْمَنْصُور، واجتمع حوله عدد كبير، فوجه لقتاله في المدينة عيسى بن موسى، ولم يزل يقاتل حتى قتل عام ١٤٥هـ/٧٦٣م، للمزيد عنه يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/٩٤-١٢١.

(٥) **الخوارج**: حزب سياسي خرج في صدر الإسلام، أثناء زحمة الصراع على الخلافة، إذ رفضوا مبدأ الإمامة في قُرَيْش، وجعلوها شورى بين المسلمين، للمزيد عن الخوارج وفرقها وأقولها يُنظر: الحميري، أبو سعيد نشوان (ت٥٧٣هـ/١١٧٨م)، **الحور العين**، تحقيق كمال مصطفى، ط/٢، ١٩٨٥م، دار أزال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص ٢٠٤، ٢٢٧-٢٥٤،٢٣٢-٢٥٧، ٢٦١.

(٦) للمزيد عن تلك السياسة التي انتهجها الخليفة الْمَنْصُور في القضاء على تلك المخاطر يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٣/٧٦وما بعدها، ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد (ت٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، ط/١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٥/١٠٤-١١٢، ١٥١، ١٤٤، ١٤٧، ١٢٧.

(٧) ترجم له: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٤/٢٣٥-٢٣٨، البغدادي، **تاريخ بغداد**، ١٣/٢٣٦-٢٤٥، ابن خلكان، وفيات، ٨/٢٤٤-٢٥٤، الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦هـ/٩٧٦م)، **كتاب الأغاني**، مؤسسة حسان للطباعة والنشر، بيروت (د، ت، ط)، ١٠/٧٥-٨٣.

(٨) ابن خلكان، **وفيات**، ٨/٢٤٥.

(٩) **الهاشمية** مدينة شيدها أبي عبد الله السفاح بالكوفة، واتخذها مقرا لحكمه، وحينما تولى الخلافة الْمَنْصُور سكنها، فهاجمته مجموعة من الخرسانية، وحاصرت قصره، وكادت أن تقتله؛ لكنه تمكن من هزيمتهم، وسميت تلك الواقعة بيوم الهاشمية، الحموي، ياقوت بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) **معجم البلدان**، ط/٢، ١٩٩٥م، دار صادر، بيروت، ٥/٣٨٩.

(١٠) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/٢، (د. ت. ط)، دار المعارف، مصر، ٧/٥٠٤-٥٠٨، ابن خلكان، وفيات، ٨/٢٣٩، ابن الأثير، **الكامل**، ٥/١٢٩-١٣٠.

(١١) البغدادي، **تاريخ بغداد**، ١٣/٢٣٦وما بعدها، ابن خلكان، **وفيات**، ٨/٢٥١، الحميري، نشوان بن سعيد (ت٥٧٣هـ/١١٧٨م)، **ملوك حمير وأقيال اليمن**، و(شرحها خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة)، تحقيق: علي بن إسماعيل المؤيد، وإسماعيل بن أحمد الجرافي، ط/١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، مكتبة الإرشاد، صنعاء، اليمن، المقريزي: تقي الدين (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) **كتاب المقفى الكبير**، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي (د، ت، ط)، ٦/٤٤٩.

(١٢) **تاريخ الرسل**، ٧/٥٠٨.

(١٣) هو: الرَّبيع بن يونس بن محمد بن عبد الله بن أبي فروة كان حاجب الخليفة الْمَنْصُور، ثم وزر له، وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه، توفي سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م، ترجمته لدى: ابن حلكان، **وفيات**، ٢/٢٩٤-٢٩٩.

(١٤) الكراع اسم يجمع الخيل والبغال والدواب والسلاح.

(١٥) **تاريخ الرسل**، ٧/٥٠٨، ويُنظر، ابن الأثير، **الكامل**، ٥/١٢٩، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٧/٧٧.

(١٦) الزبير بن بكار (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م)، **الأخبار الموفقيات**، تحقيق: الدكتور سامي مكي العاني، ط/٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، عالم الكتب، بيروت. لبنان. ص١٨-١٩.

(١٧) هذه الرواية موجودة لدى الطبري، تاريخ الرسل، ٦/٣١٥.

(١٨) الأزدي: أبو زكريا يزيد بن محمد بن أياس (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م)، **تاريخ الموصل**، تحقيق: أحمد عبد الله محمود، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت. ط)، ٢/٣٧٥. وهذه الرواية موجودة لدى: الآبي، منصور بن الحسين الرازي، (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م)، **نثر الدرر في المحاضرات**، تحقيق، خالد عبد الغني محفوظ، ط/١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣/٦٠.

(١٩) هو السري بن عبد الله بن الحارث بن العباس بن عبد المطلب يلتقي نسبه مع الخليفة الْمَنْصُور عند العباس بن عبد المطلب، كان من أحد قادة الخليفة وولاته، تولى المدينة واليمامة والطائف ومكة، وكان يكلفه الخليفة بالحج بالناس.

(٢٠) حج الخليفة الْمَنْصُور سنة ١٤٧هـ/٧٦٥م، وكان لا يزال مَعْن واليًا على اليَمَن، ولعلها تلك الحجة التي التقى فيها باليَمَنيين وشكوا مَعْن، وكان السري الراوي للنص مصاحبًا له في هذه الحجة، ابن الأثير، **الكامل**، ٥/١٨٤.

(٢١) أشار إلى هذه الرواية، الحمزي: عماد الدين إدريس بن علي بن عبد الله (ت ٧١٤هـ/١٣١٤م) **تاريخ اليَمَن من كتاب كنز الأخبار في معرفة السير والأخبار**، تحقيق الدكتور: عبد المحسن مدعج المدعج، ط/١، ١٩٩٢، مؤسسة الشراع العربي الكويت، ص٣٧.

(٢٢) **الأغاني**، ١٠/٨٤-٨٦.

(٢٣) اليعقوبي: أحمد بن أسحاق بن جعفر (ت٢٩٢هـ/٩٠٥م)، **تاريخ اليعقوبي**، علق عليه ووضع هوامشه خليل الْمَنْصُور، ط/١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٦٠/١.

(٢٤) بنو الحارث بطن من مذحج القحطانية، وهم بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك بن أدد، ومالك هو مذحج، ومنهم بني الديان أخوال أبي العباس السفاح، وكان لهم الرئاسة بنجران اليَمَن، ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد بن أحمد الأندلسي (ت٤٥٦هـ/١٠٦٤م)، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط/٥، (د، ت، ط) دار المعارف، القاهرة، ٤١٥/١-٤١٦.

(٢٥) عن الولاة يُنظر: الطبري، إسحاق بن يحيى بن جرير الطبري الصنعاني (المتوفي نحو سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) **تاريخ صنعاء**، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة السنحاني، صنعاء(د، ت، ط)، ص٣٩-١٤٠، الحمزي، تاريخ اليَمَن، ٣٥-٣٧،

(٢٦) الطبري، **تاريخ الرسل**،٥٠٨/٧.

(٢٧) الحمزي، **تاريخ اليَمَن**، ص٣٥، خليفة بن خياط (ت٢٤٠هـ/٨٥٥م)، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق: أكرم ضياء العمري، ط/٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، طيبة للطباعة والنشر، الرياض، الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/٢، تاريخ اليعقوبي، ٢٦٠/١، ابن عبد المجيد، عبد الباقي (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م)، تاريخ ليمن المسمى (بَهْجة الزَّمن في تَّاريخ اليمن)، تحقيق: مصطفى حجازي، ط/٢، ١٩٨٥، دار الكلمة، صنعاء، ص٢٣-٢٥.

(٢٨) الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٧٧/١٣.

(٢٩) الزبير بن بكار، **أخبار الموفقيات**، ص١٨-١٩.

(٣٠) الذهبي، **سير أعلام**، ٧٧/٧-٧٨.

(٣١) الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**، ص١٩.

(٣٢) الاصفهاني، **الأغاني**، ٨٦/١٠.

(٣٣) المصدر نفسه والصفحة.

(٣٤) المصدر نفسه والصفحة.

(٣٥) الزبير بن بكار، **الأخبار الموفقيات**، ص١٩.

(٣٦) المصدر نفسه، ص١٨.

(٣٧) ابن عبد المجيد، **تاريخ اليمن**، ص٢٤.

(٣٨) ابن الأثير، **الكامل**، ٢٢٠/٥-٢٢١.

(٣٩) عن أنساب العرب يُنظر: ابن حزم، **جمهرة**، ٨/١ وما بعدها. ٣٩٩/٢.

(٤٠) عن إسلام أهل اليَمَن يُنظر: الشجاع، عبد الرحمَّن عبد الواحد (الدكتور)، **اليَمَن في صدر الإسلام**، ط/١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، دار الفكر المعاصر، بيروت. ص١١٩-٢٣٥.

(٤١) عن إسلام ملوك كندة يُنظر: الشجاع، **اليَمَن في صدر الإسلام**، ص ١٣٥، ١٧٧، ١٧٢.

(٤٢) الجابري: محمد عابد، **نقد العقل السياسي العربي**، ط/١، فبراير١٩٩٠، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ١٣٠-١٣٥.

(٤٣) المرجع نفسه، ص١٥٢، ١٣٠٠، ١٥٢وما بعدها، وعن حركة الردة والحملات العسكرية التي وجهت إلى اليَمَن يُنظر، الشجاع، اليَمَن في صدر الإسلام، ص٢٧٧-٢٨٦.

(٤٤) عن عبد الله بن سبأ يُنظر: ابن الأثير، **الكامل**، ١٠/٣، ١٢٥، ٣٨، ٣٦، الجابري، **نقد العقل السياسي العربي**، ص٢٠٢-٢١٦.

(٤٥) ناقش ذلك باستفاضة، الجابري، **نقد العقل السياسي العربي**، ص ١٣٥-١٣٦، ٢١٤.

(٤٦) قبيلة كَلْب تنسب إلى حمير بن سبأ ين يشجب بن يعرب بن قحطان، سكنت الشام قبل الإسلام، وحينما فتحت بلاد الشام اعتنقت الدين الإسلامي، إذ دخلوا في علاقات مصاهرة مع معاوية بن أبي سفيان، فتزوج بميسون بنت بَحْدل، وصارت هذه القبيلة من أشد القبائل وقوفاً مع الأمويين، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ١٤٩/٥-١٥٠، جواد علي (الدكتور)، **المفصل في تاريخ العرب**، ط/٤،١٤٢٢هـ/٢٠٠١م دار الساقي، ١٤١/٢.

(٤٧) تُعد معركة مرج راهط من المعارك الكبرى التي وقعت بين جذمي العرب القحطانية والعدنانية، للمزيد يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٦٢/٦-٢٨٣، ابن الأثير، الكامل، ٤٨٠/٣-٤٨٣.

(٤٨) جواد علي، **المفصل**، ١٥٣/٢-١٥٤، ٢٨٧/١٦.

(٤٩) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي (ت٣٤٦هـ/٩٥٦م)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، (د، ت، ط)، ٢٦٦/١ وما بعد، وللمزيد عن ذلك الصراع يُنظر، جواد علي، **المفصل**، ١٤٤/٢-١٥٧.

(٥٠) الجابري، **نقد العقل السياسي العربي**، ص٢٣٩، الراسبي نسبة إلى بني راسب بن ميدعان، وهم حي من أحياء قبيلة الأزد اليَمَنية، قتل في معركة النهروان سنة٣٨هـ/٦٥٩م، ابن حزم، **جمهرة**، ٣٨٦/٢.

(٥١) البردوني، **عبد الله، اليَمَن الجمهوري**، ط/٦، دار الأندلس للطباعة والنشر، ص١٨.

(٥٢) الأصفهاني، **الأغاني**، ٢٢٩/٢٣، الحمزي، **تاريخ اليَمَن**، ص٣٢.

(٥٣) هو من أعلام تابعي التابعين عند الإباضية، ولد بقرية مجز من عُمَان، وانتقل إلى البصرة، وتزود بفكر الخوارج فيها، ثم انظم إلى حركة عبد الله بن يحيى الكندي في حضرموت، وكلفه على رأس جيش للاستيلاء على الحجاز، قتل سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م.

(٥٤) عن حركة عبد الله بن يحيى الكندي ومعركة قُدَيْد يُنظر: **تاريخ خليفة**، ص٣٧٤ وما بعد، الأصفهاني، **الأغاني**، ٢٢٤/٢٣-٢٧٠، ابن الأثير، **الكامل**، ٣٩/٥-٥١.

(٥٥) بنو زُرَيقْ بطن من الخزرج القحطانية، وهم بنو زُرَيقْ بن عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج، ابن حزم، **جمهرة** ، ٣٥٧/٢-٣٥٨.

(٥٦) الأصفهاني، **الأغاني**، ٢٤١/٢٣. وقد ورد هذا النص بشيء من الزيادة والنقصان لدى، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٩٦/٩.

(٥٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٩٦/٩.

(٥٨) **الأغاني**، ٢٤٤/٢٣.

(٥٩) المسعودي، **مروج الذهب**، ٤٤٨/١.

(٦٠) تفاصيل المعارك التي حدثت لدى، الأصفهاني، **الأغاني**، ٢٦٣/٢٣-٢٦٩.

(٦١) **الأغاني**، ٢٦٩/٢٣-٢٧٠.

(٦٢) هو ثابت بن نعيم بن زرعة بن روح بن زنباع بن روح بن سلامة بن حداد بن حديدة الجذامي اليَمَني، كان فارسًا وقائدًا يمنيًا شجاعًا، وهو رأس اليمن في بلاد الشام، تولى عدة أعمال في بلاد الشام منها والي فلسطين، ترجمته لدى: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ١٤٣/١١-١٤٤.

(٦٣) ومما أثار حماس اليمانية في الشام تلك القصيدة التي قالها عطية بن الأسود الكلبي، تتكون من عدة أبيات منها هذا البيت: (يا ثابت بن نعيم دعوة جزعًا .. عقت أباها وعقت أمها اليَمَن)،

والأبيات كاملة لدى: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ١١/١٤٣-١٤٤، ٤٠/٤١٠-٤١١.

(٦٤) **تاريخ اليعقوبي**، ٢٦٠/١، الآبي، **نثر الدرر**، ٦٠/٣، ٧٧/٤.

(٦٥) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/٢.

(٦٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦٧) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/٢، الآبي، **نثر الدرر**، ٦٠/٣.

(٦٨) **تاريخ اليعقوبي**، ٢٧١/١.

(٦٩) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/١.

(٧٠) **تاريخ اليعقوبي**،٢٧١/١.

(٧١) الزبيدي، **تاج العروس**، ١٥٨/٢٣-١٦٢.

(٧٢) وعن الأحلاف، يُنظر، جواد علي، **المفصل**، ٣٧٠/٧-٣٨٧.

(٧٣) الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م)، **الأخبار الطوال**، تحقيق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربي، ط/١، ١٩٦٠م، ص٤٦.

(٧٤) المصدر نفسه، ص٣٥٣-٣٥٤.

(٧٥) الجابري، **نقد العقل السياسي العربي**، ص١٦٠.

(٧٦) **تاريخ دمشق**، ٤٥١/٣٧-٤٥٧.

(٧٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٤١٦/٥-٤١٧.

(٧٨) هو شيخ خرسان وفارسها في عصره، وأحد الدهاة والرؤساء ولد بكّرْمان. وإليها نسبته، وأقام فيها حتى قتل على يد نصر بن سيار غيلة، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ١١٩/٩، ٢٨١، الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص٣٤٠-٣٥٤،

(٧٩) الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص٣٥١.

(٨٠) ذكر الدينوري بنود الْحِلْف، **الأخبار الطوال**، ص٣٥٤،٣٥٢.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٣٥٤-٣٥٧، وللمزيد يُنظر: **تاريخ اليعقوبي**،٢٤٤/١، ابن الأثير، **الكامل**، ٤٩٤/٤-٤٩٧، ١٧/٥-٢١.

(٨٢) ابن الأثير، **الكامل**، ٢١/٥.

(٨٣) **تاريخ اليعقوبي**،٢٣٧/١. وللمزيد عن دور أهل اليمن ورَبِيعَة في خرسان في قيام الدولة العباسية يُنظر: الدينوري، **الأخبار الطوال**، ص٣٥٠-٣٦٣.

(٨٤) **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/٢.

(٨٥) الأصفهاني، **الأغاني**، ٨٦/١٠.

(٨٦) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/٢.

(٨٧) **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/٢.

(٨٨) **تاريخ اليعقوبي**، ٢٦٩/١.

(٨٩) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٩٠) المصدر نفسه، ٢٦٠/١.

(٩١) للمزيد عن أوضاع اليمن قبل تعيين معن واليًا على اليمن يُنظر: إيمان أحمد شمسان، **اليمن في العصر العباسي الأول** (١٣٢-٢٠٢هـ/٧٥٠-٨١٨م)، ط/١، ٢٠٠١م، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة، ص١٠٨-١٣٠.

(٩٢) القليس كنيسة في صنعاء إلى جانب قصر غمدان، بنهاها أبرهة بن الصباح الحبشي، وجعل الناس يحجون إليها، جواد علي، المفصل، ١٩٠/٦-١٩٣، إيمان شمسان، **اليمن في العصر العباسي**، ص ١٠٩-١١١.

(٩٣) من الولاة الذين تولوا اليَمَن من بني عبد المدان الحارثي: زياد بن عبيد الله الحارثي، ومحمد بن زياد بن عبد الله الحارثي، وعبد الله بن مالك الحارثي، وعلي بن الربيع بن عبيد الله الحارثي، والربيع بن عبد الله بن الربيع الحاثي، وعبد الله بن الربيع بن عبيد الله الحارثي. ابن جرير الصنعاني، **تاريخ صنعاء**، ص٤٠-٤١، الحمزي، **تاريخ اليَمَن**، ص٣٥-٣٧، إيمان شمسان، **اليمن في العصر العباسي**، ص١٩٧-١٩٨.

(٩٤) تاريخ اليعقوبي، ٢٦٠/١.

(٩٥) المصدر نفسه، ٢٦٩/١،٢٦٠.

(٩٦) مخلاف واسع في اليمن، يُنسب، إلى الْمَعَافِر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ، وهم أهل جدّ ونجدة، إذ سكنها بطون من كندة هما: السَّكَاسِك، وَالسُّكُون ابني أشرس بن كنده، وهي المنطقة المعروفة حاليًا (الحُجَرِيَّة) جنوب مدينة تعز، ابن حزم، جمهرة،٤١٨/١-٤٢٩،٤١٩-٤٣٢، المقحفي، إبراهيم أحمد، **معجم البلدان** والقبائل اليمنية، طبعة عام ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، دار الكلمة للطباعة والنشر، صنعاء، **اليمن**، ١٥٦٨/٢-١٥٦٩.

(٩٧) حضرموت إقليم واسع شرق اليَمَن ذات السكن القبلي الكبير لقبائل حضرموت وقبائل كندة منهم بنو الأشرس وبنو معاوية، ابن حزم، **جمهرة**، ٤٢٩/١-٤٣٢، المقحفي، **معجم البلدان**، ٤٧٦/١-٤٧٨.

(٩٨) **تاريخ اليعقوبي**، ٢٦٠/١، ابن عبد المجيد، **بهجة الزمن**، ص٢٤.

(٩٩) المقريزي: **كتاب المقفى الكبير**، ٤٤٩/٦.

(١٠٠) **تاريخ صنعاء**، ص٤٢.

(١٠١) الجندي، أبو عبد الله بهاء الدين محمد بن يوسف (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، **السلوك في طبقات العلماء والملوك**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط/١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٨٣/١.

(١٠٢) السلوك، ١٨٣/١-١٨٤، ويُنظر، ابن جرير الصنعاني، **تاريخ صنعاء**، ص٤٢، الحمزي، **تاريخ اليَمَن**، ص٣٦، ابن عبد المجيد، **تاريخ اليمن**، ص٢٤.

(١٠٣) المقريزي، **المقفى الكبير**، ٤٤٩/٦.

(١٠٤) **تاريخ اليَمَن**، ص٣٧.

(١٠٥) المقريزي، **المقفى الكبير**، ٤٥٠/٦.

(١٠٦) ابن جرير الصنعاني، **تاريخ صنعاء**، ص٤٢، والقصيدة بكاملها في ديوان الأعشى.

(١٠٧) القصيدة بكاملها موجودة على موقع شبكة شعر مروان بن أبي حفصة ٢٠٢٠، الرابط، bait<http://she3r.net

(١٠٨) البردوني، **اليَمَن الجمهوري**، ص١٤-٢٢.

(١٠٩) الأصفهاني، **الأغاني**، ٨٦/١٠.

(١١٠) **تاريخ اليعقوبي**، ٢٦٠/١.

(١١١) الآبي، **نثر الدرر**، ٦٠/٣، ابن عبد ربه، **العقد الفريد**،٤٤/٢.

(١١٢) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٣٧٧/٢.

(١١٣) **مروج الذهب**،٤٤٨/١.

(١١٤) الأزدي، **تاريخ الموصل**، ٣٧٥/٢.

(١١٥) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت بعد ٣٤٠هـ/٩٥٢م) الإكليل (في أنساب ولد الهميسع بن حمير بن سبأ)، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط/٢، ١٢٧/٢، ١٤٠، ومساكن آل خنفر بصعدة.

(١١٦) **تاريخ اليعقوبي**، ٢٦٩/١.

(١١٧) الجندي، **السلوك**، ١٨٤/١.

(١١٨) الحمزي، **تاريخ اليَمَن**، ص٣٧.

(١١٩) ابن الأثير، **الكامل**، ٢٢٠/٥.

(١٢٠) الأمثلة كثيرة على ذلك منها أن أبا خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج وفد على مَعْن إلى اليَمَن، وأكرمه بـخمسة

عشر بغلاً، عليها عصب اليَمَن ودراهم، وضروب من الخير، كما أكرم الشاعر الحسين بن مطير لمدحه إياه بسبعة ألف دينار، وكذلك شاعره مروان بن أبي حفصه وغيرهم كثر، للمزيد عن ذلك يُنظر: البلاذري، **أنساب الأشراف**، ٢٣٦/٤-٢٤٠، الآبي، **نثر الدرر**، ١٢٣/٢، ٩٢/٧.

(١٢١) ابن كثير، **الكامل**، ٢٢٠/٥.

(١٢٢) الطبري، **تاريخ الرسل**، ٦٥/٨.

(١٢٣) جواد علي، **المفصل**، ٣٩٨/٧-٤٠٠.

(١٢٤) الهمداني، **الإكليل**، ٣٢٧/٢-٣٢٨، الحميري، **ملوك حمير**، ص ٢١٣.

(١٢٥) الحميري، **ملوك حمير**، ص٢١٣، المقريزي، **المقفى الكبير**، ٤٤٩/٦-٤٥٠. وسجستان من أرض أفغانستان حاليًا.

(١٢٦) الهمداني، **الإكليل**، ٣٣١/٢، الحميري، **ملوك حمير**، ص٢١٣، ومدينة بُسْت من أرض سجستان من أفغانستان حاليًا.

(١٢٧) المقريزي، **المقفى الكبير**، ٤٤٩/٦-٤٥٠.

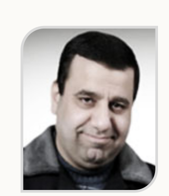
(١٢٨) وممن تعاون معهم في الرجوع إلى عدن أهل اليمن في الشام ومصر، المقريزي، **المقفى الكبير**، ٤٥٠/٦.

(١٢٩) المصدر نفسه، والصفحات نفسها. وقصير هذ هو من أخذ بثأر سيده جذيمة من الملكة الزباء، والقصة مشهورة متناقلة في كتب الأدب والتاريخ.

(١٣٠) دونت بعض المصادر نتف من تلك القصائد الشعرية للمزيد يُنظر: الحميري، **ملوك حمير**، ص٢١٤-٢١٥، المقريزي، **كتاب المقفى**، ٤٥١/٦.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تاريخ مفهوم الكمون الحراري
وإسهامات العلماء العرب والمسلمين فيه



د. سائر بصمه جي
دكتوراه في تاريخ العلوم الأساسية
باحث في تاريخ العلوم العربية
حلب – الجمهورية العربية السورية

مُلَخّصْ

يشير مفهوم الكمون الحراري (Thermal latency) إلى استعداد وتهيؤ الجسم للتحول من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى أو إخراج ما يكمن فيه من الحرارة بطريقةٍ ما؛ فالجسم يكون قابلاً للاحتراق لأن خاصية الاحتراق كامنة فيه، وتقوى هذه الخاصية وتبرز بشكل واضح لدى ملامسة الجسم للنار أو لدى احتكاك جسم بآخر. وقد انتشر هذا المفهوم زمنًا طويلاً بين صفوف العلماء نظرًا لعدم وضوح الفرق بين مفهوم الحرارة ودرجة الحرارة. وعندما توضح الفرق في القرن الثامن عشر الميلادي على يد جوزيف بلاك، تبدّل مواضع الكلمات في المصطلح وأصبح العلماء يتحدثون عن مصطلح الحرارة الكامنة (latent heat) الذي يعرّف بأنه كمية الحرارة التي تمتصها أو تطلقها المادة التي تتغير حالتها عند درجة حرارة وضغط ثابتين. المثال الشهير على الحرارة الكامنة هو الذي نراه لدى قيامنا بتسخين كمية من الماء والانتظار حتى يبدأ الماء بالغليان، إذْ في أثناء انتظارنا كان الماء يمتص كميةً من الحرارة (أو الطاقة الحرارية) ويجعلها تكمن فيها كمونًا حتى تصل إلى الدرجة ١٠٠ مئوية ويبدأ عندها بالغليان، وهكذا يحدث إذا رغبنا بتبخير الماء. تأتي أهمية هذا البحث أنه يبرز لنا كيف انتقل مفهوم (الكمون الحراري) من صيغته الفلسفية إلى المفهوم الفيزيائي (الحرارة الكامنة) الذي أسهم بالكشف عن الحدود الفاصلة بين الحرارة ودرجة الحرارة. وقد حاولنا في هذا البحث اعتماد المنهج التاريخي المقارن، وذلك لمعرفة أوجه الشبه والاختلاف بين مختلف الأفكار التي طرحتها كل الحضارات حول مفهوم الكمون الحراري.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٦ أغسطس ٢٠٢٠
تاريخ قبـول النشـر: ١٤ أكتوبر ٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

تاريخ العلوم؛ كمون حراري؛ حرارة كامنة؛ اليونانيون؛ العلماء العرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.248542

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سائر بصمه جي. "تاريخ مفهوم الكمون الحراري وإسهامات العلماء العرب والمسلمين فيه".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٠٥ – ١١٦.

Corresponding author: saerbasmaji@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إن حالة الكمون الحراري التي درست وفق المفهوم القديم هو حالة خاصة من نظرية الكمون العامة التي تقول إن كل شيء موجود في كل شيء، وسنجد أن العلماء العرب والمسلمين أكثر من أسهم في تطوير هذه النظرية، انطلاقًا من جذورها اليونانية. بالمقابل فقد كان مفهوم الكمون الحراري سائدًا لدى الأوربيين منذ أوائل عصر النهضة أيضًا وحتى أيام جوزيف بلاك، سواء بالصورة السائدة في الفلسفة العربية أو اليونانية، فقد كان هناك اعتقاد بأن الحرارة مضغوطة داخل المادة وتخرج كما تخرج الكهرباء من خلال الاحتكاك بين جسمين. أهمية تناول مفهوم الكمون -بشكله العام والحراري بشكله الخاص-هو ارتباطه بالكثير من الأبحاث الفلسفية التي تعد مدخلاً أساسيًا في مجالي الفيزياء والميتافيزيقا، سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، مثل البحث في الذرّة (الجوهر الفرد)، أو البحث في القوة والفعل، أو البحث في مسائل حدوث الكون وقدمه، وحتى مسائل التوحيد[١].

أولاً: اليونانيون

الكمون بشكل عام والكمون الحراري بشكل خاص بدأت فكرته من أناكساغوراس والرواقيين، وكانت بمثابة حجر الأساس الذي سيبني عليه العلماء الرومان والعرب والمسلمين نظرياتهم فيه.

١/١-أناكساغوراس (القرن ٥ ق.م)

قد يكون أناكساغوراس (توفي ٤٢٨ ق.م) Anaxagoras أول من أطلق فكرة الكمون والظهور، حيث تعود أصول الأشياء. والواقع أن هذه الفكرة ستكون الأساس الذي سيبني عليه أرسطو (توفي ٣٢٢ ق.م) Aristotle فكرته في مفهومي القوة والفعل، بمعنى تكون الأشياء مختفية بالقوة وتظهر عند الفعل، مثل قولنا نريد بناء منزل (مجرد التفكير ببناء المنزل يعني أن الفكرة أصبحت في حيز القوة)، فإذا بنينا المنزل فقد أصبحت الفكرة في حيز الفعل. وقد قال أناكساغوراس: "حيث قدر الأشياء كامنة في المبدأ (الجسم) الأول، وإنما الوجود ظهورها من ذلك الجسم كما تظهر السنبلة من الحبة الواحدة والنخلة الباسطة من النواة الصغيرة، والإنسان الكامل الصورة من النطفة المهينة، والطير من البيض وكل ذلك ظهور عن كمون وفعل عن قوّة وصورة عن استعداد ما"[٢].

٢/١-أرسطو (القرن ٤ ق.م)

بخصوص العلاقة بين القوة والفعل المرتبة بالحرارة، فإن الحرارة هي قوّة التسخين، أي سببها الوحيد[٣] الذي ينجم عنها. لكن (القوة) وفقًا للمفهوم الأرسطي لا تعنيه كما نفهمها اليوم، من حيث القدرة على إحداث تغيير فيزيائي، وإنما هي كما ذكرنا أقرب لمفهوم إضمار الفعل، حيث يأتي الفعل ليجسد ما أُضْمِرَ وكمن.

٣/١-الرواقيون (القرن ٤ ق.م)

نشأة الكون عند الرواقيين وكل ما فيه هو من النار التي كانت توجد وحدها في أول الأمر في الخلاء الذي لا نهاية له؛ ثم تكاثفت النار إلى هواء وتكاثف الهواء إلى ماء، وتتولد من الماء بذرة مركزية هي العلة البذرية أو قانون العالم؛ وهذه البذرة هي التي تحوي العلل البذرية لجميع الكائنات الحية، بحيث يكون كل فرد بمثابة (المزيج الكلي) لكل ما سينشأ عنه؛ وبعد فترة من الزمن يصبح هذا الكائن الحي قادرًا بدوره على إنتاج بذرة كائن جديد يشبهه، وبعد السنة الكبرى، أي عندما تعود الكواكب إلى وضعها الأول، ينتج العالم بذرةً ينشأ عنها عالم جديد[٤]. وبذلك يغدو مفهوم الرواقيين في كمون الأشياء بعضها في بعض وخروجها بعضها من بعض آليًا، نتيجة لإنكار مفهوم "القوة والفعل" الذي طرحه أرسطو[٥]، لكننا سنجد مقاربة من نوعٍ ما سيقوم بها جابر بن حيان (توفي 199هـ/٨١٥ م) بين الرواقيين والأرسطيين فيما بعد.

ثانيًا: الرومانيون

حاول الشاعر والفيلسوف الروماني تيتوس لوكريتيوس كاروس (حوالي ٩٩-٥٥ ق.م) Lucretius أن يوجد علاقة بين الحرارة والجسم الحامل لها، فقد شبه الحرارة بالروح التي تحلّ بالجسد، وعندما تغادره فإن الجسد لن يخسر شيئًا من ذرات مادته. لأن الأمر ليس كما في حالة الماء السائل الذي يتخلص في أحوال كثيرة من الحرارة التي أعطيت له، ومع ذلك فإنه هو ذاته لا يمزق إلى قطع، لذاك السبب يبقى بدون أن تنزل به خسارة[٦]. وتبدو فكرة لوكريتوس منطقية جدًا، فالجسم في الحالة الطبيعية يكتسب الحرارة من مصدر خارجي تجعله يسخن، وعندما يبرد فإن هذه الحرارة التي اكتسبها تخرج منه. وبذلك تكون الحرارة عنصر غير مضمر أو كامن في الجسم، أي ليست في طور (القوة) الذي يخرج بالتسخين كما قال أرسطو من قبل. كما تناول الفيلسوف الروماني لوسيوس لا كتانتيوس (نحو ٢٥٠-نحو ٣٢٥م) L. Lactantius مفهوم الكمون، على غرار تناوله ما سيتناوله بعد ذلك إبراهيم النظّام

(توفي 231هـ/ ٨٤٥م). فقد كان يعتقد بأن النار كامنةٌ في النار والحجر[٧]. ولكن لا نعلم إن كان النظّام قد تأثر بكتابات لا كتانتيوس أو أن أعماله قد ترجمت للعربية أصلاً.

ثالثًا: العلماء العرب والمسلمين

ورد في معجم مقاييس اللغة لابن فارس حول مادة (كَمَنَ):" الْكَافُ وَالْمِيمُ وَالنُّونُ أُصَيْلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِخْفَاءٍ. يُقَالُ: كَمَنَ الشَّيْءُ كُمُونًا. وَاشْتِقَاقُ الْكَمِينِ فِي الْحَرْبِ مِنْ هَذَا. وَزَعَمَ نَاسٌ أَنَّ النَّاقَةَ الْكَمُونَ: الْكَتُومُ اللِّقَاحِ، وَهِيَ إِذَا لَقِحَتْ لَمْ تَشُلْ بِذَنَبِهَا. وَحُزْنٌ مُكْتَمِنٌ فِي الْقَلْبِ كَأَنَّهُ مُسْتَخْفٍ. وَالْكُمْنَةُ: دَاءٌ فِي الْعَيْنِ مِنْ بَقِيَّةِ رَمَدٍ"[٨].

واصطلاحيًا يعرِّف أبو عبد الله الكاتب الخوارزمي (توفي ٣٨٧هـ/٩٩٧م) في كتابه (مفاتيح العلوم) معنى الكمون فيقول: " الكمون هو استتار الشيء عن الحسّ كالزبد الذي في اللبن قبل ظهوره، وكالدهن في السمسم"[٩]. أما أبو بكر الباقلاني (توفي ٤٠٢هـ/١٠١٣م) فيقول: "الظهور خروج إلى مكان، والكمون انتقال عنه وكونٌ في غيره من الأماكن واستتارٌ ببعض الأجسام"[١٠]. وهكذا نجد أن المعنى اللغوي للكمون يتطابق عند العرب مع المعنى الاصطلاحي إلى حدٍّ كبير. إذْ يقوم مذهب الكمون على الاعتقاد بأن كل شيء يكمن في كل شيء، أي أنه كل شيء فيه جزء من كل شيء. وقد اعتقد العلماء العرب المتفقين مع نظرية الكمون بقابلية الجسم للاحتراق لأن الحرارة كامنة فيه.

ويرى الباحث محمد عاطف العراقي بأن القائلين من العرب بمذهب الكمون قد تأثروا بأنكساغوراس الذي قال بأنه لا يمكن إرجاع الأشياء المركبة إلى عناصر بسيطة، فمهما بلغت عملية تقسيم الأجسام، حسب النظرية الذرية لديموقريطس (توفي ٣٧٠؟ ق.م) Democritus، فإن التقسيم ينتهي دومًا إلى أجزاء متجانسة في الكل: العَظمُ في العظمِ واللحمُ في اللحمِ. وهكذا، فإن كل قطعة مهما صغرت تكون قابلة للتجزئة، وتحوي جميع الأشكال والكيفيات، ولا تختلف عن قطعة أخرى مخالفة لها إلا بالنسب المختلفة التي مزجت فيها على وفقها[١١]. ويعتبر العراقي بأن مذهب الكمون "ينسب في الإسلام إلى إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي الذي جعل من مسألة الكمون النقطة الرئيسة لمذهبه في المباحث الطبيعية"[١٢]. معتمدًا في قوله هذا على ما طرحه معارضو النظّام: عبد القاهر بن طاهر البغدادي (توفي ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) في كتابه (الفَرْقُ بين الفِرَقُ[١٣])، وأبو الفتح الشهرستاني (توفي ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) في كتابه (الملل والنحل[١٤]).

لكننا لا نتفق معه في هذا النسب، فقد وجدنا أن جابر بن حيان، الذي توفي قبل النظّام بنحو ثلاثين سنة قد تكلم في هذا المذهب، ويذكر جابر أن المذهب كان شائعًا ومنتشرًا في عصره. ولكن ربما النظّام كان أكثر من جادل فيه وقدم أمثلة توضيحية موسعة من الطبيعة عليه، وبالتالي ظهر له مؤيدون ومعارضون. خصوصًا وأن سبق للنظّام وأن أثار مسألة الطفرة في الحركة (أي الوثب مع الارتفاع)، والتي قسمت العلماء والفلاسفة أيضًا إلى فريقين متفقين معه ومخالفين له. والجيد في الأمر هو ظهور حركة النقد العربي لهذا المذهب، سواء كان مصدره النظّام أم اليونانيين وعدم قبوله على علاته.

باستثناء جابر بن حيان فقد كان عدد المعارضين والمنتقدين لنظرية الكمون الحراري التي أشاعها إبراهيم النظّام في مذهبه ثمانية أشخاص، أما الذين وافقوه فكان عددهم ثلاثة أشخاص فقط، وهذا يعني أن الغالبية العظمى من العلماء العرب كانت ترفضها وتنتقدها وتحاول أن تقدم التفسير البديل لها. وبالتالي البديل على الفكر اليوناني.

١/٣-جابر بن حيان (القرن ٣هـ/ ٩م)

اعتبر جابر بن حيان أن مفهوم الكمون والظهور يناظر مفهومًا سبق وأن أرسى أرسطو أسسه، وهو القوة والفعل، فالكمون يقابل القوة والفعل يقابل الظهور. فنراه يقول:" إن الطَّلعَ في الرّطب، والرطب في الطلع بالقوة، وإذْ قد بان ذلك فإن في الأشياء كلها وجودًا للأشياء كلها، ولكن على وجوه من الاستخراج، فإن النار في الحجر كامنة <و> لا تظهر، وهي له بالقوة؛ فإذا زُنِدَ أوريَ، فظهرت، وكذلك الشمع في النحل"[١٥]. ثم يؤكد لنا كيف أن هذه النظرية كانت شائعة ولها أتباع فقال: إنّ " أصحاب الكمون والظهور زعموا أن الأجسام لا يوجد منها شيء بسيطًا صرفًا بل كل جسم فإنه مختلط من كل الطبائع، لكنه يُسمى باسم الغالب عليه. فإذا لقيه ما يكون الغالب عليه من جنس ما كان مغلوبًا فيه فإنه يبرز ذلك المغلوب من الكمون ويحاول مقاومة ما كان غالبًا"[١٦]. والظاهر أن جابر كما ذكرنا، حاول أن يقف موقف المحايد من النظرية، محاولاً التوفيق بين الآراء اليونانية ولا يجعل القارئ يقع في حيرة من أمره، أي هل يعتمد مفهوم الكمون أم مفهوم القوة والفعل، وإنْ كل منهما وجهين لعملة واحدة. ومن خلال اطلاعنا الواسع على مؤلفات جابر فقد وجدنا أنه كان يعتمد مفهوم القوة والفعل أكثر مما يعتمد مفهوم الكمون.

٢/٣-إبراهيم النظّام (القرن ٣هـ/ ٩م)

يُصنّف إبراهيم النظّام في الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة[١٧]، ويقرّ الكثيرون بذكائه وقدرته على ابتكار الجديد من الأفكار، وقد لاحظنا أنه لا يخوض في أمرٍ ما إلا لهدف أو غاية، وليس الكلام من أجل الكلام. فيما يتعلق بكلامه في الكمون فقد كان يتعلق عنده بأمرين: كمون الأعراض، وكمون الموجودات. وكان النظّام يقول بكلا النوعين. ويقصد بكمون الأعراض: " أن الأعراض قديمة في الأجسام غير أنها تكمن في الأجسام وتظهر: فإذا ظهرت الحركة في الجسم كمن السكون فيه، وإذا ظهر السكون فيه كمنت الحركة فيه، وكذلك كل عرض ظهر كمن ضده في محلّه"[١٨]. أما كمون الموجودات فقد كان يقسمه إلى ثلاثة أنواع[١٩]:

١- كمون الاختناق: وهو الذي نجده في كمون الزيت في الزيتون والدهن في السمسم والعصير في العنب، وهذا النوع لا يعارضه فيه أحد.

٢- كمون ما هو بالقوة، كالنخلة في النواة والإنسان في النطفة.

٣- كمون العناصر المتضادة: حيث تتكون الأجسام عنده من عناصر وأجناس متضادة، مثل عود الحطب المكوّن من نار وماء وتراب وهواء أو دخان، والنار حرّ وضياء والماء سيولة ورطوبة.

وحسب التقسيمات السابقة فإن مفهوم الكمون أعمّ وأشمل من مفهوم القوة والفعل الذي جاء به أرسطو قبل ذلك. أما قول النظّام وأتباعه بكمون صفات المادة، يعني استقلال هذه الصفات عن الذات المدركة. وبذلك فإنه يذهب عكس ما قاله الفيلسوف الإنكليزي جورج باركلي (١٦٥٨-١٧٥٣م) G. Berkeley في القرن الثامن عشر الميلادي[٢٠].

وقد تكلم الشهرستاني عن مصدر مذهب النظام فقال: "وإنما أخذ هذه المقالة من أصحاب الكمون والظهور من الفلاسفة، وأكثر ميله بدأ إلى تقرير مذاهب الطبيعيين منهم دون الإلهيين"[٢١]. وقول الشهرستاني "أخذ هذه المقالة" ربما يعني بها الرواقيين، فقد كانت تجري له مناظرات مع الديصانية[٢٢] وغيرهم من الفرق التي ظهرت في عصره. ويقرر الباحث جوزيف هورفتز J.Horovitz أن قول النظام في الكمون يرجع إلى العلة البذرية عند الرواقيين، وهو أن الأشياء بجملتها كانت كامنة في الجسم الأول أو العقل على هيئة بذور، وأنها تظهر منه بالضرورة كظهور الحيوان أو النبات من البذرة، ثم يرجع هورفتز إلى نص آخر ذكره الشهرستاني وقال فيه إن أول من تكلم عن الظهور والكمون هو أناكساغوراس[٢٣]، وقد أكد ذلك المستشرق الألماني ماكس هورتن M.Horten أيضًا[٢٤]. لكن الفرق بين أناكساغوراس والنظّام أن النار –عند الأخير- كامنة في كل العود وهي تمثل أحد أركانه الأربعة: النار والدخان والماء والرماد، وبذلك فإن العناصر المفردة متناهية العدد، في حين افترض أناكساغوراس أن عناصر الأشياء كلها في كل شيء، فالنبات فيه مثلاً جميع الأشياء، ولكنها مختلطة ومتناهية في الصغر، لذا يتعذر مشاهدتها[٢٥].

من ناحية أخرى، ينقل لنا الجاحظ ردّ النظّام على أصحاب الأعراض الذين اعترضوا على القول بكمون النار في الخشب، فقد قال النظّام:" فإن اعترض علينا مُعترضٌ من أصحاب الأعراض فزعم أن النارَ لم تكن كامنةً وكيفَ تكمُنُ فيه وهي أعظم منه؟ ولكنّ العودَ إذا احتكّ بالعود حَمِيَ العودان وحمي من الهواءِ المحيط بهما الجزءُ الذي بينهما ثم الذي يَلي ذلك منهما، فإذا احتدم رقّ ثم جفّ والتهب فإنما النارُ هواءٌ استحالَ. والهواءُ في أصل جوهرِهِ حارٌّ رقيق، وهو جسم رقيق وهو جسمٌ خَوَّارٌ جيِّد القبول سريع الانقلاب"[٢٦]. إذًا حتى يخرج العود الحرارة الكامنة[٢٧] بداخله وتحدث عملية الاحتراق لابد من توفر العناصر المساعدة مثل الاحتكاك والهواء.

أخيرًا، واعتمادًا على مفهوم الكمون الحراري حاول النظّام تفسير عملية غليان الماء كما يأتي: عندما يتم تسخين الماء فإن انطلاق الفقاعات منه ليست مجرّد هواء، كما يعتقد الكثيرون، وإنما هذه الفقاعات عبارة عن عنصر ناري كان كامنًا في بنية الماء، وقد تهيّج وانطلق من أسره بتأثير النار الخارجية، فرفعت معها أجزاء من الماء. وهكذا فإن النار والماء يمكنهما أن يوجدا جنبًا إلى جنب، ولكن اتصالهما وانفصالهما لا يتم إلا بوساطة قوة قاهرة كونهما غير متجانسين بطبيعة الحال[٢٨].

٣/٣-القاسم بن إبراهيم الرّسي (القرن ٣هـ/ ٩م)

أنكر القاسم بن إبراهيم الرّسي (توفي ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م) مفهوم الكمون، وأن تكمن الأشياء بداخل بعضها بعضًا. وقد ورد هذا النكران في عملين: الأول في (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع)[٢٩]، والثاني في رسالة مخطوطة ضمن مجموع موجود في مكتبة الدولة ببرلين[٣٠]. وخلاصة قوله في الموقعين السابقين؛ أنه يورد لفظ الكمون بمناسبة مذهب أناكساغوراس، والذي سيُعرف عند العرب بأنه صاحب الكمون. وينكر أن النخلة تكمن في البذرة أو تتطور عنها[٣١]. لكنه لا يقدم البديل عن فكرة النظام، فكان رأيه مجرّد اعتراض ليس أكثر.

٤/٣-أيوب الرهاوي (القرن ٣هـ/ ٩م)

انتقد أيوب الرهاوي (أيوب الأبرش السرياني) (القرن ٣هـ/ ٩م) في (كتاب الكنوز) مذهب الكمون الذي أشاعه النظام، ويذكر أيوب أنه التقى به شخصيًا، وقد حاول نقض هذا المذهب في كتابه بأكثر من ١٢ صفحة، ربما لكون الرهاوي يتبع مذهب أرسطو الذي يقرّ بأن النار عبارة عن هواء ساخن، بخلاف النظام الذي يعتبر النار تكمن في الحطب والحجر. لكنه في الوقت نفسه يعترف بجهود النظام وبأنه فيلسوف وليس متكلم، وهو ما يعني قدرة النظام على إقامة مذهب منسّق[٣٢].

٥/٣-عبد الله الكعبي (القرن ٤هـ/ ١٠م)

نفى عبد الله أبو القاسم الكعبي (توفي ٣١٩هـ/ ٩٣١م)، ومن معه من البغداديين، فكرة الكمون التي طرحها النظّام بقوله:" إن النار تحرق ما لاقاها، على قدر قلته وكثرته، وأجزاء الحجر وإن لم تكن تقوى على إحراقها فهي تسحقه". ويعلل البغداديون قوله بطريقة منطقية قائلين: "لو كان في الخشب نار كامنة لكان يجب أن تحترق الخشبة ‹نفسها›، وبعد، فكان يجب إذا سحقنا الخشب أن تظهر تلك النار". بالمقابل رد البصريون المؤيدون للنظّام على هذا التفسير بقولهم: "إن النار في الخشب متفرقة في مواضع منه، هي يسيرة وقليلة، وفي الخشب صلابة تمنع النار من الاشتعال والتأجج". يقصد بفكرة الكمون والمداخلة اختلاف قابلية الأجسام على الاشتعال، وما تعطيه هذه الظاهرة لمتبني الفكرة من خيال في وجود النار داخل الخشب أو القطن، مثل وجود الكهرباء داخل الأجسام. ومع أن الكعبي نفى تلك الفكرة فإنه تبنى في مكان آخر فكرة (كمون الماء في الهواء) كما فعل البصريون، وقد قال في ذلك "إن الهواء يستحيل ماءً"[٣٣]. وقصد بذلك أن الهواء يتضمن عنصر الماء ويظهر ضمن ظروف معينة، مثل تكاثفه على سطح كوب ماء بارد.

٦/٣-أبو الحسن الأشعري (القرن ٤هـ/ ١٠م)

ينقل لنا محمد بن الحسن بن فُورَك (توفي 406هـ/١٠١٥م) عن أبي الحسن الأشعري (توفي 324هـ/٩٣٦م) توضيحه لمفهوم الكمون كما يجب أن يفهم، فهو إما يعني أن جسم ما يحلّ في جسم آخر، أو أن يكون الجسم يحوي على جسم آخر، لكن لا يمكن لصفة عارضة أن تكون كامنة في الجسم وأصيلةً فيه. قال الأشعري:" إن الكمون والظهور من صفات الأجسام. ولا يصحّ وصف الأعراض بذلك على الحقيقة لأن هذه الصفة تختصّ بما يكون متحيّزًا يجوز عليه الحركة والسكون، وذلك من أوصاف الجوهر. وكان يقول إن معنى كون الشيء في الشيء قد يكون على وجهين، أحدهما بمعنى المجاورة والمماسة وذلك ككون حلول الجسم في الجسم، وقد يكون على معنى أنّ الشيء حاوٍ له فيكون ظرفًا له ووعاء له. فأما القول بأن العرض في الجوهر والصفة في الموصوف، فكان يأبى ذلك ويقول إن ما لا يصحّ أن يحلّ الشيء فلا يصح أن يكون فيه، لأن كون الشيء في الشيء إنما يصح إذا صحّ حلول فيه. وقد بيّنا أنه كان يقول إن الحلول من صفات الجوهر، وإن العرض لا يصح أن يكون حالاً في الشيء ولا الصفة حالّة في الموصوف"[٣٤].

٧/٣-القاضي عبد الجبار (القرن ٥هـ/ ١١م)

رفض القاضي عبد الجبار (توفي ٤١٥هـ/١٠٢٥م) فكرة الكمون التي طرحها النظام، وقال القاضي إن منطلقه في ذلك هو الاعتقاد بأن الأعراض وكل ما يحدث في الأجسام من تغييرات تحدث بطبع المحل، أي من الجسم الذي تصدر منه. ولهذا فإن القول بالكمون يؤدي إلى جملة من النتائج المرفوضة لدى تطبيقها على العقيدة الإسلامية مثل[٣٥]:

١- نقض نظرية التكليف، إذْ يمكن تؤدي هذه النظرية من جهة مخالفة إلى نتيجةٍ مخالفةٍ، وهي أن الله خلق الكون وأكمن فيه كل ما سيظهر من أفعال وتغيرات، فلماذا يحاسب الإنسان على فعلٍ خُلِقَ فيه ويظهر بطبع محله لا بإرادته.
٢- أن الله لا يخلق الأعراض أصلاً، ما دامت الحركات والتغيرات كلها تحدث بالظهور من الكمون أو بطبع المحل، وهذا يتعارض تمامًا مع القول بالمعجزات.

كما رفض القاضي الحل الحتمي لوجود الأعراض، وإن كان يقبل بالسببية المباشرة لكل متغير، لكن لا يجوز أن يكون السبب بعيدًا كالكمون الذي يزعمون أنه خلق مع الأجسام.

٨/٣-ابن سينا (القرن ٥هـ/ ١١م)

تناول ابن سينا نظرية الكمون بالنقد والاعتراض عليها، مؤيدًا بذلك ما ذهب إليه أرسطو، وذلك لأن أصحابها -من الناحية الحرارية-يقولون بأنه لا استحالة في الكيف وفي الصورة معًا، أي أن الماء لا يسخن في جوهره، وإنما فشت فيه أجزاء نارية داخلية، وما يعتقد أن قد برد تكون قد فشت فيه أجزاء جسدية[٣٦]. ويرد ابن سينا على أصحاب الكمون، الذين يعتبرون الحرارة شيئًا ماديًا، فلو أنّ الحرارة كانت كامنة في جسمٍ ما، ووضع بجواره جسمٌ آخر بارد فإن الحرارة ستنتقل من الجسم الأول إلى الثاني مسببةً برودة الأول، نظرًا لوجود تفاوت في الحرارة بينهما، لكن هذا لن يحدث، إذًا لا يوجد حرارة كامنة في الجسم[٣٧].

ويرى ابن سينا أنّ الأصل في عنصر الحرارة أن يبقى ساكنًا كامنًا في مركز الجسم، ولا يكون تحرّكه عرضيًا عندما تطبق عليه حرارة من مصدر خارجي، "يجب أن تعلم أن الحرارات ليست بسالكة عن المركز، لأن الحرارة غير متحرّكة اللهم إلا بالعرض لكونها في جسم متحرّك ككون إنسان ساكن في سفينة متحرّكة"[٣٨]. كذلك لدى احتكاك جسمٍ بجسم آخر، فلا يمكننا القول بأنه توجد نار قد انفصلت من الحاك ودخلت في المحكوك أو العكس. دليل ذلك بأنه ولا واحد منهما يبرد بانفصالهما فيسخن الآخر بنفوذها فيه، بل إنهما يسخنان ظاهرًا وباطنًا[٣٩].

أما الاستدلال على حدوث السخونة عند الحركة العنيفة فهو يدل على خطأ مذهبهم، لأن ذلك يحدث دون حدوث نار غريبة خارجية يمكن نفوذها في التسخين. فإذا كان لدينا وعاءين أحدهما من النحاس والآخر من الخزف، فإن الحرارة لو كانت نتيجةً لنفوذ النار وانتشارها في الماء، لوجب أن يسخن الماء الذي في قِدْر الخزف قبل الماء الذي في قِدْر النحاس، وذلك لقدرته على النفوذ في الأول أكثر من الثاني، إلا أن الأمر ليس كذلك[٤٠]. أخيرًا، يصل ابن سينا إلى رأيه النهائي بأن الكمون ليس له معنى البتة لأن الجسم يكون باردًا في جميع أجزائه الداخلية والظاهرية ثم يسخن في جميعها. ولو كانت هناك النار كامنةً في جزء منه، ثم ظهرت في جزء آخر، لكانت الحرارة موجودة في ذلك الجزء ثم انتقلت عنه ونزلت في ذلك الجزء مثل البرودة التي كانت موجودة في الجزء المنتقل إليه، وليس الأمر كذلك، وإنما السبب في ذلك هو التحول وليس الكمون ولا المخالطة مع شيء من الخارج[٤١].

٩/٣-أبو رشيد النيسابوري (القرن ٥هـ/ ١١م)

يختلف أبو رشيد النيسابوري (توفي نحو ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) مع رأي شيخه أبو القاسم الكعبي حول الكمون الحراري، الذي سبق وأن أنكره، فالدليل على صحة ما قاله المؤيدون لمذهب النظّام –حسب أبو رشيد- هو أنّ "النار التي تحصل بالقدح في الحجر لا تخلو من أن تكون قد ظهرت من الحجر عند القدح، كما نقوله أو يكون ذلك مما يحدث عند فعل الله تعالى بالعادة أو يكون الهواء بقدحنا في الحجر يستحيل نارًا فتكون الحرارة من فعلنا، ولا يجوز أن يقال إن النار تحصل من فعل الله بالعادة، لأن الحال في ذلك تستمر على طريقة واحدة، ولو كان ذلك حاصلاً بالعادة لكان لا يمتنع أن يكون الحجر لا تنقدح منه النار أصلاً، وإن رُقق وقدح بالحديد المموه"[٤٢]. المدهش في الأمر أن التجربة التي أجراها همفري ديفي (توفي ١٨٢٩م) H. Davy[٤٣] في القرن ١٩م تكلّم عنها أبو رشيد هنا، ونفى إمكانية أن يصدر عن احتكاك قطعتي جليد حرارة، لكن أبا رشيد لم يكمل لنا نتيجة التجربة، فما حصل عليه ديفي هو انصهار الجليد وهو ما لم يشر إليه أبو رشيد.

قال أبو رشيد في وصف تجربته: "ومرةً تنقدح النار إذا ضرب قطعة جليد على قطعة أخرى من الجليد، وقد علمنا فساد ذلك، ولا يجوز أن يقال إن الحرارة تحصل من فعلنا لأن المولد لها يجب أن يكون الاعتماد فكان يجب من غير القدح بالحجر أن نفعل في الهواء حرارةً إذا اعتمدنا عليه وأن نحيله نارًا، وبعد فكان يجب أن لا تفترق الحال سواء قدحنا بحديد مموه أو بما لا يكون سبيله هذا السبيل، وكان يجب أن لا يقترف بعض الأحجار من بعض لأن المعتبر فيما تولد بالاعتماد والاعتماد حاصل على حد واحد في سائر الأحوال، على أنا لو قدرنا على الحرارة لقدرنا على البرودة، ولو قدرنا عليها لكان لا تخلو حال ما نفعله من البرودة أمرين: إما أن تكون مباشرة أو متولدة ولا يجوز أن تكون مباشرة لأن أحدنا ربما يقوى داعيه إلى أن يبرد جسده عندما يجب من حرّ الهواء، ومع ذلك فإنه لا يتمكن من ذلك ولا يجوز أن يكون متولدة في غير محلّ قدرته، لأن السبب الذي يُعدّى به الشيء عن محلّ القدرة ليس إلا الاعتماد، فكان يجب أن يقال في الاعتماد إنه كما يولد الحرارة يولد البرودة، وإن كان كذلك لكان يجب أن يولّد الحرارة والبرودة في حالةٍ واحدة، وذلك محال"[٤٤].

وقد تصدى أبو رشيد بالإجابة لأولئك الذين طرحوا السؤال الآتي: "قالوا لو كان في الخشب نار كامنة لكان يجب أن تحترق الخشبة، وبعد فكان يجب إذا سحقنا الخشب أن تظهر تلك النار وكان يجب أن يسحق الحجر وتفتته أن تظهر النار". فكان الجواب: "إن النار التي في الخشب مفتوقة في مواضع منه، وهي يسيرة قليلة وفي الخشب صلابة تمنع النار من الاشتعال والتأجّج، فلذلك لا يحترق بها ولا تظهر النار بسحق الخشب لأن بالسحق تفترق أجزاء النار وهي يسيرة فتتبدد عند ذلك فلا تظهر ولا تجتمع، وإنما لم يجز أن يسحق الحجر فتظهر النار لما ذكرنا من قلته وصلابة الحجر"[٤٥].

١٠/٣-ابن حزم الأندلسي (القرن ٥هـ/ ١١م)

انتقد ابن حزم، نظرية الكمون النظّامية، وقد حاول أن يمنح نقده هذا ركيزةً برهانية تستند إلى العلم. فابن حزم، بناءً على طبائع المواد، يرى أن الخشب لا يحترق ليس لأن في قلبه نارًا، بل لأن طبيعته أن يحترق كلما قاربته النار. والنواة لا تكمن فيها النخلة كمونًا سابقًا، بل ركبها الله بحيث إنها إذا لامست الرطوبة الأرضية والمناخ المناسب أنبتت النخل. لذلك فالأمر

يتعلق بطبائع الأشياء وليس أن الأشياء كامنة ببعضها، وهناك بون شاسع بين الكمون والطبائع. والمنتقدون لنظرية الكمون، أمثال ضرار بن عمرو (توفي نحو ١٩٠هـ / ٨٠٥م) والأشاعرة، لم تلفت انتباههم هذه النقطة[٤٦]. قال ابن حزم: "أما الكمون فإن طائفة ذهبت إلى أن النار كامنة في الحجر وذهبت طائفة إلى إبطال هذا وقالت إنه لا نار في الحجر أصلاً وهو قول ضرار بن عمرو. قال أبو محمد: وكل طائفة منهما فإنها تفرط على الأخرى فيما تدعى عليها فضرار ينسب إلى مخالفيه أنهم يقولون بأن النخلة بطولها وعرضها وعظمها كامنة في النواة وأن الإنسان بطوله وعرضه وعمقه وعظمه كامن في المني، وخصومه ينسبون إليه أنه يقول ليس في النار حر ولا في العنب عصير ولا في الزيتون زيت ولا في الإنسان دم"[٤٧].

ثم يورد ابن حزم أدلته على عدم صحة مذهب الكمون، فقال: "وكلا القولين جنون محض ومكابرة للحواس والعقول والحق في ذلك أن في الأشياء ما هو كامن كالدم في الإنسان والعصير في العنب والزيت في الزيتون والماء في كل ما يعتصر منه وبرهان ذلك أن كل ما ذكرنا إذا خرج مما كان كامنًا فيه ضمر الباقي لخروج ما خرج وخف وزنه لذلك عما كان عليه قبل خروج الذي خرج ومن الأشياء ما ليس كامنًا كالنار في الحجر والحديد لكن في حجر الزناد والحديد الذكر قوة إذا تضاغطا احتدم ما بينهما من الهواء فاستحال نارًا وهكذا يعرض لكل شيء منحرق فإن رطوباته تستحيل نارًا ثم دخانًا ثم هواء إذ في طبع النار استخراج ناريات الأجسام وتصعيد رطوباتها حتى يفني كل ما في الجسم من الناريات والمائيات عنه بالخروج ثم لو نفخت دهرك على ما بقي من الأرضية المحضة وهي الرماد لم يحترق ولا اشتعل إذ ليس فيه نار فتخرج ولا ماء فيتصعد وكذلك دهن السراج فإنه كثير الناريات بطبعه فيستحيل بما فيه من المائية اليسيرة دخانًا هوائيًا وتخرج ناريته حتى يذهب كله. وأما القول في النوى والبزور والنطف فإن في النواة وفي البزر وفي النطفة طبيعة خلقها في كل ذلك الله عز وجل وهي قوة تجتذب الرطوبات الواردة عليها من الماء والزبل ولطيف التراب الواد كل ذلك على النواة والبزر فتحيل كل ذلك إلى ما في طبعها إحالته إليه فيصير عودًا ولحاء وورقًا وزهرًا وثمرًا وخوصًا وكرمًا ومثل الدم الوارد على النطفة فتحيله طبيعته التي خلقها الله تعالى فيه لحمًا ودمًا وعظمًا وعصبًا وعروقًا وشرايين وعضلاً وغضاريف وجلدًا وظفرًا وشعرًا وكل ذلك خلق الله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين والحمد لله رب العالمين"[٤٨].

وانطلاقًا من فكرة أن الوقائع الحسية ثابتة، ومطردة للعيان، وتفرض وجودها باعتبارها نمطًا من أنماط الخبرة يختلف عن غيره من الأنماط؛ فإنّ ابن حزم ينتقد من ينكر خاصية الحرارة والإحراق في النار فيقول:" ذهب الباقلاني، وسار الأشعرية إلى أنه ليس في النار حرّ... وهذا موضع تشهد الحواس بتكذيبهم... ولعل بطونكم لا مصارين فيها، ورؤوسكم لا أدمغة فيها، لكن الله خلق كل ذلك عند الشدخ، والشقّ"[٤٩].

٣/١١-ابن مثويه (القرن ٥هـ/ ١١م)

انضم ابن مثويه (توفي ٤٦٩هـ/١٠٧٦م) إلى تيار المؤيدين لمذهب الكمون، فقال: " حُكي عن شعيب بن زرارة، وطبقة من قلة المتكلمين، أنهم لم يثبتوا في النار حرارة ولا في الزيتون زيتًا، وأن الحرارة تحدث فيها عند قربنا منها، والزيت يحدث عند العصر. وربما قالوا: بل تحدث فينا الحرارة عند القرب منها، وهذه جهالة مفرطة. وفي ذلك قال بشر بن المعتمر:

يا شعيب بن زرارة يا حمار بن حماره
ألیس في الزيتون زيت وليس في النار حرارة؟

وقد ذهب أبو القاسم إلى أنهما مقدورتان للعباد، وقال: إن أحدنا إذا حكّ راحتيه بالأخرى أو حكّ إحدى الخشبتين بالأخرى حصلت هناك حرارة وهذا يوجب أنه الفاعل لها"[٥٠].

طبعًا لم يقف ابن مثويه عن حدود الاتفاق السابق بإيراد الهجاء اللاذع الذي وجهه بشر إلى شعيب فقط، وإنما قدم أدلته على صحة المذهب فنراه يشير إشارة لطيفة إلى أن عملية الاحتكاك تسبب إثارة (يسميها ابن مثويه انزعاجًا) في المادة التي تتعرض للاحتكاك، وتكون الإثارة أسرع في الأجزاء الحارة منها في الأجزاء الباردة. ويبدو أن ابن مثويه حاول تطبيق هذه الفكرة على المسألة التي تكلم عنها أبو رشيد بأن الحرارة تنشأ بسبب صلابة المادة أو رخاوتها التي تمنع أو تسمح بظهور الحرارة، لذلك فإن حك الجليد بالجليد لا يشبه حك اليدين مع بعضهما، فالجليد لا تكمن الحرارة بداخله، لكن حك قطعتي الجليد يخلق حالة إثارة مؤقتة تكفي لتذيب السطحين المتماسين. أما إذا مرر الإنسان يده على الثوب أو القطن (أي حك مادة صلبة مع مادة رخوة) فإن الحرارة الكامنة تظهر فيهما بشكل أسرع لأن أجزاء الثوب والقطن رخوين.

قال ابن مثويه: "وعندنا أن تلك الحرارة باقية لا أنها حادثة عند الحك. وإنما تنزعج الأجزاء التي فيها حرارة بالحك ومعلوم أن انزعاج الأجزاء الحارة هو أسرع من انزعاج الأجزاء الباردة فلا يكون لأحد أن يقول: كيف تنزعج هي دون غيرها؟ ولو كان الحك هو المولد لم يفترق الحال بين حك إحدى الراحتين بالأخرى وبين

حك الجليد بالجليد، أو حك بعض الميت ببعض لاحتمال المحل في الموضعين للحرارة، وكذلك فقد يثبت حك أسفل القدم بغيره فلا يوجد من الحرارة ما يوجد عند حك الراحتين، ولم تكن العلم إلا أن تلك الصلابة مانعة من ظهور الأجزاء الحارة. وإذا كانت هناك رخاوة ظهرت في الأجزاء الكامنة. وبمثل هذه الطريقة تظهر عند إمرار اليد على الثوب والقطن لئلا ما يشبه انقداح النار"[٥١].

٣/١٢-فخر الدين الرازي (القرن ٧هـ/١٣م)

اكتفى الإمام فخر الدين الرازي (توفي ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م) بتعريفنا بنظرية الكمون بقوله: " أصحاب الكمون والظهور زعموا أن الأجسام لا يوجد منها شيء بسيطًا صرفًا بل كل جسم فإنه مختلط من كل الطبائع لكنه يسمى باسم الغالب عليه. فإذا لقيه ما يكون الغالب عليه من جنس ما كان مغلوبًا فيه فإنه يبرز ذلك المغلوب من الكمون ويحاول مقاومة ما كان غالبًا"[٥٢]. ويبدو من كلامه هذا الموافقة الضمنية على أقوال أصحاب الكمون بشكلٍ عام.

٣/١٣-ابن كمونة (القرن ٧هـ/١٣م)

انضم سعد بن منصور بن كمونة (توفي ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) إلى فريق المعارضين لفكرة الكمون الحراري، وقد استدل على ذلك من الوعاء المغلق بإحكام، حيث لا مكان فيه لانتشار أي شيء، ولو كانت الحرارة تكمن فيه لأطفأتها المياه، وما يظهر من حرارة في الأشياء بعد حكها أو غير ذلك فهو بسبب تحرّكها أو تحريكها، وإذا تسخّنت فإن داخلها وخارجها يتسخن في لحظتها دون أن يحتفظ بأية حرارة تكمن فيه.

قال ابن كمونة: "ثم إذا كان رأس الآنية مسدودًا، وهي مملوءة فأين للفاشي مكان المداخلة، حتى داخل الماء بالكلية، فلا يشاهد فيه إلا الحرارة، وكيف لم يطفئ الماء تلك الأجزاء شيئًا فشيئًا. ولو خالط المتبرد أشياء جمدية لما برد الجمد ما فوقه، إذ ليس من طبع الأجزاء الجمدية الصعود، والمخضخض والمحكوم يتسخن بالحركة ولا نار هناك حتى تفشو فيه. ولا يمكن أن يقال كانت كامنة، فأظهرها الحك والخضخضة، فإن الماء يتسخن بالتحريك، مع أن ظاهره وباطنه كانا باردين، ثم صارا حارّين. ولو كان هناك حرارة باطنة، لأحس بها قبل تحريكه، ثم كيف يصدق بأن النارية المنفصلة عن الخشب، والباقية فيه بعد تحمره، كانت كامنة ولم يحس بها عند الكسر والرض والسحق، وكذا التي في الزجاج الذائب، مع أنه لا يستر ما في باطنه، وكان هذا (مما) لا يحتاج إلى إيضاح لوضوحه"[٥٣].

ثم يحاول ابن كمونة أن يفسّر ظاهرة تسخن الأجسام التي تسقط عليها أشعة الشمس، بأن الأمر يعود إلى استعداد هذه الأجسام لامتصاص الأشعة الحرارية الساقطة عليها عندما تقابلها، مع وجود تناسب طردي بين شدة الأشعة الساقطة ومقدار التسخّن. قال ابن كمونة: "وتستعد هذه الأجسام بمقابلة المضيء لقبول التسخين من المبدأ المفيد له. وتشتد حرارتها بشدة المقابلة، وتضعف بضعفها، ولهذا كان الحر في الصيف أشد، وليس أن الشمس تسخن بذاتها. وإلا لكان الهواء الأبعد عن الأرض أسخن، لأنه أقرب إليها، وليس كذا. فإن الجبال والأبخرة التي في الجو باردة في الصيف، لبعدها عن مطرح الشعاع"[٥٤].

٣/١٤-أيدمر الجلدكي (القرن ٨هـ/١٤م)

أيد الكيميائي المخضرم عز الدين الجلدكي (توفي 743هـ/ ١٣٤٢م) وجود مبدأ الكمون في الكيفيات داخل المادة، وحاول أن يطبّق هذه النظرية على الطبائع الأربع، إذْ عندما يظهر طبع فإن الطبع المقابل له يكمن، وكل ذلك يكون بمقادير مضبوطة حسب علم ميزان النار. قال الجلدكي:" إنه صحّ بالإجماع أن جميع المركبات مركبة من الطبائع الأربع، ولكن لكل منها ميزان معلوم في مبدأ التركيب ثم في الاستحالة ثم في التدريج إلى التمام، ثم عند النهاية وإذا ظهر قوة أحد الطبائع اختفى ضدها وكمن في باطن التركيب، فإذا ظهرت الحرارة كمنت البرودة، وإذا ظهرت البرودة كمنت الحرارة، وإذا ظهرت اليبوسة كمنت البرودة، وإذا ظهرت الرطوبة كمنت اليبوسة، ولكن بموازين ودرجات ومراتب"[٥٥]. ويبدو كلام الجلدكي منطقي في إطار النظرية التي يحتكم إليها، فعندما يوجد خاصية معينة في أي مادة وتكون هي الغالبة، فإن بقية الخصائص الأخرى ستكمن ولا يظهر لها تأثير.

٣/١٥-محمد فضل الحق (القرن ١٣هـ/ ١٩م)

بقي الجدل الفلسفي والعلمي بين العلماء العرب والمسلمين حول الكمون الحراري قائمًا حتى القرن التاسع عشر الميلادي، أي ألف سنة تقريبًا! دون أن يحسم أمره أحد تجريبيًا أو حتى فلسفيًا بشكل قطعي. وقد يكون آخر من ناقش نظرية الكمون الحراري العالم الهندي محمد فضل الحق، فقد ذكر إن ما يدل على بطلان مذهب الكمون خمس ظواهر، يبدو لنا أنه أخذها عمن سبقه:

"أولاً: أن السخونة تحدث بالحركة العنيفة فيما يغلب عليه أحد العناصر الثلاثة الباقية من دون حصول نار غريبة يمكن نفوذها في المتسخّن كالمحكوك، وهو الشيء اليابس الصلب

الذي يماسّه مثله مماسةً عنيفةً كخشبتين يابستين، فإن المحكوك منهما يحمى بل يحترق من دون نار فيه، وهو مما يغلب عليه الأرضية وكالمتخلخل وهو الذي يجعل قوامه رقيقًا متخلخلاً كهواء الكير بإلحاح النفخ فيه ومنع الهواء الخارج من الدخول إليه، فإنه يسخن لا محالة وذلك لأن السخونة مستلزمة للتخلخل بالحركة الشديدة المقتضية لرقة القوام وكالمخضخض وهو الجسم الرطب كالماء ونحوه الذي تحرّك تحريكًا شديدًا فإن يتسخّن أيضًا.

وثانيًا بأن المائعين المتشابهين إذا سُخّنا في إنائين أحدهما مستحصف أي مستحكم الجرم كالنحاس مثلاً، والثاني متخلخل أي مشتمل على الفُرَج والمسامات الصغيرة كالخزف، فلو كان التسخّن بنفوذ النار وفشوّها في المائع لوجب أن يتسخن الذي في المتخلخل قبل الآخر لسهولة النفوذ فيه دون الآخر وليس الأمر كذلك.

وثالثًا بأن الإناء المصموم المفدّم[٥٦] على تقدير هذا المذهب يجب أن يمنع عن تسخن ما فيه تسخنًا بالغًا لامتناع دخول شيء يعتد به فيه إلا بعد خروج شيء يعتد به إذْ التداخل محال وليس كذلك. رابعًا بأن القماقم الصيّاحة[٥٧] إذا ملئت ماءً وشدّ رأسها شدًا محكمًا ووضعت على نار قوية فإنها تنشقّ بعد صيرورة أكثر مائها نارًا وتصيح صيحةً عظيمة هائلة يتنفر عنه الدواب، فحدوث السخونة والنار في داخلها مع امتناع دخول النار فيها وخروج الماء منها يدل على الاستحالة والكون معًا، وهذان الوجهان إن كانا متقاربين لكن ليس مرجعهما واحد كما قيل. لأن الثاني منهما يدل على الكون والاستحالة معًا والأول لا يدل إلا على الاستحالة فقط. وخامسًا بأن الجمد يبرد ما فوقه والأجزاء الباردة لا تتصعد بل تنزل بالطبع ولا قاسر هناك فإذن هو الاستحالة"[٥٨].

وكما أشرنا أعلاه، يبدو من هذه الحجج أنها تلخيص وتجميع لآراء من كل من سبق وأنكر ظاهرة الكمون الحراري. من ناحية أخرى يبدو أن فضل الحق لم تصله نظرية جوزيف بلاك الذي كان قد أعلن عنها عام ١٧٦٢م، أي قبل ١٠٠ سنة من وفاته تقريبًا، وإنما ركز جهده في الرد على ما يتداول ويشيع في إطار الفلسفة الإسلامية والمجتمع المسلم.

رابعًا: الأوربيون

وجدنا كيف أن العلماء العرب والمسلمين ناقشوا حسب ما أوتوا من العلم حول موضوع الكمون الحراري، وكيف له أن يؤثر على حالة المادة بأن يجعلها تحترق أو تسخن إذا كانت صلبة نتيجة للاحتكاك. لكنهم لم ينتبهوا إلى أمر حاسم وهو الفرق بين الحرارة ودرجة الحرارة، وهو ما قام به جوزيف بلانك كما سنرى لاحقًا.

٤/١-فرنسيس بيكون (القرن ١٧م)

أخذ الكمون الحراري عند فرنسيس بيكون (توفي ١٦٢٦م) F. Bacon معنى تخزين وادخار الحرارة، وهو شبيه بالمفهوم الذي كان شائعًا عند أنداده من العلماء العرب والمسلمين، إلا أنه قدّم بعض الأفكار حول كيفية الحفاظ على الحرارة الداخلية التي توجد في الجسم.

قال بيكون: " لا شيء وجد حارًا للمس البشري من بين أجزاء الحيوانات بعد أن تموت أو تُفصل من الجسم. وحتى روث الحصان يفقد حرارته ما لم يُحصر ويُدفن. ومع ذلك فيبدو أن كل روث به كما في عملية تسميد الحقول. كذلك جثث الحيوانات بها حرارة مستترة أو كامنة من هذا النوع، فنجد أن الأرض في المقابر، حيث تتم دفنات كل يوم، تكتسب نوعًا من الحرارة الخفية التي تلتهم الجسد الحديث الدفن أسرع كثيرًا مما تفعل الأرض النقية. ويقال إن الناس في الشرق كانوا يعرفون نوعًا من القماش اللين الناعم المصنوع من ريش الطيور يمكنه صهر الزّبد الملفوف فيه بلطف بوساطة دفئه الخاص"[٥٩].

٤/٢-جوزيف بلاك (القرن ١٨م)

الإشكالية الفلسفية والتجريبية العلمية التي لم يستطع العلماء السابقون حلّها تنبه إليها جوزيف بلاك، فقد أدرك بشكل دقيق إلى وجود فرق بين مفهومي (درجة الحرارة) و(كمية الحرارة)، ولذلك فقد استحدث مصطلحات: الحرارة النوعية والسعة الحرارية وحرارة الانصهار والحرارة الكامنة. وكانت كل بحوثه تتسق مع النظرية المادية للحرارة التي تقبلها المجتمع العلمي بشكل عام[٦٠].

بعيدًا عن هذه الأفكار المشوّقة فإن الخطوة المهمة التي قام بها جوزيف بلاك عندما ذوّب الجليد بتسخينه بلطف ولاحظ أن درجة الحرارة لم تتغيّر. فقد وصل من ذلك إلى التمييز بين كمية الحرارة وكثافتها، حيث إنّ الثانية منهما تقاس بوحدات درجة الحرارة؛ اما الأولى – التي تمتص بواسطة الجليد في عملية الذوبان – فهي التي دعاها بالحرارة الكامنة، وهو المصطلح الذي بقي حتى هذا اليوم[٦١]. وبذلك فإن الحرارة الكامنة تفسّر لنا حالة تحوّل المادة من صلب إلى سائل أو بخار أو العكس. وقد علق على ذلك بلاك قائلاً: "إن تخميناتي يمكن أن تكون كما يأتي: لقد تصورت أن الحرارة، في أثناء الغليان، يمتصها الماء فتدخل في تركيب البخار الذي يتحوّل إليه، وبالطريقة التي يمتصها بها الجليد في الذوبان فتدخل في تركيب الماء الذي يتحوّل إليه"[٦٢].

والواضح من كلامه أنه لم يعرف كيف تدخل الحرارة في تركيب المادة، وهو ما فسّرته فيما بعد النظرية الحركية للغازات.

بدأ بلاك بدراسة الظاهرة المعروفة، وهي أن الثلج عندما يذوب يبقى عند درجة الحرارة نفسها، بينما المادة الصلبة تتحول إلى سائل. وقد طبق بلاك هنا منهجه الحذر والكمي، وأجرى قياسات أوضحت أن الحرارة اللازمة لإذابة كمية من الثلج وتحويله إلى ماء هي كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة كمية الماء نفسها من درجة الذوبان إلى الدرجة ١٤٠ فهرنهايت (أو ٦٠° مئوية). وقد وصف الحرارة التي امتصها الجسم الصلب في حال ذوبانه وتحوّله إلى سائل عند درجة الحرارة نفسها بأنها حرارة كامنة، وأدرك أن وجود هذه الحرارة هو الذي جعل الماء سائلاً وليس صلبًا. وقرر أنه توجد حرارة كامنة مقترنة بانتقال الماء السائل إلى بخار (أو أي سائل آخر عند تحوله إلى حالته البخارية)، وبحث بلاك هذه الظاهرة كميًا أيضًا. وأطلق مصطلح (الحرارة النوعية) على كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة كمية معينة من مادة نختارها بقدر محدد (أي بحسب تعبيراتنا الحالية فإن هذا هو كمية الحرارة اللازمة لرفع درجة حرارة ١ غرام من مادة ما إلى ١ درجة مئوية). وصف بلاك جميع هذه الاكتشافات أمام نادي الجامعة الفلسفي في ٢٣ أبريل/ نيسان من عام ١٧٦٢م، ولكنه لم ينشرها مكتوبة. كما قام بلاك بإجراء تجارب على البخار، ساعده فيها شاب متخصص في صنع الأدوات والأجهزة في الجامعة، اسمه جيمس واط (١٧٣٦-١٨١٩م) J. Watt، أصبحت بينهما علاقة وثيقة جدًا انتهت بنجاح الاثنين في صناعة المحرك البخاري[٦٣].

لقد كان اكتشاف جوزيف بلاك للحرارة الكامنة مفيدًا للكثير من الاختراعات التي أتت بعده، وكان بدايةً لدراسة الترموديناميك. وقد أدى هذا العمل بعد ذلك إلى تطوير المحركات البخارية ومسعر الجليد، كما بيّن أن للمواد المختلفة حرارات نوعية مختلفة[٦٤].

خاتِمَةٌ

يُعَدّ مفهوم الكمون الحراري أحد المفاهيم الرئيسة التي تُدرّس للطلاب في إطار العلوم الفيزيائية، وتحت فرع علم الحرارة تحديدًا. وقد نُدهش عندما نعلم أن مفهومًا كهذا استغرق أكثر من ألفي سنة حتى تجلى بصورته الصحيحة. إذْ ربما كان الفيلسوف اليوناني أناكساغوراس أول من أطلق فكرة الكمون والظهور، والذي سيأخذ عنه كل من لحق به من فلاسفة الطبيعة كأرسطو والرواقيين ولوكريتيوس لا كتانتيوس.

أما العلماء العرب والمسلمين فقد أسهموا بتطوير هذا المفهوم من خلال الحركة العلمية النقدية أكثر مما قدمه اليونانيون. إذْ تعود بداية ظهور مفهوم الكمون عند العرب إلى ما قبل القرن (٣هـ/ ٩م)، مع ظهور حركة الترجمة والتعريب للإرث اليوناني. ويبدو أن مفهوم الكمون الوارد بصيغته اليونانية لم يلق القبول إلا من قلةٍ قليلة من العلماء العرب، وبالتالي لم تكن هناك قناعة تامّة نظرًا لكثرة العيوب التي يكتنفها في تفسير الظاهرة الطبيعية، خصوصًا الظاهرة الحرارية. فمن الناحية المنطقية، فإننا نعتبر أن تفسير إبراهيم النظّام لظاهرة غليان الماء أكثر مقبولية (مقارنةً بمعارفنا العلمية الحالية) من تفسير أناكساغوراس، مع أن كلٍ منهما قال بمفهوم الكمون. لكن الأول صاغه بطريقة منظمة أكثر من الثاني.

ويعود السبب في عدم قبول مفهوم الكمون من قبل بعض العلماء العرب إلى أنهم اعتبروه صفةً عَرَضية، وليس أصيلة في الجسم. ناهيك عن الأسباب التي تتعارض مع المعتقدات الدينية الإسلامية التي أوردها القاضي عبد الجبار. ما نشكره لجهود العلماء العرب هو محاولتهم القيام بإجراء تجارب يستوضحون من خلالها هذا المفهوم (مثل تجربة احتكاك قطعتي جليد التي أجراها أبور رشيد النيسابوري منذ القرن الحادي عشر الميلادي)، على غرار تجارب نظرائهم الأوربيين في القرنين الثامن عشر الميلادي والتاسع عشر الميلادي. وقد وجدنا -من خلال هذا البحث- كيف أن هذا المفهوم بقي سائدًا في أوربا وفق الصيغة العربية حتى جاء جوزيف بلاك وقام بتغييره إلى الحرارة الكامنة، مستعينًا به ليقول كلمة الفصل بين مفهومي الحرارة ودرجة الحرارة.

الاحالات المرجعية:

(١) **الموسوعة الفلسفية العربية**، ج١، ص ٦٩٩.
(٢) **أقوال الأقدمين في الكونيات**، مخطوط مجهول المؤلف موجود بجامعة ميشيغان، رقم (Isl. Ms. 987)، ص ٢٤-٢٥.
(٣) كرم، يوسف، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، ص ٢٢٩.
(٤) أبو ريدة، عبد الهادي، **إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية**، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٦م، ص ١٥١.
(٥) كرم، يوسف، **تاريخ الفلسفة اليونانية**، ص ٣٠٥.
(٦) Samursky, Shmuel, Physical Thought, p. ٩٠.
(٧) بينيس، **مذهب الذرة عند المسلمين**، ص ٩٧.
(٨) ابن فارس، أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، **معجم مقاييس اللغة**، ج٥، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٣٦.
(٩) الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ص ١٦٧.
(١٠) الباقلاني، **كتاب التمهيد**، ص٦٩.
(١١) العراقي، محمد عاطف، **الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا**، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.هامش، ص ٣٨٠.
(١٢) **الموسوعة الفلسفية العربية**، رئيس التحرير: معن زيادة، ط١، ج١، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٦٩٩.
(١٣) البغدادي، عبد القاهر، **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٧م، ص١٣٩.
(١٤) الشهرستاني، أبو الفتح، **الملل والنحل**، ج١، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر، القاهرة، ص٥١.
(١٥) جابر بن حيان، **مختار رسائل جابر بن حيان**، ص٥٧٦.
(١٦) جابر بن حيان، **مختار رسائل جابر بن حيان**، م. س.، ص ٢-٣.
(١٧) أحمد بن يحيى بن المرتضى المهدي لدين اللّه، **طبقات المعتزلة**، تحقيق: سُوسَنّة دِيفَلْد – فِلْزَر، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م، ص ٤٩.
(١٨) بدوي، عبد الرحمن، **مذاهب الإسلاميين**، ص٢٣٨
(١٩) صبحي، أحمد محمود، **في علم الكلام**، ط٥، دار النهضة، بيروت ١٩٨٥م. ص٢٤١.
(٢٠) هويدي، يحيى، **دراسات في علم الكلام والفلسفة الإسلامية**، ط٢، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٩م. ص٢٢٢.
(٢١) الشهرستاني، أبو الفتح، **الملل والنحل**، ج١، ص٥٦.
(٢٢) والمذهب الذي تدعو إليه الديصانية ثنوي في أساسه فهي تقول: إن الأشياء من أصلين قديمين، النور والظلمة، والنور حي ومنه يكون الفعل والحركة، والظلمة موات عاجزة جاهلة راكدة لا فعل لها ولا تمييز معها والنور مبصر. وقالوا: إن النور لم يزل يلقى الظلمة بأسفل صفحة فيه والظلمة لم تزل تلقاه بأعلى صفحة فيها، واختلفوا في المزج بين النور والظلمة، فقال بعضهم: إن النور داخل الظلمة لأنها كانت تلقاه بخشونة وغلظة يتأذى بها، فأحب أن يلينّها ثم يتخلص منها، والنور دخل في الظلمة اختياراً، قصد إصلاحها فخالطها، وعزّ عليه بعد هذا أن يخرج عنها، فلما دخل فيها صار يفعل الشر والقبيح مضطراً، ولو انفرد لم يفعل ذلك، وأن الظلمة أو إله الشر يفعل الشر عن طبع . وقد اقترب ابن ديصان بذلك من التفسير الأحادي بأن جعل النور في النهاية أصل الوجود بالفعل. عن **موسوعة المعرفة**، مدخل "ثنوية".
(٢٣) أبو ريدة، عبد الهادي، **إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية**، ص١٤١.
(24) Hortenm Max, Die Lehre vom Kumun bei Nazzam, ZDMG, 1909, p.774.
(٢٥) أبو ريدة، عبد الهادي، **إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية**، ص١٤٥.
(٢٦) الجاحظ، عمرو بن بحر، **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، ج٥، ص ١٥.
(٢٧) راجع: دبس، محمد، **معجم أكاديميا للمصطلحات العلمية والتقنية**، ص ٣٣٨.
(٢٨) إس، فان، **الكلام والطبيعة عند أبي إسحاق النظام**، مجلة المؤرخ العربي، العدد١٩، تصدر عن الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨١م، ص ٣٨.
(٢٩) نشره وترجمه مايكل أنجلو جويدي، روما، ١٩٢٨م، ص٤٥.
(٣٠) تقع بين ص ٥٨ظ و ٦٢ظ من مخطوط Glaser.
(٣١) أبو ريدة، عبد الهادي، **إبراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية الفلسفية**، ص١٥٢.
(٣٢) إس، فان، **الكلام والطبيعة عند أبي إسحاق النظام**، ص ٣٣-٣٤.
(٣٣) الخيون، رشيد، **معتزلة البصرة وبغداد**، ط١، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٧م، ص ٢٩٨.
(٣٤) ابن فورك، **مجرّد مقالات الشيخ الأشعري**، ص ٢٧٠.
(٣٥) العوا، عادل، **المعتزلة والفكر الحر**، ط١، دار الأهالي، دمشق، ١٩٨٧م. ص١٤٦-١٤٧.
(٣٦) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، ص٣٠٩.
(٣٧) ابن سينا، **الشفاء**، ص١٣٥.
(٣٨) ابن سينا، **مجموع رسائل ابن سينا**، ص ٢٨.
(٣٩) ابن سينا، **النجاة**، ص ١٨٣.
(٤٠) ابن سينا، **الإشارات والتنبيهات**، ص ٣١٠-٣١١.
(٤١) ابن سينا، **النجاة**، ص ١٨٣.
(٤٢) النيسابوري، أبو رشيد، **كتاب المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين (الكلام في الجواهر)**، تحرير: آرثر بيرما، ليدن، ١٩٠٢م، ص ٣٦.
(٤٣) لقد عرف عن همفري ديفي إذابته للجليد تحت ناقوس مفرغ وتحت درجة الحرارة (-٢° مئوية)، في يوم شتوي بالغ الصقيع، وذلك بوساطة احتكاك قطعتي جليد إحداهما بالأخرى، مثبتاً بذلك أن الحرارة اللازمة لإذابة الجليد كانت نتيجةً للحركة. لكن أحاطت التساؤلات بمدى مصداقية هذه التجربة، إذْ كان يمكن للحرارة التي صهرت الجليد أن تأتي من الوسط المحيط. وحتى لو احتفظ ديفي بالنظام كله في درجة تجمد الماء، فإن الماء المتكوّن نتيجة الاحتكاك كان سيتجمّد ثانيةً.
(٤٤) النيسابوري، أبو رشيد، **كتاب المسائل في الخلاف بين البصريين والبغداديين (الكلام في الجواهر)**، ص ٣٦-٣٧.
(٤٥) النيسابوري، أبو رشيد، **كتاب المسائل**، م. س.، ص ٣٧.
(٤٦) يفوت، سالم، **ابن حزم والفكر الفلسفي في المغرب والأندلس**، ط١، المركز الثقافي العرب، الدار البيضاء، ١٩٨٦م، ص٣٥٢.
(٤٧) ابن حزم الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ج5، ص ٨٠.
(٤٨) ابن حزم الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، ، م. س.، ج5، ص ٨١.

(٤٩) الزعبي، أنور خالد، **ظاهرية ابن حزم الأندلسي**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، ١٩٩٦م، ص ٩٢.

(٥٠) ابن مثويه، الحسن، **التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض**، تحقيق: سامر نصر لطف، فيصل بدير عون، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٥١) ابن مثويه، الحسن، **التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض**، ، م. س.، ص ٣٠٣.

(٥٢) الرازي، فخر الدين، **المباحث المشرقية**، ص٥٧٦

(٥٣) ابن كمونة، **الجديد في الحكمة**، ص ٣٥١.

(٥٤) ابن كمونة، **الجديد في الحكمة**، م. س.، ص ٣٥١.

(٥٥) الجلدكي، أيدمر، **البرهان في أسرار علم الميزان**، ج(٤)، مخطوطة في مكتبة ويلكم، لندن، رقم (WMS_Arabic_201)، ص ١٨٤.

(٥٦) الإناء المصموم المفدّم هو المسدود فمه.

(٥٧) آنية معروفة تصدر صوتاً عند غليان السائل بداخلها وتبخره.

(٥٨) فضل الحق، محمد، **الهدية السعيدية في الحكمة الطبيعية**، ص ٩٢-٩٤.

(٥٩) بيكون، فرنسيس، **الأورجانون الجديد**، ص ١٦٧-١٦٨.

(٦٠) فوربس، ر.ج.، و ديكستر، إ.ج.، **تاريخ العلم والتكنولوجيا**، ج2، ص ٤٥.

(٦١) Müller, Ingo, A History of Thermodynamics, p. 10.

(٦٢) ويلسون، ميتشل، **الطاقة**، ص ٣٣.

(٦٣) غريبين، جون، **تاريخ العلم** (١٥٤٣-٢٠٠١م)، ج١، ص ٣٠٩-٣٠١٠.

(64) Grand Encyclopedia SCIENTISTS, Published by Macaw Books, India, 2013. p.102.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تابوت سيدي جابر بالإسكندرية
دراسة تحليلية في الماهية والمضمون والرمزية العقائدية

د. نادية خضر
د. خالد أبو الحمد
وزارة السياحة والآثار
جمهورية مصر العربية

أ.د. أيمن وزيري
أستاذ الآثار والحضارة المصرية
رئيس قسم الآثار المصرية القديمة كلية الآثار
جامعة الفيوم – جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

تسعى هذه الدراسة إلى مناقشة ودراسة تابوت سيدي جابر غير المنشور من قبل والمُكتشف بالموقع الكائن في ٨ شارع الكرملي بسيدي جابر-محافظة الإسكندرية – مصر، وذلك من خلال دراسة وصفية وتحليلية مقارنة؛ حيث إنه لم يُنشر ولم يتم التحقيق فيه بواسطة الباحثين من قبل. هذا التابوت محفوظ الآن في المخزن المتحفي للمنطقة الأثرية المعروفة بـجبانة مصطفى كامل الكائنة في شارع المُعسكر الروماني-محافظة الإسكندرية – مصر. من خلال الدراسة والتحقيق فيما يخص هذا التابوت، فقد ظهرت بعض الاستفسارات والإشكاليات البحثية والتي تحتاج إلى دراسة ومعالجة وتفسير، ومن أمثلة تلك الاستفسارات؛ هل هناك أي نقوش مُسجلة على هذا التابوت؟ هل هذا التابوت ملكيًا أم غير ملكي؟ إلى أي حقبة تاريخية وزمنية يُمكن تأريخ هذا التابوت؟ ومن أمثلة الإشكاليات البحثية أنه عُثر بداخل التابوت على ثلاث مومياوات آدمية في حالة شبه مُتحللة، كما غمرت جنبات التابوت كمية كبيرة من سائل أصفر اللون والذي يبدو مائلًا إلى الإحمرار!، كما إنه لا توجد أي إشارة إلى أسماء ملكية ولا أية خراطيش، وأيضًا لا توجد أي إشارة إلى ألقاب رسمية أو غير رسمية!، ولذلك كانت هناك صعوبة لاقتراح أي تأريخ دقيق لذلك التابوت. وتهدف هذه الدراسة إلى التحقيق والمناقشة والتحليل لذلك التابوت غير المنشور من قبل، وتتضح منهجية الدراسة الحالية من خلال إتباع المنهج الوصفي والتحليلي المقارن، بالإضافة إلى إجراء دراسة تحليلية للتابوت ومُشتملاته من أجل إبراز الدلالات الرمزية في إطار المُعتقدات المصرية القديمة، كما سيتم استخدام المنهج التأريخي المقارن تطبيقًا على بعض التوابيت الأخرى وذلك من أجل وضع تأريخ دقيق لذلك التابوت موضوع الدراسة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ يونيو ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٠٣ يوليو ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

تابوت؛ سيدي جابر؛ الإسكندرية؛ جبانة مصطفى كامل؛ سوائل الدلالات الرمزية؛ تأريخ

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.248630

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أيمن وزيري، نادية خضر، خالد أبو الحمد. "تابوت سيدي جابر بالإسكندرية: دراسة تحليلية في الماهية والمضمون والرمزية العقائدية".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص١١٧ – ١٣٠.

Corresponding author: aah00@fayoum.edu.eg
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدّمة

يُعَدّ التابوت هو العنصر أحد عناصر الأثاث الجنائزي المُهمة التي زخرت بها جنبات مقابر ودفنات الأفراد والملوك في مصر القديمة، ذلك لما تُمثله تلك التوابيت من أهميةٍ ماديةٍ تتمثل في الحفاظ على جسد المتوفى الذي لا يتحقق بعثه وخلوده إلا بسلامة أعضاءه، بالإضافة إلى الدلالة الرمزية للتابوت والمغزى الديني للتوابيت في المُعتقدات المصرية القديمة، والتي أضفى عليها المصري القديم إهتمامًا خاصًا نظرًا لكونها تخدم عقيدته الأوزيرية التي تُعد أحد أهم العقائد التي تقع في إطار وبوطقة مُعتقدات العالم الآخر؛ حيث تبلورت فكرة التابوت في مُعتقدات المصريين القدماء من خلال أحداث الصراع الذي دار في الاسطورة الأوزيرية بين أوزير وست (Ikram, and Dodson, 1998). ولقد فسرت أحداث الاسطورة الأوزيرية بعض من دلالات إهتمام المصري القديم بالتابوت دون غيره من عناصر الأثاث الجنائزي؛ حيث تجسدت أهمية التابوت المادية في كونه عنصرًا جنائزيًا خشبيًا كان أم حجريًا بما يحويه بين جنباته من جسد المتوفى بغرض حمايته من العوامل التي تؤثر سلبًا على جسد المتوفى وقد تؤدي إلى فناءه، وهو ما حاول المصري القديم جاهدًا لعدم حدوثه إعتقادًا منه أن الحفاظ على الجسد يُعتبر سبيلًا للبعث والحياة الأخروية الخالدة. وبجانب تلك الأهمية المادية للتوابيت، فقد حُمّلت من قبل المصري القديم بمعانٍ ودلالاتٍ دينيةٍ عكستها المناظر والنصوص المُسجلة على جنبات التوابيت الخارجية وكذلك الداخلية إن جاز التعبير، والتي توضح مدى البُعد والُعتقد الديني لدلالة ورمزية التابوت بمثابة كونه تمثيلًا للمعبودة نوت- ربة السماء- التي كانت غالبًا ما تُمثَّل على غطاء التابوت مُحتضنةً جسد المتوفى تجسيدًا لإعادة ميلاده مرةً أخرى في دروب العالم الآخر (Taylor, 1989). وتجدر الإشارة إلى أن التابوت في مُعتقدات المصري القديم لم يكن مُجرد عنصر مادي يحوي بين جنباته جسد مومياء فحسب، بل كان يُعد في حد ذاته إطار لحياة مرحلية مؤقتة يعيشها المتوفى مُتمنيًا أن يتجاوز تلك المرحلة إلى الحياة الخالدة التي ينعم فيها بمرافقة أوزير سيد العالم الآخر، ولقد كان التابوت بمثابة مُستقر للمتوفى في العالم الآخر، وربما كان ذلك بما يتماثل مع الدلالة العقائدية للمقبرة كمُستقر أبدي للمتوفى في العالم الآخر (Siliotti, and Hawass, 2003)، وربما هي ذاتها نفس الدلالة العقائدية التي حُمّل بها التابوت منذ أواخر عصر الدولة القديمة؛ حيث تم إعتبار التابوت سكنًا سرمديًا لروح المتوفى بحيث غالبًا ما زُينت جنبات التابوت ببعض المناظر والنصوص التي كان يتم تسجيلها على جدران المقابر (Taylor, 1989)، وذلك بالإضافة إلى الإطار الزخرفي للسرخ الذي يُمثل القصر الملكي، والتي تم تسجيلها وتمثيلها على الجنبات الخارجية لبعض توابيت عصر الدولة القديمة (Willems, 1996)؛ حيث يُعتقد أن المفردة اللغوية [hieroglyphs] DbAt قد وردت في مصادر عصر الدولة القديمة كمرادف لغوي لمصطلح [hieroglyphs] pr-aA الذي يعني القصر الملكي (Wb. V, 561, 2)، في حين أن المصطلح [hieroglyphs] DbAt يُعد من أهم المفردات اللغوية الدالة على التوابيت المستطيلة التي تتخذ شكل واجهة القصر الملكي (Hannig, 2003)، ويعتقد Dorman أن ظهور بعض توابيت أفراد عصر الأسرة الثامنة عشر مُتخذة شكل الخرطوش الملكي كان يُشير إلى أن سكن القصر الملكي - الذي كان قاصرًا على الملوك في الحياة الدنيوية- لم يعد كذلك في مُعتقدات العالم الآخر (Dorman,1991) ، وذلك هو ما يتفق عليه Ikram and Dodson بأن بعض توابيت عصر الأسرة الثانية والعشرين التي اتخذت شكل رأس صقر كانت تحمل في طياتها إشارة رمزية إلى تمتع الأفراد بما يتمتع به الملوك في العالم الآخر (Ikram, and Dodson, 199).

البيانات الوصفية لتابوت سيدي جابر بالإسكندرية

نوع الأثر	تابوت غير منقوش
مادة الصناعة	الجرانديورايت
أبعاد التابوت	طول ٢٧٢ سم – عرض ١٥٠ سم – ارتفاع ١٨٥ سم
وزن التابوت	وزن الغطاء (٦,٠٢ طن) - وزن البدن (٥,٧ طن)
صاحب التابوت	غير معروف
مكان الاكتشاف	جبانة سيدي جابر – شرق الإسكندرية
مكان الحفظ	منطقة مصطفى كامل الآثرية
تأريخ التابوت	يرجع للعصور المتأخرة وربما أعيد استخدامه خلال العصر البطلمي
حالة الأثر	محفوظ بحالة جيدة
الدراسات السابقة	غير منشور
الأشكال التوضيحية	(شكل ١-٥)

كيفية اكتشاف ومراحل العثور على تابوت سيدي جابر

لقد تم اكتشاف تابوت سيدي جابر في الموقع الكائن في ٨ شارع الكرملي بمنطقة سيدي جابر في شرق الإسكندرية، والتي يبلغ مساحتها حوالي ١٤٩ مترًا تقريبًا، ويقع هذا الموقع ضمن نطاق الجبانة الشرقية للإسكندرية التي تتضمن مقابر الشاطبي التي تُعد من أقدم المقابر البطلمية؛ حيث يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، كما تشتمل الجبانة الشرقية على مقابر الإبراهيمية، ومقابر كليوباترا، ومقابر سيدي جابر، ومقابر شارع تيجران، ومقابر جبانة الحضرة التي تتضمن مقابر أنطونيادس، ومقابر مصطفى كامل التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث قبل الميلاد (قادوس، ٢٠٠٠). ولقد تم الشروع في العمل في موقع اكتشاف التابوت سالف الذكر من خلال إجراء عملية حفر لإثنين من المجسات الاختبارية (شكل ٦-٧).

ولقد تمت عملية حفر المجسات الاختبارية للتأكد من وجود شواهد أثرية ثابتة أو منقولة من عدمه، ويبلغ طول كل مجس من المجستين الإختباريتين حوالي خمسة أمتار تقريبًا وبعرض ثلاثة أمتار تقريبًا، وقد بدأت عملية الحفر من خلال المجس الأول الذي يقع أقصى شمال الموقع، ولقد لوحظ أثناء عملية الحفر أن طبيعة التربة كانت بمثابة رديم؛ حيث كان قوام طبقات الرديم عبارة عن طين رملي، رمال متوسطة الخشونة، رمال مُتكلسة، كسر أحجار، ولقد عُثر على عمق حوالي متر من المجس على بئر إسكندراني والذي تمت إزالته من أجل استكمال أعمال الحفائر (شكل ٨-٩).

ومع تتابع أعمال الحفر وتقريبًا على عمق ثلاثة أمتار وعشرين سم فقد تم اكتشاف عنصر معماري منحوت في الصخر، والذي يُمثل كوّة Niche يبلغ ارتفاعها حوالي مائة سم، وعرضها حوالي ستين سم، وعمقها حوالي خمسة عشر سم (شكل ١٠).

وبالقرب من الكوّة المُكتشفة فقد تم اكتشاف رأس تمثال لرجل مصنوع من المرمر، ولوحظ وجود تآكل وعدم انتظام تشذيب وصقل ملامح الوجه الخاصة برأس التمثال وربما يرجع ذلك بسبب التأثر بعوامل التعرية والرطوبة المحيطة بالموقع أو ربما تكون الرأس غير مُكتملة الصناعة بحيث لم يتم صقلها جيدًا، ويبلغ ارتفاع رأس التمثال المُكتشفة حوالي أربعين سم، وكانت بعرض حوالي ثلاثة وعشرين سم (شكل ١١- ١٣).

وبعد انتشال رأس التمثال وتسجيلها ونقلها إلى متحف الإسكندرية القومي، فقد تم استئناف أعمال الحفائر في المجس الأول، وعلى عمق خمسة أمتار تقريبًا فقد تم الكشف عن أرضية داكنة اللون من حجر صلد يبدو مختلفًا عن طبيعة التربة التي تجري بها أعمال الحفائر (شكل ١٤).

ومع استئناف أعمال وإجراءات الحفر وتوسعة الجانبين الشرقي والغربي للمجس فقد تبين أن تلك الأرضية الداكنة كانت بمثابة غطاء تابوت من الجرانديورايت الذي تبلغ أبعاده ٢٧٢ سم طولًا، ١٥٠ سم عرضًا، ١٨٥ سم ارتفاعًا (شكل ١٥-١٦).

ولقد تم فتح التابوت في يوم ١٩ يوليو من عام ٢٠١٨م، كما تم استخراج غطاء التابوت في اليوم ذاته، بينما تم استخرج بدن التابوت في اليوم التالي الموافق ٢٠ يوليو من عام ٢٠١٨م؛ حيث تم نقل التابوت كاملًا إلى المخزن المتحفي المفتوح في منطقة مقابر مصطفى كامل الأثرية (شكل ١٧-١٨).

وتجدر الإشارة إلى أنه قد عُثر بداخل التابوت على ثلاثة مومياوات آدمية في حالة تعظم تامة أو شبه مُتحللة، ولقد تم نقل تلك المومياوات إلى معمل الترميم بمتحف الإسكندرية القومي لدراستها، ولقد لوحظ أن جنبات التابوت كانت مغمورة بكمية كبيرة من سائل أصفر اللون مائل إلى الإحمرار والتي تم نقلها إلى معمل الترميم لدراستها (شكل ١٩)، وأثناء عملية وإجراءات تنظيف التابوت فقد عُثر بداخله على أربع رقائق ذهبية، بالإضافة إلى دبوس ذهبي؛ حيث تم نقلهم جميعًا إلى متحف الإسكندرية القومي (شكل ٢٠).

يُعتقد أن هذا التابوت قد نُحت من "الجرانيت الأسود" ، كما يُعتقد أنه نُحت من "الجرانوديوريت" وهو أحد الأحجار الصلدة التي تتميز باللون الأسود الذي يتخلله لونًا رماديًا، ويُعد الجرانوديوريت أحد الصخور النارية الجوفية التي تتميز بأنها حامضية وخشنة التبلور، كما إنها ذات نسيج ناقص الشكل، والمكافىء البركاني له هو صخر الداسيت، والجرانوديوريت هو أحد أكثر الصخور النارية إنتشارًا واستخدامًا بحيث يُمثل الحالة الوسطى بين الجرانيت والديوريت؛ حيث تقل نسبة الكوارتز في الجرانوديوريت عن نسبته في الجرانيت، وجاءت تسميته بهذا الاسم من خلال الجمع بين اسم الجرانيت والديورايت فهو يُمثل المرحلة الوسطى بين الجرانيت والديورايت، كما يتضمن خصائصهما (Villaseca, Barbero & Herreros,1998).

دراسة تحليلية مقارنة لتابوت سيدي جابر مع بعض التوابيت الأخرى المُماثلة

نظرًا لعدم وجود أي نقوش مُسجلة على هذا التابوت، كما إنه لا توجد أي إشارة إلى أسماء ملكية ولا أية خراطيش، وأيضًا لا توجد أي إشارة إلى ألقاب رسمية أو غير رسمية، ولذلك كانت هناك صعوبة لاقتراح أي تأريخ دقيق لذلك التابوت

وكذلك صعوبة معرفة هل هذا التابوت ملكيًا أم غير ملكي أو إلى أي حقبة تاريخية وزمنية يُمكن تأريخ هذا التابوت؟ ولذلك سيتم إتباع المنهجية التحليلية المقارنة تطبيقًا على بعض التوابيت الأخرى وذلك من أجل وضع تأريخ دقيق لذلك التابوت موضوع الدراسة ولإبراز الدلالات الرمزية في إطار المُعتقدات المصرية القديمة، وستتضح منهجية الدراسة من خلال ما يلي:

أولًا: دراسة تحليلية مقارنة لتطور شكل التوابيت في مصر القديمة عبر العصور

لقد اهتم المصري القديم بحماية جسد المتوفى من التحلل والفناء منذ عصر ما قبل الأسرات؛ حيث حرص في دفناته البدائية أن يكون الدفن في رمال الصحراء القاحلة التي تعمل على حفظ جسد المتوفى بطريقة طبيعية من خلال تصفية المياه الموجودة في الجسد والتي تساعد على تحلل وتعفن جسد المتوفى (Gray, 1967) ، كما حرص المصري القديم على دفن جسد المتوفى في وضعية الجنين في حفرة بيضاوية بحيث يستند على أحد جانبيه، وبحيث تكون رأسه متجهةً نحو الجنوب، بينما يتجه الوجه جهة الغرب؛ حيث غروب الشمس وعالم الموتى (Taylor, 1989) ، وخلال تلك المرحلة المبكرة التي تُعد بمثابة الإرهاصات والتي تشكل فيها فكر ومُعتقدات المصري القديم، فلقد اعتقد المصري القديم بدوره أن الحفاظ على جسد المتوفى يُعتبر شرطًا رئيسيًا في سبيل العيش الأبدي في العالم الآخر، لذا فقد لجأ أصحاب حضارة دير تاسا إلى تغطية جسد المتوفى بطبقات من الحصير وجلود الحيوانات (Andrews, 1984)، كما قام أصحاب حضارة البداري ومرمدة بني سلامة بوضع لوحات خشبية مكسوة بالحصير والكتان في أرضية اللحد الذي يُوضع فيه جسد المتوفى (صالح، ١٩٦٢)، في حين قام المصري القديم في أواخر عصر ما قبل الأسرات باستخدام الطوب اللبن في كساء أرضية مقبرة المتوفى وتسقيفها بالأخشاب البدائية، فضلًا عن تغطية جسد المتوفى باللفائف الكتانية Patterson and (Andrews,1978)، ومع بدايات عصر ما قبيل الأسرات، فقد ظهرت بعض التوابيت الخشبية بدائية الصنع، والتوابيت الفخارية البيضاوية والمستطيلة التي خصصت لحفظ أجساد الذين ينتمون لطبقات المجتمع الأرستقراطية (شكل ٢١).

أما طبقات المجتمع الدنيا، فقد وضعت أجسادهم في صناديق مصنوعة من البوص وأفرع الشجيرات Ikram, and (Dodson, 1998)، ولقد شهدت بواكير العصور التاريخية في مصر القديمة وجود تقنية إحترافية في صناعة التوابيت؛ حيث يعتبر العصر الثيني شاهدًا على ظهور التوابيت المستطيلة المصنوعة من الأخشاب رديئة الصنع والتي لاتتعدى المتر الواحد، مما يعطي إنطباعًا باستمرار دفن المتوفى موسودًا في وضع الجنين داخل التابوت، كما تميزت توابيت تلك المرحلة المبكرة من التاريخ المصري القديم بكونها بمثابة صناديق مستطيلة بسيطة الصنع وخالية من زخارف جنبات التوابيت الخارجية (Taylor, 1989)، ومع نهايات عصر الأسرة الثانية فقد ظهرت التوابيت ذات الجنبات الخارجية المزخرفة؛ حيث ظهرت توابيت أفراد جبانة منف التي كانت ذات غطاء محدب ينتهي بدعامتين مستطيليتين عند نهايتيه، كما زُين جانبًا أو أكثر من جوانب تلك التوابيت بالدخلات والخرجات التي كانت تزين واجهة القصر الملكي، وهو التصميم المُعبر عن إعتقاد المصري القديم المبكر بأن التابوت يُعد بمثابة مستقر أبدي لروح المتوفى (Ikram, and Dodson, 1998) (شكل ٢٢).

ولقد شهدت بدايات عصر الدولة القديمة ظهور التوابيت الكاملة؛ حيث عُثر على تابوتين حجريين من الألباستر في مقبرة تابعة لهرم الملك زوسر المدرج بسقارة، كما عُثر في المقبرة ذاتها على بقايا تابوت خشبي مصنوع من ست طبقات خشبية، كما زُين سطحه الخارجي بصفائح ذهبية (Taylor, 1989)، ولقد ظهرت التوابيت المصنوعة من الحجر الجيري في مقابر أفراد عصر الأسرة الثالثة، والتي تعتبر امتدادًا لتوابيت العصر الثيني وذلك نظرًا لما تميزت به من عدم تقنية صناعتها وخلو جوانبها الخارجية من الزخارف (Andrews, 1984)، ولقد تميزت توابيت عصر الدولة القديمة الخشبية بظهور طرازين رئيسيين؛ حيث جاء الأول بمثابة صندوق خشبي مستطيل الشكل ذي غطاء مسطح وخالي من المناظر والزخارف الخارجية والداخلية (Taylor, 1989)، فيما كان الطراز الثاني بمثابة صندوق مستطيل الشكل ذي غطاء مسطح، إلا أن جوانبه الخارجية كانت مُزينة بسطرٍ كتابيٍ أفقيّ يتضمن صيغة التقدمة لمعبودات العالم الآخر، كما اهتم المصري القديم بتمثيل عينين على الجانب الأيسر للتابوت، اعتقادًا منه بمساعدة تلك العينين للمتوفى في الاتصال بالعالم الخارجي، وهو ما يفسر وضع المتوفى موسودًا على جانبه الأيسر داخل التابوت (شكل ٢٣).

ومع نهاية عصر الأسرة السادسة، فقد قام المصري القديم بتسجيل قوائم القرابين على الجوانب الداخلية للتابوت (Ikram, and Dodson, 1998)، بالإضافة إلى قيامه بتمثيل الباب الوهمي على الجنبات الداخلية للتابوت لكي يكون ميسورًا له الخروج لاستقبال القرابين المقدمة له في العالم الآخر (Niwińˈski and Lapp, 2001). ولقد بدأت ظاهرة الدفن

داخل تابوتين خشبيين أو إحداهما خشبيّ والآخر حجري منذ عصر الأسرة السادسة، وذلك رغبة من المصري القديم في زيادة حماية جسد المتوفى المستقر داخل التوابيت، وإن اقتصرت تلك الظاهرة على الأمراء وكبار رجال الدولة؛ حيث استمرت الطبقات الوسطى في دفن موتاهم في تابوت خشبي واحد، والذي كان غالبًا مصنوعًا من خشب الجميز المحلي، فيما صُنعت توابيت الطبقات العليا من خشب الأرز وغيرها من الأخشاب الصنوبرية المجلوبة من مدن الساحل السوري (Taylor, 1989)، ولقد استمر المصري القديم في استخدام التوابيت الخشبية المستطيلة خلال عصر الانتقال الأول، وذلك مع وجود بعض نصوص التقدمة في منطقة وسط غطاء التابوت وكانت موجهة للمعبود أنوبيس سيد الجبانة، أمّا نصوص التقدمة للمعبود أوزير سيد العالم الأخر، فقد تمثلت على حواف التابوت الجانبية (سبنسر،١٩٦٢)، كما استمر المصري القديم في تصوير العينين على الجانب الأيسر للتابوت كي يتمكن المتوفى من التواصل مع العالم الخارجي (Niwiǹski, and Lapp, 2001)

أما في عصر الدولة الوسطى، فلم يقتصر دور العينين المُمثلتين على الجانب الأيسر للتابوت على التواصل مع العالم الخارجي فحسب، بل اعتقد المصري القديم في أنها تساعد المتوفى على رؤية شروق الشمس في الأفق الشرقي للسماء (Taylor, 1989)، ولقد خضعت توابيت عصر الدولة الوسطى مستطيلة الشكل والتي تميزت بالغطاء المقبي لسيطرة طرازين رئيسيين في الفن والنحت؛ حيث كان الأول منهما هو الطراز المنفي الشمالي الذي انتشرت توابيته في جبانات منف وبني حسن والبرشا بمصر الوسطى (Willems, 1996)، ولقد تميزت الزخارف الخارجية لتوابيت الطراز الشمالي بتمثيل العينين مقترنًا بالباب الوهمي، كما اكتست الجنبات الخارجية لتلك التوابيت ببعض نصوص التقدمة التي سُجلت على الإطار الخارجي للتوابيت، كما دونت في أعمدة رأسية على بدن التابوت (شكل ٢٤).

ولقد تمثلت موائد القرابين ومناظر الأثاث الجنائزي على الجنبات الداخلية لتلك التوابيت الشمالية، فيما زينت منطقة الرأس بمناظر الدهانات المقدسة ومسند الرأس، ويُلاحظ أن المصري القديم قد بدأ بتسجيل متون التوابيت بالخط الهيروغليفي المختصر على الجنبات الداخلية لتوابيت تلك المرحلة (Niwiǹski, and Lapp, 2001; Taylor, 1989) . أما الطراز الثاني فقد تميزت به توابيت الطراز الطيبي الجنوبي التي انتشرت في جبانات أسيوط واخميم وطيبة والجبلين والمُعلا وأسوان؛ حيث تميزت زخارفها الخارجية بتمثيل العينين بجانب مائدة القرابين على الجانب الشرقي للتابوت، وذلك بالإضافة إلى تسجيل عمودين رأسيين من نصوص التقدمة (Taylor, 1989)، ولقد زُين الجانب الغربي الخارجي لتلك التوابيت الجنوبية بمناظر الحياة اليومية التي كانت غالبًا ما يتم تمثيلها على جدران المقابر، كما سُجل إلى جانبها نصوص رأسية تتضمن قوائم القرابين المُقدمة للمتوفى (شكل ٢٥)

ولقد بدأ المصري القديم في تمثيل مناظر أبناء حور الأربعة في وضع القرفصاء على الجانب الغربي لتلك التوابيت بغرض حماية المتوفى في العالم الآخر(Willems, 1996)، ولقد تميزت التوابيت الجنوبية المُكتشفة في جبانات أسيوط وطيبة وأسوان والجبلين بالمناظر والنصوص الفلكية؛ حيث اهتم المصري القديم بتمثيل المعبودة نوت **Nwt** رافعة علامة السماء ، وبجانبها تمثلت مجموعة الدب الأكبر **Msxtyw** التي تتخذ هيئة فخذ الثور، وعلى الجانب الأخر تم تمثيل المعبودة سبدت **spdt** التي تُجسد نجم الشعرى اليمانية، بالإضافة إلى المعبود أوزير-ساح **sAH** الذي يُجسد نجم الأوريون (Ikram, and Dodson, 1998). ولقد ظهرت التوابيت الآدمية مع نهايات عصر الأسرة الثانية عشر؛ حيث صاغ المصري القديم فكرتها من خلال الأقنعة الجنائزية التي انتشرت خلال عصر الإنتقال الأول وبدايات عصر الدولة الوسطى بحيث ظهرت التوابيت الآدمية الخشبية مُكتسية باللون الأبيض، كما زُينت منطقة الصدر بقلادة**Wsxt** ، ولقد قام المصري القديم بطلاء الوجه باللون الأسود كدلالة رمزية لعملية البعث، كما قام بترصيع العينين، ولقد تميزت توابيت عصر الدولة الوسطى الآدمية بعدم ظهور وتجسيد اليدين (Ikram, and Dodson, 1998) (شكل ٢٦).

ولقد ماثلت تلك التوابيت في وضعيتها مومياء المتوفى التي يتم وضعها على جانبها الأيسر داخل التابوت المستطيل الخارجي (Taylor, 1989). ولقد تميز عصر الدولة الوسطى بوجود التوابيت الخشبية، كما اقتصر استخدام التوابيت الحجرية على دفنات الملوك، والتي كانت بمثابة توابيت حجرية مستطيلة خالية من النقوش والمناظر الخارجية، كما هو الحال بالمقارنة مع توابيت عصر الدولة القديمة (Taylor, 1989; Ikram, and

(Dodson, 1998). ولقد شهد عصر الأسرة الثالثة عشر وجود ظاهرة جديدة، وهي التي تمثلت في كتابة بعض العلامات التصويرية الهيروغليفية المشوهة، لاسيما تلك العلامات التصويرية التي تُمثل الطيور والحيوانات، وذلك خوفًا من عودتها للحياة مرة أخرى في العالم الآخر وإمكانية قيامها بإلحاق الأذى بجسد المتوفى، ولقد استمر ذلك الاعتقاد حتى توابيت العصور المتأخرة (Ikram, and Dodson, 1998). ولقد شهد عصر الانتقال الثاني ظهور نوعًا جديدًا من التوابيت الآدمية يُعرف باسم "التوابيت الريشية"، والتي تميزت بتمثيل زوج من الأجنحة الضخمة على جانبي غطاء التوابيت بحيث امتدت من منطقة الكتف حتى القدمين، والتي غالبًا ما كانت ملونة باللون الأسود والأخضر والأزرق، ولقد راعى المصري القديم أن يتم تغطية رأس التوابيت الريشية بالنمس الملكي، كما سُجلت صيغة التقدمة في عمود رأسي بمنتصف غطاء التابوت بين الجناحي (Taylor, 1989)(شكل ٢٧).

ولقد لجأ المصري القديم للتوابيت الريشية اعتقادًا منه أن تلك التوابيت تقوم بمساعدة روح المتوفى BA للتحليق والارتقاء في آفاق ودروب العالم الآخر (Ikram, and Dodson, 1998). ولقد تميزت التوابيت الريشية بتمثيل المعبودتين الحاميتين إيزيس ونفتيس عند قدمي ورأس التابوت، فضلًا عن تمثيل المعبودتين الحاميتين وادجت ونخبت عند منطقة الصدر بغرض حماية المتوفى في العالم الآخر (Taylor, 1989)، وبالرغم من الانتشار الواسع الذي شهدته التوابيت الآدمية الريشية، إلا أن المصري القديم استمر في استخدام التوابيت المستطيلة ذات السقف المقبي التي شهدت بداية تمثيل المعبود أنوبيس عند منطقة القدمين، كما بدأت عينا الحماية WDAt تأخذ مكانها على الجانب الأيسر للتابوت المستطيل الخارجي (Ikram, and Dodson, 1998) (شكل ٢٨).

ولقد استمر المصري القديم في اعتماده على التوابيت الريشية خلال عصر الأسرة الثامنة عشر، كما إنه ركز على الأجنحة الثلاثية التي تُساعد في إظهار التفاصيل الدقيقة للجسد، ولقد أدّى ذلك بدوره لإظهار أهم السمات التي طرأت على توابيت تلك الأسرة، وهي إظهار اليدين المُتقاطعتين عند منطقة الصدر تيمنًا بوضعية المومياء الأوزيرية (Niwiński, 1984)، كما استمر المصري القديم في استخدام التوابيت الآدمية الضخمة الملونة باللون الأبيض أو الأسود، كما قام باستغلال الأربطة المحيطة بها في تسجيل صيغ التقدمة للمتوفى، كما شهدت تلك التوابيت تمثيل الربتين الحاميتين إيزيس ونفتيس عند منطقة رأس وقدمي التابوت، أما الربة نخبت الحامية فقد تمثلت ناشرة جناحيها عند منطقة صدر المتوفى(Taylor, 1989) (شكل ٢٩).

ولقد استمر المصري القديم في استخدام تلك التوابيت ذات اللون الأسود خلال عصر الرعامسة، بالإضافة إلى اعتماده في أواخر عصر الأسرة التاسعة عشر على التوابيت الخشبية المستطيلة ذات المنصة المرتفعة والتي تميزت بمنظر المعبودة نوت المُمثلة أسفل الغطاء، كما استغل المناطق الموجودة بين الأربطة المحيطة بالتابوت في تسجيل صيغ التقدمة، وتمثيل مناظر تقديم القرابين، بالإضافة إلى تمثيل أبناء حور الأربعة (Niwiǹski and Lapp,2001). ولقد أصبحت وضعية اليدين المتقاطعتين عند منطقة الصدر هي السمة الرئيسة لتوابيت عصر الأسرة التاسعة عشر، أما توابيت عصر الأسرة العشرين فقد تميزت بكونها توابيت حجرية مزدانة بالرداء الرسمي للمتوفى (Ikram, and Dodson, 1998) (شكل ٣٠).

ولقد اشتهر ملوك عصر الانتقال الثالث باغتصاب التوابيت الحجرية الخاصة بملوك عصر الدولة الحديثة، إلا أن العصر ذاته قد تميز بعددٍ من التوابيت الآدمية ذات التقنية العالية، والتي تمثلت في التوابيت الفضية لملوك عصر الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين، والتي تم العثور عليها في تانيس عام ١٩٣٩م (Ikram, and Dodson, 1998) (شكل ٣١).

ولقد استمر المصري القديم في استخدام تابوتين داخليين أو أكثر بحيث يتم وضعهم داخل تابوت حجري مستطيل الشكل، كما تميزت تلك التوابيت بلونها الأصفر المُميز لتوابيت عصر الانتقال الثالث (الأسرات ٢١-٢٥) والعصر المتأخر (الأسرات ٢٦-٣١)، وذلك بالإضافة إلى أن تلك التوابيت قد تميزت بتسجيل فصول من كتاب الموتى وابتهالات رع، في حين جُسدت المعبودة نوت أسفل غطاء التابوت الداخلي، بينما تمثيلت المعبودة إمنتت ربة الغرب أسفل التابوت ذاته، فضلًا عن تمثيل مناظر إعادة ميلاد الشمس ومناظر القارب المقدس(Taylor, 1989). ولقد شهد عصر الأسرة الثانية والعشرون بداية اختفاء ظاهرة اليدين المتقاطعتين عند منطقة الصدر، وأصبح الدفن في مجموعة من التوابيت الداخلية والخارجية بمثابة السمة المميزة لتوابيت تلك الأسرة الليبية، فيما بدأ المصري القديم في الاعتماد على مادة

الكارتوناج في صناعة التوابيت الآدمية الداخلية، وذلك لما يُمثله الكارتوناج من أرضية متميزة ساعدته في تمثيل مناظر إعادة ميلاد الشمس ومناظر المعبودات، فضلًا عن مناظر الرموز المقدسة (Ikram, and Dodson, 1998). وخلال عصر الأسرة الخامسة والعشرين فكانت عملية الدفن تتم في تابوت داخلي خشبي ذي قاعدة مستطيلة بحيث يتم وضعه في تابوت خشبي خارجي لكي يستقر في تابوت خشبي مستطيل الشكل ذي غطاء مقبي وأربعة أعمدة جانبية والتي يستند عليها الصقر حور، بينما يقبع المعبود أنوبيس أعلى غطاء التابوت (Niwiński, 1984; Taylor, 1989) (شكل ٣٢).

خلال العصر المتأخر(الأسرات ٢٦-٣١، فقد تمت عملية الدفن في مجموعة من التوابيت الآدمية الثنائية والثلاثية التي تستقر بدورها داخل تابوت خشبي مستطيل ذي غطاء مقبي، ولقد تميزت تلك التوابيت بتمثيل المعبودة إمنتت والمعبود بتاح-سوكر-أوزير أسفل التابوت، بينما تمثلت المعبودة نوت أسفل غطاء التابوت الداخلي، كما إزدانت تلك التوابيت بنسخة العصر الصاوي من كتاب الموتى، فضلًا عن تسجيل بعض التعاويذ من نصوص الأهرام، أمّا نصوص ومناظر ساعات كتب العالم الآخر فقد سُجلت على التوابيت الحجرية المستطيلة (Maspero,1908;Maspero,and Gauthier,1939; Taylor,1989) (شكل ٣٣-٣٤).

وتجدر الإشارة إلى أن مقابر سيدي جابر ومصطفى كامل تؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد، تلك الحقبة التاريخية التي تقع في إطار العصر البطلمي، وعلى الرغم من أن التابوت تم اكتشافه في جبانة تعود للعصر البطلمي، إلا أن الدراسة تُرجح أن تابوت سيدي جابر يُمكن تأريخه بالعصر المتأخر بصفةٍ عامةٍ، وعصر الأسرة الثلاثين بصفةٍ خاصةٍ، ويُمكن أن يكون التابوت قد جُلب من جبانة منف، ثم تمت عملية إعادة استخدامه خلال الفترة البطلمية، ومن خلال مقارنة التابوت -موضوع الدراسة- ببعض التوابيت التي تنتمي لنفس الحقبة الزمنية، فقد لوحظ أنه غير مكتمل الصناعة؛ حيث من المُفترض وجود النقوش والمناظر الخاصة بكتاب الإمي دوات وكتاب الكهوف وغيرها من نصوص ومناظر كتب العالم الآخر. ومما سبق فتُرجح الدراسة أن هذا التابوت قد أُعيد استخدامه خلال العصر البطلمي على حالته غير المكتملة، وذلك ربما لعدم اكتراث الذين ينتمون للعصر البطلمي بالمُعتقدات المصرية القديمة بشكلٍ أساسي. وسيتم التطرق فيما يلي لبعض التوابيت التي تعود لنفس العصر المتأخر وتحديدًا عصر الأسرة الثلاثين، ومن أمثلتها غطاء تابوت "با دي إيست" المحفوظ برقم 29 بمتحف برلين، والمؤرخ بعصر الأسرة الثلاثين ومن عهد الملك نختنبو الثاني (Manassa,2007)(شكل ٣٥).

وأيضًا التابوت الحجري لـ "ورش نفر" المحفوظ برقم (MMA 14.7.1)بمتحف المتروبوليتان، والمؤرخ بعصر الأسرة الثلاثين وخلال الفترة ٣٨٠-٣٠٠ ق.م (Arnold,1997; Allen,2003;Manassa,2007) (شكل ٣٦- ٤٠).

وكذلك التابوت الحجري للمدعو "ون نفر"، المحفوظ برقم (MMA 1.154.1a, b) بمتحف المتروبوليتان، والمؤرخ بعصر الأسرة الثلاثين وخلال الفترة ٣٨٠-٣٣٢ ق.م (Arnold,1997;Manassa,2007) (شكل ٤١-٤٤) وذلك بالإضافة إلى التابوت رقم 29302 CG المحفوظ بالمتحف المصري والمؤرخ بعصر الأسرة الثلاثين، وكذلك تابوت رقم CG29307المحفوظ بالمتحف المصري والمؤرخ بعصر الأسرة الثلاثين (Maspero,1908; Spiegelberg,1929;Maspero, and Gauthier,1939; Allen,1952; Goyon,1974; Taylor,1989; Baines,1992; Schneider,1994) (شكل٣٣-٣٤).

ومن خلال مقارنة التابوت – موضوع الدراسة – مع التوابيت سابقة الذكر، فقد لوحظ وجود تتشابه من حيث مادة الصناعة والحجم والشكل العام، مما استدعى تأريخ التابوت بالعصر المتأخر بصفةٍ عامةٍ، وعصر الأسرة الثلاثين بصفةٍ خاصةٍ، ويُمكن أن يكون التابوت قد جُلب من جبانة منف، ثم تمت عملية إعادة استخدامه خلال الفترة البطلمية، والفارق بينهم أن التابوت-موضوع الدراسة– غير منقوش؛ حيث من المُفترض وجود النقوش والمناظر الخاصة بكتاب الإمي دوات وكتاب الكهوف وغيرها من نصوص ومناظر كتب العالم الآخر، ولذلك فقد رجحت الدراسة عدم اكتمال صناعته، كما تُرجح الدراسة أن تابوت سيدي جابر التابوت قد أُعيد استخدامه خلال العصر البطلمي على حالته غير المكتملة.

ثانيًا: دراسة تحليلية للدلالة والرمزية العقائدية للتوابيت في الفكر المصري القديم

اعتقد المصري القديم أن التابوت يُعتبر تجسيدًا للمعبودة نوت ربة السماء؛ حيث راعى المصري القديم تمثيلها متدلية بذراعيها كأنها تحتضن التابوت أو كأنها تحتضن المتوفى، فقد آمن المصري القديم بقدرة تلك المعبودة الكونية على إعادة

ميلاده مرة أخرى في العالم الآخر ليكون بصحبة ميلاد الشمس التي تخرج من رحمها في هيئة خبري (Rusch, 1922)؛ حيث اعتقد المصري القديم أن المعبودة "نوت" تبتلع الشمس حين غروبها لتسير في جسدها خلال ساعات الليل ولكي تولد وتخرج من رحمها بمثابة ميلاد جديد للشمس حين شروقها (Remler,2010)، كما اعتقد المصري القديم أن المعبودة نوت تُعضد قواه وتساعده على الوفاء بإلتزامات رحلته الأخروية الليلية بحيث تمنحه الخلود مثل النجوم الخالدة التي لاتفنى Ixmw-sk؛ حيث كانت تلك النجوم تُمثل أرواح الأبرار من الموتى الذين يتحولون بعد ميلادهم من رحم نوت من الكيان البشري الفاني إلى الكيان النجمي الخالد (Elias,1993) ويعتقد Schoot أن المصري القديم استخدم الشكل الكتابي للمفردة اللغوية Mwt كدلالة رمزية للتابوت الخارجي مما يعطى انطباعًا ودلالة واضحة للمعبودة نوت ربة السماء التي يتم تمثيلها أسفل غطاء التابوت، والتي تُعتبر بمثابة الأم التي تُعيد ولادة المتوفى من جديد في العالم الآخر (Schoot,1965)، كما عبرت نفس المفردة اللغوية بالشكل الكتابي التالي Mwt للدلالة عن معنى "أم" في اللغة المصرية القديمة (Hanning,2001;Hanning, 2003;Faulkner,1964). ولقد اعتقد المصري القديم أن التابوت يُعد تجسيدًا للبيضة الأزلية للنقاق العظيم ngg الذي أطلق swHt صيحته الأولى بعد خروجه من البيضة إيذانًا ببدء الخليقة (Willems,1988)، وتُعتبر البيضة من الرموز الجنائزية المقدسة التي تُشير إلى التابوت، ولم يكن الدفن في التابوت سوى عودة للمياه الأزلية وولوج من تربة التل الأزلي تيمنًا بالمعبود رع الذي خرج من البيضة المقدسة في هيئة آتوم (كلارك،١٩٨٨)، ولم يكن المصري القديم بمعزلٍ عن فكره العقائدي حينما أطلق على التابوت الأدميّ مسمى swHt؛ حيث كانت نظرة المصري للتابوت أنه مهد لإعادة خلقه وميلاده مرة أخرى في العالم الآخر (Wb. IV, 74, 4)، وكدلالة رمزية لتلك الفرضية فعبر التركيب اللغوي m swHt بمعنى"الذي في رحم أمه" (Wb. IV,73,10)؛ حيث اعتبر المصري القديم أن التابوت بمثابة تجسيد لرحم الأم الذي يستقر فيه الإنسان ليولد من جديد في العالم الآخر، ويبدو ذلك كإشارة واضحة عن سبب اهتمام المصري القديم تمثيل المعبودة نوت ربة السماء على غطاء التابوت، وما يتمثل من دلالة احتضانها للمتوفى الذي يخرج من رحمها في العالم الآخر (سبنسر،١٩٨٧).

ولقد اعتقد المصري القديم أن التابوت كان بمثابة تجسيد للقارب المقدس للمعبود رع؛ حيث ساد منذ عصر الدولة القديمة أن الملك المتوفى يرافق المعبود رع في رحلته السماوية (Taylor, 1989)، ومنذ عصر الدولة الحديثة اعتاد المصري القديم تسجيل مناظر ونصوص كتب العالم الآخر التي تتناول أحداث الساعات الإثنى عشرة للرحلة الليلية لقارب رع المُقدس على جنبات التوابيت الحجرية المستطيلة التي اعتبرت في حد ذاتها تجسيد لقارب رع المقدس الذي يخوض غِمار رحلته الليلية في دروب العالم الآخر، ولقد حرص المصري القديم أن يكون بزوغ الشمس في أفق السماء الشرقي بمثابة الوقت الذي يخرج فيه تابوت المتوفى من غرفة التحنيط، ومن ثَّم بدء مراسم الجنازة وطقوس الدفن التي اهتم أن ينتهي منها مع غروب الشمس، وحينما كان يتم وضع التابوت في غرفة الدفن فحينئذ يكون المعبود رع قد انهى رحلته اليومية ليبدأ رحلته الليلية على قاربه المسائي المقدس msktt، ولكي يرافقه المتوفى في تابوته الحجريّ (Remler,2010). وتجدر الإشارة إلى أن التابوت المستطيل كان بمثابة تجسيد للمحيط الكوني؛ حيث أخذت العقيدة الأوزيرية في الانتشار منذ عصر الدولة الوسطى، ومن ثَّم فقد آمن المصري القديم بضرورة أن ينعم المتوفى بالحماية التي تمتع بها المعبود أوزير لينعم بالخلود في العالم الآخر، ولذا فقد لجأ إلى تصوير المعبودتين الحاميتين إيزيس ونفتيس عند موضع قدمي ورأس التابوت؛ حيث ارتبطت إيزيس بالشرق بينما إرتبطت نفتيس بالغرب، وذلك ضمانًا لصاحبه بالحماية وإعادة البعث في العالم الآخر (Taylor, 1989; Zabkar,1968) (شكل ٤٥).

ولقد أوكل المصري القديم مَهمة حماية المتوفى لأبناء حور الأربعة؛ حيث يرمز المعبود Imsty إلى جهة الجنوب، بينما يرمز المعبود Hpy إلى جهة الشمال، بينما جاء dwA mwt.f ليرمز إلى جهة الشرق، بينما يرمز المعبود qbH-snw.f إلى جهة الغرب (لوركر،٢٠٠٦). جدير بالذكر أن الرقم أربعة الذي يدل على تلك الكيانات الإلهية الخاصة بأبناء حور الأربعة والجهات الكونية وبما يرمز إلى التمام والكمال وكإشارة رمزية لأركان الكون عند المصري القديم، فضلًا عن الدلالة على الجهات

الأصلية والرياح وفقًا لجهاتها، كما يُشير إلى أعمدة السماء الأربع (رويز، ٢٠٠٥).

مضمون الدراسة

عكفت هذه الدراسة لمناقشة تابوت سيدي جابر غير المنشور من قبل والمُكتشف بالموقع الكائن في ٨ شارع الكرملي بسيدي جابر-محافظة الإسكندرية – مصر، ولقد كان ذلك من خلال دراسة وصفية وتحليلية مقارنة؛ حيث إنه لم يُنشر ولم يتم التحقيق فيه بواسطة الباحثين من قبل. ولقد تم العثور على ذلك التابوت في إطار المنطقة الأثرية لجبانة سيدي جابر – شرق الإسكندرية، كما إنه محفوظ الآن بحالة جيدة في المخزن المتحفي للمنطقة الأثرية المعروفة بجبانة مصطفى كامل الكائنة في شارع المُعسكر الروماني-محافظة الإسكندرية – مصر. وفقًا لمنهجية الدراسة المُتبعة والتحقيق فيما يخص هذا التابوت، فقد ظهرت بعض الاستفسارات والإشكاليات البحثية والتي تحتاج إلى دراسة ومعالجة وتفسير، ومن أمثلة تلك الاستفسارات؛ هل هناك أي نقوش مُسجلة على هذا التابوت؟ هل هذا التابوت ملكيًا أم غير ملكي؟ إلى أي حقبة تاريخية وزمنية يُمكن تأريخ هذا التابوت؟

ومن أمثلة الإشكاليات البحثية أنه عُثر بداخل التابوت على ثلاث مومياوات آدمية في حالة شبه مُتحللة، كما غمرت جنبات التابوت كمية كبيرة من سائل أصفر اللون والذي يبدو مائلًا إلى الإحمرار!، كما إنه لا توجد أي إشارة إلى أسماء ملكية ولا أية خراطيش، وأيضًا لا توجد أي إشارة إلى ألقاب رسمية أو غير رسمية!، ولذلك كانت هناك صعوبة لاقتراح أي تأريخ دقيق لذلك التابوت.

ولقد هدفت هذه الدراسة إلى التحقيق والمناقشة والتحليل لذلك التابوت غير المنشور من قبل، وتتضح منهجية الدراسة الحالية من خلال إتباع المنهج الوصفي والتحليلي المقارن، بالإضافة إلى إجراء دراسة تحليلية للتابوت ومُشتملاته من أجل إبراز الدلالات الرمزية في إطار المُعتقدات المصرية القديمة، كما تم استخدام المنهج التأريخي المقارن تطبيقًا على بعض التوابيت الأخرى وذلك من أجل وضع تأريخ دقيق لذلك التابوت موضوع الدراسة.

ولقد تبين من خلال الدراسة أن هذا التابوت غير منقوش، ومصنوع من الجرانديورايت، ولقد تراوحت أبعاده ٢٧٢ سم طولًا –١٥٠ سم عرضًا – ١٨٥ سم ارتفاعًا، أما الوزن فقد بلغ وزن الغطاء بما يعادل (٦,٠٢ طن)، أما وزن البدن فقد بلغ (٥,٧ طن)، وتقترح الدراسة أن التابوت يُمكن تأريخه بالعصور المتأخرة ، كما يُعتقد أنه قد تم إعادة استخدامه خلال العصر البطلمي. وتجدر الإشارة إلى أن مقابر سيدي جابر ومصطفى كامل تؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد، تلك الحقبة التاريخية التي تقع في إطار العصر البطلمي، وعلى الرغم من أن التابوت تم اكتشافه في جبانة تعود للعصر البطلمي، إلا أن الدراسة تُرجح أن تابوت سيدي جابر يُمكن تأريخه بالعصر المتأخر بصفةٍ عامةٍ، وعصر الأسرة الثلاثين بصفةٍ خاصةٍ، ويُمكن أن يكون التابوت قد جُلب من جبانة منف، ثم تمت عملية إعادة استخدامه خلال الفترة البطلمية، ومن خلال مقارنة التابوت -موضوع الدراسة- ببعض التوابيت التي تنتمي لنفس الحقبة الزمنية، فقد لوحظ أنه غير مكتمل الصناعة؛ حيث من المُفترض وجود النقوش والمناظر الخاصة بكتاب الإمي دوات وكتاب الكهوف وغيرها من نصوص ومناظر كتب العالم الآخر. ومما سبق فتُرجح الدراسة أن هذا التابوت قد أُعيد استخدامه خلال العصر البطلمي على حالته غير المكتملة، وذلك ربما لعدم اكتراث الذين ينتمون للعصر البطلمي بالمُعتقدات المصرية القديمة بشكلٍ أساسي.

نتائج الدراسة

تبين من خلال الدراسة أنه تم العثور على تابوت سيدي جابر بالموقع الكائن في ٨ شارع الكرملي بسيدي جابر-محافظة الإسكندرية – مصر، وذلك يقع في إطار المنطقة الأثرية لجبانة سيدي جابر – شرق الإسكندرية، كما إنه محفوظ الآن بحالة جيدة في المخزن المتحفي للمنطقة الأثرية المعروفة بجبانة مصطفى كامل الكائنة في شارع المُعسكر الروماني-محافظة الإسكندرية – مصر.

اتضح من خلال الدراسة أن هذا التابوت غير منقوش، ومصنوع من الجرانديورايت، ولقد تراوحت أبعاده ٢٧٢ سم طولًا –١٥٠ سم عرضًا – ١٨٥ سم ارتفاعًا، أما الوزن فقد بلغ وزن الغطاء بما يعادل (٦,٠٢ طن)، أما وزن البدن فقد بلغ (٥,٧ طن).

تقترح الدراسة من خلال دراسة تحليلية مقارنة مع بعض التوابيت المُتماثلة في الشكل أن تابوت سيدي جابر يُمكن تأريخه بالعصور المتأخرة، كما يُعتقد أنه قد تم إعادة استخدامه خلال العصر البطلمي.

على الرغم من أن مقابر سيدي جابر ومصطفى كامل تؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد، تلك الحقبة التاريخية التي تقع في إطار العصر البطلمي، وعلى الرغم من أن التابوت تم اكتشافه في جبانة تعود للعصر البطلمي، إلا أن الدراسة تُرجح أن تابوت

سيدي جابر يُمكن تأريخه بالعصر المتأخر بصفةٍ عامةٍ، وعصر الأسرة الثلاثين بصفة خاصة.

تقترح الدراسة أن يكون التابوت قد جُلب من جبانة منف، ثم تمت عملية إعادة استخدامه خلال الفترة البطلمية، ومن خلال مقارنة التابوت -موضوع الدراسة-ببعض التوابيت التي تنتمي لنفس الحقبة الزمنية، فقد لوحظ أنه غير مكتمل الصناعة؛ حيث من المُفترض وجود النقوش والمناظر الخاصة بكتاب الإمي دوات وكتاب الكهوف وغيرها من نصوص ومناظر كتب العالم الآخر، ومما سبق فتُرجح الدراسة أن هذا التابوت قد أُعيد استخدامه خلال العصر البطلمي على حالته غير المكتملة.

الملاحق



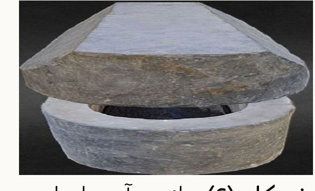
شكل (١)

تابوت سيدي جابر من خلال تصوير ثلاثي الأبعاد (بواسطة الباحث)



شكل (٢) جانب آخر لتابوت سيدي جابر بتصوير ثلاثي الأبعاد (بواسطة الباحث)

شكل (٣) زاوية أخرى لتابوت سيدي جابر من خلال تصوير ثلاثي الأبعاد (بواسطة الباحث)



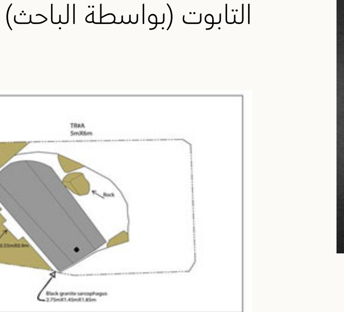
شكل (٤) جانب آخر لتابوت سيدي جابر من خلال تصوير ثلاثي الأبعاد (بواسطة الباحث)



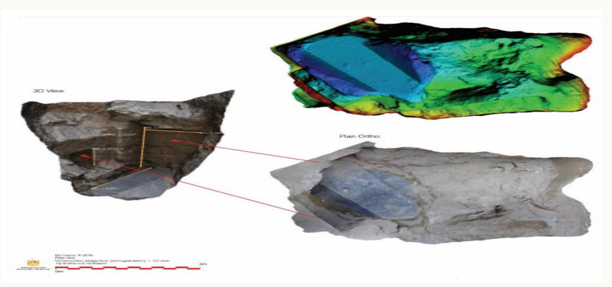
شكل (٥) منظور آخر لتابوت سيدي جابر بتصوير ثلاثي الأبعاد (بواسطة الباحث)

شكل (٦) مشهد توضيحي لبانوراما المجسين الاختباريين (بواسطة الباحث)

شكل (٧) تصوير ثلاثي الأبعاد للمقبرة التي عُثر فيها على التابوت (بواسطة الباحث)



شكل (٨) رسم معماري للمجس الأول الذي عُثر بداخله على التابوت (بواسطة الباحث)



شكل (٩) مسقط أفقي للمجس مع خريطة العمق من مخرجات تقنية المسح ثلاثي الأبعاد (بواسطة الباحث



شكل (١٠) مشهد توضيحي للكوّة المُكتشفة أعلى التابوت (بواسطة الباحث)



شكل (١١) رأس التمثال المصنوع من المرمر والمُكتشفة وسط الرديم (بواسطة الباحث)




شكل (١٢) منظور قريب يوضح رأس التمثال المصنوع من المرمر والمُكتشفة وسط الرديم (بواسطة الباحث)

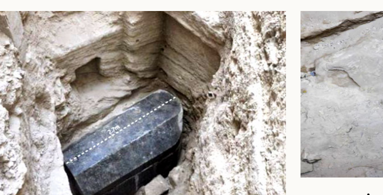


شكل (١٣) تصوير ثلاثي الأبعاد لرأس التمثال المصنوع من المرمر والمُكتشفة وسط الرديم (بواسطة الباحث)



شكل (١٤) مشهد توضيحي للأرضية الداكنة التي عُثر عليها على عمق خمسة أمتار (بواسطة الباحث)

شكل (١٥) مشهد توضيحي لغطاء التابوت الذي عُثر عليه على عمق خمسة أمتار (بواسطة الباحث)



شكل (١٦) مشهد توضيحي للتابوت المُكتشف على عمق خمسة أمتار في المجس الأول (بواسطة الباحث)

شكل (١٧) تصوير ثلاثي الأبعاد لشكل ووضع التابوت (بواسطة الباحث)

شكل (١٨) مشهد تخيلي توضيحي لشكل وأبعاد التابوت (بواسطة الباحث)

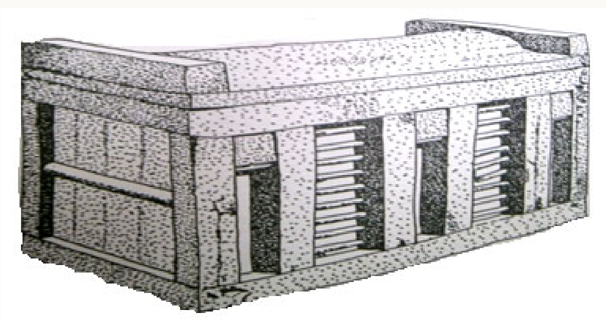
شكل (١٩) مشهد توضيحي للمومياوات شبه المُتحللة والسائل الذي عُثر عليه داخل التابوت (بواسطة الباحث)



شكل (٢٠) الرقائق الذهبية التي عُثر عليها بداخل التابوت (بواسطة الباحث)



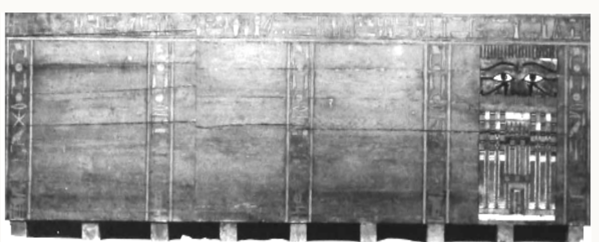
شكل (٢١) الشكل المبكر للتوابيت الفخارية بيضاوية الشكل من العصر الثيني، نقلًا عن:
(Ikram, and Dodson, 1998, Fig. 235)



شكل (٢٢) شكل التابوت رقم 43794 .Cairo JE – عصر الأسرة الثانية، نقلًا عن: (Taylor,1989, Fig. 4)



شكل (٢٣) شكل التابوت رقم BM EA 46629 -عصر الأسرة السادسة، نقلًا عن: (Ikram, and Dodson,1998, Fig. 237)



شكل (٢٤) شكل التابوت رقم MA 11.150.15 -عصر الأسرة الثانية عشر، نقلًا عن:

(Niwiǹski, and Lapp,2001,p. 280)



شكل (٢٥) شكل التابوت رقم477 .Oxford. 1911- أواخر عصر الأسرة الحادية عشر- جبانة إخميم، نقلًا عن: (Taylor, 1989, Fig. 9)



شكل (٢٦) شكل التابوت الآدميّ رقم E.88.1903 -عصر الأسرة الثانية عشر-جبانة بني حسن، نقلًا عن:

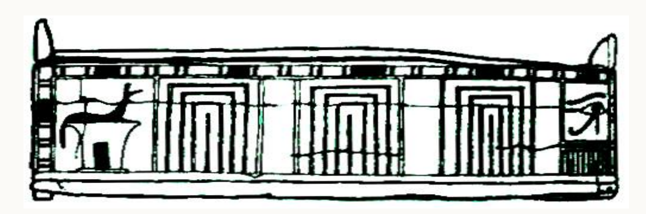
http://webapps.fitzmuseum.cam.ac.uk/explorer/index.php?oid=50697 (Date of access 14/6/2020)



شكل (٢٧) شكل التابوت الريشي رقم MA.12.181.299 -عصر الأسرة السابعة عشر، نقلًا عن:

http://www.metmuseum.org/collection/the-collection-online/search/544788

(Date of access 14/6/2020)



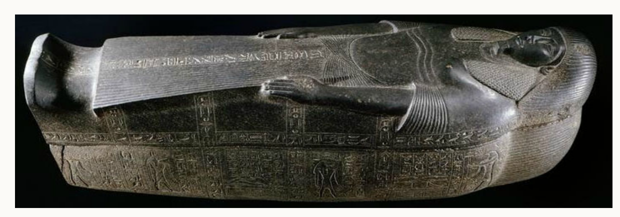
شكل (٢٨) شكل التابوت رقم Cairo JE 43642 -عصر الانتقال الثاني، نقلًا عن:

(Ikram., and Dodson, 1998, Fig. 262-c)



شكل (٢٩) شكل التابوت رقم BM. EA. 29580 ، نقلا عن:

(Taylor, 1989, Fig.24)



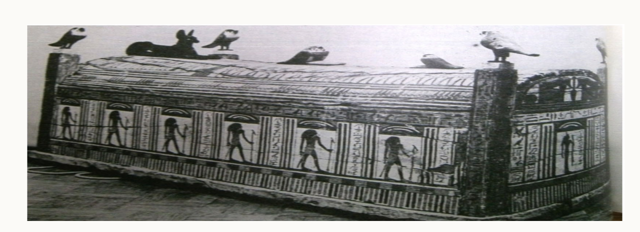
شكل (٣٠) شكل التابوت رقم Louvre D2 برداء الحياة اليومية -عصر الأسرة العشرين، نقلًا عن:

http://www.louvre.fr/en/oeuvre-notices/sarcophagus-iniuia (Date of access 14/6/2020)

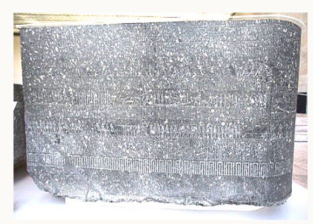


شكل (٣١) شكل التابوت الفضي رقم Cairo JE 85912 للملك بسوسينيس I – عصر الأسرة الحادية والعشرين، نقلًا عن:

(Ikram., and Dodson, 1998, Fig. 297)



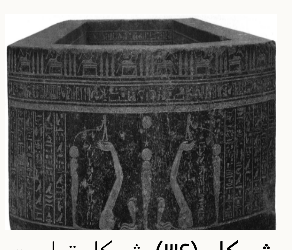
شكل (٣٢) شكل التابوت رقم 1898.153 .Oxford – عصر الأسرة الخامسة والعشرين، نقلًا عن: (Taylor, 1989, Fig. 42)



شكل (٣٦-٤٠) زوايا مختلفة لشكل تابوت "ورش نفر"، المحفوظ برقم (MMA 14.7.1) بمتحف المتروبوليتان - عصر الأسرة الثلاثين، نقلًا عن: (Date of access 14/6/2020) https://www.metmuseum.org/art/collection



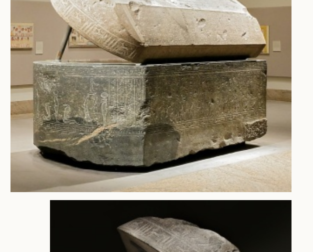
شكل (٣٣) شكل تابوت رقم CG 29307،المحفوظ بالمتحف المصري- عصر الأسرة الثلاثين، نقلًا عن: Maspero, and (Gauthier,1939, Pl. II)

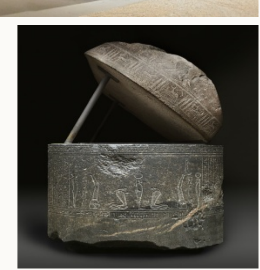


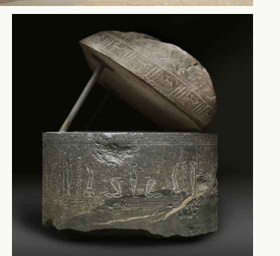
شكل (٣٤) شكل تابوت رقم CG 29302، المحفوظ بالمتحف المصري – عصر الأسرة الثلاثين، نقلًا عن: (Maspero,1908, Pl.VII)







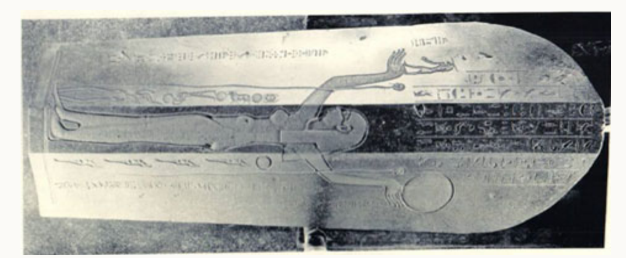




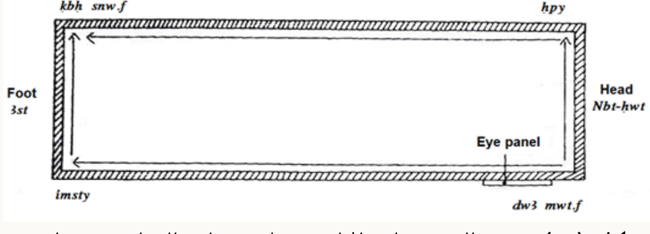
شكل (٤١-٤٤) زوايا مختلفة لشكل تابوت "ون نفر"، المحفوظ برقم (MMA 1.154.1a, b) بمتحف المتروبوليتان - عصر الأسرة الثلاثين، نقلًا عن:

https://www.metmuseum.org/art/collection

(Date of access 14/6/2020)



شكل (٣٥) شكل تابوت رقم ٢٩،المحفوظ بمتحف برلين- عصر الأسرة الثلاثين، نقلًا عن: (Manassa,2007, Pl.301)



شكل (٤٥) توزيع المعبودات الحامية على جنبات التوابيت، بما يتماثل مع الجهات الكونية، نقلًا عن: (Taylor, 1989, Fig.1)





قائمة المراجع:

أولًا: المراجع العربية:

صالح (عبد العزيز): حضارة مصر القديمة وآثارها، القاهرة، ١٩٦٢م.

قادوس (عزت): آثار الإسكندرية القديمة، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

ثانيًا: المراجع المترجمة:

رويز (آنا): روح مصر القديمة، ترجمة: إكرام يوسف، القاهرة، ٢٠٠٥م.

سبنسر (آلان جفري): الموتى وعالمهم في مصر القديمة، ترجمة: أحمد صليحة، القاهرة، ١٩٨٧م.

كلارك (رندل): الرمز والأسطورة في مصر القديمة، ترجمة: أحمد صليحة، القاهرة، ١٩٨٨م

لوركر (مانفريد): معجم المعبودات والرموز في مصر القديمة، ترجمة: صلاح الدين رمضان، مراجعة: محمود ماهر، القاهرة، ٢٠٠٦م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية:

- **Allen, J.P.,** The Egyptian Concept of the World, In: O'Connor, D., & Quirke, S., (Eds.) Mysterious Lands, London, 2003, pp.23-30.
- **Allen, T. G.,** Additions to the Egyptian Book of the Dead, JNES 11, 1952, pp.177-186.
- **Andrews, C.,** Egyptian Mummies, London, 1984.
- **Arnold, D.,** The Late Period Tombs of Hor-khebit, Wennefer and Wereshnefer at Saqqâra, In: Berger, C., and Mathieu,B., (Eds.), Études sur l'Ancien Empire et la nécropole de Saqqâra dédiées à Jean-Phillipe Lauer, Vol. 1, OrMonsp IX; Montpellier: Université Paul Valéry, 1997, pp. 31–54.
- **Baines, J.,** Merit by Proxy: The Biographies of the Dwarf Djeho and His Patron Tjaiharpta, JEA 78, 1992, pp. 241-257.
- **Dorman, P.,** The Tombs of Senenmut, New-York, 1991.
- **Elias, J.,** Coffin Inscriptions in Egypt after the New Kingdom, Vol. III, Chicago, 1993.
- **Erman, E., & Grapow, H.,** Wörterbuch der ägyptischen Spache, 6 Vols., Berlin-Leipzig, 1957.
- **Faulkner, R. O.,** A Concise Dictionary of Middle Egyptian, Oxford, 1964.
- **Goyon, J.,** La véritable attribution des soi-disant chapitres 191 et 192 du Livre des Morts, In: Kákosy, L., (Ed.), Recueil d'études dédiées à Vilmos Wessetzky. FS Wessetzky, Budapest 1974, pp. 117-127.
- **Gray, P.,** Two Mummies of Ancient Egyptians in the Hancock Museum, New-Castle, JEA 53, London, 1967, pp. 70-76.
- **Hannig, R.,** Großes Hand Wörterbuch, Ägyptische Deutsch, Die Sprache der Pharaonen, Mainz, 2000.
- **Hanning, R.,** Ägyptisches Wörterbuch I; Altes Reich und erste Zwischenzeit, Hannig-Lexica 4, Kulturgeschichte der antiken Welt 98, Mainz, 2003.
- **Ikram, S., and Dodson, A.,** The Mummy in Ancient Egypt: Equipping Dead for Eternity, London, 1998.
- **Manassa, C.,** The Late Egyptian Underworld: Sarcophagi and Related Texts from the Nectanebid Period, Ägypten und Altes Testament, Vol.72, Wiesbaden, 2007.
- **Maspero, G., & Gauthier, H.,** Sarcophages des Époques persane et ptolémaique, Vol. II, No. 29307-29323 (Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée du Caire), Cairo 1939, (CGC) 29307.
- **Maspero, G., and Gauthier, H.,** Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée du Caire N° 29307-29323 Sarcophages des époques persane et ptolémaïque, Vol.2, Impr. de l'Institut français d'archéologie orientale, Le Caire, 1939.
- **Maspero, G.,** Catalogue général des antiquités égyptiennes du Musée du Caire, N° 29301-29303, Sarcophages des époques persane et ptolémaïque, Vol.1, Impr. de l'Institut français d'archéologie orientale, Le Caire,1908.
- **Niwiǹski, A., and G. Lapp, G.,** Coffin, Sarcophagi and Cartonnages, In: Redford, B. D., (Ed.). The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt, Vol.I, AUC. Press, Cairo, 2001, pp. 280-284.
- **Niwiǹski, A., "Sarg** NR – SpZt", In: Helck, W. & Otto, E., (Eds.). "Lexikon der Ägyptologie", Vol. V, Wiesbaden, 1984, cols. 449-450.
- Patterson, **J.H., and, C. Andrews, C.,** Mummies: Death and Life in Ancient Egypt, New York, 1978.
- **Remler, P.,** Egyptian Mythology A to Z, USA, 2010.
- **Rusch, A.,** Die Entwicklung der Himmelsgöttin Nut zueinerTotengottheit, MVÄG, Vol. 27, Leipzig, 1922.
- **Schneider, H.D.,** Bringing the Ba to the Body: A Glorification Spell for Padinekhtnebef, In: Berger el-Naggar, Cathérine (Ed.), Hommages à Jean Leclant, Vol. 4, Cairo 1994, pp. 355-362.
- **Schoot, S.,** "Nut Sprichtals Mutter und Sarg", RdE 17, Cairo/Paris,1965,pp. 80-83.
- **Siliotti, A., and Hawass, Z.,** The illustrated Guide to the Pyramids, Cairo,2003.
- **Spiegelberg, W.,** Das Grab eines Großen und seines Zwerges aus der Zeit des Nektanebês, ZÄS 64., 1929, pp.76-83.
- **Taylor, J.H.,** Egyptian Coffins, London, 1989.
- **Villaseca, C., Barbero, L. & Herreros, V.,** A re-examination of the Typology of Peraluminous Granodiorite types in Intracontinental Orogenic belts, Transactions of the Royal Society of Edinburgh: Earth Sciences, Vol.89, 1998, pp.113-119.
- Willems, H., **Chests of life: Study** of **the Typology and Conceptual Development of Middle Kingdom Standard Class Coffins, Leiden, 1988.**
- **Willems, H.,** The Coffin of Heqata: (Cairo JdE 36418); a Case Study of Egyptian Funerary Culture of the Early Middle Kingdom, Leuven, 1996.
- **Zabkar, L.V.,** A Study of the Ba Concept in Ancient Egypt Texts, SAOC 34, Chicago, 1968.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

القرصنة الأوربية في المتوسط
من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر



د. حامد العجيلي
أستاذ مساعد التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

مثلت القرصنة الأوربية أحد أبرز الأنشطة المرية في البحر المتوسط خلال الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر وكان ذلك معاصرًا لتطور صناعة السفن والتجارة البحرية في المدن الساحلية الأوربية، فإلى جانب الطابع الربحي للقرصنة الأوربية فإنها ساهمت في زرع الرعب في المتوسط وعلى سواحل المدن المتوسطية المغربية والإفريقية بشكل خاص. وما سنقوم بتوضيحه في هذا المقال إبراز التفوق البحري الأوربي خلال الفترة المشار إليها ثم تتبع ظاهرة القرصنة الأوربية وتطورها الزمني لنقف عند تطورها من الناحية التنظيمية والنتائج التي أسفرت عنها وخاصة عمليات الأسر والاستعباد التي لحقت أعداد كبيرة من ضحايا القرصنة الأوربية. ولتوضيح كل ذلك قمنا بتتبع المصادر واستدرار مخزونها لذلك اعتمدنا على السرد والتحليل ثم الاستنتاج في كل مرحلة من مراحل كتابة المقال حتى يتسنى للقارئ فهم الأطر التاريخية والأحداث القرصنية التي رافقتها ثم الخروج باستنتاجات مسترسلة حسب العناصر التي بوبناها لننهي مقالنا باستنتاجات كبرى تتعلق بظاهرة القرصنة ونتائجها الوخيمة على ضحاياها الذين انتهى بهم المطاف إما في عداد المفقودين أو سلعة للتداول في أسواق العبيد وهو ما يعني ضرورة البحث في مصير العبيد والأسرى المغاربة خلال العصر الوسيط.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١١	يوليو	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٢٩	أغسطس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
قرصنة أوربية؛ البحر المتوسط؛ مدن مغربية؛ عبيد؛ أسرى.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.248723

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
حامد العجيلي. "القرصنة الأوربية في المتوسط من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٣١ – ١٤٤.

Corresponding author: hamedajili2@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إن كلمة حرب في قاموس العهد الوسيط تحيلنا على "الجهاد والغزو والقتال مع العدو أو دار الحرب التي تعني بلاد المشركين الذين لا صلح بينهم وبين المسلمين[١] وأوردت المصادر الحفصية عديد الألفاظ التي على صلة بالحرب ومنها "القطع والغزو والجهاد والفتح وتمهيد النواحي والقرصنة واللصوصية". تعبر هذه المفردات عن السياق العام الذي أدرجت فيه فالفتح والحركة غالبا ما كانا مقترنين بالعمل العسكري ضد المتمردين عن الدولة[٢] أما تمهيد النواحي فبمثابة عملية استعراضية لقوة الدولة في شكل عمل شبه دوري يقوم به كل سلطان حفصي جديد ضد المناطق البعيدة عن المركز.[٣]

وخلال فترة بحثنا وقفنا على كلمة "الجهاد" فقد ذكرت في القرنين الأخيرين من عمر الدولة الحفصية وكان ذلك منذ فترة السلطان أبو العباس أحمد(١٣٧١-١٣٩٤) في حين ورد لفظ الغزو وقد استعمل بكثافة في العهد الموحدي (في صيغ مختلفة مثل الغزاة والغزى) والتي نجدها في مؤلف العبر لابن خلدون.[٤] وما يلاحظه الدارس أن لفظتي القطع والقرصنة قد تم استعمالهما في الوثائق الرسمية الحفصية والمؤلفات الفقهية التي تحدثت عن "قطع الطريق" وحكمه الشرعي عند الفقهاء[٥] وتم سحبها كذلك على المجال البحري للدلالة على انعدام الأمن.[٦]

أما كلمة "قرصلة" فهي تحريف لـ "قرصنة" وقد ذكرتها الوثائق الرسمية في معاهدات السلم والتجارة والرسائل المتبادلة بين الأرغونين والحفصيين مع بداية القرن الرابع عشر. كما استعمل اللفظ في الفترات اللاحقة إذ ذكر ابن عبد الباسط في رحلته الذي ذكر "قرصال"[٧] وتحدّث البرزلي عن "اللصوصية".[٨] وحسب مختلف تلك الألفاظ التي وردت في المصادر على امتداد كامل الفترة المعنية بالدراسة تبين لنا أن لفظ القطع يعني لصوصية البحر ويقابلها بالفرنسية «Piraterie» و«Piracy» بالأنقليزية ولعل استعمال كلمة قرصنة المعربة عن الأصل اللاتيني «Corsaro» والتي على صلة على ما يبدو بجزيرة كورسيكا قد أصبحت تعني العمل الشرعي الذي تقوم به كل سفينة مسلحة رخص لها بأن تجوب البحار وتقاتل سفن الأعداء المغيرة على سواحلهم وهي عملية شرعية كانت تخضع لمراقبة السلطة التي تشرف على تنظيمها منذ الفترة اليونانية والرومانية.[٩]

تُحيلنا مختلف الألفاظ التي أشرنا إليها عن واقع معقد كان يعيشه المتوسط بضفتيه الشمالية والجنوبية حيث امتزجت عمليات الأسر والاستعباد بالتجارة والحرب، وكانتا (الحرب والتجارة) تشكلان وسيلتين أساسيتين متداخلتين للحصول على الثروة المادية والبشرية. وتبعًا لذلك فإن الأطراف المشاركة في العمل القرصني كانت ترتبط بمصالح أخرى تبدو عضوية مما ألزمها الحفاظ على تواصل العلاقات بين الطرف المسيحي وسلاطين بلاد المغرب والأندلس، وعموما تميزت تلك الفترة بتنامي عمليات الغزو والقرصنة بين الجانبين مما ساهم في وجود عشرات الآلاف من الضحايا الذين كان مصيرهم إما الأسر وافتكاك حريتهم أو العبودية المؤبدة.

أولاً: القرصنة خلال القرن الثاني عشر

منذ القرن الثاني عشر الميلادي نجد صدى القرصنة الأوربية في المعاهدات الدبلوماسية والتجارية وارتبط تطور القرصنة بالتغيرات الداخلية التي شهدتها أوربا متمثلة في انبعاث الحروب الصليبية وتنامي حركة الاسترداد في الأندلس بالإضافة إلى تطور صناعة السفن والعمل التجاري الذي تحكّم فيه الإيطاليون بشكل خاص. وقد وازى تلك التحولات روح المغامرة والبحث عن الثروة من قبل قراصنة يعملون لحسابهم الخاص كما كانت الغزوات والعمليات الحربية التي تقوم بها الدولة أكثر دموية من خلال خطف مئات أو آلاف الأسرى أصيلي إفريقية الذين كان يتم شحنهم لبيعهم في الأسواق الأوربية.[١٠]

وقد وثقت المصادر العربية صور أغلب عمليات القرصنة التي تعرضت لها السواحل الإفريقية خلال فترة زمنية طويلة نسبيا حتى أن أحد المؤلفين ذكّر أن الكسوف الكلي للشمس قد ارتبط بنزول الروم على المهدية سنة ١٠٨٧م ف"سبوا أهلها وقتلوا من شاءوا منهم وأحرقوهم بالنار ووقع الصلح على مائة ألف دينار تدفع لهم ويقلعون بما حصل في أيديهم من المسلمين فدفعت لهم وأقلعوا بأموال المسلمين ونسائهم وأبنائهم."[١١] إن ذلك الكسوف المبالغ فيه من قبل ابن عذاري قد مثل بالفعل منعرجا حاسما في تاريخ العلاقات الثنائية بين إفريقية والبلاد الأوربية حين أصبحت الحرب لأول مرة تدور رحاها على أرض إفريقية كما كانت كذلك مناسبة أولى لمعرفة أوربا بوجه مغاير عما كان سابقا بعدما تم مهاجمة المهدية بقوة بحرية قدرها ٣٠٠سفينة واجتمع فيها كل من الجنويين والبيشيين بمباركة البابا فيكتور الثالث.[١٢]

تتالت بعد ذلك التاريخ سلسلة من الهجمات على مختلف المدن الساحلية لبلاد المغرب ولخص ابن خلدون تلك الوضعية بقوله: "كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل

دانية وسردانية وميورقة وصقلية وملأت أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا إلى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم إلى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومران راكبيه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بني مرين أيام ثم فشل ريح الفرنجة واحتل مركز دولتهم بإفرنسة وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة."[١٣]

من خلال هذه الصورة العامة التي قدمها ابن خلدون تبدو مجريات الأحداث التي شهدها المتوسط قد تغيرت كليا في مجال البحرية المغربية وخاصة بعد سقوط الموحدين.[١٤] وتبعًا لكثافة عمليات القرصنة ضد بلاد المغرب يبدو من الصعب القيام بعملية جرد لكل الهجمات البحرية الأوربية على المدن الساحلية المغربية ذلك أن المصادر الإخبارية والوثائقية لا يمكنها رصد كل الأحداث على امتداد ثلاثة قرون ونصف.

مع صعود النورمان في صقلية إلى الحكم[١٥] تواترت العمليات العسكرية ضد الزيريين فتعرضت جزيرة جربة إلى عملية غزو سنة ١١٣٤م فقتلوا من قتلوا وبقي الباقون تحت طاعتهم" وحاول أهل هذه الجزيرة مقاومة الحضور النورماني ١١٥٣م فقتلوا منهم جماعة كثيرة مما استدعى تدخل النورمان ثانية في نفس السنة وأخضعوا الجزيرة فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يبقوا بها إلا من لا بال له.[١٦] وفي سنة ١١٤٢م خرج أسطول صاحب صقلية فضرب على مدينة طرابلس وفي سنة ١١٤٣م دخل مدينة صفاقس ودخلت في عمل رجار صاحب صقلية وفي سنة ١١٤٨م كان تغلب الروم على مدينة المهدية وخرج منها صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ولما استولى صاحب صقلية على هذه المدينة كانت بإفريقية مجاعة عظيمة فخاف أهل تونس من أهل هذه السواحل من النصارى وكان صاحب صقلية دخل بونة وسبى أهلها."[١٧]

كما اجتاح النورمان جزيرة قرقنة سنة ١١٤٥م وطرابلس سنة ١١٤٣م التي احتلت لمدة ستة أشهر ثم أصبحت تابعة لملك صقلية وتم أخذ صفاقس أيضا سنة ١١٤٨م إضافة إلى قابس وسوسة وسقطت المهدية سنة ١١٤٨م وأصبح روجار الثاني بمثابة ملك إفريقية.[١٨] وبقيت عمليات النهب والغزوات المفاجئة النورمانية متواصلة حيث تمت مهاجمة سواحل بني حماد فدخلوا جيجل سنة ١١٤٣م وأحرقوها بالإضافة إلى موانئ أخرى صغيرة تقع بين تنس وشرشال وحسب الإدريسي فإن احتلال مدينة بونة سنة١١٥٣م قد تسبب في تفقير المدينة من سكانها كما سقطت المهدية كذلك بيد الصقليين سنة ١١٨٠م.[١٩]

وما يمكن قوله إن القرن الثاني عشر-كما بينت المصادر-كان زمنًا صعبًا على أهالي المدن الساحلية الإفريقية واعتمادًا على المصادر في تلك الفترة يمكن للباحث كتابة عمل منوغرافي خاص بكل مدينة وعلاقتها بالمجال البحري الذي أصبح مجالاً هشًّا سهل الاختراق من قبل الغزاة، ولكن ذلك الوضع قد ارتبط بعناصر "تنشيطية" جديدة لاقتصاديات بلاد المغرب عمومًا.

ثانيًا: القرصنة خلال العصر الحفصي

لقد ورث الحفصيون ذلك الواقع منذ بداية حكمهم الذي سيشهد تغيرات عدة ارتبطت بموازين قوى وعلاقات مد وجزر مع القوى المسيحية الذين تعاملوا معها وبالتالي لم تكن القرون اللاحقة سوى حلقات ربط تطفو على السطح أحيانا مواطن القوة وتختفي في فترات لتعود إلى الواجهة حسب مجريات الأحداث التي تحكمت فيها مسارات داخلية خاصة بكل دولة ومسارات خارجية عكستها العلاقات الدولية.

ففي منتصف القرن الثالث عشر (١٢٥٨م) تم احتلال طرابلس لمدة خمسة أشهر كما سقطت الحمامات سنة ١٢٦١م[٢٠] بالإضافة إلى الحملة الصليبية الثامنة على تونس سنة ١٢٧٠م، كما احتل القل من قبل شارل دنجوا سنة ١٢٨٢م وتدخلت أساطيل الصقليين والأرغونيين عن طريق روجي دي لوريا في جربة سنة ١٢٨٣وقرقنة والمهدية سنة ١٢٨٧م بالإضافة إلى مرسى الخرز (القل) الذي كان موطن صناعة السفن والعمل القرصني ضد سردينيا فتم تدميره سنة ١٢٨٦م "واحتملوا أهلها أسرى وأضرموا بيوتها نارا" أما جربة فبقيت إلى حدود ١٣٣٥م تحت السيطرة المسيحية.[٢١]

وعلق الرحالة المغربي العبدري على ما شاهده قائلا "ومن أغرب المسموعات أنا صادفنا وقت المرور زورقا للنصارى لا تبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج وأسروا من البر أشخاصا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد وتركناهم ناظرين في فدائهم."[٢٢] أما عملية الغزو التي قام بها دوريا لسواحل المغرب الأوسط سنة ١٢٨٢م فكان مخططا لها من قبل القطلانيين لأهداف تجارية نظرا لأهمية ميناء القل ومدينة قسنطينة بالإضافة إلى كل من جزيرتي قرقنة وجربة اللتان تمثلان نقطتين إستراتيجيتين.

ويبدو أن احتلالهما كان مقابل التعاون الذي أبدوه مع أبي إسحاق وكانت الحملة القطلانية على مدينة القل جد قاسية فبالرغم من النزال الذي وقع بين الجيشين وفرار أغلب السكان إلى الجبال المجاورة فقد تم أسر العديد من الرعايا واقتسام تلك "الغنيمة" من قبل الجنود المشاركين في الحملة وقد بيع الأسرى بأثمان مختلفة فالرجال كان سعرهم يتراوح بين ٧و١٠دنانير وتم الاحتفاظ بالأسرى من النساء والأطفال.[٢٣] وكان Roger de Lorria منذ استقراره بجزيرة جربة سنة ١٢٨٣ يقوم باعتداءات متكررة على سواحل إفريقية وفي سنة ١٢٩٧م تم تعيين المسمى Bernat de Sarria أميرال مقاطعات أرغون عوضا عن Roger وكلف هذا الأميرال الجديد القيام بالعمل القرصني معتمدا في ذلك على أسطوله المتكون من ٢٠غليونا والذي اعترض سفينة بلنسية كانت تحمل تجارا من بجاية متجهين إلى ميورقة في شهر سبتمبر من سنة ١٢٩٧ فأسر كل من كان في المركب وبعد أشهر قام بمهاجمة السواحل التونسية وأسر عددا من سكان جزيرة جربة وجزر قرقنة.[٢٤]

إن تلك الأحداث لم تكن منعزلة عما كان يقع في أماكن أخرى ببلاد المغرب والأندلس فتعرضت مدينة إشبيلية سنة ١٢٤٧م إلى حصار بري وبحري حيث ذاق أهلها شر الجوع والخطف والقتل ويقول ابن عذاري في هذا الغرض: "فاشتد في هذه السنة حصارها وتملأت منهم أنظارها وأقطارها وأخذوا خلقا كثيرا من أهلها واختطفوا في الأجفان بعض أطفالها وضيقوا بها غاية التضييق ورموا الحجارة بالمنجنيق وعدموا المرافق كلها قليلها وجليلها ومات بالجوع خلق كثير وعدمت الأطعمة من القمح والشعير وأكل الناس الجلود وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود[٢٥] ولتوثيق هذه الحادثة خط أبو موسى هارون بن هارون أحد الشعراء الذين عاصروا هذه النكبة قصيدة رثائية ذكرت تفاصيل الحدث وجاء فيها.

فالبحر بالمنشئات ارتج من ذعر
والبر بالمرهفات ارتاع فاكتتما
واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم
جسر من الفلك لا تشكو به السأما
فكم أسارى غدت في القيد موثقة
تشكو من الذل أقداما لها حطما
وكم صريع رضيع ظل مختطفا
عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
يدعو الوليد أباه وهو في شغل
عن الجواب بدمع سال وانسجما
فكم ترى والها فيهم وو الهة
لا يرجع الطرف إن حاورته الكلما
لهفي عليهم وما لهفي بمغنية
عمن تبدل بعد النعمة النقما
في كل حين ترى صرعى مجدلة
وآخرين أسارى خطبهم عظما[٢٦]

وغير بعيد عن الأندلس حدث عمل مشابه في سنة ١٣٠٠م حيث تمكن شارل الثاني من احتلال لوشيرا[٢٧] وحمل معه ٤٥٠شخصا إلى نابلي وتم سجنهم إما بقصد الحصول على فدية كبيرة بشأنهم أو لاستبدالهم بالأسرى أو كذلك قصد تحويلهم إلى عبيد أما ما تبقى من الأسرى والبالغ عددهم ١٠,٠٠٠أسيرا فقد تم بيعهم بأبخس الأثمان وحصلت نابلي على ما يناهز ٢٥٠٠عبد من النساء والأطفال والرجال في حين كان بباري ما يقارب٢٠٠عبد.[٢٨]

لقد كان القراصنة يجدون الدعم الكافي من قبل الملك الأرغوني الذي صرح سنة ١٣٠١بأن أميراله (Lorria) يحترم الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة مع السلطان الحفصي فقام بعمليات غزو ضد الحمامات سنة ١٣٠٣ وما بين سنة ١٣٠٣-١٣٠٤ أغار على قصر زياد والمهدية وبونة وكان في كل مرة يقوم بالقتل والتدمير ويحمل معه عديد الأسرى وخاصة من الأطفال لبيعهم إما في Pentellaria أو جزيرة صقلية كما تمت مهاجمة صفاقس سنة ١٣٠٦م وأسر عدد من التونسيين سنة ١٣١٤م في عرض البحر وحملهم إلى صقلية وفي سنة ١٣١٦م قام قراصنة بمهاجمة بجاية.[٢٩]

كان الميورقيون كذلك يقومون بعمليات قطع وقرصنة ضد الحفصيين في فترة ابن اللحياني ولم يسلم المبعوث الخاص للسلطان الحفصي الطبيب أبو العباس ابن عيشون من الأسر سنة ١٣١٢ إلى الملك الأرغوني جاك الثاني في طريق عودته إلى إفريقية ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل الملك.[٣٠] وفي إطار التوتر الذي كان سائدا بين كل من أرغونة وميورقة كان رعايا بجاية ضحية هذا الصراع حيث قام الطرفان بأسر العديد من البجائيين سنة ١٣١٦ وتم تحويلهم إلى عبيد في كل من برشلونة وبلنسية وميورقة وأقدم البجائيين على احتجاز قنصل القطلانيين احتجاجًا على عدم إطلاق سراح الأسرى البجائيين وكان ذلك سنة ١٣١٦م.

وخلال تلك التوترات التي كان مسرحها المتوسط والسواحل المغربية وخاصة الحفصية كانت المبادلات التجارية متواصلة وبقيت عمليات التحرش والعنف المتبادل بين الطرفين ذلك أنه تم مصادرة ملكيات الحفصيين في أرغونة كما تواصل تصدي القراصنة البجائيين للهجمات الميورقية سنة ١٣١٩م. وفي السنة الموالية (١٣٢٠) تمكن الأميرال الأرغوني Francesc Carroz من أسر عديد التونسيين ورد السلطان الحفصي بإغلاق فنادق القناصلة القطلونيين لمدة تسعة أشهر قصد إطلاق سراح الأسرى وأمر تلك الحملات شبه المنظمة وقد اندرجت في إطار الضغوطات المباشرة على الحفصيين لفتح الأسواق للمبادلات التجارية وللتزود كذلك بالأسرى الحفصيين.[٣١]

إزاء تلك الوضعيات تعددت الشكاوى الحفصية الموجهة إلى الأرغونيين بشكل خاص للاحتجاج على خرق المعاهدات وذكرت لنا وثيقة مؤرخة في ١٣ماي ١٣٠٦م "اعتداءات حاكم جربة القطلاني". وفي رسالة أخرى بعث بها أبو عبد الله الأمير الحفصي اتهم القوى الأوربية بعلمها بما كان يحدث من خرق لبنود المعاهدات ومساهمة السلطات الرسمية الأوربية بدعم تلك الاختراقات وتذكر الوثيقة"ورجالكم يتصرّفون في القرصلة وفي عمارة الأجفان الغزوانية المضرّة للمسلمين فإذا ألحقتهم أذيّة من المسلمين مشوا إليكم وتشكّوا وقالوا: نحن رجالك ورعيّتك وضرّنا صاحب البحر بحضرة تونس"[٣٢]

وذكر ابن بطوطة الذي مرّ بإفريقية في شهر أفريل من سنة ١٣٤٩م أنه ركب البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة ونزل بجربة وسافر المركب المذكور إلى تونس فاستولى العدو عليه[٣٣] كما أفادتنا شهادته في وصف مرسى جزيرة سردينيا الذي كان عجيبا على حد قوله "عليه خشب كبار دائرة به وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا منها"ونقل لنا كذلك ما أصاب المسافرين من رعب حين علموا بعزم أهلها على أسرهم."[٣٤]

وأمام العجز الذي بدا عليه المغاربة ضد القطلانيين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر في المجال البحري وخاصة بالسواحل الإفريقية منذ احتلال جزيرة جربة أصبح هاجس الخوف والقلق والإرهاب الذي انتشر بين سكان السواحل بشكل خاص مما أدى ببعضهم إلى الادعاء عند أسره بأنه أصيل جزيرة جربة للإفراج عنه كما تميزت العلاقات السياسية بانعدام الثقة المتبادلة مما أثر على التجارة بين الطرفين التي من أسسها السلم والثقة ولهذا فإن المعاهدات المبرمة لم تكن سوى إلزام للطرف المغربي في حين كان خرق تلك الاتفاقات بمثابة عادة متواصلة من قبل الأوربيين.[٣٥]

إن القطلونيين والأرغونيين والبلنسيين والميورقيين كانوا يقومون بالنشاط القرصني وتعلن السلطات الرسمية ظاهريا التزامها بالقانون والمعاهدات المبرمة مثلما أشارت إلى ذلك الوثيقة الاحتجاجية السابقة الذكر ولكن الواقع كان يثبت العكس حيث كانت مغامرات القراصنة قد أدت إلى مشاركة فعلية للسلطة السياسية من خلال فرض ما يسمى بالخمس المخصص للملك من الغنائم التي كان يحصدها القراصنة وهو نفس المبدأ الذي كان سائدا على ما يبدو لدى الحفصيين وسلطات تلمسان.[٣٦]

وأشار أحد الدارسين أنه خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر كان القطلانيون قد حافظوا على نفس العلاقات التي ربطتهم بإفريقية وباقي أجزاء بلاد المغرب وكانت تلك العلاقات متعددة الوجوه حيث توفرت جملة من العناصر تمثلت في التجارة والقرصنة وفترات الهدنة والميليشيات العسكرية بالإضافة إلى العبودية. ومثلت تلك العناصر مجتمعة، المكون الأساسي للعلاقات بين الأطراف التي ذكرنا ولكن القطلانيين اتجهوا أكثر نحو إفريقية ويعود ذلك إلى أغراض ثلاث: قرب جزيرة صقلية من إفريقية واحتلال جزيرة جربة وجزر قرقنة بالإضافة إلى غزو جزيرة سردينيا في سنة ١٣٢٣-١٣٢٤م.

إن بلاد المغرب بقيت في أذهان حكام أوربا المسيحية مجالاً لامتداد حروب الاسترداد رغم العامل التجاري والمصالح المشتركة التي ربطت الطرفين المسيحي والمغربي إذ أعتبر القرنان الثالث والرابع عشر العصر الذهبي للتجارة الكبرى إلا أن الاحتفاظ بمصطلحات فترة الاسترداد وفكرة الحرب الصليبية بقيت جنبا إلى جنب مع المفاوضات التي كانت تجري بين الطرفين ولا تتعلق المسألة بالبحث عن نفوذ اقتصادي فحسب وإنما يبدو أن فكرة احتلال مناطق جديدة بقيت واردة.[٣٧]

كانت حملات القراصنة ضد مدينة الحمامات بين سنتي ١٣٥٩و ١٣٦٠م ثم تونس وسوسة سنة ١٣٦٠م وكانت ردود الفعل الحفصية لا تتجاوز عمليات المصادرة أحيانًا لبعض السفن القطلونية أو اعتراض السفن القريبة من السواحل وذلك لعجز الأسطول الحفصي على مجاراة التطور الأوربي في صناعة السفن.[٣٨] أما سنة ١٣٩٠م كانت الغزوة الفرنسية الجنوية ضد المهدية التي حوصرت لمدة شهرين إلا أنها باءت بالفشل كما تم مهاجمة تدلس سنة ١٣٩٨م ثم بونة سنة ١٣٩٩م من قبل الأسطول البلنسي والميورقي وتدخل (Alfonso V) ضد قرقنة

سنة ١٤٢٤م وضد جربة ١٤٣٢م بالإضافة إلى العمل الرهيب الذي قام به فيليب دوريا ضد طرابلس سنة ١٣٥٤م.[٣٩]

وكان قائد البحر والترجمة عبد الله الترجمان شاهد عيان على بعض أعمال القرصنة التي حدثت بميناء مدينة تونس في فترة أبي فارس عبد العزيز أصبح قائد البحر والترجمة وذكر أن مركبًا لقوم موسوقا بسلع المسلمين فلما أرسى بالمرسى دخل عليه مركبان من صقلية فأخذوه لحينه بعد أن هرب المسلمون منه برقابهم واستولى النصارى على أموالهم"[٤٠]

إن واقع القرصنة الأوربية آنذاك لا يختلف عما كان سائدًا خلال القرن الثالث عشر. مثلما ذكرت الوثائق الرسمية التي أكدت على وصول مسطحان للبيشانيين إلى مرسى تونس: "أحدهما يسمى الأركليوس والآخر يسمى الكرناطة ومعهما زوج قطايع فوجدوا بالمرسى ثلاثة مراكب للمسلمين أحدهم تيسر للإقلاع وفيه جميع وسقه وجميع التجار والركاب والمركبان فيهما بعض الوسق فأخذوا ثلاثة مراكب للمسلمين المذكورة بجميع الوسق وجميع التجار والركاب وقتلوا جماعة من المسلمين سوى من رمى نفسه إلى البحر فمات غريقا وجرح منهم ما لا يحصى وانتهكوا حرمتهم وفضحوا حريمهم...فبعد الخطب الطويل معهم ما ردوا المسلمين على أسوء حالة من الجراح والعري دون أن يتركوا لهم شيئا من رحالهم وأموالهم وردوا المركبين الذين فيهما بعض الوسق وأقلعوا بالمركب الثالث...(عام ٥٩٦هـ/١٢٠٠م).[٤١]

ويبدو حل مشكل القرصنة والتعديات التي كانت تحدث في الموانئ الإفريقية لم يكن يتم تسويتها بشكل سريع وإنما يحتاج ذلك إلى مراسلات متبادلة قصد التوضيح والشرح وهو ما حدث في هذه القضية التي عرضتها الوثيقة المشار إليها أعلاه وكان الحفصيون ملزمون على ما يبدو بتقديم الحجج الكافية لتأكيد صحة شكواهم كما هو الشأن بالنسبة للموحدين والزيريين. ونقرأ في الوثيقة التالية ما يلي: "يقول شهداء هذا العقد الذي نعلمه ونشهد به أن المسطحات التي أخذت مركب الرايس مسعود بوادي تونس في شهر شوال من سنة ست وتسعين وخمسماية نعلم أن جميع من كان في المركب المذكور إنما هم من أهل مدينة تونس وباديتها وحجاج وصلوا من المغرب ولم يكن فيه من الإسكندرية إلا رجل واحد ولم يكن معه إلا شيء يسير فهذا الذي نعلمه ونشهد به.."[٤٢]

وفي عقد الصلح المؤرخ في بداية القرن الرابع عشر(١٣١٣م) بين السلطان الحفصي أبو يحيى زكريا وبيشة نجد فيه بعض النقاط الخاصة بالتجارة وكذلك بالقرصنة والأسر ونقتطف النقاط التالية: "أن يكون كل تاجر منهم غير ممنوع من السفر عند تخلصه في الحضرة العلية...وأن يكون من يصل معهم من غيرهم من التجار له ما لهم وعليه ما عليهم...وأن يكون لهم ببونة حرسها الله فندق يختصون بنزولهم فيه لا يشاركهم فيه غيرهم من النصارى وأن يجروا فيه على عوائدهم في حضرة تونس حرسها الله وكذلك في قابس وصفاقس وطرابلس ...وعلى أنهم لا يشترون ممن يقطع على المسلمين شيئا ولا من أسراهم ومتى وجد بأيديهم شيء من سلع المسلمين التي أخذت لهم أو أسراهم أخذ ذلك منهم بغير عوض.[٤٣]"

كما التزم الحفصيون في عقد الصلح المؤرخ في ١٦ ماي سنة ١٣٥٣م بالتالي: "لا يصل إلى بلادهم الساحلية ولا إلى أي جزرهم جفن حربي لضررهم من الحضرة العلية مدة هذا الصلح المذكور...وأنه متى عطب لتجارهم مركب في ساحل من السواحل الإفريقية وما إليها فعلى من قرب من سكان البلاد المذكورة حراستهم بغير إجارة حتى يخلصه أصحابه ولا يؤدون في حمل سلعهم إلا ما جرت به العادة..."[٤٤] وذكرت لنا وثيقة سلم أخرى التزام الحفصيين والبيشانيين بضرورة "مكافحة القرصنة" ونص ذلك الاتفاق أنه: "إذا خرج جفن أو مركب من مراكب البيشانيين أو من نظرها في البحر يقطع أو يحدث شرا على المسلمين فعلى البيشانيين أن يأخذوا الجفن أو المركب ويقتلوا من فيه وتسلب أموالهم حيث كانت ببيشا أو نظرها ويسلم ذلك للديوان المذكور وإن عمرت أجفان من جهة المقام العلي في طلب قراصنة فعلى البيشانيين أن يعمروا في الإعانة في ذلك ويتوجهوا حيث يؤمروا مدة إرادتهم وإن عمر احد من البيشانيين جفنا من البلاد المذكورة فعليه ألا يضر أحدا من المسلمين الذين من الحضرة العلية ولا من سائر بلادها ولا يضر المسلم المسافر من الحضرة العلية أحد من البيشانيين وأن متى ما وصل عدو بيشاني لمرسى الحضرة العلية أو ما إليها من البلاد فعلى البيشانيين المقيمين بالحضرة العلية الإعانة للمسلمين والخروج معهم لقتال عدوهم."[٤٥]

ونظرًا لما وفرته القرصنة من موارد هامة وأعداد من الأسرى أتخذ قرار في سنة ١٤١٥ بأن يكون خمس 1/5العبيد الذين يتم أسرهم من قبل القراصنة الصقليين تعود لفائدة أميرال صقلية بعد أن يأخذ 1/3 الغنيمة لمصاريف التسليح وتجهيز السفن وحين تخرج سفينة من صقلية للغزو فإن الأميرال يأخذ ٢فلوران على كل عبد يباع ويمنع تصدير العبيد من الإمارة بدون ترخيص وإذن من الأميرال وقد شارك ملك نابلي كذلك في حرب

القرصنة فتمكن سنة ١٤٦٧ من أسر ٣٠٠مغربي من سواحل بلاد المغرب وتم استعبادهم.[٤٦]

إن كل المبادلات الإسبانية الإفريقية سواء تعلق الأمر بالبشر أو البضائع كان لها دافع وحيد يتمثل في الرغبة في الربح وجشع الثروة وحسب المصادر المسيحية المعاصرة لتلك الفترة فإنه يكفي أن تتوفر الجرأة والجاهزية لاستعمال العنف وأن يكون المرء صاحب حيلة وألا يكون مترددا أمام الوساوس لكي يغامر ويتجاوز الصعاب وكان طاقم السفن يرددون الأغاني سواء كان ذلك عند انتهاء مهام غزوهم أو عند طي أشرعة سفنهم غير آبهين بالمخاطر وغير مبالين لما يحدث معتمدين في ذلك على ثقتهم في سلاحهم وقوتهم والله الذي لا يتخلى عنهم ليشد أزرهم عند غضب البحر أو عند مداهمة العدو.[٤٧]

ولدينا نص يعود إلى القرن الخامس عشر_ عنوانه "المنتصر Le Victorieux" وهو يترجم عن تلك العقلية التي كانت سائدة و يبين لنا مختلف مراحل الاستعداد للعمل القرصني والمدن التي استهدفت خلال كامل العملية الحربية المنظمة من قبل الملك الأرغوني ضد سواحل بلاد المغرب ونظرًا لأهمية النص فإننا نورد أهم المحطات التي توقف عندها Péro Nino قائد تلك الحملة.[٤٨]

أشار صاحب المؤلف أن سبب تلك الحملة تعدد الشكاوى التي وردت على الملك الأرغوني والمتعلقة بالقراصنة القشتاليين الذين كانوا يعيثون فسادا في المتوسط الشرقي وبناء على ذلك، قام الملك باستدعاء Nino وجهّزه بعدد من الغليونات في مدينة اشبيلية كما أمره أن يقوم باختيار بحارة جيدين ذوي خبرة في العمل البحري للقيام بتلك المهمة السرية وقد وضع على ذمة ذلك القرصان ومجموعته أسلحة متنوعة وعدد من الغليونات ومجدفين مختصين بالإضافة إلى سفينة شراعية كما حمل معه كمية من القطع الذهبية والفضية ليقوم بصرفها في الدول الأجنبية وكان برفقة Nino ثلاثون شخصا بالإضافة إلى أحد أقربائه المسمى Fernando Nino.[٤٩]

كان خروج القرصان من كورية الموجودة قرب الوادي الكبير بأسبانيا ثم العبور إلى برّميدا-قادس-مضيق جبل طارق-مدينة طريفة-جبل طارق-جزيرة شريش (Algaziras)- Almonissar- وتم الوصول إلى مالقة في منتصف شهر ماي-قرطاجنة-المرية-ساحل بلاد البربر-أين بدأ البحث عن المغاربة في كهوف Alcoçébar grottes والتزود بالماء بعد معركة طاحنة ثم الوصول إلى جزر الحبيب (قرب وهران) للبحث عن المغاربة وقفل راجعا إلى قرطاجنة- ثم توجه إلى ميناء طولون الفرنسي-و اتجه بعد ذلك إلى ميناء Orestano بسردينيا حيث علم أن بعض قراصنة إفريقية قاموا بأسر عدد من المسيحيين-ومن ثم الخروج باتجاه تونس-وعند الوصول إلى جزيرتي زمبرة وزمبرتة بقي القرصان هناك لمدة عشرة أيام-ثم الهجوم على ميناء مدينة تونس.

وتبدو الأحداث التي دونها النص والمتعلقة بمهاجمة ميناء حلق الوادي مهمة ذلك أن الحملة قد انطلقت من جزيرة سردينيا وبقيت تلك المجموعة من القراصنة في جزيرتي زمبرة(El Gemol) وزمبرتة(El Gemolin) لمدة عشرة أيام ثم تمت مباغتة ميناء مدينة تونس ودارت هناك معركة عنيفة حسب النص ذهب ضحيتها عديد المسلمين من رعايا السلطان الحفصي على الرغم أن عدد الفرسان المدافعين عن المدينة قد بلغ ١٠،٠٠٠فارس.[٥٠] وأرّخ الراشدي على ما يبدو لتلك العملية القرصنية بقوله: "نزل النصارى ببعض السواحل القريبة من تونس فقتل المسلمون منهم عددًا كبيرًا وجاءوا برؤوسهم إلى المدينة."[٥١]

وخلال نفس الفترة تقريبًا ذكرت مناقب بن عروس حسب شاهد عيان "أن مركبا سافر من تونس متوجها إلى الإسكندرية بمن فيه من التجار فبينما هو في مرسى طرابلس وإذا بسفن تسع أو ثمان لجنس آخر من النصارى دخلوا عليه وبين الجنسين عداوة عظيمة فكان بينهم قتال عظيم شاهدته وأنا إذ ذاك بطرابلس فأخذوه بعد جراح وقتل وكان سبب أخذه على ما كنا نسمعه مستفيضا هنالك قلة البارود عندهم وإلا فالمركب عظيم مكمل من العدد ثم لما صار المركب على ملك آخذيه وفيه كثير من سلع المسلمين سافر أرباب السلع فيه كارين".[٥٢]

وفي شهر جانفي من سنة ١٤٦٦م ذكر ابن عبد الباسط عندما كان بوهران وجود أربعة مراكب للفرنج جاءت من جهة المغرب ففزع أهل النواحي بخارج وهران إليها بل وأرجف بوهران أن هذه المراكب مشحونة بالمقاتلة وأنهم قصدوا أذى المسلمين ثم اجتازت تلك المراكب ولم تعرج لجهة وهران ولا سواحلها " ثم بلغنا الخبر بأنها أخافت السبل بنواحي بجاية وأخذت بالمارة وأسرت الكثير من المسلمين". ويذكر كذلك ما حدث ببجاية عند دخولهم إلى الساحل ونزلوا من المركب هرب من رآهم ظنا منه أن "المركب قرصال للفرنج وأنهم غيروا هيئاتهم حيلة لأخذ المسلمين" ويضيف "فصرنا نصيح عليهم من البعد ونكلمهم بالعربي ونقر بالشهادتين وهم لا يلتفتون إلينا ولا يعرجون علينا "[٥٣]

إن الخوف من السفر في البحر كان واقعًا وكان الفقهاء وعلى رأسهم ابن عرفة قد أفتى بضرورة عدم استعمال مراكب النصارى وحبذ السفر في البر على مشقة السفر في البحر-وهو ما قام به عند ذهابه للحج سنة ١٣٦٥م-حفاظًا على "كرامة المسافر المسلم[٥٤] لأنه "يغدر النصراني المسلمين الراكبين معه فلا يحل لأحد أن يتعرض لأموالهم إلا على وجه الفداء لأربابه كاللصوص" على حد تعبير البرزلي.[٥٥] أما أبو عبد الله محمد بن أبي يحيى أبي بكر الفاسي (ت.١٣٧٥ م) الذي "أدركه المبيت في بلد الحمامات التي ما زال عدو الله ينزل بها فخاف أن أبروطة من عدو الدين تنزل بالبلد ويأخذونه أسيرا فبقي ساهرًا الليل كله وأكثر من قراءة القرآن وهو خائف"[٥٦] وذكر ادورن في رحلته أنه توجد بالقرب من سور مدينة المنستير صخرتان كبيرتان ويذكر السكان أنهما سفينتان حاولتا دخول المدينة لخطف أهلها فخرج الأولياء الصالحين وحولوا السفينتين إلى صخرتين وبقيتا على تلك الصورة إلى اليوم.[٥٧]

وفي نفس الفترة ذكرت مناقب بن عروس رواية المدعو الحاج أبي الحسن علي النفاتي الذي خرج من طرابلس متوجهًا إلى تونس برفقة أربعة عشر رجلاً وكانوا في قارب فلما انتهوا إلى مرسى رأس المخبز اعترضهم أربع سفن للنصارى قد توجهوا لأخذهم ولم يجد ذلك المسافر إلا اللجوء للولي بن عروس قائلا "وناديت يا سيدي نهيتني أن أذكرك إلا عند الشدائد وأي شدة أكبر من هذا الأسر والكبل والذل بين أعداء الدين فما أتممت الكلام إلا والشيخ عندي في القارب ومعه سيدي محمد شوشو...فوضعا أيديهما على رأسي وقالا لي لا تخف لا بأس عليك... ونجانا منهم ببركة التجائي إلى الشيخ."[٥٨]

نستشف من خلال ما ذكرناه سابقا وما بينته لنا المصادر المختلفة واقعًا معقدًا إلا أنه كان مفروضًا على الطرفين الحفصي والأوربي فقد طغى على تلك الفترة منطق التنافس الذي صار يتحكم في العلاقات الأوربية-المغربية كما ساهم ذاك التنافس والتناحر على التجارة في جمع الثروة واغتنام الفرص.

فكانت القرصنة والقطع البحري الأوربي لا يخضعان إلى أي قانون أو عقيدة وإنما الدافع كان الربح السهل والسريع والذي لا يتطلب إلا الجرأة والمغامرة لاجتياح المدن الساحلية المغربية واعتراض رعايا بلاد المغرب في عرض البحر بهدف الحصول على غنائم متنوعة لعل أهمها الأسرى الذين يتم تحويلهم إلى عبيد وكان هذا السلوك القرصني متبعا كذلك من قبل المغاربة الذين ورغم عدم مجاراتهم للتطور البحري الأوربي فإنهم يقومون بالوسائل المتاحة بعمليات الأسر حتى أصبح هناك تقليد في التعامل مع مشكل الأسر والاستعباد بنفس الطريقة تقريبًا.[٥٩]

هكذا بدا لنا الوضع خلال الفترة الفاصلة بين القرن الحادي عشر وصولا إلى القرن الخامس عشر وهو تاريخ بداية تحلل منظومة الدول المغربية ولعل الوضعية التي سادت المتوسط كذلك في القرن الموالي (السادس عشر) لم تكن حسب اعتقادنا إلا تواصلا مع الفترة السابقة وخاصة بعدما أصبح المتوسط مجالا لصراع جديد بين كل من العثمانيين والإسبان للسيطرة على دول فشلت في الحفاظ على توازنها أمام تصاعد المد المسيحي خاصة بعد طرد الأندلسيين سنة١٤٩٢م وانسحاب القوى التقليدية (الدويلات الإيطالية). ولعل تلك الوضعية الصعبة لبلاد المغرب قد زادت في تنامي عمليات الأسر والاستعباد وكان ذلك العدد الكبير من الأسرى الذين تحصل عليهم الأوربيون ينظر إليهم باعتبارهم العدو المباشر للدول المسيحية وهو ما جعل المتوسط مجالا لتجارة العبيد إلى نهاية القرن السادس عشر.

ثالثًا: القرصنة الأوربية خلال القرن السادس عشر

كانت الحرب بين تركيا والبندقية قد اندلعت بين ١٤٩٩ و١٥٠٢ وتلتها حرب بين نابلي وفرنسا بين ١٥٠٢ و١٥٠٣ وبدأت الحرب تلقي بظلالها بين قوى مختلفة وكانت عمليات حشد الجنود واستعمال مختلف المراكب والسفن لنقل المؤن والعدة والعتاد خير دليل على التوجه أكثر للتوسع واحتلال مناطق لم يعد بإمكانها أن تصمد للشلل الذي أصاب مكوناتها الأساسية.

فالبندقية قامت بحشد ٢٠,٠٠٠جندي ولنقل هذا العدد الكبير تم استغلال حتى مراكب صيد التن وكان التنسيق مع اسبانيا للقيام بغزو مدن بلاد المغرب وكلف ذلك بمبلغ قدره ٣٥٠,٠٠٠دوكا ساهمت فيها مملكة أرغون ب٢٠,٠٠٠ دوكا كما ساهم منكادا نائب ملك صقلية بمبلغ ٢٥,٠٠٠دوكا سنة ١٥٠٩ وكانت الحرب الكبرى التي تم التحضير لها ضد طرابلس حيث دارت سنة ١٥١٠ حربا رهيبة بقيادة Gonsalvo Fernandez و Bernardo de Vilamari و Luis de Requenses فاحتلت المدينة يوم عيد Saint Jacques في شهر أوت.

كان اشتداد الحرارة في ذلك الشهر قد دفع السكان إلى تدمير كل نقاط الماء لمواجهة العدو وللتخفيف من الخسائر وهي عملية يلجأ إليها الضعفاء لمقاومة الموت وقطع سبل الحياة على العدو وهو بالفعل ما أدى إلى ترهيب محدود ولكنه

عميق الأثر على المرضى والجرحى وصادفت تلك الغزوة موجة قحط امتدت لستة أشهر حتى أن قائد الحملة ترك في خريف ١٥١٠ هناك ٣٠٠٠ جندي وكل الجرحى لأنه لم يدفع لهم أجرهم وشب الهلع والفوضى داخل الجيش الغازي وأصبح الماء يباع من قبل بعض الجنود مما أدى إلى تمرد العديد منهم وخيروا الجحيم على البقاء هناك على حد قول أحد شهود المعركة.[٦٠]

وفي سنة ١٥١١ نقل لنا Venier Pelegrin التحضيرات الجديدة لتلك الحملة والتي كانت أكثر حسما من سابقاتها، إذ وصل من مختلف البلاد الاسبانية السفن والجنود واحتياط هام من اللحم المملح وكميات كبيرة من الجبن والخبز بالإضافة إلى كميات كبيرة من الماء التي جمعت في كل الموانئ فكانت ١٠,٠٠٠ طن في نابلي و٣٠٠٠ في بلرمو و٣٠٠٠ طن في كلابر وذلك لأن الصيف كان رهيبًا.[٦١]

اتخذت الحملة لون الحركة الصليبية ففي سبتمبر سنة ١٥٠٥م احتلت أولى الفرق المرسى الكبير وفي ١٧مارس ١٥٠٩م استولى الكونت بيدرو دي نافارا على وهران وأسر ٨٠٠٠ شخص وذكرت عقود الموثقين الأسبان أن مريا أصلها من وهران وعمرها ١٨سنة وعرضت للبيع في شهر سبتمبر ١٥٠٧ في مدينة بلنسية من قبل تاجر أصيل طليطلة وأكدت هذه الأسيرة أنها قد أسرت في بلدها ثم اقتيدت إلى طليطلة حيث اشتراها التاجر المذكور كما احتلت بجاية دون مقاومة تذكر سنة ١٥١٠م وعقد في شهر ماي من نفس السنة اتفاقية مع سلطان تونس أعلن فيها تبعيته للملك الإسباني.[٦٢]

أما مدينة طرابلس فلم يكن نصيبها أقل حظًا من نظيراتها من المدن المشار إليها أعلاه وقد ذكر قائد الحملة Pedro Navara أنه "قتل ٥٠٠٠من العرب وأسر أكثر من ستة آلاف" أما Battistino de Tonsis الذي شارك في الحملة فقال: "أنه أسر منهم حوالي ٥٠٠٠ شخص من مجموع ١٠,٠٠٠ ساكن أو أكثر أما البقية فقتلوا ولم ينج منهم إلا القليل الذي تخطى السور من جانب الحي اليهودي... أما الأعداء فقد قتلوا شر قتلة وحوصر الأحياء في القلعة والمسجد وقد تمكنوا بعد ذلك من الاستيلاء عليه بالقوة بعد قتال مرير وأسر الشيخ مع أولاده وزوجته كما أطلق سراح ١٥٠ مسيحيا وهم من أسرى وخدام العرب الذين وجدوا في الخنادق مصفدين وذكر تقرير لشخص مجهول شارك في الأحداث رواية أخرى بأن القتلى من العرب كانوا ستة آلاف وأسر حوالي ١٠,٠٠٠ وتم إطلاق سراح ١٧٠ أسيرًا مسيحيًا وأغلبهم من الصقليين والمالطية."[٦٣]

وتم حمل آلاف الأسرى بعد احتلال مدينة وهران إلى أسواق سردينيا وأرغون وكذلك الشأن بالنسبة لأسرى طرابلس الذين حملوا إلى إيطاليا وقد ذكر قنصل البندقية في نابلي يوم ١٤ سبتمبر ١٥١٠ وصول "عديد العبيد الذين تم بيعهم هناك" أما قنصل بالرم فذكر أن "يوم ٣سبتمبر بيع ١٤٠٠ عبد بقيمة تتراوح بين ٣ و٢٥ دوكا وتم أخذ كل القيمة إلى البلاط الملكي".[٦٤] وفي يوم ٢٥جانفي ١٥٢١ ذكرت وثائق عبدا اسمه إبراهيم أصيل مدينة بجاية الذي ذكر أنه أسر من قبل سفينة من مالقة وكان ذلك منذ ٨سنوات مما يعني أن تاريخ أسره كان سنة ١٥١٣م وهو على ملك التاجر March Johan أما يوم ١٥١٧/٧/١٤م فقد عرض التاجر Beneyto Johan ثلاثة أسرى أصيلي تونس وهم على التوالي: علي عمره ٣٠سنة، محمد بن الزيات عمره ٢٨سنة ومحمد زبرة لم يحدد عمره هذا ونشير إلى أنه قد تم أسرهم من قبل سفن جنوية حيث تم إنزالهم في قادس ثم حملوا إلى بلنسية وفي يوم ١٢مارس ١٥١٨ قام التاجر البلنسي Garcia Ausias بعرض ٣أسرى للبيع منهم اثنان أصيلي الجزائر: الأول اسمه محمد وعمره ١٨سنة والثاني اسمه أحمد؟ أو عصمت وعمره ٥٠ سنة وقال هذا الأخير أنه كان تاجرا بالجزائر وأصله حر وعند تنقله من الجزائر إلى مكان يبعد أربع مراحل عن مدينته تم أسره من قبل مراكب جنوية وقد قاموا بسرقة جواز سفره وعند وصوله إلى بلنسية تم بيعه من قبل البلدية باعتباره عبدا لأنه لا يملك وثائق شخصية تبيح له التنقل.[٦٥]

وأشارت وثائق الأرشيف الأوربي إلى العديد من الأسرى المغاربة الذين تم خطفهم في عرض البحر مثل أحد الأسرى التونسيين الذي يُدعى "علي" وعمره ٣٠ سنة وقد ذكر بأنه تم أسره من قبل مسلحين جنويين عند مهاجمة مدينة تونس وتم نقله إلى قادس يوم ١٥١٩/٠٢/١٩ وكان نفس المصير لأسير آخر اسمه "علي" وعمره ٢٣ سنة أصيل تونس وذكر أنه كان خياطا وكان قبل تاريخ أسره بعامين قد اعترض مركبه سفن جنوية عندما كان عائدا من تركيا فأسر جميع من كان معه وعددهم ٦٠ شخصًا. وتم نقل الأسرى إلى جنوة وبعد ذلك رحل "علي" و٤٠ شخصًا آخر إلى قادس ثم تم شراؤه من قبل التاجر Lopiz وجيء به إلى بلنسية مثل غيره من الأسرى وفي شهر جويلية من سنة ١٥٢٠ ثلاثة أسرى تونسيين برفقة التاجر الجنوي Joan Bartoloto وقد ذكر العبيد أنهم أسروا في عرض البحر من قبل غليونات Andrea Doria الذي أوصلهم إلى بلنسية.[٦٦]

وعلى إثر الاحتلال الأسباني سنة ١٥٣٥م ذكر شاهد عيان برتغالي أنه قد تم أسر ٨٠٠٠ شخص في حين ذكر ابن أبي دينار أنه قد "أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث...وعدد كل ثلث ستون ألفا"(٦٧) وكان من بين الأسرى رجالاً ونساءً يهود تم بيعهم في مناطق مختلفة وخاصةً في كل من نابلي وجنوة حيث تم شراء العدد الأكبر منهم مثلما تحدث عن ذلك أحد الأطباء اليهود.(٦٨) أما المنستير فقد أخذت سنة ١٥٥٠ من قبل أندري دوريا كما تعرضت المدينة للنهب من طرف سفن قراصنة أصيلي تراباني (صقلية) سنة ١٥٨٦ وتم أسر أربعين شخصًا فقط لأن سكان المدينة كانوا يهجرونها في فصل الصيف خوفا من هجمات القراصنة.(٦٩)

وتم الهجوم على المهدية في شهر جوان ١٥٥٤ وضرب حصار على المدينة وقدر عدد القتلى بالمدينة يوم ٨ سبتمبر ١٥٥٥ بسبعمائة قتيل كما أسر حاج رايس وحوالي عشرة آلاف آخرين من الأتراك والأهالي و تمّ إرسالهم على متن السفن إلى سردينيا وصقلية كما تمّ تحرير خمسمائة عبد مسيحي ونتيجة التدمير الذي أصاب المدينة ذكرت المصادر أنها أصبحت في سنة ١٥٨٧ مدينة ميتة كما لم تخل جزر قرقنة من التدمير والخطف والأسر حتى أفقرت المدينة من سكانها وخلال سنة ١٥٧٦ تم أسر ١٠٠٠شخص أما سنة ١٦١١ فكان عدد الأسرى ٥٠٠ شخص(٧٠) وفي سنة ١٦٠٢م تم غزو مدينة الحمامات وأسر ٣٩٦ شخص وفي سنة ١٦٠٦ تم غزوها ثانية وأسر ٧٠٠شخص.(٧١)

أما بالأندلس وبعد التمرد الذي قام به الموريسكيون سنة١٥٦٨ نشبت حرب مروعة ضد سكان القرى الأندلسية وحسب شهادات المؤرخين في تلك الفترة تم أسر ما بين ٢٥ و٣٠ ألفًا شخص حولوا إلى عبيد خلال الفترة المتراوحة بين ١٥٦٩ و١٥٧١.(٧٢) وفي نفس الفترة وبعد هزيمة الأتراك في معركة Lépante سنة ١٥٧١ كانت الخسائر التركية قد وصلت إلى ٣٠,٠٠٠ قتيل وتم أسر ٣,٥٠٠ وكان نصيب Don Juan d'Autriche ٧٢٠عبدا وست عشرة غليونة وهو ما يوافق عشر الغنيمة ١/١٠.(٧٣) كما استفادت أوربا كذلك من الأوضاع الداخلية الهشة التي ميزت دول بلاد المغرب وكانت مختلف الأزمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأوبئة والمجاعات خير سند لتوفير أعداد هامة من العبيد والأسرى أصيلي بلاد المغرب.

من خلال ما تقدم ذكره واعتمادًا على المعلومات المتناثرة التي قدمتها المصادر وحاولنا الاستفادة منها فإننا نخلص إلى نتيجة رئيسة تتمثل في العدد الكبير الذي تم أسره من رعايا السلطان الحفصي وكنا قد أشرنا إلى عمليات القرصنة التي تعرضت إليها إفريقية خلال الفترة السابقة لانتصاب الحفصيين لكي نبين أن مشكل السواحل الإفريقية كان نتاج وضع سابق ولكنه تفاقم في الفترة المعنية بالدراسة وقد انعكس ذلك في العدد الكبير من العبيد الذين زودوا السوق الأوربية خلال كامل تلك الفترة.

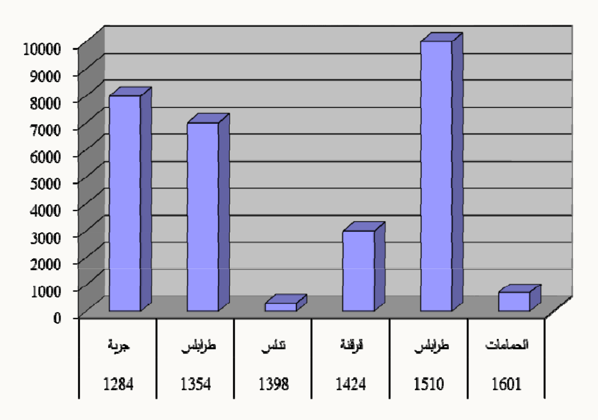
إن القيام بعملية إحصاء دقيقة تبدو صعبة المنال بالنسبة للدارس إلا أن ما نجمله في المعلومات الآتي ذكرها بمثابة أرقام تقريبية فحسب ولكنها تبقى معبرة عن استفحال عمليات الأسر والاستعباد. وقد بلغ عدد الأسرى ثمانية عشر ألف وثلاثمائة أسير (١٨,٣٠٠ أسير) في أربع عمليات إنزال ومحاصرة لكل من مدينة جربة سنة ١٢٨٤م (٨,٠٠٠أسير) ومدينة طرابلس سنة ١٣٥٤م (٧,٠٠٠أسير) وتدلس سنة ١٣٩٨م (٣٠٠أسير) وجزر قرقنة سنة ١٤٢٤م (٣,٠٠٠ أسير). أما إذا أضفنا لهذا العدد أسرى مدينة طرابلس سنة ١٥١٠م الذين بلغوا (١٠,٠٠٠ أسير) ونضيف إليهم مجموع عشرين ألف ومائتي أسير (٢٠٢٠٠ أسير) في كل من تونس والمهدية وقرقنة والحمامات فإن مجموع الأسرى يصل إلى ٤٨,٥٠٠ شخص دون اعتبار عدد أسرى المدن الجزائرية.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ٦٠,٠٠٠ أسير الذي قدمه ابن أبي دينار فيما يتعلق بمدينة تونس فإن مجموع أسرى إفريقية خلال الفترة المدروسة يصل إلى ما يناهز ١٠٠,٠٠٠ شخص في الفترة الممتدة ما بين ١٢٨٤ و١٦٠٢ أي خلال ثلاثة قرون وهو ما يعني ما يناهز ٣٣,٠٠٠ أسير كل مائة سنة أي بمعدل ٣٣٠ أسير كل سنة. وذكر أحد الدارسين أنه مع منتصف القرن السادس عشر (١٥٥٠) كان عدد العبيد المغاربة يصل إلى ٢٠,٠٠٠ أسير في مدينة نابلي فحسب وبين ٤٠,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ عبد خلال القرن السابع عشر في كل المجال الإيطالي وفي مدينة طولون الفرنسية كان يوجد ما يناهز ١٠,٠٠٠أسير سنة ١٦٥٠.(٧٤)

وتبدو هذه الأرقام تقريبية لأنها بعيدة عن الواقع الذي حاولنا تسليط الضوء عليه، وعلى الرغم من ذلك فإن تلك الأرقام مجتمعة تفيد بشكل رئيس أن بلاد المغرب وإفريقية قد كانت طوال الفترات المشار إليها سابقًا خزانًا احتياطيًا من العبيد الذين بقي أغلبهم مجهول المصير.

أعداد أسرى القرصنة الأوربية في إفريقية

سنة الاجتياح	المدينة المنكوبة	الدولة المعتدية	عدد الأسرى	المصدر والمرجع
١١٤٣	بونة	النورمان	"تفقير المدينة من سكانها"	الإدريسي، نزهة المشتاق، ص١٥٤.
١١٥٣م	جربة	النورمان	"أغلب السكان"	-ابن خلدون، العبر، ج٦، ص ٨٤٩. التجاني، رحلة، ص١٢٦.
١٢٠٠	تونس	بيشة	«جميع التجار والركاب"	Amari, I diplomi..., p23, 28.
١٢٨٤	جربة	أرغونة	٨,٠٠٠ أسير.	العبر، ج٦، ص٦٩٧. الفارسية، ص١٥٠.
١٢٨٧	مرسى الخرز	النصارى	"حملوا أهلها أسرى	العبر، ج٦، ص٦٩٨.
١٢٨٩	بونة	النصارى	"أسر أشخاص من البر"	العبدري، رحلة، ص٣٧.
١٣٥٤م	طرابلس	جنوة	"أسر جميع أهل البلد" ٧,٠٠٠ أسير	الزركشي، تاريخ الدولتين، ص١٩٢. ابن خلدون، العبر، ج٦، ص٩٦٤. برنشفيك، ج١، ص٢٠٤،٢٠٣.
١٣٩٨	تدلس	أرغونة	٣٠٠ أسير	برنشفيك، ج١، ص٢٥٢.
١٤٢٤	قرقنة	قطلونيا	قتل ٢٠٠ وأسر البقية من أصل ٣٠٠٠ شخص. -٣٠٠٠ أسير.	الزركشي، ص٢٥٢. برنشفيك، ج١، ص٢٦٠.
١٥١٠م	طرابلس	الأسبان	١٠,٠٠٠ أسير.	روسي، طرابلس..، ص٢٢.
١٥٣٥م	تونس	الأسبان.	٨,٠٠٠ أسير. "أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث" ما يناهز ٦٠,٠٠٠ أسير.	De Sousa(F.L), « La participation portugaise à l'expédition...»,op-cit, R. T, 1940, n°43-44, p313. -ابن أبي دينار، المؤنس، المصدر السابق، ص ١٨٦.
١٥٥٥	المهدية	الأسبان	حوالي ١٠,٠٠٠ أسير	مارمول، ج٣، ص٧٤، ٨٣.
١٥٧٦ ١٦١١	قرقنة	الأسبان	١٠٠٠ أسير ٥٠٠ أسير	Pignon (J), « Un document inédit...», p167.
١٦٠١م	الحمامات	الأسبان	٧٠٠ أسير	Conor (M), « Les exploits d'Alonso Contreras... », R.T, 1913, p600.
العدد الإجمالي للأسرى: ٤٨,٥٠٠ أسير.				



خَاتِمَةٌ

ما يمكن أن نتبينه من العرض السابق أن القرصنة الأوربية بقيت نشيطة خلال كامل الفترة الممتدة من القرن الثاني عشر إلى نهاية القرن السادس عشر، وعاشت المدن الساحلية لبلاد المغرب عمومًا وخاصة إفريقية على وقع الهلع والتدمير وأسر واستعباد سكان تلك المدن الساحلية. لقد تبين أن تنظيم القرصنة الأوربية كان مُحكمًا إذ شهد تطورًا هامًا عبر الزمن ومثل الجانب الربحي والمردود الجيد ميزة كل عمليات القرصنة في عرض البحر أو على السواحل الإفريقية ومع بداية القرن السادس عشر أصبح الوضع ملائمًا لعمليات قرصنة لدول كبرى وبقيت إفريقية ضحية تلك العمليات القرصنية. إن ذلك يعني أن القرصنة ساهمت في التوسع العثماني باتجاه الغرب ووفرت رصيدا ماليا هاما لتحقيق ما يصبو إليه العثمانيون الذين قاموا بالتدخل المباشر في الشؤون الإفريقية قبل المعاهدة الثنائية بين الأتراك والإسبان سنة ١٥٧٤ وكانت إفريقية مستقلة عن السلطان العثماني "ومكملة لجهده الحربي ضد المسيحيين".

كما كان عدم تنظم السلطنة الحفصية منذ الاستنجاد بالإسبان وتواجدهم في حلق الوادي بمثابة تواصل مع ما جد سابقًا من تحالفات بين الحفصيين والأرغونيين غير أنه لم يكن خاضعًا لنفس الأغراض ومنذ سنة ١٥٧٤ أصبحت القرصنة منظمة أكثر من السابق بعد استقرار الأتراك في كل من تونس والجزائر وطرابلس إذ أنها مثلت مؤسسة سياسية واقتصادية واجتماعية واحتكرت العائدات المالية للقرصنة من قبل العناصر التركية التي استقرت بتونس بعد سنة ١٥٧٤ وخاصةً بعد ظهور الدايات، إزاء تلك الأحداث التي صبغت علاقات التوتر بين الحفصيين والدول الأوربية وما نتج عنها من عمليات أسر متبادلة تبين لنا ردود أفعال مختلفة ومن بينها عمليات الغزو والقرصنة الإفريقية التي بدت محدودة ولم تسفر في كل الحالات إلا عن أسر واستعباد أعداد قليلة مقارنة بالقرصنة الأوربية.

الاحالات المرجعية:

(١) ابن منظور (جمال الدين)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧، المجلد الثاني، ص٤٩. انظر كذلك: الزحيلي (وهبة)، آثار الحرب في الفقه الإسلامي، دراسة مقارنة، دار الفكر، بيروت،١٩٨١، ص٣١،٣٢.

(٢) ابن خلدون، كتاب **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ البربر والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني،١٩٥٦، ج٦، انظر على سبيل المثال "فتح تونس وبقية عمالات إفريقية"، ص٨١٦-٨٨٧.

(٣) نفس المصدر، ص٧٤٩ وغيرها في مواقع عدة من العبر.

(٤) نفسه، ص٥٩٩،٦٠٠. انظر كذلك الترجمان (عبد الله)، **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**، تحقيق الطاهر المعموري، دار بوسلامة للنشر، تونس، ١٩٨٣، ص٢١.

(٥) خصص ابن الشماع على سبيل المثال في آخر مؤلفه فصلا "في ذكر الحرابة" ومما جاء فيه "وإذا خاف المحاربون السبيل وقطعوا الطريق وجب على المسلمين التعاون في قتالهم من غير أن يدعوهم الإمام" انظر **الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية**، تحقيق الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب،١٩٨٤، ص١٣٣-١٣٥.انظر كذلك حسن (محمد)، **المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس،١٩٩٩، ج٢، ص١٦٤.

(6) Amari (M), I diplomi Arabi del archiviofiorentino,Firenze,1863,p.20,21,148...

(7) Ibid, p133, 148; Brunschvicg (R), Deux récits de voyages inédits ..., Paris, 1936, p67.

العزّاوي (أحمد)، الغرب الإسلامي (خلال القرن ٧هـ٨ه) دراسة وتحليل لرسائله، تغيرات موازين القوى، (٦٧٠-٧٣٠هـ/١٢٧٢-١٣٣٠م)، مطبعة الرباط، المغرب، ٢٠٠٧، ج٢، ص ٢٤٠.

(٨) البرزلي (أبو القاسم)، **جامع مسائل الأحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢، ج٢، ص٢٥.

(9) Dictionnaire encyclopédique, Paris, 1970, article « pirate », p5250. La grande encyclopédie Larousse, article «Corsaire», P. 3376; Dan (P), Histoire de Barbarie et de ses corsaires des royaumes et des villes d'Alger, de Tunis, de Salé et de Tripoli, Seconde éditions, Paris, 1646, p.10-16.

(10) Monlau (J), Les Etats barbaresques, PUF, Paris ,1964. Durand (L), Pirates et barbaresques en méditerranée, Paris, 1975. Mansouri (M.T), «Le Maghreb médiéval face aux expéditions occidentales», C.T, n169-170, Tunis 1995, p.139-147. Heers(J), Les barbaresques, la course et la guerre en méditerranée XIV-XVI (e) siècle, Perrin, 2001.

(١١) ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب في تاريخ وحلى المغرب**، تحقيق كولان وبروفنصال، نشر دار الثقافة بيروت، لبنان،١٩٨٣، ج١، ص٣٠١، التجاني، **رحلة**، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس،١٩٨١، ص٣٣١، ٣٣٢.

(12) Mansouri (M.T), «Le Maghreb médiévale... », Op.cit, p139, Monlau (J), Les Etats barbaresques, Op.cit, p30.

(١٣) ابن خلدون، كتاب العبر، ج٦، ص٩٠٢، ٩٠٣.

(14) Picard (Ch.), La mer et les musulmans d'occident au moyen age, VIII-XIII siècle, PUF, Paris, 1997, p.75-90.

(١٥) عزيز (أحمد)، **تاريخ صقلية الإسلامية**، ترجمة، أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٠، ص٥٧-١٠١.

(١٦) التجاني، **رحلة**، ص١٢٦، ابن خلدون، **العبر...**، ج٦، ص٨٤٩. ابن عذاري، **البيان...ج١**، ص٣١٣،٣١٢. عزيز، تاريخ صقلية...، المرجع السابق، ص٦٧.

(١٧) ابن عذاري، **البيان المغرب...**، ج١، المصدر السابق، ص٣١٣.

(١٨) ابن الأثير (عز الدين)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق جوهان كاروليس تورنبورغ، بريل،١٨٥١، طبعة دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥، ج١١، ص٣١، ٣٢، ٩١، ١٠٨، انظر كذلك، عزيز، تاريخ صقلية...، المرجع السابق، ص٦٧.

(١٩) الإدريسي (محمد)، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، نشر الحاج صادق، الجزائر، ١٩٨٣، ص١٥٤.

Monlau (J), Les Etats barbaresques, op.cit, p31.

(20) Mansouri, op.cit, p145.

(٢١) ابن خلدون، **العبر..**، ج٦، ص٦٩٧، ٦٩٨، ابن القنفذ، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر،١٩٨٩،ص١٥٠.

(٢٢) العبدري (أبو عبد الله محمد)، **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط،١٩٦٨، ص٣٧.

(23) Dufourcq (Ch.E), L'Espagne catalane au XIII et XIV siècles de la bataille de Las Navas de Tolosa (1212) à l'avènement du sultan mérinide Abou l Hasan(1331), Paris, 1965, p. 252; 254-256 et surtout p257.

(24) Ibid, p.408-409.

(٢٥) ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين**، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،١٩٨٥، ص٣٨٠. وفيما يتعلق بالعبيد والأسرى المسلمين في الأندلس يمكن الرجوع إلى:

Verlinden (Ch.), L'Esclavage dans l'Europe médiévale. I (Péninsule Ibérique, France), Bruges, 1955.

(٢٦) ابن عذاري (المراكشي)، **البيان المغرب... قسم الموحدين**، ص٣٨١.

(٢٧) توجد هذه المدينة في هضبة بولية Apulia شمال شرقي مدينة نابلي وكان يوجد بها المسلمين الذين تم نقلهم من جزيرة صقلية، انظر: عزيز(أحمد)، تاريخ صقلية الإسلامية، المرجع السابق، ص١٢١، ١٢٢.

(28) Heers (J), Esclaves et domestiques au moyen age..., Op.cit, p.29, 30 ; Ibid, Les barbaresques..., p.207, 208.

(29) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p.428-430 ; Mansouri, Op.cit, p145, 146.

(30) Dufourcq, op-cit, p.497-500.

(31) Ibid, p498.

(٣٢) العزّاوي (أحمد)، الغرب الإسلامي...، ج٢، المرجع السابق، ص٢٣٣، ٢٣٤.

(٣٣) ابن بطوطة (محمد ابن عبد الله)، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي، المملكة المغربية، ١٩٩٧، **المجلد الرابع**، ص١٨٤.

(٣٤) **نفس المصدر**، ص١٩٠.

(35) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p.575, 576.

(36) Heers, Les barbaresques..., op-cit, p.39-42.

(37) Dufourcq, L'Espagne catalane..., p.487, 571.

(38) Ibid, p. 428-430 ; Mansouri, Op.cit, p145, 146.

(٣٩) ابن خلدون، **العبر...،ج٦**، ص٩١٤. انظر كذلك الزركشي (محمد بن إبراهيم اللؤلؤي)، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق الحسين اليعقوبي، المكتبة العتيقة، تونس، ١٩٩٨، ص١٩٢، ٢٥٢.

(٤٠) الترجمان، **تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب**، المصدر السابق، ص١٣.

(41) Amari (M), I diplomi arabi...,op-cit,p.23-28.

(42) Ibid,p.43,44.

(43) Amari,I diplomi...,op-cit,p.86-95.

(44) Ibid,p.99-111.

(45) Ibid,p148.

(46) Verlinden, l'Esclavage..., T2, Op.cit, p.259, 260; 283.

(47) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p82.

(48) De Games(Gutierr), El Victorial, texte établi par Beltran Liavador(R), édition Clasicos Taurus, n°25, 1994, chapitre (37-50) ,18pages.

(49) Ibid, chapitre 37, p1.

(50) De Games, El Victorial..., op-cit, chap.42-45, p.4-7.

(٥١) الراشدي (أبو عبد الله محمد)، **ابتسام العروس ووشي الطروس**، مطبعة الدولة التونسية،١٣٠٣هـ، ص٤٢٢، ٤٢٣.

(٥٢) **نفس المصدر**، ص٤١٤.

(53) Brunschvicg (R), Deux récits de voyages..., op-cit, p. 60, 61 ; 67,68.

(٥٤) البرزلي، **جامع مسائل الأحكام، المصدر السابق، ج٢**، ص٤٦: يقول ابن عرفة: "الصواب اليوم أنه خلاف في حال، فإن كان أمير تونس قويا على الروم جاز، وإلا لم يجز لإهانتهم للمسلمين...الصواب اليوم أنه يمنع لكن بعض أهل الصلاح كان يركب معهم..."

(٥٥) البرزلي، **نفس المصدر، ج٢**، ص٢٥.

(٥٦) ابن ناجي (أبو الفضل)، **معالم الإيمان...، ج٤**، ص١٨٩، ١٩٠.

(57) Brunschvicg (R), Deux récits de voyages inédits..., Paris, 1936 p.124, 125.

(٥٨) الراشدي، **ابتسام العروس، المصدر السابق**، ص٣٨٢، ٣٨٣.

(59) Dufourcq, L'Espagne catalane..., op-cit, p.573, 574 ; Heers (J), Les barbaresque..., op-cit, p.25-32.

(60) Doumerc (B), Venise et L'Emirat hafside de Tunis (1231-1535), L'Harmattan, Paris, 1999, p.131, 132.

(61) Ibid, p132.

(٦٢) روسي (ايتوري)، **طرابلس تحت حكم الأسبان وفرسان مالطا**، ترجمة وتقديم خليفة وتقديم خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٣، ص١٧، ١٨.

Heers(J), Les barbaresque..., p.13, 14. Braudel (F), La méditerranée et le monde méditerrannièn a l'epoque de Philippe II, Armon Colin, Paris, 1979, t2, p148, 149 ; Barcina (R.B), Une marchandise humaine..., op-cit, p70.

(٦٣) روسي، نفس المرجع السابق، ص ١٩-٢٢.

(64) Doumerc, Venise et L'Emirat hafside de Tunis, op-cit, p132, Braudel, La méditerranée. ..., op-cit, p93-94.

روسي، نفسه، ص٢٣.

(65) Barcina, Une marchandise humaine..., op-cit, p71.

(66) Ibid, p.99, 100.

(67) De Sousa (F.L), « La participation portugaise à l'expédition ... », Op.cit, p313.

ابن أبي دينار(محمد)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، دار المسيرة، بيروت، لبنان، ١٩٩٣، ص١٨٦.

ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، المطبعة الرسمية، تونس، ١٩٦٣، ج٢، ص ١٦.

(68) Braudel (F), La méditerranée..., op-cit, p149.

(69) Pignon (J), «Un document inédit sur la Tunisie au début du XVII siècle», Cahier de Tunisie, n33-34, p166, note (11).

ابن أبي الضياف، **نفس المصدر، ج٢**، ص١٦.

(70) Ibid, p167, note (14).

مارمول (كربخال)، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، دار نشر المعرفية، المغرب، الرباط،١٩٨٣، ج. III، ص. ٧٤ – ٨٣.

(71) Conor (M), «Les exploits d'Alonso Contreras, aventurier espagnol en Tunisie (1601-1611)», Revue Tunisienne, n97, Janvier1913, p600; Pignon (J), «Un document inédit...» , Op.cit, p166, note (9).

(72) Vincent (B), «Les esclaves d'Almeria (1570)», in pouvoir et société dans l'Espagne moderne, hommage à Bartolomé Bennassar, Presse Universitaire du Mirail, 1993, p.194, 195.

(73) Heers (J), Les barbaresques..., op-cit, p.125, 126.

(74) Bono (S),Corsari nel Mediterraneo, Milan, 1993, P.194, 195.


ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

دور الجيش النظامي بالبلاد المغاربية في إضعاف الدولة
خلال القرن الثامن عشر الميلادي
جيشا المغرب والجزائر كنموذج



د. رشيد زين العابدين
دكتوراة التاريخ الحديث
جامعة محمد الخامس
الرباط – المملكة المغربية

مُلَخّص

على الرغم من الأدوار الإيجابية التي قام بها الجيش النظامي بكل من المغرب والجزائر في القرن ١٢هـ/١٨م، والمتمثلة في تقديمه تضحيات جسيمة لتأمين حدود هذين البلدين ضد الخطر الخارجي ولتحقيق الاستقرار بهما، فقد وَثَّق هذا البحث أيضًا وبمستويات متفاوتة، لسلوك عناصر هذا الجيش وهي تتدخل في الشأن السياسي وتعمق أزمته من خلال قتل أو سجن أو مطارة حاكم الدولة ومساعديه في الحكم ومقايضتهم باعتلاء مناصبهم واستمرارهم فيها بمنحهم امتيازات كبيرة. كما وثق البحث لعناصر الجيش وهي تنهب الأهالي وتقتلهم ودن أمر من الحاكم. وفي مقابله قدم البحث أيضًا شواهد تاريخية تفيد باختلاق الحكام للحروب للقضاء على الفرق المتمردة من الجيش، وبهجوم القبائل على قلاع هذا الأخير ونهبها وقتل أو أسر أفراده وبيعهم كعبيد في فترات ضعف السلطة المركزية. ولعل حالة الفعل ورد الفعل بين هذه الأطراف وما نتج عنها من قتل لكوادر الإدارة ورؤساء الجند ومن تخريب للقلاع وغيرها من النتائج؛ هو ما أدى إلى إضعاف الدولة المغاربية في هذه المرحلة إداريًا وأمنيًا وكلفها ماديًا. ولم تكن فرق الجيش في هذين البلدين على درجة المسؤولية نفسها فيما حصل، والملاحظ أن جيش "عبيد البخاري" بالمغرب وجيش "الإنكشارية" بالجزائر هما من يتحملان القسط الأكبر من هذه المسؤولية. ولم يقف هذا البحث عند التفسير التقليدي لتصرفات الجيش النظامي بربطها فقط بالجانب المادي بل استحضر طريقة تأسيس هذا الجيش في المغرب ومدى نجاعة هذه الطريقة، وبحث في المهام الخطيرة التي أسندت لقادة جيوش الولايات العثمانية عند إحداثها في القرن السادس عشر الميلادي وكيف ساهم ذلك في هيمنة السلطة العسكرية على الحياة السياسية مع توالي السنين، إلى غير ذلك من العوامل التي تسعى لتقديم تفسير مقنع.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٧	أبريل	٢٠٢٠
تـاريخ قبــول النشــر:	٠٩	يونيو	٢٠٢٠

كلمات مفتاحية:

الجيش؛ المغرب؛ الجزائر؛ السلطان؛ الداي؛ الحامية العسكرية؛ الإنكشارية؛ عبيد البخاري؛ جيش الودايا؛ القرن الثامن عشر

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.248751

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

رشيد زين العابدين. **"دور الجيش النظامي بالبلاد المغاربية في إضعاف الدولة خلال القرن الثامن عشر الميلادي: جيشا المغرب والجزائر كنموذج"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٤٥ – ١٥٣.

Corresponding author: rachidzin gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

على الرغم من الأدوار الإيجابية التي قام بها الجيش النظامي بالبلدان المغاربية خلال القرن الثامن عشر الميلادي والمتمثلة في أدائه مسؤولياته التقليدية، أي الدفاع عن البلد وتحقيق الأمن به، إلا أنه ساهم في إضعاف الدول التي كان ينضوي تحتها عند استهدافه لرجال الحكم والإدارة بها قتلاً وسجنًا ومطاردة ومنازعة في المهام، وعند إضراره بالرعية نهبا لخزائنها وقتلا لأفرادها. ورغم وجود مؤلفات وازنة في موضوع الجيش المغربي إلا أنها لم تتعمق في دراسة هذا السلوك غير الطبيعي للجيش، لأن تركيزها انصب على القرن التاسع عشر الميلادي وفي موضوع الجانب التنظيمي للجيش ومظاهر إصلاح هذا الأخير بعد فشله في مواجهة الجيش الفرنسي سنة ١٨٤٤م ومواجهة الجيش الإسباني سنة ١٨٥٩م، ومن هذه الدراسات نذكر:" الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر" لثريا برادة[١]، و"الجيش المغربي في القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٩١٢)" لمصطفى الشابي[٢]، كما أن المؤلفات التي لم تتقيد بفترة زمنية ما مثل كتاب "الجيش المغربي عبر التاريخ" لعبد الحق المريني[٣]، وكتاب"الجيش المغربي عبر العصور" لعبد العزيز بنعبد الله[٤]، قد ركزت هي الأخرى على تركيبة الجيش المغربي وعلى الحديث عن المعارك التي انتصر فيها وبقيت بعيدة عن الحديث عنه سلبًا، ولم نعثر على دراسات حقيقية في هذا الاتجاه ضمن القرن الثامن عشر الميلادي.

وعندنا بحثنا حول ما كتب في موضوع الجيش الجزائري في الحقبة العثمانية بغية المساهمة في توضيح هذه الظاهرة، عثرنا على مؤلفات ركزت على الجانب التنظيمي للجيش هي الأخرى وعلى فرقة الإنكشارية منه، مثل مؤلف" بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني" لحنيفي هلايلي[٥]، ومؤلف "الجيش الإنكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر، ١٧٠٠-١٨٣٠" لمحمد بوشنافي[٦]. وبسبب ذلك يحاول هذا البحث المستند على المنهج الاستقرائي والوصفي التحليلي تناول ظاهرة إضرار الجيش النظامي بالدولة في المغرب وفي الجزائر، على اعتبار أن جيشا البلدين تقاتلا على حدودهما قتالاً شرسًا في العقود الأخيرة من القرن السابع عشر والعقود الأولى بالأخص من القرن الثامن عشر الميلادي للدفاع عن بلديهما بمنظور حاكم كل بلد، لكنهما اتجها إلى الداخل بعد ذلك لإضعاف دولهما بعد توجيه عدتهما صوب الحكام والرعية في مفارقة غريبة وإعادة منهما في نسخة مغاربية لتجربة جيش الانكشارية في شبه جزيرة الأناضول والتي أدت إلى إضعاف الدولة العثمانية.

وبناءً عليه سأتناول في المحور الأول من هذا البحث مظاهر تدخل جيشا البلدين المعنيين في الشأن السياسي وتداعيات ذلك على استقرار الجهاز الحاكم بهما، وأحاول في المحور الثاني تقديم تفسير للتناقض الذي طبع أدوار الجيشين خلال هذه المرحلة.

أولاً: التدخل السلبي لجيشا المغرب والجزائر في الشأن السياسي وتداعيات ذلك على الجهاز الحاكم

اختلف مستوى تأثير الجيش في الشأن السياسي بإيالة الجزائر عنه في المغرب في القرن الثامن عشر الميلادي، وسببه اختلاف الحياة السياسية بينهما. فالمغرب في هذه المرحلة لم يكن خاضعا للعثمانيين ولم يتقلد الحكم به شخص ينتمي للقائمة العسكرية بل للقائمة المدنية، فالحاكم المغربي هو سلطان بالوراثة، بقي على سدة الحكم سواء بسلطه الموسعة التي يخضع لها الجميع ومنها الجيش، أو بسلط صورية عندما يكون الجيش هو الماسك بالسلط الفعلية، كما نوضحه.

تقلد رؤساء الجيش بالمغرب خلال القرن الثامن عشر عددًا من الوظائف السياسية داخل جهاز الإدارة المغربية، كما تجلى ذلك في تعيين قادة منهم على رأس الأقاليم السبعة للبلاد قبيل وفاة السلطان المولى إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧م) وقيامهم أيضًا بمهمة تحصيل الخراج[٧]، وبوفاة هذا السلطان انفرط عقد الطاعة بين الجيش والحاكم الجديد. لقد نصب رؤساء الجيش بعد سنة ١٧٢٧م أنفسهم حكامًا خلف الستار بتحكمهم في عقد بيعة السلطان والتأثير من خلاله أيضًا في باقي عناصر الجهاز الإداري للدولة، هذا من جهة ومن جهة أخرى كان من نتائج رحيل القائد المؤسس للجيش أن انقطع التموين عن عساكر القلاع وهو ما ساهم في تمردها[٨].

ومن صور الانخراط السلبي في الشأن السياسي والتمرد للقوة العسكرية النظامية المغربية خلال هذه الفترة، أن عناصر جيش فرقة "الودايا" ملّكوا أمر أنفسهم على الدولة[٩]، كما أحدث عناصر "جيش العبيد" اضطرابات في المجتمع أدت إلى ضياع نظام الملك[١٠] وإلى هرم الدولة كما يقول الضعيف، فقد أصبح زعماؤهم هم أهل الحل والعقد في نظام البيعة[١١]. ومن شواهد العبث بنظام البيعة بالمغرب، أن البيعة الأولى للسلطان أحمد الذهبي الذي أعقب السلطان المولى إسماعيل، كانت في الأصل اتفاقا بين قواد "جيش العبيد" وقواد "جيش

الودايا"، وهي بيعة تمت تحت الجبر كما يقول السملالي[١٢]، وبهدف إمداد هؤلاء بالأموال كما يقول ابن زيدان[١٣].

ولا شك أن القوة العددية لـ"جيش العبيد" جعلت ميزان القوى يكون لصالح رؤسائه زمن الأزمة(١٧٢٧-١٧٥٧)، لقد بلغ استبدادهم بالأمر مستوى القبض على السلاطين أو مطاردتهم أو سجنهم إلى حين المناداة عليهم لبيعتهم مرة أخرى، فتعداد جيشهم كان يصل عشية وفاة السلطان المؤسس لهذا الجيش إلى ١٠٠ ألف عنصر، فكان لذلك أثره في خلق أتباع لهم من عناصر جيش الودايا" لقبول تنصيب الذهبي سلطانا[١٤]، و مع هذا التنصيب بدأت فصول منتهى استخفاف رؤساء الجيش بعقد بيعة الحاكم مثلما لم يعرفه المغرب في تاريخه من قبل.

لقد نكث قواد "جيش العبيد" بعد أشهر بيعتهم للسلطان الذهبي وبايعوا بالمقابل أخاه عبد الملك، ثم نكثوا بيعته هو الآخر وعادوا لبيعة الذهبي، وبعد وفاة الأخوين، بايعوا عددًا من السلاطين في ظرفيات مختلفة كان نصيب السلطان المولى عبد الله منها ست(٠٦) بيعات، فبعد بيعتهم الأولى له تراجعوا عنها بعد مدة وبايعوا أخاه المولى علي الأعرج سنة (١١٤٧هـ/١٧٣٤م)[١٥]، ثم خلعوه هو الآخر وعادوا لبيعة المولى عبد الله ثانية في ٢٠ ذي الحجة (١١٤٨هـ/١٧٣٦م) وخلعوه مرة أخرى في ١٦ محرم ١١٤٩هـ بعد اتفاقهم على بيعة محمد ولد عربية[١٦]، ثم عزلوه بعد عام و٧ أشهر، وكان كما قال ابن زيدان "مضروبًا على يده ليس له من السلطة إلا الاسم وولاة أمره - من العبيد - هم المستبدون بالإبرام والنقض والتصرف المطلق"[١٧]، وعاد هؤلاء لبيعة المولى عبد الله[١٨]، ثم نكثوها على عادتهم وبايعوا أخاه المولى المستضيء ثم عزلوه عام (١١٥٢هـ/١٧٣٩م) ورجعوا لبيعة المولى عبد الله[١٩]، ثم عزلوه وبايعوا المولى زين العابدين في ٢٩ ربيع الأول (١١٥٤هـ/١٧٤١م)، ولم يكن هذا الأخير بأفضل من سابقيه إذ خلعوه وعادوا لبيعة المولى عبد الله البيعة الرابعة في ١٣ رمضان (١١٥٤هـ/١٧٤١م)، وكأدبهم عزلوه ورجعوا لبيعة المولى المستضيء البيعة الثانية في ٢٠ذي القعدة سنة ١١٥٤ ونكثوها كما كان متوقعا منهم في ربيع الأول من عام (١١٥٦هـ/١٧٤٣م) ليعقدوا للمولى عبد الله البيعة الخامسة، ولما بايعوه البيعة السادسة والأخيرة قاموا سنة (١١٦٢هـ/١٧٤٩م) بإرسال بيعتهم لابنه سيدي محمد الأمير بمراكش وخطبوا به في منابر مدينة مكناس لكن الأمير لم يقبلها منهم.[٢٠]

وفضلاً عن التحكم في عقد بيعة الحاكم والاستخفاف به، انخرط قادة وأفراد الجيش في قتل رجالات الدولة السابقين، كما كانوا هم أيضًا ضحية لعمليات القتل المعاكسة في صراعهم مع السلاطين، وهكذا لتكون النتيجة في الأخير تدمير القوة الأمنية والإدارية معا للدولة زمن الأزمة (١٧٢٧-١٧٥٧م)، ذلك أنه إذا كان العبيد وجدوا في تنافس أبناء المولى إسماعيل على السلطة مناسبة لممارسة سطوتهم عليهم، فإن هؤلاء وجدوا في تنافس العبيد مع عناصر الجيش الأخرى كـ"الأودايا"، وسيلة لمواجهة طغيانهم[٢١].

ومن أولى خطوات رؤساء الجيش في القضاء على أطر الدولة الموروثة من العهد الإسماعيلي، ما وسوس به هؤلاء للسلطان المولى أحمد الذهبي بأن يقتل عددا من رجالات دولة أبيه، وهكذا قتل السلطان العديد من أطر الإدارة المغربية وعلى رأسهم "أبو العباس أحمد بن علي اليازغي" و"ابن عدو" و"ابن الأشقر"، وبقتل هذه الكوادر اختل النظام وضربت الفوضى والاستبداد الأطناب ووقع من العامة استخفاف عظيم بأمر المملكة واشتد النهب في الطرقات، كما يقول ابن زيدان[٢٢]. وبالمقابل أتت العلاقة الجديدة بين الحاكم والجيش على عناصر كثيرة من الجيش نفسه كما تدل عليه بشكل صريح سياسة السلطان مولاي عبد الله في قوله: "أردت أن أقابل هذا الترس الأسود[جيش العبيد] بالكبش الأبيض [فرق الجيش الأخرى] وأتخلص ممن هلك منهما وأتمسك بالآخر"[٢٣]، كما أن صراع الأمراء على الحكم أدى لنشوء جيش مضاد من محاربي القبائل بدأت نواته الأولى تتشكل منذ سمع المولى عبد الملك بوفاة والده وبيعة أخيه الذهبي، إذ تمكن من جمع حوالي عشرة آلاف محارب واجه بهم جيش أخيه من العبيد البالغ أكثر من ٧٠ ألف مقاتل، فقُتل في الحرب عظماء الجيش الرسمي كما يقول الضعيف[٢٤]، وقام السلطان المولى عبد الله في ٢٠ ذي الحجة (١١٤٨هـ/١٧٣٦م) زمن بيعته الثانية بقتل عدد من رؤساء وكبراء "عبيد مشرع الرمل"[٢٥] وقتل أعدادا أخرى من عناصر جيش "الودايا"، بل تحدثت بعض الكتابات أن هذا السلطان كان يختلق الحروب للتخلص منهم[٢٦].

ومع عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (١٧٥٧-١٧٩٠)، عرفت العلاقة بين الجيش وحاكم البلاد تطورًا مفصليًا، لقد قام هذا الأخير بعد حوالي سنتين من توليته بالقضاء على شوكة "جيش الودايا" سنة (١٧٦٠م/١١٧٤هـ)، واتخذ من خروج "جيش العبيد "عليه بيعة ابنه اليزيد مطلع (١١٨٩هـ/١٧٧٥م)[٢٧] فرصة للإيقاع بهم هم الآخرين[٢٨].

هذا بشأن علاقة الجيش برجال السلطة في فترة محددة من تاريخ المغرب، ماذا حول هذا الموضوع بالنسبة للجيش الجزائري؟ تدخل الأوجاق ورجال البحرية بإيالة الجزائر في الشأن

السياسي تدخلاً تسبب في إضعاف السلطة بها من خلال صراعهم مع رجال الحكم والإدارة.

من مشاهد هذا الصراع الطويل أن انكشارية الإيالة تمكنوا من قتل ١٤ دايا من مجموع (٢٧) سبعة و عشرين[٢٩]، وأما مظاهره الأولى في القرن١٨م فتتجلى في تمرد الانكشارية على الداي "محمد بكطاش"(١٧٠٧-١٧١٠) وتمكنهم من قتله على يد "إبراهيم دلي" سنة ١١٢٢/١٧١٠م الذي نصب نفسه دايًا جديدًا (١٧١٠-١٧١٠)، ولم يكن هذا الأخير ليهنأ كثيرا بمنصبه فقد أمضى فترته القصيرة في الحكم في القضاء على محاولات اغتياله، وعاد الانكشارية مرة أخرى إلى التمرد على الداي"علي شاويش" (١٧١٠-١٧١٨)، فشنق٣٠ متآمرًا عليه سنة ١٧١٣م، وقتل رياس البحر الداي محمد بن حسن (١٧١٨-١٧٢٤) سنة ١٧٢٤، وقطع الداي عبدي الأعمى (١٧٢٤-١٧٣٠) رؤوس قتلة الداي محمد، ثم عاد الانكشارية مرة أخرى للقيام بثورة ضد الداي "عبدي"، ورغم أن الثورة انتهت بإلقاء القبض على زعمائها[٣٠] إلا أن معارضة القوة العسكرية للدايات لم تتوقف[٣١]. ففي سنة ١٧٥٢ وعندما كان الديوان مجتمعا لتوزيع المعاشات، تظاهر الأرناؤوطي علي الطويل (علي بو أصبع) بتقبيل يدي الداي محمد بن بكر(١٧٤٨-١٧٥٤) فقتله وأعلن نفسه دايا وقدم للإنكشارية وعدًا بزيادة رواتبهم[٣٢]، وتمرد الإنكشارية على الداي علي باشا (١٧٥٤-١٧٦٦) بدوره، فقضى على تمردهم سنة ١٧٥٥م[٣٣] ونفى ٤٠ تركيا سنة ١٧٦٥ لأنهم خططوا لقتله، وتعرض مرة أخرى قبل شهور من وفاته لمحاولة اغتيال من قبلهم. وفي السنة التي تولى فيها الداي"محمد بن عثمان"(١٧٦٥-١٧٩١) ثار الإنكشارية عليه ونجح في إخماد ثورتهم وقلل من أعدادهم، وظل ينزل بهم اشد العقوبات[٣٤]، ولما فشل قائدهم في القضاء على تمرد منطقة "القبايل"، قام الداي بقتله[٣٥]، وعندما توفي الداي محمد، لم ينافس الداي الجديد حسن باشا في الحكم سوى آغا السباهية ولذلك قبض عليه وسجنه[٣٦].

ثانيًا: تفسير دور الجيش في تخريب الدولة

أن نسمع الجيش النظامي يقتل ويسجن ويطارد حاكم الدولة ومساعديه ويتحكم في تنصيبه، وأن نسمع في المقابل حاكم البلاد يختلق الحروب للقضاء الجيش، بالبلدان المغاربية في القرن الثامن عشر الميلادي، فهذه ظاهرة لا يكفي تفسيرها بالقول إن بحث الجيش عن مراكمة امتيازات مادية هو سبب التوتر بينه وبين الحكام. وفي تفسيرنا لهذه الظاهرة قد يقول قائل إنه لا يستقيم إشراك البلدين في التفسير لاختلاف النظام السياسي المغربي عن الجزائري" العثماني". والحقيقة أن هناك نقط تشابه كثيرة لتفسير سلوك جيشي البلدين، ففكرة إنشاء أهم فرق الجيش المغربي مثلا وهي فرقة" عبيد البخاري" والأكثر مسؤولية عن تخريب الدولة، استلهم جزء منها من فكرة الجيش الإنكشاري العثماني[٣٧]، بل أن الجيش المغربي كان يضم فرقة تسمى بـ"البكشارية" أو"القشارية"[٣٨]، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تعرض المغرب والجزائر لتحديات داخلية وخارجية متشابهة خلال القرن الثامن عشر الميلادي وكان لها تأثير غير مباشر على سلوك جيوشها.

عمومًا عديدة هي المسارات التي يمكن اتباعها لتقديم تفسير أكثر إقناعًا لما حصل، وعديدة هي الفرضيات التي يمكن الانطلاق منها والبحث عن إجابات لها في هذا الموضوع، وتبين لي من جهتي أن سلوك الجيش المغاربي في القرن الثامن عشر الميلادي كان بمثابة ضرائب سددتها الدولة نتيجة أخطاء ذاتية وموضوعية، كما يلي: تسديد ضريبة تكوين جيش تعيله القبائل من زكواتها وأعشارها وضريبة عدم تنظيم وراثة العرش.

إن تكوين جيش نظامي قوي كان يُعَدّ مطلبًا ضروريًا لمجابهة تحديات الداخل والخارج بالمغرب في القرن الثامن عشر الميلادي، وهذا ما حاول السلطان المولى إسماعيل تحقيقه، إلا أن الطريقة التي تم بها تكوين "جيش العبيد" بالذات لم ترض جهات مغربية منذ البداية، كما أن عدم تنظيم وراثة العرش ساهم في تدخل فرق الجيش بشكل سلبي في أمور الحكم. إن فكرة تأسيس "جيش العبيد" من قبل المولى إسماعيل جاءت بسبب عدم فاعلية جيش "الودايا" في ساحة القتال[٣٩]، وحسب رواية السملالي فإن السلطان قام بجمع "جيش العبيد" لما كثر النهب والفتن بين قبائل المغرب ولما علم أن ما عنده من جيش لا يكفيه للحركة إليهم[٤٠]، وبتشاور أو باقتراح من القاضي أبي عبد الله محمد بن العياشي أخذ في تكوين هذا الجيش[٤١].

ومع أن هذه الفكرة ليست جديدة عند العلويين فقد عمل بها العباسيون ومماليك مصر في العصر الوسيط و العثمانيون و الصفويون في العصر الحديث، بل اعتمدت الأسر الحاكمة في المغرب منذ المرابطين حتى السعديين على فرق من العبيد السود[٤٢]؛ إلا أنها لقيت منذ البداية معارضة نخب مغربية ومنها عدد من فقهاء مدينة فاس الذين عارضوا مسألة تمليك العبيد[٤٣]، وهنا يحكي الضعيف أن السلطان وبخ هؤلاء عبر رسالة مؤرخة بـ ١٤ جمادى الأولى سنة (١١١١هـ/١٦٩٩م) عند عدم موافقتهم على مشروعه[٤٤]، ونقل لنا القادري مشاهد درامية عن محنة فقيه معارض وهو الفقيه عبد السلام جسوس[٤٥].

ولم تمنع الأصوات المعارضة أن تصبح هذه الفكرة واقعًا ملموسًا على الأرض فتأسس جيش العبيد وبلغ تعداده ١٥٠٠٠٠ مجندًا وانضاف إلى باقي فرق الجيش المغربية الأخرى[٤٦] وهي: جيش الودايا وجيش النار[٤٧] ورجال البحر ومقاتلو القبائل الذين كان السلطان يستعين بهم عند الضرورة[٤٨].

في حياة السلطان المولى إسماعيل كان على كل قبيلة أن تدفع أعشارها في قلعتها العسكرية لإعالة الجيش، كما كان السلطان يطالب المدن الكبرى بتجنيد فرق من سكانها أو المساهمة ماديا في الحملات العسكرية عند الحاجة[٤٩]، ومباشرة بعد وفاته أصبح التحكم في الآلة العسكرية الخطيرة التي صنعها أمرًا عسيرًا. فمن جهة لم يحدد السلطان في حياته خليفته من بعده ولا نظم وراثة العرش بوثيقة مكتوبة، وفي هذا الصدد يحكي ابن زيدان أنه عند اقتراب أجل هذا السلطان استشار وزيره اليحمدي حول من يصلح للحكم من بعده من أولاده، فأجابه الوزير بأنه ليس للسلطان ولد، ولم يعهد لأحد بعدها[٥٠]. وكان من نتيجة ذلك أن ولاء قادة الفرق العسكرية لم يعد لحاكم واحد بل تفرق بتعدد البيعات وتعدد الأمراء المتصارعين على العرش، فخلال الثلاثين سنة التي أعقبت وفاة هذا السلطان أُخذت البيعة لحكم المغرب لسبعة من أبنائه، بعضهم بويع وخلع أكثر من مرة[٥١] حتى شبه ابن زيدان حالهم وتنافسهم على السلطة بحال ملوك الطوائف بالأندلس[٥٢]، وهو مصيب في ذلك بدليل أنه بعد ٣٠ سنة من وفاة المولى إسماعيل عقدت بيعة الحاكم في المغرب ١٢ مرة[٥٣]، ولم تعدّ ما تعانيه السلطة المركزية من تدهور خاف على القبائل هي الأخرى وصورته مثلاً وصف ابن حمادوش الجزائري القبائل العربية بمنطقة الغرب أنها شرعت لنفسها عمليات السلب بعد المواجهات الدامية بين السلطان مولاي عبد الله من جهة والمولى المستضيء[ابن السلطان المولى إسماعيل] وباشا تطوان أحمد الريفي من جهة ثانية سنة١٧٤٣م، عندما كانت تقول "أن الوقت لا سلطان له، فمن فعل شيئا فاز به"[٥٤].

أصبح امتثال القادة العسكريين لأوامر السلطان" القائم" ضربًا من الماضي وهذا ما عبر عنه الناصري بأسلوب واضح وهو يصف شغب جيش "الودايا" قائلاً إن أحكام الملوك من أولاد المولى إسماعيل لم تكن تسري عليهم سيما مع ما حازوه من شرف الخؤلة للسلطان مولاي عبد الله[٥٥]. وفي ظل هذا الوضع تبادلت الفرق العسكرية الاصطفاف شكليًا وراء الأمراء المتصارعين على السلطة لمن يدفع أكثر، ولما فرغت خزائن الحكام أو لم تعد كافية تشوفت هذه الفرق لأرزاق الأهالي.

فعناصر الجيش الذين انقطعت عنهم الزكوات والأعشار التي كانت القبائل تؤديها لهم، فارقوا قلاعهم وخرجوا ناشرين الرعب والنهب بين المدن والقبائل[٥٦]، ومن تجلياته على سبيل المثال نذكر أعمال النهب والقتل التي تعرضت لها مدينة فاس في شهر محرم وموسم عاشوراء من سنة (١١٤٠هـ/١٧٢٧م) من قبل "جيش الودايا"[٥٧]، وقيام "فرقة العبيد" بنهب مدينة مكناس في عهد السلطان المولى المستضيء في٢٣ ربيع الثاني (١١٥١ه/١٧٣٨م). ونالت القبائل نصيبها من مخلفات فقدان السيطرة على جيش "العبيد" و جيش "الودايا"، فالجيش الأول بدأ يتحرك بين الأقاليم بتعداد وصل إلى ٦٠ ألف فارس، ليصبح بذلك مصدر فساد وجور وعبث بالخلائق ونهب للقبائل، كما يقول الضعيف، أما الثاني فشرع في قطع الطرقات ونهب القوافل[٥٨]، وكان رد فعل القبائل سريعًا وانتقاميًا هو الآخر، إذ بمجرد ما سمعت بمغادرة الجيش لقلاعه عند وفاة المولى إسماعيل حتى قامت بنهب أبوابها وأخشابها، مثلما وقع بـ"مشرع الرمل" من قِبل قبيلة "بني حسن"[٥٩].

ومن الصور التراجيدية و الخطيرة الأخرى ذات المعنى في تاريخ جيش العبيد بالمغرب ما انتهى إليه حاله في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، ذلك أن هذا الجيش كان ضعيفا للغاية عشية تولية هذا السلطان، فأفراده "كانوا على غاية من سوء الحال والاستكانة لغلبة البربر، إذ كانوا يتخطفون أولادهم من البحائر والجنات ويبيعونهم في قبائلهم[٦٠]" كما يقول الناصري، لكن رغم ذلك ستعود عناصر فرقة "القشارية" للإضرار بالرعية في الأموال والحريم والغلل وقت تنقلهم حتى صار الفساد عندهم عادة "وكل منزل يبيتون به يكلفون أهله بما لا يطاق، فإذا كلمهم أعيان الرعية في الكف والرفق يقولون: هذه عادة لا يمكن تركها وهي قوانين المملكة، فلما بلغ حالهم للسلطان.. لم يسعفه إلا إسقاطهم من الجندية"[٦١].

أدت الدولة المغربية إذن وخصوصًا في المرحلة (١٧٢٧-١٧٥٧) ضريبة سلوك جيشها، فقُتل رجالات الإدارة وخصوصًا الباقون من الدولة الإسماعيلية، وخسرت الدولة بذلك رصيدًا مهمًا في تجربة إدارة البلاد، وزُرع الخوف مرة أخرى في نفوس الرعية التي قدمت ضحايا في الأرواح دون مبرر إلا لتقاوم جيشًا خرج عن السيطرة، جيشا كان يكتب دون علمه أسطر نهايته يومًا بعد يوم في هذه المرحلة التاريخية.

ثالثًا: تسديد ضريبة إرث العثمانيين وحكمهم لبلاد قبلية

هل كان لجيش إيالة الجزائر أن يقوم بما قام به بحق رجالات الدولة ببلده بمعزل عن التأثير العثماني، التاريخي أو المباشر؟ هل كانت سياسة قادة الحامية العسكرية بالإيالة امتدادا لسياسة استهداف رجالات الدولة بإستانبول من قبل الإنكشارية؟ أم أن وجود التشابه في سلوكيات الجيش بين المركز والإقليم لا يفيد بالضرورة أن هناك تصريفًا لسياسة عسكر إستانبول اتجاه الحكام إلى النواحي؟

وُصف الجيش العثماني بأنه كان أداة للحرب والحكم معا بحكم النشأة العسكرية للدولة العثمانية[٦٢]، وعلى مستوى الولايات/ الإيالات العربية، كان قائد الحامية العسكرية آغا الانكشارية و نوابه من كبار القادة؛ يحدون من سلطة الوالي، لأن هؤلاء لم يكن يعينهم هذا الأخير وإنما يعينهم السلطان، من جهة أخرى دأبت هذه الدولة في فترة حكم الباشوات على إرسال ولاة غرباء لم تكن مدة تعيينهم تتجاوز ثلاث سنوات[٦٣]، وقد ترتب على التغيير المستمر للولاة أن زاد نفوذ جنود الانكشارية في هذه البلدان[٦٤]، فاختل التوازن الذي أقامته الدولة العثمانية بين سلطة الولاة و الحاميات العسكرية و القوى المحلية. لكن الانتقال بين حالة التوازن واللاتوان في العلاقة بين الإنكشارية -أو بين القوة العسكرية عمومًا – والحكام في إيالة الجزائر لم يكن فجائيًا، بل جاء نتيجة تطور تاريخي متأثرا بتطور السياسة العثمانية في علاقاتها مع ولاياتها/ إيالاتها.

لوحظ فعلاً أن الحكام العثمانيون كانوا يسيطرون على الجيش والبحرية بالجزائر في مرحلة حكم الولاة (١٥١٨-١٥٨٧)؛ لكن الأمور بدأت تتغير في مرحلة حكم الباشوات (١٥٨٨-١٦٧١)[٦٥] التي شهدت أحداثا خطيرة مثل قرار الانكشارية عام ١٦٥٩م تجريد باشا الإيالة من سلطاته لتكون السلطة التنفيذية بيد رؤساء الأغوات، ورغم أن بعض الباشاوات خلال هذه الفترة حاولوا كسر شوكة الانكشارية بالاستعانة عليهم ببعض زعماء القبائل فإنهم لم ينجحوا[٦٦]، وفي أواخر هذه المرحلة فقد الباشاوات سيطرتهم الفعلية على فرق الانكشارية التي مالت إلى تأييد عناصر البحرية، ونجح رجال البحر هؤلاء في فرض أحد عناصرهم على قيادة الحامية وصار يحمل أحد ألقابهم وهو "الداي". وحملت مرحلة حكم الدايات (١٦٧١-١٨٣٠) تطورات أكثر خطورة مما سبق في علاقة العسكري بالسياسي. لقد استطاع قادة البحر الإمساك بمقاليد الأمور بالإيالة مُولين أحدهم واليًا على الجزائر بلقب "الداي" على أن يتولى السلطة مدى الحياة[٦٧].

ولسائل أن يسأل الآن كيف تأتى لفرقة الإنكشارية بالدرجة الأولى ورجال البحر ثانية أن ينتزعوا السلطة السياسية بالجزائر، هل العملية تمت عبر مؤسسات موجودة أم عبر أخرى مستحدثة لتحقيق هذا الغرض أم بفرض الأمر الواقع؟ تقتضي الإجابة على هذا السؤال تبيان الاختصاصات الأصلية لفرقتي الإنكشارية والبحرية منذ تأسيس الإيالة وتتبع تطور هذه الاختصاصات.

تشكلت القوة العسكرية الجزائرية في العهد العثماني من الأوجاق وهم الجنود الأتراك (الإنكشارية[٦٨])، لأن الإيالة كانت تحصل على جندها من عملية التجنيد التي كانت تجري في كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية الأوربية والأسيوية[٦٩]، وشكلت الفرق المرسلة إليها من المركز ما عُرف بأوجاقات الجزائر واعتبرت المسؤولة عن الدفاع عن البلاد وتحقيق الأمن بها، وكان رؤساؤها يؤلفون الديوان[٧٠] ويتحكمون في انتخاب داي الإيالة. أما رجال البحرية فكانوا يتحكموا في القرصنة التي شكلت موردا هاما للخزينة[٧١]، كما تشكلت هذه القوة العسكرية من فرق القولوغلي وهم الكراغلة، أي أبناء الوجاق من النساء الجزائريات الذين التحقوا بالجيش[٧٢]، فضلاً عن استعانة الحاكم الجزائري بمقاتلي القبائل أو ما عُرف بقبائل المخزن والذين مثلوا الجيش الاحتياطي[٧٣].

صراع العسكر مع الحاكم بإيالة الجزائر وما خلفه من أزمة داخل الدولة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي لا يمكن تجريد إستانبول من مسؤوليتها في ذلك. فالوصفة التي اعتمدتها لتسيير الإيالة منذ ضمها للجزائر في القرن السادس عشر الميلادي كانت وصفة قُصد منها إحداث توازن للسُلط بين الإداري والعسكري تجنبًا لاستقلال الوالي أو الباشا فيما بعد بالإيالة، لقد خصت إستانبول مند البداية العسكري بمهام من اختصاص السياسي تقليديا، ومع توالي السنين زحف العسكري على ما تبقى من مهام السياسي سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر عبر التحكم في تنصيب الداي.

كان على الداي الذي أظهر عدم خضوعه الكامل للسلطان العثماني[٧٤] بل أظهر العصيان والتحدي له[٧٥]، أن يختار سندًا بديلاً للاستمرار في ممارسة مهامه على رأس السلطة بالإيالة، ولم تكن هذه الجهة طرفًا آخرًا غير قادة الجيش عبر إرضائهم بالأموال الطائلة وهو الذي يعاني من الضائقة المالية[٧٦]، لأن الدولة لم تكن تهتم كثيرًا بالموارد الأخرى مثل الزراعية

والصناعية وإنما كانت الحصة الكبيرة من خزينتها مشكلة من عائدات الضرائب والقرصنة[٧٧] التي تراجعت مداخيلها بشكل كبير في القرن الثامن عشر الميلادي[٧٨]. لذلك بقيت الضرائب هي الحل المخلص له. و يبقى السؤال: هل من دافع للضريبة الكافية لتسيير الدولة وإرضاء قادة الجيش مع العلم أن دولة الدايات بالجزائر في هذه المرحلة لم تكن تبسط سيطرتها على كل التراب الجزائري، فسلطتهم الفعلية لم تكن تشمل سوى سدس مساحة الجزائر[٧٩]، كما لم تكن حكومة الإيالة تتوفر على قوة كافية تمكنها من حكم كل البلاد، فسلطانها كان قاصرًا على عاصمة البلاد وعلى عواصم الأقاليم وهي بجاية وقسنطينة ولمدية ومازونة وتلمسان، ولم تكن تعرف -برأي أحد المهتمين- ما هو خارج العاصمة إلا في الجبايات[٨٠] التي كان فساد تحصيلها يثير سخط الأهالي، خصوصًا إذا علمنا اعتمادها في ذلك على نظام الالتزام[٨١]، كما أن عددًا من القبائل لم تكن تخضع لسلطة الحكام نظرًا لقوتها واتحاداتها القبلية ونفاذ شخصية زعمائها، وهو ما مكنها من التمتع بحكم ذاتي، فضلاً عن وجود اتحادات قبيلة تكونت على أساس ديني تمتعت فيها المتصوفة بنفوذ كبير لدرجة جعلت أحد المهتمين يخلص للقول أن ثلثي الجزائر في القرن الثامن عشر الميلادي كان يشرف عليه زعماء التصوف، فضلاً عن وجود مجموعات بشرية أخرى حماها بعدها في الأنجاد أو في مناطق الجنوب والجبال الوعرة من الخضوع للسلطة المركزية[٨٢]، أما القبائل الأخرى المحسوبة خاضعة إداريًا فلم يكن من السهل على جيش الداي استخلاص جباياتها، ولنا في معارك منطقة القبايل ضده أفضل مثال على هذه الصعوبة[٨٣].

تقاتلت إذن ثلاثة أطراف بالجزائر خلال القرن الثامن عشر الميلادي: الحاكم وزمرته (أو الكادر الإداري للدولة)، والجيش (أو القوة الأمنية في الدولة ودرع البلاد)، والرعية (أو القوة الإنتاجية للبلاد)، وكان الخاسر هو الدولة الجزائرية.

خَاتِمَةٌ

أشير مرة أخرى أن قصدي من هذه المساهمة ليس إخفاء أو التقليل من الأدوار المهمة التي قامت بها الجيوش النظامية لكل من المغرب والجزائر وليبيا في القرن الثامن عشر، ولكني أردت لفت الانتباه لما هو غير طبيعي في هذه الأدوار، لقد حاول هذا البحث توثيق عبث الجيش النظامي بالسلطة المركزية بالمغرب والجزائر في فترات عريضة من القرن الثامن عشر الميلادي، وحاول تقديم تفسير لما حصل وتوصل إلى ما يلي:

- أن استهداف الجيش للحاكم المغاربي كان أكثر قسوة في الجزائر منه في المغرب، فإذا كان السلطان المغربي موضوعًا للمطاردة أو المبايعة أو العزل عن الحكم، فإن مصير داي الجزائر كان في أكثر الحالات هو القتل (قتل ١٤ دايا من مجموع ٢٧ دايا)، وبذلك يمكن القول إن حامية الجزائر كانت تعيد تجربة إنكشارية إستانبول كما هي تقريبا، عكس واقع الحال في المغرب التي كانت إعادة نسبية.
- أن السلطة المركزية المغربية لم تستفد من النظام السياسي المغربي (أي النظام السلطاني الوراثي والمستقل عن العثمانيين) وهو نظام كان ممكن أن يُفوت على الجيش فرصة العبث بالسلطة المركزية أمام اتفاق العائلة الحاكمة على أمير محدد وقوي لحكم البلاد، عكس الجزائر التي تميزت سلطتها المركزية بالتعقيد منذ البداية وبمنح الحامية العسكرية صلاحيات سياسية وعسكرية واسعة فضلاً عن "التبعية" لإستانبول.
- أن الوضع الداخلي (عصيان القبائل وصراعها فيما بينها) والخارجي (تهديد سيادة البلدين من قبل القوى الأوربية إسبانيا وفرنسا على وجه الخصوص) تطلب بناء قوة عسكرية وازنة لمجابهتها، وهو ما فرض توفير موارد مالية كبيرة كُلفت رعية تعتمد على النشاط الفلاحي التقليدي بتوفيرها في شكل جبايات أمام محدودية موارد البلدين، ثم كُلف الجيش بجمعها ليصبح بذلك يهيئ أسباب الانتقام منه شعبيًا عندما تضعف السلطة المركزية ويصبح عناصره موضوعًا للقتل والاسترقاق وذلك إلى أن يأتي حاكم قوي فيحل الجيش المتمرد والضعيف ويعمد لبناء جيش آخر والانطلاق مرة أخرى من الصفر.
- ضيع صراع الجيش مع رجال الحكم والرعية في المغرب والجزائر رصيدًا قويًا في الكادر الإداري والأمني والقوة الإنتاجية للدولة في القرن الثامن عشر الميلادي، فلم يستفيد البلدان بذلك من التراكم التاريخي في بناء مؤسساتهما وفي تنمية شعوبهما.

الاحالات المرجعية:

(١) ثريا برادة، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر** (الرباط: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ١٩٩٧).
(٢) مصطفى الشابي، **الجيش المغربي في القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٩١٢)**، ط١٠ (مراكش: المطبعة والوراقة الوطنية، ٢٠٠٨).
(٣) عبد الحق المريني، **الجيش المغربي عبر التاريخ**، ط٥ (الرباط: دار نشر المعرفة، ١٩٩٧).
(٤) عبد العزيز بنعبد الله، **الجيش المغربي عبر العصور** (الرباط: المطبعة والمكتبة العالمية، ١٩٨٦).
(٥) حنيفي هلايلي، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني**، ط١٠(عين مليلة: دار الهدى، ٢٠٠٧).
(٦) محمد بوشنافي، **الجيش الإنكشاري خلال العهد العثماني في الجزائر، ١٧٠٠-١٨٣٠** (الجزائر: دار كوكب العلوم للنشر والتوزيع والطباعة، ٢٠١٦).
(٧) عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، ط١٠، ج٤(القاهرة: شركة ناس للطباعة، ٢٠٠٦)، ص١٦٧.
(٨) عبد الرحمان بن زيدان، **المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف**، ط١٠(الدار البيضاء: مطبعة إديال، ١٩٩٣)، ص٣٣٨.
(٩) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، محمد حجي وإبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق (مشرفون)، ج٧(الرباط: وزارة الثقافة والاتصال، ٢٠٠١)، ص٢٠.
(١٠) أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف**، رشيد الزاوية (محقق)، ط١، ج١ (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٢)، ص٤١٤.
(١١) محمد بن عبد السلام الضعيف، **تاريخ الدولة السعيدة**، أحمد العماري(محقق)، ط١(الرباط: دار المأثورات، ١٩٨٦)، ص١١٠.
(١٢) العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، عبد الوهاب ابن منصور(مُراجع)، ط٢، ج٢ (الرباط: المطبعة الملكية، ١٩٩٣)، ص٣٦٧.
(١٣) عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، علي عمر (محقق)، ط١، ج١٠ (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٨)، ص٣١٤-٣١٥.
(١٤) محمد بن الطيب القادري، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، هاشم العلوي القاسمي (محقق)، ط١ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٣)، ص٣٣٥.
(١٥) الفيلالي، ص ٢٧٨-٢٩٩.
(١٦) الضعيف، ص ٢١٩-٢٢٠.
(١٧) ابن زيدان، **الإتحاف**، ١٧٩/٣.
(١٨) الضعيف، ص ١٢٠.
(١٩) السملالي، ٢٥٩/٧-٢٦٠.
(٢٠) الضعيف، ص٢٢١-٢٢٢.
(٢١) برادة، ص٩٢-٩٣.
(٢٢) ابن زيدان، **الإتحاف**، ٣١٨/١-٣١٩.
(٢٣) برادة، ص٩٣.
(٢٤) الضعيف، ص١٠٥.
(٢٥) الضعيف، ص ١٢٠.
(٢٦) الفيلالي، ص٢٩٣-٢٩٥.
(٢٧) الناصري، ص٢١-٦٣.
(٢٨) ابن زيدان، **الإتحاف**، ٢٠٧/٣.
(٢٩) الفيلالي، ص٤٠١-٤٠٢.
(٣٠) عزيز سامح التر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية**، محمود علي عامر(مترجم)، ط١ (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٨٩)، ص٤٦٢-٤٧٤.
(٣١) شوقي عطا الله، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب**، ط١(القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٧)، ص١٠٥.
(٣٢) التر، ص٥١٥.
(٣٣) مبارك بن محمد الهلالي الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج٣ (الجزائر: مكتبة النهضة الجزائرية، ١٩٦٣)، ص٢٢٥.
(٣٤) التر، ٢٥٣-٤٧٨-٥٢٢ -٥٢٤.
(35) Henri Delmas de Grammont, **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)** (Paris: Leroux, 1887), p٣٢٠.
(٣٦) التر، ص٥٥٣.
(٣٧) محمد القبلي وآخرون، **تاريخ المغرب، تحيين وتركيب**، (الرباط: المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، ٢٠١١)، ص٤١١.
(٣٨) الزياني، ص ٤١٠. برادة، ص٨٥.
(٣٩) القبلي، ص٤١١.
(٤٠) السملالي، ٣٥/٦-٣٦.
(٤١) محمد بن العياشي، **جني الأزهار ونور الإبهار من روض الدواوين المعطار**، عبد الهادي التازي (محقق)، (مكناس: جامعة المولى إسماعيل، ٢٠٠٨)، ص٥.
(٤٢) القبلي، ص٤١١.
(٤٣) ابن العياشي، ص٠٧.
(٤٤) الضعيف، ص٧٩.
(٤٥) محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**، محمد حجي (محقق ومنسق)، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦)، ص١٩٤٠-١٩٤١.
(٤٦) يسمى كذلك جيش "البواخر"(البخاري) أو الحرس الأسود: المريني، ص٩٥ إلى٩٧.
(٤٧) جيش "الوداية"، كان معظم عناصره من عرب معقل ومن أهل "السوس" ومن "المغافرة". أما "جيش النار" فتألف من المغاربة والنازحين من الأندلسيين ومن بعض عناصر اللفيف الأجنبي الذين وقعوا في الأسر أو تطوعوا في صفوف الجيش: نفسه، ص٩٥ إلى٩٧.
(٤٨) عبد الكريم بن موسى الريفي، **زهرة الأكم**، آسية بنعدادة (محققة)، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٢)، ص٢٣. محمد شقير، **تطور الدولة في المغرب: إشكالية التكوين والتمركز والهيمنة من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن العشرين**، (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ٢٠٠٢)، ص٢٣.
(٤٩) محمد جادور، **مؤسسة المخزن في تاريخ المغرب**، الدار البيضاء: منشورات عكاظ، ٢٠١١)، ص٩٢-٩٨.
(٥٠) عبد الرحمان بن زيدان، **المنزع اللطيف**، ص٥٥. السملالي، **الإعلام**، ج٢، ص٣٦٧. وجاء عند محقق **التقاط الدرر** أن المولى إسماعيل لم يبث فيمن يخلفه. ينظر: محمد بن الطيب بن عبد السلام القادري، **التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر**، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، بيروت، دار الآفاق الجديدة،١٩٨٣، ص٣٣٤. الفيلالي، ج٤، ص٢٥٩. وخلص جادور أن وراثة العرش من

الأدارسة إلى المولى إسماعيل كانت تنطلق من الصفر، وأورد مقولة لهذا الأخير في رسالة له إلى علماء الأزهر جاء فيها "فصرنا نحن حيث أقامنا الله ونصبنا... نبتدئ السيرة والطريقة من أولها: جادور، ص٤٥١-٤٥٢-٤٥٣. لكن الزياني يقول إن المولى إسماعيل أقر بولاية العهد لأحمد الذهبي بخلاف ما في كتاب الجيش العرمرم. العباس بن إبراهيم السملالي، **الإعلام**، ج٢، ص٣٦٨-٣٦٩. ويقول ابن زيدان أن الزياني اختلق ولاية العهد للذهبي: ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**، ج١، ص٣١٤-٣١٥.

(٥١) بويع أحمد الذهبي في يوم وفاة والده أي يوم ٢٨ من عام ١١٣٩: السملالي، **الإعلام**، **ج٢**، ص٣٦٧. وعند الضعيف: "بايعه الوصفان بمكناس مع أعيان المدينة وأشرافها ووفد عليه أعيان فاس وعلمائها وأشرافها بالبيعة إجماعا". ينظر: الضعيف، ص١٠٣. وبعده بويع المولى عبد الملك في رمضان ١١٤٠هـ، وهذه البيعة جاءت بعد بيعة الذهبي الأولى التي دامت عاما واحدا و٦ أيام، كما أن عبد الملك كان واليا على عمالة السوس وكان قبلها قد أعلن نفسه ملكا بها لما بلغه خبر وفاة والده، ولما وصلته بيعة العبيد له بعد خلع الذهبي انتقل إلى مكناس قادما من سوس، وجددت له البيعة بها في آخر رمضان ١١٤٠هـ ووفدت عليه وفود أقطار المغرب بالبيعة والتهنئة بالخلافة، نفسه، ص١٠٥ إلى١٠٨.

(٥٢) عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**..م.س، ص١٩٥.

(٥٣) عزيز سامح التر، ص٤٩٧.

(٥٤) عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **رحلة لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال**، أبو القاسم سعد الله (محقق)، ط٢، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٥)، ص ٧٧.

(٥٥) الناصري، ٢٠/٧.

(٥٦) برادة، ص٩٠-٩١.

(٥٧) ابن زيدان، **الإتحاف**، ١٢٣/١. القادري، **التقاط الدرر**، ص٣٤٥.

(٥٨) الضعيف، ص١٢١-١٢٩-١٣٧.

(٥٩) الزياني، **البستان**، ص٣٤٩.

(٦٠) الناصري، ١٠/٧.

(٦١) الزياني، **البستان**، ص ٤١٠.

(٦٢) أحمد زكريا الشلق، **العرب والدولة العثمانية من الخضوع إلى المواجهة ١٥١٦-١٩١٦**، ط١، (القاهرة: مصر العربية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢)، ص٦٩.

(٦٣) الشلق، ص٦٩-٧٠-١٣٢.

(٦٤) عطا الله الجمل، ص١٣٢.

(٦٥) الشلق، ص٧١-١٣١.

(٦٦) عطا الله الجمل، ص١٠٢-١٠٣.

(٦٧) الشلق، ص١٣١-١٣٢.

(٦٨) **الإنكشارية**: هي كلمة عربية وقد حرفت عن الكلمة التركية عند ترجمتها وهي" يني تشاري" وتعني الجيش الجديد، وقد أطلقها العثمانيون على نوع من الجنود الجديدة أي مجموعة من فرق المشاة النظاميين التي كونها السلطان أروخان في القرن الرابع عشر الميلادي، وهم جنود مدربون على أعلى مستوى من التقدم بالنسبة لزمنهم: أماني بنت جعفر المغازي، **دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية**، ط١، (القاهرة: دار القاهرة، ٢٠٠٧)، ص٢٢-٢٣.

(٦٩) محمد خير فارس، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، ط٢ (بيروت: مكتبة دار الشرق، ١٩٧٩)، ص٨١.

(٧٠) شوقي عطا الله الجمل، ص ١٠٤-١٠٥.

(٧١) فارس، ص٨٤-٨٥-٩٤-٩٥.

(٧٢) الهلالي، ص ٢١٧.

(٧٣) هلايلي، ص٨٥.

(٧٤) بدأ الداي يكتفي بإرسال الهدايا لإستانبول ويتسلم مقابله فرمان تعيينه من السلطان العثماني: فارس، ص٧٢.

(٧٥) كما ظهر ذلك مثلاً في رفض الداي عبدي باشا توقيع الصلح مع النمسا عام ١١٣٧هـ/ ١٧٢٤م كما طلبت منه إستانبول ذلك: عزيز سامح التر، ص٤٧٨. أحمد العماري، **توات في مشروع التوسع الفرنسي: من ١٨٥٠ إلى ١٩٠٢**، ط١، (منشورات كلية الآداب، فاس، ١٩٨٨)، ص١٠٤.

(٧٦) عزيز سامح التر، ص٤٦١.

(٧٧) شوقي عطا الله الجمل، ص١٠٦.

(٧٨) تراجعت القرصنة بسبب توقيع الدولة العثمانية وباسم إيالات الغرب لصلح كارلوفيتش ١٦٩٩م: يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، المجلد الأول، (إستانبول: مؤسسة فيصل للتمويل، ١٩٨٨)، ص٥١٦-٥١٨.

(٧٩) محمد خير فارس، ص٧٥.

(٨٠) الفيلالي، ص٤٠٣-٤٠٤.

(٨١) فارس، ص٩٧.

(٨٢) **نفسه**، ص٧٥ إلى ٧٨.

(٨٣) تمكنت هذه القبائل مثلاً من هزم جيش الداي سنة 1767م وقتل قائد جيشه وعشرات من الإنكشارية: التر، ٥٠٩-٥٢٦. ينظر كذلك حملة باي الغرب على الغرب الجزائري وإخضاعه وتقدير حجم الضرائب عليه: أحمد بن هطال التلمساني، **رحلة محمد باي الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي ١٧٨٥**، محمد بن عبد الكريم (مقدم)، ط١، (أبو ظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص٣٥-٩٢.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

باجة وظهيرها الجبلي قبل الاستعمار
تقنيات تشكيل النفوذ في البلاد التونسية
من خلال نموذج محلّيّ (١٨٤٧-١٨٧١)



د. محمد البشير رازقي
باحث ما بعد الدكتوراه في التاريخ والآثار والتراث
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

مثّلت قيادة باجة خزّانا استراتيجيّا للسلطة المركزية في الإيالة التونسية، خزّانا بشريّا وغذائيّا وطبيعيّا كمصدر أساسيّ للمواد الأوليّة والمنتجات الطبيعيّة. وقد اخترنا لعملنا هذا عنوان: "باجة وظهيرها الجبلي قبل الاستعمار: تقنيات تشكيل النفوذ في البلاد التونسية من خلال نموذج محلّي (١٨٤٧ - ١٨٧١)". اعتمدنا في هذا المقال على وثائق أرشيفية محفوظة بالأرشيف الوطني التونسي، ووقع اختيارنا على الفترة الفاصلة بين ١٨٤٧ و١٨٧١ لسببين: أوّلاً الوثائق المدروسة تبدأ خلال سنة ١٨٤٧، وثانيًا توقّفنا مع سنة ١٨٧١ لفهمنا ومعرفتنا أنّ عشريّة سبعينات القرن التاسع عشر مختلفة عمّا قبلها وهي التي مهّدت لاحتلال البلاد التونسية من قبل فرنسا، ولهذا فإنّ العشرة سنوات السابقة لحدث الاستعمار تحتاج لدراسة مستقلّة. ودراستنا هذه هي تمهيد لها. وقد تبيّن لنا بوضوح تميّز ظهير باجة الجبلي بصعوبة التضاريس الطبيعيّة. وقد نتج عن هذا نشأة شخصيّة قاعديّة غير منصاعة للسلطة ذات خصائص جغرافيّة منيعة. كما شكّلت الدولة المركزيّة جملة من الصور النمطيّة لصدّ مقاومة أهل الجبال للدولة المركزيّة، من ضمنها "المفسدين" وأهل البغي والمحاربين. شُكّ هذا الوصم من مُعجم فقهي عريق في البلاد التونسيّة لا يثق في "أهل الجبال" مع تعارض مصالحهم مع "السلطان" والسلطة الحاكمة، وهي سلطة مدينيّة بامتياز. وقد اعتمدت الدولة في هذا الإطار على وظيفة القائد كنائب للباي على عمل باجة. تعرّض القائد لصعوبات عديدة منها توجّس السكان المحليين منه، وعدم انصياع الشيوخ له بصفة كاملة، ومعارضة عدد من أعوان الدولة له وخاصة حالمي الرتبة العسكريّة. وساهم الفساد المالي والإداري مع الظرفيّات المناخيّة والكوارث الطبيعيّة في إنتاج سنوات أزمة بامتياز مرّت بها قيادة باجة من أربعينات القرن التاسع عشر إلى سبعينياته.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ أغسطس ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٢٨ أغسطس ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

يوسف بن بشر؛ الأراضي الفلاحية؛ وظيفة القائد؛ السلطة المركزية؛ تاريخ تونس الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2022.248752

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد البشير رازقي، "باجة وظهيرها الجبلي قبل الاستعمار: تقنيات تشكيل النفوذ في البلاد التونسية من خلال نموذج محلّي (١٨٤٧-١٨٧١)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٥٤ – ١٦٧.

Corresponding author: Rezgui.medd@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدّمَةُ

مثّلت قيادة باجة خزّانا استراتيجيّا للسلطة المركزية في الإيالة التونسية، خزّان بشريّ وغذائيّ وطبيعي كمصدر أساسيّ للمواد الأوليّة والمنتجات الطبيعيّة. ولعبت قيادة باجة دور حلقة الوصل بين مدينة تونس والشمال الغربي الحبوبي الغنيّ، منبعا ضروريًا للغذاء والماء والرجال، والشريط الساحلي المهمّ الرابط بين طبرقة (الحدود الجزائريّة، وصولاً إلى سواحل بنزرت[١].

وقد أثبتت دراسات عديدة العلاقة المتوترة بين ظهير باجة الجبلي والسلطة المركزيّة[٢]، وقد استفدنا من مجملها، ونرغب في هذا المقال أن نفهم جوانب أخرى من هذه العلاقة خاصة على مستوى إيجاد نمط بيّن يربط بين السلطة المركزية و"أهل الجبال" في باجة. أي محاولة تبيّن النظام المعرفي والمعيشي الذي ساهم في تأسيس التوتّر بين تمثّلين مختلفين لطريقة العيش والحكم.

اعتمدنا في هذا المقال على وثائق أرشيفية محفوظة بالأرشيف الوطني التونسي، ووقع اختيارنا على الفترة الفاصلة بين ١٨٤٧ و١٨٧١ لسببين: أوّلاً الوثائق المدروسة تبدأ خلال سنة ١٨٤٧، وثانيًا توقّفنا مع سنة ١٨٧١ لفهمنا ومعرفتنا أنّ عشريّة سبعينات القرن التاسع عشر مختلفة عمّا قبلها وهي التي مهّدت لاحتلال البلاد التونسية من قبل فرنسا، ولهذا فإنّ العشرة سنوات السابقة لحدث الاستعمار تحتاج لدراسة مستقلّة. ودراستنا هذه هي تمهيد لها. طرحنا في هذا المقال إشكاليّة أساسيّة وهي: لماذا وقع الانسداد السياسي بين السلطة الحاكمة المركزية في تونس وبين سكّان جبال باجة؟

أولاً: باجة المُنتجة للثروة

لا يمكن لنا فهم قيادة باجة بدون موضعتها في إطارها الجغرافي وظهيرها الريفي. وصف محمد بيرم الخامس مدينة باجة بكونها "يتّبعها جبال تشتمل على قبائل شتّى غير خاضعين حقيقة للحكومة، ممتنعين بجبالهم الوعرة، وكثيرا ما تُرسل معسكرات لأخذ الضرائب منهم. وكثيرًا ما يؤدّون إليها مقدارًا من غير تحقيق لعددهم وكسبهم. وهم: عمدون ونفزة ومقعد وخمير والشيحية"[٣].

تميّزت قيادة باجة بإنتاجها الحبوبي الوافر ووفرة أغنامها، مع عدم اعتناء أهلها بزراعة الزيتون، حيث أنّ "باجة ليس فيها أمناء الزيتون...أهل هذا الوطن (باجة) ليس لهم اعتناء في غرس الزيتون"[٤]. وقد فرضت السلطة الحاكمة مجموعة من الضرائب على الظهير الريفي لمدينة باجة، وتنوّعت الضرائب بين المالية والمرتبطة بالمنتوجات الفلاحيّة. وقد وصلت أخبار لقائد باجة عن رفض عدد من العروش، فطناسة والجلاجلة ونفزة، دفع نصيبهم من القمح والسمن متعلّلين بصعوبة حالهم وعدم قدرتهم على توفير المقادير المطلوبة[٥]. وقد ارتكزت الحياة الفلاحية والمعاشيّة لسكّان "الجبل" بباجة على نمط مخصوص. فعروش الجبل تنزل إلى السهول وسفوح الجبال زمن الخريف (وقت حراثة الأرض) وفي الربيع لفلاحة الأرض أو رعي الأغنام، ولا يبقى في منازلهم بالجبل "إلاّ القليل". ويرجعون إلى جبالهم زمن الحرب والخوف والتخوّف من السلطة أو في الشتاء[٦]. واستفاد من ناحية أخرى عدد من عروش باجة، خاصة عرش خمير، من اقترابهم من الحدود الجزائريّة. فقد كان عرش خمير مثلا "يأتوهم النصارى إلى وطنهم ويُعطوهم النعمة والدراهم ويرفعون من عندهم الدباغ"[٧]. كما كانت مدينة باجة ملتقى عدد كبير من الأوروبيين، فقد ورد في أحد التقارير أن "أناس مركانتية (التجّار الأوروبين) يتسوّقون القمح من جهة باجة"[٨]. وقد دأب عرش خمير على التعامل التجاري مع الأوروبيين مثل حالة "ستّة نصارى فرنصيص (فرنسيين)...يقطعون الغابة ويأخذون الدباغ منها وينشروا اللوح أنصافا وقعامر الجدور ويجعلونها فحما ويُوسقوا الجميع في البحر ويوجه ذلك لبلادهم. ولهما ٤ سنين في هاته الحركة وجاعلين بيتا لوح لمكثهم فيها وهلكوا جانب من الغابة ليس بقا فيه شيء"[٩].

حرص قائد باجة على تهدئة القيادة والمُصالحة بين العروش خاصة زمن دفع الضرائب، فقد حرّر في أحد تقاريره: "لمّا توجّهت إلى باجة أرسلت إلى جميع مشايخ عمدون ومشايخ الطبابه وفطناسه ومشايخ كوكه... وصالحت بينهم في كلّ ما لهم من عداوات سابقة...اتفقوا كبار كل فرقة على أن يكونوا مع بعضهم على وتيرة واحدة في خلاص ما بقي من الإعانة"، ولكن فيما بعد تنصّل بعضهم من الاتّفاق[١٠].

ثانيًا: الجغرافيا (المنعة والتحصّن والثورة)

تُعدّ جبال قيادة باجة أماكن حصينة أمام السلطة، فقد أوردت أحد الوثائق خبر رجل "يسكن بالجبل ولا يصنع إلا في الأمور الناقصة ومداوما للسرّاق"، وكان دائما بفتك دواب المسافرين[١١]. ولم تُخفي بالمقابل الدولة توجّسها من سكّان "الجبل"، فقد ورد في أحد الوثائق: "لا يخفاكم سيّدي حال أهل الجبل لا يخلصوا إلاّ مع وجود المحلّة خصوصا ماكنه ووشتاته وبعض أطراف نفزة"[١٢].

تُمارس العروش المعارِضة للباي ضغوطات متنوّعة على السلطة وأخطرها مهاجمتهم لأرزاق النّاس وحرق المحاصيل

و"قهر الفلاّحة" و"أخذ متاعهم ومكاسبهم" و"الجور والتعدّي" والتعدّي على النّساء[١٣]. وشارك عدد من رجال الدّين في تحريض السكّان ضدّ الدولة أو من أجل إنشاب المعارك بين العروش، فقد ورد في أحد التقارير أن "شيخ الجامع عمّار بن علي الغربي الجلجلي...ساعيا في الفساد في الغرابه ونفزة وفطناسه قصد إيقاع الغرم بينهم وبين عمدون"[١٤]. فكثيرا ما أبرز سكّان الريف والمرتفعات الجبلية في باجة، ما يُطلق عليهم في الوثائق مصطلح "الجباليّة"، نفورهم من الحكم المركزي وتمتّعهم من سلطة الباي ونائبه قائد باجة. ورد في أحد الوثائق بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٨٤١ أن قائد باجة أرسل مكاتيب إلى شيوخ "الجبالية" وكبار رجالهم "لنتكلّم معهم مُشافهة ونحذّروهم بطش الحضرة العليّة"، خاصّة بعد "صدور عيب من سفهاء أعراش عمدون ليلا...أهل العيب طافوا على النّاس فلم يتبعهم أحد من أعراش الجباليّة"، وقد نبّه القائد على النّاس والمغيرين بإرجاع الأغنام المسروقة[١٥]. وقد قام عرش عمدون بتهريب الأغنام إلى خمير ومنها إلى الجزائر[١٦].

أظهر عدد من سكّان القيادة كرههم للسلطة المركزية مثل حالة رجال أطلقوا النّار على جنود المحلّة عند نزولها بأحد وديان باجة[١٧]. وقد استغلّ عدد من رجال العروش العسف الضرائبي المسلطة من البايليك على الأهالي للحثّ على الثورة والتمرّد، فقد وصل خبر إلى القائد يُفيد بوجود رجال "يدورون على العروش بالفساد ويقولوا لهم أنتم لكم سبعة أعوام لم يُجر عليكم حكم منهم أعوام لم تُؤدّوا مال الإعانة والعشر فهل وقع لكم شيء منها"، ويشتمون في المشايخ[١٨].

لم تكن عروش الجباليّة على قلب رجل واحد، فقد تشابكت المصالح وتعدّدت، فقد وصل خبر إلى قائد باجة بأنّ رجلا "ساع في عرش عمدون بالفتنة والفساد ويُفتّن بين المشايخ وكذلك بين المشايخ وأخوتهم" ويحثّ النّاس على عدم "أداء مطالب البايليك (أي الضرائب المدفوعة للدولة) كالقمح والسّمن، ومهما يأتي التعيين لأحد إلاّ و... يُحرّضه على عدم الطّاعة، يُوقع الفتنة بين العروش"[١٩]. وورد خبر آخر عن رجال "يعملون في الفساد (أي معارضة للسلطة الحاكمة) ويضربون في البارود (الأسلحة النارية) وتعطّلت علينا خلاص جميع المطالب (الضرائب) حتّى الطعام المأذون بشرايه (شراءه) من سيادتكم للحضرة العليّة"[٢٠]. وتُخبرنا التقارير الأمنية عن عدد كبير من "الجباليّة" الذين يُهاجمون القُرى والمشيخات الصغيرة و"يصنعون الخبايث ويغوروا على الهناشر ويأخذوا البقر منها"، غير متردّدين على قتل النّاس، وبعدها يتحصّنون بجبالهم الوعرة[٢١].

أبرز عامل باجة عوائق عديدة تمنع الدولة من فرض سيطرتها على مجال باجة الجبلي. أهمّها عجز السلطة على اقتحام الجبال الوعرة للجهة خاصة لصعوبة مسالكها الجبليّة. أقدمت السلطة في هذه الحالة على تقديم امتيازات لأهل الجبال وأهمّها إسقاط ديونهم. فقد أمر عامل باجة بتسخير "برّاح يدور في الأسواق ويُنادي أن من له حقّ على جبالي ويراه في البلاد لا يُطالبه بشيء...لمّا سمعوا أهل الجبل بهذا تسرّحت ثناياهم لدخول البلاد ولم يغب أحد من أعيانهم علينا...وتلقّيناهم بما يُناسب سياستهم من إطعام الطعام والحديث الدال على مصالحهم". ولكن لم تنجح هذه السياسة مع أهل الجبال، فلمّا رجعوا للجبل تراجعوا على الاتفاق في الدفع و"الحاصل سيدي أن مثل هذه السياسة لا تنفع معهم فقد تجاسروا وبغوا ولا ينفع معهم إلا القهر والغلبة والعقاب"[٢٢]. كما أمر الباي بمُسامحة كل من ثبت مشاركته في ثورة ١٨٦٤ وعدم مطالبتهم بتعويضات خاصّة من استغلّ الثورة للإغارة على أرزاق النّاس[٢٣]. وأخبر العامل الباي بأنّ العروش أضرّت بمصالح الدولة وبمدينة باجة، و"معلوم سيدي أن الجبل في غاية ما يكون التشويش لمّا كثر الخاطر (لما كثر غضب السكّان من السلطة) بنواحيهم"[٢٤]. نلاحظ هنا أن العنف يلعب دور المنظومة المؤسّسة لتبادل المصالح. فمن مصلحة العامل والدولة وبدرجة أقلّ السكان المحليين تأسيس للصورة النمطية حول تمتّع الجبل والعروشيّة والجباليّة. وكثيرا ما كان العامل يُشير إلى أنّ أهل الجبل كثر "تلاعبهم، وكثرت مُماطلتهم. وقد اقترح العامل فكرة على الباي في أن يسعى إلى القبض على كبار عروش الجبل من خلال استدعاءهم إلى مدينة باجة بغية الاجتماع معهم، ومن ثمّة "نتمكّنوا عليهم" أي القبض عليهم[٢٥].

بسبب كلّ هذه الأسباب وجد أعوان الدولة صعوبات كبيرة في استخلاص الضرائب من الأهالي، مثل حالة الشيخ عمر بن أحمد "قاموا عليه (أي ثاروا عليه) جماعته من العرب أولاد خضر لمّا طُلبوا بأداء المجابي المرتّبة عليهم وحاسبوه بجانب منها استخلصها وأكلها"، أي اتّهموه أنه سرق جانب من الضرائب لصالحه[٢٦].

ثالثًا: يوسف بن بشر (سياسة الأمر الواقع)

تمثّل جبال باجة عائقًا أمام الهيمنة الكاملة للسلطة المركزيّة على العمالة. وقد أُجبرت الدولة على التعامل مع

الرجال المتنفّذين من سكّان باجة وظهيرها الجبلي. فهل يمكن أن ينتقل شخص مُعارض للمخزن إلى عون من أعوان الدولة؟

تواجد في جبال باجة عدد من المشهورين بالتمرّد منهم "سي أحمد بن الدمغوني قايد أولاد بوسالم يدور على العرب كلها بالفساد"[٢٧]. وورد اسم الرجل يوسف بن بشر كثيرًا في الوثائق حيث جهر بعداوته لقايد باجة وأراد أن يجمع العروش حوله ويُصبح واليا على العمل، ونشر في القيادة أنه يريد أن يحمي السكان من ظلم السلطة لهم خاصة على مستوى الضرائب، ويرغب أن يجعل من سكان باجة "كلمتكم مسموعة كما كنتم أوّل الزمان"، وقد حرّض العروش على عدم الذّهاب لباجة و"تقييد الرقاب والمواشي إلى أن يتولّى هو عليهم"[٢٨]. وورد في وثيقة أخرى أن"القايم مقام سي يوسف بن بشر كاهية ضجّت النّاس من فعله وتكرّر شرّه"[٢٩].

تُثير شخصيّة يوسف بن بشر جدلاً وتشابكات مهمّة تساعدنا على تفهّم تقنيات بناء المكانة الاجتماعية لأعوان الدولة خلال الفترة قيد الدرس خاصة علاقته المتوتّرة والصراعيّة مع قائد باجة واختلاف دوره العسكري مع الدور السياسي للقائد. تميّزت علاقة أعوان الدولة باجة بالأهالي بالتوتّر وقلّة الثقة. فقد وردت أخبار على يوسف بن بشر كاهية باجة مفادها أنّ "أناسا من العروش ساروا إلى المحروسة (أي مدينة تونس) قاصدين الشكاية بنا للحضرة العليّة (للباي) مدّعين أني مضرّ بهم". وقد برّر القائد فعلهم بأنّهم لا يريدون دفع الضرائب: "لكن قصدهم معروف ولا يخفاكم أنهم أخذوا على الفساد في كلّ عام لما يصدر الاذن العليّ في خلاص الإعانة فيجعلوا هذا الفساد لتتعطّل أيّام الخلاص عليهم لوقت آخر"[٣٠].

حاول يوسف بن بشر أن يُبرز تفانيه وحزمه في خدمة البايليك خاصة عبر اتقانه جمع الضرائب من الأهالي، فقد أرسل رسالة إلى الوزير الأكبر مصطفى خزندار بتاريخ ١٩ ماي ١٨٦١ قائلاً فيها أنّه جمع "من مال الإعانة ما يقرب من ٤٥ ألف ريال، ولازلت متشدّدًا في الخلاص"[٣١]. وحرّر يوسف بن بشر تقريرا آخر بتاريخ ماي ١٨٦١ ذاكرا فيها أنّه تفانى في إحصاء ماشية وعدد سكّان قيادة باجة، وأشار بذكاء إلى أنّه مع إشرافه على الإحصاء ازداد عدد السكّان مقارنة بمن أشرف قبله على الإحصاء، كما أنّه تفطّن إلى أن خلافة نفزة تمتلك أكثر من ٨٠٠ ماشية مع أنّهم "قيّدوا نصف القدر"[٣٢]. وقد لعب "كاهية باجة ومتولّيها" يوسف بن بشر دور المحكّم في الخلافات المتعدّدة بين العروش، فقد حرّر في أحد تقاريره أنّه: "وصلنا لباجة جمعنا بين عمدون ونفزة والغرابه والطبابه وحضرت الرجّالة الكبار منهم وراودنا الجميع إلى الصلح"، وأُبرم عقد الصّلح على يد عدل "وكلّ من عليه دمْ لصاحبه تحمّل به"[٣٣].

انتقل القايم مقال يوسف بن بشر إلى العمل كاهية وجق بسوسة، ولم تنقطع علاقته عن باجة، فقد راسله أمير الأمراء رشيد آغة وجق باجة طالبا منه دفع أموال مُقتطعة من ضريبة باجة زمن تولّيه القيادة بها[٣٤]. وظهرت شخصيّة يوسف بن بشر مؤثّرة مرة أخرى حينما كلّفته السلطة بتتبّع تحرّكات علي بن غذاهم، فقد كتب في رسالة له إلى إسماعيل صاحب الطّابع بتاريخ ٢٢ جويلية ١٨٦٤ أنّه "لما وصلنا إلى البلد وجدنا ميعاد أولاد بوسالم الظهاره وأخبرونا بأنّ بن غذاهم لما وصله الأوامر ومكتوب السيادة برحوا به وسط زموله وفرحت بذلك أناس وحزنت أناس"[٣٥]. وأبرز يوسف بن بشر في رسالة أخرى له إلى الوزير إسماعيل صاحب الطابع خلال نفس الفترة رفض العروش له وكرههم لشخصه ورفضهم التعاون معه، حيث أنّ "بعض أعراش ممّن أنا مُستوليا (أي: مسؤولا) عليهم منم الجباليّة اشتكوا منّي...وأيضًا الوجق مازال متشكّيا منّي"[٣٦].

تعمّق يوسف بن بشر في تحليل طبيعة علاقته مع سكّان باجة وأريافها في رسالة له إلى الوزير الأكبر يوسف صاحب الطابع حيث قال: "منذ توجّهت لناحية باجة في موصيات الخدمة اعتقدت أن وجهتي لا خلل فيها...لمّا بلغت المحلّة المنصورة لباجة...القمح والشعير والحطب والزيت وغير ذلك بحيث لا نتوقّف بحول الله في شيء ممّا هو أقدر عليه من مطالبها، حتّى قدمت أعراش الغرب الذي مع بن غذاهم فاشتكت في البعض من جندوبة اللذين هم من أكابر الفسايدية وكنت عرفت في شأنهم وبيّنت أسماءهم...وهم أقلّ من نصف العرش وأكثرهم معي، بحيث أن جندوبة الظهارة الذين عليهم العِمْدَه وعليهم وبهم الكلام من حزبي ولا يخفى أن هؤلاء الثلاثه (رجال من قادة الثورة في العرش) هم قيّاد الشرطه حال فسادهم...كذلك عرش نفزة اللذين هم توجّهوا لمقابلة الحضرة العليّة بعد قدومي لباجة تشكّوا مني وطلبوا رفع يدي عليهم وذلك لمّا أن خاطبتهم عن توجّههم لزمل بن غذاهم حال إقامته بالدخلة ولُمْتُ عليهم في ذلك حيث افترزوا من عروش الجبل وتوجّهوا نحو من ذكر...وقد رأيت أن هذا كله لا يمن أحد وإنّما اطّلعت بنور القلب أن جميع من هو في دايرة سيدي صاحب الطابع كالسيّد باش حانبه والسيّد باش حانبه لمّا أن رءا ولد الشريف الدراجي الذي هو من أعيان جندوبة من حزبي ومعارض إخوته عن رفع يدي لدى سيدي صاحب الطابع أخرجه ووكزه، ورأيت أن لا ناصر لي في جملة هاته المحلّة، فمن أجل ذلك كتبت تسليما

ومكّنته بيد سيدي صاحب الطابع...ولا ترضى سيدي أن خديمكم يناله هذا"، و"بلغنا أن رمضان الورغي قايد الشرطيّه استولى على تبرسق ثم تولّى على ورغمه بغير طيب...البعض منهم. ولمّا أن توجّه غار عليه ورغمه وأخذوا سعيه وقتلوا ابنه وفضحوا حريمه وفعلوا به ما فعلوا وهذا أمر غريب"(٣٧).

وقال في رسالة أخرى له إلى الوزير الأكبر في شهر نوفمبر ١٨٦٤ أنّ الرجل "حميده عامل جندوبه تشكّى منّي ومن أخي عوادي بأننا مفسدين عليه في عرش جندوبة...أهلنا جندوبه اعتدوا وبغوْ...واقتضى نظر مولانا برفع يدي عنهم فكيف...دخلوا تحت حكم بت غذاهم وأخذوا امتاعْ الناس وجعلوا منهم قيّاد الشرطيّه وتمنّوا في أخي الموت حتّى أنه فرّ لبلاد الجبل وبقي من عرش إلى عرش ما بين الشيحية وخمير بعيلته (عائلته) وباعوا وشَرُوا مع الشيحيّة بعشرة آلاف لبلوغه إلى بن غذاهم. فبعد هذا الفعل نرجع نركع للولاية عليهم...ظهر لي أن لا نجاة من هذا العرش...أرسلت لأخي يوجّه لي جميع مواشينا التي بوسط جندوبة كلها...ويرحل...بقصد السكنى بباجة أو بالمحروسة"، كما ذكّر بن بشر بفساد عامل جندوبة المالي والإداري وسرقته مال الدولة(٣٨).

لم يُخفي يوسف بن بشر كرهه لعدد من سكّان الجبال في باجة، فقد وصفهم في أحد رسائله للوزير الأكبر بأنّهم "أناس مجرمين مثلهم قطّاع الطريق بالحرابه ونهب أموال النّاس وحالهم لا يخفى عن أهل هذا العمل"(٣٩). وقد سعى في كلّ رسائله للوزير الأكبر إلى إبراز تمكّنه من عمله وحذقه لوظيفته وتفانيه في خدمة السلطة. وقد أبدى في رسالة له إلى الوزير الأكبر خيبة أمله من طريقة توزيع السلطة للمناصب والوظائف، حيث كتب أنّه "بلغني أن قايد دريد رجعت له ولاية تبرسق وسي علي ساسي رجعت له ولاية ماطر وأنا مع وجودكم عندي تُفتكّ من يدي جندوبة وتُعطى لرجل ليس أثر في الخدمة ولم ترجع لي وأنا مترقّب لجنابكم السامي...لا تبعد عنّي ذلك الولاية أو أكثر منها"(٤٠).

تُبرز وثائق يوسف بن بشر مؤامرات عديدة تعرّض لها هو وأشياعه وأعوانه. فقد دوّن في كتاب في رسالة له إلى الوزير الأكبر أن ثلاثة من رجاله أُتّهموا بقتل نفس والسبب "الذي أنتج لهم هذا الاتّهام المذكور استنادهم عليّ وكونهم منعوا أنفسهم من الفساد وكفّوا أيديهم وقت إنشاء الفساد مع قيّاد الشرطيّة التي ظهرت بعرش جندوبة...هم خدّام وأسلافهم كذلك ولكن خدمتهم أدخلتهم لهاته الواقعة"(٤١). تُبرز لنا يوسف بن بشر وجود خيط رقيق يُلامس درجة اللامرئي بين الولاء للسلطة والتمرّد عليها. فرض منطق الجغرافيا على الفاعل السياسي الحذر من وعورة مجال باجة وظهيرها، فالسكان المحليين وحدهم هم من يستطيع مراقبة مجالهم والسيطرة عليه. لعب أيضًا يوسف بن بشر دور رجل السلاح مقابل شخصيّة العامل وهو رجل السياسة. وقد تغلّبت شخصية رجل السلاح لطبيعة الشخصية القاعدية لعمل باجة المتأثّرة أساسا بمنعة جبالها، فبدون قوة عسكرية لا تستطيع الدولة أن تُسيطر على المجال.

رابعًا: وظيفة القائد ورهاناتها

عانت السلطة المركزية من مشكل كثيرًا من يُعاد وهو صراع العروش. فقد ورد مثلاً في أحد الوثائق "عرش وشتاتة بينهم عداوة مع عرش نفزة وأيضًا مع ماكنه"(٤٢). كما تميّزت قيادة باجة بحدودها الطويلة مع الجزائر، وخلق هذا الأمر منازعات عديدة مع الجار المحتلّ من قبل فرنسا. خاصة مع النفوذ الكبير الذي تحتلّه قبيلة خمير على هذه الحدود. تُخبرنا وثيقة مهمّة عن جزء من هذه الرهانات. فقد أخبر عامل باجة أنه توجّه إلى الحدود الجزائرية لكي يُقابل الجنرال الفرنسي حاكم القالة ليتفاوضوا على مسألة الحدّ. وصف أولا العامل التضاريس الصعبة والمرهقة للمنطقة، فهي تلعب دور العائق أمام سيطرة السلطة على هذه الأماكن خاصة زمن الشتاء وفيضان الوديان. لم تُكلّل مفاوضات العامل مع العسكري الفرنسي بالنجاح بسبب تعنّت قبيلة خمير التي ترى في الحدود حقّا تاريخيّا لها، حيث ورد في مكتوب العامل أن الحدود "ملك بلد خمير وله مدايد مديده (أي زمن طويل) وسنين عديده من أجدادهم وآباءهم ملكا بين أيديهم سلفا عن خلف وبه جبّانتهم (أي مقبرتهم) وروابطهم (أماكن خزن الحبوب) ويَعْلمونه ساير النّاس ملكا للجوابلية من خمير"(٤٣).

يُشرف عامل باجة على ممارسة الضبط والمراقبة والعقاب في المدينة، فقد قُبض على "رجل صغير" بعد أن سرق ثيابا، فقام العامل بجلده بالعصا على "رؤوس الأشهاد في السوق"(٤٤). كما أنّه يسعى إلى تحقيق الأمن والتهدئة pacification في عمالته. وقد اعتمد في ذلك أسلوبا ناجعا وهو توزيع عملية التشريع بين القوانين المصادق عليها من الصدفة والعرف المحلّي. فقد أصرّ أحد العروش بعد أن قُتل أحد أبناءه من طرف عرش آخر على تطبيق عُرفهم. وكان ردّة فعلهم على الجريمة: "نريد ٤٠ رجلاً من خيار أعيان الوسالتية يذهبون معنا إلى سيدي عبد الله بالجمال في خمير يحلفون لنا، وإلاّ يرحلون معنا بيت من أعيان بيوت الوسالتية بأولادهما وسعيهما ترحل معنا إلى عرش ماكنه...

فإن وجدنا قتلوه غيرهم سرّحنا البيت ورجّعناه إلى الدشرة، وإلا البيت المذكور نقتلوه...ونأخذوا السعي في عوض ابننا ونأخذوا الدشره على التراب. فبقيت نسايس فيهم"(٤٥). يُشرف العامل على مراقبة العمل الفلاحي من الحراثة إلى جني المنتوج. كما يقوم بتوزيع المنح والأعطيات لعدد من أعوان الدولة وحلفاءها وأهمّهم المشرفين على زوايا الأولياء الصالحين، مثل زاوية سيدي علي الصمادحي التي تحصل سنويا على نصيب من القمح والشعير(٤٦).

يحرص القائد، بعد توصيات عديدة من السلطة المركزية، على معرفة العدد الدقيق لسكّان المدينة وظهيرها الجبلي، فقد وردت عليه أوامر من الوزارة الكبرى بإحصاء "جميع سكّان القرى التي بعملنا الرجال كبار وصغار على اختلاف أسنانهم من الرضيع إلى من بلغ الشيخوخة"(٤٧). ولهذا فهو يسعى العامل إلى مراقبة دقيقة لعدد سكّان عمله. فقد كان كثيرا ما يتلقّى أوامر من الباي أو من الوزارة الكبرى بأن يُحصي "أرقاب من احتوى عليه عمل باجة وعروشها...اسمه واسم أبيه ونسبه ولقبه بحيث لا يشذّ أحد"(٤٨). ويستقبل العامل أعداد أنفس من شيوخ العروش. يقوم الشيخ بطرح الموتى من إحصاء السنة التي قبلها، ثمّ يُقسم على صدق الأعداد الجديدة، وعادة ما يُقام طقس القسم في مقام الوليّ الصالح بمدينة باجة سيدي بوتفّاحة(٤٩).

تحتاج الدولة إلى الشيوخ رغم علمها بفساد عدد منهم. فقد وردت معلومات في أحد الوثائق عن إنقاص عدد من الشيوخ للعدد الحقيقي لأبناء مشيختهم حماية لهم من الضرائب والتجنيد. كما أخبر القائد في تقرير له إلى الوزارة الكبرى أن الشيوخ يستغلّون تفصيلا مهمّا يساعدهم على فسادهم المالي، فأهل الجبل عندما يدفعون ضرائبهم للشيخ لا يأخذون إيصالا بالمبالغ المدفوعة لهم، وهذا ما يُمكّن الشيخ من سرقة مال وفير وتنقيص العدد الحقيقي لدافعي الضرائب. فقد أشار العامل إلى أنّ عددا من الشيوخ "أخفوا...١٢٣ رقبة عن زمام عدد الرقاب"، ولهذا أشار العامل أنّ "عادة الجبل كله لا يأخذون التّواصلْ عن المشايخ أصلا"(٥٠).

تعتمد الدولة على عدد من سكّان الجبل لإرشاد أعوانها على الطرقات والمسالك الآمنة والسليمة مثل حالة "عبد الله بن نصر النفزي، اعتاد إرشاد عسّة طبرقة للطريق ذهابا وإيّابا وأنه يستضيف العسّة كلّما مرّت ببيته"، وقد طلب هذا المرشد من الدولة أن تُمكّنه أن من مشيخة قومه أي "طلب الفضل في ولايته شيخا"(٥١). وتحتاج الدولة لمساعدة عناصر محلية أخرى مثل "الحمّار" (أًصحاب الأحمرة) و"السيّار" وهو التاجر وناقل البضائع والمسافرين بين المدن(٥٢). وقد دأب الباي على إصدار أوامر إلى العمّال والشيوخ بحماية الطرقات، فقد ورد في أحد الوثائق: "أمر مُطاع... إلى كافّة مشايخ الجبل مضمونه في أمن الطرقات في باجة إلى طبرقه...ردّ البال في حفظ غابة الكرسته...منع ساير الأشياء الممنوع إخراجها لغير المملكة التونسية بدون تذكرة سراح"(٥٣).

ننتبه هنا إلى وظيفة أساسيّة يقوم بها عامل باجة ألا وهي التجسّس على كلّ المتمرّدين و"المفدسين"، فقد أرسل مثلا عامل باجة أحمد الدمغوني مكتوبا إلى الوزير الأكبر قال فيه: "لازلنا بغاية الحزم الاجتهاد الكلي من غير زهد ولا غفلة ووجّهنا اخوتنا كلّ منهم لعرش من العروش ليتجسّس"(٥٤). ويُكثّف العامل تقنية التجسّس خلال الأزمات مثل ثورة ١٨٦٤، حيث يُسخّر العامل الشيوخ وأتباع الدولة من النّاس العاديين وشيوخ الزوايا ورجال العروش الكبار لجمع كل المعلومات الممكنة(٥٥). وأخبر العامل عن ثلاثة رجال من مدينة باجة ينتمون إلى عائلات مخزنيّة عريقة موالية للدولة قدّموا خدمات لعلي بن غذاهم، وساهموا في اقتحام منزل عامل باجة وسرقوه(٥٦). كما أخبر العامل في أحد تقاريره إلى الوزارة الكبرى أنّ "أحوال الجبل ليست مستقيمة"(٥٧).

يستقي العامل أخبار العروش من جواسيسه ومن الشيوخ، ويُحاول أن يُقنع كبار القوم بكل مشيخة، "الرجّالة الكبار" بلغة الوثائق أو "الميعاد"، بأن ينصاعوا لأوامر الباي ونوّابه. والهاجس الأساسي للسلطة هنا هو الضرائب. أخبر قائد باجة في أحد تقاريره أنّه تقابل مع ممثّلي عرش ماكنة و"أنذرهم" بطش الباي، فالتزموا بأن يُقدّموا له العدد الصحيح لأفراد العرش ليسهل على السلطة تقدير حجم الضريبة. فلمّا رجع الرجال إلى عرشهم تجمّعوا بالأعراس و"الزرد" (مواكب احتفاليّة تُقام لأجل الأولياء الصالحين) وتناقشوا في أوامر الباي و"صار عندهم ناقض ونقيض لأنّ فيهم رجل اسمه إبراهيم...ومعه أنفار متمادين في الفساد، ورجعوا على ما كانوا عليه من الاتّفاق"(٥٨). وقد مثّل قرب قيادة باجة من الحدود الجزائريّة مصدر ثورة لعدد من الأهالي، ولكن مصدر قلق للسلطة وأعوانها. وبرزت خطورة هذا الجوار مع الحرب الفرنسية البروسية. فقد دأبت بروسيا على إرسال عدد من الجواسيس إلى الجزائر، مرورا عبر الحدود التونسيّة، لاستنزاف وتشتيت المجهود الحربي الفرنسي. توجّست الدولة التونسية من هذا الصراع، ولهذا أصدر الباي أمرا لقائد باجة بأن يراقب كل ألماني يمرّ بباجة ويمنع أيّ كان

من تجاوز الحدود إلى الجزائر، وقد ورد في مكتوب الأمر: "الدولتين الحبيبتين فرانسا ودولة بروسيا هما الآن على حالة حرب وكلتا الدولتين من الدول المحبّة لدولة المعظّم...مع ما لدولة فرانسا من الجوار الذي تلزم مراعاته وربّما كان لبعض الناس مقاصد مع دولة فرانسا تبعثهم في مثل هذا الوقت إلى السّعي فيما يُحيّر بعض ممالكها ويتّخذون من بعض المسلمين عونا لهم على ذلك بالقول أم الفعل، وغير خفيّ ما ينشأ عن ذلك من المفسدة التي يجب التحرّز منها لمصلحة المسلمين...فنبّهتنا سيّدي بهذا لنوجّهوا عنايتنا لمنع القيل والقال في أحوال هذه النازلة وردّ البال من أن يتوجّه لخارج العمالة على طريق عملنا شيء ممّا يُعين المفسدين على التحيير مثل البارود"[٥٩].

كثّف القائد من عمليّات التجسّس تجاه كلّ الغرباء، وحثّ كل أعوانه على مراقبة الحدود والأوروبيين، وقد ورد في أحد التقارير الأمنيّة أنّ "نفرين من رعايا بروسيا أحدهما قصير...والآخر نحيف أزعر شاب، خرجا من الحاضرة في زيّ المسلمين لأنهما يتكلّمان بالعربي ويُقال أن مقصودهما تحيير عمالة الجزائر. ولا يبعد أن يغترّ بهما أحد المسلمين من غير أن يعلم عواقب ذلك"[٦٠]. وقد أوصى العامل أعوانه بالقبض على كلّ "حمّار" (أصحاب الأحمرة المشرفين على نقل الناس والسلع بين العمالات) "أو غيرهم معينا لهما أو مصاحبا لهما (أي للأوروبيين) ...نتمكّن عنه ونسجنوه"، وقد كلّف العامل كل شيوخ المناطق المجاورة للحدود الجزائرية[٦١].

تعتمد وظيفة القائد أساسًا على توفير الأمن في القيادة وخاصة على المحافظة على العائدات الضريبيّة، ويمرّ هذا الأمر عبر معرفة دقيقة لعدد السكان والمواشي والأشجار المثمرة. يطلب القائد من شيوخ المشيخات أن يقدّموا له تقريرا بهذه الأعداد في وثائق مكتوبة من طرف العدول، ويقوم القائد بدوره بإعلام السلطة المركزية بكل المعلومات المتحصّل عليها. وكثيرا من يذهب القائد بنفسه إلى العروش لعدّ المواشي خاصة وأن الأهالي يُراوحون الرعي بين الجبل وسفحه، فهم يلتجئون بالقمم عندما لا يأمنون مكر السلطة[٦٢]. ولهذا كثيرا ما يعترف قائد باجة بصعوبة السيطرة على أهل الجبل، فقد ورد في أحد تقاريره: "أهل الرقبة لا يخفي على سيادتكم عصيانهم لمن يتولّى عليهم من القيادة وفسادهم أكثر من صلاحهم"[٦٣].

حرصت السلطة المركزية على توفير أعوان دولة متقنين لعملهم في قيادة باجة، ولهذا فقد أذن الباي بانتخاب "من أهل باجة أنفارا من أهل النباهة والوجاهة ليكون منهم وكيل في الحقوق العموميّة التي تنشر نوازلها لمجالس عملنا باتّفاق أهل البلد...كاتبنا في شأنهم كافّة المشايخ الفقهاء بباجة القاضي والمفتيين بها وخليفتها وكافّة كبراء البلد المذكور وكلّفناهم بانتخاب من يليق"[٦٤]. وبالمقابل تعرّض العمل الإداري بقيادة باجة إلى صعوبات ماليّة وتنظيمية عديدة، فقد تشكّى مثلا أعوان مجلس الجنايات والأحكام العرفية بالمدينة من عدم أخذ أجرهم لمدّة ثمانية أشهر كاملة[٦٥]. دعّمت الإصلاحات سعي الدولة إلى تحسين المستوى العلمي لأعوانها، إلى جانب رفعة مكانتهم الاجتماعية. فقد صدر في ٢٥ أوت ١٨٦٣ "الإذن المُطاع بانتخاب عضو لمجلس ضبطية بلد باجة عوض محمد بن صالح الغربي وشيخ المدينة بها المُخبر عنه أنّه غير لايق بخطّته ولا يُحسن الكتابة"[٦٦].

يعتمد أعوان الدولة في قيادة باجة على أخذ نصيبهم من الضرائب المدفوعة من قبل السكّان إلى الدولة، فليس لهم أجر شهريّ[٦٧]. ولم يلتزم أعوان الدولة بطبيعة عملهم تجاه الدولة أو السكّان. فقد تشكّى مجلس ضبطيّة باجة بشيخ المدينة وأحد أعضاء المجلس الشيخ محمد بن صالح الغربي "لمخالفته لصريح القانون من أنّه قليل ما يحضر بالمجلس في ساعات الحكم وأنّه لا يُحسن الكتابة ولا استخراجها ويتعاطى فصل النوازل بالأسواق ومتمايل بسبّ النّاس السبّ الفاحش وبلغنا أنّه مُساعف لأناس في السرقات"[٦٨]. وتتشارك السلطة المركزية مع أعوانها في الجهات والفاعلين الاجتماعيين المؤثرين المحليين في إحكام فرض الهيمنة وتقاسم النفوذ. ورد في أحد رسائل كاهية باجة يوسف بن بشر إلى الوزير الأكبر أنّه لمّا بلغ لباجة "حضرت المشايخ الفقهاء بباجة وأعيان البلد ومشايخ أهل الوطن وقرئوا ما أمر به سيّدنا...بالقصد في انتخاب الجماعة لمجلس باجة، فاتّفقوا على من ذكر أعلاه (٧ أفراد)... على مشورة السيادة"[٦٩].

تسعى الدولة إلى ضمان ولاء شيوخ العروش. فرجال المشيخات الأقوياء يملكون نفوذا ماديا وأدبيّا كبيرا لدى أهاليهم وبني عشيرتهم تعجز السلطة المركزية على مجاراته. وبرزت كل هذه الرهانات خلال أزمة العادل باي أخو الباي، الذي سعى إلى الخروج على أخيه والتحصّن بجبال باجة المنيعة. أورد وزير الحرب وقائد المحلّة المتوجّه لباجة أحمد زرّوق أنّه فرح لاطمئنان شيوخ العروش بتواجده بباجة صحبة المحلّة، فقد أورد: "أتانا مكتوب من ميعاد خمير يذكرون فيه أنّهم فرحوا بولايتنا عليهم والآن اطمأنّت قلوبهم"، ومعهم الشيخ "محمد صالح من نفزة (الأطرش)، الشيخ بوريال...قدموا إلينا وقالوا نحن خدّام الدولة". وقد حرص أحمد زروق في تقريره على إبراز

عدم تجانس العروش ووجود من يُعارض تعيينه، فقد برز رجل اسمه أحمد وتّاس من شيوخ هذيل عُرف بتحريض قومه على الثورة ضد السلطة و"عدم الدّخول تحت الطاعة"، وقد طلب زروق من السلطة أن تُوفّر لمحلّته، المُقدمة على التوجّه لجبال باجة، الغذاء والسلاح من أجل "أن يكون إذعان المفسدين بغير مُحاربة"[٧٠].

أبـرز أحمـد زرّوق في رسـالة لـه إلى البـاي عمـق الأزمـة الاقتصادية والمعاشيّة التي تعيشها باجة خاصّة وأنّ "النّاس في مجاعة وأنهم يحصدون من الشعير بقدر ما يقتاتون به فقط"، وحال "المونة (المؤونة) في باجة غير متيسّر من قلّة النعمة وضعف الحركة". كما قدّم زرّوق معلومات مهمّة حول الخطّة المُزمع اتّباعها قبل دخوله جبال باجة مع الجنود. أوّلا طلب من الباي تمكينه من رخصة تسلّم مفاتيح أبواب مدينة باجة، وثانيا حرص زروق على بثّ إشاعة نيّته على "حرق مزارع الجبالية وشجرهم ومكاسبهم وخراب جبلهم"، وثالثا أبرز زروق للباي معرفته بالمسالك المثالية في الجبل وخاصة ضمانه ولاء عدد من القبائل[٧١]. وقدّم زروق عروضا عديدة لأهل الجبل وأهمّها أن دفع ضرائبهم وتقديم الطاعة للباي يمكّنهم من دخول مدينة باجة في أمان ويُسمح لهم بالتسوّق (بيعا وشراء) و"لا يُطالبكم أحد بشيء"[٧٢]. وبرزت خطط أخرى لدى زرّوق منها كسب حلفاء بعض "الرجال الكبار" في الجبل أي "نُقرّب أناس من وجق باجة ومن غيرهم نستعين بهم على الخدمة والاطّلاع على أحوال المفسدين"، وقد أبرز زروق وعيا شديادا بخطورة باجة وظهيرها الريفي وصعوبة تجنيد أعوان دولة أو جواسيس لصالح البايليك، فقد كتب للباي قائلا: "لست بغافل عن ذلك وإنّما نتحيّل على اكتساب الأخبار من غير أن نُظهر اكترانا بذلك لأنّي لست آمن باجة ولا نركن لأحد وحسبي سماع الأخبار من الشيخ سيدي محمد سعيد قاضي باجة ومن الأجلّ علي بن يوسف وأمثالهم"[٧٣].

حُورب عامل باجة بطرق مختلفة منها إيصال أخبار خاطئة عنه إلى الباي، فقد أرسل عامل باجة القايمقام صالح بن مبارك مكتوبا إلى الباي قال فيه إنه علم أن أناسا أوصلوا عنه أخبار كاذبة عندما كان عاملا على الكاف، و"لكن سيّدي: الإنسان من حيث هو لا يخلوا من الأضداد والحسّاد سيما زماننا هذا"[٧٤]. وقدّم عدد من سكّان باجة رسالة شكوى إلى الوزير الأمير من تصرّفات العامل، فقد قالوا إنه "أضرّ بنا غاية الضرر"، وقد منعهم العامل من التجارة مع أهل الرّيف، وقد حرّض العامل أتباعه من أجل أخذ المكس والضرائب على تجّار المدينة[٧٥].

وأوردت وثائق أخرى عن بعض شيوخ العروش كونهم "أصحاب العيب والفساد...يطوفون على الأعراش" من أجل التحريض على العامل[٧٦].

يحاول قائد باجة الإمساك بكلّ خيوط اللعبة. تتوجّس السلطة دائما من الأعمال الانتقاميّة لأهل الجبل، فقد أرسلت الوزارة الكبرى تنبيها إلى العامل مضمونه الحذر من قيام بعض الناس بحرق المحاصيل أو الغابات[٧٧]. ولهذا تسعى دائما السلطة المركزية إلى كسب ولاء أعيان العروش رغم عدم انصياعهم التّام. وكان محمد صالح بن منصور عُرف الأطرش من أبرز أعيان العروش في ظهير باجة الريفي (عرش نفزة). وأخبر العامل أنّه توجّه لمقابلته في نفزة عند قياس مساحة الأراضي. وقد اعتمد العامل على قُرب الأطرش من السلطة من أجل السماح للدولة بمعرفة المساحة الحقيقية للأراضي الفلاحيّة خاصة وأن "عروش الجبل فيما مضى يمنعون القيّاس عن طوفان نعمتهم، وإنما يُهنشر (أي يقيس الأرض) لهم المواشي من غير أن ينظر ذلك"[٧٨]. وتبرز لنا الوثائق أن احتياج السلطة لمحمد صالح الأطرش أخطر وأهمّ من حاجة الأطرش للسلطة. ولم يُخفي الأطرش توجّسه من السلطة، فقد دوّن العامل في أحد تقاريره "ما سبب امتناع محمد صالح بن منصور عرف الأطرش من القدوم لدى الحضرة، خاطبته أن يتوجّه إلى الحضرة العليّة فأجابني أنه بعد الخلاص يتوجّه لدى سيّدنا...وليس متمنّع وإنما متخوّف، فأجبته ألا تخف وأنا ضامن فيك"[٧٩].

كما حرصت السلطة المركزية على عقد حلف متين مع الشيخ محمد بوريال النفزي البوعلي وهو من أقوى رجال عرش نفزة. فقد ورد في رسالة من عامل باجة إلى الوزير الأكبر ما نصّه: "نريد له من حضرة مولانا...طابعا ليكون كبير مشايخ إخوته أولاد بوعلي لأجل نصحه وخدمته في الدولة العلية"[٨٠]. وقد اعتمدت الدولة على الإحسان والأعطيات لتشكيل شبكة حلفاء متينة وصلبة. فمن "عادة" السلطة "إجراء عادة أهل الخطط الشرعية بباجة للواحد منهم قفيزان ونصف القفيز قمحا بالكيل التونسي ومثل ذلك شعيرا أو علفة يوميّة يؤخذ ذلك من المكلّف بالرابطة". ويمكن أن تُلغى هذه العادة في زمن القحط والأزمات رغم حرص المستفيدين على "مراعاة أهل هذا الجانب...وتوقيرهم وإكرامهم"[٨١].

خامسًا: الفساد وإنتاج الظلم

يتخلّل العمل اليومي للمشرفين على قيادة باجة ممارسات فساد مختلفة، مثل حالة "صاحب السّجن بباجة" الذي كان يأخذ "من المساجين حين السّراح ٤ ريالات ونصف على كلّ نفر"[٨٢].

وعلم المجلس الأكبر في مدينة أنّ أعضاءه المشرفين على تفقّد عمل قيادة باجة وجدوا "بسجن باجة رجلا مسجونا في تهمة روح...وله في السجن عام وشهران ولمّا أن سألوا مجلس الجنايات والضبطيّة أجابا بعدم علم نازلته"[٨٣]. وقد حاول بعض الفاعلين الاستفادة من زمن تأسيس الإدارات الجديدة مثل حالة العدل أحمد بن إبراهيم كاتب أوّل بمجلس الضبطية بباجة الذي رغب "إسقاطه من زمام الإعانة كأمثاله من كتبة المجلس"، أي إعفاءه من دفع الضرائب للدولة[٨٤]. ونجد لهذا وثيقة مهمّة تُفيد بأنّ "أعضاء مجلس الجنايات ومجلس الضبطية بباجة كانوا سالف التاريخ مرسومين بزمام الإعانة ثمّ طُرحوا منه بسبب ولايتهم في المجلس المذكور"[٨٥]. ورفض عدد من الفاعلين الاجتماعيين المؤثّرين والمتنفذين قبل تأسيس المجالس تطبيق الإصلاحات. فقد وردت على عامل باجة رسالة من شيوخ عمدون مفادها أنّ الرجل "الطالب المولهي أحد أعضاء مجلس الضبطية بباجة متعاطي فيهم بالحكم من غير المجلس ومهما يأتي أحد منهم إلا ويتمكّن عليه ويرفعه إلى مخزنه ويسجنه فيه ومنهم راجل أخذ منه ٥٠٠ ريال ومتكارر (أي يُكرّر) عن فعله، ومضمون الكتب أنه حرّم عليهم المسير والمسواق (أي التسوّق) إلى باجة"[٨٦].

تعرّض الأهالي بمدينة باجة لظلم كبير من أعوان الدولة مثل حالة لزّام المحصولات العربي بن بريك الذي كان "متعاطيا التمكّن بمن يجده من أهل العمل يضعه عنده بالسلسلة من غير أن يحظر لدينا...تشكّت لنا الناس بذلك"، ولمّا طلبه العامل للقدوم لديه رفض و"ذكر أنه لا يرفع يده على أحد والذي يتمكّن عليه من العرش لا يطلقه إلا بأخذ ما يُرضيه ولا يتعرّض له أحد ولا يطلق أحد من سلسلته ولا يعرف إلا نفسه...وأطلق خُدّامه وحوّل السوق عن موضعه الأصلي وأبعده عن مكان نزوله"[٨٧]. وعدد من أعوان الدولة "كثرت منهم الإغارة...يتشكّوا منهم جميع ما بنواحي باجة"[٨٨].

كثيرًا ما يتذمّر السكّان من ثقل الضرائب المسلّطة عليهم، فقد ورد في أحد الوثائق اضطرار النّاس على بيع ثيابهم بسبب فقرهم[٨٩]. وقد اشتكى سكان عمالة باجة من ظلم أعوان الدولة وعدد من العائلات المحلية القوية المخزنية المتحالفة مع الدولة. فقد ورد في أحد رسائل الشكوى الموجّهة إلى الوزارة الكبرى أنّ "أبناء المكرم سي محمد الدرويش وأهله تسلّطوا علينا بالجاه المدّة بعد المدّة"، وأجاب الوزير: "الشفاعة في مثله لا تُقبل لأنه من المفسدين المحيّرين لراحة السكان"[٩٠].

واشتكى سكّان آخرون من فساد قاضي باجة حيث كان يأخذ "الدراهم" من السكّان ودأب على "أكل الرشاء عنهم"[٩١].

تُقدم أحيانا السلطة على عزل الشيوخ المتورّطين في الفساد. وقد أقدم عدد من المعزولين بحملة تحريض ضدّ السلطة، وهذا ما تخافه وتتجنّبه حقيقة الدولة. فقد أزيح أحد الشيوخ من منصبه بسبب سرقته من مال الضرائب وإخفاءه العدد الحقيقي لأبناء عرشه، فقاد حملة تشويه ضد عامل باجة[٩٢]. ولم يكن عامل باجة في مأمن من الأزمات الاقتصاديّة، فقد سُجن ابنه بسبب تورّطه في الديون، فأخذ العامل دينا من أمير اللواء علي ساسي قدره ٥٨ ألف ريال "يكن دفوعهم على شهرين"، ورغب في رهن أو بيع منزله له بمدينة تونس بجانب دار الطاهر بن عاشور[٩٣].

سادسًا: الأزمة

تعرّضت مدينة باجة لصعوبات مادية واجتماعية كبيرة، فقد كثرت السرقات في المدينة بسبب أنّ "سور بلد باجة وقع به بعض انهدام إلى أن صار يدخل منه ويخرج منه"[٩٤]. كما أعلم مجلس ضبطية باجة بهروب (١٧) سجينًا من "حصار باجة"، حيث وُجدت "الأبواب مخلوعة والأقفال مقطوعة"[٩٥]. ووردت أخبار لدى الباي تُفيد بأنّ شيوخ مدينة باجة والمشرفين على الحراسة الليلية للمدينة مقصّرين "ولا يمنعون من يدور بالأزقّة بالليل ولو كان من أهل الشبه، والحال أنّهم يأخذون أجرهم على كلّ مسكن ريالا ونصف في الشهر...بسبب ذلك وقع من كثرة انهدام سور البلد"[٩٦]. كما تشكّى عدد كبير من سكّان مدينة باجة من غلاء الأسعار[٩٧]. كما تشكّى عدد من السكّان من فساد أمناء القياس بسبب الغشّ في الوزن[٩٨]. كما شهدت قيادة باجة عددًا كبيرًا من الحرائق سواء المتعمّدة أو الطبيعيّة. فقد تسبّب رجلين في "حريقة نعمة بناحية هنشير...قبلي باجة"[٩٩].

تعرّض وطن باجة إلى تغيّرات مناخيّة مفاجئة. فقد ورد في أحد الوثائق أنّه "تكوّن سحاب أمرًا هايلاً (هائلاً) وفيه وقع صبّ الحجر بوطن باجة عن أنواع منه قدر العضمة (أي البيضة) وقدر الرمّانة ومن نوع الياجور (الآجر)، وأضرّ بذلك هناشر... سواني الغلّة والدخّان لم يبق منهم شيء"[١٠٠]. هذا إلى جانب الأزمات البيئيّة والوبائيّة. فقد لاحظ العامل في أحد تقاريره "قلّة النعمة لا قمحا ولا شعيرا"، وهذا ما حمل بعض العروش على زراعة الذرّة تعويضا للحبوب، ولكن "تسلّط عليها الجراد وأكلها"، وقد نصح العامل بعدم دخول المحلّة إلى "الجبل" بسبب هذه الأزمات المعاشيّة، فلا قدرة للعروش على إعالة جنود المحلّة، بل يمكن أن يهاجموها ويثوروا عليها[١٠١].

مرّت عمالة باجة بسنوات صعبة خلال الفترة قيد الدرس مثل سنة ١٨٦٦ التي ورد الحديث عنها في الوثائق بصيغة: "حال عام التاريخ وعُسْره"، فقد امتلأت المدينة بالنازحين والهاربين من الجوع والفقر والمرض، فقد عصّت شوارعها بأهل ماجر والفراشيش وغيرهم، و"أفعالهم بانت بالفساد والأخذ والتهم وضجّت الناس من أفعالهم"، ومن ضمن الضحايا رجل زرع قفيز شعير "سلتوه (أي خطفوه وسرقوه) وهو واقف وأكلوه عن آخره...لا تخفا أحوالها هذا العام حتى من أعطاه الله عجرودة (المنتوج الفلاحي السيّئ) أتتها هاته الزمول منعوها عن أربابها غصبا ومن يتكلّم عن نفسه يتمالوا عليه بالضرب...أتى الخبر فيه أنهم كلهم قادمين لناحية باجة وبلغنا عن الجبالية أعينهم ناظرة لهذا المعنى وأوذانهم واقفة...ومع هذا سيدي الوجق كلّه صدر فيه الأذن بالقدوم وفي مثل هذا الخطر العظيم"[١٠٢]. وولاد في وثيقة أخرى أنّ "البلد الآن متوقّفة على المطر وحالها لا يُرضي حتى أهلها في شدّة ما يكون من التوقّف"، ونجد فرقة من الشيحية "انتقلوا من وطنهم عزّابه (أي متنقّلين بأغنامهم بسعيهم ونزلوا مُجاورين"، وقد سُرق لهذا العرش ٣٠ رأس بقر[١٠٣].

عبّر جزء من السكّان على رفضهم وكرههم لعدد من أعوان الدولة مثل حالة جماعة "غاروا على شيخهم...صرخوا عنه بحبّ الرصاص (أي أطلقوا عليه الرصاص)"[١٠٤]. فقد عاشت مدينة باجة توتّرات اجتماعيّة عديدة مثل حالة رجل ضرب ابن قاضي باجة بالرصاص "كسر له عظم فخذه"[١٠٥]. وورد في تقرير آخر لعامل باجة أنّ "طايفه (طائفة) من عمدون غير ممتثلين لأمر مولانا...تظافروا كلّهم كلمة واحدة على الفساد...هجموا على جانب وافر من بقر أهل باجة...راموا الهجوم على البلد فوقع التشويش لأهلها عامّة وخاصة وغلقوا أسواقها وحوانيتها ووقعت لهم حيرة عظيمة. فعند ذاك خرجت بنفسي (أي عامل باجة) وفتحت الأسواق والحوانيت"، وعيّن العامل عددا من الحرّاس لحراسة المدينة "وما حولها"، فهجم عليهم رجال عمدون وضربوا "رجلا من الصبايحية بالحبّ"[١٠٦]. وتصف الوثائق كلّ من يُعارض الدولة أو يُظهر العداء لها بـ "الفاسد" مثل حالة رجال من عمدون أكثروا من "السرقات ليلا" بسبب سجن الدولة لعدد من رجال عرشهم، وقد دأب عرش عمدون على طرد أعوان الدولة وكلّ من يُوجّهه البايليك لهم[١٠٧].

تشكّل المشهد الديني في قيادة باجة من عدّة مراكز نفوذ خاصة القاضي وشيوخ الزوايا. وبرزت توتّرات عديدة بين أقطاب الهيمنة هذه. فقد اشتكى مثلا محمد الصمادحي شيخ زاوية جدّه بباجة بقاضي باجة بسبب افتكاكه "بعض أراضي من أوقاف زاويتهم: وهذا القاضي عليه عدّة نوازل في افتكاك الأراضي، وكان يستعين بزوج عدول لتزوير الشهادات حين كتابة العدالة[١٠٨]. وقد عانت السلطات المحلية من عوائق عديدة ومنها الصراع بين أطراف السلطة: الشيخ، الخليفة والعامل. أخبر عامل باجة في أحد تقاريره أن الخليفة بباجة محمد الدرويش دأب على إفساد عرش عمدون بإعطائهم النقود "يريد الولاية عنهم عوضنا"، أي يريد أخذ مكان عامل باجة. ولم يخفي عامل باجة هنا أن يستمرّ منافسه في تحريض العروش قائلا: " نخاف من فساد الجبل"[١٠٩]. وورد في وثيقة أخرى أن "الخليفة محمد الدرويش...صدور الفساد منه...وقع بالفساد معه فهو من كبراء مشايخ عمدون، ولكن لا يمكن لنا محاربتهم حين وجوب الخلاص". أي أن السلطة لا يمكن أن تفتح جبهة صراع زمن دفع الضرائب[١١٠]. وبعد مدّة قصيرة من ذلك صدر الإذن بسجن "محمد الدرويش خليفة باجة، أتاه التعيين وسجن الآن بحصار باجة...سبب سجنه لتعاطيه الفساد"[١١١]. وكان ردّ الباي على مخاوف العامل أنّه يرغب في "جلب المشايخ والأعيان للحاضرة هو حثّهم للامتثال والاجتهاد في الخلاص"[١١٢].

خاتِمَةٌ

تميّز ظهير باجة الجبلي بصعوبة التضاريس الطبيعيّة. وقد نتج عن هذا نشأة شخصيّة قاعديّة غير منصاعة للسلطة ذات خصائص جغرافيّة منيعة. كما شكّلت الدولة المركزيّة جملة من الصور النمطيّة لصدّ مقاومة أهل الجبال للدولة المركزيّة، من ضمنها "المفسدين" وأهل البغي والمحاربين. سُكّ هذا الوصم من مُعجم فقهي عريق في البلاد التونسيّة لا يثق في "أهل الجبال" مع تعارض مصالحهم مع "السلطان" والسلطة الحاكمة، وهي سلطة مدينيّة بامتياز.

اعتمد سكّان جبال باجة على إطار طبيعي وثقافي مُنتج ومُلبّي لاحتياجاتهم. ومن الطبيعي أن تُبادر القبائل الحدوديّة إلى المتاجرة مع القبائل الجزائريّة، سُمّيت هذه الممارسة من طرف السلطة الحاكمة "تهريبا"، ولكن المنطق الداخلي لاشتغال العروش والقبائل لا يعترف بالحدود الدقيقة للدولة القوميّة ذات السيادة، فالعرش يلقي اهتمامًا بحدود العرش والقبيلة والعائلة. إذا مثّلت رغبة السلطة المركزية في إسقاط مفهوم الدولة القومية ذات السيادة على واقع العرش إسقاطًا سياسيّا خطيرًا لم يتلاءم مع الإطار المعرفي والمعيشي لسكّان الجبل.

مثّلت قيادة باجة مصدرًا أساسيًا للثروة الفلاحيّة والبشريّة المنتجة أساسًا للغذاء والضرائب. اصطدمت الدولة بتمنّع كبير من قبل السكّان المحليّين. نتج عن هذا ولادة سياسيات ظلم وإذلال عديدة لبتّ رحاها المحافظة على العوائد الجبائيّة والمنتوجات الفلاحيّة وهوس من التوتّرات الأمنيّة في الحدود الجزائريّة مع رغبة في معرفة المسالك والطرق الجبليّة. اعتمدت الدولة هنا على سياسة البحث على الولاء بين السكّان المحليين أنفسهم، سواء كحلفاء سريين غير معلنين، أي جواسيس. أو كأعوان دولة مثل وظيفة الشيخ. اضطرّت الدولة إلى الاعتماد على السكّان المحليين في وظيفة الشيخ، وهذا ما أنتج وعيا لدى حاملي هذا الوظيف مفاده بأنّ الدولة تحتاجهم أكثر ممّا يحتاجون إليها، وساعدهم هذا السياق على التمادي في ظلمهم للأهالي معتمدين على أهميّتهم لدى السلطة، والسلطة المادية والمعنويّة التي يحتلّونها لدى أهل عرشهم. وتحملنا هذه السياقات على الاستنتاج بأنّ الدولة ساهمت، بل شجّعت، على إنتاج الظلم واعتمدت عليه في المحافظة على مصالحها.

اعتمدت الدولة في هذا الإطار على وظيفة القائد كنائب للباي على عمل باجة. تعرّض القائد لصعوبات عديدة منها توجّس السكان المحليين منه، وعدم انصياع الشيوخ له بصفة كاملة، ومعارضة عدد من أعوان الدولة له وخاصة حاملي الرتبة العسكريّة. نتج عن هذا الأمر ولادة سلطات فرعيّة عديدة في عمل باجة، وهذا ما سمح بتعدّد مراكز النفوذ وتنوّع تقنيات تشكيل شبكات العلاقات والهيمنة، وبالتالي استطاعت سياسات الظلم والإذلال أن تتسرّب إلى عدد من هذه السياسات. فهدف الكلّ هو المحافظة على المصالح المكتسبة والبحث عن توسيعها. ومن هنا نفهم اضطرار القائد إلى غضّ النظر عن ظلم الخلفاء والشيوخ كسبا لولائهم، وتمادي أعوان الدولة المحليين في الظلم والسرقة، وتعدّد الصراعات والحروب بين العروش، وكثرة اعتماد عدد من الأهالي على التهريب خاصة مع الحدود الجزائرية. لعب العامل دور حلقة الوصل بين الباي والسكان المحليين، ولهذا اتّخذ دور ناقل وجامع المعلومات (الجاسوسيّة) وجامع الضرائب (الميزانيّة) والمحاصيل (الغذاء) مع السعي إلى تحقيق التهدئة الاجتماعيّة (الأمن)، مع الحرص على تشكيل جهاز إداري يسمح بتحقيق الأهداف السابقة الذكر (الإدارة/البيروقراطيّة). تحتاج هذه المرتكزات إلى عقلنة لفعل الحكم، وهذا ما يتطلّب تفاعلا بين السلطة المركزية والمجتمع المحلّي بوساطة من العامل، وهذا ما لم يتحقّق لرغبة الدولة في إنزال وإسقاط مشروع للحكم تجاهل الإرث الجماعي للمجتمعات التراحميّة المعتمدة على ماضٍ عريق في الحكم مُدعّم بحصانة جغرافية منيعة. فالذهنيّة التعاقدية للدولة المركزية لم تُساهم في تحقيق الأهداف النظريّة للعامل وهي الجاسوسية والأمن والميزانية والغذاء والإدارة.

ساهم الفساد المالي والإداري مع الظرفيّات المناخيّة والكوارث الطبيعيّة في إنتاج سنوات أزمة بامتياز مرّت بها قيادة باجة من أربعينات القرن التاسع عشر إلى سبعيناته. وقد تحصّلنا من خلال هذا المقال على نمط لمحاولة فهم الرهانات الداخلية لتاريخ عمل باجة خلال الفترة قيد الدرس. أسّس منطق الثنائيّة إنتاج هذا النمط. مجتمع تراحمي مقابل دولة تعاقدية. سلطة مركزيّة مقابل مجتمع ذو بنيات جغرافية ومناخية واقتصادية تعتمد على الرعي والفلاحة والمتاجرة على الحدود ولا تحتاج إلى الحدود الدقيقة للدولة المركزية، بل تساهم هذه الحدود في تفكيك المنظومة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لأهل الجبل، وهذا ما يؤسس لاندثار كيانهم الحضاري، أي المسألة مسألة وجود. واقتصاد معاشي مقابل اقتصاد دولة ضرائبيّ بامتياز لا يُراعي مسألة استنزاف المجهود الإنتاجي والغذائي والبشري لأهل الجبال.

ساهمت الظرفيّات الاقتصادية والسياسيّة، والمناخية والوبائيّة أحيانًا، في إنتاج انسداد سياسيّ عطّل تهدئة الأوضاع بين السلطة المركزية وظهير عمل باجة الريفي. فهل استمرّت هذه العلاقة على نفس النمط من التوتّر خلال النصف الثاني من سبعينات القرن التاسع عشر؟

الاحالات المرجعية:

(1) M. V. Duraffourg, *Béja et ses environs. Communication faite à la société de la géographie de Lille*, Imprimerie L. Danel, Lille, 1886

(٢) صلاح الدين برهومي، **الشمال الغربي الجبلي: الجبالية والمجال الزراعي من ١٨٥١ إلى ١٩٤٥**، دار سحر للنشر، تونس، ٢٠١٠

(٣) محمد بيرم الخامس، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، المجلّد الثاني: القطر التونسي، تحقيق: علي بن طاهر الشنّوفي/ رياض المرزوقي/ عبد الحفيظ منصور، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون: بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٩٩، ص.٣٥٧

(٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.١٠١ (٩ نوفمبر ١٨٥٩)

(٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٥١ (٢٢ سبتمبر ١٨٥٤)

(٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٩٤ (٢٠ أكتوبر ١٨٧٠)

(٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٤ (١٣ أفريل ١٨٧٠)

(٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٥١ (٢٥ جويلية ١٨٧٠)

(٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٩ (٢٤ أفريل ١٨٧٠)

(١٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٦٠ (٢٨ جانفي ١٨٥٧)

(١١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٧٩ (١ أفريل ١٨٥٧)

(١٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٨ (٤ سبتمبر ١٨٦٠)

(١٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٦٧ مكرّر (٢٨ ماي ١٨٦٧)

(١٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١٤ (٦ مارس ١٨٦١)

(١٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٢

(١٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٨ (٢٩ أكتوبر ١٨٤٧)

(١٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٢٨ (١٧ جوان ١٨٦٢)

(١٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٩١ (٢١ سبتمبر ١٨٥٩)

(١٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٤٨ (٢٩ جانفي ١٨٥٤)

(٢٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٥٠ (جانفي ١٨٥٤)

(٢١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٥٩ (٥٩ ماي ١٨٥٧)

(٢٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٩٢ (نوفمبر ١٨٦٧)

(٢٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.١٤٥ (١٥ مارس ١٨٧٠)

(٢٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.١٠٤ (ماي ١٨٦٧)

(٢٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.١٠٩ (٣ ماي ١٨٦٨)

(٢٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٢١ (١٨ جوان ١٨٦٨)

(٢٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.١٠٦ (٢٩ مارس ١٨٦٠)

(٢٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٨٢ (١ ماي ١٨٥٩)

(٢٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.١١٠ (١٤ ماي ١٨٦٠)

(٣٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.١٠ (١٨ ماي ١٨٦١) (رسالة من يوسف بن بشر كاهية باجة إلى مصطفى خزندار)

(٣١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.١٢ (١٩ ماي ١٨٦١)

(٣٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.١٣

(٣٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، (١١ مارس ١٨٦١)

(٣٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٣٧ (٤ أوت ١٨٦٣)

(٣٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٩٨

(٣٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٩٩ (جويلية ١٨٦٤)

(٣٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١٠٠ (٢٠ أكتوبر ١٨٦٤)

(٣٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١١٠

(٣٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١١١ (١٠ ديسمبر ١٨٦٤)

(٤٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١١٤ (٣ جانفي ١٨٦٥)

(٤١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١١٥ (٨ جانفي ١٨٦٥)

(٤٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٦٣ (٢٥ جوان ١٨٥٧)

(٤٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٧٦ (٣١ مارس ١٨٥٩)

(٤٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.١٣٢ (٥ فيفري ١٨٧٠)

(٤٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.١٣٣ (١٨ فيفري ١٨٧٠)

(٤٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٣٨ (١٥ أوت ١٨٦٦)

(٤٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.١٧ (٤ ديسمبر ١٨٦٠)
(٤٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٨ (١٨ أفريل ١٨٧٠)
(٤٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.١٦ (٥ ماي ١٨٧٠)
(٥٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٥، و.٢٥ (١٢ جوان ١٨٧١)
(٥١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٥، و.١٨ (٢ ماي ١٨٧١)
(٥٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٥، و.٢١ (١٣ ماي ١٨٧١). ورد في أحد الوثائق أخبار عن تسليم سلع إلى "أحد حمّارة باجة" لحملها لمدينة تونس. أنظر: **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٥، و.٦٣ (١٥ أكتوبر ١٨٧١)
(٥٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٥، و.٥٠ (أوت ١٨٧١)
(٥٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١٤٧ (٢٠ ديسمبر ١٨٦٥)
(٥٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١٤١، ١٤٣ (١٥ ديسمبر ١٨٦٥)
(٥٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.١٨ (٧ جويلية ١٨٦٦)
(٥٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٢٠ (١١ جويلية ١٨٦٦)
(٥٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٦٣ (٢٥ جوان ١٨٥٧)
(٥٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٦٧ (٢٧ أوت ١٨٧٠)
(٦٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٧١ (٢٨ أوت ١٨٧٠)
(٦١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٧٢ (٢٨ أوت ١٨٧٠)
(٦٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٨٨ (٧ ماي ١٨٥٩)
(٦٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٠، و.٩٣ (سبتمبر ١٨٥٩)
(٦٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٣٤ (١٠ جويلية ١٨٦٢)
(٦٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٢٩ (٢٣ جوان ١٨٦٢)
(٦٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٤٤
(٦٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٧٥ (٢ جويلية ١٨٦٢)
(٦٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٨٠ (٣٠ ماي ١٨٦٣)
(٦٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٢١ (٨ مارس ١٨٦١)
(٧٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٦٥
(٧١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٦٦ (٢٧ ماي ١٨٦٧)
(٧٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٦٧ (٢٨ ماي ١٨٦٧)
(٧٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٦٧ (٢٨ ماي ١٨٦٧)
(٧٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٧٨ (٢٢ أكتوبر ١٨٦٧)
(٧٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.١٠٣ (١٠ جانفي ١٨٦٨)
(٧٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٢٦ (١٥ أوت ١٨٦٦)
(٧٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٢٠ (٢٥ ماي ١٨٧٠)
(٧٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.١٨ (١٥ ماي ١٨٧٠)
(٧٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٢٧ (١٤ جوان ١٨٧٠)
(٨٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.١٢٣ (١٥ فيفري ١٨٧١)
(٨١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١٢ (٣١ ديسمبر ١٨٦٠)
(٨٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٢٥ (٤ جوان ١٨٦٢)
(٨٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٢٧ (١٢ جوان ١٨٦٢)
(٨٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٣٤ (٧ جويلية ١٨٦٣)
(٨٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٩٠ (٩ ماي ١٨٦٤)
(٨٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٧٨ (٢٤ مارس ١٨٦٤)
(٨٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١٣٤ (جوان ١٨٦٥)
(٨٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٩ (ماي ١٨٦٦)
(٨٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٢٨ (أوت ١٨٦٦)
(٩٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٧٥ (١٥ سبتمبر ١٨٧٠)
(٩١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٨٤ (٤ أكتوبر ١٨٧٠)
(٩٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٥، و.٨١ (٣١ ديسمبر ١٨٧١)
(٩٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٢٥ (جويلية ١٨٦٦)
(٩٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٥٤ (٢٠ فيفري ١٨٦٣)

(٩٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، (١٤ مارس ١٨٦٣)
(٩٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٦٢ (١٢ أفريل ١٨٦٣). رسالة من أمير الأمراء رشيد أغة باجة وعاملها إلى مصطفى الوزير
(٩٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٦٣ (١٢ أفريل ١٨٦٣)
(٩٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥١، و.٧١ (٢٥ أفريل ١٨٦٣)
(٩٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٦١ (٨ أوت ١٨٧٠)
(١٠٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٢٩ (١٥ جوان ١٨٧٠)
(١٠١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٢٤ (٧ أوت ١٨٦٦)
(١٠٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٥٥ (أفريل ١٨٦٧)
(١٠٣) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٣، و.٦١ (مارس ١٨٦٧)
(١٠٤) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٦٢ (١٠ أوت ١٨٧٠)
(١٠٥) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.٤١ (٢٥ أوت ١٨٦٣)
(١٠٦) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، (٢٩ مارس ١٨٦٤)
(١٠٧) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٢، و.١٥٤ (جانفي ١٨٦٦)
(١٠٨) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٣٦- ٤٥ (١٥- ٢٩ جوان ١٨٧٠)
(١٠٩) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٢٧ (١٤ جوان ١٨٧٠)
(١١٠) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٣٢ (٢٦ جوان ١٨٧٠)
(١١١) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٣٨
(١١٢) **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة التاريخية، صندوق: ٢٩ مكرّر، ملف: ٣٥٤، و.٢٧ (١٤ جوان ١٨٧٠)

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

ظَاهِرةُ فُقَراءِ الـحُجَّاجِ في ولايةِ الحجازِ خلالَ عهدِ السلطانِ العثمانيِّ عبدِ الحميدِ الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ – ١٩٠٩م)

سهى سعود محمد شعبان
باحثة دكتوراه – قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة الملك عبد العزيز
جدة – المملكة العربية السعودية

مُلَخّص

يُعَدّ الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة الركن الخامس من أركان الإسلام وفريضة فرضها الربّ جلّ جلاله على المسلمين مرة واحدة في العمر وعلى المستطيع بإجماع علماء الأمة، وبما أن ولاية الحجاز تحت سيادة الدولة العثمانية منذ عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، فإنها كانت معنية بتسهيل إجراءات الحج وتيسيره للحجاج من منطلق ديني وسياسي، فكان من أبرز تلك الإجراءات هي السماح للحجاج بالقدوم إلى الحجاز خلال مواسم الحج دون ربط ذلك بالإمكانيات المادية لكل حاج، مما أدى إلى انتشار ظاهرة فقراء الحجاج سنويًا في الحجاز، وخاصةً في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧ هـ/ ١٨٧٦ – ١٩٠٩م) في ظلّ سياسته الداعية إلى نشر أفكار الجامعة الإسلامية من خلال مواسم الحج، وبالتالي تبرز أهمية اختيار موضوع الدراسة (ظاهرة فقراء الحجاج في ولاية الحجاز خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني) لتحليلها ومناقشتها من حيث أسبابها وظروفها والآثار الناجمة عنها، فقد اتبعت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي من المصادر التاريخية الأساسية؛ بغية الوصول إلى نتائج. وقد تفاوتت الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة لكل طرف من الأطراف ذات العلاقة بشؤون الحج والحجاج من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال تلك الفترة، فكان من أبرزها الأضرار المعنوية والسياسية التي لحقت بسمعة الدولة العثمانية وبسياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية؛ لعجزها عن حل تلك المشكلة أو تقديم الخدمات اللازمة لهم، لتخفيف معاناتهم لهؤلاء الفقراء من الحجاج في الحجاز خلال مواسم الحج.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٥	يونيو	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	١٦	يوليو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
فقراء الحجاج؛ عبد الحميد الثاني؛ ولاية الحجاز؛ مواسم الحج؛ الجامعة الإسلامية؛ الاستطاعة المالية؛ الدولة العثمانية؛ ظاهرة التسول.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.248779

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
سهى سعود محمد شعبان. "ظَاهِرةُ فُقَراءِ الـحُجَّاجِ في ولايةِ الحجازِ خلالَ عهدِ السلطانِ العثمانيِّ عبدِ الحميدِ الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ – ١٩٠٩م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٦٨ – ١٨٢.

Corresponding author: suha18332@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تعددت الدراسات التاريخية السابقة التي تناولت تاريخ مواسم الحج في الحجاز خلال العهد العثماني، إلاّ أن دراسة ظاهرة فقراء الحجاج في ولاية الحجاز خلال عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧هـ/١٨٧٦ – ١٩٠٩م) لم تحظَ باهتمام كافٍ من الباحثين على الرغم من أهميتها، كظاهرة سنوية تتكرر كل عام في الحجاز خلال مواسم الحج، وفي ظلّ سياسة السلطان العثماني الإسلامية بتسهيل إجراءات الحج وتيسيره للحجاج من منطلق ديني وسياسي، ثمّ تبرز أهمية اختيار الموضوع عبر دراسة تلك الظاهرة من حيث أسبابها وظروفها والآثار الناجمة عنها في ولاية الحجاز خلال تلك الفترة.

وتهدف الدراسة إلى تحديد الأسباب التي أدّت إلى تكرار ظاهرة فقراء الحجاج في الحجاز، والتعرف على أعدادهم وظروفهم وأوضاعهم خلال تلك الفترة، إلى جانب إبراز التدابير اللازمة لاحتواء تلك الظاهرة من جانب السلطات الرسمية والأهلية في الحجاز، بالإضافة إلى استنتاج وتحليل الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية لكل طرف من الأطراف ذات العلاقة بشؤون الحج والحجاج.

وقد اعتمدت الدراسة على منهج البحث العلمي التحليلي التاريخي، القائم على استخراج المادة العلمية من المصادر الأولية كالوثائق غير المنشورة والمصوّرة من الأرشيف العثماني في دارة الملك عبد العزيز بالرياض، وفي معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة بمكة المكرمة، بالإضافة إلى المصادر والمراجع والدوريات المتعلقة بموضوع الدراسة – سواء أكانت باللغة العربية أو الأجنبية أو المترجمة – ثمّ تحليلها ومناقشتها، واستخلاص النتائج منها.

أولاً: الحجاج الفقراء في ولاية الحجاز

لفريضة الحج أهمية دينية ومنفعة كبيرة إزاء تشريعها في الدين الإسلامي الحنيف؛ لذا يتوافد الألوف من الحجاج سنويًا إلى الحجاز لأداء الفريضة؛ استجابةً لأمر الله سبحانه وتعالى، وبما أن ولاية الحجاز خلال فترة الدراسة تحت سيادة الدولة العثمانية؛ فإنها كانت معنية بتسهيل إجراءات الحج وتيسيره للحجاج من منطلق ديني وسياسي، خاصةً في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني[١] (١٢٩٣ – ١٣٢٧ هـ/ ١٨٧٦ – ١٩٠٩ م) وسياسته الداعية إلى نشر أفكار الجامعة الإسلامية[٢] من خلال مواسم الحج ، فكان من أبرز تلك الإجراءات هي السماح للحجاج بالقدوم إلى الحجاز خلال مواسم الحج، دون ربط ذلك بالإمكانيات المادية لكل حاج، مما أدى إلى انتشار ظاهرة فقراء الحجاج سنويًا في الحجاز خلال تلك الفترة.

١/١-أسباب الظاهرة

كان لظاهرة فقراء الحجاج أسبابٌ عدة أدّت إلى انتشارها في الحجاز خلال تلك الفترة، منها دينية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية، **ويتضح ذلك وفق ما يلي:**

- الرغبة الدينية لأداء فريضة الحج وعدم ربط ذلك بإمكانيات المادية للحجاج، ذلك أن بعض المذاهب الإسلامية لا تعدّ انعدام القدرة المالية عائقًا يحول دون تأدية فريضة الحج[٣].
- ازدياد عدد الحجاج الراغبين لأداء فريضة الحج والذهاب إلى الأماكن المقدسة؛ مع تزايد أعداد المسلمين في العالم الإسلامي خلال تلك الفترة، ففي إحدى المراسلات التي عُرِضَتْ على الصدر الأعظم[٤] في (٩ ذي الحجة ١٣١٠هـ/ ٢٤ يونيو ١٨٩٣م) من نظارة الصحة بإستانبول تفيد بورود إخطار من إدارة الحجر الصحي بجدة بأن عدد الحجاج القادمين إليها بحرًا قد بلغ (٩٣,٠٠٠) حاج وهو عدد غير مسبوق قبل ذلك،[٥] فكان من أهم المشكلات التي عانت منها الإدارة الصحية في الحجاز وفي سواحل البحر الأحمر خلال تلك الفترة هي مشكلة قدوم الفقراء من الحجاج إلى الحجاز خلال مواسم الحج سنويًا، مع ازدياد عددهم والتي كانت الأمراض الوبائية تنتشر فيما بينهم على الأغلب.[٦]
- تطور وسائل النقل والطرق البحرية للوصول إلى الأماكن المقدسة؛ إذ أصبح بالإمكان أن يقوم الحاج بالرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج في غضون شهرين أو ثلاثة وبنفقات غير كبيرة،[٧] خاصةً مع استخدام السفن البخارية الكبيرة بعد عام (١٢٥٥هـ/١٨٤٠م) بشكل سريع ومتزايد لحركة النقل البحري بين كل أجزاء العالم،[٨] والتي زاد عدد تلك السفن بعد افتتاح قناة السويس عام (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) حيث مكَّن الحجاج من الوصول إلى موانئ الحجاز بكل سهولة ويُسر،[٩] فتكاثر عدد الحجاج القادمين لأداء فريضة الحج نتيجة لانخفاض تكاليف السفر التي قامت بها أصحاب شركات السفن الأوروبية؛ لجعل رحلة الحج إلى الأماكن المقدسة في متناول أكبر عدد من المسلمين،[١٠] وهكذا فإن معظم هؤلاء الحجاج أصبحوا يذهبون إلى الحجاز خلال مواسم الحج عن طريق البحر، بينما قَلَّ عددهم في القوافل البرية[١١] بعد ما أصبحت خطرة وبطيئة،[١٢] هذا إلى جانب افتتاح سكة حديد الحجاز عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) الممتد من دمشق إلى

المدينة المنورة، بعد استمرار العمل على إنشائه لمدة ثماني سنوات، فكان من أعظم الأعمال الإنشائية التي قام بها السلطان عبد الحميد الثاني خدمةً للحجاج والمسلمين بإيجاد وسيلة للسفر يتوافر فيها السرعة والراحة والأمن.[١٣]

- سياسة الدولة العثمانية المعتمدة بنقل هؤلاء الفقراء من الحجاج إلى ولاية الحجاز؛ وعدم ربط ذلك بالاستطاعة المالية لكل حاج لأداء الفريضة، إلى جانب تحمل السلطات السياسية والأهلية في الحجاز نفقات عودتهم إلى بلدانهم عقب انتهاء مواسم الحج، وقد يُستدل على ذلك من خلال المراسلات والمصادر التاريخية التي تناولت حول هذا الموضوع خلال فترة الدراسة،[١٤] ففي إحدى المراسلات المرسلة من ولاية الحجاز إلى مجلس شورى الدولة[١٥] بإستانبول عام (١٣٠٩هـ/١٨٩٢م) تبين بأن سياسة السلطات المعتمدة في الحجاز تقتضي بعدم ردّ هؤلاء الفقراء من الحجاج لأداء فريضة الحج، خاصةً وأن هؤلاء يأتون بوازع ديني لأداء هذه الفريضة على الرغم من أن القدرة المالية لكل حاج شرطًا من شروط الحج، كما اقتضت سياسة السلطات بعدم إهانة هؤلاء الفقراء بعد انتهاء مواسم الحج، وتحملها نفقات ترحيلهم إلى بلدانهم مجانًا بعد إعداد جدول لإحصاء أعدادهم، والدول والبلدان التي قدموا منها،[١٦] كما تذكر إحدى المصادر بأن خلال موسم حج عام (١٣١٥هـ/١٨٩٨م) قامت شركة سفن تركية بإركاب (٢٤٠) حاجًا من ميناء السويس إلى جدة مجانًا لأنهم فقراء،[١٧] فقد كان هؤلاء من أكثر المستفيدين من سفريات السفن الخيرية التي تقدمها لهم الحكومة العثمانية وغيرها من جهات الرسمية والأهلية خلال تلك الفترة، خاصةً مع سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية من خلال مواسم الحج في الحجاز،[١٨] وفي (١٦ ذي القعدة ١٣٢٧هـ/ ٢٨ نوفمبر ١٩٠٩م) أرسل المدير العام لخط الحجاز لنظارة خط سكة حديد الحجاز في إستانبول بأن مديرية تشغيل الخط قد نقلت حوالي (١٠٠٠) حاج من الفقراء مجانًا إلى الحجاز.[١٩]
- عدم اتخاذ التدابير اللازمة من قِبل سلطات البلدان التي يأتي منها فقراء الحجاج للحد من قدومهم سنويًا إلى الحجاز خلال مواسم الحج، ويتضح ذلك من خلال تقارير القناصل الغربيين بجدة التي أوصت حكوماتهم بضرورة تحري القدرة المالية لكل حاج؛ إنْ كان يُسمح له بالذهاب والعودة بعد انتهاء مواسم الحج، كالتقارير السنوية لنائب القنصل البريطاني بجدة الطبيب عبد الرزاق (Abdur Razzac)،[٢٠] والقنصل الفرنسي لوسيان لابوس (Lucien Labosse)[٢١] عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م).[٢٢]

١/٢-أعدادهم وجنسياتهم

كان فقراء الحجاج يأتون إلى الحجاز سنويًا خلال مواسم الحج بطرق مختلفة، منها عبر القوافل البرية،[٢٣] أو سيرًا على الأقدام وهم كُثر، أو إلى الموانئ القريبة عبر البحر،[٢٤] وبما أن جدة هي الميناء الرئيس للحجاز على ساحل البحر الأحمر، وبوابة للوصول إلى الأماكن المقدسة، فإن القسم الأكبر من الحجاج يأتون إليها بحرًا، ومن خلال إحصائية حركة مرور الحجاج إلى جدة عن طريق البحر يتضح لنا أعداد الفقراء منهم خلال فترة (١٢٩٣ – ١٣٠١هـ/ ١٨٧٦ – ١٨٨٤م):

جدول رقم (١)

حركة مرور الحجاج في ميناء جدة (١٢٩٣ – ١٣٠١هـ/ ١٨٧٦ – ١٨٨٤م)[٢٥]

التاريخ	عدد الحجاج	الفقراء منهم
٢٣ محرم ١٢٩٣ – ٢ صفر ١٢٩٣هـ/ ١ مارس ١٨٧٥ – ٢٨ فبراير ١٨٧٦م	٤٠٩٣٨	٦٣٠٨
٤ صفر ١٢٩٣ – ١٤ صفر ١٢٩٤هـ/ ١ مارس ١٨٧٦ – ٢٨ فبراير ١٨٧٧م	٤٣٤١٣	٥٤٤٧
١٥ صفر ١٢٩٤ – ٢٥ صفر ١٢٩٥هـ/ ١ مارس١٨٧٧ – ٢٨ فبراير ١٨٧٨م	٤٦٩١١	٤٧٤٥
٢٦ صفر ١٢٩٥ – ٦ ربيع الأول ١٢٩٦هـ/ ١ مارس ١٨٧٨ – ٢٨ فبراير ١٨٧٩م	٤٦٧٥٠	٧٤٧٥
٧ ربيع الأول ١٢٩٦ – ١٧ربيع الأول ١٢٩٧هـ/١ مارس ١٨٧٩ – ٢٨ فبراير ١٨٨٠م	٤٨١٤٦	٥٩٦٤
١٩ ربيع الأول ١٢٩٧ – ٢٨ ربيع الأول ١٢٩٨هـ/١ مارس١٨٨٠ – ٢٨ فبراير ١٨٨١م	٧٦٢٤١	٦٦٠٠
٢٩ ربيع الأول ١٢٩٨ – ٩ ربيع الثاني ١٢٩٩هـ/١ مارس ١٨٨١ – ٢٨ فبراير ١٨٨٢م	٤٥٧٥٦	٤٧٩٧
١٠ ربيع الثاني ١٢٩٩ – ٢٠ ربيع الثاني ١٣٠٠ هـ/١ مارس ١٨٨٢ – ٢٨ فبراير ١٨٨٣م	٣١٣٤١	٦٢٢٠
٢١ربيع الثاني ١٣٠٠– ١ جمادى الأولى ١٣٠١هـ/ ١ مارس ١٨٨٣ – ٢٨ فبراير ١٨٨٤م	٣٦٦٥٨	٧١٨٠

وبمقارنة ما ورد في الإحصائية حيال أعداد فقراء الحجاج القادمين إلى جدة خلال الفترة المشار إليها، يتضح لنا ما يلي:

- أن مشكلة قدوم فقراء الحجاج إلى الحجاز قد أصبحت ظاهرة سنوية تتكرر كل عام، وأن جدة هي من تستقبل القسم الأكبر منهم؛ لكونها البوابة الرئيسة للوصول إلى الأماكن المقدسة عن طريق البحر، إلى جانب تحمل إدارة الحجر الصحي بجدة العبء الأكبر في استقبال هؤلاء الفقراء وإيوائهم وتقديم المؤن والغذاء لهم، فضلاً عن تطبيق الحجر الصحي عليهم.
- تفاوت أعداد هؤلاء الفقراء من عام لآخر خلال فترة الدراسة، ففي عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) نجد أن أعدادهم قد بلغ (٦٣٠٨) من الحجاجً، ثمّ تتناقص أعدادهم بعدة أعوام، لترجع ترتفع أعدادهم في عام (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م) إلى (٧٤٧٥) حاجًا، وفي عام (١٣٠١هـ/١٨٨٤م) وصل عددهم إلى (٧١٨٠) حاجًا، ولعل هذا التباين والاختلاف يرجع إلى الإجراءات التي قامت بها الدول للحد من قدومهم أو لانتشار الأوبئة في بلدانهم، وظروف الحجر الصحي، ومنعهم من السفر.

أما من حيث جنسياتهم فقد كانوا من مختلف القوميات ومن بلدانٌ عدة؛ في مقدمتهم الحجاج الهنود الذين كانوا يأتون بالآلاف سنويًا إلى ولاية الحجاز في حالة من الفقر المدقع،[٢٦] إلى جانب فقراء الحجاج من آسيا الوسطى والقوقاز وإيران وتركيا،[٢٧] بالإضافة إلى فقراء الحجاج من بلدان عربية كحجاج المغاربة ومصر وبلاد الشام واليمن.[٢٨]

٣/١-ظروفهم وأوضاعهم

بحسب مشاهدات الرحّالة الذين زاروا الحجاز في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وتقارير الأطباء والقناصل الغربيين بجدة خلال تلك الفترة، فإن هؤلاء الفقراء قد واجهوا ظروفًا وأوضاعًا صعبة؛ نتيجةً لعدم امتلاكهم الإمكانيات المادية التي تمكنهم من الإقامة في الخانات أو البيوت المستأجرة في المدن الحجازية، وينامون في الأزقة والشوارع، متخذين من هذه الأماكن مأوى لهم، ففي مكة المكرمة كانت شوارعها حافلة بهم على الدوام؛ طوال اليوم كله،[٢٩] نتيجة لعدم مقدرة هؤلاء الفقراء لاستئجار خانات يقيمون فيها، ثمّ يفترشون على جنبات الطرق وفي الأسواق ليلا ونهارًا،[٣٠] يأكلون من الصدقات التي تقدم لهم، فقد ذكر الرحّالة المصري محمد لبيب البتنوني[٣١] في كتابه (الرحلة الحجازية) خلال زيارته إلى الحجاز خلال موسم الحج عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) أنه وجد عند باب إبراهيم[٣٢] آلافًا من فقراء الحجاج من الهنود والمغاربة والتكارنة، والكثير منهم كانوا من المقعدين الذين لا يقدرون على الحركة، ويمضون لأيام على جنبات الطرق، معتمدين على ما يقدمونه لهم أرباب الخير من الصدقات لأجل العيش، وهذا الأمر لا يليق بالكرامة الإنسانية ولا في الحرم المكي،[٣٣] وفي جدة نجد أن هؤلاء الفقراء كانوا يفترشون على جنبات الطرق وفي الشوارع، وعلى الأرصفة البحرية في المحاجر الصحية، مما يجعلهم يتعرضون للتأثيرات الهوائية والأمطار والرطوبة وأشعة الشمس، ثمّ يصابون بالأمراض المختلفة، خاصةً إذا كان بين الحجاج من يحمل ميكروب الكوليرا (Cholera)؛[٣٤] مما يساعد على تفشي الوباء في داخل المدينة، فضلاً عن إخلالهم للنظافة العامة بسبب إقامتهم في الطرقات وفي الأسواق ويلوثون الأماكن التي يوجدون بها.[٣٥]

كما أن البعض من الفقراء الذين قدموا إلى الحجاز خلال مواسم الحج كانوا يقومون ببيع تذكرة العودة حتى يتمكنوا من توفير ما يلزم للسكن والغذاء،[٣٦] وأيضًا من كانوا لا يفكرون بالعودة إلى بلدانهم، ويحاولون إيجاد فرص عمل مختلفة في أعمال لا يقبل سكان الحجاز العمل بها وبأجور منخفضة، مثل العمل أمام أبواب المساجد، حيث يحتفظون بأحذية المصلين لقاء مبلغ مالي زهيد، أو يعملون في خدمة عدد من الأسر، أو يعملون في العديد من الأعمال الأخرى التي لا يقبل الخدم العمل بها.[٣٧]

وقد كان للقناصل الغربيين بجدة تقاريرهم بهذا الخصوص، كتقارير نائب القنصل البريطاني الطبيب عبد الرزاق خلال تلك الفترة، حيث شكّلوا رعاياهم من الهند أكبر نسبة من الحجاج تصل إلى الحجاز سنويًا لأداء فريضة الحج عبر البحر في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي،[٣٨] من ضمنهم فقراء الحجاج والمتسولين التي كانت حكومة الهند البريطانية (Government of India)[٣٩] تسمح بقدومهم سنويًا خلال مواسم الحج، مشيرًا في إحدى تقاريره بأن عدد الفقراء الذين قدموا من الهند خلال موسم حج عام (١٣٠٠هـ/١٨٨٣م) قد بلغ (٢٥١٥) من المجموع الكلي للحجاج الهنود الذين بلغ عددهم في ذلك العام (١١٧٦٦) حاجًا، حيث كان في كلٍّ من مكة المكرمة وجدة عدد كبير من فقراء الحجاج الهنود الذين تقطعت بهم السبل ولا يستطيعون العودة بسبب تباطؤ السفن البريطانية في نقلهم لأنها لا تجد ذلك مجزيًا لها، إلى جانب الظروف المعيشية والصحية الصعبة خلال تواجدهم في

الولاية نتيجةً لفقرهم، وعليه يجب عدم السماح لأي فرد بالقدوم إلى الحجاز لأداء فريضة الحج إذا لم يكن لديه موارد المالية الكافية لتغطية نفقاته، مع ضرورة منع المتسولين والفقراء من الحضور ووضع الضوابط بالتدريج،[٤٠] إلاّ أننا نجد في تقارير أخرى لم تلتزم حكومة الهند البريطانية بعدم إرسال مجموعات من فقراء الحجاج الهنود إلى الحجاز خلال تلك الفترة، ففي عام (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م) بلغ عدد فقراء الحجاج الهنود الذين قدموا لأداء فريضة الحج حوالي (٣٠٠٠)،[٤١] وفي عام (١٣٠٤هـ/١٨٨٧م) بلغ عددهم إلى (٤٩٥٥).[٤٢]

أما القنصل الفرنسي بجدة لابوس فقد أشار في تقريره المقدم إلى وزير الشؤون الخارجية الفرنسية ريبو (Ribot) عن موسم الحج عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م) بأن عدد الحجاج المتخلفين بعد انتهاء موسم الحج في ذلك العام بلغ (٢٥٠٠) حاج من بينهم (١٠٠٠) مغربي، كانوا موجودين في ينبع بانتظار السفن لنقلهم إلى بلدانهم، أما الحجاج الآخرون وعددهم (١٥٠٠) فقد تقطعت بهم السبل، وليس لديهم المال ما يعيشون به، أو ما يمكنهم من السفر إلى بلدانهم، وغالبيتهم مهددون بالموت جوعًا، ومن بينهم من يمارس التسول في كلٍّ من مكة المكرمة وجدة، مشيرًا إلى أنه لا بُدَّ أن تتخذ الإدارة الفرنسية في شمال إفريقيا الإجراء الصحيح المتمثل بضرورة دفع الحجاج القادمين إلى الحجاز خلال مواسم الحج تذكرة الذهاب والإياب عند الانطلاق، وأن تتخذ الإدارة الفرنسية في الجزائر الإجراء نفسه الذي طبقته تونس والمتمثل في وجود ضامن يكون مسؤولا عن المقدار المالي الذي ستدفعه القنصلية الفرنسية لهم كسلف عند تخلفهم في الحجاز، وبهذه الطريقة ستتجنب الحكومة الفرنسية تلك المناظر المحزنة التي تتكرر كل عام في الحجاز والمتمثلة في وجود متسولين من رعاياها يموتون جوعًا وبؤسًا، وهو ما قد يمس هيبة فرنسا ومكانتها.[٤٣]

هذا وقد كان لتقرير الطبيب العثماني محمد شاكر القيصري[٤٤] المقدم إلى السلطان عبد الحميد الثاني عن موسم الحج عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م) مشاهداته حول هؤلاء الفقراء الذين كانوا يأتون إلى الحجاز سنويًا خلال مواسم الحج بمجموعات أو فئات متباينة ؛ إذ منهم من كانوا فقراء يأتون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ثمّ يعودون إلى بلدانهم مباشرةً بعد الانتهاء من الفريضة، وفئة أخرى من كانوا ليسوا فقراء بالأصل ولم يشكّلوا عبئًا على أحد، غير أنهم قد أصبحوا فقراء؛ نتيجةً لنفاد أموالهم التي ادخروها بعد اعتقادهم أنها ستكفيهم في الذهاب والإياب، ويعود السبب في نفادها إلى إجراءات الحجر الصحي أو لإصابتهم بمرض أو لسرقة أمتعتهم، ثمّ يقعون تحت طائلة الفقر بغير رضاهم، طالبين أصحاب الحمية لمساعدتهم من أجل عودتهم سريعًا إلى بلدانهم، وهناك فئة من الفقراء قد اتخذت من التسول مهنةً لهم، حيث نجدهم يمدون أيديهم لإزعاج الركاب وهم ما يزالون في السفينة قبل وصولهم إلى الحجاز، وللأسف كانوا هم أكثر فئة موجودة في الولاية خلال مواسم الحج.[٤٥]

ومن خلال ما سبق لا بُدَّ من الإشارة إلى عدة مفارقات وملاحظات حول ما ذُكِرَ:

- على الرغم من أن الحجاز قد أصبح ولاية بموجب قانون الولايات الصادر في (٨ جمادى الآخرة ١٢٨١هـ/ ٧ نوفمبر ١٨٦٤م)،[٤٦] وأنه قد ازداد أهميته في عهد السلطان عبد الحميد الثاني بسبب سياسته القائمة على الجامعة الإسلامية من خلال مواسم الحج، إلاّ أننا نجد بأن الخدمات المقدمة لتخفيف معاناة فقراء الحجاج ضعيفة من حيث عدم تأسيس دُور للغرباء أو مضيفة لهم من أجل الإقامة فيها بدلاً من إقامتهم في الشوارع وعلى جنبات الطرق ليلاً ونهارًا، إلى جانب انتشار ظاهرة التسول والمتسولين في الولاية.
- إن كل ما ذُكِرَ عن مشاهدات وتقارير حول ظاهرة فقراء الحجاج في الحجاز خلال تلك الفترة قد اتفقت جميعها على معاناتهم؛ نتيجةً لفقرهم وعدم مقدرتهم للعودة إلى بلدانهم بعد انتهاء مواسم الحج، ومنهم من كانوا ليسوا فقراء بالأصل غير أنهم قد أصبحوا كذلك نتيجةً لنفاد أموالهم بعد وصولهم إلى الولاية.
- إن شركات السفن البريطانية كانت تهيمن بشكل تام على النقل الخاص بالهند خلال تلك الفترة، حيث يدفع الحجاج ثمنًا أقل، وبدون زيادة في مصاريف الرحلة،[٤٧] ثمّ كانت لها الصدارة في البحر الأحمر، سواء في نقل الحجاج أو في التجارة البحرية،[٤٨] وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد من خلال تقرير نائب القنصل البريطاني في جدة الطبيب عبد الرزاق عن موسم حج عام (١٣٠٠ هـ/١٨٨٣م) بأن تلك السفن قد تباطأت في نقل رعاياهم من فقراء الحجاج الهنود إلى بلدانهم بعد انتهاء مواسم الحج، بحجة أن هذا الأمر غير مجزٍ لها، وبالتالي لم تستطع القنصلية البريطانية الضغط عليهم، بالإضافة إلى عدم الأخذ بتوصيات نائب القنصل البريطاني بعدم إرسال فقراء الحجاج الهنود إلى الحجاز خلال مواسم الحج .
- إن الإدارة الفرنسية في تونس كانت قد فرضت عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م) امتلاك كل حاج جواز سفره تحمل توقيعه

وشهادته بأن له ما يكفيه من مصاريف سفره ذهابًا وإيابًا، إضافةً إلى ذكر اسم الضامن المالي،[٤٩] وهذا الأمر يتوافق مع ما ذكره القنصل الفرنسي في جدة لابوس بهذا الخصوص في تقريره المقدم عن موسم الحج في ذلك العام.

ثانيًا: التدابير اللازمة لاحتواء تلك الظاهرة

لا شكّ أنّ قدوم فقراء الحجاج إلى الحجاز خلال مواسم الحج سبَّب مشكلات كثيرة في الولاية، فاتخذت السلطات الرسمية والأهلية في الحجاز عدة تدابير لازمة؛ لاحتواء تلك الظاهرة، تخفيفًا لمعاناة هؤلاء الفقراء خلال إقامتهم في الأماكن المقدسة وعقب انتهاء مواسم الحج، فكان من ضمن تلك التدابير:

٢/١-سياسة ترحيلهم وإعادتهم إلى بلدانهم

تُعَدّ سياسة ترحيل فقراء الحجاج من الحجاز وإعادتهم إلى بلدانهم من السياسات المهمة التي اتخذتها السلطات العثمانية في الولاية خلال تلك الفترة، منعًا من بقائهم مدةً طويلةً عقب انتهاء من مواسم الحج.

وبناءً عليه فقد قدمت السلطات السياسية في الولاية المساعدات والتسهيلات للحجاج الذين أدّوا فريضة الحج ويودّون العودة إلى بلدانهم، وذلك بتخصيص سفن لنقل عدد كبير من فقراء الحجاج وإعادتهم إلى بلدانهم، سواء على نفقة السلطان العثماني، أم على نفقة الدولة بهدف إجلائهم عن الحجاز بأقصى سرعة،[٥٠] فكان هؤلاء من أكثر المستفيدين من سفريات السفن الخيرية على نفقة الدولة العثمانية أو الوجهاء المحليين من المحسنين لإعادتهم إلى بلدانهم،[٥١] ففي عام (١٣٠٥هـ /١٨٨٧م) بلغ عدد هؤلاء الحجاج (٦٥١) حاجًّا، فكلفت السلطات المحلية إحدى السفن بنقلهم مجانًا إلى بلدانهم، ثمّ تكرر ذلك في عام (١٣٠٦هـ /١٨٨٨م) وبلغ عددهم آنذاك (٢٢٥) حاجًّا فأعادتهم إلى بلدانهم،[٥٢] وفي (٢٥ ذي الحجة ١٣٠٦هـ/٢١ أغسطس ١٨٨٩م) أرسل الوالي العثماني نافذ باشا[٥٣] في الحجاز إلى مقام الصدارة العظمى[٥٤] بإستانبول طلبًا بضرورة إرسال سفينة إلى ميناء جدة على وجه السرعة لنقل فقراء الحجاج البالغ عددهم (٤٠٠) حاج والذين تجمعوا أمام مقر الحكومة وتوزعوا في عدة نواحٍ وأماكن؛ نتيجة لعدم مقدرتهم على العودة إلى بلدانهم،[٥٥] هذا وقد كانت السلطات المحلية في ميناء جدة تجبر ربّان كل سفينة بقبول العشرات من هؤلاء الفقراء مجانًا لإعادتهم إلى بلدانهم.[٥٦]

وفي (٢٣ ذي الحجة ١٣٠٧هـ/١٠ أغسطس ١٨٩٠م) أرسل الوالي العثماني حقي باشا[٥٧] في الحجاز إلى الصدارة العظمى طلبًا بضرورة إصدار الأوامر بإرسال سفينة إلى ميناءي جدة وينبع لنقل الحجاج على وجه السرعة إلى بلدانهم؛ إذ طبقًا للمعلومات الواردة من جدة تفيد بأن عدد الحجاج الذين وصلوا لأداء فريضة الحج هذا العام قد وصل إلى عشرة آلاف حاج، ألفان منهم يريدون العودة إلى بلاد الشام والأناضول، وكان المُقْتَدِر منهم لا يستطيع الدفع لأجل العودة غير أربع ليرات تركية، وعلى الرغم من ذلك فإن السفينة (طرسوس) التي كانت ترفع الراية العثمانية لم تأخذهم، واتجهت إلى ميناء ينبع لأخذ الحجاج من هناك بسبع ليرات تركية لكل حاج، وبالتالي فقد كتب قائمقام في جدة[٥٨] بضرورة إصدار الأوامر إلى السفينة (طرسوس) بأخذ الحجاج من جدة وينبع لنقلهم إلى بلاد الشام وإزمير بأربع أو ثلاث ليرات تركية، حفاظًا على حياتهم وعدم بقائهم مدة طويلة في الولاية.[٥٩] وبعد انتهاء موسم الحج في (٥ جمادى الأولى ١٣٠٨هـ/١٧ ديسمبر ١٨٩٠م) قامت إحدى السفن في جدة بإركاب فقراء الحجاج الموجودين في الميناء مجانًا لنقلهم إلى بلدانهم.[٦٠]

وفي (١٧ صفر ١٣٠٩هـ/٢١ سبتمبر ١٨٩١م) عرضت الصدارة العظمى على نظارة البحرية بإستانبول نصّ برقية واردة إليها من ولاية الحجاز، توضح فيها بأن حوالي (١٥٠) شخصًا من فقراء الحجاج العائدين من المدينة المنورة إلى جدة متوقفون هناك، وأن حوالي (١٠٠) من فقراء الحجاج متوقفون كذلك في ينبع بسبب عدم امتلاكهم الأموال اللازمة للعودة إلى بلدانهم، وبالتالي طلبت ولاية الحجاز إصدار الأوامر لإحدى السفن العائدة من ولاية اليمن بالمرور إلى الحجاز؛ لنقلهم هؤلاء الحجاج المذكورين مجانًا، فردّت نظارة البحرية على مضمون تلك البرقية بأنه سوف يتم نقل هؤلاء الحجاج المذكورين على متن السفينة (شرف) الموجودة حاليًا في جدة بعد دفع الأجرة المناسبة لنقلهم وعدم تأخيرهم في العودة إلى بلدانهم.[٦١]

من جهة أخرى كانت سياسة إركاب هؤلاء الفقراء من الحجاج في تلك السفن مجانًا وهي أساسًا مكتظة بركاب آخرين، له مخاطر صحية وفوضى كبيرة نتيجةً لازدحام الحجاج على سطح تلك السفن ونقل الأمراض والعدوى ما بينهم،[٦٢] وبالتالي كانت مسألة سلامة نقل الحجاج وضمان أرواحهم على متن إحدى السفن موضع اهتمام ومتابعة بين الدوائر الرسمية في إستانبول وبين سلطات الولاية في الحجاز، ففي (٤ جمادى الآخر ١٣٠٩هـ/٥ يناير١٨٩٢م) اطلعت الإدارة الداخلية لمجلس شورى الدولة بإستانبول على مذكرة نظارة البحرية الخاصة عن إصرار

السلطات المحلية في ميناء جدة على نقل فقراء الحجاج مجانًا على متن إحدى السفن التابعة للإدارة المخصوصة، متجاوزين عددهم نحو (١٠٠٠) شخص، دون اعتبار المخاطر الصحية على حياتهم، فاطلعت الإدارة الداخلية على مذكرة مقدمة من ولاية الحجاز تفيد بأن عدد فقراء الحجاج الذين نقلوا مجانًا على متن إحدى السفن التابعة للإدارة المخصوصة هو (٤٩٢) شخصًا وليس (١٠٠٠) من خلال قائمة أعداد الفقراء من الحجاج في ذلك العام، وبالتالي أصدر مجلس شورى الدولة قراره بضرورة تحديد عدد معين من فقراء الحجاج الذين سوف يتم نقلهم على متن سفن الإدارة المخصوصة، على أن تقوم سلطات الولاية بالتحقق في أحوال هؤلاء الحجاج، وألا تمنح تصريح ركوبهم مجانًا إلاّ بعد التأكد من سوء حالتهم المالية، وألا يزيد عددهم عن (٣٠٠) شخص، وعليه تمت إحالة الأمر إلى نظارة البحرية.[٦٣]

وفي (١٥ ربيع الآخر ١٣١٥هـ/١٢ سبتمبر ١٨٩٧م) أرسل الوالي العثماني أحمد راتب باشا[٦٤] في الحجاز إلى نظارة الداخلية بإستانبول برقية تفيد بأن السفينة (طرسوس) قد أقلت حوالي (١٠٠) شخص من الحجاج الفقراء في ينبع، بعد أن أقلت الحجاج الموجودين في جدة، وقد أبحرت شمالاً باتجاه السويس، رافعين أكف الدعاء بالخير للسلطان العثماني.[٦٥]

٢/٢-تأسيس دُور الغرباء (مضْيَفَة الحجاج)

تُعَدّ مسألة تأسيس دُورٍ للمغتربين ولفقراء الحجاج في المدن الحجازية من التوصيات الضرورية التي أوصى بها الطبيب القيصري في تقريره المقدم للسلطان عبد الحميد الثاني عن موسم الحج عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م) لتحسين الأوضاع الصحية في الولاية،[٦٦] والتي كانت الإدارة الصحية العامة في الحجاز قد وضعت على قائمة أولوياتها تأسيس مضيفة لهؤلاء الفقراء في مكة المكرمة طوال فترة إقامتهم بما أمكن، لتخفيف الأضرار الصحية التي يمكن أن يصيبوا بها الحجاج الآخرين إزاء تلك المشكلة بإقامة هؤلاء الفقراء في الطرق والشوارع،[٦٧] وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد أن هناك تناقضًا وتأخيرًا في تطبيق القرارات والأوامر المتعلقة بتأسيس دُور للغرباء أو مضْيَفَة للحجاج في الحجاز خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ولعل ذلك يرجع إلى العجز في الميزانية المالية للدولة، وعدم مقدرتها على تغطية النفقات لتأسيس المضيفة.

ففي (١٧ ربيع الآخر ١٣١١هـ/ ٢٧ أكتوبر ١٨٩٣م) استفسر الصدر الأعظم من الباب العالي[٦٨] عن أمر سلطاني صُدر بمذكرة رسمية تبلغتها في (١٦ربيع الآخر/٢٦ أكتوبر) من العام نفسه حول ضرورة تأسيس الحجر الصحي و والمضْيَفَة للحجاج في جدة قبل موسم الحج عام (١٣١١هـ/١٨٩٣م) على أن تكون المصاريف لإنشائها من جانب السلطان العثماني، وقد تناولت بعض الصحف الأوروبية عن هذا الأمر في مقالات عدة بعد أن تمت دعوة مراسلي تلك الصحف الموجودين في إستانبول للحضور إلى الباب العالي، والتي قد أرسلت ولاية الحجاز مؤخرًا برقية في (٨ ربيع الآخر/١٩ أكتوبر) من العام نفسه للاستفسار عن كيفية تأسيس الحجر الصحي و والمضْيَفَة في مكان مناسب بجدة، وعليه لم يكن للصدارة العظمى ردّ حول هذا الأمر وأرادت استفسارًا من السلطان العثماني.[٦٩]

وفي المؤتمر الصحي الدولي الذي انعقد في باريس عام (١٣١١هـ /١٨٩٤م) قَدَّم الوفد العثماني المشارك مقترحًا بتأسيس دار للضيافة في مكة المكرمة لإقامة فقراء الحجاج، لتكون من جملة التدابير المتخذة في ولاية الحجاز للحدِّ من تلك المشكلة،[٧٠] وبالفعل تمّ افتتاح (المسافرخانة) أو مَضْيَفَة للحجاج الفقراء في جنوب الغربي بمكة المكرمة عام (١٣٢٥هـ / ١٩٠٨م) على نفقة السلطان العثماني،[٧١] لكنها حُوِّلَت إلى مقر لإقامة الجنود بعد إعلان المشروطية الثانية (الدستور)، فَجَرَتْ مراسلات ما بين نظارة الصحة بإستانبول ونظارة الحربية لتسليم المضْيَفَة إليها؛[٧٢] أما في جدة وباقي المدن الحجازية فإنه لم يتم أي إشارة أو ذكر عن تأسيس دُورٍ للغرباء أو مضْيَفَة للحجاج في المصادر الحجازية وكُتُب الرحَّالة خلال فترة الدراسة بحسب اطلاع الباحثة.

٣/٢-تدابير ثانوية

- قيام السلطات الرسمية والأهلية في الولاية بتوزيع الصدقات لهؤلاء الفقراء، وتوفير المساكن المجانية لهم،[٧٣] فضلاً عن إيوائهم في المحجر الصحي وتقديم المؤن الغذائية لهم على نفقة الحكومة العثمانية،[٧٤] إلى جانب استحداث وظيفة في إدارة الشرطة بمكة المكرمة مهمتها منع إقامة فقراء الحجاج في الطرق والشوارع خلال مواسم الحج، حفاظًا على صحة العامة والبيئة.[٧٥]
- تقديم العلاج المجاني للفقراء من الحجاج، فقد اختلفت المستشفيات المبنية في الحجاز بالعهد العثماني من حيث الفئات المستهدفة؛ إذ إن بناءها والخدمات التي كانت ستقدمها بعد تأسيسها جاءت استجابةً للحاجة الماسة لتوفير العلاج للفقراء الحجاج بالدرجة الأولى؛ لذلك يُطلق على بعض المستشفيات في كلٍّ من مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة اسم مستشفى الغرباء، بالإضافة إلى المستشفيات المتنقلة التي كانت تؤسس خلال مواسم

الحج، ولا سيما أثناء تفشي الأوبئة بين الحجاج، إلى جانب تقديم الصيدليات في داخل الولاية الدواء المجاني للأهالي وللفقراء منهم.[٧٦]

- دور التكية المصرية[٧٧] بمكة المكرمة والمدينة المنورة في تخفيف معاناة فقراء الحجاج من حيث استقبالهم وإيوائهم وتقديم الطعام والشراب لهم، إذ تذكر إحدى المصادر بأن التكية المصرية في مكة المكرمة كانت تقدم لمن يقصدها يوميًا نحو – خمسمائة شخص أو يزيدون من الفقراء والمعوزين – الطعام والشراب وعلى نفقة الحكومة المصرية.[٧٨]

ثالثًا: الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة

١/٣-الآثار السياسية

(١/٣) ١-الأضرار المعنوية والسياسية للدولة العثمانية:

كان أهم أثر سياسي للدولة العثمانية كنتيجة لتوافد فقراء الحجاج سنويًا إلى ولاية الحجاز خلال تلك الفترة هو الأضرار المعنوية والسياسية التي لحقت بسمعة الدولة وبسياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية، لعجزها عن حل تلك المسألة باتخاذ الإجراءات المناسبة للحدّ من قدومهم سنويًا، على الرغم من التقارير والتوصيات التي قُدِّمت بهذا الخصوص، أو حتى تقديم الخدمات اللازمة لتخفيف معاناتهم ولأوضاعهم المزرية في الولاية نتيجةً لفقرهم.

ففي تقرير الطبيب القيصري المقدم إلى السلطان العثماني كان قد أوصى بضرورة قيام الحكومة العثمانية والأطباء المحليين في البلدان التي يأتي منها الحجاج بعمل فحص طبي عليهم قبل قدومهم، مع تحري حالتهم المالية؛ نظرًا لعدم تعرضهم للمعاناة في المستقبل بعد قدومهم إلى الحجاز، مشيرًا إلى أن مذهب الحنفية – المذهب الرسمي للدولة – قد جعل الاستطاعة المالية ثمّ الاستطاعة الجسدية والصحية من أهم شروط الحج، وبما أن الحج لم يُفْرَض على الفقراء والمرضى؛ فإن الدين الإسلامي لا يسمح بحصول متاعب صحية للفقراء والمرضى الذين يحجون ثمّ يموتون في الحجاز خلال مواسم الحج.[٧٩]

وبناءً عليه فإنه بالإمكان منعهم من القدوم إلى الحجاز خلال مواسم الحج؛ لأنهم سوف يُصابون بالأمراض المعدية ويموتون بسببها، ويكونون هم السبب في انتشار تلك الأمراض والأوبئة، وبالتالي منعهم من القدوم سيكون للمنفعة العامة، وعلى الرغم من ذلك فإن تلك المسألة أو قرار المنع يحتاج إلى مباحثات طويلة[٨٠] تجريها الحكومة العثمانية مع الجهات المعنية، وبما أنها لم تتخذ الإجراء المناسب حول تلك المسألة، فإن قرار منع قدوم هؤلاء الفقراء إلى الحجاز خلال مواسم الحج قد جرت مناقشتها في المؤتمر الصحي الدولي في باريس عام (١٣١١هـ/١٨٩٤م) للحدّ من قدومهم، إلاّ أن مندوب الدولة العثمانية في المؤتمر طرخان باشا اعترض على ذلك، مؤكدًا بأن فريضة الحج فريضة دينية لا يجوز لأي أحد أن يمنعها، ثمّ إن السلطان العثماني لا يقبل بمنع المسلمين من أداء الفريضة بحجة الفقر، بل سوف يسعى لاتخاذ التدابير اللازمة باستمرار مساعدته للفقراء الحجاج، وإنشاء دار الضيافة في مكة المكرمة، وبالتالي لم يوافق الوفد العثماني المشارك في المؤتمر على هذا القرار.[٨١]

هذا وقد كان من غير الممكن أن توافق الدولة العثمانية على هذا القرار التي تربط تأدية المسلمين للشعائر الدينية بإمكانياتهم المادية، حيث كان القبول مثل هذا القرار يدخل في باب تعطيل العبادات الدينية التي تعدُّ حقوقًا طبيعية لكل المسلمين، وتُعدُّ بمثابة ضربة عنيفة لسياسة الجامعة الإسلامية، ولهيبة السلطان والدولة العثمانية في العالم الإسلامي،[٨٢] ثمّ تدخل في صدام ديني مع المسلمين كنتيجة لتلك القرار، على الرغم من الأضرار المتعددة التي لحقت بها لتوافد هؤلاء الفقراء من الحجاج سنويًا إلى الولاية خلال مواسم الحج.

(١/٣) ٢-عدم السماح بالقدوم لمن لا يحمل نفقة الحج:

من الآثار السياسية الناجمة عن ظاهرة فقراء الحجاج في الحجاز هو اتخاذ بعض البلدان ذات العلاقة بشؤون الحج والحجاج إجراءات للحدِّ من قدومهم إلى الولاية، وهو عدم السماح للحاج بالسفر لأداء فريضة الحج إلاّ بعد التأكد من قدرته المالية لتغطية نفقاته ذهابًا وإيابًا.

على سبيل المثال اتخذت السلطات الهولندية في جزر الهند الشرقية إجراء بعدم السماح بالسفر لمن لا يحمل نفقة الحج ذهابًا وإيابًا من رعاياهم،[٨٣] حيث فرضت عليهم شراء تذاكر السفر غير قابلة للاسترداد، مع إيداع ضمان مالي لدى قنصليتها بعد وصولهم إلى جدة،[٨٤] كذلك مع السلطات الفرنسية في الجزائر حيث فرضت عام (١٣٠٦هـ/١٨٨٩م) على الحجاج مبلغًا ماليًا مقداره (١٠٠٠) فرنك فرنسي نقدًا وتذكرة السفر ذهابًا وإيابًا مع جواز السفر، وكان هذا الإجراء قد تمّ تأكيده بقانون تنظيم شؤون الحج الذي تمّ إقراره عام (١٣١١هـ/١٨٩٤م)،[٨٥] بينما اتخذت السلطات الفرنسية في تونس قرارًا بعدم منح جواز السفر إلى الحجاز إلاّ لمن يثبت قدرته ماديًا على السفر ذهابًا وإيابًا، وذلك

حتى لا تضطر الحكومة الفرنسية إلى إعادته على نفقتها بعد مدة قد تطول أو تقصر، إلى جانب تقديم ضامن أو كفيل؛ يكون مسؤولاً عن المقدار المالي الذي ستدفعه القنصلية الفرنسية له كسلف.[٨٦]

أما ولاية مصر فإنها اتخذت قرارًا بعدم منح جواز السفر لأجل الحج إلاّ بعد تقديم الحاج إفادة بامتلاك ما يكفي من الأموال لأجل رحلته وإعانة نفسه، فقد كان المطلوب دفع ثمن الرحلة وتقديم تذكرة السفر ذهابًا وإيابًا مقدمًا إلى الشركة المصرية الخديوية قبل حصوله على جواز السفر لأجل الحج، مع تقديم ضمانة مالية قدرها (١٥٠) قرشًا، منها (٥٠) قرشًا لصالح الحجر الصحي، و(١٠٠) قرش على إطعامه إذا أصبح خالي الوفاض.[٨٧]

وعلى الرغم من أهمية تلك الإجراءات التي اتخذتها بعض البلدان للحدِّ من قدوم هؤلاء الفقراء سنويًا إلى الحجاز خلال مواسم الحج، إلاّ أن الكثير منهم كانوا يأتون إلى الولاية من الهند ومن البلدان الأخرى لعدم تطبيق الإجراءات اللازمة للحدِّ من قدومهم خلال تلك الفترة.[٨٨]

(١/٣) ٣-عدم اتخاذ بريطانيا الإجراء المماثل للحدِّ من قدوم فقراء الهند إلى الحجاز:

كان من أبرز الآثار السياسية الناجمة عن ظاهرة فقراء الحجاج في الحجاز خلال تلك الفترة هو عدم اتخاذ بريطانيا الإجراءات اللازمة للحدِّ من قدوم رعاياها من فقراء الهند ومتسوليها إلى الحجاز خلال مواسم الحج، على الرغم من التقارير الكثيرة التي أُرسلت من القنصلية البريطانية بجدة للحدِّ من إرسالهم إلى الحجاز لغرض الحج.

ولم تتخذ حكومة الهند البريطانية الإجراء المماثل كباقي البلدان في منع قدوم رعاياها فقراء الحجاج من الهند إلى الحجاز على الرغم من طلب الدولة العثمانية منها،[٨٩] بحكم احتلال بريطانيا لأكبر عدد من المسلمين في العالم بالهند البالغ عددهم (٦٠) مليون مسلم،[٩٠] وشكّلوا هم أكبر نسبة من الحجاج تصل إلى الحجاز سنويًا لأداء فريضة الحج عبر البحر في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي،[٩١] مع تعمدها إرسال حجاج من الفقراء والمتسولين والعجزة في كل عام بحسب ما تذكره المصادر العثمانية،[٩٢] هذا ويعود السبب في عدم اتخاذ بريطانيا ذلك الإجراء هو سياستها التاريخية بعدم التدخل في الحياة الدينية للهنود، وذلك في أعقاب انتفاضة واسعة شهدتها الهند خلال عامي (١٢٧٣ – ١٢٧٤هـ/١٨٥٧ – ١٨٥٨م)، وصدور بيان الملكة البريطانية فيكتوريا الأولى (Victoria I) الشهير حول التسامح الديني وعدم التدخل في الممارسات الدينية لأهالي البلد، حيث عمل البيان على الحدِّ من مخاوف الهندوس والمسلمين معًا حول إخضاع الهند لنشاطات تنصيرية مسيحية إبان فترة ما بعد التمرُّد، كما منع البيان السلطات البريطانية من خلال الضمانات التي قدمها فرض مزيد من الرقابة السياسية على فريضة الحج في كلٍّ من الهند والأماكن المقدسة بالحجاز،[٩٣] وبالتالي فإنه لم يتم سنّ تشريعات أو قوانين للحدِّ من قدوم فقراء الحجاج الهنود إلى الحجاز خلال مواسم الحج، لخشيتها من ردٍّ عنيف تجاههم من المسلمين الهنود الذين سيفُسِّرُونَه على أنه تدخل في دينهم، هذا مع العلم أن بريطانيا قد شعرت – فيما بعد – بأن عليها واجب المساعدة تجاه رعاياها من فقراء الحجاج الذين تقطعت بهم السبل في الحجاز، والذين جلبوا العار للهيبة البريطانية سياسيًا بمجيئهم إلى الحجاز خلال مواسم الحج، ويتضح ذلك من خلال تقارير القنصلية البريطانية بجدة التي تناولت الوضع البائس لهؤلاء الفقراء، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلَّت تلك المسألة بعدم إرسال هؤلاء الفقراء إلى الحج مستعصية على المسؤولين البريطانيين، مسببةً القلق لهم.[٩٤]

٢/٣-الآثار الاجتماعية

تعددت الآثار الاجتماعية الناجمة عن توافد فقراء الحجاج سنويًا إلى الحجاز خلال مواسم الحج، والتي جاءت على النحو التالي:

- تردّي الأوضاع الصحية في الحجاز وانتشار الأمراض والأوبئة فيه، خاصةً وباء الكوليرا، حيث كانوا سببًا في تفشي هذا الوباء أثناء مواسم الحج؛ نتيجةً لسوء أوضاعهم الصحية، وقد كان الحجاج الهنود هم أكثر من يُصَابُون به خلال تلك الفترة.[٩٥]
- عدم تحقيق النظافة العامة المطلوبة في المدن الحجازية خلال مواسم الحج بسبب إقامة هؤلاء الفقراء في الطرقات والشوارع.[٩٦]
- انتشار ظاهرة التسول والمتسولين الذين كانوا يسألون المارة وأمام البيوت والمساجد الإحسان والصدقة، مسببةً تلك الظاهرة الإزعاج لسكان الحجاز،[٩٧] وفي الواقع هي ظاهرة مذمومة وغير لائقة اجتماعيًا ولا حتى دينيًا أن تظهر في الولاية كولاية الحجاز التي لها مكانة دينية في قلوب المسلمين كافة.
- انتشار ظاهرة الحجاج المتخلفين الذين تقطعت بهم السبل في الحجاز ولا يستطيعون العودة إلى بلدانهم، وهي ظاهرة لا

تخلو من ذكرها في تقارير القناصل الغربيين بجدة وفي كتب الرحّالة والمصادر خلال تلك الفترة.[٩٨]

وعلى الرغم من الجهود المبذولة من قِبل السلطات السياسية والصحية في الولاية، لتخفيف معاناة هؤلاء الفقراء خلال مواسم الحج، إلاّ إنها لم تكن بالشكل المطلوب للحدّ من هذه المشكلة التي كانت تتكرر كل عام، ولعله يعود السبب في ذلك إلى طبيعة الحكم العثماني للحجاز بتقسيم إدارة شؤونه بين الوالي العثماني وأمير مكة المكرمة، مما خلق نوعًا من الازدواجية في السلطة وعدم وضوح الصلاحيات لكل منهما، إلى جانب التنافس والصراع المستمر بينهما لسلب الآخر بعض صلاحياته وسلطاته، مما أدى إلى حدوث كثير من المشاحنات بين الاثنين[٩٩] انعكست بلا شكّ على شؤون الحج والحجاج من حيث عدم تقديم الخدمات اللازمة لهؤلاء الفقراء تخفيفًا لمعاناتهم في الولاية.

٣/٣-الآثار الاقتصادية

كان من أبرز الآثار الاقتصادية الناجمة عن تلك الظاهرة في الحجاز هو إعفاء هؤلاء الفقراء من دفع رسوم الحجر الصحي،[١٠٠] والذي كان حوالي عشرة قروش يدفعها كل حاج للإدارة الصحية في الحجاز خلال تلك الفترة،[١٠١] وقد أثر هذا الأمر كثيرًا على إيرادات الإدارة الصحية ونفقاتها.

جدول رقم (٢)

إيرادات الإدارة الصحية في الحجاز والبحر الأحمر ونفقاتها

(١٢٩٢ – ١٣٠١هـ/ ١٨٧٥ – ١٨٨٤م)[١٠٢]

عام	الحصيلة	النفقة
(١٢٩٢ – ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٥ – ١٨٧٦م)	٥٣٨,٤٤٠ قرشًا	٦٣٩,٢٢٩ قرشًا
(١٢٩٣ – ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٦ – ١٨٧٧م)	٥١٨,١٨٠ قرشًا	٦١٣,٠٩٧ قرشًا
(١٢٩٤ – ١٢٩٥ هـ / ١٨٧٧ – ١٨٧٨م)	٤٩٢,٣١٠ قرشًا	٦١٢,١٦١ قرشًا
(١٢٩٥ – ١٢٩٦ هـ / ١٨٧٨ – ١٨٧٩م)	٣٤٥,٣٤٠ قرشًا	٦٢٦,١٢٧ قرشًا
(١٢٩٦ – ١٢٩٧ هـ / ١٨٧٩ – ١٨٨٠م)	٥٠٨,٦٩٠ قرشًا	٦١٨,٥٩٤ قرشًا
(١٢٩٧ – ١٢٩٨ هـ / ١٨٨٠ – ١٨٨١م)	٧٠٩,٨١٠ قرشًا	٥٥٠,٩٤٢ قرشًا
(١٢٩٨ – ١٢٩٩ هـ / ١٨٨١ – ١٨٨٢م)	٤١٨,١٨٠ قرشًا	٥٨٨,٣٩٧ قرشًا
(١٢٩٩ – ١٣٠٠ هـ / ١٨٨٢ – ١٨٨٣م)	٢٨٠,٥٥٠ قرشًا	٥٦٩,٨٧٢ قرشًا
(١٣٠٠ – ١٣٠١ هـ / ١٨٨٣ – ١٨٨٤م)	٢٩٣,٥٨٠ قرشًا	٥٥٣,٥١٥ قرشًا

من خلال الجدول السابق يتضح بأن الدولة العثمانية قد تحملت العبء الأكبر اقتصاديًا في دفع نفقات الإدارة الصحية في الحجاز وفي سواحل البحر الأحمر، خاصةً من عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) إلى عام (١٢٩٧هـ /١٨٨٠م) وغيرها من الأعوام مع استبعاد فقراء الحجاج من دفع رسوم الحجر الصحي، إلى جانب تحمل السلطات السياسية في الحجاز إيواء هؤلاء الفقراء وإطعامهم وإعادتهم إلى بلدانهم على نفقتها، فضلاً عن إشغال الطريق العام وتعطيل النشاط التجاري بسبب إقامة هؤلاء الفقراء في الشوارع والأسواق وبقائهم في الموانئ خلال مواسم الحج، مما أثَّر سلبًا على الحركة الاقتصادية للولاية خلال تلك الفترة.

وهكذا تعددت الآثار الناجمة عن ظاهرة فقراء الحجاج في ولاية الحجاز خلال مواسم الحج، من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية لكل طرف من الأطراف ذات العلاقة بشؤون الحج والحجاج، وبدرجات متفاوتة خلال تلك الفترة.

خَاتِمَةٌ

كان لظاهرة فقراء الحجاج في ولاية الحجاز أسبابٌ عدة أدّت إلى ظهورها وتكرارها خلال مواسم الحج، منها الأسباب الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، حيث كانت سياسة الدولة العثمانية المعتمدة بالسماح لهؤلاء الفقراء من الحجاج بأداء فريضة الحج دون ربط ذلك بالاستطاعة المالية لكل حاج، وذلك في ظلّ سياسة السلطان العثماني الإسلامية من خلال مواسم الحج في الحجاز، بالإضافة إلى عدم اتخاذ التدابير اللازمة من قِبل سلطات البلدان التي يأتي منها فقراء الحجاج للحدّ من قدومهم سنويًا إلى الحجاز خلال مواسم، إلى جانب استقصاء حول أعدادهم من خلال إحصائية حركة مرور الحجاج إلى جدة، حيث كان القسم الأكبر منهم يأتون إليها بحرًا، لكونها الميناء الرئيس للحجاز على ساحل البحر الأحمر وبوابة للوصول إلى الأماكن المقدسة.

وبحسب مشاهدات الرحّالة الذين زاروا الحجاز خلال مواسم الحج، وتقارير الأطباء والقناصل الغربيين بجدة خلال تلك الفترة، فإن هؤلاء الفقراء من الحجاج قد واجهوا ظروفًا وأوضاعًا صعبة؛ نتيجةً لعدم امتلاكهم الإمكانيات المادية لتغطية نفقاتهم خلال إقامتهم في الحجاز، فضلا عن عدم مقدرتهم على العودة إلى بلدانهم عقب انتهاء مواسم الحج، مُسَبِّبين بذلك مشكلات كثيرة في الولاية، فاتخذت السلطات الرسمية والأهلية في الحجاز التدابير اللازمة لتخفيف معاناتهم خلال إقامتهم وعقب انتهاء مواسم الحج، ومنها سياسة ترحيلهم وإعادتهم إلى بلدانهم، حتى لا يتخلفون ويبقون في الولاية مدةً طويلة، بالإضافة إلى تقديم العلاج المجاني لهم، والمؤن الغذائية في المحاجر الصحية على نفقة الحكومة العثمانية، إلى جانب دور التكية المصرية في مكة المكرمة والمدينة والمنورة خلال فترة الدراسة في استقبال هؤلاء الفقراء من الحجاج، وتقديم الطعام والشراب لهم، أما مسألة تأسيس دُور للغرباء أو مضيفة للحجاج في المدن الحجازية؛ فقد اقتصرت على تأسيس دُورٍ لهم في مكة المكرمة عام (١٣٢٥هـ/ ١٩٠٨م) على نفقة السلطان العثماني، بعدها حُوِّلت إلى مقر للجنود بعد إعلان المشروطية الثانية، بينما بقيةُ المدن الحجازية فإنه لم يتم ذكر معلومات عن تأسيس دُورٍ للغرباء في معظم المصادر الحجازية وكُتُب الرحّالة خلال فترة الدراسة بحسب اطلاع الباحثة.

هذا وقد تفاوتت الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة لكل طرف من الأطراف ذات العلاقة بشؤون الحج والحجاج من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية خلال تلك الفترة، فكان من أبرزها الأضرار المعنوية والسياسية التي لحقت بسمعة الدولة العثمانية وبسياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية؛ لعجزها عن حل تلك المشكلة أو تقديم الخدمات اللازمة لهم، لتخفيف معاناتهم لهؤلاء الفقراء من الحجاج في الحجاز خلال مواسم الحج، إضافةً إلى اتخاذ بعض البلدان إجراءات للحدّ من قدومهم إلى الحجاز، وهو عدم السماح للحجاج بالسفر لأداء فريضة الحج إلاّ بعد التأكد من قدرتهم المالية لتغطية نفقاتهم ذهابًا وإيابًا.

وتوصي الدراسة بأهمية الرجوع إلى الوثائق في الأرشيف العثماني بإستانبول والأرشيف القومي المصري بالقاهرة وغيرها من مراكز حفظ الوثائق، إضافةً إلى تقارير القناصل الغربيين في جدة خلال مواسم الحج، لاستخراج دراسة وثائقية تحليلية حول ظروف ظاهرة فقراء الحجاج في ولاية الحجاز خلال العهد العثماني الثاني، والمراسلات العثمانية بين الدوائر الرسمية في إستانبول والسلطات في الحجاز خلال تلك الفترة، فضلاً عن الإجراءات والتدابير التي اتخذتها سلطات الدول والبلدان للحدّ من قدومهم سنويًا إلى الحجاز خلال مواسم الحج.

الاحالات المرجعية:

(١) **السلطان العثماني عبد الحميد الثاني**: هو ابن السلطان العثماني عبد المجيد. وُلِدَ عام (١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م)، وتولى العرش خلفاً لأخيه مراد في عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، بدأ حكمه بافتتاح مجلس المبعوثان، لكنه سرعان ما عطله في عام (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، فاستمر حكمه الفردي مدة ثلاثين عامًا ونصف تقريبًا، إلى أن ثار عليه الجيش في عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، فاضطر إلى إعلان الحكم النيابي وافتتح البرلمان للمرة ثانية، وفي عام (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) تنازل عن العرش لأخيه السلطان محمد رشاد، ونُفي هو وأسرته إلى سلانيك. توفي السلطان عبد الحميد الثاني عام (١٣٣٦هـ / ١٩١٨م) عن عمر يناهز ست وسبعين عامًا. انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، **مذكرات السلطان عبد الحميد**، تقديم وترجمة: محمد حرب، ط٣، (دمشق: دار القلم، ١٤١٢ هـ /١٩٩١م)، ص ٤٣ – ٤٤، ٥٨.

(٢) **الجامعة الإسلامية**: شغلت الجامعة الإسلامية كلٍّ من المسلمين والغربيين منذ ظهورها كدعوة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي وحتى نهاية الدولة العثمانية، وقد أُشير إليها باستمرار تحت مسميات مختلفة مثل (الوحدة الإسلامية) و(حركة الجامعة الإسلامية) و(التضامن الإسلامي) و(التعاون الإسلامي) وكلها تشير إلى مشروع لحشد العالم الإسلامي وراء قيادة مركزية تتخذ من إستانبول مقرًا لها ويمثلها السلطان أو الخليفة، وبالتحديد عبد الحميد الثاني، انظر: قيصر أ. فرح، **السلطان عبد الحميد الثاني والعالم الإسلامي**، ترجمة: محمد م. الأرناؤوط، (بيروت: جداول، ٢٠١٢م)، ص ٢٠٣.

(٣) جولدن صاري يلدز، **الحجر الصحي في الحجاز ١٨٦٥ – ١٩١٤م**، ترجمة: عبد الرازق بركات، مراجعة: مسعد الشامان، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م)، ص ٢٢٧.

(٤) **الصدر الأعظم**: هو الشخص الذي حاز منصب رئيس الوزراء في الدولة العثمانية، ولديه صلاحيات في أمور الدولة، ولديه ختم السلطان، لُقب بالصدر العالي وصاحب الدولة، غير أن لقب الصدر الأعظم انتشر أكثر من غيره واستمر استخدامه إلى نهاية عصر الدولة العثمانية. انظر: سهيل صابان، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، (الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١ هـ/٢٠٠٠م)، ص ١٤٣ – ١٤٤.

(٥) معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة، **مجموعة الوثائق التركية**، رقم الوثيقة ٢٥ / ١٠٧/ و ج ج.

(٦) نوال سعد الحربي، **خدمات الحج في منطقة الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧ هـ/١٨٧٦ – ١٩٠٩م) (دراسة تاريخية حضارية)**، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض (١٤٤١هـ/٢٠٢٠ م)، ص ١٧١.

(٧) يفيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة – عبد العزيز دولتشين ومهمته السرية في مكة عام ١٨٩٨م**، ترجمة: دار التقدم في موسكو، ط٢، (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٩٩٣م)، ص ١٩٧.

(8) Sheldon Watts، Cholera Politics in Britain in 1879: John Netten Radcliffe's Confidential Memo on "Quarantine in the Red Sea"، The Journal of The Historical Society، No. 3، Vol. 7، September (2007)، p 295.

(٩) صابرة مؤمن إسماعيل، **جدة خلال الفترة ١٢٨٦ – ١٣٢٦ هـ / ١٨٦٩ – ١٩٠٨م دراسة تاريخية وحضارية في المصادر المعاصرة**، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٨هـ)، ص ٦٩؛ وليم أوكسنولد، **الدين والمجتمع والدولة في جزيرة العرب الحجاز تحت الحكم العثماني ١٨٤٠ – ١٩٠٨م**، ترجمة: عبد الرحمن سعد العرابي، (جدة: مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز،١٤٣١هـ / ٢٠١٠م)، ص ١٥٨ – ١٥٩.

(10) John Slight، The British Empire and the Hajj 1865 – 1939، Exeter Research Institutional Content Archive (ERIC)، 17 April (2009)، p 2.

(١١) أيوب صبري باشا، **موسوعة مرآة الحرمين الشريفين وجزيرة العرب**، ترجمة: محمد حرب، ج١ (القاهرة: دار الآفاق العربية، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤ م)، ص ١١٥.

(١٢) أوكسنولد، مرجع سابق، ص ٩٣.

(١٣) دايل بن علي الخالدي، **الإدارة العثمانية وأنظمتها في الحجاز في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧هـ / ١٨٧٦ – ١٩٠٩م)**، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز،١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م)، ص ٤٢٤ – ٤٢٥، ٤٢٨.

(١٤) من أمثلة تلك المصادر العثمانية التي تناولت حول هذا الموضوع خلال فترة الدراسة: قاسم عز الدين، حجازده تشكيلات وإصلاحات صحية و١٣٢٩ سنة سى حج الشريف، (إستانبول: مطبعة عامره، ١٣٢٨هـ)، ص ٦٩؛ محمد شاكر القيصري، **الأحوال الصحية العامة في الحجاز عام ١٣٠٧هـ/١٨٩٠م**، ترجمة: مصطفى محمد زهران، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٧ هـ / ٢٠١٥ م)، ص ٤٥.

(١٥) **مجلس شورى الدولة**: تشكّلت عام (١٢٨٤هـ/١٨٦٧م)، وهي من أعلى المجالس في الدولة العثمانية، كانت تبت في أمور المقاولات الخاصة بالمشاريع الحكومية، ومحاكمة الموظفين، وأمور التقاعد، وتدقيق النظم وتصحيحها ثمّ التصديق عليها. وقد استمر عمل المجلس حتى نهاية الدولة العثمانية. انظر: صابان، المعجم الموسوعي، ص ١٤١ – ١٤٢.

(١٦) **الأرشيف العثماني تصنيف**: 70/32 – M.V، **عنوان الوثيقة**: بخصوص طلب منع إهانة الحجاج أو نقلهم مجانا بأعداد أكبر من المقررة، **تاريخ الوثيقة**: 04 /12/ 1309 هـ، دارة الملك عبد العزيز، **رقم السجل**: 190956.

(١٧) عبد الله المكي الحنفي الغازي، **إفادة الأنام بذكر أخبار بلد الله الحرام مع تعليقه المسمى بإتمام الكلام**، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، (مكة المكرمة: مكتبة الأسدي، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م)، المجلد الرابع، ص١٥٩.

(١٨) أوكسنولد، مرجع سابق، ص ١٠٠؛ الخالدي، مرجع سابق، ص ٨٦ – ٨٧.

(١٩) **الأرشيف العثماني تصنيف**: 275178 /3670 – BEO، **عنوان الوثيقة**: بخصوص نقل الحجاج الفقراء مجانًا، **تاريخ الوثيقة**: 16 /11/ 1327 هـ، دارة الملك عبد العزيز، **رقم السجل**: 37846.

(٢٠) **الطبيب عبد الرزاق** (Abdur Razzac) (١٢٩٩ - ١٣١٢هـ/١٨٨٢-١٨٩٥م): طبيب مسلم هندي تابع للخدمات الطبية البنغالية، كلفته حكومة الهند البريطانية بمرافقة رحلة الحجاج القادمين من الهند عام (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) من أجل تقديم المساعدة للحجاج الهنود بالحجاز في ظل تكرار تفشي الأوبئة هناك، فأدّى عبد الرزاق مهمته بنجاح، وقدّم أول تقاريره عن الأوضاع

الصحية بالحجاز خلال موسم الحج، ثمّ شغل منصب نائب القنصل البريطاني بجدة من (٢ شوال ١٢٩٩هـ/ ١٧ أغسطس ١٨٨٢م) إلى (٥ ذي الحجة ١٣١٢هـ/٣٠ مايو ١٨٩٥م)؛ إذ قُتل على يد مثيري الشغب في جدة الذين اعترضوا على بعض الإجراءات الصحية التي اتخذتها السلطات المحلية آنذاك في الحجاز، فكان أول وكيل هندي يتولى هذا المنصب . انظر:

Saleh Muhammed AL- Amr, The Hijaz Under Ottoman Rule 1869 – 1914: Ottoman Vali, The Sharif of Mecca, and The Growth of British Influence, (Riyad: Riyad University, 1978), p 255; Michael Christopher Low, Empire of the Hajj: Pilgrims, Plagues, and Pan – Islam under British Surveillance, 1865 – 1926, Master Thesis, Georgia State University, Atlanta (2007), 98 – 99; Slight, Op . Cit ., 4. p

(٢١) **لوسيان لابوس** (Lucien Labosse): دبلوماسي فرنسي، كان ممثلاً لبلاده فرنسا في مناطق عدة، منها في السويس حيث كان قنصلاً هناك، ثمّ شغل المنصب نفسه بالوكالة في ميناء زيلع بخليج الصومال عام (١٣٠٤هـ/١٨٨٧م) وباب المندب وبلاد الحبشة، وقد اشتُهِرَ أثناء ممارسة مهماته بحل الكثير من المشكلات الدبلوماسية التي واجهت فرنسا في تلك الجهات، سواء مع منافسيها الأوروبيين، كبريطانيا مثلاً، أو مع القوى السياسية المحلية. انظر: محمد أمين، موسم الحج سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م من خلال تقرير دبلوماسي فرنسي، الدّارة، السنة ٣٨، العدد الرابع، شوال (١٤٣٣هـ)، ص ١٦٠، ١٨٩ – ١٩٠.

(٢٢) المرجع السابق، ص ١٨١؛ سلوى سعد الغالبي، **وباء الكوليرا في الحجاز: حج عام ١٣٠٠ هـ/ ١٨٨٣م من خلال تقرير القنصلية البريطانية في جدة**، الدّارة، السنة ٣٨، العدد الرابع، شوال (١٤٣٣هـ)، ص ٢٥٥.

(٢٣) فاروقي، مرجع سابق، ص٧٧؛ ريزفان، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٢٤) أوكسنولد، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٢٥) يلدز، مرجع سابق، ١٢٣.

(٢٦) القيصري، مرجع سابق، ص ٥١.

(٢٧) ريزفان، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٢٨) القيصري، مرجع سابق، ص ٢٩٣، ٢٩٨.

(٢٩) ريزفان، مرجع سابق، ص ٢٥٢.

(٣٠) القيصري، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٣١) **محمد لبيب البتنوني**: مؤرخ مصري، له أعمال بالأدب والتاريخ. يرجع إلى بلدة (البتنون) من بلاد المنوفية بمصر. من كتبه (الرحلة الحجازية) و(رحلة إلى الأندلس) و(تاريخ كلوت بك) ترجمه عن الفرنسية، و(الرحلة إلى أمريكا). توفي بالقاهرة عام (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م). انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ط٥، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٠ م)، ج٧، ص ١٥.

(٣٢) **باب إبراهيم**: كان للمسجد الحرام خلال تلك الفترة تسعة عشر بابًا، منها باب إبراهيم من جهة الغرب، وقد سُمي هذا الباب باسم إبراهيم نسبةً إلى النبي الخليل إبراهيم عليه السلام، ويقال إن سبب التسمية يعود إلى شخص اسمه إبراهيم كان يمارس الحياكة هناك، وكان معروفًا بباب الخياطين عند الأوائل. انظر: صبري باشا، مرجع سابق، ج٢، ص ٧٤٨، ٧٥٣.

(٣٣) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ط٢، (د.م: مطبعة الجمالية، د.ت)، ص ٩٨.

(٣٤) **الكوليرا** (Cholera): هو وباء معوي حاد وخطير، تظهر أعراضه فجأة بإسهال مائي حاد وغير مؤلم، يتكرر لأكثر من (٢٠) مرة يوميًا، مع قيء بعد الإسهال، حيث يفقد المريض بهذا القيء حوالي (٥ – ٧) لترات يوميًا، وبالتالي جفاف سريع، وانهيار في الدورة الدموية مع تقلصات عضلية مؤلمة، وقد تحدث الوفاة خلال ساعات قليلة من بدء الوباء، وتعدّ ضمة أو ميكروب الواوي الشكل والسريع الحركة سببًا في تفشي الوباء. انظر: يوسف صلاح الدين يوسف، **الآثار المترتبة على الإصابة بالأمراض المعدية في المنظور الشرعي والطبي**، (الإسكندرية: دار الفكر الجامعي، ٢٠٠٨ م)، ص ٣١.

(٣٥) عز الدين، مرجع سابق، ص ٧٠؛ يلدز، مرجع سابق، ص ٢٤٩ – ٢٥٠.

(٣٦) أوكسنولد، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٣٧) ك. سنوك هورخرونيه، **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، ترجمة: علي عودة الشيوخ، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٩ هـ)، ج ٢، ص ٣١٢.

(38)Barbara D. Metcal, Pilgrimage, Politics, and Pestilence: The Haj from the Indian Subcontinent 1860 – 1920, **Journal of the American Oriental Society**, Vol . 134, No . 1, January-March (2014), p 178 .

(٣٩) **حكومة الهند البريطانية** (Government of India): جاءت حكومة الهند بعد أن أحكمت شركة الهند الشرقية البريطانية (١٠٠٨ – ١٢٧٤هـ/١٦٠٠ – ١٨٥٨م) سيطرتها على جميع الولايات الهندية، مستغلةً تفكك الإمبراطورية المغولية وضعفها، فزادت قوتها بالهند إلى أن وضعها البرلمان البريطاني عام (١١٨٧هـ/١٧٧٣م) تحت إشراف الوزارة، واقتصر نشاط الشركة على النواحي الإدارية، ثمّ عجلت ثورة السيخ عام (١٢٧٣هـ/١٨٥٧م) بوضع الحكم في الهند تحت التاج البريطاني، فخلال فترة عام (١٢٧٤ – ١٣٦٦هـ/١٨٥٨ – ١٩٤٧م) حكم الهند حاكم بريطاني عام اتخذ اسم نائب الملك، ففضلاً عن مهماته كحاكم على الهند، كان عليه أن يؤمّن العلاقات ما بين بريطانيا ومئات الإمارات الهندية، انظر: عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة**، (بيروت: دار الهدى للنشر، ١٩٩٤م)، ج٧، ص١٤٩؛ محمد شفيق غربال، **الموسوعة العربية الميسرة**، ط٣، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م)، ج٤، ص ٢٠١٧.

(٤٠) الغالبي، مرجع سابق، ص ٢٥٥ – ٢٥٨.

(٤١)Slight, Op.Cit., p 4.

(٤٢) الغالبي، مرجع سابق، ص ٢٢٢، ٢٥٧.

(٤٣) أمين، مرجع سابق، ص ١٦٠ – ١٦١، ١٨٦.

(٤٤) **الطبيب العثماني محمد شاكر القيصري**: وُلد عام (١٢٦٧هـ/١٨٥١م). التحق بالمدرسة الطبية في إستانبول، وبعد تخرجه عمل طبيبًا في مستشفى قوله لي في إستانبول برتبة صاغ قول آغاسي (رائد)، ثمّ انتقل إلى المستشفى العسكري في حيدر باشا بإستانبول برتبة قائمقام، وأُرْسِل في تواريخ مختلفة في مهمات طبية لمراقبة الأوبئة إلى كلٍّ من الهند وبغداد والبصرة وجزيرة قمران، إضافة إلى الحجاز. ترك عدة مؤلفات في الطب والأمراض مخطوطة إلى الآن. انظر: القيصري، مرجع سابق، ص ١٨.

(٤٥) القيصري، مرجع سابق، ص ٢٩٣ – ٢٩٥.

(٤٦) حمدة عبد الله المصعبي، **السالنامة مصدرًا من مصادر تاريخ الحجاز: دراسة تحليلية لسالنامة ١٣٠٣ هـ/١٨٨٦م**، (مكة المكرمة: مركز تاريخ مكة المكرمة، ١٤٣٩ هـ/ ٢٠١٨ م)، ص ٤٣.

(٤٧) أمين، مرجع سابق، ص١٨٦.

(٤٨) يلدز، مرجع سابق، ص٩، ٩١، ١٢١.

(٤٩) نجيب بن مرعي، **الحجيج التونسيون زمن الاستعمار الفرنسي (من خلال وثائق الأرشيف الوطني التونسي والأرشيفات الفرنسية)**، (مكة المكرمة: مركز تاريخ مكة المكرمة، ١٤٣٥ ه/٢٠١٤م)، ص ٧١ – ٧٢.

(٥٠) يلدز، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٥١) أوكسنولد، مرجع سابق، ص ١٠٠.

(٥٢) إسماعيل، مرجع سابق، ص٣٣.

(٥٣) **نافذ باشا**: كان واليًا على الحجاز عام (١٣٠٦ه/١٨٨٨م). انظر: سهيل صابان، مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني، (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م)، ص ٢٢٢.

(٥٤) **الصدارة العظمى**: منصب الصدر الأعظم والمكان الذي يمارس فيه عمله، والمعروف أيضًا بباب الباشا أو الباب العالي. انظر: صالح سعداوي صالح، **مصطلحات التاريخ العثماني: معجم موسوعي مصور**، المجلد الثاني (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٧ هـ/ ٢٠١٦ م)، ص ٨٠٣.

(٥٥) **الأرشيف العثماني تصنيف**: A.MKT.NZD – 1905/12، **عنوان الوثيقة**: بخصوص طلب إرسال سفينة على وجه السرعة لنقل الحجاج الفقراء، **تاريخ الوثيقة** : 25 /12/ 1306 هـ، دارة الملك عبد العزيز، **رقم السجل**: 200677.

(٥٦) ريزفان، مرجع سابق، ص ٢٥٣.

(٥٧) **حقي باشا**: بحسب ما ذكر في كتاب (مداخل بعض أعلام الجزيرة العربية في الأرشيف العثماني) بأنه كان واليًا على الحجاز منذ عام (١٣٠٩ هـ/١٨٩٢م)، لكن باطلاع الباحثة في إحدى الوثائق العثمانية تصنيف: DH.MKT.PRK – 1171/45 وجدتُ أنه كان واليًا على الحجاز منذ عام (١٣٠٧هـ/١٨٩٠م) وليس منذ عام (١٣٠٩هـ/١٨٩٢م).

(٥٨) **قائمقام**: هو الشخص الذي يقوم مقام الغير في منصبه، مثل قائمقام الصدارة وقائمقام إستانبول، وهو أعلى منصب إداري في الأقضية، وفي جدة كان قائمقام يمارس سلطته الواسعة بواسطة عدد من الموظفين والهيئات التي يرأسها، حيث كانت تشمل سلطته من الإشراف على كافة الشؤون الإدارية والأمنية والمالية والصحية، إضافة إلى السهر على راحة الحجاج وسلامتهم خلال مواسم الحج، إلى جانب قيامه برفع كافة الأمور إلى الوالي العثماني في مكة المكرمة الذي يمثل السلطة العليا في الحجاز، وتعتمد سلطة قائمقام جدة ونفوذه على شخصية والي الحجاز من حيث قوته أو ضعفه. انظر: إسماعيل، مرجع سابق، ص ٢١؛ صابان، **المعجم الموسوعي**، ص ١٧٠.

(٥٩) **الأرشيف العثماني تصنيف**: DH.MKT.PRK – 1171/45، **عنوان الوثيقة**: بخصوص نقل الحجاج من جدة إلى بلاد الشام والأناضول بالسفينة، **تاريخ الوثيقة**: 23 /12/ 1307 هـ، دارة الملك عبد العزيز، **رقم السجل**: 40053 .

(٦٠) **الأرشيف العثماني تصنيف**: A.MKT.UM – 1875/46، **عنوان الوثيقة**: بخصوص إرسال سفينة الإدارة المخصوصة إلى جدة وإركاب الحجاج الفقراء عليها مجانًا، **تاريخ الوثيقة**: 05/05 /1308 هـ، دارة الملك عبد العزيز، **رقم السجل**: 56824.

(٦١) **الأرشيف العثماني تصنيف**: A.MKT.UM –1892/61، **عنوان الوثيقة**: بخصوص طلب تجهيز سفن من إحدى الشركات؛ نظرًا لانتظار كثير من الحجاج الفقراء في جدة وينبع، **تاريخ الوثيقة**: 02/17 /1309هـ، دارة الملك عبد العزيز، **رقم السجل**:50254.

(٦٢) القيصري، مرجع سابق، ص ٢١٢.

(٦٣) **الأرشيف العثماني تصنيف**: M.V – 70/32، **عنوان الوثيقة**: بخصوص طلب منع إهانة الحجاج أو نقلهم مجانا بأعداد أكبر من المقررة، **تاريخ الوثيقة**: 04 /12/ 1309 ه، **رقم السجل**: 190956.

(٦٤) **أحمد راتب باشا**: كان واليًا على الحجاز وقائدًا عسكريًا لها في الفترة الأولى عام (١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م) ثمّ في الفترة الثانية عام (١٣١٢ه/١٨٩٥م) حتى عام (١٣٢٦ه/١٩٠٨م). انظر: أوكسنولد، مرجع سابق، ص ٣١٠؛ صابان، مداخل بعض أعلام، ص ٨.

(٦٥) **الأرشيف العثماني تصنيف**: DH.MKT.PRK – 1937/64، **عنوان الوثيقة**: بخصوص نقل الحجاج الفقراء من جدة على السفينة طرسوس، **تاريخ الوثيقة** : 15 /04/ 1315 هـ، دارة الملك عبد العزيز، **رقم السجل**: 127292.

(٦٦) القيصري، مرجع سابق، ص ٣٠٩ – ٣١٥.

(٦٧) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٦٨) **الباب العالي**: هو الاسم الذي أطلق على مقر الصدر الأعظم ودوائر الدولة المختلفة عند العثمانيين، فهو الحكومة والهيئة التنفيذية فيها ابتداءً من عهد السلطان العثماني عبد الحميد الأول (١١٨٨ – ١٢٠٣هـ/ ١٧٧٤ – ١٧٨٩م) حتى نهاية الدولة العثمانية. انظر: صالح، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ٢٢٣.

(٦٩) معهد خادم الحرمين الشريفين لأبحاث الحج والعمرة، **مجموعة الوثائق التركية**، رقم الوثيقة ٢٦ / ١٠٧ / و ح ج.

(٧٠) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٧١) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**، (القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٤٤ ه/١٩٢٥م)، ج١، ص ٥٤.

(٧٢) عز الدين، مرجع سابق، ص٦٩.

(٧٣) يلدز، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٧٤) ريزفان، مرجع سابق، ص ٢٥٣.

(٧٥) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٧٦) الحربي، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٧٧) كان من أبرز أعمال الوالي محمد علي باشا (١٢٢٠ – ١٢٦٥هـ/ ١٨٠٥ – ١٨٤٩م) خلال إدارته للحجاز إنشاؤه التكية المصرية في مكة المكرمة والمدينة المنورة عام (١٢٣٨هـ/١٨٢٢م) والتي خصصها لخدمة الفقراء من جميع الجنسيات والشعوب المختلفة الذين أعوزتهم الحاجة، وإطعامهم من الحبز يوميًا دون مقابل، إلى جانب الخدمات الطبية خلال مواسم الحج. انظر: رفعت باشا، مرجع سابق، ج١، ص ١٨٥ – ١٨٦.

(٧٨) البتنوني، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٧٩) القيصري، مرجع سابق، ص ٤٥ – ٤٦.

(٨٠) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٩.

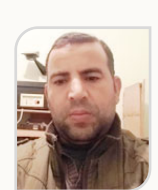
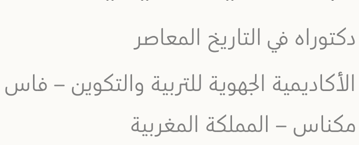
(٨١) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٧؛ يلدز، مرجع سابق، ص ٢٢٧؛ حربي، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(٨٢) يلدز، مرجع سابق، ص ٢٢٧.

(٨٣) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٧.
(٨٤) أوكسنولد، مرجع سابق، ص ١٠٠.
(٨٥) قبايلي هواري، **مسألة الحج في السياسة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر ١٨٩٤ – ١٩٦٢**، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، وهران (٢٠١٣ – ٢٠١٤م)، ص ١٥٦.
(٨٦) نورة معجب سعيد الحامد، **الصلات الحضارية بين تونس والحجاز دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ١٢٥٦ – ١٣٢٦هـ/١٨٤٠ – ١٩٠٨م**، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م)، ص٣٢١.
(٨٧) ريزفان، مرجع سابق، ص٢٥٣، ٢٥٤؛ أمين، مرجع سابق، ص ١٨٧.
(٨٨) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٧.
(٨٩) أوكسنولد، مرجع سابق، ص ١٠٠.
(٩٠) Low, Op.Cit, P.109.
(٩١) Metcalf, Op.Cit., P.178.
(٩٢) القيصري، مرجع سابق، ص ٥١؛ يلدز، مرجع سابق، ص٩.
(٩٣) Low, Op. Cit., p 97; Metcalf, Op.Cit., p.178.
(٩٤) Slight, Op.Cit., p 3 – 4, 8.
(٩٥) القيصري، مرجع سابق، ص ٥١، ١٥٢، ٢٢٧؛ البتنوني، مرجع سابق، ص ١٩٦.
(٩٦) عز الدين، مرجع سابق، ص ٦٧، ٦٩.
(٩٧) سنوك، مرجع سابق، ج٢، ص ٣١٢؛ القيصري، مرجع سابق، ص ٢٩٥.
(٩٨) البتنوني، مرجع سابق، ص٢٢١؛ رفعت باشا، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٨؛ أمين، مرجع سابق، ص ١٨٦؛ الغالبي، مرجع سابق، ص ٢٥٥.
(٩٩) عبد الرحمن سعد العرابي، **التمردات الاجتماعية في مكة المكرمة إبان فترة الحكم العثماني الثاني ١٢٥٦ – ١٣٣٤هـ/ ١٨٤٠ – ١٩١٦م أسبابها وتأثيراتها من خلال المصادر المحلية المعاصرة**، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، المجلد ١٨، العدد١ (١٤٣١هـ / ٢٠١٠م)، ص١٨، ٤٧.
(١٠٠) يلدز، مرجع سابق، ص ١٢١.
(١٠١) رفعت باشا، مرجع سابق، ج٢، ص ١١٩.
(١٠٢) يلدز، مرجع سابق، ص٨٠.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

دكالة من مرسى مازاغان إلى ميناء الجديدة
خلفيات بناء الحماية للميناء وأثرها على تحولات المجال
في عهد ليوطي (١٩١٢-١٩٢٥م)

عبد العالي المتليني
دكتوراه في التاريخ المعاصر
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين – فاس
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّص

*شكلت سهل دكالة مجالاً اقتصاديًا مهمًا داخل التراب المغربي على مر التاريخ، ويشهد على هذا قدم الاستيطان البشري بهذا الجزء من المغرب، إذ احتضن واحدة من أقدم المدن التي عرفها التاريخ المغربي، والتي ظلت تحفظ للمنطقة مكانتها وأدوارها على مر العصور، ومنها المدينة المعروفة تاريخيًا باسم "بورتيس غوتيبيس**Portus Rutubis**"، والتي بنيت مدينة الجديدة على أنقاض موقعها، بحيث ذكر المؤرخ "بوليبيوس**Polybius**" الذي ولد سنة ٢٠٠ ق.م، أن موقعها يوجد على بعد سبعة أميال جنوب "**L'antis Antique**"، الذي يعرف في يومنا هذا بـ"واد أم الربيع"، علمًا بأنه قبل بناء مدينة الجديدة، كان البرتغال قد بنوا بها قلعة مزاغان، التي ما تزال شاهدة على ما كان للمنطقة من أهمية على كل المستويات بالنسبة للمغرب، وأيضًا على المستوى الجهوي. كان لدخول الاستعمار الفرنسي للتراب المغربي سنة ١٩١٢م الأثر الكبير في حدوث تحولات عظيمة فيما سمي اليوم بالجديدة وعموم تراب سهل دكالة، فكان لاختيار مينائها ليكون واحدًا من الموانئ المفتوحة في وجه التجارة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر الميلادي، ثم ليكون ركيزة من ركائز المشروع المينائي للحماية الفرنسية بعد ١٩١٢م، الدور المحوري في كل تلك التغيرات الجذرية التي وقعت في مجال سهل دكالة في عهد الحماية، وخاصة في عهد المقيم العام الجنرال ليوطي (١٩١٢-١٩٢٥م)، فقد غدت المنطقة ملتقى لتيارات اقتصادية كبرى راهنت عليها الدولة -الفرنسية-الحامية- بالمغرب، واختيرت لتكون في قلب المشروع الطرقي والمينائي لهذه الدولة، بل إن أعمال التحديث والعصرنة طالت بهذه الجهة الجانب الاقتصادي والاجتماعي والخدماتي لسكان دكالة، وتحول فضاء الجديدة وأحوازها من مرسى مازاغان المتواضع الصغير، إلى ميناء الجديدة المتعاظم النشاط والحركية بشكل كبير، بحكم موقعها الجغرافي المهم، ومؤهلاتها الاقتصادية الكبيرة.*

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٢	مايو	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	١٤	يونيو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

ميناء الجديدة؛ الاستيطان البشري؛ المشروع المينائي للحماية الفرنسية؛ دكالة؛ الحماية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.248780

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد العالي المتليني. "دكالة من مرسى مازاغان إلى ميناء الجديدة: خلفيات بناء الحماية للميناء وأثرها على تحولات المجال في عهد ليوطي (١٩١٢-١٩٢٥م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٨٣ – ١٩٥.

Corresponding author: abdelaalimetlini@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَة

تشكل منطقة دكالة إحدى الجهات المغربية المطلة على المحيط الأطلسي، تميزت على الدوام بتنوع الأنشطة التي مارسها الإنسان المغربي في هذا الجزء من الوطن، وكان لغنى تربتها وملاءمة ظروفها المناخية الدور المحوري في جلب فئات وشرائح واسعة من السكان، من داخل دكالة ومن خارجها، بل إن الأجانب أنفسهم لم يتمكنوا من مقاومة جاذبية موقعها والخيرات التي تنعم بها، لمحاولة إيجاد موطئ قدم لهم فوق ترابها الخصب، والغلال التي تجود بها أرضها المعطاء منذ وقت مبكر، والمخزن بدوره- خاصة في القرن التاسع عشر الميلادي- كان من أشد الحريصين على استغلال هذه المقومات لكسب ود سكانها والاستفادة من ثراء أهلها، وبسالة رجالها الذين عز لهم نظير في الإقدام والثبات، فيما كان يقوده من حركات وغزوات للقبائل المتمردة المنتمية لبلاد السيبا.

أولاً: منطقة دكالة

(خصائص الموقع وانتظام مكونات المجال)

١/١-الحدود الجغرافية والطبيعية لمنطقة دكالة

تقع منطقة دكالة جنوب الضفة اليسرى لنهر أم الربيع، أي على بعد مسافة قليلة من يمين سيدي علي الموجودة على أرض الشاوية، ثم تنتهي إلى شريط مستطيل الشكل تقريبا، منفتحا على البحر من ناحية زاوية سيدي أحمد التونسي، والى غاية رأس خليج كانتان "Cap Cantin" قريبا من مدينة آسفي، يغلب على هذا المجال الطابع الزراعي، مما أتاح للسكان عبر الزمن ظروف ملائمة للعمل والاستقرار[١]، وخاصة بسبب سيطرة تربة الترس على سهل دكالة، كما هو الشأن بالنسبة للشاوية، يقول "Brives" في معرض حديثه عن شدة خصوبة هذه المنطقة :«**بمجرد رمي الحبوب في الهواء تنبت**[٢]».

٢/١-خصائص انتظام المجال الزراعي

من وجهة نظر جغرافية وزراعية، تنقسم بلاد دكالة إلى ثلاث مناطق متباينة:

الوالدية: منطقة زراعية ضيقة، تقع خلف الكثبان الرملية الساحلية على جانبي أم الربيع، تتكون من تربة غرينية يزيد من أهميتها توافر المياه الجوفية، التي تبقى ضئيلة في الأعماق، وهي مياه نوعا ما معدنية، كانت تستخرج في السابق عبر الناعورات التي تدار عبر الجر الحيواني، بحيث كانت مياهها تتوزع على مختلف المحاصيل الزراعية، بما فيها مزارع الحناء.

منطقة الساحل/المنطقة الساحلية: تتكون من أراضي جزءًا منها رمليًا، والجزء الأخر أراضي الحمري، الذي ينحو نحو الترس الخفيف في المياه الضحلة، هذه الأراضي عموما مواتية لزراعة القمح والشعير، خضعت على عهد الحماية لمحاولة زرع الذرة البيضاء دون ري (في مناطق البور)، ومحاولة زراعة الحناء والخضروات حول نقط المياه.

السهل الداخلي: ينفصل عن منطقة الساحل بواسطة شريط صخري ذو عرض متغير، يغطيه نخيل قزم(الدوم) غير مفيد من الناحية الزراعية، لكنه مفيد بالنسبة لقطيع الماشية، هذا السهل يزرع على نطاق شاسع بالقمح والشعير بسبب وجود تربة الترس والحمري الخصبتين، والتي هيأت الظروف لمضاعفة المنتوج والرفع من جودته[٣].

٣/١-لمحات من تاريخ دكالة قبيل الحماية (١٩١٢م)

تعتبر كل من قبائل الشاوية ودكالة والرحامنة والشياظمة وحاحا من القبائل العربية المستقرة قرب الأطلسي، وهي من قبائل السلطان(المخزن) على الأقل في القرن التاسع عشر الميلادي، بحيث ظلت تزوده بالعساكر[٤]، كتب الضابط والمترجم الفرنسي "حاميت إسماعيل" الذي عاش في وجدة عام ١٨٩٩م لمدة ٥ أشهر في إطار البعثة الفرنسية مايلي: «توجد كتيبة المشاة فعليا بحامية وجدة، بحيث تكونت فقط من الحصة المقدمة من دكالة، وهم رجال أقوياء، تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ و٣٠ سنة، يقومون بساعة من التمارين كل صباح ما عدا الخميس والجمعة، وبروح عسكرية جد عالية...[٥]».

وعلى النقيض من هذا الوضع، سجلت سنة ١٨٩٠م هروب عدد من مهم سكان دواوير دكالة من انتهاكات المخزن، إذ لم تتوقف رحلة بعض هؤلاء إلا على مشارف للاميمونة غرب القصر الكبير، فعاش جزء منهم في هذا التاريخ تحت الخيام في دوار ضيق المساحة، وكان سكان المنطقة ينظرون إليهم على أنهم لاجئين هناك، وعلى الرغم من هذا ألزمهم المخزن بدفع الضرائب، لكن في المقابل امتنعوا حينها عن مد المخزن بالرجال، كان على رأس هؤلاء شيخ يقدم لممثل المخزن بقيادة "العباسي" في جهة الغرب تقاريره، وظل هؤلاء الدكاليون يخدمون ضريح للاميمونة ابنة السلطان مولاي يعقوب المنصور، وعرف عنهم تبجيلهم لها، رغم عدم وجود زاوية بضريحها، لكن كان لها موسم سنوي[٦].

ومن الناحية الاقتصادية والسياسة، شهد أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وبالضبط سنة ١٧٩٩م عقد اتفاق تجاري بين المغرب وإسبانيا، تخلله تقديم تنازلات مكنت شروطها من

احتكار الإسبان لتصدير الحبوب من ميناء بالجديدة والدار البيضاء[٧]، وفي سنة ١٨٤٣م وقع اغتيال الوكيل القنصلي الإسباني بالجديدة "فكتور داميون V. Damion" الشيء الذي دفع إلى تسمية يهودي مكانه، حيث خلق هذا التعيين حركة احتجاج محلية واسعة بالمنطقة، إذ لم تنتهي فصول هذه الأحداث إلا بتوقيع اتفاق جديد في ١٦ ماي ١٨٤٥م، لكن هذا لم يمنع من استمرار توتر العلاقات بين الدولتين، مما دفع السلطان آنذاك لمطالبة الفرنسيين بالتوسط لإنهاء الخلاف مع هذا البلد، لكن الفرنسيين قابلوا هذا الطلب بالرفض، إلى حين الهجوم المفاجئ لسكان الريف على بعض التحصينات الإسبانية خارج حدود سبتة سنة ١٨٥٩م، التي عجلت باتخاذ الأحداث لمنحى خطير، تمثل في تدبير الإسبان بمعية الإنجليز والفرنسيين لهجوم مشترك ضد المغاربة، وكان من حسن حظ المغرب أن أدت أحداث جزيرة القرم إلى إنقاذ المغرب من هجوم عسكري خطير من هذه الدول، بعدما كان على وشك الحدوث في هذه التاريخ[٨]، وعلى النقيض من هذا تدخل الإسبان عسكريا في تطوان، فأصبح ميناؤها بمقتضى معاهدة الصلح إلى جانب الدار البيضاء وطنجة يقدمون ٢٠٠ ألف دورو"Douros" في إطار الغرامة المالية المترتبة عن نكسة ١٨٦٠م[٩].

٤/١-الأهمية الاستراتيجية لدكالة في المخطط الاستعماري

تظهر أهمية دكالة بالنسبة لسلطات الحماية الفرنسية في وقوعها في قلب الاختراق الاقتصادي لمناطق الساحل الأطلسي، فسنتين بالنسبة للحماية كانت كافية[١٠] ليخلق هؤلاء العديد من المعجزات، وخاصة بعد إخضاعهم الشاوية والرباط إلى جانب دكالة، ومنهم إلى فاس[١١] قبيل ١٩١٢م، فكان هذا حافزًا للحماية لتشرع في وضع تصاميم لبناء مدن جديدة في الدار البيضاء والرباط والقنيطرة...، وإقامة الوحدات الصناعية التي شملت مطاحن الدقيق، ومعمل البناء والإسمنت، وورشات المعادن، ثم إدخال أدوات التحديث الأولي في المزارع، والمقاولات الزراعية في الشاوية والغرب ودكالة...، فاعتبرت بهذا من أهم مناطق المستهدفة بالاستيطان الزراعي بالمغرب الغربي[١٢]، ومشاريع البنيات التحتية والأشغال العمومية المهيكلة، الشيء الذي أهل فرنسا حينها للسيطرة على ٥٥ % من التجارة الخارجية للمغرب في هاتين السنتين[١٣].

ثانيًا: المؤهلات الاقتصادية لمنطقة دكالة قبيل الحماية وبعدها

(السير نحو بناء الميناء العصري)

٢/١-المؤهلات الطبيعية والمناخية

يتميز المناخ الجديدة على مستوى الحرارة بالاعتدال، يصل متوسطها إلى١٩°C من أصل١٧° Cبمنطقة دكالة في المنطقة الأطلسية[١٤]، تحقق تساقطات مهمة قد تتراوح مابين ٥٠٠ و٦٠٠ملم في السنة، وهي الكمية نفسها التي يسجلها سهل عبدة والغرب، يتميز هذا السهل كذلك بوجود وافر للندى على طول السنة، وخاصة من شهر ماي إلى شتنبر، بحيث تسجل رطوبة عالية في هذه المناطق صيفا، والتي قد تصل إلى ٨٠ %، مما يفسر نجاح الزراعة الصيفية في الأراضي الجافة، وخاصة زراعة الذرة والبطيخ الأحمر على طول الساحل الأطلسي، وبشكل أهم بالشاوية ودكالة وعبدة[١٥]، إذ تساعد الطبيعة الرملية للتربة على الاستعمال الأمثل للرطوبة المحيطة وبها والتحت- أرضية[١٦]، زد على هذا، وقوع سهل دكالة في الجزء الأكبر من الأراضي السوداء السميكة[١٧]، وضمن تربة الحمري الغنية، التي تتمدد –خصوصًا- على المنطقة الواقعة بين الرباط وواد تانسيفت[١٨]، يخترق المنطقة نهر أم الربيع، الذي يعرف تدفقات مهمة للمياه خاصة في فصل الشتاء[١٩]، لكن تخلف وسائل الاستغلال جعل مياهه إلى بداية الحماية غير مستغلة على الوجه الأمثل، يقول أحدهم: «في الربيع الماضي كانت فرحة السفر في السهول الخصبة للشاوية ودكالة، وهي عبارة عن سجادة خضراء دون انقطاع، بحيث إن اصغر جزء من هذا السهل كان يعد بحصاد مهم في المستقبل[٢٠]».

جلبت هذه الشروط الاستثنائية الإيجابية لدكالة منذ فترة ما قبل الحماية وبعدها اهتمام ومبادرة العديد من الأوروبيين، الذين قصدوا بلادها في الرتبة الثانية بعد أحواز الدار البيضاء[٢١]، ولولا ارتباط الأهالي بهذه الأرض التي لم تبخل على مر التاريخ في التكرم عليهم بالخيرات الوافرة، وما تبعها من تمسك قل نظيره بها في عديد من مناطق المغرب، لكانت المستوطنات الزراعية الفرنسية قد تمددت بشكل استثنائي على تلال الحمري بدكالة، حيث وجود منخفضات العوينات وولاد فرج بالقرب من أم الربيع، وحيث تتعدد بساتين أشجار التين ومزارع الكروم على مساحات شاسعة، إذ لا تقل مساحتها -على الأقل- عن ٢٠٠٠ هكتار، وكان الجزء الأكبر من إنتاجها يسوق بأسواق الشاوية[٢٢].

٢/٢-الإنتاج الزراعي والحيواني

كانت المردودية الزراعية في المغرب نسبيًا جد منخفضة، إذ لـم تتجـاوز ٩ إلى ١٠ قنطـارات بالنسـبة للقمـح، و١٠ قنطـارات بالنسبة للشعير بأحواز فـاس، واعتـبرت دكالـة المجال الوحيد الـذي تجـاوز هـذا المعـدل[٢٣]، كمـا اشـتهرت المنطقـة بإنتـاج وتصدير الكروم منذ فترة ما قبل الحماية[٢٤]، بين الضفة اليسرى لنهر أم الربيع وسيدي بنور والساحل الأطلسي، كتبت "كاميل دو كاسـت C.du Gast" الـتي كانـت في مهمـة بالمغـرب سـنة ١٩٠٨م مـا يلي: «الكروم(الداليا) والتي كانت نـادرة، كانت عموما تـزرع في أمـاكن مظللـة بالأغصـان، بحيـث تعطـي عنبـا أبيضـا وأسودا وأحمرا من نوعية رديئة[٢٥]»، لذلك ستنخرط المنطقة بمعية مناطق أخرى بالمغرب – بعد الحماية-في صناعة الخمور وتصديرها بشـكل رسـمي، بمـا فيهـا منطقـة دكالـة، خاصـة بعـد صـدور مرسـوم ٧ نـونبر ١٩٣٥م[٢٦]، ناهيك عـن توفـر سـهل دكالـة على إنتاج هائل لكميات من الخضروات[٢٧] بهذه البلاد، لقد أمعن الإنجلـيزي "طومســون J.Thomson" في سرد ثــروات هــذه المنطقة ومؤهلاتها، فعبر عن ذلك في اكتشافه لوجود مزارع لليمون طري بسهل دكالة-عبدة قبيل الحماية[٢٨].

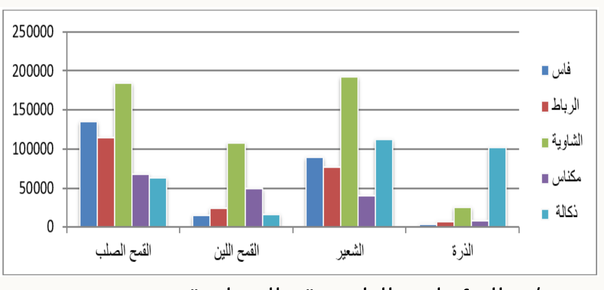
وفيمـا يـلي معطيـات عـن الإنتـاج الحيـواني بدكالـة مقارنـة بغيرها من المناطق(١٩١٥-١٩١٦)[٢٩]:

الجهة/الدائرة	الأبقار	الأغنام	الخنازير	الماعز
فاس	١١٩,١٤٠	٥٢٨,٢٤٤	٧٢٢	٢٣٩,٨٢٩
الرباط	٣٠٥,٠٣٠	٩٥٠,٦٦٩	١١,٢٧٠	٣٠٠,٢٩٧
الدار البيضاء	١٣٤,١١٧	٧٩٤,٥٥٤	٨,٤٤٢	١٧١,١٢٦
دكالة	٩٢,٩٠١	٢٨٦,٠٦٢	٤,٤٩٠	٢٥,٥٤١
جهات المغرب	٨٧٧,٦٤٠	١٤,٧١٥,٣٧١	٢٩,١١٦	١,٥١١,٠٠٤

لقد بلغ الأمر برجال الحماية في الإقامة العامة محاولة إدخال زراعات جديدة بمجال دكالة الخصب والمحفز على المغامرة في هـذا الميـدان ، فالمديريـة العامـة للفلاحـة بمؤسسـة الإقامـة العامة، وبمعية اللجنة المغربية للنباتات الطبية آنذاك، وبمبادرة مـن مكتـب المـوارد الأوليـة، قامـت بمحـاولات اسـتمرت لعشر سـنوات في مـزارع التجـارب[٣٠]، وحـدائق تجـارب الحمايـة، بغيـة البحث عـن إمكانيـة إنتـاج العديـد مـن أنـواع النباتـات الطبيـة والعطريـة بهـذه الجهـة وجهـات أخـرى، وخاصـةً نباتـات الخزمـى الأصيلة، والنعناع الإنجليزي، والزعفران، وإكليل الجبل، و"نبات مسـك الـروم La tubéreuse"...، وأنـواع أخـرى مـن النباتـات الوردية (الزهرية).

كما شملت هذه التجارب العديد من المستوطنات الزراعية، والتي حظيت بالعناية نفسها من قبل هذه الجهات، لكن ابتداء مـن ١٩٢٤ و١٩٢٥م ظهـرت بعـض المبـادرات الخاصـة مـن عـدة شركـات، كشرـكة"M.Gentien" الـتي اهتمـت بزراعـة "مـرد الـدوش La Marjolaine" في دكالـة، و"عـود العطـاس Pyréthre de dalmatie" بالشاوية...، وكان الدافع للاستمرار في هذا النوع من الزراعة بشكل أكبر هو إحداث وحدة لمعالجة النباتات الطبية وتصنيعها في الدار البيضاء[٣١]. ومن جانب آخر، وارتباطا دائمـا بإظهـار الأهميـة الاقتصـادية لمنطقـة دكالـة، وموقعهــا الجغــرافي والاســتراتيجي في مسلســل التغلغــل الاقتصادي للحماية الفرنسية داخل هـذه المستعمرة المهمة جـدًا، سـجل حضـور الغرفـة المختلطـة التجاريـة والصـناعية والفلاحيـة لمدينـة الجديـدة (مازاغـان) في المعـرض الـدولي الاسـتعماري في باريـس مـا بـين ١٥ و١٩ شـتنبر سـنة ١٩٣١م، إلى جانب باقي الغرف الأخرى للدار البيضاء، والرباط والقنيطرة...، وأخرى تنتمي إلى إفريقيا الفرنسية ومستعمراتها في كل أنحاء العالم[٣٢].

يبين المبيان التالي جانبًا من الأهمية الزراعية لسهل دكالة ضمن باقي الجهات سنة ١٩١٥م[٣٣].



٣/٢-المؤهلات التاريخية والسياحية

تعتـبر قلعـة مازاغـان (الجديـدة) الـتي بناهـا البرتغـال سـنة ١٥٠٩م، واستهدفوا مـن وراء بنائها - وغـير مـن القـلاع البرتغالية على الساحل الأطلسي المغربي وداخل تراب البلاد- إيجاد مراكز محصـنة لحمايـة تجـارتهم مـن اعتـداءات بعـض مـن الأهـالي هناك[٣٤]، من القلع والمعالم السياحية المتميزة بمنطقة دكالة، خصوصـا أنهـا حافظـت عـلى الملامـح والإبـداعات المعماريـة الأصيلة للمؤسسين الأوائل، كما تمثل منتجعا سياحيا جميلا

على الساحل الأطلسي، إذ ينكشف شاطئ الجديدة ذو المنحنيات المتناغمة عند أقدام القلعة البرتغالية المحصنة، إضافة إلى أبراجها المنيعة الضخمة التي تقسم البحر بموضعها، والتي يصطف على حوافها بنادق ومدافع قديمة كانت إلى وقت قريب قابلة للاستعمال[٣٥]، يضاف إليها الأسوار ذات الطراز البرتغالي الذي لا تخطئه العين، والكنيسة التي لا تقل بهاء عن القلعة، والأبواب التي تحيط بها دروع ملوك البرتغال، علاوة على الحوض المائي الصغير الملتف حولها، إلى جانب المكونة الأصيلة الأخرى، والقلعة عموما مبنية على صخرة تطل على الميناء القديم، وكانت بها صهاريج ضخمة توفر المياه الضرورية للاستعمال، خاصة عندما كانت تتعرض لمحاصرة القبائل المجاورة، أو من قبل سلطان المغرب أحيانًا لعدة سنوات، وتنتهي الجدران الأربعة عند رباعي من الأبراج توجد في زوايا البناية[٣٦].

في السنوات الأولى للحماية، لم تكن هناك إمكانية للحديث عن قطاع سياحي قائم الذات بالمغرب بشكل منظم، لغياب خطوط السكة الحديدية، ووجود طرق غير معبدة، وفي ظل رفض ثابت ومستمر من قبل المغاربة لكل تأثير للحضارة الأوروبية...بمبررات لها سياقها ومنطلقاتها، على الرغم من وجود ربيع وخريف جميلين بهذا البلد، ومواقع سياحية مهمة، تتمثل في الرباط لؤلؤة المحيط، وسلا مخبأ القراصنة قديما على أبي رقراق اللتان تهيمن عليهما صومعة حسان، والتي تستوجب الزيارة من قبل السياح عند القدوم لها البلد، ومدينة وليلي الرومانية نواحي مكناس، والمدينة الروحية لفاس، ثم مراكش حيث وجود الكتبية التي عاصرت الخيرالدة باشبيلية، والتي تستهوي عشاق الفن، والمدينة العجيبة بالصويرة، ثم البرتغالية بالجديدة وأزمور التي تمكن السائح من إنهاء مسار سياحي رائع بالمغرب...[٣٧].

من المعلوم أن القطاع السياحي بالمغرب كان سابق لعهد الحماية لكن بشكل عشوائي، فطنجة ظلت تستقبل سياحا من جبل طارق خاصة في فصل الربيع والصيف، لقضاء إجازات قصيرة المدى، وبعضهم كان يأتي على متن سفن صغيرة لقضاء أياما في السواحل المغربية، وبعضهم الأخر اضطرته أحيانا الظروف الجوية للنزول بالشواطئ المغربية، إذ منهم من كان يتصل بتجار بلده ليقيم عندهم إلى حين تحسن الأحوال الجوية، ومنهم كذلك من حاول بناء فندق على بعد ١٠ كلم من الصويرة، وكانت هذه الأخيرة على وشك احتضان وتشغيل فندق "Palmera"، وكانت سلطات الحماية في هذه الفترة تعد العدة لبناء مسارين سياحيين على بعد خطوات قليلة من البقايا الأثرية لقصبة لوداية وبابها التراثي، وصومعة حسان، ثم مقبرة شالا، يضاف إلى هذا المقومات التاريخية لمراكش خاصة مدينتها الإسلامية القديمة[٣٨]، وليست المآثر البرتغالية بمدينة الجديدة اقل قيمة في هذا السياق مما أوردناه هاهنا.

ومن البواعث على انطلاق السياحة بالمغرب، والمحاور السياحية التي توجد الجديدة ضمن مساراتها، هو خلق شركات سياحية لتنظيم هذه الرحلات، منها تلك التي وظفت فيها السيارات بعد بناء وتعبيد الطرق من الدار البيضاء والرباط ومكناس وفاس، أو من الدار البيضاء مرورا بالجديدة ووصولا إلى الصويرة ومراكش[٣٩].

ثالثًا: البناء والتجهيز بمنطقة دكالة: مظاهر الاهتمام والتنمية في عهد الحماية الفرنسية

١/٣-بناء مدينة الجديدة: تحولات المجال وأثره على الإنسان

بنيت مدينة الجديدة (Mazagan) من قبل البرتغال سنة ١٥٠٩م، وأسست تحت اسم "Castello Réal"، في عهد الملك البرتغالي "إمانويل"[٤٠]، وهي منتجع سياحي جميل على الساحل الأطلسي، تتخللها الأسوار في الكنيسة البرتغالية، بالإضافة إلى غرفة الأسلحة التحت ـ أرضية، وهي في الأصل ميناء صغير، يمثل منفذا ومنتهى لمنطقة خصبة شاسعة في منطقة دكالة ومنتوجات منطقة مراكش، التي لا يفصل بينهما سوى ١٩٠كلم[٤١]، ومن ضمن الملايين الخمسة من السكان الذين وجدهم المستعمر الفرنسي بالمغرب غداة توقيع معاهدة الحماية (١٩١٢م)، كانت المناطق الساحلية بحكم عراقة بعض مدنها من بين المجالات الأكثر احتضانًا للسكان، ومن ضمنها على وجه الخصوص مازاغان (الجديدة) والصويرة وأكادير...، علاوة على مدن داخلية آهلة بالسكان منذ القدم، وفي مقدمتها فاس ومكناس ومراكش(١٥٠ ألف نسمة)...[٤٢]

من الفئات الاجتماعية التي احتضنتها مدينة الجديدة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (زمن السيبا) فئة اليهود العرب، -بطبيعة الحال- إلى جانب فاس ومكناس والدار البيضاء...[٤٣]، وكانت الجديدة من ضمن المدن التي كانت سلطات الحماية تمني النفس بأن تبنيها وفق الموصفات العصرية التي خطط لها مهندسوا الحماية الفرنسية(بروست وإكوشار)، على الرغم من النتائج لم تكن مرضية في بداية الأمر،

لضيق وجهة نظر السلطات المختصة، وأيضًا لتضمن مخططات الحماية لأبعاد عميقة في التخطيط لمدن المستقبل الكولونيالية بالمغرب، من قبيل عنصر النظافة والجمال والراحة...[٤٤]

لم تغفل إدارة الحماية جانب تزويد الجديدة بقنوات الماء الصالح للشرب، ثم بشبكة الكهرباء تماشيا مع ما قامت به في مدن من حجمها وأهميتها، كالدار البيضاء ومراكش وأزمور...، وكذلك نزولاً عند ما تستوجبه التهيئة الحضرية وعصرنة البناء والتجهيز خلال هذه الفترة (قبل ١٩٢٢م)[٤٥].

بلغ عدد سكان الجديدة سنة ١٩١٧م حوالي ١٥ ألف نسمة، منهم ١١ ألف مسلم[٤٦]، وسيصل عدد الساكنة سنة ١٩٢١م إلى ٢١٤٩٥ نسمة [٤٧]، أما عن هذا الضعف في عدد سكان هذه المدينة المهمة فأرجعه البعض إلى القرب من مدينة الدار البيضاء، بحيث لا يفصل بينهما سوى أقل من ١٠٠كلم[٤٨]، لكن هذا لم يمنع من احتضان المدينة قبيل الحماية وبعدها لخليط من السكان، تشكل من الأهالي المسلمين والأوروبيين وغيرهم، كما اشتهر هؤلاء قبيل الحماية (من سكان هذه المدينة) بخصال إنسانية عالية، حيث كانوا جد مسالمين مقارنة بغيرهم من سكان المدن المغربية الأخرى[٤٩].

٣/٢-تشييد البنية التحتية للمواصلات والاتصال

الطرق:

وجدت دكالة في قلب المشروع الطرقي للحماية، الذي وضع السنوات الأولى لها في المغرب، إذ نص قرض ١٩١٤م في بدايته على بناء ٤٥٠ كلم من الطرق في المناطق الأطلسية، بحيث كانت منطقة دكالة جزء لا يتجزأ منه، بدءًا من الصويرة وانتهاء بالمهدية[٥٠]، فمكنها هذا المشروع من اختصار المسافة بين الدار البيضاء والرباط على سبيل المثال إلى ساعتين (تعبيد ٩٠ كلم)، ومن معسكر بلحوت إلى الجديدة ، وكذلك من مراكش إلى الجديدة[٥١]، ويأتي هذا المخطط والانجازات في سياق المشروع الاستراتيجي للحماية الذي أسس على ربط المدن الداخلية الكبرى بالموانئ الأطلسية، زيادة على ربطها بالمناطق الأكثر خصوبة[٥٢]، ومنها الشاوية ودكالة والغرب...، ولم يكن بناء الطرق العصرية من قبل أجهزة الحماية ومقاولاتها تفاديا لبناء خطوط السكة الحديدية، بل كان ضمن مخطط عام أدرج عمليا موضوع بناء خطوط السكة في هذه الجهة[٥٣]، التي صنفت ضمن المناطق الزراعية الغنية والخصبة[٥٤]، وعليه، فمن بين المحاور الطرقية المهمة التي ارتبطت بدكالة والجديدة في هذه الفترة نذكر:

الطريق الشاطئية: تنطلق من الصويرة وتتجه نحو حدود المنطقة الإسبانية، مرورًا بالجديدة والرباط والقنيطرة.

خطوط مرتبطة بمراكش: تتكون من أربع محاور تربطها بالمدن الشاطئية (الصويرة والجديدة والدار البيضاء وآسفي)، وكانت المسافة بين الجديدة ومراكش ١٩٨كلم (ط٩).

طرق فاس: تتوفر على محورين مهمين، إحداهما تربط فاس بالموانئ الأطلسية (عبر زكوطة) فالقنيطرة والدار البيضاء، ومنها إلى الجديدة...[٥٥]

طريق تعبر من أولاد سعيد وبلاد دكالة، وتنطلق من مراكش في اتجاه سطات[٥٦].

الميناء:

ظل ميناء الجديدة ملحقًا بأزمور إلى غاية ١٨٣٠م، فتحه السلطان عبد الرحمان بن هشام أمام التجار الأوروبيين سنة ١٨٢٥م استنادا إلى شروط معاهدة ١٧٦٧م مع فرنسا[٥٧]، صنف ضمن الموانئ الثانوية التي حظيت باهتمام سلطات الإقامة العامة منذ البداية، والتي اقتنعت بضرورة تطويرها[٥٨]، يقع هذا الميناء جغرافيا جنوب مينائي الرباط والدار البيضاء، وكان من بين الموانئ الأكثر نموا على مستوى عدد المهاجرين الأوروبيين أوائل الحماية[٥٩]، يتميز عن غيره بكونه محمي بخليج بحري من التقلبات المناخية مقارنة بغيره، إذ كان بالإمكان النزول بالميناء بالنسبة للمراكب حتى في فصل الشتاء[٦٠]، تتمدد تجهيزاته قبيل الحماية في اتجاه الشمال، عبر رصيف يقارب طوله ميل واحد، يحميه من الرياح الغربية، لكن في عدة أحيان يكون النزول به خطرًا، وفي أوقات الطقس الجميل كان يمكن للسفن أن تتقدم إلى قرابة ميل من الشاطئ، بحيث يبلغ العمق من ١٥ إلى ١٦متر، وتتصل بالشاطئ عبر قوارب أصغر كانت مملوكة للمخزن، وكان يوجد منها به ١٠قوارب، لا يعيق الطقس السيئ حركيتها لما يوفره الميناء البرتغالي من أمان لرسوها، ففي وقت وقوع المد والجزر المنخفض ترسوا عند الصخور الموجودة أمام الرصيف، وفي المد العالي ترسوا في رصيف صغير مدعوم ومحاط بجدران صغيرة، يضاف إلى ذلك احتوائه على ثلاث رافعات من أربعة أطنان، وكان التفريغ بواسطة قوارب تابعة كذلك للمخزن إلى غاية أوائل القرن العشرين الميلادي.

كان ميناء الجديدة عبر التاريخ منفذا لمنطقة دكالة، ويصل نفوذه إلى مراكش[٦١] (أكثر من ٢٠٠ كلم)، وكان ضمن سبعة موانئ أخرى فاوض قناصل الأجناس أواخر القرن التاسع عشر الميلادي لفتحها في وجه التجارة الأوروبية[٦٢]، ولولا قربه من ميناء الدار البيضاء الميناء الرئيس للحماية الفرنسية بالمغرب،

لكان له شأن كبير قياسا لما ذكرناه أعلاه، ودليل ذلك أن التأثير الكبير لميناء الدار البيضاء في محيطها القريب والبعيد حد نسبيًا من أدواره، بل إن دكالة نفسها طيلة القرن التاسع عشر الميلادي وبداية القرن العشرين الميلادي كانت تقع تحت نفوذه التجاري (ميناء البيضاء).[٦٣]

وبخصوص انطلاق الأشغال في الميناء فلم يكن قبل ١٩١٥م[٦٤]، أما عن تجهيزاته أوائل عهد الحماية، فقد توفر على كثير من المعدات العائمة، وعلى عشر قوارب بنفس مميزات تلك التي ضمها ميناء الدار البيضاء، كما توفر على مخازن فرضت سلطات الجمارك دفع ١٥,٠ مقابل كل كيس يتم تخزينه بها، مع اختلاف الرسوم بحسب طبيعة المواد المخزنة.

وبالنسبة للسكك الحديدية فقد اقترح البريطانيون أول خط للسك الحديدية في الجديدة سنة ١٩٠٢م، وخصص له هؤلاء مليون ليرة إسترلينية كقرض لتمويل بناء هذا الخط، كما عزم الفرنسيون على بناء خط يربط مراكش بالجديدة سنة ١٩٢٢م، الذي لم يكتب له النجاح إلا في سنة ١٩٢٨م، حيث لم يعدو أن يكون مجرد خط محلي يربط ميناء الجديدة بمحطة دار القائد التونسي، لكن بعد خمس سنوات سيتم إلغاء هذا الخط من قبل الإقامة العامة[٦٥].

البريد:

شهدت مدينة الجديدة على غرار العديد المدن الرئيسة للمغرب في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي تواجد بريد الكثير من الدول الأوروبية، ومن ذلك البريد الفرنسي، الذي كان مقره الرئيس بطنجة، وتواجدت فروعه في كل من القصر الكبير وأصيلاً والدار البيضاء ومراكش والجديدة الخ، وكان له فرع بهذه الأخيرة ابتداء من ١٨٩١و١٨٩٢م، بحيث كانت الرسائل في هذه التاريخ تصل عبر الرقاص الراجل أو الممتطي للدواب، ويعود الفضل للفرنسيين "MM.Brudo et Gautsch" في تسيير رحلاته[٦٦]، كما نقلت أيضًا عبر القوارب بين المدن الشاطئية، فكانت تصل الجديدة في هذه الفترة في كل من الاثنين والأربعاء والخميس والسبت في السابعة صباحا، وتنطلق منها نحو المدن القريبة والبعيدة مع منتصف النهار[٦٧]، كما ارتبطت الوكالة البريدية للجديدة بخدمات البريد الأجنبي، إذ كانت وكالتها مفتوحة أمام المراسلات مع فرنسا ومستعمراتها في الشمال الإفريقي، ومع كل دول الاتحاد الدولي للبريد، أي مع كوبا وهايتي والولايات المتحدة الأمريكية...، وفيما يخص الرزمات البريدية فكانت تصل للجديدة وغيرها في كل أيام الأسبوع ما عدا يوم الأحد، ولعبت شركة "باكي" دورا محوريا في تأمين هذه الخدمة محليًا ودوليًا[٦٨]، وربما تطور هذه الخدمة بالمغرب هو ما دفع ألمانيا لإنشاء بريدها هنا سنة ١٨٩٩م في هذه المدن، فكل من اسبانيا وألمانيا وفرنسا استطاعت أن تحقق وكالاتها ١٦٩,٣٣٢ فرنكا، استحوذت منه فرنسا عبر وكالاتها على ٩٧ ألف فرنك سنة ١٩٠٤م[٦٩]، وقد كانت القوارب التي تحمل هذه الرزمات البريدية تحتاج إلى حوالي ٧ أيام ونصف يوم للانتقال من أصيلا إلى الصويرة قبيل الحماية[٧٠].

التلغراف والتلفون:

تم إنشاء هذه الشبكة بالمغرب ابتداء من ١٩١٣م خصوصا بالرباط والدار البيضاء (الربط بينهما)، وابتداء من ١٩١٥م توسعت الشبكة لتشمل الجديدة وأزمور وبرشيد وسطات وفاس ومراكش وآسفي ومكناس وسيدي قاسم...، بحيث تم الربط بينها جميعا، قبل أن تتم الحماية مشروع الربط فيما بعد بالخطوط الجزائرية[٧١].

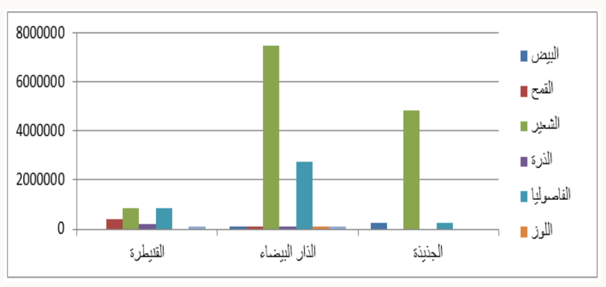
٣/٣-حركية الملاحة بالميناء أوائل الحماية الفرنسية النشاط التجاري للميناء

ذكرت المعلومات التي نقلها الضباط الفرنسيون -ومنهم"M. Augustin Bernard"- عن حركة الملاحة التجارية للإمبراطورية الشريفة، أن أهمية التجارة الخارجية تجلت في تجاوزها سنة ١٨٩٩م لـ ١٠٠ مليون فرنك، منها ٨٥% من التجارة البحرية، والباقي للتجارة البرية، وتصدر في هذا التاريخ ميناء طنجة أكبر نسبة من التجارة الخارجية للبلاد بـ ١٥,٥ مليون فرنك، تلاه ميناء الصويرة بـ١٢ مليون، ثم البيضاء بـ١٠ مليون، وفي الرتبة الرابعة ميناء الجديدة بقرابة ١٠ مليون فرنك[٧٢]، وربما هذا ما يفسر إقامة فرنسا لوكيل قنصلي لها بميناء الجديدة من اجل استخلاص أقساط قرض ١٩٠٤م، فكان هذا القنصل يستخلص ٦٠% من عائدات الجمارك بهذا الميناء بالريال الحسني، على شاكلة ما شهده ميناء طنجة وتطوان والعرائش والرباط والبيضاء وآسفي والصويرة (بلغت القيمة الربوية ٥% [٧٣])، والظاهر أن ميناء الجديدة ظل يحافظ على مكانته التجارية التي ورثها عن فترة ما قبل الحماية، فقد احتل الرتبة الرابعة ضمن مصاف الموانئ الأطلسية سنة ١٩١٣م، بعد الدار البيضاء والرباط والقنيطرة، هذه السنة التي سجلت فيها الموانئ المغربية حوالي ١٩٠٠ عملية ملاحية، معظمها فرنسيا رسوا وحمولة[٧٤].

بلغت كمية السلع التي روجها ميناء الجديدة سنة ١٩١٦م ما مجموعه ١١الف طن من السلع، وفي هذا السياق، استأثرت الواردات بـ ١٦ مليون فرنك، مقابل ٢١ مليون فرنك بالنسبة للصادرات(مقابل ٦مليون فرنك من الواردات، و٧ مليون

للصادرات سنة ١٩١٠م)، مما يبرز تطور نشاط هذا الميناء الحيوي[٧٥]، ومن أبرز ما عرفت به المعاملات التجارية لميناء الجديدة الحبوب وكثيرا من تجارة البيض[٧٦]، غير أن فترة الحرب العالمية الأولى سجلت تراجعا لحجم هذه المعاملات، إذ لم يتعدى سنة ١٩١٧م حوالي ١٠ ألف طن بقيمة إجمالية وصلت ٥,٢ مليون فرنك، إضافة إلى ٢٤,١ ألف فرنك من الرزم البريدية، ومما سجلته جمارك هذا الميناء في هذه السنة بالنسبة لبعض المواد التجارية الأخرى ٤٦٣,٣٢١ كلغ من السكر، وأكثر من ٣٠ ألف كلغ من الشاي، و٣٣,٨٦٩ كلغ من الشمع، ثم ٣٨ ألف كلغ من فحم الأرض، لكن تقدم الأشغال بهذا الميناء، وتحرر فرنسا من الضغوط الاقتصادية للحرب .ع .الأولى سيحسن من مردودية ميناء الجديدة ، بحيث تجاوزت حجم معاملاته حاجز ١٠٠ ألف طن سنة ١٩٢١م[٧٧].

ويبرز المبيان التالي جانبًا من أهم صادرات هذا الميناء سنة ١٩١٧م ب**kg**[٧٨]:



يتضح من خلال معطيات المبيان أهمية الشعير والبيض بالنسبة للصادرات المنطلقة من ميناء الجديدة، حيث يبقى هذا الأخير من أهم المنتوجات التي اختص هذا الميناء بتصديرها ضمن باقي الموانئ المغربية.

الخطوط البحرية المنتظمة المتصلة بالميناء: ارتبط ميناء الجديدة بعدة خطوط بحرية دولية همت العديد من الدول الأوروبية وفي مقدمتها فرنسا، ومن هذه الخطوط نذكر:

الخط المباشر مرسيليا-الصويرة: من الاتجاهين في بداية كل شهر ويمر من الجديدة.

الخط المباشر مرسليا- الصويرة: في كل ١١و ٢٢ من مرسيليا(يمر بجبل طارق و الجديدة)،

نشطت كل من شركة "**Paquet**" والشركة العامة للنقل البحري(**S.G.T.M**)[٧٩].

الخط المباشر لندن-الصوير- لاس بالماس: يمر بدوره من الجديدة ، ويمر عبر جبل طارق تقريبا كل أسبوع، نشطته شركة "**Mersey Steamship company Limite**"، و" **Morocco Canary Island**"، ثم :" **Madera line of Steamers**"[٨٠].

الخط البحري الرابط بين نانت والصويرة: يمر عبر بوردو إلى الدار البيضاء الجديدة واسفي ثم الصويرة (من نانت في كل ١٢ من كل شهر، ومن الصويرة في ١٥ من كل شهر).

كما ارتبط الموانئ الأطلسية ومنها ميناء الجديدة بخطوط بحرية تشمل أمستردام، وانفرس، وبرشلونة وغيرهم، ومن عدة شركات إبحار عالمية لنقل البضائع والمسافرين[٨١].

٣/٤-المؤسسات والمرافق الحيوية بمدينة دكالة زمن الحماية الفرنسية

القناصل الأجانب بالجديدة: إلى غاية ١ ماي ١٩٣٧م، احتضنت مدينة الجديدة مقرات لقنصليات العديد من دول الأوروبية على وجه الخصوص، ومنها إسبانيا (قنصل شرفي)، وبريطانيا العظمى (نائب قنصل)، وإيطاليا (وكيل قنصلي)، وهولندا (وكيل قنصلي)، والبرازيل (وكيل قنصل)، ثم البرتغال (نائب قنصل شرفي)[٨٢]، يضاف إلى ذلك فتح فرع للكنيسة الكاثوليكية الجديدة، وهي واحدة من ضمن ٩ أخرى فتحت بالمغرب أوائل القرن العشرين الميلادي.[٨٣]

الإدارة المحلية في بداية الحماية

بمجرد توقيع عقد الحماية ليوم ٣٠ مارس ١٩١٢م، دخلت فرنسا بقيادة ليوطي بشكل آني مرحلة إعادة التنظيم الإداري للبلاد، ووضعت هذا المشروع المهم حيز التنفيذ، ومن ضمن ما اتخذته من قرار في هذا الإطار تقسيم المغرب إلى جهات بناء على تحديات السيطرة والاحتلال المحتمل حدوثها في سياق التهدئة والإخضاع، فاختارت كل من فاس ومكناس والرباط والدار البيضاء والجديدة لتكون عواصم لهذه الجهات، وقد قسمت الجهات إلى جهات مدنية وجهات عسكرية ثم مختلطة[٨٤]، ولقد نظم هذا التقسيم المرسوم الرئاسي لـ ٢٣نونبر ١٩٢٢م، و١١ دجنبر ١٩٢٣م، ثم مارس١٩٢٣م[٨٥]، وكانت دكالة ضمن الجهات المدنية، وتم تقسيم الجهات إلى تقسيمات إدارية وقيادات وملحقات..، ومن أبرز الشخصيات التي نصبت في بداية الحماية على رأس منطقة دكالة الكولونيل "بيلتيPeltier"، وذلك سنة ١٩١٤م[٨٦].

ويختصر الجدول الأتي[٨٧] جانبًا من الإدارة الاستعمارية التي وجدت بمنطقة دكالة:

الجهة	مقر مكتب الأحوال المدنية	تقسيمها المجالي	ضباط الأحوال المدنية	تاريخ إنشاء مكاتب الأحوال المدنية
دكالة	الجديدة	مدينة الجديدة	رئيس الشؤون البلدية	بداية يناير ١٩١٦م (من الفترة الممتدة من بداية يناير ١٩١٦م إلى ٣١ دجنبر ١٩٢٢م)، بحيث خضع إلى هذا المركز بالإضافة إلى الجديدة كل دائرة دكالة، وكانت هذا المكتب مخزن سجلات السجل المدني القنصلي الفرنسي للفترة الممتدة من ١٧ غشت ١٩٠٤م إلى ٢٩ دجنبر ١٩١٦م.
	الجديدة	المراقبة المدنية للجديدة	رئيس تقسيمة المراقبة المدنية	ابتداء من اينابر ١٩٢٣م (من الفترة الممتدة من يناير ١٩١٦م إلى ٣١ دجنبر ١٩٢٢م)، كان هذا المكتب متصلا بمدينة الجديدة.
	سيدي بنور	المراقب المدني لسيدي بنور	رئيس تقسيمة المراقبة المدنية	ابتداءً من فاتح يناير ١٩٢٣م.

المؤسسات التعليمية: أحدثت الحماية العديد من المؤسسات التعليمية بالجديدة ضمن غيرها من المدن الكبرى المغربية، وشملت المدارس الفرنسية، والفرنسية-العربية، ثم المدارس الإسلامية، وأخيرا المدارس البربرية[٨٨]، وفي سياق إنشاء مدارس التعليم العصري أنشأت مدارس الفتيات، ومدارس الأعيان وغيرها من المؤسسات الأخرى:

مدارس الفتيات: يعود أقدم تاريخ لظهورها بالجديدة والرباط ومكناس...إلى سنة ١٩٠٦م، إذ وصل عدد التلميذات بمدرسة الجديدة في هذه السنة إلى ٧٠ تلميذة، مقابل ١١٠ بآسفي[٨٩]، وفي عهد الحماية فشلت مختلف المحاولات التي كانت تحاول إحياء هذه التجربة، ولم تفلح سلطات الإقامة العامة في إعادة بعث وإحياء ما أوردنا الكلام عنه بالجديدة، وبالضبط تلك التي انطلقت سنة ١٩٢٦م[٩٠]، والى غاية ١٩٣٤م كان بالمغرب ١٧مدرسة للفتيات المسلمات، وبلغ عدد التلميذات المتمدرسات في هذه السنة تقريبًا ٢٩٩٢ تلميذة، أما معظم الأطر التي درست بهذه المدارس فكن فرنسيات، ومن ضمن هذا العدد الوارد أعلاه كان بالجديدة في هذه السنة ١٥٣ تلميذة، و٨ معلمات.

مدارس بنات الأعيان: أنشأت إلى جانب مدارس العموم وخاصةً بالمدن الكبرى كالدار البيضاء والرباط وفاس ومراكش...، واحتضنت الجديدة واحدة من هذا الصنف، ووجد بين أسوارها ١٥٣ تلميذة سنة ١٩٣٤م، يضاف إليهم معلمتان فرنسيتان، و٤ معلمات عاملات فرنسيات، ثم معلمة أهلية فرنسية وفقيهة، ودرست بهذه المدارس اللغة الفرنسية والتطريز...[٩١].

المدارس اليهودية (الإسرائيلية) للبنات: احتضنت الجديدة كغيرها من المدن المغربية الكبرى والمهمة مدارسة للطائفة اليهودية، والتي وصل عدد تلامذتها في مجموع التراب الوطني تقريبًا إلى ٦٠١٧ تلميذا، وباحتساب الذين درسوا بالمدارس المختلطة سيصل العدد إلى ٧٠٣٧ تلميذة، وكان بمدرسة الجديدة للفتيات الإسرائيلية خلال هذه السنة ٢٧٥ تلميذة[٩٢].

المؤسسات البنكية: فتحت العديد من فروع الأبناك المنتمية للدول الامبريالية الأوروبية بالجديدة على شاكلة الدار البيضاء والرباط ووجدة والصويرة الخ، ومن بين هذه المؤسسات البنكية فرع للبنك المخزني، والذي عمل فيما عمل على تقديم القروض، في ظل الطفرة الاقتصادية التي عاشها المغرب في مطلع فجر الحماية، بحيث كلما مرت الأيام كان إقبال المؤسسات المالية على فتح فروع لها في أهم المدن المغربية أكثر وخاصة بالمدن الكبرى[٩٣].

٣/٥-البلدية

تعتبر الجديدة من المدن التي أسس بها مجلس بلدي منذ السنوات الأولى للحماية الفرنسية بالمغرب، وذلك على شاكلة الدار البيضاء والرباط وفاس...، وكان على رأسها الباشا الذي ينسق عمل الموظفين الفرنسيين، والأشغال العمومية الحضرية، والصحة العامة، والمالية والشرطة...، تساعده لجنة استشارية تمثل في الغالب مختلف أطياف السكان (أهالي أوروبيون يهود...)، كما تمتعت باستفادتها من ميزانية خاصة تستخلصها من مداخيلها الخاصة[٩٤].

٣/٦-مؤسسات أخرى

ومنها إحداث **مركز فلاحي بدكالة**، حدث ذلك منذ السنوات الأولى للحماية، ومن ضمن المناطق التي ألحقت به مركز سيدي بنور[٩٥]، كما احتضنت الجديدة كباقي المدن الرئيسة آنذاك إدارة القضاء والتي تمثلها المحاكم، بحيث أوجدت بها محكمة من الدرجة الأولى، في حين اقتصرت محاكم الدرجة الثانية في بداية الحماية على الرباط والبيضاء ووجدة[٩٦]، زد على ذلك أن المجال الحضري للجديدة توفر على وكالة للسفر تابعة لشركة "باكي" على شاكلة تلك التي توجد بالدار البيضاء والصويرة وآسفي، وكانت رهن إشارة من يريد التنقل عبر الموانئ المغربية، أو حتى السفر نحو المدن الفرنسية كمرسيليا وبوردو...[٩٧]، وربما هذه الشركة هي المسماة الشركة العامة للنقل والسياحة، والتي وجد مقرها الاجتماعي بالدار البيضاء وباريس.[٩٨]

أيضًا شهدت مدينة الجديدة سنة ١٩١٧م إحداث الغرفة المختلطة التجارية والصناعية والفلاحية، بحيث عين أعضاؤها إلى غاية ١٩١٩م من قبل سلطات الإقامة العامة، وكانت هذه الغرفة بمثابة تطور لفكرة اللجان الاقتصادية التي عهد إليها بتطوير المناطق الساحلية، بحيث كانت هذه السلطات قد أمدتها بالكفاءات الضرورية المؤهلة لمعالجة القضايا الصناعية والزراعية والتجارية، وظلت تقوم بأدوار حيوية في هذا الإطار بانتظام في الدار البيضاء والرباط واسفي والجديدة ومكناس...، خاصة في فترة الحرب العالمية الأولى.[٩٩]

أخيرًا وليس آخرًا، فالجديدة استطاعت أن تحتضن مضمارًا لسباق الخيل، وذلك على غرار الدار البيضاء ومكناس ومراكش، بحيث كان يحتضن السباقات التي كانت تشد انتباه واهتمام شرائح مهمة من المجتمع المغربي آنذاك بما فيهم الأهالي، ومن مختلف الطبقات ومنها طبقة الفقراء[١٠٠].

خَاتمِةٌ

ساهم الوضع الجغرافي والاستراتيجي لموقع دكالة في إطار المجال المغربي، في تمكن هذه الجهة من فرض نفسها كواحدة من الجهات التي ظلت تعول عليها سلطات الإقامة العامة لتمرير المشروع الاستعماري برمته، ولم تكن الإمكانيات الطبيعية وعموم المؤهلات الاقتصادية لدكالة بأقل أهمية من العامل السابق، بل إن هذا الأخيرة ربما شكلت قطب الرحى في اختيارها ضمن المناطق التي أولتها هذه السلطات كبير العناية والاهتمام، فاحدث هذا تحولات كبيرة ببلاد دكالة، غيرت كثيرا من ملامح السطح وانتظام مكوناته، وبهذا لم تكن علامات الاندماج في المشروع المذكور أعلاه لتخطئه عين الناظر آنذاك، وبطبيعة الحال كان للإنسان الدكالي الأهلي، والوافد من الداخل والخارج حظ من إيجابيات معظم هذه التحولات كما بينا ذلك في متون نص هذا المقال.

الاحالات المرجعية:

(1) Institut national d'agronomie, **Conférences Franco-Marocaines**, Tome1, Librairie Plon, Paris, 1916, P. 196.

(2) Brives .A, **Voyage au Maroc 1901-1907**, Imprimeur typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1909, P.306.

(3) Institut national d'agronomie, **Conférences**… ,op.cit, PP.196-197.

(4) Girard Capitaine, **Etude sur le Maroc**, Librairie militaire R. Chapelot et C(ie), Paris, 1904, P.50.

(5) Girard Capitaine, **Etude** …op.cit, P.74.

(6) Le Chatelier .A, **Notes sur les villes et tribus du Maroc en 1890**, Imprimerie A.Burdin et C(ie), Angers, 1902, PP.35-36.

(7) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**….,op.cit,P.٥٢.

(8) Ibid, op.cit,P.٥٣.

(9) Peyreigne Charles , **Les Influences Européennes au Maroc avant la conférence d'Algérie**, Librairie CH. Diron, Toulause, 1908, P.86.

(١٠) لاحتلال منطقة دكالة والمناطق المجاورة استقدم الفرنسيون كتبتين سنغاليتين من دكار في شتنبر ١٩١٤م، حيث قامتا بتعزيز ودعم الكتيبة القادمة من فاس، والفيلق الذي كان موجودا بتادلة، بحيث استطاعت هذه القوى العسكرية احتلال خلفية الموانئ الأطلسية في المنطقة السلطانية، وتأمين الطرق بين السواحل والمناطق الداخلية، في اتجاه مراكش - وفاس، وقصبة تادلة والغرب وخطوط السكة في الوسط والحدود الإسبانية، ثم تلك التي قيد الإنجاز ما بين وجدة وتازة.

(Etat major de l'armée , **Les Armée française dans la grande guerre**, Tome IX , Troisième Volume , L'Imprimerie nationale, Paris, 1939,P.24.)

(11) Vaffier Ernest, **La Bataille Marocaine, Librairie militaire Berger-Levrault**, paris ,1916, P.22.

(12) Petit M.Léon, **Hinterland et port de Rabat-Salé**, Editeur Henry Barrère, Paris, 1920, P.28.

(13) Institut national d'agronomie, **Conférences**… **,op.cit,**PP.17-18.

(14) Khorat Pierre, **scènes de pacification Marocaine** , Librairie académique Perrin et C(ie), 1914, P.2.

(١٥) في الواقع سهل دكالة يوجد ضمن منحدر يتكون من سهل طوله ٨٠٠كلم، وعرضه ما بين ٨٠ و١٠٠كلم، يتألف هذا السهل من سهل الغرب (من العرائش إلى الرباط)، والشاوية (الدار البيضاء)، ودكالة (الجديدة)، وعبدة والرحامنة (آسفي)، وسوس والحوز(الصويرة)، وسهل نون (أكادير)، وان كانت هذه الأسماء تتعلق بشكل أكبر وأدق بالساكنة أكثر من الشروط الجيولوجية والفلاحية. (Cousin Albert et Saurin Daniel, LE Maroc…op.cit, P.14).

(16) Institut national d'agronomie, **Conférences** …,op.cit, PP.١٨٠-186.

(17) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**….,op.cit, P.٢٣.

سيطرة التربة السوداء على ٢/٣ من مساحة هضبة الشاوية ودكالة وعبدة، بحيث تميزت الطبقة السفلى من ترتبتها على الحجر الجيري...، يبلغ ارتفاع هذه الهضبة ٢٥٠م ، تشتهر بإنتاج الحبوب(خاصة دكالة) ومن مزروعات أخرى.

(18) Gleyze .A, **Géographie élémentaire de l'Afrique du nord(Maroc-Algérie-Tunisie)**, Librairie Ferran Jeune, Marseille, 1913, PP.22-23.

(١٩) يصل اتساع هذا النهر في المصب حوالي ٥٦مترا، يصل التدفق إلى ١٥٠م(٣)/ ث في شهر مارس، ويهبط إلى ٣٥م(٣) في فصل الصيف، أما فترة الفيضانات(الشتاء) فقد يصل إلى ١١١٦م(٣) ، كان هذا النهر يمكن المخزن من أكثر من ٥٠ ألف فرنك كعائدات مالية للمخزن سنويا.

(20) Réginald Kann, **La Protectorat Marocain** , Editeur berger-levrault, Nancy-paris-Strasbourg, 1921 ,P.186.

(21) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice sur Le Protectorat français du Maroc**, Paris,1916,P.19.

(22) Institut national d'agronomie, **Conférences** ….,op.cit, P.١٩٧.

(23) Malleret Pierre, **A travers le Maroc pacifié :ce qu'il faut en savoir pour y réussir(les régions de Fès et de Meknès)**, Les Editions coloniales, Paris, 1919,P.11.

-(23) Institut national d'agronomie, **Conférences** ….,op.cit, P.١٩٧.

(24) La Société des agriculture de France, **Congrès des productions végétale communes à la métropole et aux pays d'autre mer (22-23 Juin 1931)**, Tome IV, Paris, sans date, P.286.

(25) Damade. P, **La Vigne et le vin au Maroc**, Thèse pour le doctorat , Faculté de droit, Université de Paris, 1936,P.3.

تتحدث عن أن هذه الكروم عانت من نوع من الطفيليات يسمى "Sphinx de la vigne" والتي كانت تلحق بها أضرارا كبيرة، وأوردت بعض المناطق الأخرى التي عرفت بإنتاج العنب، ومنها: سهل فاس وزرهون والقنيطرة والجهة الشرقية (ص٢٨)

(26) Code Marocain de commerce extérieur, **Publication de la direction de commerce extérieur**, Troisième édition, 30 septembre 1938, Casablanca, PP.71-73.

- Damade. P, **La Vigne** ….,**op.cit**, P.V٣.

(27) Girard Capitaine, **Etude** …, P.٢٥.

(28) Gentil louis, **Le Maroc physique** , Librairie Félix Alcan, Lisbonne, 1912, P.305.

(29) Zolla. D, **Congrès d'agriculture coloniale (21-25 Mai 1918)**, Tome IV, Librairie Maritime coloniale , Paris, 1920,P.369.

(٣٠) تمثلت حدائق التجارب التي إقامتها المديرية العامة للفلاحة في تلك التي أحدثتها بكل من الرباط بمراكش ومكناس، وثلاث مزارع للتجارب في كل من فاس ومراكش والجديدة، بل إن الحماية نفسها كانت على وشك إحداث معهد علمي متخصص في الرباط (Réginald Kannt, **La Protectorat** …,op.cit ,P.191.).

(31) La Société des agriculture de France, **Congrès des** …,op.cit, P.٤٥٢.

سجلت تقارير الحماية أن المساحة التي خصصت لهذه الزراعة مابين الدار البيضاء والرباط قد بلغت حوالي ٤٠ هكتار.

(32) Comptes Rendus et Rapports , **Congrès des chambres de commerce et de chambres d'agriculture de France d'autre mer(15-19 septembre1931)**, Paris, 1932, P.31.

(33) La Société des agriculture de France, **Congrès des** ...,op.cit, P.187.

(34) Chatinieres Paul, **Dans le grand Atlas Marocain :Extraits du carnet de route d'un médecin d'assistance médicale indigène1912-1916**, Librairie Plon, paris, 1919,PP.195-196.

(35) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**....,op.cit, P.377.

(36) Atlas P.L.M , **Le Maroc :via Marseille – chemin de fer de Paris à Lyon à la méditerrané** , sans date, P.11.

(37) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** ....,op.cit, P.١٥.

(38) Réginald Kann, **La Protectorat** ....,op.cit, PP.266-267.

(39) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** ....,op.cit,P.١٥.

(40) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**...., op.cit,P.٤٩.

ـ بنيت الجديدة على أنقاض موقع "بورتيس غوتيبس **Portus Rutubis**"، بحيث ذكر المؤرخ "بوليبيوس**Polybius**" الذي ولد سنة ٢٠٠ ق.م ، أن موقعها يوجد على بعد سبعة أميال جنوب " **L'antis Antique**"، الذي يعرف في يومنا هذا بـ"واد أم الربيع".(ص٣٧٧)

(41) Atlas P.L.M , **Le Maroc :via Marseille – chemin**...., op.cit, P.10.

(42) Gallouédec et Maurette. F, **Cours géographie, Cinquième édition**, Librairie Hachtte, Paris, 1932, P.120.

(43) Petit M.Léon, **Hinterland** ...., op.cit,P.١٤.

انقسم اليهود زمن السيبا بالمغرب إلى أربع أقسام، عاش منهم في بلاد المخزن ثلاثة أصناف، في حين الصنف الرابع عاش في بلاد السيبا، وأول هذه المجموعات هي اليهود الاسبان: في طنجة وتطوان والعرائش....، واليهود العرب: في فاس ومكناس والجديدة....، واليهود الأمازيغ: في آسفي والصويرة ومراكش وتارودانت، ويهود قدماء كلاوة: في دادس وأعالي درعة وتافيلالت...

(44) Réginald Kann, **La Protectorat** ...., op.cit,P.٢٦٠.

(45) Résidence générale de la république française au Maroc, **LA Renaissance du Maroc :dix ans de protectorat(1912-1922)**,Paris, Sans date, P.٤٠٣.

(٤٦) تفاصيل باقي المكونات: ٢٣٦٠ يهوديا، ٢٦٧ فرنسيا، ٢٥٥ اسبانيا، ١٠٠ ايطاليا، ١٤٥ انجليزيا، ٥٠ من مختلف الجنسيات الأوروبية (Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** ...., op.cit, P.19.)

(47) Mérignhac .A, **Traité de législation et d'économie coloniales**, Librairie recueil Sirey, Deuxième édition, Paris, 1925,P.106.

في هذه السنة كان عدد سكان مراكش ١٣٩,٨٧٤ نسمة كأكبر مدينة من حيث عدد سكان بالمغرب، أما سلا فبلغ عددهم ٢٤,٢١٦ نسمة، ثم الصويرة ٢٠,٢٩٩ نسمة....

(48) Marcel et Rigolard Laurent, **Le Développement économique du Maroc : Le Maroc en 1917- service des projection lumineuses**, Melum imprimerie administrative, 1919,P. 10.

(49) Cousin Albert et Saurin Daniel, LE Maroc....,P.378.

(50) Girod Adolph, **Le Maroc ce qu'il faut savoir de la conquête** pacifique, Paris, Janvier 1914, P.53.

(51) Institut national d'agronomie, **Conférences** ..., P.25.

(52) Réginald Kann, **La Protectorat** ....,op.cit, P.١٦٤.

(53) Girod Adolph, Le Maroc ..., op.cit, P.53.

(54) Institut national d'agronomie, Conférences ..., op.cit, P.144.

(55) Réginald Kann, La Protectorat ...., op.cit, P.163-164.

يضيف هذا المرجع إلى طرق فاس تلك التي تتصل بالحدود الشرقية للمغرب عبر فج تازة، وطريق عرضانية بين طرق الشمال.

-Office du protectorat de la république française au Maroc, Maroc...., op.cit, P.4.

(56) Lapeyre et Marchand.E, **Casablanca de Chaouia, Emile Larose**, Paris, 1918,P.37.

(٥٧) المتليني عبد العالي، الأشغال العمومية بالمغرب على عهد الحماية: مرحلة ليوطي١٩١٢-١٩٢٥، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب القنيطرة، الموسم الجامعي ٢٠١٦-٢٠١٧، ص٢٨٩. (مرقونة).

(58) Réginald Kann, **La Protectorat** ....,op.cit, P.149.

(59) Atlas P.L.M , **Le Maroc :via Marseille – chemin**...., op.cit, P.١١.

(60) Marcel et Rigolard Laurent, Le Développement ..., op.cit,P.10.

(61) Fallot Ernest, **La Solution Française de la question du Maroc**, CH.Delegrave, Paris, 1904, P.19.

(62) Fallot Ernest, **La Solution** ..., op.cit, P.٨٥.

تمثلت باقي الموانئ في ميناء طنجة وتطوان والعرائش والرباط والدار البيضاء واسفي والصويرة، أما أصيلا فكان يسمح للأجناس بالنزول بها دون السماح بالشحن منها لهؤلاء، لكن قرض ١٩٠٤م أضاف موانئ جديدة لهذه الموانئ المفتوحة للتجارة، وهي: السعيدية (عند مصب ملوية)، واصيلا ، وأزمور، وأكادير...الخ، فتوغلت تجارتهم بالبلاد يوما عن آخر.

-Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**...., op.cit,P.٢١٥.

(63) Ibid, op.cit,P.352.

(64) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** ....,op.cit,P.19.

(٦٥) الصنهاجي انس، **التحولات الاقتصادية والاجتماعية بمنطقة دكالة على عهد الحماية الفرنسية ١٩١٢-١٩٢٥م**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠١٥، ص١٢٧-١٢٨.

(66) Résidence générale de la république française au Maroc, **LA Renaissance** ..., op.cit, P.٤٢٧.

(67) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**...., op.cit,PP.٢88-289.

(68) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** ...., op.cit,P.٦٨.

(69) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**...., op.cit,P.3٨٠.

(70) Peyreigne Charles , **Les Influences** …., op.cit, P.١٢٣.

(71) Résidence générale de la république française au Maroc, **LA Renaissance du Maroc :dix ans de protectorat(1912-1922)**,Paris P.٤٣٣.

(72) Fallot Ernest, **La Solution** …, op.cit, P.٨٨.

(73) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc….**, op.cit,PP.129-130.

(74) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** …. op.cit,,P.٤٥.

(75) Marcel et Rigolard Laurent, **Le Développement** …, op.cit,P.10.

(76) Office du protectorat de la république française au Maroc, **Maroc….**, op.cit,P.٥.

-المتليني عبد العالي، الأشغال.....، نفسه ، ص.٣٠٠.

(77) Résidence générale de la république française au Maroc, **La Renaissance….**,op.cit,P.٢٥٥.

(78) De Tarde Alfred, **La vie au Maroc**, France-Maroc, N°2, 15 Novembre 1917,[23-37],P.37.

(79) Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**…., op.cit,PP.220.

(80) Ibid, PP.228.

(81) Lapeyre et Marchand.E, **Casablanca** …., op.cit,PP.57-58.

- الصنهاجي انس، **التحولات...**،م.س، ص ص.٣٠١-٣٠٢. (لمزيد من التفاصيل انظر أسماء الشركات الملاحية في الصفحتين المذكورتين في هذا المرجع).

(82) Direction des affaires économiques de la protectorat française au Maroc, **Instruction sur l'état civil**, Imprimerie J . Thevnin, Rabat, 1937,P.134.

- Cousin Albert et Saurin Daniel, **LE Maroc**…., op.cit,PP.133-134.

(83) Ibid, P.14٨.

(84) Khorat Pierre, **Scènes**…., op.cit,P.274.

(85) Mérignhac .A, **Traité** …, op.cit,P.380.

(86) Histoire du 127(e) régiment territorial d'infanterie, Mulhouse S.A des établissement d'imprimerie A.Herblelin, 1921,P.9.

(87) Direction des affaires économiques de la protectorat française au Maroc, **Instruction** …, op.cit,P.129.

(88) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** …., op.cit,P.٧٠.

(89) Tsourikoff Zénaid, **L'Enseignement des filles en Afrique du nord**, thèse du doctorat Faculté de droit, Université de Paris, 20 Mai 1935, P.162.

(90) Tsourikoff Zénaid, **L'Enseignement** …., op.cit, P.110.

(91) Ibid, op.cit,P.١٢٦.

(92) Ibid , P.١٦٧.

(93) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** …., op.cit,P.٤٠.

(94) Résidence générale de la république française au Maroc, **La Renaissance** …, op.cit, P.131.

(95) Institut national d'agronomie, **Conférences** …, op.cit, P.٢٥.

(96) Résidence générale de la république française au Maroc, **La Renaissance** …., op.cit, P.187.

(97) Direction de l'agriculture du commerce et de colonisation, **Notice** …., op.cit,P.٦.(Annexe).

(98) Office du protectorat de la république française au Maroc, **Maroc**…., op.cit,P.4.

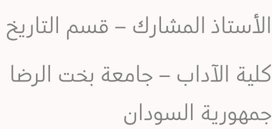
(99) Mérignhac .A, **Traité** …, op.cit, P.321.

(100) Résidence générale de la république française au Maroc, **La Renaissance** …, op.cit, PP.400-401.


مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

تطور الحركة الوطنية التونسية (١٩٣٩ – ١٩٥٦م)



أ.م.د. عبد الله الزبير يوسف الزبير

الأستاذ المشارك – قسم التاريخ

كلية الآداب – جامعة بخت الرضا

جمهورية السودان

مُلَخّصْ

الكثير من صفحات التاريخ الإفريقي الحديث خاصةً حقبة الاستعمار لم يُكشف عنها النقاب بعد، وأيضًا الكثير منها مُحرف لا يمُت للحقيقة بصلة لأنه كتب بأقلام أوربية، ولا يخرج استعمار تونس عن دائرة ذلك الحديث، حيث وقعت فريسة تحت مخالب الاحتلال الفرنسي عام ١٨٨١م، وترتب على ذلك الاحتلال أن انتفض الشعب التونسي مسجلاً أسمى غايات الكفاح على لوحة الشرف الإفريقية في مقاومة الفرنسيين بعد أن تأكد له أنهم غزاة مستعمرين. لذلك الأمر يحتاج لجهدٍ من الأفارقة أنفسهم لإبراز الحقائق المهمة ووضعها في صورتها الحقيقية، ولهذا تأتى هذه الدراسة كمحاولة لمعالجة جانبٍ ولو يسير من المشكلة. حيث تهدف الدراسة إلى توضيح تطور الحركة الوطنية التونسية خلال الفترة (١٩٣٩-١٩٥٦م) وتسليط الضوء على تجربة كفاح لدولة عربية إفريقية شهد لها التاريخ ضد حكم أجنبي استباح البلاد أرضًا وسكانًا، استخدمت الدراسة المنهج التاريخي الوصفي التحليلي والمنهج الاستقرائي، بهدف الوقوف على التطورات التي مرت بها الحركة الوطنية التونسية بعد الحرب العالمية الثانية، وحقيقة كفاح ونضال الأمة التونسية. وقد توصلت الدراسة إلى أنّ الحركة الوطنية التونسية شهدت تطورًا ملحوظًا تمثل في تكوين جبهة التحرير الوطنية التي قادت البلاد إلى الاستقلال في العام ١٩٥٦م، وأوصت الدراسة بإعداد دراسة منفصلة ومستقلة لرموز جبهة التحرير الوطنية التونسية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٦	أغسطس	٢٠٢١
تـاريخ قبــول النشــر:	٣١	أغسطس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

السلطة الفرنسية؛ الحركة النقابية التونسية؛ فرحات حشاد؛ الكفاح الوطني التونسي؛ الحبيب بورقيبة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.250640

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الله الزبير يوسف الزبير. "تطور الحركة الوطنية التونسية (١٩٣٩ – ١٩٥٦م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ١٩٦ – ٢٠٢.

Corresponding author: abdallaelzubeir441@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

قصة الاستعمار الأوربي لإفريقيا قصة قديمة خاصة بالسيطرة وحب التملك ظهرت بوادرها منذ العصور القديمة وتمثل ذلك في قيام الإمبراطورية الرومانية على شمال إفريقيا، وتعتبر الكشوف الجغرافية التي قامت في العصور الوسطى ما بين القرنين (الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين) امتدادًا لذلك الاستعمار، إلى جاء القرن التاسع عشر الميلادي الذي يُعرف بقرن الاستعمار وذلك نسبة لارتباطه بعوامل ودوافع جديدة ساهمت في ولووجه داخل إفريقيا. ولا شك أن (تونس) واحده من ضحايا هذا الاستعمار الآثم، حيث وقعت فريسة تحت مخالب الاحتلال الفرنسي عام ١٨٨١م، وترتب على ذلك الاحتلال أن انتفض الشعب التونسي مسجلاً أسمى غايات الكفاح على لوحة الشرف الإفريقية في مقاومة الفرنسيين بعد أن تأكد له أنهم غزاة مستعمرين – وهذه المقاومة لما لها من خصوصية وسط العالم الإسلامي والإفريقي كانت موضوع دراستنا بأخذ مقتطفات أو ملامح من تلك التطورات التي شهدتها الحركة الوطنية التونسية بعد الحرب العالمية الثانية لأجل الوصول إلى الاستقلال ١٩٥٦م.

مشكلة البحث:

تتمثل في أنَ الكثير من صفحات التاريخ الإفريقي الحديث خاصة حقبة الاستعمار لم يُكشف عنها النقاب بعد، وأيضًا الكثير منها مُحرف لا يمُت للحقيقة بصلة لأنه كتب بأقلام أوربية، ولا يخرج استعمار تونس عن دائرة ذلك الحديث لذلك الأمر يحتاج لجهدٍ من الأفارقة أنفسهم لإبراز الحقائق المهمة ووضعها في صورتها الحقيقية – لذلك تأتى هذه الدراسة كمحاولة لمعالجة جانبٍ ولو يسير من المشكلة.

أهمية البحث:

تتمثل أهمية البحث في أنه يُقدم تجربة نضال لدولة عربية إفريقية شهد لها التاريخ ضد حكم أجنبي استباح البلاد أرضًا وسكانًا، فإذا تمت هذه الدراسة بعمق ووجدت الاهتمام يمكن أن نأخذ منها الكثير من العبر والدروس في عصرنا هذا.

أهداف البحث:

- إجلاء بعض الحقائق التي تقاضى عنها الكثير من المؤرخين والباحثين عن تاريخ الحركة الوطنية التونسية لدوافع عديدة.
- إعداد دراسة وافية منفصلة ومستقلة عن التطورات التي مرت بها الحركة الوطنية التونسية بعد الحرب العالمية الثانية.
- الوقوف على حقيقة كفاح ونضال الأمة التونسية.

منهجية البحث:

استخدم الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي مستخدمًا (المنهج الاستقرائي) معتمدًا على المصادر الأولية والثانوية.

أولاً: خلفية تاريخية عن التدخل الفرنسي والمقاومة التونسية

بعد أن احتلت فرنسا الجزائر شرعت في غزو تونس فعرضت على الباى عام ١٨٧٩م مشروعًا يقضي بقبول الحماية الفرنسية إلا أنه رفض ذلك، وفي عام ١٨٨١م نجد أنَ (جول فيرى) رئيس وزراء حكومة فرنسا قد بيت النية على غزو تونس فتزرع ببعض الحوادث على الحدود **(حميدي ٢٠٠١م، ١٩٢)**

مهدت فرنسا لحملتها بإثارة مشكلة القبائل بين الجزائر وتونس المتمثلة في قبائل (الدوائر والزمالة وقبيلة بنو خمير) وهى عبارة عن قبائل رعوية عبرت الحدود الفاصلة بين تونس والجزائر فعملت على تضخيمها، حيث أظهرت أن أمر هذه القبائل قد أفلت من يدَ الحكومة التونسية، فتبنت فرنسا إرسال حملة لتأديب هذه القبائل التي لا يملك الباى عليها أي سلطات تحت قيادة الجنرال (فور جيمول) والتي تكونت من ٥٧ ألف جندي تمكنت من احتلال تونس في ١٢مايو١٨٨١م بعد أن وقع الباي (محمد الصادق) بنود معاهدة الاستسلام **(الجمل ١٩٧٧، ٣٠٦)**

عمدت فرنسا إلي أسلوب حكم مباشر مكنها من السيطرة علي كل مقاليد الدولة السياسية والاقتصادية، لذا شرعت المقاومة التونسية منذ أن وطأت أقدام الاحتلال أرض البلاد مثل ثورة القيروان١٨٨١م، مقاومة أهالي الجنوب١٨٨٢م، مقاومة مسجد الزيتونة١٨٨٣م **(محروس ٢٠٠٤م، ٤٢٥)** مقاومة حزب تونس الفتاة ١٩٠٧م ثم استمرت هذه المقاومات حتى قيام الحرب العالمية الأولي مثل مقاومة قبائل الجنوب بزعامة (الحاج سعيد) ورغم أنها كانت مقاومات عنيفة إلا أنَ الحكومة تمكنت من القضاء عليها ولكنها بقيت هي الأساس الذي قامت عليه الحركات الوطنية التي شهدتها البلاد بقيام الحرب العالمية الثانية وهي التي قادت البلاد إلي الاستقلال **(الفاسي ١٩٨٤م، ٤٨)**

ثانيًا: الحركة الوطنية التونسية خلال العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م)

كان التوتر العالمي والقمع الشديد الذي مارسته السلطات العسكرية قد حد كثير من النشاط الوطني (**الفاسي ١٩٨٤م، ٤٨**) في أثناء الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م أصبحت تونس مسرحًا عسكريًا للحلفاء بين عامي (١٩٤٢-١٩٤٣م) وشهدت تونس معارك بين ألمانيا والحلفاء وحاول الطرفان المتحاربان التقارب من تونس وكسبها في هذه المعركة (**شريف ١٩٦٦م، ١٢٥**) بعد ذلك أمعن الاستعمار في اضطهاد رموز الحركة الوطنية ولكن ذلك لم يمنعهم من مواصلة النشاط،

٢/١-جهود الباي محمد المنصف:

ومما شجع الحركة الوطنية تولي الباي (محمد المنصف) عرش تونس في عام١٩٤٢م هو أمير ذو نزعه وطنية وكان أكثر ثقافة من الذين اعتلوا عرش تونس وكان معروفًا بميوله للوطنية (**الزيدي ٢٠٠٨م، ٢٣٨**) في عام١٩٤٢م قدم الباي مذكره للمقيم العام ليحيلها إلى حكومة (فيشى) كانت تحتوي على عدة نقاط مماثلة لبرنامج الوطنيين ومطالبهم ذات الصبغة السياسية خاصة تمثيل التونسيين في (المنظمات المنتخبة) وعندما نزلت القوات الألمانية في تونس عام١٩٤٢م، استأنفت الحركة نشاطها في جو من الحرية لم تعرفه من قبل، وفي مايو ١٩٤٣م لذلك اضطرت القوات الألمانية إلى الانسحاب منها (**الجاني ١٩٥٨م، ١٣٢**)

لم تستطع السلطات الفرنسية الجديدة الصبر على السياسة الوطنية الرشيدة التي اتبعها الباي محمد المنصف، والتي أكسبته محبه شعبية واسعة أنَ أصدرت أمرًا عسكريًا بخلعه من العرش لأنه كان مناهضًا لسياسة (جيرو) المقيم العام الفرنسي وعينت مكانه (محمد الأمين) وهو أخر من تولي حكم البلاد من العائلة الحُسينية ولكن الباي محمد المنصف رفض توقيع التنازل عن العرش، فنفي إلى واحة (الأغواط) ليذوق عذاب الأسر وظل الثعالي وأنصاره يطالبون بعودته حتى وفاته بمنفاه في فرنسا عام١٩٤٨م (**محروس ٢٠٠٤م، ٥٩٧**)

٢/٢-ردة فعل السلطة الفرنسية:

عملت فرنسا على فرض الأحكام العرفية وإلغاء الحريات وتشديد الخناق على الحركة الوطنية وفرض الرقابة على الصحف وتعطيل الجرائد، وإيقاف قيادات الحزبين الدستوريين وإصدار أحكام قاسية ضدهم وإيداعهم في السجون، ثمَ شهدت فترة الحرب تجنيد التونسيين الشباب حتى بلغ عددهم حوالي (أربعون ألف) مُجند وأحكمت السلطات البريطانية قبضتها على البلاد أثناء الحرب خوفًا من حدوث اضطرابات تحد من مصالح فرنسا العليا، بالرغم من الإرهاب والتقتيل الجماعي فان الشعب لم يستسلم بل رد بالفعل على ممارسات الاحتلال العدائية، بأن بذر بذور التمرد والثورة – فقامت انتفاضات مسلحة في السجون التونسية واستمرت هذه الانتفاضة ردحًا من الزمن عبر فيها الشعب بجماهيره الواسعة عن رفضه للاستعمار الأجنبي (**الزيدي ٢٠٠٨م، ٢٤٠**)

أصدرت الحكومة الفرنسية في نوفمبر عام ١٩٤٤م إعلانًا بعنوان نحو (كتلة فرنسية تونسية) دعت فيه إلى إقامة حكم ذاتي في الداخل على أسس ديمقراطية وتشكيل جمعية تشريعية بعد إجراء مشاورات وطنية (**الطاهر ٢٠٠٢م، ٧١**) لذا اعترفت الحكومة بالحزب الشيوعي التونسي وبنشاطه الدعائي، كما شهدت الفترة إعادة تنظيم الحزب الدستوري الجديد وظهوره بمظهر يتسم بالحيطة والحذر، إلا أن السلطات الفرنسية أمام التغيرات الدولية وبعد وانتصارها في الحرب على (ألمانيا وإيطاليا) رأت أن تعدل من سياستها القمعية في تونس، فقررت وقف المطاردات لزعماء الحركة الوطنية وإطلاق سراحهم في الحركة الدستورية وسمحت كذلك بإعادة إصدار الصُحف التونسية(**بنت الدسوقي ٢٠٠٨م، ٢٥٣**)

يُعَدّ انتصار دول الحلفاء فاتحة عهد جديد في تونس تميز بتطور سياسي كبير على الساحة الأوربية التي أخذت تتحدث عن حق الشعوب في تقرير مصيرها واحترام حقوق الإنسان وحرية العمل النقابي، ونتيجة لذلك شهدت البلاد التونسية ظهور ما يسمي بالحركات النقابية (**الزيدي ٢٠٠٨م، ٢٣٩**)

ثالثًا: الحركة النقابية التونسية (١٩٤٦ – ١٩٤٩م)

ظهرت الحركة النقابية منذ عام١٩٤٤م تحت قيادة فرحات حشاد الذي كان عاملا في إحدى شركات النقل بصفاقس وسمي حركته باسم (الاتحاد العام للعمال التونسيين للشغل) الذي انضمت لعضويته مختلف الطبقات العاملة في سائر إنحاء البلاد، ولم يلبث أن صار لهذا الاتحاد دور بارز في الحركة الوطنية بعد تأسيسه في عام١٩٤٦م (**شريف ١٩٦٦م، ١٢٩**)

ووصف هذا الاتحاد بالتنظيم الدقيق المحكم الذي عمل إيجاد وحدة فولاذية بين جميع الهيئات المختلفة في تونس، وتمثلت مبادئ هذا الاتحاد في تحرير البلاد من الاحتلال مؤكدًا على حقوق العمال. وكذلك أن الشعب كل لا يتجزأ جميع صفوفه موحدة داعين للنضال ضد المستعمر لطرده من تونس (**محروس ٢٠٠٤م، ٥٩٩**)

اجتمع رموز الحركة الوطنية التونسية في ٢٥/أغسطس عام١٩٤٦م الذي كان يوافق ليلة القدر، نظم حزب الدستور الجديد مؤتمرًا وطنيًا عامًا سمي (بمؤتمر ليلة القدر) تحت رئاسة عروس الحداد وحضرت هذا المؤتمر كل القوي السياسية في البلاد، بما فيها الأحزاب والنقابات العمالية والزراعية، ونقابات الموظفين ومندوبون عن جامع الزيتونية، وفي هذه المؤتمر صار الجميع على اختلاف اتجاهاتهم وميولهم السياسية كتله واحدة متراصة في مواجهة العدو الاستعماري الفرنسي، بعد أن اتخذ المؤتمر قرارًا بالإجماع بمطالبة السلطات الفرنسية بالاستقلال التام للبلاد، فكان رد السلطات الفرنسية أن أمرت بمداهمة مكان الاجتماع ثم القبض على ٥٠ من أبرز المؤتمرين الذين يمثلون مختلف الاتجاهات السياسية، ووجهت إليهم تهمة التآمر على أمن الدولة الداخلي والخارجي (**الطاهر ٢٠٠٢م، ٢٠١**) وعلى إثر هذا الإجراء التعسفي أعلن فرحات حشاد رئيس الاتحاد العام لعمال الشغل من صفاقس، الإضراب العام بالبلاد عدا المستشفيات، إلا أنَ السلطات الفرنسية اتبعت سياسة الشدة تجاه الوطنيين التونسيين، فأصبح واجبًا على القيادات الوطنية أن تقوم بدورها في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال (**محروس ٢٠٠٤م، ٥٩٩**)

بدأ الصدام بين الحركة الوطنية التونسية والسلطات الفرنسية في يونيو من نفس العام، وفي هذا الوقت برزت (شخصية صالح بن يوسف) الذي خلف بورقيبة أثناء غيابه عن تونس، بعد نجاحه في تشكيل الجبهة التونسية التي تجمعت فيها كل الأحزاب السياسية، فبذلك شهدت الحركة الوطنية التونسية تطورًا أكبر فقامت بتقديم مذكرة تطالب بتنفيذ بعض الإصلاحات، إلا أن فرنسا رفضت الاعتراف بأي إصلاح لا يمثل فيه المستوطنون الأجانب وخاصة في النظام السياسي (**سُلطان ١٩٧٥م، ١٥٤**)

رابعًا: الكفاح الوطني التونسي (١٩٤٩ – ١٩٥٢م)

في عام١٩٤٩م عاد بورقيبة من القاهرة فعاد الحزب الدستوري الجديد إلي الهيمنة من جديد متخذًا خطوة مهمة إلى الأمام بإعداد استراتيجية لكفاح تونس من أجل الاستقلال، تمثلت في استعداده لقبول حل وسط يفضي به تدريجيًا إلى غايته على أساس سياسة (خذ وطالب) وهو ما أصبح يعرف بالطريقة البورقيبية في تونس، وفي عام١٩٥٠م بدأت خلاياه تمتد كالشبكة على كامل البلاد، حتى تلك المناطق التي كان يصلها تأثيره مثل الشمال والغرب فكانت اجتماعاته تضم ألافًا من الأشخاص في عام١٩٥٠م أيضًا حدث أنَ أثيرت القضية التونسية في هيئة الأمم المتحدة التي وافقت على إدراج القضية التونسية على جدول أعمالها، وأصدرت لائحة دعت الحكومة الفرنسية إلى تطوير المؤسسات التونسية وفتح المفاوضات مع التونسيين لتمكينهم من الحصول على حقوقهم وتسير شؤونهم الخاصة طبقًا لقوانين الأمم المتحدة، لذا اضطر الفرنسيون علي قبول التفاوض في أغسطس عام ١٩٥١م (**سُلطان ١٩٧٥م، ١٥٤**)

والذي اتفق الطرفان فيه على أن يتساوى عدد الوزراء التونسيين مع عدد الوزراء الفرنسيين، واعتبر الفرنسيون ذلك آخر تنازل من جانبهم بحيث يمكنهم الإبقاء على سيطرتهم بالبلاد، فتكونت وزارة جديدة ضمت صالح بن يوسف من الحزب الدستوري الجديد والسيد (محمد بدره) رئيس اتحاد الغرف التجارية التونسية، وبدأت الوزارة مفاوضاتها وقدمت عدة مطالب تتمثل في بعض الإصلاحات منها: إعادة السلطة للباي وإشراك الوطنيين في الحكم (**خطاب ١٩٧٣م، ٢٦**) إلا أنَ الحكومة الفرنسية رفضت هذه المطالب، وفي عام١٩٥٢م أوقفت فرنسا مفاوضاتها مع الوطنيين التونسيين، وحظرت انعقاد مؤتمر الحزب الدستوري، فدخلت البلاد خلال سنتين إلى مرحلة جديدة من المواجهة مع فرنسا التي حاولت القضاء فيها على الحركة الوطنية، بقمع المظاهرات وإلقاء القبض على بورقيبة ومحمد شنيق إلى جانب زعماء كثر وقتلت البعض الآخر، كما نجح عدد قليل منهم ومن بينهم صالح بن يوسف الرجل الثاني في الحزب الدستوري في الفرار إلى القاهرة (**ياغي ١٩٩٣م، ١١١**)

١/٤-اغتيال الزعيم الوطني فرحات حشاد:

تم اغتياله في ٥/ديسمبر عام ١٩٥٢م على يد منظمة اليد الحمراء الإرهابية التي كونها المستعمرون الفرنسيون، وكان لاغتيال فرحات أثر عميق في نفوس أنصاره ورفاقه من المناضلين الذين بادروا إلى حمل السلاح، وصعدوا إلى الجبال لمواجهة المستعمرين(**ياغي ١٩٩٣م،٢٤١**) ولامتصاص غضب الشعب التونسي لجأت فرنسا إلى أسلوب المهادنة فقامت بتغيير المقيم العام الفرنسي الجنرال(ماست) الذي عرف بسياسة البطش والقوه، واستبدلته بمقيم جديد يسمي (موسن) وطلبت إليه إتباع سياسة اللين والمهادنة، وكذلك من أجل تحسين العلاقات التونسية- الفرنسية أفرجت عن الزعماء الوطنيين، ووافقت على تشكيل حكومة جديدة ومجلس تشريعي من(٤٥) نائب تونسي، إلا أن الحركة الوطنية رفضت هذا الإجراءات وطالبت بالمزيد، وقامت حركة مقاومة مسلحة بلغت ٣٠,٠٠٠ألف ثائر ضد القوات الفرنسية ومنشآتها، ونشطت

في الخارج الحركة الوطنية التونسية مطالبة بإلغاء الحماية والاستقلال أسوة بالدول العربية الأخرى. (**جنتر ١٩٥٧م، ١٨٣**)

خامسًا: الاصطدام المُسلح بين فرنسا والحركة الوطنية (١٩٥٢-١٩٥٤م)

بعد أن فشلت عمليات المهادنة التي سعت لها الحكومة الفرنسية قررت الرجوع إلي العنف مرة أخري، فقامت بعملية استعراض كبيرة للجيش الفرنسي على متن باخرة حربية في البحر المتوسط، ثمَ قامت بإيقاف نشاط المئات من الوطنيين من ذوي النزعات المتعددة ومن الشيوعيين ثم حجمت نشاط الحبيب بورقيبة عام١٩٥٢م، فترتب علي ذلك أن أصبحت البلاد في من حالة الغليان، بررته زيادة عمليات القمع وضرب المراقبة المشددة على المراكز السكنية- لذا اتخذت الحركة الوطنية التونسية التي آل إليها الحزب الدستوري الجديد أشكالاً عديدة للمقاومة، فقد بادر رجالها إلى شن حملات إعلامية ودعائية واسعة النطاق لدي المنظمات العالمية مثل (الجمعية العامة للأمم المتحدة والبلدان الأوربية والعربية).(**الزيدي ٢٠٠٨م، ٢٤١**)

ثم اشتدت حركة الجهاد التونسي منذ أوسط عام ١٩٥٣م وتطورات إلى أن أصبحت حربًا تحررية، صارت لها كتائب تضم المئات من المجاهدين المنظمين المسلحين، وقد أخذت بحركاتها واندفاعها تثير الرُعب وسط السلطات الفرنسية والمستوطنين للنيل منهم في كل مكان، حتى استطاع المجاهدون السيطرة التامة على المناطق الجبلية الواقعة غرب تونس والممتدة من الشمال إلى الجنوب، فجن جنون السلطات الفرنسية فلجأت إلي أسلوب المطاردة والاعتقال والقتل للمجاهدين وحكمت بالإعدام علي كثيرٍ من التونسيين بمحاكمات صورية (**شريف ١٩٦٦م، ١٣٥**) لكن بالرغم من ذلك استمرت حركة الكفاح التونسي مما أدي إلي الاضطرابات في المدن على الرغم من تشديد فرنسا وممارستها للقمع، وفي الربع الأول من عام١٩٥٤م أمتد الاستياء العام من الحكم الاستعماري إلى المناطق الريفية لأول مرة في تاريخ تونس الحديث بعد أنَ انتظم الفلاحون في جماعات مسلحة (**خطاب ١٩٧٣، ٢٦**)

سادسًا: جبهة التحرير الوطنية التونسية والاستقلال

تكونت (فرق جيش تحرير تونس) في أول نوفمبر عام١٩٥٤م وتولى بعض المناضلين التونسيين قيادته، وانتشرت هذه الفرق في الجنوب حول مدينة سوسه وفي الغرب حتى حدود الجزائر حتى بلغ عدد التونسيين الذين سجلوا أسماءهم في هذه الفرق خمسة عشر ألف مجاهد، مما أنزل الرعب في مواكب المستوطنين، وانحصرت مهمة جيش التحرر في تطهير البلاد من الاستعمار وأذياله (**حميدي٢٠٠١م، ٢٠٠**) وبدأت نواة جيش التحرير التونسي- تهاجم المستوطنين الفرنسيين وتخرب وسائل الاتصال بقطع الأسلاك وإخراج القطارات عن خطوطها ومقاتلة الوحدات الفرنسية الصغيرة، فلجأت السلطات الفرنسية إلى استخدم القوه المفرطة لحسم مقاتلي جبهة التحرير، وفي وسط هذا الموقف المضطرب جاءت صدمة هزيمة الفرنسيين في معركة (ديان بيان في ٧/مايو١٩٥٤م) وتمخض عن ذلك تشكيل حكومة (منديس فرانس) الاشتراكية التي اضطرت إلى إعادة فتح المفاوضات من جديد، وأصدرت وعدًا بالاستقلال عرف بتصريح قرطاجة، وقامت بإطلاق سراح الحبيب بورقيبة الذي رحب بهذا التصريح، فاستقر الرأي على تشكيل وفد رسمي لتونس الأمر الذي تتطلب تشكيل وزارة تونسية جديده برئاسة أحد المعتقلين للقيام بهذه المهمة ووقع الاختيار على(الطاهر بن عمار) الذي كان من كبار الملاك المزارعين على أن يشترك معه ثلاثة من الدستورين بالإضافة إلي عدد من الوزراء المعتقلين لكي يفاوضوا فرنسا(**يحي ٢٠٠١م،٦٢٠**) إلا أن فرنسا اشترطت أولاً أمر تصفية جيش التحرير الذي كان تحت زعامة صالح بن يوسف أن يسلم السلاح قبل بدأ المفاوضات، فرض ابن يوسف ذلك لذا تراجعت فرنسا عن شرطها وبدأت المفاوضات، فصدر بلاغًا مشتركًا مع الحكومة التونسية في منتصف نوفمبر ١٩٥٤م ضمن سلامة التونسيين بعد تقديم أسلحتهم وذخائرهم للسلطات (**يحي ٢٠٠١م، ٦٢٢**)

٦/١-اتفاقية الحبيب بورقيبة عام١٩٥٥م:

لم يكن الحبيب بورقيبة أبدًا من أنصار الحلول العنيفة فهو لا يلجأ إلى القوه إلا عند بلوغ الحد الأقصى أو عندما يكون قد استنفذ جميع وسائل الإقناع (**جاسم ٢٠٠٧م، ٢٨٥**) دارت مفاوضات بين الطرفين حيث كان بورقيبة ممثلاً لتونس فصدرت هذه الاتفاقية في(٣/يونيو عام١٩٥٥م) وتم التوقيع على اتفاق منح تونس استقلالاً داخليًا مع الاحتفاظ بأمور السياسة الخارجية والأمن والدفاع بيد فرنسا، واعتبرت هذه الاتفاقية خطوة للأمام رغم اعتراضات بعض القيادات الوطنية عليها بأنها جاءت مخيبة لأمل للكفاح الوطني وتزعم هذا الاتجاه الثائر صالح ابن يوسف(**القصاب ١٩٩٣م، ٦١١**)

انتهز بورقيبة فرصة الحرب الدائرة بالجزائر مع الفرنسيين فشكل بورقيبة الوزارة التونسية الجديدة وسعى إلى تعديل

الاتفاقية السابقة في ٢٠/مارس عام١٩٥٦م تم توقيع بروتوكول الاستقلال التام، وتحسنت العلاقات الفرنسية التونسية وحصلت بذلك تونس على استقلالها عام ١٩٥٦م وألغيت بذلك الحماية الفرنسية مع مراعاة المصالح الفرنسية لم يكن الحبيب بورقيبة أبدًا من أنصار الحلول العنيفة فهو لا يلجأ إلى القوة إلا عند بلوغ الحد الأقصى أو عندما يكون قد استنفذ جميع وسائل الإقناع (شلبي ١٩٦٦م، ١٤٥)

خَاتِمَةٌ

ساهم سبب سوء إدارة البايات في غزو تونس عام ١٨٨١م – والجدير بالذكر أنَ المقاومة التونسية للاحتلال انفجرت منذ أن وطأت أقدام الاحتلال أرض البلاد ورغم أنها كانت مقاومات ضعيفة إلا أنها أكدت لقوات الاحتلال الرفض التام لهم من قبل الشعب التونسي. تواصلت هذه المقاومات بعد الحرب العالمية الأولي وذلك بظهور بعض التنظيمات التي دعت الاحتلال إلى الإصلاح السياسي، ثمَ استمر الكفاح الوطني بعد الحرب العالمية الثانية حتى توج النضال بقيام فرق جبهة التحرير التونسية المسلحة والتي استطاعت أن تقود البلاد إلى الاستقلال باتفاقية مارس ١٩٥٦م.

النتائج

- انتهزت فرنسا دخول بعض القبائل الرعوية التونسية الحدود الجزائرية في الاحتلال عام ١٨٨١م، معتبرًا أنَ ذلك أمر فوضوي لابد من حسمه.
- عمدت فرنسا إلى أسلوب حكم مباشر في تونس مكنها من السيطرة على كل مقاليد الدولة السياسية والاقتصادية.
- بدأت المقاومة التونسية للقوات الفرنسية منذ أن وطأت أقدامهم أرض البلاد مؤكدين رفضهم التام للغزاة.
- كان للباي (محمد المنصف) جهوده المقدرة في تطور الحركة الوطنية خلال الحرب العالمية الثانية.
- شهدت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية قيام ما يسمي (بالحركة النقابية التونسية) عام١٩٤٦م وهي عبارة عن حركة مطلبيه توضح مدي التطور السياسي الكبير على الساحة التونسية بعد أنَ انضم لعضويتها المئات من الوطنيين بالبلاد.
- ترتب على الحركة النقابية قيام حركة (الاتحاد العام للعمال التونسيين للشغل) ١٩٤٦م الذي كان له دوره في وحدة الصف التونسي وتزعم النضال ضد المستعمر.
- كان لاغتيال الزعيم التونسي (فرحات حشاد) عام ١٩٥٢م أثرًا عميقًا في تصعيد الحركة الوطنية بتحويلها إلى حركة مُسلحة ضد الفرنسيون والمستوطنون الأجانب.
- في عام ١٩٥٤م تكونت فرق جيش جبهة التحرير الوطني التي بلغ مجموعها حوالي (خمسة عشر ألف مُجاهد) والتي انحصرت مهمتها في تطير البلاد من الاستعمار وأذياله.
- تُوج الكفاح الوطني باتفاقية ٢٠مارس١٩٥٦م التي منحت التونسيين الاستقلال التام مع المحافظة على المصالح الفرنسية بالبلاد.

التوصيات

أوصى بالمزيد من الدراسات لبعض الموضوعات الخاصة بتاريخ الحركة الوطنية التونسية التي لا زالت **تفتقر للدراسة والتحليل مثل:**

- جهود الباي محمد المنصف في الحركة الوطنية.
- دور الزعيم فرحات حشاد.
- رموز جبهة التحرير التونسية (الحبيب بورقيبة، صالح بن يوسف)

المصادر والمراجع:

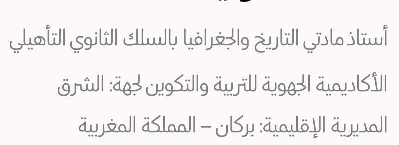
- حميدي، جعفر عباس، ٢٠٠١م: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، دار الفكر العربي/عمان، ط١.
- الجمل، شوقي عطا الله المغرب، ١٩٧٧م: **العربي الكبير في العصر الحديث**، مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة، ط١.
- محروس، حلمي إسماعيل، ٢٠٠٤م: **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ج١، مؤسسة شباب الجامعة للنشر/الإسكندرية، ط١.
- علال، الفاسي، ١٩٨٤م: **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، مجلة الثقافة للنشر/القاهرة، ط١.
- شريف، محمد الهادي، ١٩٦٦م: **تاريخ تونس من عصور قبل التاريخ إلى الاستقلال**، تعريب محمد الشاوش، دار سرار للنشر/بيروت، ط١.
- الزيدي، مُفيد، ٢٠٠٨م: **موسوعة تاريخ العرب الحديث والمعاصر**، دار المعرفة الجامعية/ الإسكندرية، ط١.
- الجاني، علاء الدين، ١٩٨٥م: **تاريخ الوطن العربي**، دار الخير للطباعة والنشر/ دمشق، ط١.
- الطاهر، عبد الله، ٢٠٠٢م: **الحركة الوطنية التونسية**، دار المعارف للطباعة والنشر/ مصر، ط٣.
- دسوقي، ناهد إبراهيم، ٢٠٠٨م: **دراسات في تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، دار المعرفة الجامعية للنشر/ الإسكندرية، ط١.
- سلطان، توفيق وآخرون، ١٩٧٥م: **دراسات في الوطن العربي والحركات الثورية والسياسية**، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر/ العراق، ط٣.
- خطاب، محمود شيت، ١٩٧٣م: **قادة المغرب العربي**، ج١، دار الفكر العربي/عمان، ط٢.
- ياغي، إسماعيل أحمد ومحمود شاكر، ١٩٩٣م: **تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر**، ج٢، دار المريخ للنشر/الرياض ط١.
- جنتر، جون، ١٩٥٧م: **داخل إفريقيا**، ترجمة فاروق حافظ، ج١ مكتبة الأنجلو المصرية/القاهرة، ط١.
- يحي، جلال، ٢٠٠١م **العالم العربي الحديث والمعاصر**، ج٣، مؤسسة شباب الجامعة للنشر/الإسكندرية، ط١.
- جاسم، ظاهر، ٢٠٠٧م **التاريخ المعاصر للأمة الإفريقية**، دار شمخ للطباعة والنشر/أبو ظبي، ط١.
- القصاب، أحمد، ١٩٩٣م **تاريخ تونس المعاصر (١٨٨١ – ١٩٥٦م)**، الشركة التونسية للتوزيع والنشر/تونس، ط٣.
- شلبي، أحمد، ١٩٨٤م: **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية**، مكتبة النهضة المصرية/القاهرة، ط٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

البحث التاريخي في المغرب غداة الاستقلال
ملاحظات أولية



محمد العساوي


أستاذ مادتي التاريخ والجغرافيا بالسلك الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة: الشرق
المديرية الإقليمية: بركان – المملكة المغربية

مُلَخّص

تتناول مداخلتنا موضوع البحث التاريخي في المغرب غداة الاستقلال، الذي تميز بالتطور سواء من الناحية الكمية أو المضامينية، إذ تكاثرت الأبحاث والإنتاجات في مختلف العصور التاريخية (قديم – وسيط – حديث – معاصر)، وفي هذا الإطار يمكن التمييز بين مرحلتين أساسيتين: الأولى (من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٥م) برز خلالها ثلة من المؤرخين المغاربة والأجانب الذي تجندوا للرد على الكتابات الكولونيالية، ومحاولة إعادة الاعتبار للتاريخ الوطني، أما المرحلة الثانية فتمتد من سنة (١٩٧٦م إلى الآن) التي انفتح خلالها الباحثون الشباب على التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والذهني والديمغرافي، بعيدًا عن التاريخ السياسي والعسكري، الذين رأوا فيه بأنه استوفى المطلوب في جميع زواياه، ومعتبرين في نفس الوقت بأن الوقت قد حان لكتابة التاريخ من أسفل أي التأريخ للمجالات الهامشية والفئات المهمشة. الشيء الذي انعكس على جِدَّة وجودة الأبحاث التاريخية سواء على مستوى البحوث الأكاديمية أو في إطار مشاريع بحثية شخصية، والتي ما تزال مستمرة إلى غاية وقتنا الراهن.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٩	يونيو	٢٠٢١
تاريخ قبول النشر:	٠٥	يوليو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

البحث التاريخي؛ المغرب؛ غداة الاستقلال؛ الكتابات الكولونيالية؛ التاريخ الوطني؛ التاريخ من أسفل

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.250641

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد العساوي. "البحث التاريخي في المغرب غداة الاستقلال: ملاحظات أولية".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٢٠٣ – ٢١٠.

Corresponding author: aelaissaoui-mohamed@hotmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تميز البحث التاريخي في المغرب غداة الاستقلال بالتطور سواء من الناحية الكمية أو الكيفية[١]، فقد تعددت الأبحاث مع تعدد المؤسسات الجامعية بكل ربوع البلاد، وتكاثر عدد الباحثين في ميدان التاريخ بمختلف تخصصاته (قديم، وسيط، حديث، معاصر)، وقد توزعت جهود المؤرخين المغاربة في اتجاهات كثيرة، مست ما هو عسكري وسياسي وديني وديمغرافي واجتماعي واقتصادي وذهني....

وإذا ما تتبعنا مسار التدوين التاريخي بالمغرب منذ الاستقلال إلى الآن، نجد أنه يعكس تطور الوعي الوطني من جهة والتوجهات المنهجية للبحث التاريخي على المستوى العالمي ككل من جهة ثانية، وبناء عليه يمكننا أن نميز بين مرحلتين أساسيتين:

- مرحلة إعادة كتابة **"التاريخ الوطني"** (١٩٥٦-١٩٧٥م).
- مرحلة محاولة كتابة **"التاريخ الوطني الديمغرافي والاجتماعي والاقتصادي والذهني"** (١٩٧٦م-الآن).

وهذا ما يدفعنا إلى طرح جملة من الأسئلة من قبيل:

- ما هي مميزات البحث التاريخي في المغرب غداة الاستقلال؟
- ما طبيعة المواضيع المُتطرق إليها من قبل الباحثين؟
- إلى أي حد ساهمت هذه الأبحاث في إغناء الحقل التاريخي كَمّاً وكَيْفًا؟

أولاً: مرحلة إعادة كتابة التاريخ الوطني (١٩٥٦-١٩٧٥م) ملاحظات أولية

خلال فترة الحماية حاولت السلطات الاستعمارية جاهدة منع المغاربة على الاهتمام بعلم التاريخ، باعتباره واحدا من المجالات التي تنمي الوعي الوطني، وتكشف عن نوايا ومخططات المُستعمِر، لذلك فإن عدد المهتمين بكتابة تاريخ المغرب كان ضعيفا جدا ولذلك كان علينا أن ننتظر إلى غاية بزوغ فجر الاستقلال (١٩٥٦م)، لتظهر أولى المحاولات لإعادة كتابة تاريخ المغرب بعيدًا عن التشويه الاستعماري الذي مسه إبان فترة الحماية.

وفي هذا الصدد برزت أول تجربة سنة (١٩٦٧م) عندما صدر كتاب "تاريخ المغرب"[٢] لمجموعة من المؤلفين بلغ عددهم ستة، لكن ما يلاحظ على هذا الكتاب أن عدد المؤرخين المغاربة المشاركين فيه كان ضعيفًا نسبيًا (٢ من أصل ٦)، الشيء الذي يدل على أن ولوج ميدان البحث التاريخي من طرف جيل الاستقلال لم يكن عملية سهلة، وعلى الرغم من أن شعبة التاريخ قد أصبحت ضمن الهيكلة البيداغوجية لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ابتداء من سنة (١٩٥٧م)، إلا أن التأطير كان يرجع أساسا لمؤرخين أجانب (فرنسيين بالخصوص أو لأساتذة تحولوا إلى التاريخ من تخصصات أخرى (أدبية ولغوية).

وللإشارة فإن احتضان الجامعة المغربية لنخبة من الأساتذة الفرنسيين المتحررين من الخلفيات الاستعمارية كان له أثر إيجابي في اطلاع الباحثين المغاربة القليلين على أحدث المناهج والمدارس التاريخية، التي كانت قد فرضت وجودها في أوربا خلال القرن العشرين، وخاصة مدرسة الحوليات التي أحدثت هزة عنيفة في مجال البحث التاريخي، بانقلابها على التاريخ السياسي والعسكري واهتمامها بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والذهني، وهذا المسار الجديد هو الذي سعى مؤلفو كتاب "تاريخ المغرب"، إلى محاولة إقناع المؤرخين المغاربة الشباب إلى تبنيه.

إلا أن محاولة مؤلفي تاريخ المغرب لتوجيه البحث التاريخي في اتجاه الرؤيا الشمولية التي كانت تنادي بها مدرسة الحوليات كانت قبل أوانها، وهو لم يستجب له المؤرخون المغاربة للأسباب التالية:

- لم يكن مؤرخو الفترة الموالية للاستقلال مستعدين لنقل تجربة مدرسة الحوليات، والاستفادة من توجهها الجديد، قبل تصفية الحساب مع التاريخ الكولونيالي.
- قلة المؤرخين المغاربة المؤهلين للاستفادة من المدارس التاريخية الحديثة وتطبيقها على الواقع المغربي.
- اقتناع المؤرخين المغاربة – على قلتهم – بأن الاستفادة من مدرسة تاريخية مثل مدرسة الحوليات تتطلب تحقيق بعض التقدم في إنجاز الدراسات الجزئية، أو المونوغرافية، والتي يمكن أن تشكل قاعدة لتفسيرات مقبولة، فمدرسة الحوليات من أهم خصائصها التعميم والتنظير وتجاوز الإطار الضيق، زمنيا ومكانيا في محاولة لرصد التحولات الكبرى، وهذا أمر لم يكن ممكنا في هذه المرحلة، لأن البحث التاريخي كان يفتقر إلى الدراسات الدقيقة والمعمقة التي تسمح بتفسير التطور التاريخي على مستوى **"الزمن الطويل"**، وبما أن المؤرخين المغاربة شككوا في كل ما تركه المستعمر من دراسات، مهما كانت قيمتها العلمية، فإنهم اعتبروا أن مهمتهم يجب أن تنطلق من البداية[٣].

ونظرًا لكل هذه العوامل فإن الإنتاج التاريخي ببلادنا غداة الاستقلال إلى غاية منتصف السبعينيات بقي ضعيفًا جدًا.

وإلى جانب كتاب "تاريخ المغرب" المذكور سالفًا، برز كتاب آخر ترك بصمته في المشهد الثقافي المغربي، ألّفه الأستاذ عبد الله العروي سنة (١٩٧٠م) تحت عنوان "مجمل تاريخ المغرب"، وإذا استثنينا هذين الكتابين، فإن ما ميز البحث التاريخي في المغرب هو ما يمكن أن نسميه بـ "التاريخ الوطني"، الذي سعى إلى الرد على الكتابات الكولونيالية ودحض أطروحاتها، والعمل على تحرير التاريخ الوطني من التوجهات الاستعمارية وإثبات الهوية الوطنية.

ويُعَدّ المؤرخ جرمان عياش الذي كَوَّن بجامعة الرباط العديد من المؤرخين المغاربة الشباب، واحدا من الذين تزعموا هذا التيار المضاد للكتابات الكولونيالية، وحاول من خلال دراساته المختلفة[٤] على إثبات وجود الدولة المغربية ككيان فاعل وفعال، اعتمادا على وثائق مخزنية بعيدًا عن الوثائق الأجنبية، وخاصة الوثائق الدبلوماسية والقنصلية الأوربية، التي لا تعكس حسب رأيه الصورة الحقيقية لتاريخ المغرب بقدر ما تزيد في غموضه وتحريفه، وهو ما قد يؤدي بالمؤرخ إلى انزلاقات خطيرة. وفي نفس المنحى سار المؤرخ المغربي محمد المنوني (رحمه الله)، والذي يظهر موقفه الواضح من الهوية المغربية في مؤلفه الشهير "مظاهر يقظة المغرب الحديث"، الذي لم يعتبر فيه فقط أن الدولة والأمة المغربيتين كانتا حاضرتين قبل الاحتلال، بل كانتا على عتبة يقظة وحركة تجديدية كان من المفروض أن تنقذ البلاد من انحطاطها وتجنبها السقوط بين مخالب الاستعمار[٥].

إن مرحلة إعادة كتابة التاريخ الوطني كانت ضرورية لإزالة أنقاض المدرسة الاستعمارية، وتمهيد الطريق للدخول في مرحلة جديدة يتصدى خلالها المؤرخون لمهمة كتابة تاريخ المغرب "من الداخل"، والاتجاه الوطني الذي سلكه التأليف التاريخي كان مرتبطا بالظروف السياسية والاجتماعية للبلاد في وقت تميز بالتلاحم الوطني والتركيز على الهوية الوطنية، وهو يجعل القارئ يلاحظ أن جل الأبحاث المنجزة من سنة (١٩٥٦ إلى ١٩٧٥م)، غلب عليها الجانب السياسي والعسكري بشكل كبير، وأغفلت الجوانب الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية والذهنية التي تعد من أهم مرتكزات البحث التاريخي الجديد الذي نادت به مدرسة الحوليات، وهو ما سيقود ثلة من المؤرخين المغاربة الشباب إلى قيادة ثورة منهجية تجديدية في ميدان البحث التاريخي انطلاقًا من سنة (١٩٧٦م) إلى يومنا هذا.

ثانيًا: مرحلة محاولة كتابة التاريخ الوطني الديمغرافي والاجتماعي والاقتصادي والذهني (١٩٧٦ إلى الآن) قراءة في التجربة

تميز البحث التاريخي خلال هذه المرحلة بتجاوز التأريخ للأحداث السياسية والعسكرية، والاهتمام بالتاريخ الديمغرافي والاجتماعي والاقتصادي والذهني، الذي قاده المؤرخون الشباب المتسلحين بمنهج علمي شمولي، هذا التاريخ الجديد سيهتم بالمجتمع من القاعدة (التاريخ من الأسفل)، مركزا على الفئات التي صنعت التاريخ والتي نعتتها الكتابات التاريخية بـ "المهمشين" أو "المستضعفين"، وغير خاف أن هؤلاء المؤرخين الشباب لم يتأثروا فقط بأفكار مدرسة الحوليات، بل حتى بالتيارات الإيديولوجية التي كانت متواجدة على الساحة خلال السبعينيات.

كما انفتحت الدراسات التاريخية الجديدة خلال هذه المرحلة على العلوم الاجتماعية الأخرى، وخاصة علمي الاجتماع والاقتصاد، والأنثروبولوجيا، ومن جهة أخرى برز وعي لدى المؤرخين بأن التاريخ لن يكون علميًا بمعنى الكلمة إلا إذا اعتمد على الأرقام، أي أصبح تاريخًا كميًا، خاصة عندما يتعلق الأمر بالتاريخ الديمغرافي. ومن مميزات هذه المرحلة كذلك انقلاب المؤرخين الشباب على المادة المصدرية التقليدية بتجاوزهم المصادر الإرادية (كتب التاريخ العام السياسية والعسكرية) وتبنيهم المصادر اللاإرادية أو كما سماها المؤرخ محمد المنوني بـ: "المصادر الدفينة" والتي تشمل: (كتب النوازل والحسبة والرحلات والمناقب والتراجم والأمثال الشعبية...)، وهو ما سيسمح بإعطاء صورة أكثر وضوحًا عن تاريخنا الوطني بكل تجلياته وتمفصلاته

وعمومًا فقد توزعت جهود المؤرخين المغاربة خلال هذه المرحلة في اتجاهات كثيرة، تركت ثلاثة منها آثارًا متفاوتة الأهمية في الحقل الإسطوغرافي ويتعلق الأمر بـ:

١-التحقيق

التهم حصة كبيرة من أعمال الباحثين، سواء في إطار تحضير شهادات عليا، أو في إطار اهتمام خاص، إذ أن ما يناهز الستين تحقيقا أُنجز بالخصوص في إطار دبلوم الدراسات العليا الذي كان معمولا به في النظام الجامعي القديم، أو في إطار دكتوراه النظام الجديد، إذ كان الكثير من الباحثين المبتدئين يدشنون مسارهم كمؤرخين بالاشتغال حول المخطوط[٦]، هذا بالإضافة إلى

أعمال تحقيقية أخرى تمت خارج نطاق هذا الدبلوم من طرف مؤرخين متمرسين، كما يظهر مثلا مع النصوص التي اشتغل عليها محمد حجي وأحمد التوفيق وغيرهما.

٢-التاريخ العلائقي

شكل موضوع دراسة بالنسبة للكثير من الباحثين المغاربة منذ نهاية الثمانينيات، وهذا المجال من البحث التاريخي له أهمية كبيرة، بالنظر إلى مساهمته في فهم السياق العام الذي حصلت فيه التطورات التي عرفتها البلاد، والظروف التي فرضت فيها القوى الأوربية نفسها على المغرب، وردود فعل المغاربة، والتحولات السوسيو-اقتصادية والسياسية التي ولدتها ضغوط هذه القوى[٧].

٣-التاريخ المونوغرافي

حظي باهتمام واسع من طرف شريحة عريضة من الدارسين، وقد انطلق هذا التوجه الجديد بشكل فعلي منذ أواسط السبعينيات مع الجيل الثاني من المؤرخين المغاربة، بفضل دراستين رئيسيتين، وهما "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر: إينولتان (١٨٥٠-١٩١٢م)" لأحمد توفيق (١٩٧٦م) و"تافيلالت" للعربي مزين (١٩٧٧م)، وقد أظهر هذان الباحثان قدرة كبيرة على تجاوز "النزعة الوطنية" التي مثلها بعض المؤرخين غداة الاستقلال مثل جرمان عياش، فإذا كان هاجس الكتابة التاريخية، قبل السبعينيات، هو الرد على الإسطوغرافيا الاستعمارية، والتركيز على الأرشيف الوطني[٨]، فإن الأبحاث الجديدة، وفي مقدمتها هاتان الدراستان، فتحت حقلا جديدا في البحث التاريخي يقضي بمعالجة تاريخ المغرب وتفسيره انطلاقا من الملاحظة المجهرية، أو بعبارة أخرى الانطلاق من إشكالية الإقليم لتحليل البنيات الاجتماعية والاقتصادية للمغرب قبل التدخل الاستعماري، **وقد تميزت هذه الأبحاث بثلاث خاصيات أساسية وهي**:

- استعمال مكثف للأرشيف، من وثائق مخزنية كالمراسلات والسجلات الجبائية، والنوازل، وحوالات الأحباس، وابتكار مستندات محلية، وتحليلها تحليلاً دقيقًا.
- اقتحام مواضيع جديدة، كانت فيما قبل حكرا على الجغرافيين والأنثربولوجيين وعلماء الاجتماع، ويتعلق الأمر بالمشاهد الزراعية والمزارعين والتقنيات والمحاصيل الفلاحية والتجمعات السكنية وأنماط السكن والتركيبات الاجتماعية وأشكال ممارسة السلطة والعلاقات مع الحكم المركزي، وغيرها من المواضيع المرتبطة بالبنية الاجتماعية والاقتصادية.
- الدفع بالتاريخ إلى محاورة العلوم الاجتماعية الأخرى، كما يظهر مع أحمد التوفيق الذي دخل في نقاش مع الباحثين الذين اهتموا ببنية المجتمع أمثال روبير مونتاني وجاك بيرك وإيرنست كيلنر وغيرهم[٩].

والجدير بالذكر أن التأثير الذي مارسه هذان المؤرخان على الباحثين داخل الجامعة المغربية كان تأثيرًا بينا، إذ سار العديد من هؤلاء على دربهما وأنجزوا أبحاثًا حول القبائل أو الواحات[١٠]، وهناك من اهتم بمونوغرافيات تخص المدن من الزاوية الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وأيضا من زاوية العلاقة مع الأحواز المحيطة بها[١١]، وفي المقابل أنجز باحثون دراسات حول مدن أخرى، تجمع بين المقاربة التاريخية والمقاربة العمرانية[١٢]، وهناك دراسات همت المدن، بشكل عام، بالعلاقة مع النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، في العصر الوسيط بالخصوص[١٣]، هذا بالإضافة إلى أبحاث ركزت على تاريخ مناطق جغرافية بأكملها[١٤].

ومن جهة أخرى فضل باحثون آخرون الاشتغال حول مونوغرافيات من زاوية موضوعاتية، غلبت عليها السمة الاقتصادية[١٥]، أو السمة الاجتماعية[١٦]، أو السمة الدينية كالزوايا[١٧].

ثالثًا: حصيلة البحث التاريخي غداة الاستقلال (١٩٦٣-١٩٩٧م) الدراسات الأكاديمية المغربية أنموذجًا

يمكن رصد حصيلة البحث التاريخي عامة، بالجامعة المغربية، عبر عدة سياقات ومحطات، يمكن قياسها على مستويي الكم والكيف المرتبطين أساسا بعنصري الامتداد الزمني والمحطات الرئيسة المتعلقة بإصلاح نظام الشهادات الجامعية وبالإصلاح الجامعي ككل. وهكذا فعلى مستوى عنصر الامتداد الزمني يلاحظ أن البحث التاريخي بالجامعة المغربية عرف تطورًا عدديًا لا بأس به، نتيجة للتطور العددي للطلبة الملتحقين بالجامعة، وهو ما يفسر بإحداث العديد من الجامعات والكليات وشعب التاريخ بصفة خاصة بالعديد من المدن المغربية لاستيعاب تلك الأفواج المتنامية من الطلبة، ويظهر أن وتيرة الإقبال على شعب التاريخ كانت مرضية على العموم.

أما على مستوى المحطات المتعلقة بإصلاح نظام الشهادات والإصلاح الجامعي فيلاحظ أن أعداد الملتحقين، بمختلف مستويات السلك الثالث والمسجّلين لأطاريح أو

رسائل جامعية، أو أعداد الذين ناقشوا أطاريحهم ورسائلهم، قد تأثروا إلى حد بعيد بتلك المحطات[١٨].

١-الحصيلة على المستوى الكمي:

عدد الرسائل والأطاريح الجامعية المناقشة والمسجلة حسب العصور والمجال (من ١٩٦٣ إلى ١٩٩٧م)

المجال / العصر	المغرب وشمال إفريقيا والأندلس	مصر والمشرق العربي والعالم الإسلامي	إفريقيا السمراء	أوربا وأمريكا وآسيا	المجموع	(%)
تاريخ قديم	٤٦	٢	-	٧	٥٥	٩,٥٠
تاريخ وسيط	١١٦	٢٠	٥	-	١٤١	٢٤,٣٥
تاريخ حديث	٢٤٨	٤	١٣	٥	٢٧٠	٤٦,٦٣
تاريخ معاصر	٦٢	٣	٣	٣	٧١	١٢,٢٦
مدى طويل	٣٥	٢	٥	-	٤٢	٧,٢٥
المجموع	٥٠٧	٣١	٢٦	١٥	٥٧٩	١٠٠
(%)	٨٧,٥٦	٥,٣٥	٤,٤٩	٢,٥٩	١٠٠	

- إن معدل الرسائل والأطاريح الجامعية المسجلة والمناقشة خلال ٣٤ سنة (٥٧٩ عنوانًا)، يمثل حوالي (١٧,٥٨%) رسالة وأطروحة كل موسم جامعي، وهو رقم متواضع.

- إن ترتيب عدد الرسائل والأطاريح الجامعية المسجلة والمناقشة خلال الفترة نفسها، حسب العصور التاريخية، كالآتي:

أ-التاريخ الحديث.

ب-التاريخ الوسيط.

ج-التاريخ المعاصر.

د-التاريخ القديم.

هـ -تاريخ المدى الطويل.

- إن ترتيب عدد الرسائل والأطاريح الجامعية المسجلة والمناقشة خلال الفترة نفسها، حسب المجال الجغرافي، كالآتي:

أ-تاريخ المغرب وشمال إفريقيا والأندلس.

ب-تاريخ مصر والمشرق العربي والعالم الإسلامي.

ج-إفريقيا السمراء.

د-تاريخ أوربا وأمريكا وآسيا.

وهو ما يعني أن اهتمام الباحث في التاريخ بالمغرب هو اهتمام بالتاريخ الوطني والمحلي أو الإقليمي بالأساس.

عدد الرسائل الجامعية المناقشة بالكليات المغربية حسب السنوات (من ١٩٦٣ إلى ١٩٩٧م)[١٩]

السنة / المؤسسة	٦٠ - ٦٩	٧٠ - ٧٩	٨٠ - ٨٤	٨٥ - ٨٩	٩٠ - ٩٤	٩٥ - ٩٧	المجموع / النسبة
الرباط	٤	٢	١٦	٦٠	٤١	٧	١٣٦ (66.99%)
فاس (ظهر المهراز)	-	-	٦	٣٤	١٤	٥	٥٩ (29.06%)
عين الشق	-	-	-	٦	١	-	٧ (03.44%)
المحمدية	-	-	-	-	-	١	١ (00.49%)
المجموع	٤	٢	٢٢	١٠٠	٥٦	١٣	٢٠٣
(%)	١,٩٧	٠٠,٩٨	١٠,٨٣	٤٩,٢٦	٢٧,٥٨	٦,٤٠	١٠٠

- إن معدل نسبة الرسائل المناقشة خلال ٣٤ سنة (من ١٩٦٣ إلى ١٩٩٧)، هو حوالي: (٠٥,٩٧%) مناقشة في كل سنة، وهو رقم ضعيف.

- إن فترة (١٩٨٥-١٩٨٩) هي التي شهدت أعلى معدل للمناقشات، متبوعة بفترة (١٩٩٠-١٩٩٤).

- إن كلية الآداب بالرباط تحتل المرتبة الأولى على صعيد عدد الرسائل المناقشة خلال السنوات كلها، متبوعة بكلية الآداب فاس - ظهر المهراز، بينما تأتي كلية الآداب المحمدية في آخر الترتيب.

- إن الرسائل المناقشة تهم أربع كليات فقط من مجموع ثلاثة عشر كلية[٢٠].

٢-الحصيلة على مستوى المضمون:

طبيعة مواضيع الرسائل الجامعية المسجلة والمناقشة بالكليات المغربية حسب السنوات (من ١٩٦٣ إلى ١٩٩٧م)

السنوات / طبيعة البحث	٦٠ - ٦٩	٧٠ - ٧٩	٨٠ - ٨٩	٩٠ - ٩٧	المجموع	(%)
ترجمة	-	١	١	٦	٨	٢,١٠
تحقيق	٢	٢	٢٢	٤٢	٦٨	١٧,٨٩
تاريخ سياسي – عسكري - دبلوماسي	١	١	٣٨	٣٣	٧٣	١٩,٢١
تاريخ سياسي - اجتماعي	-	-	٢٢	١٩	٤١	١٠,٧٨
تاريخ سياسي – اقتصادي - اجتماعي	-	٥	٣٣	٤٠	٧٨	٢٠,٥٢
تاريخ سياسي – ديني – اجتماعي - فكري	٢	٢	٢٤	٣٧	٦٥	١٧,١٠
حضارة وعمارة وتقنيات	-	-	٦	٧	١٣	٣,٤٢
تاريخ وآثار وأركيولوجيا وطوبونيميا	-	-	٣	٣	٦	١,٥٧
تاريخ عام	-	-	١٢	١٦	٢٨	٧,٣٦
المجموع	٥	١١	١٦١	٢٠٣	٣٨٠	١٠٠
(%)	١,٣١	٢,٨٩	٤٢,٣٦	٥٣,٤٢	١٠٠	

- تحتل المواضيع ذات البعد الاقتصادي والاجتماعي ثم المواضيع السياسية والدبلوماسية والعسكرية نسبة مهمة من اهتمامات الباحثين في التاريخ بالجامعة المغربية، يليها تحقيق التراث، ولاسيما كتب المناقب والتراجم، كما يلاحظ أن هناك اهتمام بترجمة بعض الكتب وإن بنسبة قليلة للغاية.

- يلاحظ ارتفاع متصاعد في وتيرة الرسائل المسجلة والمناقشة من عقد لآخر، لكنه يبقى ضعيفًا[٢١].

خَاتِمَةٌ

من خلال كل ما سبق، يتضح أن البحث التاريخي في المغرب غداة الاستقلال، عرف تطورًا مهمًا سواء من الناحية الكمية أو المضامينية، مما سمح بوجود تراكم معرفي غني ومتنوع، بدأت أولى صفحاته مع جيل الاستقلال الذين تعبؤوا لإعادة كتابة التاريخ الوطني، وتجاوز التشويه الذي رَوَّجَه التاريخ الكولونيالي، لينطلق بعد ذلك الجيل الثاني من المؤرخين المغاربة الشباب الذين انفتحوا على التاريخ الجديد الذي نادت به مدرسة الحوليات في أوربا، وانكبوا إلى دراسة تاريخ المجتمع والاقتصاد والذهنيات والديمغرافيا، في إطار ثلاثية: التاريخ العلائقي والمونوغرافي والتحقيق، متسلحين بمنهج علمي رصين، منفتح على علوم مجاورة، وبمادة مصدرية غزيرة، تجاوزت المصادر التقليدية من كتب التاريخ العام والسياسة والجيش، إلى مصادر لا إرادية ككتب النوازل والمناقب والرحلات...، الشيء الذي انعكس على جِدَّة وجودة الأبحاث التاريخية سواء على مستوى البحوث الأكاديمية أو في إطار مشاريع بحثية شخصية، والتي لاتزال مستمرة إلى غاية وقتنا الراهن.

الاحالات المرجعية:

(١) غداة الاستقلال وإلى أواسط الثمانينيات، لم تناقش سوى (٤٧) رسالة وأطروحة جامعيتين، وخلال الثمانينيات والتسعينيات إلى حدود (٢٠٠٣م) نوقشت أكثر من ثلاثمائة رسالة وأطروحة في مختلف التخصصات بشعب التاريخ الأربعة عشرة التابعة لكليات الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعات المغربية.

(2) j.Brignon et al, **"Histoire du Maroc"**, Paris-Casablanca, 1967.

(٣) محمد المنصور، **"الكتابة التاريخية بالمغرب خلال ثلاثين سنة (١٩٥٦-١٩٨٦): ملاحظات عامة"**، مقال منشور ضمن استكتاب جماعي تحت عنوان: **"البحث في تاريخ المغرب: حصيلة وتقويم"**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم:١٤، الرباط، ١٩٨٩م، صص.١٨-١٩.

(٤) معظم هذه الدراسات جمعت في كتاب " Etudes d'histoire marocaine"، الذي نشر في سنة (١٩٨٣).

(٥) محمد المنصور، مرجع سابق، صص.٢١-٢٢.

(٦) من الأمثلة على ذلك نذكر: أحمد عزاوي، **"تحقيق رسائل الغرب الإسلامي"**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٩١؛ ومحمد بوكبوط، **"تحقيق وتعليق ودراسة لمخطوط إحراز المعلى"**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ٢٠٠١؛ ومحمد الشريف، **"دراسة وتحقيق لمخطوط المستفاد في مناقب العباد"**، كلية الآداب، تطوان، ٢٠٠١.

(٧) من الأمثلة على ذلك نذكر: أحمد الأزمي، **"العلاقات المغربية الفرنسية على عهد المولى إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧م)"**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، ١٩٨٧؛ وعبد الحفيظ الطبايلي، **"العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن السادس عشر (١٥٧٨-١٦١٧م)"**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٩؛ وخالد بن الصغير، **"المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦-١٨٨٦م)"**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، ١٩٩٧؛ وعبد الرحيم بن حادة، **"المغرب والباب العالي من منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر"**، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان، ١٩٩٨؛ عبد المجيد القدوري، **"المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر: مسألة التجاوز"**، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء، بيروت، ٢٠٠٠؛ ومحمد بن هاشم، **"العلاقات المغربية الأمريكية (١٧٨٦-١٩١٢م)"**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس / ظهر المهراز، ٢٠٠٠؛ وبهيجة سيمو، **"العلاقات المغربية الإيطالية (١٨٦٩-١٩١٢م)"**، الرباط، ٢٠٠٥؛ وعثمان المنصوري، **"العلاقات المغربية البرتغالية (١٧٩٠-١٨٤٤م)"**، المحمدية، ٢٠٠٥؛ وعكاشة برحاب، **"المغرب وفرنسا من سياسة حسن الجوار إلى الاحتلال العسكري (١٩٠١-١٩٠٧م)"**، الرباط، ٢٠٠٧؛ وسمير بوزويتة، **"العلاقات المغربية النمساوية – الهنغارية: تاريخ وذاكرة مشتركة"**، منشورات مجلس الجالية المغربية بالخارج، الرباط، ٢٠٢٠.

(٨) محمد المنصور، مرجع سابق، صص.٢٠-٢٣.

(٩) محمد حبيدة، **"التاريخ الاجتماعي والاقتصادي في المغرب: من المونوغرافية إلى التركيب"**، مقال منشور ضمن استكتاب جماعي تحت عنوان: **"خمسون سنة من البحث التاريخي في المغرب"**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، العددان:٧-٨، الرباط، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، صص.١٣-١٤.

(١٠) من الأمثلة على ذلك نذكر: محمد أعفيف، **"توات"** (١٩٨٢)؛ وعبد الرحمان المودن، **"إناون"** (١٩٨٤)؛ والعربي اكنينح، **"بني مطير"**

(١٩٨٤)؛ وعلي المحمدي، **"آيت با عمران"** (١٩٨٥)؛ وأحمد مزيان، **"فكيك"** (١٩٨٦)؛ وأحمد البوزيدي، **"درعة"** (١٩٨٨)؛ وحسن الحافظي العلوي، **"سجلماسة"** (١٩٨٨)، وعبد الرزاق الصديق، **"الرحامنة"** (١٩٨٩).

(١١) من الأمثلة على ذلك نذكر: محمد مزين، **"فاس"** (١٩٧٩)؛ وعبد القادر العافية، **"شفشاون"** (١٩٨٠)؛ ومحمد اللحية، **"مكناس"** (١٩٨٤)؛ ومحمد الشريف، **"سبتة"** (١٩٨٧)؛ وأحمد شعبان، **"القصر الكبير"** (١٩٨٨)؛ وعبد الإله الفاسي، **"الرباط"** (١٩٨٨)؛ والعربي واحي، **"سلا"** (١٩٨٨)؛ وجمال الدين العمراني، **"طنجة"** (١٩٩٦)؛ ومحمد رابطة الدين، **"مراكش"** (٢٠٠٢)؛ ومارية دادي، **"وجدة"** (٢٠٠٢)، وإدريس شهبون، **"العرائش"** (٢٠٠٥)، وعبد العزيز السعود، **"تطوان"** (٢٠٠٦).

(١٢) من الأمثلة على ذلك نذكر: جودية حصار، **"سلا"** (١٩٧٩)؛ والعربي الرباطي، **"تطوان"** (١٩٨٨)؛ ومينة المغاري، **"الصويرة"** (٢٠٠٤)؛ وجمال حيمر، **"مكناس"** (٢٠٠٤).

(١٣) من الأمثلة على ذلك نذكر: دراسات محمد فتحة (١٩٨٢)، وأحمد قدور (١٩٨٨)، والكبير بزاوي (٢٠٠٣).

(١٤) من الأمثلة على ذلك نذكر: أحمد بوشرب، **"دكالة"** (١٩٨٠)؛ وعبد الرحيم بنحادة، **"سوس"** (١٩٨٧)؛ ومحمد زرهوني، **"الأطلس الكبير"** (١٩٩٨)؛ والمكي المالكي، **"الأطلس المتوسط"** (٢٠٠١)؛ ومصطفى البوعناني، **"الغرب"** (٢٠٠٢).

(١٥) من الأمثلة على ذلك نذكر: نعيمة التوزاني، **"نظام المالية"** (١٩٧٦)؛ وعمر أفا، **"النقود"** (١٩٨٥)؛ وبنيونس غزالي، **"نمط الإنتاج"** (١٩٨٦)؛ وعثمان المنصوري، **"التجارة"** (١٩٨٨)؛ وفاطمة العيساوي، **"الحرف"** (١٩٨٩)؛ وعبد العزيز الخمليشي، **"الضرائب"** (١٩٨٩).

(١٦) من الأمثلة على ذلك نذكر: عبد الاله الفاسي، **"الأعيان"** (١٩٨٨)؛ ومحمد الأمين البزاز، **"الأوبئة والمجاعات"** (١٩٩٠)؛ وإبراهيم القادري بوتشيش، **"نظام المجتمع"** (١٩٩١)؛ ومحمد كنبيب، **"اليهود"** (١٩٩٢)؛ ومصطفى بن زاكور، **"الشرفاء"** (١٩٩٦)؛ ورشيدة مدغري، **"المرأة"** (١٩٩٧)؛ وأحمد الوارث، **"الأولياء"** (١٩٩٨)؛ وليلى مزيان، **"القراصنة"** (١٩٩٩)؛ وعبد الإله بنمليح، **"العبيد"** (٢٠٠٠)؛ ومحمد المغراوي، **"العلماء"** (٢٠٠٢)؛ ومحمد استيتو، **"الفقراء"** (٢٠٠٢)؛ ومحمد حبيدة، **"التغذية"** (٢٠٠٨)، ومصطفى نشاط، **"السجناء"** (٢٠١٣).

(١٧) من الأمثلة على ذلك نذكر: محمد حجي، **"الزاوية الدلائية"** (١٩٦٣)؛ وأحمد بوكاري، **"الزاوية الشرقاوية"** (١٩٨٤)؛ وحسن البودراوي، **"الزاوية الوزانية"** (١٩٨٤)؛ وخديجة الراجي، **"الزاوية السملالية"** (١٩٩٣)؛ وعبد الإله جريد، **"الزاوية الكتانية"** (١٩٩٧)؛ والجيلالي العدناني، **"الزاوية التيجانية"** (١٩٩٨)؛ ونفيسة الذهبي، **"الزاوية الفاسية"** (١٩٩٩)؛ وسلمان رقاس، **"الزاوية الحنصالية"** (١٩٩٩)؛ وأحمد عمالك، **"الزاوية الناصرية"** (٢٠٠١)؛ ومحمد المازوني، **"الزاوية المصلوحية"** (٢٠٠٣).

(١٨) محمد استيتو، **"خمسون سنة من البحث التاريخي في الجامعة المغربية: التاريخ الحديث أنموذجا – الحصيلة والآفاق-"**، مقال منشور ضمن استكتاب جماعي تحت عنوان: **"خمسون سنة من البحث التاريخي في المغرب"**، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، العددان:٧-٨، الرباط، ٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص.١٠١.

(١٩) إن أول رسالة نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، بتاريخ: ٢٨ فبراير ١٩٦٣، تعود ل: ذ.عبد الهادي التازي، **"كتاب المن بالإمامة على المستضعفين"** لإبن صاحب الصلاة.

(٢٠) محد استيتو، مرجع سابق، صص. ١٠٥-١٠٧.

(٢١) محد استيتو، مرجع سابق، ص. ١١٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

التبادل التجاري بين السودان ودول الخليج العربي
الواقع والتحديات



أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله العراقي
أستاذ تاريخ الوطن العربي المعاصر
كلية الآداب – جامعة الموصل
جمهورية العراق

مُلَخّصْ

تهدف هذه الدراسة إلى دراسة تبيان الأثار الإيجابية لعلاقة السودان بالدول الخليجية على الاقتصاد السوداني، لأنها جذبت قدرا كبيرا من رؤوس الأموال والاستثمارات، وقد ترجم ذلك في صيغة تسهيلات في التجارة الخارجية، وفي التبادل الحر للبضائع والخدمات، وفي تدفق رأس المال الخليجي إلى السودان، كما هدفت إلى تبيان طبيعة التحديات والعقبات التي واجهت وتواجه هذه العلاقات والسبل الكفيلة بالتغلب عليها، فكلا الطرفين قد استفادا وما زالا يستفادان من هذه العلاقات، وبالمقابل فان الروابط الاقتصادية قد عمقت من العلاقات السياسية بينهما. وقد اعتمدت الدراسة المنهجية التاريخية الاستقرائية لما توفر لدى الباحث من بيانات رسمية سودانية في تبيان مقدار اقيام وكميات البضائع المتبادلة بين السودان ودول الخليج العربي، وتم ذلك باستخدام جداول من إعداد الباحث لتوضيح طبيعة واقع هذا التبادل والتحديات التي واجهته. وقد كشفت الدراسة عن وجود تبادل تجاري واعد بين السودان ودول الخليج العربي، كما وضحت وبلغة الأرقام اقيام هذه البضائع المتبادلة، فضلاً عن أنواعها، والتي كان النفط ومنتجاته في مقدمتها، كما بينت الدراسة الدول الخليجية الأعلى رقمًا في الاستيراد والتصدير مع السودان، كما هو الحال مع دولة الإمارات العربية والمملكة العربية السعودية، وكذلك الدول الخليجية الأقل، كما هو الحال مع سلطنة عمان ودولة قطر ومملكة البحرين. وتستخلص الدراسة إلى أن هناك أهمية كبيرة للتبادل التجاري وأهمية تنوع البضائع المتبادلة بين دول الخليج العربي والسودان، فضلاً عن أهمية الاستثمار الخليجي في السودان وأثره على تنشيط التبال التجاري بين الطرفين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠١	يونيو	٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر:	٠٢	يوليو	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

التبادل التجاري؛ السودان؛ الخليج العربي؛ الصادرات العربية؛ تاريخ الاقتصاد

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.250704

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ذاكر محي الدين عبد الله العراقي. "التبادل التجاري بين السودان ودول الخليج العربي: الواقع والتحديات".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٢١١ – ٢٢٩.

Corresponding author: dr.thaker63@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

كان للتقارب وتحسن علاقات السودان مع دول الخليج أثاره الإيجابية على الاقتصاد السوداني، وذلك لاستقطابه رؤوس أموال واستثمارات خليجية، وظهرت تلك الآثار على الاقتصاد بوضوح في تسهيلات التجارة الخارجية، وتبادل السلع والخدمات، وتدفق ورؤوس الأموال الخليجية للاستثمار فيه، وأبدى المسؤولون السودانيين تفاؤلاً بتحسن علاقات التعاون الاقتصادي بين السودان ودول الخليج، والتي كان لها مردود إيجابي على الاقتصاد لكلا الجانبين[١]، وذلك لتنامي التبادل التجاري السوداني ـالخليجي بوتيرة متسارعة وبشكل ملحوظ، وهو ما يتطلب قيام السودان ودول الخليج بأجراء العديد من المعالجات والترتيبات على المستوى المالي، والعمل على زيادة كمية وطبيعة المنتجات المتبادلة بين الطرفين، وكيفية تجاوز المعوقات ومعالجة الأزمات التي قد تنشأ أو تواجه أو تعرقل هذا التبادل التجاري[٢]، وهو ما سيحاول هذا البحث دراسته ومعالجته.

أهداف الدراسة:

دراسة تبيان الأثار الإيجابية لعلاقة السودان بالدول الخليجية على الاقتصاد السوداني، لأنها جذبت قدرا كبيرا من رؤوس الأموال والاستثمارات، وقد ترجم ذلك في صيغة تسهيلات في التجارة الخارجية، وفي التبادل الحر للبضائع والخدمات، وفي تدفق رأس المال الخليجي إلى السودان، كما هدفت إلى تبيان طبيعة التحديات والعقبات التي واجهت وتواجه هذه العلاقات والسبل الكفيلة بالتغلب عليها، فكلا الطرفين قد استفادا وما زالا يستفادان من هذه العلاقات، وبالمقابل فان الروابط الاقتصادية قد عمقت من العلاقات السياسية بينهما.

منهجية الدراسة:

اعتمدت الدراسة المنهجية التاريخية الاستقرائية لما توفر لدى الباحث من بيانات رسمية سودانية في تبيان مقدار اقيام وكميات البضائع المتبادلة بين السودان ودول الخليج العربي، وتم ذلك باستخدام جداول من إعداد الباحث لتوضيح طبيعة واقع هذا التبادل والتحديات التي واجهته.

البيانات وعينة الدراسة:

تم اختيار عينات الدراسة من البيانات الرسمية لبنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة الخارجية السنوي للسنوات ٢٠٠٣-٢٠١١، الجداول رقم(٦)، ومصادر أخرى قدر تعلق الأمر بالبحث.

أولاً: مساعي السودان لتنامي اقتصاده، وأثر ذلك على التجارة الخارجية

آمنت الحكومة السودانية كغيرها من الحكومات في المنظومة الدولية، بضرورة التعاطي الإيجابي مع التحولات الاقتصادية العالمية، إذ لا يمكنها تحقيق التنمية خارج نطاق هذه المنظومة، وعليه فقد شهد الاقتصاد ، ومنذ مطلع القرن الحالي تطورات جذرية وشاملة، أدت لتغيرات كبيرة في هيكله، وفي مستوى الأداء، وشكل عدم الاستقرار السياسي والصراعات والأزمات الداخلية ـ ومنذ الاستقلال ـ سمة غالبة في الدولة، والتي كان لها انعكاساتها السلبية الواضحة على الاقتصاد، فضلاً عن الضغوط الدولية، ولاسيما العقوبات الأمريكية التي كان لها تأثيراتها السلبية الكبيرة عليه، ويمكن تأشير مجموعة من السمات الرئيسة له، ومنها[٣]:

- اعتمدت الموازنة العامة على منهج دعم السلع الأساسية من موارد غير حقيقية، مما أثر على مرونة قوى السوق، وارتفاع حجم ديون السودان الخارجية من١٠٫٥ مليون دولار عام ١٩٨٥م، إلى ٢٣ مليار دولار في عام ٢٠٠٤م[٤].
- استنزفت الحرب الأهلية في الجنوب منذ عام ١٩٨٣م الكثير من الموارد المالية والبشرية، والتي كان يمكن توظيفها في التنمية والإنتاج، كما أنها عطلت الإنتاج في أجزاء كثيرة، وبخاصة تلك التي أصبحت مسرحًا للعمليات العسكرية، كما تعطلت من جرائها العديد من المشاريع الإنمائية والاستراتيجية، فضلاً عن الكوارث الطبيعية التي كان لها تأثيراتها السلبية على الإنتاج [٥].
- ارتفاع الفائض من الأيدي العاملة المحلية، صاحبه ارتفاع نسب البطالة، وذلك لتذبذب النمو الاقتصادي، وانخفاض مستوى التوظيف في القطاع الخاص، وعجز القطاع العام عن استيعاب الفائض.
- عانى الميزان التجاري من عجز واضح، من جراء استمرار ظاهرة قصور العرض الكلي المحلي، ومن ثم زيادة الاستيراد بشكل كبير.
- عدم وضوح استراتيجية الحكومة في موضوع التحول التدريجي من الدعم الحكومي للسلع والخدمات الأساسية، إلى توفر السلع والخدمات على أساس حاجة السوق والتكلفة المنخفضة.
- وعلى الرغم من أن النشاط الزراعي يعد من أبرز مقومات الاقتصاد السوداني، الا أن هذا القطاع يعاني من العجز عن

تلبية الطلب المحلي، وظل الاعتماد على استيراد المواد الغذائية الأساسية مثل القمح، والأرز، والسكر، والحليب، وزيوت الطعام، والقهوة، والشاي، وغيرها.

– كما ظلت مساهمة القطاع الصناعي محدودة في الاقتصاد، وفي استيعاب القوة العاملة، وفي المساهمة المؤثرة في هيكل الصادرات، إذ ساد الاعتماد على بعض الصناعات النفطية والصناعات التحويلية الخفيفة المرتبطة بالإنتاج الاستهلاكي المباشر، ولم يستفد بشكل كبير من الفرص الكثيرة في مجال التصنيع الزراعي بحكم الخلفية الزراعية للاقتصاد السوداني[٦].

ولمعالجة ذلك، حاولت الحكومات السودانية المتعاقبة - ومنذ وقت مبكر- مواجهة التراجع الاقتصادي عبر تبنيها مسارات اقتصادية جديدة، لعل من أهم مقوماتها: اعتماد بعض مبادئ الاقتصاد الحر الذي تبنته الدولة منذ عام ١٩٩٢م في ما عرف بـ(**مرحلة الاستراتيجية القومية الشاملة في السودان ١٩٩٢_٢٠٠٢م**)، والتي اعتمدت وضع خطط ثلاثية، ومن ثم خمسية، للنهوض بالاقتصاد في اطار مناخ التحرر الاقتصادية، إذ عملت على تحرير التجارة الداخلية والخارجية، وتشجيع المبادرة الفردية، وتوفير المناخ الملائم للقطاع الخاص، والسعي للحد من دور الحكومة، عبر خصخصة العديد من المؤسسات الحكومية، والعديد من المنشآت الصناعية والزراعية والخدمية، وفك الاحتكار الممنوح لمؤسسات القطاع العام، والتي من بينها احتكار الحبوب الزيتية، وتسويق الماشية، وغيرها، وإلغاء أو تخفيض الضرائب والرسوم على الصادرات[٧].

وأصدر بنك السودان مجموعة من السياسات والتدابير تتعلق بسعر الصرف، وفي تحرير المبادلات التجارية، وإزالة التشوهات الهيكلية المتراكمة، والتي تركزت في كثرت القيود والضوابط التي كبلت حركة التجارة، وبخاصة على الصادرات والواردات، وإلغاء القيود الجمركية على الاستيراد والتصدير.[٨]

وسعت الحكومة السودانية كذلك، إلى الانضمام إلى منظمة التجارة الدولية، كما قامت بتعزيز علاقات التعاون مع المنظمات والمؤسسات الإقليمية والدولية المهتمة بشؤون الاستثمار، ومنها دول الخليج العربي، وأنشأت لذلك مناطق للتجارة الحرة، تتمتع بالعديد من الإعفاءات الجمركية والضريبية[٩]، وفي١٧ شباط/ فبراير٢٠٠٩م قانون تنظيم التجارة الخارجية لعام٢٠٠٩م، والذي ألغى بموجبه قانون تنظيم التجارة لعام١٩٩٤م، مع إبقاء العمل بكل اللوائح السارية المفعول بموجب القانون السابق، وكان الهدف من القانون الجديد تطبيق حرية التجارة والمنافسة الحرة، وفتح الأسواق لتخفيض أو إلغاء الحواجز غير الفنية، وحرية النفاذ إليها، وتشجيع انسياب السلع بصورة عادلة، وتنظيم الاستيراد والتصدير، مع منح صلاحيات واسعة ومهمة لمجلس الوزراء السوداني لأتخاذ ما يجده مناسبًا، بهدف تذليل العقبات، وتسهيل انسيابية التجارة السودانية[١٠].

كما طرح السودان مبادرات كثيرة لتعزيز اقتصاده في إطار عمل عربي مشترك، ومنها: المبادرة التي أعلن عنها في كانون الثاني/ يناير٢٠١٣م، أمام القمة العربية الاقتصادية والاجتماعية في دورتها الثالثة بالرياض، والتي تقوم على الاستعداد لتوفير أراضي زراعية متميزة للاستثمارات العربية بعامة، والخليجية بخاصة، وتمول من الصناديق العربية، بما يحقق الاكتفاء الذاتي للاحتياجات العربية من الغذاء[١١]. وفي القمة العربية الاقتصادية نفسها، أكد السودان أن بلاده تمتلك من الموارد والمقومات ما يحقق الأمن الغذائي العربي ويسد فجوته الغذائية[١٢]، مع الإشادة بالمبادرات العربية في مجال التنمية والاستثمار، وبخاصة في تمويل مشروعات كبرى، ومنها: دعم تنفيذ مشروعات سد مروي، وتعلية خزان الروصيرص، وسدي ستيت وأعلى نهر عطبرة [١٣].

وجاءت المبادرة السودانية امتدادًا للمبادرات العربية العديدة، ومنها مبادرة الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت في١٩ كانون الثاني/ يناير٢٠٠٩م، والتي أعلن فيها عن إنشاء صندوق بمليار دولار لتمويل صغار المنتجين[١٤]، ومبادرة الملك الراحل عبد الله بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية في٢١ كانون الثاني/ يناير٢٠١٣م، والتي تدعو إلى زيادة رؤوس أموال المؤسسات والصناديق العربية[١٥]، وتحقيقًا لذلك عقد في١٩ كانون الثاني/ يناير٢٠١٤م في الخرطوم الاجتماع الاستثنائي للمجلس الاقتصادي للجامعة العربية، من أجل مناقشة المبادرة السودانية وتنفيذها، ودعا المجتمعون مؤسسات التمويل، والشركات العربية إلى تخصيص ما لا تقل نسبته عن٢٠% من رؤوس أموالها لدعم مبادرة السودان هذه، لسد الفجوة الغذائية العربية[١٦].

ويرى مراقبون أن مجالات التعاون السوداني_ الخليجي واسعة ومفيدة للطرفين، خصوصًا في مجالات الاقتصاد والأمن والدفاع، إن مما عزز النشاط الاستشاري وأدام زخمه في السودان، قيام حكومته بتبني القوانين والتشريعات الاستشارية التي تضمنت العديد من الامتيازات والإعفاءات

لصالح جذب واستقطاب الاستثمارات الأجنبية، ومنها إدخال نظام النافذة الموحدة، التي جمعت كل الجهات المختصة بالاستثمار في مكان واحد، كما أقامت الحكومة منطقتين للتجارة الحرة تتمتع بالعديد من الإعفاءات الكمركية والضريبية[١٧].

ثانيًا: واقع التبادل التجاري بين السودان ودول الخليج العربي

تميزت التجارة البينية العربية -وبوجه عام-في المدة بين عامي (١٩٩٤- ١٩٩٩م) بظاهرة التركيز الجغرافي، فيما يخص الصادرات على شريك واحد أو شريكين، إذ حازت المملكة العربية السعودية بالقياس إلى دول الخليج العربي، على المرتبة الأولى من حيث قيمة الصادرات البينية إلى الدول العربية، إذ بلغت ٤٢،٦١٤ مليون دولار عام١٩٩٤م،وشهدت ارتفاعًا ملحوظًا في قيمة الصادرات البينية، فبلغت ٦٠٠٧٣٢ مليون دولار عام١٩٩٧م،الا أنها تراجعت إلى ٤٨،٣٥٦مليون دولار عام ١٩٩٩م.

في حين حازت مملكة البحرين على أدنى اقيام في الصادرات البينية بالنسبة لدول الخليج العربي، إذ بلغت ١،٤٢٩مليون دولار عام ١٩٩٤م، وتذبذبت اقيامها صعودًا ونزولاً حتى عام ١٩٩٩م، فبلغت في ذلك العام ١،٥٣٥ مليون دولار، كما تواضعت اقيام الصادرات السودانية بالقياس لدول الخليج العربي مجتمعة أو منفردة[١٨]، ويوضح الجدول أدناه مجمل قيمة الصادرات الإجمالية للسودان ودول الخليج العربي بين عامي ١٩٩٤-١٩٩٩م.

جدول رقم (١)

اقيام الصادرات الإجمالية للسودان ولدول الخليج العربي

بين عامي ١٩٩٤-١٩٩٩م (مليون دولار)[*]

الدولة	عام ١٩٩٤	عام ١٩٩٥	عام ١٩٩٦	عام ١٩٩٧	عام ١٩٩٨	عام ١٩٩٩
السودان	٥٢٤	٥٥٦	٦٢٠	٥٩٤	٥٩٦	٧٨٠
السعودية	٤٢،٦١٤	٥٠،٠٤١	٦٠،٧٢٨	٦٠،٧٣٢	٣٨،٨٢٢	٤٨،٣٥٦
الأمارات	٢٧،٣٥٨	٢٨،٩٠٨	٣٣،٥٩٦	٣٤،٠١٣	٣١،٠٧٢	٣٥،٨٣٩
الكويت	١١،٢٣٠	١٢،٧٨١	١٤،٨٨٩	١٤،٢٢٧	٩،٥٥٣	١٢،٢١٩
عمان	٥،٥٤٥	٦،٠٦٨	٧،٣٤٦	٧،٩٣١	٥،٥١٩	٧،٢٥٠
قطر	٣،٢١٣	٣،٤٨١	٣،٨٣٣	٤،٦٥٢	٥،٠١٠	٦،٥٧٠
البحرين	١،٤٢٩	١،٦٥٨	١،٥٤٣	١،٦٦٩	١،٥٧٦	١،٥٣٥

نقلاً عن: صندوق النقد العربي، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٠**: http://www.amf.org.ae ملحق رقم (١/٩).

كما تميزت تجارة الواردات البينية العربية_ وبوجه عام _في المدة بين عامي ١٩٩٤_١٩٩٩م بظاهرة التركيز الجغرافي من جانب الصادرات على شريك واحد أو شريكين، إذ تركزت الواردات السودانية بشكل عام، على تلك القادمة من المملكة العربية السعودية[١٩]، ويبين الجدول التالي اقيام تلك الواردات لكل من السودان ولدول الخليج العربي بين عامي ١٩٩٤_١٩٩٩م.

جدول رقم (٢)

اقيام الواردات الإجمالية للسودان ولدول الخليج العربي

بين عامي ١٩٩٤-١٩٩٩م (مليون دولار)(*)

الدولة	عام ١٩٩٤	عام ١٩٩٥	عام ١٩٩٦	عام ١٩٩٧	عام ١٩٩٨	عام ١٩٩٩
السودان	١٬١٦١	١٬١٨٤	١٬٥٠٤	١٬٥٨٠	١٬٩٢٥	١٬٤١٥
السعودية	٢٣٬٣٥١	٢٨٬٠٨٧	٢٧٬٧٦٥	٢٨٬٧٤٣	٣٠٬٠١٣	٢٨٬٠٣٢
الأمارات	٢٢٬٦٨٩	٢٣٬٤٨١	٢٥٬٨٣٢	٢٦٬٦١٤	٣٠٬٥٢٤	٣٢٬٤٥٨
الكويت	٦٬٦٨٠	٧٬٧٨٤	٨٬٣٧٣	٨٬٢٤٦	٨٬٦١٦	٧٬٦١٦
عمان	٤٬٠١٤	٤٬٣٧٨	٤٬٧٢٨	٥٬١٩١	٥٬٨١٦	٤٬٨٠١
قطر	١٬٩٩١	٣٬٣٩٨	٢٬٥٨٤	٤٬٠١٠	٥٬٢٠٠	٦٬٨٤٠
البحرين	٤٬٠١٤	٤٬٣٧٨	٤٬٧٢٨	٥٬١٩١	٥٬٨١٦	٤٬٨٠١

-نقلاً عن: صندوق النقد العربي، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام** ٢٠٠٠، ملحق رقم (٩/١)، المصدر السابق.

يظهر الجدول السابق، تصدر كل من المملكة العربية السعودية، ودولة الأمارات لقائمة التجارة العربية البينية بين عامي٩٤_ ١٩٩٩م، في حين سجلت باقي دول الخليج تذبذًا واضحًا في اقيام هذه التجارة، كما يظهر، تواضع قيمة تجارة السودان بالقياس إلى أقيام واردات دول الخليج العربي منفردة ومجتمعة معًا، ومن الجدير بالذكر مساهمة كل من المملكة العربية السعودية، ودولة الأمارات، بما يزيد عن نصف واردات التجارة البينية العربية منذ مطلع القرن العشرين، فاستحوذت المملكة العربية السعودية على نصف سوق الصادرات العربية لكل من السودان وبما نسبته٥٩%، وتلاه كل من مملكة البحرين، وجمهورية الصومال[٢٠].

ثالثًا: صادرات وواردات السودان مع دول الخليج العربي

تبادل السودان مع دول الخليج العربي بضائع مختلفة تصديرًا واستيرادًا، إذ تصدر النفط ومشتقاته قائمة هذه الصادرات، ثم تلاها الحيوانات والحوم والذهب والصمغ العربي، وبنسب متفاوتة مع هذه الدول وكذلك تباينت اقيامها ارتفاعًا وانخفاضًا أثناء مدة الدراسة، وتباينت كذلك أنواع البضائع المستوردة من دول الخليج العربي، كما تباينت أسعارها وسنحاول توضيح ذلك فيما يأتي.

ومع أن تجارة السودان الخارجية سجلت بعض التطور الملحوظ في قيمتها الإجمالية، منذ أن تم الإعلان عن سياسة التحرير الاقتصادي[٢١]، والتي اتبعتها الحكومة في مطلع العقد التاسع من القرن الماضي، وهو ما أدى _إلى حد ما_ إلى تفعيل نشاط القطاع الخاص في مجالي الاستيراد والتصدير، إلا أننا نجد أن الصادرات التجارية السودانية لدول الخليج العربي ضئيلة في قيمها الإجمالية بالقياس إلى الصادرات إلى دول العالم، إذ لم تتجاوز ما قيمته ٥٠٧٠٢٠٧٣٨ مليار دولار أثناء المدة بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١ ، كما أنها تعادل ما يقاب نصوف وارداته من هذه الدول، إذ بلغت مجموع واردات السودان من دول الخليج العربي ما قيمته ١١٠٤٦٩٠٧٨٩ مليار دولار أثناء المدة موضوع البحث، وهي بمجملها في تقديري مبالغ ليست ذات قيمة اقتصادية عالية لدول الخليج العربي وكذلك للسودان بالقياس إلى صادرات وواردات هذه الدول مع دول العالم ، وكذا هو الحال بالنسبة للسودان أيضًا.

وحلت دولة الإمارات في المرتبة الأولى في قائمة دول الخليج العربي التي صدر إليها السودان بضائعه بما قيمتهـ٤٠٤٣٣٠٠٣٤ مليار دولار، والمملكة العربية السعودية في المرتبة الثانية بما قيمته ١٠٢٦٢٠٤٧٥ مليار دولار، ودولة الكويت في المرتبة الثالثة بما قيمته ١١٠٧٤ مليون دولار، وتوزع باقي المبلغ على بقية دول الخليج العربي وكما موضح في الجدول رقم (٣) أدناه.

دول رقم (٣)

مجموع صادرات السودان إلى دول الخليج العربي

بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
الإمارات	٤٬٤٣٣٬٠٣٤
السعودية	١٬٢٦٢٬٤٧٥
الكويت	١١٬٧٤
قطر	٤٬٨٤٩
عمان	٩٠٦
البحرين	٣٠٠
المجموع	٥٬٧٠٢٬٧٣٨

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، **الموجز الإحصائي للتجارة الخارجية كانون الثاني/ يناير_ كانون الأول ديسمبر للأعوام** ٢٠٠٣-٢٠١١، الصادرات الجداول رقم ٦.

وتحددت البضائع السودانية المصدرة إلى دول الخليج العربي، بعدد محدود جدًا، ويأتي في مقدمتها الذهب بما قيمته ٢،٤١٩،٦٥٢ مليار دولار، والنفط وبعض مشتقاته بما قيمته ١،٠٩٠،٢٧٥ مليار دولار، والحيوانات الحية بما قيمته ٩٤٢،٤٩٩ مليون دولار، واللحوم بما قيمته ٥١،١٢٧ مليون دولار، والجلود بما قيمته ٢٦،٨٥٣مليون دولار، وبعض المنتجات الزراعية كالسمسم بما قيمته ١٧٤،٣٥٥ مليون دولار، والقطن والصمغ العربي ومنتجات زراعية أخرى بما قيمته ١٩٣،١٨٦ مليون دولار، والجدول أدناه يوضح ذلك.

جدول رقم(٤)

اقيام البضائع المصدرة من السودان إلى دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

البضائع	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
الجلود	٢٦،٨٥٣
اللحوم	٥١،١٢٧
الحيوانات الحية	٩٤٢،٤٩٩
الذهب	٢،٤١٩،٦٥٢
النفط ومنتجاته	١،٠٩٠،٢٧٥
السمسم	١٧٤،٣٥٥
بضائع أخرى	١٩٣،١٨٦

_* الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، **الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

وجاءت دولة الإمارات العربية في مقدمة الدول الخليجية في استيراد الذهب من السودان بما قيمته ٢،٤١٥،٤٤٨مليار دولار، تلتها المملكة العربية السعودية بما قيمته ٤،٠٧٧ مليون دولار، ودولة قطر، ثم سلطنة عمان، بينما لا توجد واردات تذكر لدولة الكويت، ومملكة البحرين من الذهب السوداني، وكما موضح في الجدول أدناه.

جدول رقم (٥)

مجموع صادرات السودان من الذهب إلى دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
السعودية	٤،٠٧٧
الإمارات	٢،٤١٥،٤٤٨
الكويت	ــ
قطر	١٢٢
عمان	٥
البحرين	ــــ
المجموع	٢،٤١٩،٦٥٢

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، **الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

وفيما يخص النفط ومنتجاته، فقد جاء ترتيب دولة الإمارات العربية في المقدمة بما قيمته ١،٠٩٠،٤٨٩١ مليار دولار، تلتها دولة الكويت بما قيمته ٢،٣٨٤ مليون دولار، بينما لا توجد اقيام تذكر لباقي دول الخليج من هذه السلعة، ومن بينها المملكة العربية السعودية التي تعد أكبر مورد للبضائع في السودان خليجيًا، وكما موضح في الجدول التالي.

جدول رقم (٦)

مجموع صادرات السودان من النفط ومنتجاته إلى دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
السعودية	ــــــ
الإمارات	١،٠٩٠،٤٨٩١
الكويت	٢،٣٨٤
قطر	ــــــ
عمان	ــــــ
البحرين	ــــــ
المجموع	١،٠٩٠،٢٧٥

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، **إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

وصدر السودان إلى دول الخليج العربي حيوانات حية بما قيمته ٩٤٢،٤٩٩ مليون دولار أثناء المدة بين عامي٢٠٠٣-٢٠١١، وكانت المملكة العربية السعودية في المقدمة بما قيمته ٩٣٦،٤٢٧ مليون دولار، تلتها دولة الإمارات العربية المتحدة بما قيمته ٥،٣٩٨ مليون دولار، ثم دولة الكويت، وتلتها دولة قطر ومملكة البحرين، في حين لم يسجل أي اقيام تذكر لسلطنة عمان، والجدول أدناه يوضح ذلك.

جدول رقم (٧)

مجموع صادرات السودان من الحيوانات الحية إلى دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
السعودية	٩٣٦،٤٢٧
الإمارات	٥،٣٩٨
الكويت	٣٧٧
قطر	٢٦٩
عمان	—
البحرين	٢٨
المجموع	٩٤٢،٤٩٩

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، **الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

وصدر السودان البضائع المتنوعة إلى دول الخليج العربي بما قيمته ١٩٣،١٨٦ مليون دولار كان للملكة العربية السعودية الحصة الأكبر، وكذا هو الحال بالنسبة للسمسم إذ حازت المملكة العربية السعودية المرتبة الأولى في قائمة دول الخليج العربي المستوردة للسمسم السوداني بما قيمته ١٠٤،٣٤٢ مليون دولار من مجمل صادرات هذا المحصول إلى دول الخليج العربي، وبما قيمته ١٩٣،١٨٦مليون دولار بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١، وكذلك الحال بالنسبة للجلود، إذ كانت حصيلة صادرات السودان من الجلود ٢٦،٨٥٣ مليون دولار، كان للمملكة العربية السعودية الحصة الأكبر بما قيمته ٢٥،١٢٨ مليون دولار، وكما موضح في الجدول التالي.

جدول رقم(٨)

مجموع صادرات السودان من البضائع المختلفة والمتنوعة (كالقطن والامباز والصمغ العربي وغيرها) إلى دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١ (قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الدولة	البضائع المختلفة والمتنوعة	السمسم	الجلود	اللحوم
السعودية	١٠٤،٣٤٢	١٥٥،٥٠٧	٢٥،١٢٨	٣٦،٩٩٤
الإمارات	٨٥،٢١٥	٩،٦٥٢	١،٥١٣	١٠،٩١٧
الكويت	١،٠٠٣	٩،١٥٠	٧	٥٣٧
قطر	١،٩٣٧	٤٦	٢٠٥	٢،٢٧٠
عمان	٤٤٢	—	—	٣٨٤
البحرين	٢٤٧	—	—	٢٥
المجموع	١٩٣،١٨٦	١٧٤،٣٥٥	٢٦،٨٥٣	٥١،١٢٧

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، **إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

أما فيما يخص أقيام الواردات التجارية السودانية من دول الخليج العربي مجتمعة، فقد بلغت ما قيمته ما قيمته ١١،٤٦٩،٧٨٩ مليار دولار أثناء المدة بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١، كان للملكة العربية السعودية الريادة في ذلك بما قيمته ٥،٦٥٧،٠١٥ مليار دولار، تلتها دولة الإمارات العربية بما قيمته ٤،٧٦١،٢٢٢ مليار دولار، ثم مملكة البحرين بما قيمته ٤٧٣،٩٩٥ مليون دولار، ثم سلطنة عمان، فدولة قطر، وحلت دولة الكويت في آخر الترتيب بما قيمته ١٤٦،٥٨٥مليون دولار، وكما موضح في الجدول أدناه.

جدول رقم(٩)

مجمـوع واردات السـودان التجاريـة مـن دول الخلـيج العربي

بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
المملكة العربية السعودية	٥،٦٥٧،٠١٥
دولة الإمارات العربية	٤،٧٦١،٢٢٢
مملكة البحرين	٤٧٣،٩٩٥
سلطنة عمان	٢١٨،٧٩٥
دولة قطر	٢١٢،١٧٧
دولة الكويت	١٤٦،٥٨٥
المجموع	١١،٤٦٩،٧٨٩

_ الجدول من **عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي**، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

ويمكننا أن نلاحظ أيضًا تركز الواردات التجارية السودانية مـن دول الخلـيج العـربي أثنـاء المـدة بـين عـامي ٢٠٠٣-٢٠١١ عـلى الآلات والمعدات الرأسمالية بما قيمته ٣،١١٧،٨٤٥ مليار دولار، والسـلع المصـنعة (المصـنوعات) بمـا قيمتـه ٢،٠٥٦،٢٨٩ مليـار دولار، ومنتجات النفط بما قيمته١،٠٥٩٩،١٤٥ مليار دولار، ووسائل النقـل، والمـواد الكيمياويـة، والمـواد الغذائيـة، والمنسـوجات، ومواد أخرى، وكما موضح في الجدول التالي:

جدول رقم(١٠)

اقيام البضائع المستوردة من السودان من دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

البضائع	قيمـــة المبلـــغ بالآلاف الدولارات
الآلات والمعدات	٣،١١٧،٨٤٥
المصنوعات	٢،٠٥٦،٠٢٨٩
المنتجات النفطية	١،٠٥٩٩،١٤٥
المواد الخام	٦٠٥،١٩١
القمح ودقيق القمح	١١٦،٨٩٢
بضائع المتنوع	٥٣١،١٥٩

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، **إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

اسـتورد السـودان كميـات مختلفـة ومتنوعـة مـن الآلات والمعدات من دول الخليج العربي أثناء المدة بين عامي٢٠٠٣-٢٠١١، إلا أنهـا اختلفـت مـن دولـة إلى أخـرى، فحـازت دولـة الإمـارات العربيـة عـلى المرتبـة الأولى خليجيًا في هذه البضائع بمـا قيمتـه ١،٦٤٤،٧٣٣ مليـار دولار، تلتهـا المملكـة العربيـة السـعودية بمـا قيمته١،٣٦٩،٧٨٠ مليار دولار، وتوزع ما تبقى من المبلغ على بقية دول الخليج العربي، وكما موضح في الجدول أدناه.

جدول رقم (١١)

مجموع واردات السودان من الآلات والمعدات

من دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمـــة المبلـــغ بالآلاف الدولارات
دولة الإمارات	١،٦٤٤،٧٣٣
المملكة العربية السعودية	١،٣٦٩،٧٨٠
البحرين	٣٧،٦٣٥
الكويت	٢٩،٢٩٣
عمان	٢٣،٨٩٥
قطر	١٢،٥٠٩
المجموع	٣،١١٧،٨٤٥

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، **إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

وفيمـا يخـص المـواد المصـنعة (المصـنوعات) فقـد بلغـت واردات السـودان منهـا مـا قيمتـه ٢،٠٥٦،٠٢٨٩ بـين عـامي٢٠٠٣-٢٠١١، كـان للملكـة العربيـة السـعودية الحصـة الأكـبر منهـا بمـا قيمتـه١،٠٤٥٢،٩٦١ مليـار دولار، وتبعتهـا دولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة في المرتبـة الثانيـة وبمـا قيمتـه ٩٧٦،٠٢٧٣مليـون دولار، وتـوزع باقي المبلغ عـلى مـا تبقـى مـن دول الخلـيج العـربي، وكمـا موضح في الجدول أدناه.

جدول رقم (١٢)

مجموع واردات السودان من المصنوعات

من دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
السعودية	١،٤٥٢،٩٦١
الإمارات	٩٧٦،٢٧٣
عمان	٨١،٤٨٩
البحرين	٢١،٩٩٢
الكويت	١٤،٦٧٠
قطر	١٢،٩٠٤
المجموع	٢،٥٦٠،٢٨٩

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، **إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

مع أن السودان بلد نفطي وصدر جزء من نفطه وبعض المنتجات النفطية إلى دول الخليج العربي، كما يوجد فيه العديد من المصافي النفطية، إلا أننا نلحظ استيراد السودان كميات من المنتجات النفطية المصنعة في دول الخليج العربي وبما قيمته ١،٥٩٩،١٤٥مليار دولار، وكان لدولة الأمارات العربية الحصة الأكبر بما قيمته ٧٤٨،٠٧٨ مليون دولار، تلتها المملكة العربية السعودية بما قيمته ٤٢٥،٤٣٤ مليون دولار، ثم مملكة البحرين بما قيمته ٣٧٤،٣٨٨ مليون دولار، وتوزع باقي المبلغ على ما تبقى من دول الخليج العربي، وكما موضح في الجدول أدناه.

جدول رقم (١٣)

مجموع واردات السودان من المنتجات النفطية

من دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١(*)

الدولة	قيمة المبلغ بالآلاف الدولارات
دولة الأمارات العربية	٧٤٨،٠٧٨
المملكة العربية السعودية	٤٢٥،٤٣٤
مملكة البحرين	٣٧٤،٣٨٨
سلطنة عمان	٤٨،٨٦١
الكويت	٢،٣٨٤
قطر	ــــــ
المجموع	١،٥٩٩،١٤٥

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، **تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

كما استورد السودان بضائع أخرى من دول الخليج العربي، ويمكننا أن نلاحظ تباين واضح في أنواع واقيام تلك البضائع، فقد استورد السودان من المواد الخام ما قيمته ٦٠٥،١٩١ مليون دولار ، وكانت المملكة العربية السعودية في مقدمة دولة الخليج العربي بما قيمته ٣٩٧،٤٧١ مليون دولار تلتها دولة الإمارات العربية المتحدة بما قيمته ٩٤،٤٤٦ مليون دولار، ثم دولة الكويت بما قيمته ٨٨،٤٣٨ مليون دولار، وتوزع باقي المبلغ على ما تبقى من دول الخليج العربي، وحلت المملكة العربية السعودية في المرتبة الأولى في قائمة دول الخليج العربي بتوريدها بضائع عديدة متنوعة بما قيمته ٣٢٠،٦٩٨ مليون دولار، تلتها دولة الإمارات العربية بما قيمته ١٧٢،٩٠٣ مليون دولار، ثم سلطنة عمان بما قيمته ٣٣،٤٣٧ مليون دولار، وتوزع باقي المبلغ على باقي دول الخليج العربي، ومع أن السودان يعد سلة خبز العرب، إلا أن المؤشرات الاقتصادية أشرت استيراده للقمح ودقيق القمح من دول عديدة من دول العالم، ومنها دول الخليج العربي التي استورد منها أثناء المدة بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١ ما قيمته ١١٦،٨٩٢مليون دولار، كان للمملكة العربية السعودية النصيب الأكبر منها بما قيمته ٩٣،٨١٩مليون دولار، تلتها دولة الإمارات العربية بما قيمته ٢٢،٧٩٤مليون دولار، وتوزع باقي المبلغ على باقي دول الخليج العربي، وكما موضح في الجدول أدناه.

جدول رقم (١٤)

مجموع واردات السودان من البضائع المتنوعة (غذائية وشاي وبن ومشروبات وتبغ وأخرى) من دول الخليج العربي بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١ (قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الدولة	المواد الخام	بضائع متنوعة	القمح ودقيق القمح
السعودية	٣٩٧،٤٧١	٣٢٠،٦٩٨	٩٣،٨١٩
الإمارات	٩٤،٤٤٦	١٧٢،٩٠٣	٢٢،٧٩٤
الكويت	٨٨،٤٣٨	١،٨٥٣	٣٦
قطر	١١،٧٩٦	٥٣٩	ــــ
عمان	٤،١٢٧	٣٣،٤٣٧	٢٤٣
البحرين	٨،٩١٣	١،٧٢٩	ــــ
المجموع	٦٠٥،١٩١	٥٣١،١٥٩	١١٦،٨٩٢

_ الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، **تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

وبالنسبة للواردات السودانية الحكومية، فقد بلغت ما قيمته ٨٩٦،١١١ مليون دولار ما بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١، وكانت الحصة الأكبر منها من نصيب المملكة العربية السعودية بما قيمته ٤٣٩،٣٩٣ مليون دولار، تلتها دولة البحرين بما قيمته ٢١٦،١٥١ مليون دولار، ثم دولة الإمارات العربية بما قيمته ٢٠٤،٧١٠ مليون دولار، وتوزع باقي المبلغ على ما تبقى من دول الخليج العربي، وكما موضح في الجدول التالي.

جدول رقم (١٥)

الواردات الحكومية السودانية من دول الخليج العربي

بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١ (قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الأعوام	السعودية	الإمارات	الكويت	قطر	عمان	البحرين	المجموع
٢٠٠٣	٥٨،٤٥٤	٢٤،٠٩٣	١،٥٣٤	١٧٢	٤٦٠	٤٩،٥٣٤	١٣٤،٢٤٧
٢٠٠٤	٨٠،٩٦٦	٢٦،٧٦٤	١٣٥	١	٣٢	٣٢،٩١٤	١٤٠،٨١٢
٢٠٠٥	١٢٩،٥٥٨	٣٩،٩٣٦	٢،١٠٢	٦،٤٥٠	٦٣	٦٨،٤١٧	٢٤٦،٥٢٦
٢٠٠٦	٧٩،٠٧٢	٥٨،٩٦١	٨٦٢	١١،٩٦٤	ـــــ	٦٤،٥٢٧	٢١٥،٣٨٦
٢٠٠٧	٤٨،٠٦٤	١٢،٣٧٥	١،٧٩٥	٦،٨٦٣	٥٨٨	١٥	٦٩،٧٠٠
٢٠٠٨	٢٤،٢٨٤	٢٧،٧٦٨	٦٢٥	١،٥٧٩	١	ـــــ	٥٤،٢٥٧
٢٠٠٩	١٤،٤٦٣	٨،٨٦٧	٦٠	٢٧	ـــــ	٣٤	٢٣،٤٥١
٢٠١٠	٢،٨١١	٤،١٤٦	٦	ـــــ	ـــــ	٧١٠	٧،٦٧٣
٢٠١١	١،٧٢١	١،٨٠٠	ـــــ	٥٣٨	ـــــ	ـــــ	٤،٠٥٩
المجموع	٤٣٩،٣٩٣	٢٠٤،٧١٠	٧،١١٩	٢٧،٥٩٤	١،١٤٤	٢١٦،١٥١	٨٩٦،١١١

-الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، **تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

يتبين لنا من الجدول أعلاه أن أعلى الواردات السودانية الحكومية انحصرت بين عامي ٢٠٠٣-٢٠٠٦، بينما سجلت أدنى مستوياتها بين عامي (٢٠١٠-٢٠١١)، كما أن أفضل التعاملات التجارية كان مع المملكة العربية السعودية، ومملكة البحرين، ودولة الإمارات العربية المتحدة بين ٢٠٠٣-٢٠٠٧، وان تفاوتت اقيامها صعودًا ونزولاً بين هذه الدول الثلاث أثناء المدة المشار إليها سلفًا، وأشر الجدول تباينًا واضحًا في اقيام هذه الواردات عاموديًا، وافقيًا وبين دول الخليج العربي، أثناء المدة بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١.

خاتِمةٌ

توصلت الدراسة إلى أن هناك تبادل تجاري فاعل والى حد ما بين السودان ودول الخليج العربي في القطاعين الخاص والعام، إلا أن هذا التبادل اتسم بالتذبذب في اقيامه بين دولة وأخرى وبين مدة وأخرى. ففي الوقت الذي تصدرت فيه المملكة العربية قائمة الدول الخليجية المصدرة للسودان، تلتها دولة الإمارات العربية ثم مملكة البحرين، نجد أن اقيام هذه الصادرات تتفاوت من دولة إلى أخرى. وكذلك الحال بالنسبة للبضائع التي صدرها السودان إلى دول الخليج العربي، فنجد أن ثمة أرقام كبيرة لدى بعضها، وأخرى أرقام صغيرة لا تشكل اقيامها مبالغ مهمة في عالم التبادل التجاري، وقد تصدرت دولة الإمارات العربية دول الخليج العربي في اقيام استيرادها من السودان، في حين تتراجع اقيام المملكة العربية بالقياس إلى اقيام صادراتها، كما تتراجع اقيام هذه الصادرات لدى ما تبقى من دول الخليج العربي أيضًا.

ونجد أن البضائع المصدرة من السودان لا تشكل اقيامها مبالغ كبيرة بالقياس إلى البضائع المستوردة إليه من دول العالم عامة ، ودول الخليج العربي بخاصة، وهو أمر يحتاج إلى مراجعة من لدن الحكومة السودانية، وكذلك من دول الخليج العربي، ولاسيما وأن في السودان العديد من الخامات والمواد الأولية، والحيوانية، وحتى النباتية التي يمكن الاستفادة منها، كما يمكن أن تكون دول الخليج محطة لتصدير تلك المنتوجات إلى دول العالم المختلفة بحكم الموقع التجاري الذي تتمتع به، كما أن بإمكانها الاستثمار في السودان بما يعزز تجارته التصديرية، وبما يخدم هذه الدول في الوقت نفسه.

الملاحق

ملحق رقم (١):
جـدولين لاقيـام الصـادرات السـودانية والـواردات مـع المملكة العربية السعودية بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١.

جدول رقم (١٦)
الأقيـام السـنوية للصـادرات السـودانية حسـب السـلع للمملكة العربية السعودية للأعوام ٢٠٠٣-٢٠١١ (قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)[٢]

الأعوام	جلود	لحوم	حيوانات حية	ذهب	امباز	سمسم	قطن	صمغ عربي	فول سوداني	أخرى	المجموع
٢٠٠٣	٢	١،٨٩٨	٢٩،٣٤٧	ــــ	ــــ	٢،٠٢٦	ــــ	ــــ	ــــ	٨١٤	٣٤،٠٨٧
٢٠٠٤	٥،٣٨١	١٢،٤٩٥	١٢٤،٠٣٢	ــــ	ــــ	١٧،٠٢٣	ــــ	٥٣٣	ــــ	٤،٧٣٤	١٦٤،١٩٨
٢٠٠٥	١،٣١٩	١٤،٣٢٩	١٠١،٦٤٥	ــــ	ــــ	١٦،٩١٨	ــــ	ــــ	ــــ	٢،٢١٤	١٣٦،٤٢٥
٢٠٠٦	٦٣٦	٤،٨٥٩	١٠٣،٩٠٤	ــــ	ــــ	١٥،٦٢٩	ــــ	٦	ــــ	١،٣٤٢	١٢٦،٣٧٦
٢٠٠٧	٢٣	٣،٢٧٧	٦٨،٩٩٣	ــــ	١٤	١٤،٨٩٨	٢٦	٢٥٢	٣٣	١٠،٥٤٥	٩٨،٠٦١
٢٠٠٨	٣١٠	١٧	٤٥،٨٨٢	٤،٠٧٧	ــــ	٢٦،٨٠٦	ــــ	٩٧٠	ــــ	٢٦،٣٢٩	١٠٤،٣٩١
٢٠٠٩	١٠،٠٠٠	ــــ	١٥٣،٤٩٨	ــــ	ــــ	٣١،٢٦١	ــــ	ــــ	ــــ	٣،٢٦٣	١٩٨،٠٢٢
٢٠١٠	٧،٤٣٩	٦٦	١١٦،٧٨٨	ــــ	ــــ	١١،٢٦١	ــــ	ــــ	ــــ	٢٥،٣٣٠	١٦٠،٨٨٤
٢٠١١	١٨	٥٣	١٩٢،٣٣٨	ــــ	ــــ	١٩،٦٨٥	ــــ	ــــ	ــــ	٢٧،٩٣٧	٢٤٠،٠٣١
المجموع	٢٥،١٢٨	٣٦،٩٩٤	٩٣٦،٤٢٧	٤،٠٧٧	١٤	١٥٥،٥٠٧	٢٦	١،٧٦١	٣٣	١٠٢،٥٠٨	١،٢٦٢،٤٧٥

- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، **إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

جدول رقم (١٧)

الاقيام السنوية للواردات السودانية حسب السلع مع المملكة العربية السعودية للأعوام ٢٠٠٣-٢٠١١ (قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)[٢]

الأعوام	المنسوجات	وسائط نقل	الات ومعدات	مصنوعات	كيمياويات	مواد خام	منتجات نفطية	مشروبات وتبغ	بضائع متنوعة	قمح ودقيق قمح	شاي وبن	المجموع
٢٠٠٣	٩،٦٥٦	١٠٦،٩٦٥	١٢٣،٩٠٤	٢٦٩،٤٤٠	٣٨،٣٩٦	٢٥،٥٤٢	٣٧،٩٧٦	٤٢٨	٢٧،٧٤٧	٨٣،٧٧٣	٩٩	٧٢٣،٩٢٦
٢٠٠٤	١٨،٨٩٦	١٢١،٣٦٧	٨٠،٠٥٩٩	١٢٨،٦٦٥	٣٤،٩٠٠	٣٠،٨٤٨	٣٧،٠٠٥٩	٩٦١	١٧،٩٧٦	٥	٢٢٠	٤٧١،٤٩٦
٢٠٠٥	٢٥،١٤٦	٨٦،٨٢٥	١٣٧،١٣١	١٥١،٠٣٥	٦٨،٣٦٩	٢٧،٥٩٠	٩٣،٥٨٩	٣،٢٧٠	٣٣،٤٠٨	٦١٥	٤٨٦	٦٢٧،٤٦٤
٢٠٠٦	٢٨،٩٣٢	٥٦،٣٩٨	٢٦٧،٥٤٤	١٣٨،٨٤٨	٥٩،٤٠٢	٣٢،٤٩٣	٤٠،٤٤٤	١،٥٠٩	٢٣،٦٠٩	ـــــ	١٤٩	٦٤٩،٣٢٨
٢٠٠٧	٤٠،١٠٠	٤٩،٤٩٩	٢٣٩،٤٠٧	١٥٤،٩٩٢	٨٦،٨٤٧	٣٨،٥٤٨	٩،٤٣٣	١،٦٨١	٣٤،٠٦٠	ـــــ	٥٢	٦٥٤،٦١٩
٢٠٠٨	٣٦،٥٧٦	٦١،٤٣٢	٢٤٤،٥٨٧	١٦٩،٩٢٢	١١٩،٠٨٠	٥٠،٢٥٣	٢١،٦٥٩	١،٢٩٢	٤١،٢٩٤	ـــــ	٥٧	٧٤٦،١٥٢
٢٠٠٩	٣٥،٢٦٤	١٥،٢٠٨	١٢٠،٩٦٨	١٦٠،٤٦٨	١٠٨،٢٤٧	٥٤،٢٤٣	١٢،٧٢٨	١،٩١٠	٥٣،٠٨٤	٢،٢٨٣	٣٣٠	٥٦٤،٧٣٣
٢٠١٠	٣٦،٥٠٣	٤١،٢٨٢	١٠١،١٥٣	١٥٣،٤٩٩	١٣١،٠٢٠	٥٩،٤٣٦	١٧،٣٢٩	١،١٨٥	٣٧،٤٨٥	٦،٣٦١	١٣٨	٥٨٥،٣٩١
٢٠١١	٣٠،٥٥١	١٣،٩٣٣	٥٤،٤٨٧	١٢٦،٠٩٢	١٣٦،٠٥٨	٧٨،٥١٨	١٥٥،٢١٧	١،٣٩٠	٣٦،٨٧٨	٧٨٢	ـــ	٦٣٣،٩٠٦
المجموع	٢٦١،٦٢٤	٥٥٢،٩٠٩	١،٣٦٩،٧٨٠	١،٤٥٢،٩٦١	٧٨٢،٣١٩	٣٩٧،٤٧١	٤٢٥،٤٣٤	١٣،٦٢٦	٣٠٥،٥٤١	٩٣،٨١٩	١،٥٣١	٥،٦٥٧،٠١٥

- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

ملحق رقم (٢):

جدولين لاقيام الصادرات والواردات السودانية من دولة الإمارات العربية المتحدة بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١:

جدول رقم (١٨) الاقيام السنوية للصادرات السودانية حسب السلع لدولة الأمارات العربية المتحدة للأعوام ٢٠٠٣-٢٠١١ (قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)[٢]

الأعوام	جلود	لحوم	حيوانات حية	ذهب	امباز [٢٢]	سمسم	قطن	صمغ عربي	النفط ومنتجاته	أخرى	المجموع
٢٠٠٣	٣٤	١٣٨	١٦٦	٤٠١	ــــ	ــــ	ــــ	١٦٨	٢٦،٠٦٨	٤٢٩	٢٧،٤٠٤
٢٠٠٤	٥١	٣،٩٣٣	٢٧٣	٦٨٧	ــــ	٤١٦	ــــ	ــــ	٧٩،٤٠٠	٥،٣٩٧	٩٠،١٥٧
٢٠٠٥	٤٢٧	١،٩١٠	١١٤	٦٧٠	ــ	٦٢٦	١٠٢	ــــ	٨٣،٢٨٢	٢،٩٠٦	٩٠،٠٣٧
٢٠٠٦	ــــ	١١	١٢٩	١،١١١	ــ	٩٠٤	ــ	٣،٢٨٠	٢٢٠،٠٣٣	١،٩٦٢	٢٢٧،٤٣٠
٢٠٠٧	ــ	١	١٢١	٢،٩٣٤	ــ	٨٤٥	٢٨	١،٤١٢	٢١٨،٠٧٣	١،٥٣٥	٢٢٤،٩٤٩
٢٠٠٨	٢١٠	١	٤٧	٣٥،١٩٢	١٦٨	١،٥١٣	٥٧٥	٤،٧٩٩	٤٣٣،٨٥٢	ــــ	٤٧٦،٣٥٧
٢٠٠٩	٥١٥	٣،٠٥٤	٤،١٨٠	ــــ	ــ	٢،٤٦٩	ــ	٧٥٧	٤٥٨،٠٩٨	٨،٨٠١	٤٧٧،٨٧٤
٢٠١٠	٢٧٦	٨٧٣	١٠٣	٩٦١،٢٢١	ــ	٢،٣١٤	ــ	ــــ	٣٢٧،٩٧٦	٢٧،٠٤١	١،٣١٩،٨٠٤
٢٠١١	ــ	٩٩٦	٢٦٥	١،٤١٣،٢٣٢	ــ	٥٦٥	ــ	ــــ	٥٨،١٠٩	٢٥،٨٥٥	١،٤٩٩،٠٢٢
المجموع	١،٥١٣	١٠،٩١٧	٥،٣٩٨	٢،٤١٥،٤٤٨	١٦٨	٩،٦٥٢	٧٠٥	١٠،٤١٦	١،٩٠٤،٨٩١	٧٣،٩٢٦	٤،٤٣٣،٠٣٤

-الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

جدول رقم (١٩)

الاقيام السنوية للواردات السودانية حسب السلع من دولة الإمارات العربية

للأعوام ٢٠٠٣ -٢٠١١ (قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الاعوام	المنسوجات	وسائط نقل	الات ومعدات	مصنوعات	كيمياويات	مواد خام	منتجات نفطية	مشروبات وتبغ	بضائع متنوعة	قمح ودقيق قمح	شاي وبن	المجموع
٢٠٠٣	٢٣،٥٥٧	٦،٨٣٤	٤٥،٤٤٩	٤٧،٠٠١	٩،٣٠٤	٢،٦٩٢	٣١،٥٦٢	٥٥٠	١٠،٦٨٨	٢،٣٧١	٤	١٨٠،٠١٢
٢٠٠٤	١٩،٤٦٥	٢٣،٧٩٧	٦٨،٣٨٩	٦٤،٧٩٦	٢٥،٤٠١	٧،٤٣٩	١٤،٣٨٦	٤٣٢	٨،٩٣٠	٦،٠١٣	١٩٤	٢٣٩،٢٤٢
٢٠٠٥	٣٤،٢٤٧	٣٣،٩٢٤	١٣٤،٥٤٤	١٢٦،٣٩٩	٣٧،٧٨٧	٥،٨٥٣	٩،٦٤٣	٦١٢	٩،٧٥٢	١،٩٨٩	١٠	٣٩٤،٧٦٠
٢٠٠٦	٣٠،٢٤٣	٤٢،١١٤	١٩٨،٧٥٦	١٠١،٩١٧	٣٢،٦٥١	١١،٣٦٨	١٠،٧٢٤	١،١٣١	١٤،٣٩٨	١،٣٥٧	١	٤٤٤،٦٦٠
٢٠٠٧	١٩،٦٥٧	٥٧،٤٨١	١٦١،٦٢٨	١٢٤،١٠٧	٢٥،٩٤٤	١١،٣٢٥	٦٨،١٨٣	٨٥٦	١٠،٥٥١	٦١٢	٢٤	٤٨٠،٣٦٨
٢٠٠٨	١٧،٨٨٤	٤٩،٣٦٥	٢١١،٢٣٣	٩٦،٧٣٠	٣٧،١١٣	١١،٠٥٥	١٩٢،٤٥٤	٢،٤٦٠	٧،٧٣٤	٢٥٤	٥٥	٦٢٦،٣٣٧
٢٠٠٩	١٦،٦٧٧	٣٤،٢٦٢	١١٣،٩٥٨	٩٤،٤٤٩	٧٦،٩٣٩	١٤،٦١١	١١٦،٠٠٤	٢،١٤٢	٥٣،٠٨٣	٤،٣٢٧	٤٤٦	٥٢٦،٨٩٨
٢٠١٠	١١،٠٨٢	٦٠،٢٣٣	٣٠٨،٥١٢	١٧٣،٧٨٠	١٥٢،١٩١	١٥،٢١١	١٨٧،٣٩٧	١،٦٩١	٢٤،٩١٩	٤،٣١٦	٥٤٦	٩٣٩،٨٧٨
٢٠١١	١٠،٩٣٨	٥١،٩٩٤	٤٠٢،٢٦٤	١٤٧،٠٩٤	١٦٠،٩١١	١٤،٨٩٢	١١٧،٧٢٥	١،٣٠٨	٢٠،٣٨٦	١،٥٥٥	—	٩٢٩،٠٦٧
المجموع	١٨٣،٧٥٠	٣٦٠،٠٠٤	١،٦٤٤،٧٣٣	٩٧٦،٢٧٣	٥٥٨،٢٤١	٩٤،٤٤٦	٧٤٨،٠٧٨	١١،١٨٢	١٦٠،٤٤١	٢٢،٧٩٤	١،٢٨٠	٤،٧٦١،٢٢٢

-الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، **تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.**

ملحق رقم (٣) جدولين لصادرات وواردات السودان من دولة الكويت

جدول رقم (٢٠)

الأقيام السنوية للصادرات السودانية حسب السلع للكويت للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

(قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الأعوام	جلود	لحوم	حيوانات حية	سمسم	أخرى	المجموع
٢٠٠٣	—	—	٢	٢٧٢	—	٢٧٤
٢٠٠٤	—	—	١٣	٧١٣	٩	٧٣٥
٢٠٠٥	—	—	٣٥٣	١،١٧١	٣٢	١،٥٥٦
٢٠٠٦	—	—	٩	١،٧٠٧	١١٧	١, ٨٣٣
٢٠٠٧	—	—	—	٨٠٠	٢٠٥	١،٠٠٥
٢٠٠٨	—	—	—	١،٤٢١	٥١١	١،٩٣٢
٢٠٠٩	—	١	—	١،٠٩٤	٣٥	١،١٣٠
٢٠١٠	٧	١٤	—	**٩٤٩**	١٤	٩٨٤
٢٠١١	—	٥٢٢	—	١،٠٢٣	٨٠	١،٦٢٥
المجموع	٧	٥٣٧	٣٧٧	٩،١٥٠	١،٠٠٣	١١،٧٤

-الجدول **من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي،** تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

جدول رقم (٢١)

الأقيام السنوية للواردات السودانية حسب السلع مع دولة الكويت للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

(قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الأعوام	المنسوجات	وسائط نقل	الات ومعدات	مصنوعات	كيماويات	مواد خام	مشروبات وتبغ	بضائع متنوعة	قمح ودقيق قمح	منتجات نفطية	المجموع
٢٠٠٣	١	٨	٥	٤١٦	—	٤،٧٣٣	—	—	٩	—	٥،١٧٢
٢٠٠٤	١٩	٤٨	—	٢،٣٩٣	١٦٨	٧،٣٩٥	٧٨	٢٩	٢٧	—	١٠،١٥٧
٢٠٠٥	٣٧	٥٠٨	٢،٢٠١	١،٦٥٥	١،٢٥٠	٨،١٧٢	—	٧٦	—	٢،٣٤٢	١٦،٢٤١
٢٠٠٦	٥	١،٤١١	١٤،٧٣٢	٣،١٧٨	١٦٤	١١،٢٦٣	—	٩١	—	٧	٣٠،٨٥١
٢٠٠٧	٤	١٦٦	٣،٠٦٤	٢،٠٢٠	٣١٩	١١،٤٩٨	—	٨٣	—	—	١٧،١٥٤
٢٠٠٨	—	٢٤٣	٢،٧٠٧	١،٢٨٩	٥٥٤	١٢،٠٩٥	٤٠	١٤٧	—	—	١٧،٠٧٥
٢٠٠٩	—	١٠٢	٢،٠٨٦	٧٦٢	١،٨٢٨	١٤،٩٠٢	١	٤٤٣	—	٢	٢٠،١٢٦
٢٠١٠	١	٤١٣	٦١٩	٢،٣٧٢	٦٦٣	١٢،٨٨٥	—	٥٦٠	—	٢٦	١٧،٥٣٩
٢٠١١	٢	—	٣،٨٧٩	٥٨٥	١،٩٩٧	٥،٤٩٥	—	٣٠٥	—	٧	١٢،٢٧٠
المجموع	٦٩	٢،٨٩٩	٢٩،٢٩٣	١٤،٦٧٠	٦،٩٤٣	٨٨،٤٣٨	١١٩	١،٠٧٣٤	٣٦	٢،٣٨٤	١٤٦،٥٨٥

-الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على **تقارير بنك السودان المركزي**، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

ملحق رقم (٤) جدولين لصادرات وواردات السودان من دولة قطر:

جدول رقم (٢٢)

الأقيام السنوية للصادرات السودانية حسب السلع- قطر للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

(قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(٦)

الأعوام	جلود	لحوم	حيوانات حية	ذهب	سمسم	أخرى	المجموع
٢٠٠٣	—	١٣٧	٤٠	—	—	٢٨	٢٠٥
٢٠٠٤	—	٤٧٩	٨٥	—	—	٣٨	٦٠٢
٢٠٠٥	—	٣٢٤	١٤	—	٢٠	٤٠	٣٩٨
٢٠٠٦	—	٢٩	١٠	—	٢٦	١٩٦	٢٦١
٢٠٠٧	—	٧٣	٣	—	—	٥٧	١٣٣
٢٠٠٨	—	—	٣	١٢٢	—	٢٥٧	٣٨٢
٢٠٠٩	٢٠٥	١٥٢	—	—	—	٣٢٤	٦٨١
٢٠١٠	—	١٧٦	١١٤	—	—	١٢٦	٤١٦
٢٠١١	—	٩٠٠	—	—	—	٨٧١	١،٧٧١
المجموع	٢٠٥	٢،٢٧٠	٢٦٩	١٢٢	٤٦	١،٩٣٧	٤،٨٤٩

- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

جدول رقم (٢٣)

الاقيام السنوية للواردات السودانية حسب السلع مع دولة قطر للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

القيمة بألاف الدولارات(*)

الأعوام	المنسوجات	وسائط نقل	آلات ومعدات	مصنوعات	كيمياويات	مواد خام	مواد غذائية	المجموع
٢٠٠٣	٤٦	١٣٤	٥١	٣١٥	٣	٤٩٩	ــــ	١٠٠٤٨
٢٠٠٤	١١	٣٠	٦٢	٨٣	٤٣	٧٥٩	ــــ	٩٨٨
٢٠٠٥	١٤٣	٢،١١٠	١٤٨	٨،٢٧٤	١٤،٠١٥	١،٧٤٠	٧	٢٦،٤٣٧
٢٠٠٦	١٠	١،٩٩١	٤٧٥	٣٦٩	١٢،٠٨٧	٥٠٤	٢٥٧	١٥،٦٩٣
٢٠٠٧	٧٦	٧١١	٢،٦٦٠	٥١٨	٢٥،٨٦١	١،٠٥١	٨٠	٣٠،٩٥٧
٢٠٠٨	٣٤	٢،٢٦٨	١،٣٦٩	٢٣٧	٢٨،٤٥٤	٢،٩٨٢	١٠	٣٥،٣٥٤
٢٠٠٩	٢٣٢	١،٠٠٢	١،٤١٤	١،٠٧٦	٢٩،٧٦٨	٤٧٧	٢٧	٣٣،٩٩٦
٢٠١٠	٤٨	٨٩٠	٤،٧٩٩	٥٣٨	٢٨،٠٣١	١،٩١٠	١٣٦	٣٦،٣٥٢
٢٠١١	١٤	١،٧٧١	١،٥٣١	١،٤٩٤	٢٤،٦٤٦	١،٨٧٤	٢٢	٣١،٣٥٢
المجموع	٦١٤	١٠،٩٠٧	١٢،٥٠٩	١٢،٩٠٤	١٦٢،٩٠٨	١١،٧٩٦	٥٣٩	٢١٢،١٧٧

- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

ملحق رقم (٥) جدولين للصادرات والواردات السودانية مع سلطنة عمان بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١:

جدول رقم (٢٤)

الاقيام السنوية للصادرات السودانية حسب السلع – عمان للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

(قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الأعوام	امباز	لحوم	ذهب	فول سوداني	أخرى	المجموع
٢٠٠٣	٧٥	ــ	ــ	ــ	ــ	٧٥
٢٠٠٤	ــ	ــــ	ــــ	ــــ	١٨	١٨
٢٠٠٥	ــ	ــــ	ــــ	ــــ	ــــ	ــــ
٢٠٠٦	ــ	ــــ	ــــ	ــــ	٤	٤
٢٠٠٧	ــ	ــــ	ــــ	١٣	١٧	٣٠
٢٠٠٨	ــ	٤	٥	٢٥	١١٢	١٤٦
٢٠٠٩	ــ	٣	ــــ	ــ	١٧٩	١٨٢
٢٠١٠	ــ	١٤٨	ــــ	ــــ	١٥	١٦٣
٢٠١١	ــ	٢٢٩	ــــ	ــــ	٥٩	٢٨٨
المجموع	٧٥	٣٨٤	٥	٣٨	٤٠٤	٩٠٦

- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على تقارير بنك السودان المركزي، تقارير بنك السودان المركزي، ادارة الاحصاء، الموجز الاحصائي للتجارة، المصدر السابق.

جدول رقم (٢٥)

الاقيام السنوية للواردات السودانية حسب السلع مع سلطنة عمان للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

(قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الاعوام	المنسوجات	وسائط نقل	الات ومعدات	مصنوعات	كيمياويات	مواد خام	منتوجات نفطية	بضائع متنوعة	قمح ودقيق قمح	المجموع
٢٠٠٣	١	١٠	٤١٢	٩٨٨	٢،٣٠٤	٦	ـــ	١،٦٧٣	ـــ	٥،٣٩٤
٢٠٠٤	٩	٤	٤٩٤	١،٢٢٣	١،٦٣٠	١٩٨	ـــ	٨٥٧	٢٢٧	٤،٦٤٢
٢٠٠٥	١	١٧٦	١،٨٣٥	٤،٩٣١	١،٦٦٣	٣٠٣	٣٥٣	١،٤٠٠	ـــ	١٠،٦٦٢
٢٠٠٦	١٢	٢،٥٥١	٤،٢٤٦	١٦،٥٥٨	٣،٨٦٦	٣٣٦	١٩٠	٢،٥٦٠	ـــ	٣٠،٣١٩
٢٠٠٧	٥٥	٢٩١	٣،٦٨٣	٣،٨٤٨	١،٥٦١	٢٨٣	ـــ	٤،٦٨٤	ـــ	١٤،٤٠٥
٢٠٠٨	٢٥	٢١٨	٦،٢٨٠	٤،٥٦٧	٢،٧٣١	١،٤٣٨	٩،٣٣٢	٧،٥٤٢	ـــ	٣٢،١٣٣
٢٠٠٩	٤	٩٧	٤،٢١٣	٢٤،٠٢٢	٢،٠٩٨	٢٥٧	ـــ	٧،٤٦١	ـــ	٣٨،١٥٢
٢٠١٠	١٣	٦٢	١،٨٣٢	١٨،٩٤٧	٥،٢٠٥	٢٧٠	ـــ	٤،٢٢٤	١٦	٣٠،٥٦٩
٢٠١١	٢	٣٧	٩٠٠	٦،٤٠٥	٢،١١٧	١،٠٣٦	٣٨،٩٨٦	٣،٠٣٦	ـــ	٥٢،٥١٩
المجموع	١٢٢	٣،٤٤٦	٢٣،٨٩٥	٨١،٤٨٩	٢٣،١٧٥	٤،١٢٧	٤٨،٨٦١	٣٣،٤٣٧	٢٤٣	٢١٨،٧٩٥

- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على **تقارير بنك السودان المركزي**، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

جدول رقم (٦) جدولين لاقيام الصادرات والواردات السودانية من مملكة البحرين بين عامي ٢٠٠٣-٢٠١١:

جدول رقم (٢٦)

الاقيام السنوية للصادرات السودانية حسب السلع للمملكة البحرين للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

(قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(*)

الأعوام	لحوم	حيوانات حية	أخرى	المجموع
٢٠٠٣	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ
٢٠٠٤	ـــ	ـــ	١	١
٢٠٠٥	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ
٢٠٠٦	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ
٢٠٠٧	ـــ	ـــ	ـــ	ـــ
٢٠٠٨	ـــ	٢٨	ـــ	٢٨
٢٠٠٩	ـــ	ـــ	٧	٧
٢٠١٠	ـــ	ـــ	٨	٨
٢٠١١	٢٥	ـــ	٢٣١	٢٥٦
المجموع	٢٥	٢٨	٢٤٧	٣٠٠

-الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على **تقارير بنك السودان المركزي**، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

جدول رقم (٢٧)

الاقيام السنوية للواردات السودانية حسب السلع مع مملكة البحرين للأعوام ٢٠٠٣- ٢٠١١

(قيمة المبلغ بالألاف الدولارات)(٦)

الاعوام	المنسوجات	وسائط نقل	الات ومعدات	مصنوعات	كيمياويات	مواد خام	منتجات نفطية	مواد غذائية	المجموع
٢٠٠٣	—	—	١٨٤	٣٠	—	—	٥١،٠٥٢٠	—	٥١،٧٣٤
٢٠٠٤	___	٧٧	١٧،١٤٠	٢،٤٤٥	٨٥	٣،٠٨٧	١٣،٨٨٥	___	٣٦،٧١٩
٢٠٠٥	٣	٢٥٥	٢٨٧	٤،٣٥٨	١٣،٢٠٤	٥،٨٢٦	١٥٩،٢٠٧	___	١٨٣،١٤٠
٢٠٠٦	___	٣٤٦	٣٤٧	٨٢٧	٢٥٩	—	٨٣،٩٤٦	١٥	٨٥،٧٤٠
٢٠٠٧	٢٥	١١٠	٣،٢٧٥	١،٠٤٦	١٣١	___	٥٥،٢٣٠	___	٥٩،٨١٧
٢٠٠٨	٣١٣	١٢٥	٨٧٠	٤،٢٤٨	٣٤٦	___	___	١٨٥	٦،٠٨٧
٢٠٠٩	٤٠	٦٨	١،٢٤٢	١،٢٠٦	٧٠٣	___	٧،٥٨٣	٣٥٢	١١،١٩٤
٢٠١٠	١	٣٣	١٠،٧٥٢	٣،١٥٥	٤٢	___	٢٥	٧٢٨	١٤،٧٣٦
٢٠١١	٧	٦٩٩	٣،٥٣٨	٤،٦٧٧	١٢،٤٦٦	___	٢،٩٩٢	٤٤٩	٢٤،٨٢٨
المجموع	٣٨٩	١،٧١٣	٣٧،٦٣٥	٢١،٩٩٢	٢٧،٢٣٦	٨،٩١٣	٣٧٤،٣٨٨	١،٧٢٩	٤٧٣،٩٩٥

- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على **تقارير بنك السودان المركزي**، تقارير بنك السودان المركزي، إدارة الإحصاء، الموجز الإحصائي للتجارة، المصدر السابق.

الاحالات المرجعية:

(١) عيسى: سنهوري (٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٨ م)، **محافظ بنك السودان المركزي: تدفق غير مسبوق للأموال من السعودية والإمارات**، صحيفة الخرطوم اليوم: http://khartoumtoday.sd/home/2018/01/09

(٢) المصدر نفسه.

(٣) للتفاصيل يُنظر: عبد الله: ذاكر محي الدين، (٢٠١٤م)، **تطورات السودان الاقتصادية**، بحث (تحت الطبع)، مجلة آداب الرافدين، كلية الآداب، جامعة الموصل، ص١-١٣؛ مختار: كمال عبد الرحمن(١١كانون الأول /ديسمبر ٢٠١٢)، **رصد بالأرقام والوقائع للتدهور السياسي والأمني والاقتصادي، السودان و٢٤عاماً من فقْد المقدّرات**، موقع الراكوبة السوداني: https://www.alrakoba.net/802301/%D8%B1%D8%B5%D8%AF-

(٤) جمهورية السودان: وزارة التجارة الخارجية (١٩٩١)، **سياسة القروض الأجنبية وآثارها على الاقتصاد السوداني**، ص ١٩-٢٢.

(٥) اندلعت في عام ١٩٥٥، واستمرت لعام ١٩٧٢، إذ توقفت على أثر توقيع اتفاقية أديس أبابا، ثم اندلعت مرة أخرى عام ١٩٨٣، على أثر إصدار الرئيس الأسبق جعفر نميري قوانين وقرارات عديدة منها: قوانين أيلول/ سبتمبر، واستمرت الحرب بمآسيها وأهوالها حتى عام ٢٠٠٥، مخلفة خسائر بشرية ومادية هائلة. للتفاصيل يُنظر: البشير: محمد عمر(١٩٧٠)، **مشكلة جنوب السودان**، ترجمة هنري رياض وآخرون، دار النهضة المصرية للطبع والنشر، ص ٤٢؛ البوني: عبد اللطيف(١٩٩٥): تجربة **نميري الإسلامية مايو ١٩٦٩م - أبريل ١٩٨٥م**، معهد البحوث والدراسات الاجتماعية.،ص٦٠؛ نبلوك: تيم (١٩٩٤)، **صراع السلطة والثروة في السودان**، ترجمة الفاتح التيجاني، دار الخرطوم، ص٢٦٤.

(٦) علي: عبد الوهاب محمد عبدالله (تموز/ يوليو ٢٠١٢)، **أثر سياسة التحرير الاقتصادي على الميزان التجاري السوداني في الفترة(١٩٩٢_٢٠٠٧)**، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الدراسات الاقتصادية والاجتماعية، قسم الاقتصاد، جامعة بخت الرضا، ولاية النيل الأبيض، ص٣٤-٣٧.

(٧)جمهورية السودان، وزارة المالية والاقتصاد الوطني(١٩٩١م)، **الاستراتيجية القومية الشاملة في السودان (١٩٩٢_٢٠٠٢م)**، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص٤٥-٤٧.

(٨) للتفاصيل يُنظر: علي، **المصدر السابق**، ص٣٠-٤٦.

(٩) للتفاصيل يُنظر: جانقي: يعقوب علي، وبانق: علم الدين عبد الله (١٨ – ٢١ ديسمبر، ٢٠٠٥م)، **تقييم تجربة السودان في استقطاب الاستثمار الأجنبي المباشر وانعكاسها على الوضع الاقتصادي**، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، المؤتمر الثاني

للتمويل والاستثمار الأجنبي المباشر FDI، ص١٠-٤٠؛ عثمان: عبد الوهاب (٢٠٠١ م)، **منهجية الإصلاح الاقتصادي**، دار النشر شركة مطابع السودان للعملة المحدودة، ص٢٣٠-٢٣١.

(١٠) ومنها: اتخاذ إجراءات لتنظيم الاستيراد والتصدير في إطار قواعد منظمة التجارة العالمية، واتخاذ أنظمة وقائية لحماية الإنتاج الوطني، ويجوز للوزير بالتشاور مع وزراء المالية والاقتصاد الوطني، الصناعة، الثروة الحيوانية والسمكية والوالي المعني، وبنك السودان المركزي، وضع السياسات التي تساعد على تنظيم تجارة الحدود بين الولاية المعنية، والدول الأجنبية المجاورة لها. للتفاصيل عن القانون يُنظر: جمهورية السودان، مجلس النواب، **قانون تنظيم التجارة الخارجية للسودان**، قانون رقم ٧ لعام ٢٠٠٩م: http://tpsudan.gov.sd/resources/uploads/files/files2/laws/Trade_org_law.pdf

(١١) وطالب أيضًا بإنشاء صندوق بقيمة ١٠ مليارات دولار لدعم البنية التحتية، وإنشاء صندوق أخر بقيمة ١٠ مليارات دولار لتمويل المشروعات الزراعية في بلاده. **صحيفة الأيام** (٢٤ شباط/ فبراير٢٠١٥م)، **ألف فدان من الأراضي الزراعية الخصبة ستقوم البحرين باستثمارها**، الخرطوم، (٩٤٥٢) www.alayam.com/online/NA/460305/News.html؛ وكان السودان قد عرف الاستثمار العربي الرسمي منذ أكثر من٤٠عاما عندما طرح(مشروع سكر كنانة)،والذي أسهمت فيه دول خليجية وعربية عديدة منها: المملكة العربية السعودية والكويت، وكان نجاح تلك التجربة مبعث محاولات سودانية عديدة للانفتاح على الاستثمارات الخليجية والعربية .للتفاصيل أكثر يُنظر: جانقي وبانق، المصدر السابق، ص١٠-٤٠.

(١٢) قناة الجزيرة الفضائية القطرية (٢١ كانون الثاني/ يناير ٢٠١٤م)، **"توصيات عربية بتنفيذ مبادرة السودان للأمن الغذائي"**: http://www.aljazeera.net/news/ebusiness/2014/1/21/؛ شبكة الشروق(٢٢ كانون الثاني/ يناير٢٠١٣م)،" **البشير يطرح مبادرة لتأمين الغذاء العربي"**،: http://www.ashorooq.net/index.php

(١٣) يشغل السودان بموقعه الجغرافي قبل انفصال جنوبه، البوابة الشمالية لوسط أفريقيا وجنوبها، كما أنه يشترك بحدود مع تسع دول أفريقية هي مصر وليبيا وتشاد وأفريقيا الوسطى والكونغو الديموقراطية (زائير)، وأوغندا وكينيا وأثيوبيا وأريتريا، ويطل على البحر الأحمر بساحل يبلغ طوله نحو٧٢٠ كيلو متراً. **صحيفة البيان** النسخة الإلكترونية (١٠ايار/ مايو ٢٠١٣م)، دبي: http://www.albayan.ae/supplements/expo2020/2013-05-01

(١٤) عقدت القمة الاقتصادية والاجتماعية العربية بالكويت في ١٩ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩م بمشاركة ٢٢ دولة، وأعلن فيها الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح عن مبادرته، قائلاً: "علينا دعم وتشجيع مبادرات المشروعات الصغيرة، والمتوسطة الحجم، والقائمة على استغلال الموارد المحلية المتاحة من سلع وخدمات"، وحدد هذا التمويل بـ ٢ مليار دولار، قدمت دولة الكويت ربعها. نقلاً عن: وكالة الأنباء الكويتية (كونا)، الكويت: www.kuna.net. kw/Article Details.aspx ?id=23944 62& l

(١٥) وقد أطلق الملك عبد الله في كلمته التي ألقاها نيابة عنه الأمير(الملك) سلمان بن عبد العزيز ولي العهد في حينها، أثناء افتتاح القمة العربية التنموية الاقتصادية والاجتماعية الثالثة التي انطلقت في الرياض في٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠١٣م، مبادرة لزيادة رؤوس أموال الشركات العربية المشتركة القائمة، بنسبة لا تقل عن٥٠ % من قيمتها آنذاك، من أجل توسيع وتعزيز مشاركتها مع رؤوس الأموال من القطاع الخاص. **صحيفة الشرق الأوسط**، (٢٢كانون الثاني/ يناير٢٠١٣م) الرياض، (١٢٤٧٤): http://archive.aawsat.com/details.asp? section=1&lssueno=

(١٦) طالب الاجتماع القطاع الخاص بالإسهام الفاعل في تنفيذ المبادرة والتوسع في الاستثمار الزراعي، والعمل على إنشاء شركات عربية قابضة، وقرر المجلس تكليف الأمانة العامة _القطاع الاقتصادي _ بالتنسيق مع الحكومة السودانية لعقد اجتماعات مع المؤسسات، والهيئات العربية، ورجال الأعمال العرب للترويج للمبادرة. نقلاً عن قناة الجزيرة الفضائية القطرية، توصيات عربية بتنفيذ مبادرة السودان للأمن الغذائي، المصدر نفسه.

(١٧) **صحيفة العرب**، (١٠ نيسان / ابريل٢٠١٧م) لندن، (١٠٥٩٨)، **'الدرع الأزرق' يرسخ العلاقات الخليجية السودانية في مدارها الجديد**،ص٣.

(١٨) صندوق النقد العربي، **التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٠**: http://www.amf.org.ae ملحق رقم (٩/١)، ص ١٣٩.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

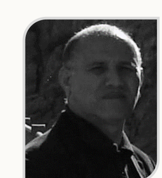
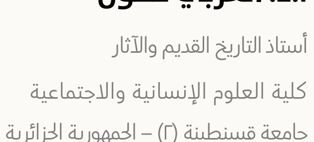
(٢٠) جمهورية السودان، وزارة التجارة الخارجية، **تقرير على التطورات واتجاهات تجارة السودان الخارجية**، ص٢٦١.

(٢١) سياسة التحرير الاقتصادي تعني التخفيف حدة قبضة الدولة في النشاط الاقتصادي عن طريق تخفيف أو إزالة القوانين والقيود الإدارية بهدف تمكين القطاع الخاص ليلعب الدور القيادي في الاقتصاد، وارتبط مفهوم سياسة التحرير الاقتصادي بفكر اللبرالية الكلاسيكية في الاقتصاد، والتي تدعو لترسيخ مبادي الحريات المدنية، وسيادة مبدأ حكم القانون في إطار الحرية الاقتصادية، ومن أشهر فلاسفة هذا المذهب الكلاسيكي جون لوك وأدم سميث وغيرهم. الطيب: محمد محمود (٢٣ – كانون الأول /ديسمبر - ٢٠١٧)، **"سياسة التحرير الاقتصادي اكبر عملية تمت لنهب موارد وثروات السودان: الحلقة الأولى"**، موقع سودانيل : https://www.sudaress.com/sudanile/103504.

(٢٢) يتم استخدام كعكة البروتين (الأمباز) الناتجة عن بقايا من معالجة الزيت كعلف حيواني وكسماد للتربة. أمباز الفول السوداني يستخدم في تغذية الماشية، وتستخدم في الغالب من قبل مربي الماشية كمكملات بروتين.

ترجمات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

ثورة باغاي (٣٥٨/ ٩٦٩)
آخر انتفاضة إباضية

أ.د. العربي عقون
أستاذ التاريخ القديم والآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة قسنطينة (٢) – الجمهورية الجزائرية

الدِّرَاسَةُ

المقال نُشر في مجلة Journal of near astern studies جويلية ٢٠٠٦ العدد ٣ السنة ١٢٣ جامعة شيكاغو، بعنوان LA RE.VOLTE DE BA.GA.YA (358/969): LE DERNIER SOULEVEMENT DES IBAI;)ITES MAGHREBINS للمؤرخة البلجيكية Virginie Prevost التي تخصصت في تاريخ الاباضية وإلى جانب ذلك درست تاريخ الفن، الاستشراق وتاريخ الأديان وكانت رسالتها في الدكتوراه بعنوان L'aventure ibāḍite dans le Sud tunisien. Effervescence d'une région méconnue وقد كرست أعمالها لمختلف جوانب تاريخ وحضارة الجماعة الإباضية في شمال أفريقيا وعُمان.
Virginie PRÉVOST, Université Libre de Bruxelles, Brussels, Belgium. "La révolte de Bāġāya (358/969): le dernier soulèvement des ibāḍites maghrébins" (Journal of Near Eastern Studies, 65, 3, 2006, pp. 197-206).

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة:	١٠	أغسطس	٢٠٢١
تاريخ قبول النشر:	٢٨	أغسطس	٢٠٢١

كلمات مفتاحية:
الفاطميون؛ الأمويون؛ ابن الأثير؛ الإباضية؛ ثورة باغاي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.251050 DOI

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:
فيرجيني بريفوست. "ثورة باغاي (٣٥٨/ ٩٦٩): آخر انتفاضة إباضية"، ترجمة: العربي عقون.- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٢٣٠ – ٢٣٨.

Corresponding author: lar_aggoun@yahoo.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مقدمة

خلال حكم الخليفة المعز (٣-٩٥٣-٩٧٥م) وفي ذروة هيمنة الفاطميين في إفريقية، اندلعت ثورة إباضية انطلقت من الحامة جنوبي تونس ودارت أحداثها في المدينة الجزائرية باغاي(**)؛ لم تثر هذه الثورة اهتمام الباحثين كثيرًا، ومع أن المؤرخين الإباضيين أوردوا وقائعها مفصلة إلا أنه نادرًا ما يتم ذكرها في مصادر العصور الوسطى الأخرى. ما عدا إشارة وردت في سيرة الأستاذ جوذر، كما أشار إليها المؤلفان السنيان: ابن الأثير وابن خلدون. هذه المصادر الثلاثة تتحدث عن شخصية واحدة: سيرة الأستاذ جوذر تتحدث عن الثائر "أبو خزر" وابن الأثير وابن خلدون يسميانه "أبو خزر(***) الزناتي".

وقائع الثورة في المصادر

إن ابن الأثير هو الذي يقدم رواية كاملة عن الثورة في قوله: "ثار أبو خزر في إفريقية وقاتل ممثل الخليفة الفاطمي في باغاي، مدعومًا بحشد من البربر والنكارية. وقد ذهب المعز للقائه شخصيًا لمواجهته ووصل إلى باغاي التي كان الثائر بالقرب منها".

عندما علم أبوخزر بوصول المعز انسحب بمن معه من الجند؛ سار الخليفة على خطى أبي خزر، ولكن عندما دخل هذا الأخير إلى الجبل، تراجع الخليفة وأمر بولكين بن زيري بمطاردة المتمردين أينما كانوا. لكن بولكين الذي حاول اللحاق بهم لم يعثر لهم على أثر[1]. يذكر ابن خلدون الأحداث نفسها باختصار لكنه لا يشير إلى أن أبا خزر هاجم ممثل الخليفة[2]. أمّا سيرة الأستاذ جوذر فتشير باقتضاب إلى أن الحملة التي كان على رأسها الخليفة لاحقت الثائرين حتى وصلت إلى بسكرة.[3]

هذه المصادر الثلاثة تولي القليل من الاهتمام لهذه القضية، وكأنّ ما يهمها فقط هو ذكر عام الثورة، وهو ما لم تستشهد به المصادر الإباضية. وتسمح لنا سيرة الأستاذ جوذر بتأريخ هذه الثورة بدقة بعد فتح جوهر لمصر، أي بعد شعبان ٣٥٨/ جوان – جويلية ٩٦٩[4]. ويبدو أن تزامن هذه الأحداث - تقريبًا - المذكورة في الأعمال الثلاثة هو الذي يفسر جزئيًا عدم اهتمامها بثورة "أبو خزر". علاوة على ذلك، كان الظرف السياسي في ذلك الوقت مضطربًا للغاية لأنه بالإضافة إلى التحضير لرحيل الخليفة الفاطمي إلى مصر، يجد الخليفة نفسه مضطرًا لمحاربة زناتة بقيادة محمد بن الخير بن محمد بن خزر، بدعم من الأمويين الذين زرعوا الفوضى في منطقة تاهرت[5] من جهة ومن جهة أخرى - حسب مؤلفينا - لم تنته ثورة باغاي بأي قتال: فانسحاب قوات أبي خزر قبل وصول جيش الخلافة.

وعدم تمكن مطارديهم من اللحاق بهم أخيرًا، يجعلنا نفترض أن المؤلفين السنيين رأوا هذه الحادثة على أنها هزة أخيرة لثورة النكارية بعد ثورة أبي يزيد (ت ٩٤٧).

في الواقع وعلى الرغم من أنهم يعرفون بلا شك المعارضة بين النكارية والوهبية، فمن المحتمل أنهم يخلطون بين جميع الإباضيين ويضعونهم في مجموعة واحدة معادية للسلطة المركزية. ويصف ابن الأثير، علاوة على ذلك، قوات أبي خزر المكونة من النكارية والبربر عموما، في حين أن الأمر يتعلق بجيش وهبي حازم. يجب أن نميز بوضوح بين هذين الاتجاهين: الوهبية هي العقيدة الأرثوذكسية الموالية لأئمة تاهرت والتي تعيش بشكل أساسي في شمال إفريقيا، وهي أكثر الفرق الإباضية اعتدالاً. أما النكارية فهي نادرة جدا اليوم، وهي العقيدة الناتجة عن الانقسام الذي حدث في ١٦٨ هـ/ ٧٨٤-٨٥ م. بتولي عبد الوهاب بن عبد الرحمان الإمامة والسبب الرئيس لانفصال النكارية أو "المنْكرون" هو مسألة الشروط الواجب توفرها في الإمام. يحاولون عبثًا إقناع عبد الوهاب بقبول شرطين يرون أنهما ضروريان لممارسة السلطة وهما: أن يحكم الإمام تحت سيطرة المجلس العادي (الجماعة) وأنه يلتزم بالاستقالة إذا كان هناك من هو أقدر منه (إمامة الأفضل). هناك اختلافات أخرى تفصلهم عن الوهبيين، ولا سيما اعتقاد النكاريين أن أسماء الله مخلوقة، وقد تم طردهم من تاهرت من قبل عبد الوهاب، فاتجهوا شرقا وخاصة نحو طرابلس وجنوب تونس، حيث وجدوا السند من إباضية المنطقة فأصبحوا أغلبية هناك. لقد حظوا بمكانة سامية مع أبي يزيد. لكن بعد فشل حركته، تضاءل تأثيرهم بشكل حاد، ومع ذلك حافظوا على التعايش السلمي مع الجماعة الوهبية لعدة قرون رغم الاختلاف في بعض القضايا العقدية[6].

يقدم مؤرخا الإباضية الوهبيان أبو زكريا والشماخي وصفًا مطولًا لثورة باغاي ومقدماتها، والتي تختلف بشكل كبير عن النسخة التي قدمتها المصادر السنية. سوف نتتبع بشكل أساسي كتاب السيرة وأخبار الأئمة الذي يعد أقدم تاريخ إباضي محفوظ إلى يومنا هذا في شمال افريقيا؛ لمؤلفه أبو زكريا يحيى بن أبي بكر الورجلاني- وهو من مواليد واحة ورجلان - في عمله هذا يقدم بعض عناصر سيرته الذاتية خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر[7] وبصرف النظر عن ذلك، فإننا لا نكاد نعرف شيئًا عن حياته أو المنصب الذي شغله عند الإباضيين، أما كتابه السيرة فيكون دون ريب قد كتب بعد ٤٧٤ هـ/١٠٨١-٨٢ م.[8] وبالتأكيد قبل ١١٢٠ [9] لذلك من الواضح أنه أقدم من مصدرنا

الثاني، كتاب السير لأبي العباس أحمد بن سعيد الشماخي (ت ١٥٢٢) الذي يعتبره تاديوس لويكي "أهم مصدر إباضي في تاريخ شمال إفريقيا"[١٠].

العالم الجليل أبو القاسم الوسياني ونهايته المأساوية

خصص أبو زكريا؟ فصلين طويلين لثورة باغاي. الأول بعنوان "أخبار أبي القاسم"[٠] يزيد بن مخلد وأبي خزر يجلا بن زلطاف"، ويتتبع الأحداث التي أدت إلى هذه الثورة. يُشير العنوان بوضوح إلى أن المصادر الإباضية لا تتحدث عن قائد واحد بل اثنين: أبو خزر المذكور في النسخة السنية، وأبو القاسم[١١] وكلاهما ينتميان إلى بني واسين[١٢] ويقيمان في حامة الجريد، الواحة التي ولدا فيها. لقد تلقيا معظم تعاليمهما من سليمان بن زرقون، لكنهما درسا أيضًا عند حسنون بن أيوب[١٣] يقدم المؤلفان لنا قدرًا من المعلومات عن هذين الشيخين؛ نحن نعيد إدراج أهمها فقط، ذلك أنّه إذا كان على أبي خزر أن يعمل من أجل لقمة العيش، فإن رفيقه الأكبر منه كان ثريًا للغاية. في البداية كانا يدرسان في نفس الكتّاب، وعندما غادر أبو خزر للعمل تابع أبو القاسم دراسته. ولدى عودته كانا يستأنفان القراءة من حيث تركه أبو خزر، حتى يدرس أبو القاسم نفس المقرر مرتين. وهكذا اكتسبا معرفة كبيرة. ثم فسحا المجال للعديد من الإباضيين المتحمسين للتعلم منهم لذلك تمتعا بشهرة كبيرة. وبفضل ثروته قام أبو القاسم بالانفاق على إطعام هؤلاء الطلاب وتغطية باقي نفقاتهم[١٤] فأظهر ثراءه؛ لذلك كان محل لوم لأن ذلك لا يرضاه الإباضيون. ومن مظاهر ذلك الثراء أنه كانت له بغلة سرجها مرصع بالذهب وكان له عشرون جملًا يسافر بها إلى القيروان فقد كان معروفًا جدًا في هذه المدينة، لعلمه وتقواه. وعندما يصل إلى هناك، كان أهل القيروان يستعجلون المجيء إليه لاستفتائه في حل مشاكلهم، ولو أنّهم من مذهب آخر[١٥].

بسبب علمه الغزير، وصلت شهرة أبي القاسم في النهاية إلى آذان المعز الذي اعتاد على إرسال جيش يلوح براية حمراء إشارة إلى عدم رضاه في بعض المناطق الصعبة. ولما علم أبو القاسم بزحف هذا الجيش باتجاه الحامة، ذهب إلى القيروان لمقابلة الخليفة ليتوسط نيابة عن سكان مدينته الأصلية. فأعطاه الخليفة راية بيضاء، علامة على عفوه وإنعامه. حمل الراية عائدًا إلى بلدته وفي الطريق التقى بالجنود وهم في طريقهم إلى الحامة فقدم لهم الراية الجديدة وعاد الجيش إلى القيروان.[١٦]

وذات يوم، وكان في حضرة الخليفة المعز؛ طلب أبو القاسم منه أن يريه "ذو الفقار" سيف النبي. قام العالم بسحب السيف برفق من غمده، ولوّح به، ثم أعاده إلى الخليفة. هذه الحركة من العالم الفقيه جعلت المعز يتوجس منه واستغل وزراؤه الفرصة فأوغروا صدره عليه[١٧]؛ خاصة عندما أبلغ يهودي المعز بأن أبا القاسم قال له: "في وقت قصير جدًا سنعارضه وسنطرده من القيروان". ولما بلغ خبر وشاية اليهودي وبّخ مشايخ الإباضية أبا القاسم على إفشاء هذا السر[١٨][٠].

في الربيع، ذهب أبو القاسم إلى قبيلة مزاتة ووجد رجالها في أوج قوتهم: كان عددهم اثني عشر فارسًا وعددًا لا يحصى من المشاة. في هذا الوقت كان التهجم على أبي القاسم يتزايد! وحاشية الخليفة تروج لشائعة أن العالم الفقيه عازم على الثورة ضدّ الفواطم[١٩]، فكتب المعز إلى عامله على الحامة يأمره بقتل العالم الفقيه وإرسال رأسه إليه. ولعدم رغبته في إعدامه لأنه صديقه، نصحه العامل بالحج، لكن أبو القاسم رد عليه بأنه قد أتم ذلك. على الرغم من إصرار العامل، بحجة أن الوهبيين قد أجازوا الحج الثاني، إلا أن العالم أصر على رفضه الذهاب إلى مكة ثانية. كل هذا والمعز ينتظر فكتب خطابًا ثانيًا، لكن عامل الحامّة حث العالم الفقيه على الذهاب إلى وارجلان، لكن دون جدوى. ومع نفاد صبر الخليفة كتب رسالة ثالثة يطلب فيها من عامله الاختيار بين رأسه ورأس العالم الفقيه أبو القاسم. فراسل العامل أبو القاسم وأظهر له الرسائل الثلاثة، مؤكدًا له اقتراب موته. سأله العالم أن يمنحه وقتًا للصلاة. عندما انتهى، اندفع رجال مسلحون نحوه. تراجع العامل، غير راغب في أن يشهد مقتل صديقه. دافع أبو القاسم ببسالة عن نفسه لكنه قُتل في النهاية[٢٠].

وينهي مقتل أبي القاسم الجزء الأول من رواية أبي زكريا "الذي يروي للأسف بطريقة غير صريحة! تطور العلاقات بين المعز والعالم الإباضي". إذا اتبعنا ترتيب القصة، فإن حلقة الراية الحمراء المرسلة إلى الحامة تمثل أول لقاء بين الخليفة وأبي القاسم. ولا شك أن المعز أرسل جيش الترهيب هذا بسبب غضبه من هيبته والتأثير الذي يمكن أن يمارسه العلامة الإباضي على العامة، ومع ذلك فإن الرجلين يتفقان على وجود وفاق بين الخليفة وإباضية الحامة. وحينئذ يبدو أن المعز قد أظهر احترامًا كبيرًا للعلامة أبي القاسم واستقبله في بلاطه؛ لا نعرف ما إذا كان قد فعل الشيء نفسه مع أبي خزر. فقد قال عن أبي القاسم "لم تنجب العرب مثله" وقال عن أبي خزر: "عالم تقي"[٢١] وهذا يثبت صفو العلاقة مع الإباضيين ولا يبدو أنهم يشكلون

خطرًا على الشيعة، ورغم الاختلاف المذهبي، فإن عامل المعز على الحامة بذل كل ما في وسعه لإنقاذ صديقه أبي القاسم. من الواضح أن العلم الغزير والبراعة في الحد من الخلافات المذهبية لهذا الإباضي هو ما يرضي الخليفة، على أنه إذا كان المعز يبدو جديرًا بالثقة، فإن صدق أبي القاسم مشكوك فيه لأنه أخفى نية الخروج على الفاطميين، وقد كشف نفسه في مناسبتين: الأولى عندما لوّح بسيف النبي في اتجاه الخليفة، مما أثار شكوكه؛ والثانية عندما كشف لليهودي عن سر التحضير للثورة. يبين أبو زكريا أن أبا القاسم كان ينوي فعلًا الخروج عن الدولة الفاطمية وأن الخليفة كان قادرًا على إيقافه في الوقت المناسب: يمكننا الافتراض حينئذ أن رفض الفقيه الاباضي نُصْح العامل له أن يذهب ويبحث عن الأمان هو دليل على الاستعداد للثورة[*].

حصار باغاي وهزيمة الإباضية

ينتقل أبو زكريا إلى الفصل الثاني بعنوان: ذكر واقعة باغاي، بينما يبدأ الشماخي فصلاً بعنوان: حركات أبي نوح وأبي خزر. بعد وفاة أبي القاسم، أعلن أبو نوح سعيد بن زنجيل، تلميذ العلماء السابقين [٢٢] نفسه زعيمًا للثورة إلى جانب أبي خزر، وقد صدم إعلان اغتيال أبي القاسم الإباضيين بالحامة الذين وعدوا بالثأر لدمه، وعلى الرغم من تصميمهم إلا أن ابا خزر وباقي المشايخ لم يرغبوا في الثورة دون موافقة الطوائف الإباضية الأخرى[٢٣] ولهذا تم إرسال أبي نوح إلى منطقة طرابلس لاستدراج زعيم جبل نفوسة الإباضي: أبو عبد الله بن أبي عمرو بن أبي منصور إلياس. أجاب أهل نفوسة بأنهم كانوا ضعفاء للغاية منذ هزيمتهم في مانو، لكن إذا شعر الأباضيون في جنوب تونس بأنهم قادرون على الانتقام لمقتل أبي القاسم، فإنهم سيساعدونهم قدر استطاعتهم[٢٤]. ومن نفوسة انتقل أبو نوح إلى جربة حيث وجد أغلبية السكان يريدون الانتقام لكن أبو صالح اليهراساني رفض تأكيد دعمه بقوله: إنه لا ينبغي استفزاز خصومهم وهم أقوى منهم [٢٥]. وعاد أبو نوح ليخبر أبا خزر برأي سكان هذه المناطق فقرر الشيوخ حينئذ الاتصال بالأمويين وأمروا أبا نوح بإيصال خطاب إليهم فتم اعتراضه في الطريق وتم تبليغ المعز مما زاد من غضبه [٢٦]، وتأكّد أن التخطيط للخروج عليه أمر حقيقي، ولكن كظم غيظه وأرسل وفدًا إلى الحامة لحثّ الإباضية على التخلي عن فكرة الخروج عليه. وحسب أبي زكريا فإنه قال لهم: "ارجعوا إلى بلادكم، التي كانت في حكمكم؛ تاهرت وغيرها، وستكونون هناك كما كان أجدادكم، وسنعمل كما فعل أجدادنا". وطبقًا للشماخ، فقد نصحهم بالعودة إلى بلدهم: تاهرت والجريد، وفي هذه الحالة سيبقى هو الآخر في بلده [٢٧] وقد اقتنع أبو خزر وقرر أن يفعل ذلك، لكن الغوغاء أصروا على مهاجمة المعز. لذلك أرسل مبعوثين، بمن فيهم أبو محمد جامع، لتعبئة الإباضيين من الزاب وريغ ووارجلان وعند وصول المبعوثين وتبليغهم عبّر له سكان وارجلان عن استعدادهم للذهاب للمعركة [٢٨] وفي غضون ذلك، جاءت قوات من مزاتة للانضمام إلى أبي خزر [٢٩] الذي كان يأمل في تحقيق خطته مع هؤلاء المزاتيين وحدهم. وكلّف أنصاره بأمر ولاية الدفاع[٣٠] ومهمة الثأر لأبي القاسم وإذا حققوا هدفهم، فإنهم يعطونه القيادة في ولاية الظهور[٣١].

ذهب المزاتيون -دون انتظار وصول التعزيزات التي يقودها أبو محمد جمال -إلى باغاي وحاصروا المدينة واقتحموها بقسوة وأُجبروا السكان على اللجوء إلى القلعة القديمة فحاول هؤلاء التوافق مع المهاجمين من خلال تقديم المال لهم، وهكذا حصلوا على دعم قبيلة بني عليان[٣٢] المنافسين التقليديين لمديونة، وعندما أصبح القتال شرسًا، تخلى بنو عليان عن الحصار ونشروا بين محاربي مزاتة الآخرين الشائعات بأن مديونة قد تخلفت للاستيلاء على قطعانهم، مما تسبّب في تشتيت قوات الإباضية[٣٣].

كان أبو خزر وأبو نوح في المؤخرة مع الطلبة، وعندما وصلت المعركة إليهم لجأ أبو نوح بجواده إلى خندق حيث يوجد العديد من أنصاره[٣٤]. وكان أحد الشيوخ واسمه عبود مهتمًا بطلابه الذين يخشون أنه في حالة حدوث هزيمة سيركب جواده ويتركهم دون حماية، وهم الذين ليس لديهم أفراس يركبونها فوعدهم عبود بعدم التخلي عنهم وأثناء القتال في الحرس الخلفي قُتِل العشرات من أولئك الطلبة ومعهم عبود [٣٥].

لم تكن التعزيزات ببعيد؛ فمن ناحية، كان أبو محمد جمال برفقة العديد من الجماعات الإباضية التي استطاع أن يجمعها من الزاب وريغ ووِرْجلان، ومن أماكن أخرى، وكانت قوات خزرون بن فلفول[٣٦] قد عادت - لما علموا بالهزيمة - للبحث عن أبي خزر[٣٧].

تنتهي قصة ثورة باغاي، وخلافًا لما يشير إليه المصدران السنيان، كانت هناك مواجهة عسكرية سبقها حصار للمدينة قتل فيه العشرات من الإباضيين. وعلاوة على ذلك، بقيت هذه الهزيمة معروفة عندهم تحت مسمى "واقعة الشهداء"[٣٨]، أمّا المؤرخان الإباضيان فلا يتحدثان بوضوح! " تدخل الجيش الفاطمي بقيادة الخليفة؛ وبدلًا من ذلك، يبدو أن الحامية الوحيدة في المدينة المحاصرة كانت قادرة على طرد المهاجمين. وهذا يتوافق تمامًا مع المصادر السنية التي تؤكد أن البربر قد تفرقوا

بالفعل مع وصول جيش الخليفة. كما أن المؤرخين الإباضيين لا يتحدثون عن دور بولكين. في نظرهم، تسبب عنصران في الهزيمة: الأول، خيانة بني عِليان التي أدت إلى خروج الإباضية. ربما ينبغي أن يُنظر إلى حيلتهم على أنها وسيلة للإضرار بسمعة المدينة، وهي عشيرة منافسة لهم. العنصر الثاني هو الشغف المبهم الذي أبداه أبو خزر للوصول إلى باغاي بدلًا من انتظار وصول التعزيزات. وبعد الهزيمة أعرب الفقيه الاباضي أبو خزر عن أسفه للتسرع مع طلابه، وبالتالي خاطروا بحياتهم [٣٩].

محاولة أخيرة لاستعادة الإمامة

لم يفصح أبو زكريا ولا الشماخي عن طموحات أبي خزر وأبي نوح. يبدو أن الحاجة الملحة للانتقام لمقتل أبي القاسم هي التي أطلقت شرارة الثورة، ومع ذلك، فإنّ الخروج كان وشيكًا عندما تم ارتكاب جريمة القتل. نعم! وبحسب السر الذي أسرّه، فإن أبا القاسم كان ينوي إخراج المعز من القيروان. ويمكن للمرء أن يستنتج أن المتمردين كانوا يعتزمون القضاء على الدولة الفاطمية أو على الأقل كانوا يأملون في بترها من المناطق الإباضية وتوحيد هذه الأراضي في إمامة، من أجل استعادة ما دمره الفاطميون في تاهرت. وعلى كل حال فقد أعلنوا ولاية الدفاع، وعيّنوا أبا خزر إمام الدفاع، بانتظار النصر لتعيينه إمام الظهور. لم يعد المؤرخون الإباضيون يذكرون هذه الألقاب بعد الهزيمة. وحسب تاديوس لويكي، أثناء التحضير للثورة، عندما أعلن القادة الخروج ضد الفاطميين وأعلنوا ولاية الدفاع، كان الإباضيون سيحكمون مؤقتًا إقليمًا يمتد على جنوب تونس، طرابلس، جربة، الزاب، واحات وادي ريغ وورجلان، وكانوا سيعينون عمالا في كل هذه المقاطعات الجديدة[٤٠]. هذه المعلومات التي ربما استمدها تاديوس لويكي من مصادر إباضية أخرى لا وجود لها في المصادر التي اطّلعنا عنها، لكن من المحتمل بالفعل أن يكون جميع الوهبيين قد أعلنوا خلال فترة وجيزة من الثورة إمامة أبي خزر.

لا نجد أي صدى في المصادر الاباضية لإشارة ابن الأثير إلى أن أبا خزر كان سيهاجم حاكم باغاي، ولا تزال الرغبة في إشعال الثورة انطلاقًا من هذه المدينة غامضة إلى حد ما. كانت هذه القلعة البيزنطية القديمة، والتي لا تتعدى اليوم قرية جنوب غرب عين البيضاء، وعلى بعد حوالي مائتي كيلومتر من الحامة التي انطلقت منها قوات أبي خزر وفقًا لابن حوقل المعاصر للثورة، كانت المدينة محاطة بسور حجري قديم وكانت تُدار من قبل عامل مستقل[٤١]. ويشير البكري إلى أن السهول المحيطة بها كانت مأهولة من قبل مزاتة وضريسة، وجميعهم من الإباضية، الذين يرحلون شتاء إلى الصحراء للحفاظ على إبلهم من البرد[٤٢]. ومن المحتمل أن يكون زعيم الثائرين قد اختار أن يبدأ غزوه لمناطق النفوذ الفاطمي من باغاي حيث كان يعلم أن جزءًا من السكان سيقف إلى جانبه. علاوة على ذلك، كانت المدينة محل مواجهات حربية خلال ثورة أبي يزيد، وقبل وقت قصير من مقتله، كان فضْل نجل قائد الثورة لا يزال يخطط للاستيلاء عليها[٤٣].

وتجدر الإشارة إلى أن الثورة التي قادها أبو خزر تشبه في عدة نواحٍ ثورة أبي يزيد: الموجهة ضد نفس السلالة الحاكمة، كان مهدها أيضًا جنوب تونس. أما بربر مزاتة، الذين يبدو أنهم يشكلون الجزء الأكبر من قوات أبي خزر، فقد دعموا أيضًا صاحب الحمار بشكل كبير: ووفقًا لأبي زكريا، فقد انضم إليه المزاتيون بالآلاف عندما دخل لاحتلال مدن إفريقية [٤٤] كما حاول كل من أبي خزر وأبي يزيد التواصل مع الأمويين في إسبانيا، كما فعل الرستميون في وقت سابق. أما أبو زكريا والشماخ للأسف لا يذكران مضمون الرسالة التي كتبها أبو نوح لأموي الأندلس. ولا ريب أنّ هدفها الوحيد هو إعلان الثورة الوشيكة للإباضيين، على أمل أنه في حال النصر، سوف يعترف الأمويون بسيادتهم. إنه بالتأكيد ليس طلب دعم عسكري ولا اقتراح تحالف، لأنهم معادون تقليديًا للحكومة السنية ويعتقدون أنهم يستطيعون حكم دولتهم بمفردهم كما فعلوا في زمن تاهرت.

إذا كانت بعض الجوانب تقارب ثورة أبي يزيد بثورة باغاي، فإن منطلقها العقائدي مختلف تمامًا لأن الثورة التي قادها أبو خزر وهبية حصريًا... من المحتمل أن يكون ابن الأثير قد أخلط عن طريق الخطأ من خلال ذكره وجود نكارية ضمن صفوف الثوار. ومع ذلك، نحن نعلم أن الوهابيين انضموا في البداية إلى قتال صاحب الحمار، ومن المحتمل أن بعض النكاريين انضموا إلى أبي خزر معتقدين أن هذه هي فرصتهم الأخيرة لاستعادة الإمامة. إلا أن هذه الفرضية غير مرجحة لأن الكراهية كانت كبيرة بين الفرعين الإباضيين. وقد أدت إبادة النكاريين بعد هزيمة أبي يزيد إلى زيادة استيائهم من الوهبيين. يروي أبو زكريا أنه في الوقت الذي كان أبو خزار وأبو القاسم يدرّسان في الحامة، التقيا نكاريًا يريد العودة إلى الوهبية. تحاورا معه بإسهاب، لكن تبين أن النكاري خائن حاول اغتيال أبي القاسم فتم إعدامه [٤٥].

تبدو ثورة باغاي -كما جاء في ابن خلدون وابن الأثير-آخر حلقة في سلسلة ثورات نكارية أبي يزيد. يرى المؤرخان أنّ ما حدث في باغاي ليس له أهمية كبيرة لدرجة أن الباحثين الحاليين

يعتبرون عمومًا أن ثورة أبي يزيد هي في الواقع المحاولة الأخيرة للمقاومة الخارجية ضد السلطة المركزية، وهكذا، في دراسة حديثة اعتبر إبراهيم جدلة أن هزيمة ثوار النكارية كانت بمثابة الانتقال من نزعة خارجية متشددة وقتالية إلى نزعة سلمية وعالمة؛ من الآن فصاعدًا، على حد قوله، لم يعد الإباضيون يسعون للحصول على السلطة[٤٦] وقد أظهرت الصفحات السابقة أن هذه الرؤية للأمور خاطئة وأن حادثة باغاي هي بالفعل آخر انتفاضة عظيمة في تاريخ الإباضيين المغاربيين. وكان أبو خزر، لفترة وجيزة، آخر إمام لإمامة الدفاع. بعد هزيمة الإباضيّة أُجبروا على العودة، وهذه المرة نهائيًا، إلى حالة الإخفاء (الكتمان)[٤٧] في النصف الأول من القرن الحادي عشر عندما أسس أبو عبد الله محمد بن بكر الحلقة الوهابية[٤٨].

وبالمثل، فإن رواية ابن الأثير وابن خلدون، تتحدث عن الثورة في الأوراس ولا تشير إلى جنوب تونس، وهي رواية جعلت بعض المؤرخين المعاصرين يسيئون فهم ثورة باغاي. كما أنّ اسم القائد أبي خزر الزناتي، جعلهم يعتقدون أنه ينتمي إلى عائلة بني خزر العظيمة المتحالفة مع الأمويين. ونتيجة لذلك، أدرجوا "ثورته" بشكل خاطئ في الإطار العام للانتفاضات المرتبطة بمحاولات الأمويين مدّ نفوذهم في المغرب الأوسط.[٤٩]

إضاءة جديدة على العلاقة بين المعز والإباضيين

بقي أن نقول بضع كلمات عن مصير أبي خزر، يخبرنا المصدران السنيان أنه في العام التالي للثورة، ذهب هذا الثائر ليطلب من المعز العفو عنه وحصل على معاش تقاعدي[٥٠]. أما المؤرخون الإباضيون فكانوا أكثر دقة فبعد أن هرب أبو خزر لجأ لزعيم نفوسة ثم قرر الذهاب للخليفة. وقد رحب به هذا الأخير بحرارة وعامله على أنه أرقى العلماء واصطحبه معه إلى مصر[٥١] أما أبو نوح فقد تم أسره بعض الوقت بعد المعركة ونال عفو الخليفة.

التقى الخليفة أبا خزر في البلاط لكن هذا الأخير استخدم حيلة لعدم مرافقته إلى مصر ومكث في إفريقية ونقل معارفه إلى العديد من الطلبة الإباضيين. وفي وقت لاحق كان يتردد على بلاط الحاكم الزيري المنصور (٩٨٤-٩٩٦) الذي كانت تربطه به علاقات ممتازة[٥٢].

اهتمّت المصادر الإباضية بشكل خاص بالعفو الذي منحه المعز لخصميه السابقين، ومشاغل حياة أبي نوح وعلاقته بالمنصور. هذه الأحداث، مثل المذكورة أعلاه، توفر قدرًا كبيرًا من المعلومات الجديدة عن علاقة الحكام وعلماء الإباضية، رغم أن أبا زكريا يلعن المعز[٥٣]، لكن يجب الاعتراف بأن نصه يصور الخليفة بتسامح كبير! ففي حين تشير مصادر سنية إلى أنه بمجرد إعلان الثورة، ينطلق الجيش العبيدي بلا رحمة، لكن المصادر الإباضية تصر على إيراد كل الجهود التي يبذلها الخليفة لتجنب المواجهة. وأنّه ينتظر الحصول على يقين حقيقي حول اقتراب ثورة الإباضية بالعزم على الأمر بقتل أبي القاسم، فيما تواصل حاشيته الافتراء في حق العالم الاباضي. في ذلك الوقت، كان بإمكانه إرسال جيشه إلى الحامة لمنع اندلاع التمرد بدلًا من إعدام رجل واحد، خاصةً أنه كان متيقنا بأن قتل العالم من شأنه أن يحرض الإباضيين على الانتقام. غير أنّ الرسالة التي كتبها أبو نوح إلى الأمويين هي التي ستثير حنقه لأنهم أعداؤه اللدودون وأنه يجب عليه أن يقاتل بانتظام زناتة الذين يزعجه الأمويون باسمهم في المغرب الأوسط. والمحصلة أخيرًا هي أنّ كل شيء يوحي بأن غضبه سيدفعه إلى إرسال جيش على الفور إلى الحامة، لكنه على العكس من ذلك، يرسل وفدًا لمحاولة تجنب الثورة.

تظل الرسالة الموجهة إلى الثائرين، والتي تنصحهم بالعودة إلى أراضيهم، غامضة للغاية لأنها تشير إلى وجود منطقة خاصة بالإباضيين، مستقلة تمامًا عن الدولة الفاطمية، وتمتد أيضًا إلى تاهرت. نحن نعلم الآن أن الإباضيين قد هجروا تاهرت عندما سقطت في أيدي الشيعة في بداية القرن العاشر: لقد اتبعوا آخر إمام رستمي إلى ورجلان أو انضم بعضهم إلى المجتمعات الموجودة على سبيل المثال في الجريد. إن الاقتراح الذي قدمه الخليفة، والذي بموجبه يمكن للأباضيين العودة إلى تاهرت والعيش هناك مثل أسلافهم، من الصعب جدًا فهمه، فهل يمكن فهمه على أنه دعوة لإعادة الإمامة. التفسير الأكثر منطقية هو أن أبا زكريا، الذي يعلق أهمية كبيرة على هذه القضية برمتها، اخترع أو بالغ في العرض الذي قدّمه المعز للدلالة على القوة الهائلة التي اكتسبها الإباضيون في وقت الثورة وبيان مدى خوف الخليفة منهم. ومع ذلك، فإن جهود الخليفة المتكررة للبقاء على علاقة جيدة معهم، والتي أكدتها المصادر السنية التي ذكرت المعاش الممنوح لأبي خزر في العام التالي، تشير إلى أن المعز ربما تخيل حقًا أنّ استقلالاً نسبيًا لبعض المناطق التي يسكنها الإباضيون تقليديًا ممكن. وبالتالي، ربما كان يفضل منح منطقة تاهرت للإباضيين بدلًا من الاضطرار إلى التنازل عنها لزناتة المدعومين من الأمويين. ذكر الشماخي أن الجريد من بين المناطق التي كانت "معروضة" على الإباضيين: وهو ما يشير إلى أن هذه المنطقة تتمتع بالفعل

بمعاملة تفضيلية، ربما منذ لقاء المعز وأبي القاسم في الواقع، وعلى الرغم من أن الحامة كانت مهد الثورة، إلا أنها لم تكن أبدًا في وضع قلق. لذلك نعتقد أنه يجب علينا إعادة النظر في العلاقات بين السلطة الفاطمية والإباضيين ونعترف أنه إذا كان النكاريون بقيادة أبي يزيد قد شكلوا بالفعل التهديد الرئيس للخلافة الفاطمية في إفريقية، فإن المعز يمكن أن يكون قد حافظ على علاقات ودية مع الوهبيين وكان متسامحًا بشكل خاص مع الحامة وربما كان يرغب في ظل ظروف معينة، في إعادة الوهبيين إلى الحكم الذاتي الذي فقدوه مع سقوط تاهرت.

الاحالات المرجعية:

(**) باغاي مدينة عريقة توجد آثارها شمال مدينة خنشلة (ماسكولة) بحوالي ١٠ كلم، أشارت إليها المصادر اللاتينية كأحد مراكز الدوناتية وكذا المصادر الإسلامية كمركز للإباضية (وكثيرًا ما قارن الباحثون بين الدوناتية والإباضية واعتبر بعضهم الإباضية "دوناتية إسلامية" لان كلا المذهبين ارتبطا بمقاومة الاستبداد وكلاهما انطلقا من الأوراس.

(***) وجدنا لقب بوخزر مستمرا إلى الآن في منطقة سكيكدة وهي منطقة اختلاط مختلف العناصر البربرية من زناتيين وكتاميين وصنهاجيين لذلك تمتاز لهجتهم بخصوصية فونية تميزهم عن الكتاميين في الغرب والهواريين والزناتيين في الشرق والجنوب.

(1) Ibn al-Athir, Al-kamil fl l-tarikh, ed. J. Tomberg (Leyde, 1853-67; reed. Beyrouth, 1982), vol. 8, pp. 598-99.(ci-apres Ibn al-Atir). يسميه أيضًا أبو خزر الإفريقي

(2) Ibn Khaldun, Kitab al-'ibar (Beyrouth, I992), vol. 4, pp. 58- 59 (ci-apres Ibn Khaldun). Notre edition, مثل بعض الآخرين يسمّيه ابن جعفر.

(3) M. Canard, Vie de /'Ustad Jaudhar (Alger, 1958), pp. 163 et 166. M.

(4) Ibid., pp. 163-{i4, n. 371.

(٥) بنو خزر من مغراوة التي هي اقوى فرع في زناتة وعن تاريخ هذه العائلة ومقاومتها للفاطميين يمكن العودة إلى موسوعة الإسلام Encyclopédie de l'Islam,2' éd., s. Magràwa (T. Lewicki). ولا تزال منهم بقية في قبايل القل ما بين بني بونعيم وبني بشير

(6) Ibid., s. Al-Nukkàr (T. Lewicki).;

(7) Abu Zakariyyâ', Kitab alsira wa-akhbar al-a'imma, éd. 'Abd ar-Rahman Ayyub (Tunis, 1985), pp. 367-79 (ci-après Abu Zakariyya).

(8) Ibid., p. 379.

(9) T. Lewicki, "Les historiens, biographes et traditionnistes ibâçlites-wahbites de l'Afrique du Nord", Folia Orientalia 3 (1961): 95,

حسب لويكي الذي ربط إشارة واردة في أبي زكريا بالمعلومات التي قدمها الدرجيني، تم حدوثها بعد فترة وجيزة من (٥٠٤ هـ /١١١٠-١١١١).

(10) T. Lewicki, "Les sources ibâdites de l'histoire médiévale de l'Afrique du Nord", Africana Bulletin 35 (1988):39.8.Bagaya, Al-abdridiyya bi-l—üarid (Tunis, 1976), pp. 125-30.

يروي ثورة باغاي بناءً على الروايات التي قدمها الدرجيني ومخطوط آباضي عنوانه كشف الغمة محفوظ في المكتبة الوطنية في تونس تحت رقم ٣١٨٢ النص لا شك مختصر ولا يختلف عما أدرجناه هنا.

(*)) هو الإمام أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني الحامّي(ت:٣٥٨هـ/٩٦٨م) من بني تيجرت في حامة الجريد في تونس. أخذ علم الأصول وعلم الكلام عن الشيخ سحنون بن أيوب، وأخذ التفسير والفقه واللغة والأدب وسائر الفنون عن أبي الربيع سليمان بن زرقون.. اشتغل بالزراعة فقد كانت له أرض يستأجرها، فملك ثروة معتبرة، ينفق منها على الطلبة الذين يأتون إليه من

شَتى الأمصار، فتخرَّج على يديه عدد كبير ومنهم أبو محمَّد ويسلان ابن أبي صالح.

(11) AbuZakariyya, p.194. الصيغة المتداولة عموما هي مَّخْلَد.

(12) Al-Shammakhi. Kitab al-siyar, ed. M. Hasan (Tunis, 1995), p. 310,

يقول الشماخي أن بني وسيان فرع من زناتة كانت مستقرة في أغلبها في الجريد وخاصة في توزر والحامّة القريبة منها.

(١٣) Abu Zakariyya , p. 194; al-Sammakh, pp. 238 et 310.

حسنون بن أيوب ينتمي إلى الطبقة السابعة وأصله من طرابلس T. Lewicki, Etudes ibai;lites nord-africaines (Varsovie, 1955), p. 139.أما سليمان بن زرقون من رفقاء أبو يزيد القدامة وهو عالم فقيه في توزر عرف عنه مهاجمة النكارية. Voir al-Sammakh. pp. 221- 23.

(14) Abu Zakariyya, pp. 194- 95; al-Sammakh . pp. 310-11.

(15) Abu Zakariyya p.196; al-Sammakh, p. 312,.

الذي يضيف أن جماله كانت مزينة بأساور في الكاحل.

(16) AbuZakariyya, pp.197-98; al-Sarnmakh, p.312.

المصادر الإباضية تسمي المعز بكنيته أبو تميم.

(17) Abu Zakariyya, pp. 198-99; al-Shammakhi, p.313.Abu Zakariyya, p. 199; al-Sammakhi, p.313,

وقد ألحّ على أهمية تجهيز مزاتة العسكري

(18) Abu Zakariyya. pp. 199-200; al-Shammakhi p. 313.

وحسب الشماخي فإن العامل حاول بإلحاح ولكن دون طائل على العلامة الأباضي أن ينتقل إلى جبل نفوسة.

((*)) كان لا بدّ من الاستقصاء في شأن هذا اليهودي، مَنْ هو وما اسمه؟ وما علاقة يهودي مثل هذا بالخليفة العبيدي وكيف يتدخل في أمر خطير كهذا وهل من المعقول أن يثق أبوا القاسم في يهودي وأن يسرب له سرًا خطيراً كهذا؟

(19) Abu Zakariyya, p. 198; al-Shammakhi, p. 312.

(٢٠) الاثنان أبو زكرياء والشماخي كتبا الاسم هكذا: باغاي وهو الصحيح على عكس باقي الآخرين.

(21) Abu Zakariyya, p. 198; al-Shammakhi, p. 312

((*)) كيف يكون مستعدًا للثورة ويبقى لوحده دون حماية وكأنه يسلّم نفسه للموت طواعية، الوقائع هنا تحتاج إلى تفاصيل غير واردة في المصادر.

(22) Al-Sammakhi, p. 310.; عن الرسائل التي كتبها أبو خزر إلى أبي نوحٌ ينظر: P. Cuperly, Introduction a l'étude de l'ibadisme et de sa théologie(Alger, 984), p. 36.

(23) Abii Zakariyya, p. 201: ai-Sammakhi, p.314..

(24) Abu Zakariyya, pp. 201-2; al-Sammakhi, p.314.

وعن أبي عبد الله بن أبي عمرو، يراجّع: Lewicki, Etudes ibadites nord-africaines, pp. 49-50. وعن معركة مانو (٢٨٣/٨٩٦-٩٧) يراجّع: Encyc/opedie de l'Islam, 2ème ed., Manu (T. Lewicki).

(25) Abu Zakariyya, p. 202; al-Sammakhi, p. 314.

وأضافا أن يوجد عالم آخر في الحامّة هو أبو محمد ويسلان وصف هذه الثورة بأها خاسرة مسبقًا، وعن أبي صالح البهراساني يراجّع " La renaissance des ibadites wahbites a Djerba au Xe siecle", Folia Orientalia 40 (2004): 171- 91.

(26) Abu Zakariyya. p. 202; al-Shammkhi, p. 314.

(27) Abu Zakariyya', p. 202;ai-Sammlibi, p.314,

نعم كتب اسم المدينة هكذا : تيهرت.

(28) AbuZakariyya, pp. 202-3;al-Sammakhi, pp.314-15.

يقرن شخصية أبي محمد جمال المديوني بأبي محمد ويسلان، وهذا خطأ خاصة أن الأخير استهجن الثورة، الإباضية بالجريد. ص. ١٣٠.

(29) Abu Zakariyya, p. 203;al-Sammakhi, p. 315,

وأبو زكرياء يكرر أن مزاتة تعدّ ١٢ ألف فارس وعدد لا يحصى من المشاة.

(٣٠) عن إمامة الدفاع وإمامة الظهور، يُراجع:

Cuperly; Introduction a l'étude de l'Ibadisme, pp. 59-60.

(31) Abu Zakariyya, p. 203. Al-Shammakhi, p. 315, ويؤكد أقواله وكذلك المصادر التي استشارها باجية، الإباضية بالجريد، ص١٣٠. لذلك يبدو من المؤكد أن أبا خزر قد عين إماماً للدفاع وأنه كان سيعين إمامًا للظهور في حال النصر.

(٣٢) بنو يليان هم فرع من لواتة أما الدرجيني فيدرجهم ضمن مزاتة Abu Zakariyya, p. 204, n. 21. أما مديونة فهي فرع من زناتة أو ضريسة انظر:

Lewicki, "Les historiens biographes et traditionnistes", p. 62.

(٣٣) يشير أبو زكرياء أحيانًا إلى مديونة وأحيانًا إلى بني مدنة Abu Zakariyya, pp. 203-4, أما الشماخي فيختصر كل هذا في الحديث عن بنييلين ويجعل بدنة مكان مديونة Al-Sammakhi, p. 315, أما باجية فيى "الاباضية في الجريد" ص ١٣٠ فذكر أنّ "بني يليان" أكدّوا للجنود بصراحة إن مديونة هاجموا عائلاتهم وممتلكاتهم ، حتى تفرق جيش مزاتة.

(34) Abu Zakariyya, p. 204; a!-Sammakhi, p. 315.

(٣٥) أبو زكريا، ص. ٢٠٤-٥ (ينسب عبود إلى بني كاتين)؛ أما الشماخي: ص. ٣١٥ (فيشيراليه باسم عبود الكازيني). تتحدث نسختنا من كتاب أبي زكريا عن وفاة عشرة إباضيين، لكن وفقًا للحاشية ١٧ أعلاه سقط "عشرات" في توافق مع الشماخي.

(٣٦) خزرون بن فلفول، أمير مغراوة وتابع الأمويين، استولى بعد بضع سنوات على سجلماسة حيث قلدته قرطبة حكمها رسميًا. لكن استعادها منه بولكين في ٣٦٩ / ٩٧٩-٨٠ وقتله. انظر مراجع أخرى من بينها: ابن عذاري، البيان المقرب في أخبار الأندلس والمغرب، طبعة ليفي بروفنسال المجلدا. بيروت ١٩٦٧ وكذا ابن خلدون المجلد ٦ ص ١٨٤.

(٣٧) Abu Zakariyya, pp. 205- 6; al-Shammakhi, p. 315 فلفول هو احد تلاميذ أبو خزر. غادر أبو زكريا **فصيل** جربة للمشاركة في الثورة. علم هو الأخر وهو في الطريق بهزيمة الإباضيين فعاد إدراجه.Abu Zakariyya, p. 243;

(38) تأتي هذه التسمية مما رآه أبو خزر في المنام -بعد الهزيمة-ثلاثة يسمون هذه المعركة بهذا الاسم: Abu Zakariyya, p. 206; al-Shammakhi, pp. 315-16

(39) Abu Zakariyya, p. 206; al-Shammakhi. 315.

(40) Encyclopedie de l'Islam,•2me ed., s. Al-ibadiyya (T. Lewicki).

(41) Ibn Hawqal, Kitab $urat a/-ard,. ed. M. J. De Goet etJ. H. Kramers (I873; Leyde, I967), p. 84.

(٤٢) البكري: المغرب فيذكر بلاد إفريقية والمعرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك الترجمة إلى الفرنسي لماك كوكان والابدة وصلان (باريس١٩١٠) ص ص١٤٤-٤٥.

(43) Voir entre autres Ibn al-Atir , vol. 8, p. 422; Ibn khaldun. vol. 7, pp. 17 et 20.

(44) Abu Zakariyya, p. 171.

(45) Ibid.. pp. 195- 96; al-Sammakhi, p. 311.

(46) I. Jadla, "Le Kharidjisme en Ifriqiya. Essai d'interpretation d'une longue agonie", Revue de l' Institut des Belles lettres Arabes 191 (2003): 27. Voir aussi R. Le Tourneau, "La revolte d'Abu-Yazid au x ème siècle", Cahiers de Tunisie 1/2 (1953): 124- 25.

(٤٧) انظر أعلاه، الإحالة ٣١.

(48) "Genese et developpement de la (Halqa chez les ibadites maghrebins", Acta Orientalia Be ca 19(2006): 109-24.

(٤٩) يوضح فرحات الدشراوي أن هذا التمرد حدث في وقت اضطر فيه المعز إلى ترك الاهتمام بالمغرب الأوسط، لأنه كان مشغولاً بالتحضير لرحيله إلى مصر وقلقا بشأن نجاح القرامطة في سوريا: "هذه هي بالضبط اللحظة التي اختارها الزناتية لرفع رؤوسهم وتعزيز تقدم التوسع الأموي في المغرب الأوسط. وأدّى إلى الصراع على النفوذ الذي خاضه الأمويون والفاطميون لعدة عقود في هذا البلد، وكانت مرحلته الأخيرة قبل رحيل المعز النهائي إلى مصر "حياة الأستاذ جوذر، ص١٦٣-٦٤، إحالة ٣٧١، كما يدمج أبا خزر في آل بني خزر ويربطه بشكل خاص بمحمد بن الخير بن محمد بن خزر: Lethielleux (J.), Ouargla, Cité saharienne des origines au début de XX(ème) s. Paris1983 P. 73 N 1 هو قائد الثورة محمد بن الخير ، لقب أبو خزر! ينظَر:

F. Dachraoui, le califat fatimide au Maghreb (296-362/909-973). Histoire politique et institution (Tunis,1981), pp. 236-37,

(٥٠) Ibn al-Athir, vol. 8, p. 599, الذي يؤكد أن الحادثة وقعت في ربيع الثاني ٣٥٩ هـ (فيفري-مارس ٩٧٠) ;Ibn khaldun, vol. 4, p. 59.

(51) Abu Zakariyya', pp. 213- 15; al-Shammakhi, p. 271et P - 319-20.

(52) Abu Zakariyya, pp. 206- 15 et pp. 222-38; al-Shammakhi, pp. 316- 19 et pp. 323-30.

(53) Abu Zakariyya, p. 199 .

نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن
دراسة وتثمين



د. جواد التباعي
دكتوراه في التاريخ والتراث
جامعة سيدي محمد بن عبدالله
فاس - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة لنيل الدكتوراه الوطنية في العلوم الإنسانية من كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس

الباحث: جواد التباعي
إشراف: الدكتور الحاج موسى عوني
التخصص: التاريخ والتراث
المناقشة: ٢٠٢١
الصفحات: ٥٨٠ صفحة.

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.251109

كلمات مفتاحية:
التراث الثقافي المادي؛ التراث الأركيولوجي؛ الذاكرة التاريخية؛ العمارة السكنية القروية؛ الأعراف الأمازيغية؛ التراث الفلاحي

مُقَدِّمَةُ

تظهر أهميته المونوغرافية التاريخية في قدرتها على معالجة تفاصيل مهمة في التاريخ المحلي قد تغفلها الدراسات العامة. وتمنح التراث أرضية صلبة لاستيعاب الماضي من خلال سد النقص الوثائقي بالبحث عن الوثائق الدفينة، وجمع شتات الذاكرة الجماعية المتناثرة، وتوثيق وتثمين هذا الرصيد الذي يتعرض للتلف يوما بعد أخر. وتتجلى أهميتها أيضًا في التعريف بخصوصيات التراث الثقافي دراسةً وبحثاً وترميماً وتثميناً، دون أن يعني ذلك النكوص أو الحنين إلى الماضي، ولا تقديس ما خلفه الأجداد، بقدر ما هو حفاظ هويتنا الثقافية في زمن تراجع الهويات أمام مغريات المدنية الحديثة.

من هذا المنطلق يمكن اعتبار بلاد زيان واحدة من مناطق المغرب الجبلي العميق التي تزخر بتراث ثقافي غني ومتنوع. تجسده مواقع أثرية عريقة، ومدن وتجمعات سكانية أصيلة، وأضرحة شهيرة، وزوايا اتخذت من المنطقة منطلقا وقاعدة لحركاتها الصوفية والسياسية، وأعراف وعادات اجتماعية وطقوس فلاحية موغلة في القدم، وأشكال تضامن مجتمعية استمدت مكانتها من تنوع المجال وتعدد الإثنيات، وتقاليد حربية عريقة سمحت لهم بمقاومة شرسة للغزاة والمستعمر، وطاقات بشرية مهيأة لمواجهة شظف العيش وقساوة الحياة، وتراث فني متنوع يعكس حجم التعايش الاثني واللغوي.... ورغم ذلك ما يزال المجال يعاني كثيرًا من مظاهر التهميش وعُسر التنمية. من هنا جاءت فكرة هذه الدراسة

الموسومة بعنوان **نماذج من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن: دراسة وتثمين:** لتثمين جانب مهم من تراثها لتجاوز ومحاولة وفتح آفاق استثمار ثقافي واقتصادي للموروث المحلي وجعله رافعة للتنمية.

١-أهداف البحث

سعت هذه الأطروحة لتوثيق أكبر قدر ممكن من مظاهر التراث الثقافي المادي واللامادي ببلاد زيان بنفض الغبار عن بعضها وإثارة انتباه الباحثين والعموم للبعض الآخر. وإبراز مظاهر استمرار هذا التراث خدمة للثقافة الزيانية وعبرها ثقافة المغرب العميق. ننطلق في ذلك من التعريف بالمواقع الأثرية والشواهد المادية المحلية لتجاوز التصور التقليدي الضيق للمنطقة. وتوثيق جوانب مهمة من التراث اللامادي الزياني انطلاقاً معطيات الذاكرة الجماعية قبل وفاة ممارسيه وحفاظه. والحرص على تقديم معطيات تاريخية تساعد على تثمينه، وضبط وتدقيق أسماء ووظائف العديد من الأماكن الزيانية ووضعها في دائرة النقاش دون السقوط في مطابقة تاريخ القبيلة بتاريخ قبائل أخرى في نفس المكان والزمان، وحتى يتجاوز الموضوع البحث النظري، ويكون له أثر وبعد عملي وتطبيقي قدمنا مقترحات لتثمين عناصر هذا التراث، واقترحنا مسارات سياحية متنوعة ومتعددة المضامين والمجالات المستكشفة، يمكن أن تصبح مشاريع قابلة للتطبيق العملي على أرض الواقع ذيلناها بمجموعة من التوصيات للفاعلين.

٢-الإطار الزمكاني للبحث

ركزت الدراسة على بلاد زيان، خلال الفترة الممتدة بين ظهور الحواضر الزيانية الوسيطية إلى الزمن الراهن لنتمكن من تتبع مظاهر التطور في إطار الزمن التاريخي الطويل (*la longue durée*) الذي لا يعتبر التاريخ تاريخا مالم يستحضر هواجس الحاضر واستشراف المستقبل المنظور.

٣-إشكالية البحث وموضوعه

رصد مظاهر الاستمرار والتحول في التراث الثقافي الأصيل لبلاد زيان، ومدى مساهمته في تحقيق التنمية المحلية وحفظ جزء مهم من الهوية الوطنية؟

في محاولة للإجابة عن أسئلتها المحورية التالية:

لماذا الاهتمام بالتراث الثقافي؟ وما أهم مظاهره؟

كيف يتم تدبير التراث الثقافي في علاقته بالاقتصادي والطبيعي والسياسي أحيانا؟

ماهي السبل الممكنة لتثمين التراث الثقافي؟ وأي مستقبل للتراث الثقافي الزياني في ظل الامتداد الجارف للعولمة وتأثيرها على الأصالة الثقافية؟

٤-منهج البحث

سلكت دراسة الموضوع منهجا جمع بين استقراء المادة التاريخية، وخلاصات البحث الأثري. واستفدنا من الرواية الشفوية المقارنة لتعزيز المعطيات وسد البياضات. واعتمدنا على البحث الميداني بتفريغ معطياته في جداول، ورسوم، وأشكال، ومخططات، وتصاميم، ومسارات سياحية تعزز الخلاصات، كما انفتحنا على العلوم المساعدة كالجغرافيا، وعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا، وعلم المتاحف، والقانون.... ووظفنا بعض التكنولوجيات الحديثة في التقاط وقص الصور وإنجاز التصاميم والرسومات والخرائط الضرورية.

٥-دوافع اختيار الموضوع

٥/١-الدوافع الذاتية

- الدفاع عن بالانتماء والتعلق بالمنشأ والرغبة في التعريف بتراثه الثقافي.
- العرفان بالجميل لثقافة غنية، ومحاولة لإخراجها من التهميش والضياع الذي تعانيه.

٥/٢-الدوافع الموضوعية

فتح موضوع بحثنا لنيل شهادة الماستر المتخصص "التراث والتنمية" الموسوم ب "ضريح الشيخ أبي يعزى أهميته المعمارية وأدواره الاقتصادية" الذي أنجزناه بذات الكلية تحت إشراف الدكتور الحاج موسى عوني سنة٢٠١٢م الأفق لتوسيع مجال وموضوع الدراسة إيماناً منا بأن الدراسة المونوغرافية جزء لتبيان الكل، وعنصر مساعد في كتابة التاريخ الوطني.

كون المنطقة لم تحظ بالاهتمام الكافي من لدن الباحثين المغاربة خاصة في الشق التراثي.

فتح آفاق جديدة للبحث العلمي في مجموعة من النقاط التي لم تتسع لها هذه الأطروحة.

٦-دراسة المصادر والمراجع

الوثائق:

مجموعة من الوثائق المخزنية، والجريدة الرسمية للمملكة، وبعض وثائق الأرشيفات الوطنية والأجنبية، ورحلات وتقارير ضباط الاستعلامات الفرنسية خاصة خلال المرحلة السابقة لاحتلال البلاد كما اطلعنا على مستجدات تقارير البعثات الأركيولوجية إلى موقعي "فازاز" و"معدن عوام"، دون إغفال جديد تصنيفات وزارة الثقافة. كما حاولنا النبش في مخطوطات ووثائق خاصة في ملكية عائلات وأعيان المنطقة.

اعتمدنا في البيبليوغرافيا العربية على مصادر ومراجع متعددة:

- كتب التاريخ العام التقليدية: خاصة كتب أبو القاسم الزياني خاصة "الترجمانة الكبرى" و"البستان الظريف" التي تعد عماد الباحث في التأريخ لأصل القبيلة، إلى جانب "المقدمة" و"تاريخ العبر"، و"تاريخ الدولة السعيدة"، و "الاستقصا" و"طلعة المشتري" و"إتحاف أعلام الناس"
- كتب الرحلات: أبرزها "الاستبصار"، و"وصف إفريقيا" و"إفريقيا"، اللذان دونا معلومات مهمة عن معدن عوام وتاغية.
- كتب النوازل: وأهمها "المعيار المعرب" خاصة في نوازل التصوف، وفقه البنيان.
- كتب التصوف: أبرزها "التشوف" و"المُعزى في مناقب أبي يعزى"، و"نشر المثاني"، و"البدور الضاوية".
- المونوغرافيات التاريخية: من أبرزها "كباء العنبر" و"تاريخ بلدة خنيفرة"، لمؤرخ زين المعاصرة أحمد المنصوري، وأطروحة "إينولتان" التي تعد بحق الحجر الأساس لمشروع المونوغرافيات التاريخية بالمغرب.

المصادر الأجنبية بالفرنسية أهمها:

Tadla. Pays Zaïan, Moyen Atlas لصاحبه Peyronnet وأخرى معربة ك "التعرف على المغرب" للراهب الفرنسي المتنكر De Foucauld، و"أعراف قبائل زايان" ل Aspinion الذي استفاد من إلمامه باللغة المحلية لتقديم خلاصة إقامته بالمنطقة لمدة اثني عشر سنة. و"الجبل الأمازيغي آيت اومالو وبلاد زايان: المجال والإنسان والتاريخ" و"صوت الجبل" للقبطان القبائلي Guennoun Saïd. و "موحى وحمو الزياني" لفرانسوا بيرجي. و"البربر المغاربة وتهدئة الأطلس المركزي (١٩١٢-١٩٣٣)" للجنرال كيوم إلى جانب الكتب ساعدتنا المجلات الكولونيالية في الإمساك بالخطوط العريضة للموضوع خاصة مجلة Archives Berbères، Hespéris، و"هيسبيريس تمودا" ، وجريدة السعادة والموسوعات والمجموعات الوثائقية ك "Encyclopédie Berbère"، ومعلمة المغرب، وموسوعة المقاومة.

الدراسات المعاصرة:

أبرزها "الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي"، لمحمد حجي، وأطروحة الباحث إدريس أقبوش "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بمنطقة زيان خلال فترة الحماية (١٩١٢-١٩٥٦)". وأطروحة محمد بلحسن في موضوع le résistance marocaine a la pénétration française dans le pays zain 1908-1921 التي ركزت على الجوانب العسكرية في تراث المنطقة.

كما وظفنا عناصر الثقافة الشعبية من أقوال وأمثال وأهازيج مأثورة، واستعنا بالرواية الشفوية المقارنة في توثيق التراث اللامادي والأحداث التي عاشها المستجوبون أو كانوا قريبين منها لمل البياضات، مع توخي الحيطة المطلوبة في هذا الشأن.

٧-خطة البحث

جاءت الأطروحة في باب تمهيدي وبابين رئيسين:

الباب التمهيدي الإطار المفاهيمي والجغرافي والسوسيو تاريخي للتراث الثقافي ببلاد زيان

قدم فصله الأول مدخلاً مفاهيميًا رسم حدود الموضوع وشرح مصطلحاته وعنوانه. وأعطى الفصلان الثاني والثالث للقارئ على التوالي نبذة مختصرة عن الإطارين الطبيعي والبشري للأطروحة. وتطرق الفصل الرابع لبعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية المساعدة على فهم العديد من مظاهر تراث المنطقة.

وتناول الباب الأول **التراث الثقافي المادي ببلاد زيان** في سبعة فصول:

درس الفصل الأول أهم مظاهر التراث الأركيولوجي ببلاد زيان وقدم الفصل الثاني أهم ملامح من التراث الثقافي بمدينة خنيفرة العتيقة وسبل تثمينها. وتطرق الفصل الثالث لأبرز أضرحة بلاد زيان وآليات تثمينها. وتناول الفصل الرابع بالدراسة والتحليل أهم زوايا بلاد زيان في ثلاثة مباحث. وجاء الفصل الخامس الموسوم ب العمارة العسكرية ببلاد زيان: الدراسة والتثمين، بينما جاء الفصل السادس بعنوان "القناطر ومواقع الذاكرة التاريخية ببلاد زيان" في مبحثين تناول أولهما أهم القناطر التاريخية ببلاد زيان، وتطرق المبحث الثاني لأهم مواقع الذاكرة التاريخية ببلاد زيان. وأتى الفصل السابع تحت عنوان "المخازن الجماعية والعمارة السكنية القروية ببلاد زيان" في مبحثين: تطرق أولهما لنماذج من هذه المخازن الجماعية وبعض آليات تثمينها، وحاول المبحث الثاني إبراز أنواع وخصوصيات العمارة السكنية القروية ببلاد زيان.

وتطرق **الباب الثاني لنماذج من التراث الثقافي اللامادي ببلاد زيان** في سبعة فصول:

حاول الفصل الأول التعريف بأهم الصنائع التقليدية التي ضمنت عيش الزيانيين من خلال سبعة مباحث تضمنت مقترحات لتثمين الصناعة التقليدية الزيانية. ودرس الفصل الثاني نماذج من الأعراف الأمازيغية ببلاد زيان. وتناول الفصل الثالث جوانب من التراث الفلاحي الزياني وسبل ضمان استمراريتها. وجاء الفصل الرابع لدراسة أسواق بلاد زيان وأشكال التكافل الاجتماعي التي تقوي الشعور بالانتماء والروابط الاجتماعية بين قبائلها.

درس الفصل الخامس "جوانب من اللباس والحلي ببلاد زيان" من خلال ثلاثة مباحث، وعرج الفصل السادس على الأدب الشعبي والتعبير الموسيقي والحركي ببلاد زيان وسبل تثمينه في ثلاثة مباحث عالج أولها المسرح الشعبي وفن الألغاز على أرض زيان، ورصد الثاني خصوصيات الشعر والغناء الشعبي، ودرس الثالث مميزات أحيدوس زيان. وخصص الفصل السابع لبسط نماذج من المشاريع المنجزة لثمين التراث الثقافي ببلاد زيان، وبعض مقترحات الباحث من خلال استثمار كل المؤهلات الثقافية في مسارات سياحية موضوعاتية. وختمنا هذا البحث بخاتمة عامة وتوصيات للفاعلين في مجال التراث الثقافي.

٨-الصعوبات

واجهت الباحث العديد من الصعوبات أثناء العمل أبرزها:

غياب مندوبيات للسياحة والثقافة بالمنطقة، وبالتالي غياب الحاضن والمخاطب الرسمي للباحث. وضعف المادة العالمة بسبب ضعف التدوين، وموت الشيوخ والعارفين. وطمس العديد من مظاهر الثقافة الزيانية مما تطلب منا وقتا أطول ومجهودا أكبر لتوطينها بدقة وتحديد خصوصياتها. والتداخل الكبير بين الثقافتين العربية والأمازيغية بحكم علاقات الزواج والهجرة مما فرض علينا تتبع أوجه الاختلاف.

صعوبة الحصول على بعض أرشيف الإدارات، وتحول محتويات خزائن بعض المؤسسات الدينية إلى ملك عائلي وإحجام المسؤولين عن وضعها في مناول للباحثين. ووعورة المسالك التي اجتازها أحيانا من أجل الحصول على معلومة واحدة أو التحقق من أخرى أو التقاط صورة. ووفاة العديد من الرواة قبل إتمام المقابلات، وتعدد الروايات والدلالات. وصعوبة الوفاء لمعنى نصوص التراث اللامادي المترجمة التي تفقد الكثير من أسلوبها وجماليتها رغم الحفاظ على المعنى.

لكنه تغلب على معظم هذه الصعوبات بفضل توجيهات الأستاذ والمساعدات التي قدمتها لنا المؤسسات المعنية مشكورة، والإلحاح في السؤال، والتغيير المستمر لأساليب البحث، وتحدي الظروف الطبيعية تمكنا من التغلب على معظم هذه الصعوبات.

الخلاصات والتوصيات

حاصل القول إن أرض زيان يمكن أن تستفيد من القيمة الاستثنائية لعناصر موروثها الثقافي وأبعاده التاريخية والإنسانية والرمزية الجمالية. ولعل أهم ما سجلناه هو أن مجال الدراسة حقل خام للبحث والاستكشاف والمشاهدة. فالمنطقة متحف كبير مفتوح يوفر خيارات متعددة لممارسة سياحة ثقافية وطبيعية - بيئية.

يستفيد تراث زيان المادي من تعدد روافد الهوية الثقافية، خاصة المعالم الأثرية التي تبرز حجم مساهمة المنطقة في صنع تاريخ البلاد. وتشهد التجمعات السكانية العتيقة التي تتوفر فيها معظم شروط العمارة الإسلامية، على حجم التنظيم الاجتماعي الإداري والسياسي الذي رافقها. ويقدم تعدد الأضرحة الكبرى والقبلية، والزوايا الطرقية والطوائف الدينية بالمنطقة عبر تاريخها، صورة مشرقة عن التسامح الديني الذي ساد بالاتحادية، ويبرهن التنوع الإثني على حجم التعايش الاجتماعي على هذه الأرض. ويبرز تعدد القصبات والقلاع المخزنية على أرضها حجم قوة الاتحادية التي صنفت٢٠ ضمن بلاد السيبة التي تؤمن بالحرية في الجبل حيث لا سيد إلا الله. وتجسد كثرة القناطر والجسور التاريخية المكانة الاستراتيجية لمنطقة شكلت ممرا سلطانيا بين العواصم التقليدية، بل وعاصمة للبلاد لمدة لا تقل عن ربع قرن زمن الدلائيين. ينم تنوع مواقع الذاكرة التاريخية كأجدير وجن الماس وضريح موحى اوحمو...عن ذاكرة جماعية كبيرة. ويساعد اختلاف مظاهر الإبداع في أنماط العمارة بين السهل، والدير، والجبل، على فهم التنوع الثقافي الذي تزخر به المنطقة. ويعطي تعدد أشكال ومواقع وهندسة المخازن الجماعية فكرة عن التدبير الجماعي والعائلي والفردي للمؤن.

يفوق انتشار التراث اللامادي على أرض زيان نظيره المادي بالنظر لتأخر التدوين وغلبة الطابع الشفهي على ثقافة المنطقة. وتأكيدا لذلك تجاوز صيت بعض الحرف التقليدية الزيانية حدود البلاد، خاصة النسيج الزياني ذي التحف الفنية الرائعة التي تجسد تفوق

المرأة الأمازيغية. وصُنفت زيان أكبر قبائل العرف قبل الحماية، لتتخذه سلطاتها بعيد احتلال خنيفرة قاعدة لقوانينها العرفية في كل البلاد. وماتزال المنطقة مضرب المثل في الحفاظ على مجموعة من الأعراف، التي أثبتت موافقتها للشرع وحاجيات المجتمع خاصة ما يتعلق بالمنازعات الفلاحية والقبلية والمهنية، ولازالت بعض قبائلها تحيي مهرجانات ومواسم للاحتفال ببعض الطقوس العرفية.

وفي مجال التراث الفلاحي يلتزم معظم فلاّحي المنطقة حتى اليوم بمعظم قواعد وحكم المنازل الفلاحية، التي تضمن حسن تدبير مراحل الموسم الفلاحي. ويحافظ الانتجاع بين الجبل والسهل على مجموعة من طقوسه وعاداته كالجز والخيام، رغم تطور وسائل النقل، والقيود القانونية التي حدت من انتشاره، وتحولت الخيمة من سكن رئيسي إلى سكن مناسباتي، لكن حجمها وجودة نسيجها ظلا رمزا للتباهي بين العائلات والقبائل في المهرجانات والمواسم. وحافظت الأسواق الأسبوعية والموسمية على مكانتها كملتقيات اقتصادية واجتماعية وثقافية تختصر تاريخ وتراث القبائل، وفيها يرسم حاضرها ومستقبلها.

ماتزال مجموعة مظاهر التكافل الاجتماعي مستمرة ببلاد زيان، حيث لا يتوانون عن تفعيل نظام "تيويزي ن المحبة" فيما بينهم كلما دعت الحاجة لذلك، مع تسجيل بداية اضمحلال "تيويزي ن الدرع" أو نظام السخرة بوفاة العديد من كبار الملاكين. وتراجعت "تاضا" أو "طاطا" بانتفاء الشروط التي فرضتها، كانعدام الأمن والصراعات القبلية، لكنها ضمنت استمراريتها بين مجموعة من العائلات خاصة عند عرب غرب زيان ممن كانت أخوتهم مبنية على قواعد اجتماعية متينة بعيدا عن تحالفات المصالح. واستمر نظام "أكدال" في بعض القبائل كنظام فعال في تدبير المراعي، وبدأت قبائل أخرى بالعودة إلى تطبيقه خاصة مع توالي سنوات الجفاف.

إثنوغرافيا نجح الزيانيون في ضمان استمرارية ملابسهم التراثية كالجلباب والسلهام، والشربيل، والحنديرة وليزار والشقة... مع الحرص على مواكبتها لروح العصر. ووظفت الزيانيات التكنولوجيات الحديثة لجعل ملابسهن وحليهن أكثر شهرة داخل البلاد وخارجها. يتم ارتداؤها في مختلف المناطق وخلال مختلف المناسبات خاصة الأعراس التي تشرف عليها مزينات محترفات. واستمر الوشم في كتابة رموزه الواضحة حينا والغامضة أحيانًا، على الأعضاء البارزة من أجساد النساء والرجال والشباب، وإن اختلفت طرقه ووسائله ودلالاته.

في المجال الفني استطاع الزيانيون تكييف فن الحلقة مع أحزانهم وأفراحهم اليومية التي أنجبت فنانين كبار أمثال "لحسن أزايي". شكلت ألغازهم تمارين ذهنية للصغير والكبير، واستمر الشعر لغة قوم لم تكن لهم لغة أبلغ منه، رغم غياب أو ضعف التدوين باستثناء ما وثقته الإذاعة الأمازيغية وبعض المهتمين. وظل أحيدوس العائلي تجسيدا لفرحهم المستمر في المناسبات العائلية، أو تحت ضوء الليالي المقمرة في الهواء الطلق عند نهاية الأشغال الفلاحية، لذلك يحرصون على تلقين قواعده للأجيال القادمة. ويواصل أحيدوس الاحترافي مسيرة شهرته داخل البلاد وخارجها.

عمومًا ورغم كل ما يقال عن دور الصدمة الاستعمارية والتغيرات الاجتماعية السريعة التي يعرفها المجتمع المغربي بعد الاستقلال، مازالت بلاد زيان محافظة على البنيات القبلية التقليدية التي تتجلى بشكل واضح خلال الانتخابات حيث تشتد العصبيات القبلية لدرجة لا يخلو معها السواد الأعظم من الدعايات الانتخابية من صراعات بالعصي والحجارة هنا وهناك.

ولعل أهم ما سجلته الأطروحة هو:

- تعدد المعالم الأثرية التي تبرز حجم مساهمة المنطقة في صنع تاريخ البلاد.
- دلالة التجمعات السكانية الزيانية العتيقة وتتوفر معظم شروط العمارة الإسلامية على حجم التنظيم الاجتماعي الإداري والسياسي الذي رافقها.
- يقدم تعدد الأضرحة والزوايا والطوائف الدينية بالمنطقة صورة عن التسامح الديني الذي ساد بالاتحادية، ويبرهن التنوع الاثني على حجم التعايش الاجتماعي على هذه الأرض.
- يبرز تعدد والقصبات والقلاع على أرضها حجم قوة الاتحادية التي صنفت٢٠ ضمن بلاد السيبة.
- تجسد كثرة القناطر والجسور التاريخية المكانة الاستراتيجية لمنطقة شكلت ممرا سلطانيا بين العواصم التقليدية.
- يساعد اختلاف مظاهر الإبداع في أنماط العمارة بين السهل، والدير، والجبل، على فهم التنوع الثقافي الذي تزخر به المنطقة.
- يعطي تعدد أشكال ومواقع وهندسة المخازن الجماعية فكرة عن التدبير الجماعي والعائلي والفردي للمؤن.

- تجاوز صيت بعض الحرف التقليدية الزيانية حدود البلاد، خاصة النسيج الزياني ذي التحف الفنية الرائعة التي تجسد تفوق المرأة الأمازيغية.
- صُنفت زيان أكبر قبائل العرف قبل الحماية، لتتخذه سلطاتها بعيد احتلال خنيفرة قاعدة لقوانينها العرفية في كل بلاد العرف.
- التزام معظم فلاّحي المنطقة بمعظم قواعد وحكم المنازل الفلاحية، التي تضمن حسن تدبير مراحل الموسم الفلاحي حتى اليوم.
- محافظة الانتجاع على معظم طقوسه وعاداته كالجز والخيام، رغم قيود الملكية الخاصة، تطور وسائل النقل، وتحول الخيمة سكن مناسباتي.
- حافظت الأسواق الأسبوعية والموسمية على مكانتها كملتقيات تختصر تاريخ وتراث القبائل، وفيها يرسم حاضرها ومستقبلها.
- استمرار مظاهر التكافل الاجتماعي عند زيان كلما دعت الحاجة لذلك.
- استمرار نظام "أكدال" في عدة القبائل كنظام فعال في تدبير المراعي، وعودة قبائل أخرى بالعودة إلى تطبيقه مع توالي سنوات الجفاف.
- نجاح الزيانين في ضمان استمرارية ملابسهم التراثية ومواكبتها لروح العصر مع الحرص على جعل ارتدائها في مختلف مناطق البلاد خلال مختلف الأعراس التي تشرف عليها مزينات محترفات.
- استمرار الوشم في كتابة رموزه الواضحة حينا والغامضة أحيانا، على الأعضاء البارزة من أجساد النساء والرجال والشباب، وإن تطورت الطرق والسائل والدلالات.
- كيف الزيانيون فن الحلقة مع أحزانهم وأفراحهم اليومية التي أنجبت فنانين كبار أمثال "لحسن أزايي". وشكلت ألغازهم تمارين ذهنية للصغير والكبير. وظل أحيدوس العائلي تجسيدًا لفرحهم المستمر في المناسبات، أو تحت ضوء الليالي المقمرة عند نهاية الأشغال الفلاحية، بينما يواصل أحيدوس الاحترافي مسيرة شهرته داخل البلاد وخارجها.

عمومًا ورغم كل ما يقال عن دور **الصدمة الاستعمارية** في التغيرات السريعة التي يعرفها مغرب ما بعد الاستقلال، مازالت بلاد زيان محافظة على البنيات القبلية التقليدية التي تتجلى بشكل واضح خلال الانتخابات حيث تشتد العصبيات القبلية لدرجة لا يخلو معها السواد الأعظم من الدعايات الانتخابية من صراعات بالعصي والحجارة هنا وهناك.

لكن يستوجب تثمين التراث الزياني القيام ببعض الخطوات أهمها:

- التعجيل بإحداث مندوبيتين للثقافة والسياحة ومفتشية للمباني التاريخية بإقليم خنيفرة، حتى يصبح للفاعلين محاور وشريك رسمي في مشاريع التثمين.
- إشراك ملاك العقارات والمعالم التراثية المعنية وجيرانها أفرادا أو جماعات في مختلف المشاريع التنموية.
- تشخيص وصيانة التراث المعماري الزياني بعقد شراكات مع هيئات ومنظمات دولية ومهندسين، ومؤرخين، وأركيولوجيين، ومقاولين ذاتيين، وجامعات، ومؤسسات خاصة لإنقاذ وترميم وكشف المغمور منه. وتمويل مشاريع مندمجة لتأهيله.
- إحداث ورشات للبحث والدراسات التقنية والتنقيب والترميم بالمواقع الأثرية، وداخل النسيج العتيق للمدينة القديمة وفق المعايير التقنية والعلمية. وتشوير وإنارة المواقع التاريخية والترويج لها بشراكة مع معهد الآثار والتراث.
- تفعيل مشروع بناء متحف تفاعلي للتاريخ والتراث الثقافي بالمنطقة
- رقمنة المخطوطات والكنانيش والظهائر المتعلقة بالمواقع الزيانية وتضمينها في "السجل الوطني للجرد".
- تكوين شباب في الحرف المهددة بالاندثار ودعم إحداث وورشات لتطويرها، وتخصيص سوق لائق بهذه المنتوجات وسط المدينة العتيقة.
- دعم البنية الطرقية بالمحاور الجبلية، وتحسين أسلوب التشوير والإرشاد لتحقيق العدالة المجالية
- تهيئة محطات للرياضات الجبلية والمائية، وإحياء نوادي للرماية الفروسية وإحداث مراكز للقنص، ومخيمات تابعة للشباب والرياضة، ومراصد لذاكرة الجبل. مع الحرص على تكوين المثقفين من أبناء الجبل كمرشدين سياحيين جبليين
- إنتاج برامج وأفلام وثائقية تعريفية بالتراث الزياني، وتقديمه في والتظاهرات الوطنية والدولية بشكل معقول ومقبول لا يطغى عليه الجانب الفرجوي.
- تنظيم تظاهرات ومهرجانات وأسابيع ثقافية تسهر على تدبيرها هيئات مستقلة عن التقاطبات السياسية وخلق شراكات وتوأمات مع مهرجانات أخرى.
- إشراك التعليم المدرسي والجامعي في التعريف بأدوار التراث الثقافي في التنمية بتدريسه في الجامعات الثلاث المجاورة ودعم البحث في هذا المجال.

في نهاية هذا العمل لا يدعي الباحث الإلمام بكل عناصر التراث الثقافي الزياني، وإن ما قام به محاولة مستمرة لنفض الغبار عن بعض جوانبه لم تتوقف بنهاية هذا العمل. وفتح ملفاته أمام باحثين من مشارب فكرية متنوعة لتحقيق التراكم المعرفي المطلوب لتثمين هذا الموروث.

ملف العدد
ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.3].

جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس في عصر المرابطين
من خلال أزجال ابن قزمان القرطبي



أ.د. كمال السيد أبو مصطفى
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية التربية – جامعة الإسكندرية
الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

تدور فكرة البحث حول كيفية الاستفادة من المصادر الأدبية في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للأندلس من خلال أزجال ابن قزمان القرطبي. وقد مهد للبحث بتعريف موجز بابن قزمان وملامح عصره والأهمية التاريخية لأزجاله. ثم عرضت بالتفصيل لجوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس خلال عصر المرابطين. فمن الناحية الاجتماعية تحدثت من خلال الأزجال عن البيوتات الأندلسية الشهيرة وملامح الحياة الأسرية، كالاحتفالات الأسرية وبعض المشكلات الزوجية والظواهر الاجتماعية وجوانب من الحياة اليومية والعادات والتقاليد ووسائل التسلية والأعياد الإسلامية والمسيحية، والملابس وأدوات الزينة والأطعمة. أما في الحياة الاقتصادية فقد أوضحت النشاط الاقتصادي مثل الزراعة وأهم المحاصيل الزراعية وكثرة البساتين في البوادي، وتربية الحيوان وبعض الصناعات وخاصةً صناعة المنسوجات وأصحاب الحرف والأسواق والمعاملات التجارية والعملة المرابطية وأثمان بعض السلع والنظم التجارية والضرائب وبعض المكاييل والموازين. وقد توصل البحث إلى أهمية الاستفادة من المصادر الأدبية عند دراسة التاريخ الحضاري خاصة التاريخ الاجتماعي بطبقة العامة التي قلما يتعرض لها المؤرخون القدامى في مؤلفاتهم التاريخية. حيث إن دراسة أزجال ابن قزمان القرطبي لا تقتصر قيمتها على الجانب الأدبي، بل تتعداها إلى العديد من المظاهر الحضارية، حيث أن أزجاله تعتبر مرآة لعصر المرابطين الذي عاش فيه وصورلنا بصدق بعض تجليات الحياة اليومية في المجتمع الأندلسي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ أغسطس ٢٠٢١
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ أغسطس ٢٠٢١

كلمات مفتاحية:

البيوتات الأندلسية؛ الاحتفالات والأعياد؛ الفساد الاجتماعي؛ أرباب الحرف؛ المعاملات التجارية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.21608/KAN.2021.251117

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كمال السيد أبو مصطفى، "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس في عصر المرابطين من خلال أزجال ابن قزمان القرطبي".- دورية كان التاريخية.- السنة الرابعة عشرة- العدد الثالث والخمسون؛ سبتمبر ٢٠٢١. ص ٢٤٥ – ٢٦٣.

Corresponding author: Facebook/kamal.abomostafa.140
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

التعريف بابن قزمان القرطبي (ت. سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) وملامح عصره

هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان المعروف بابن قزمان الأصغر تمييزًا له عن عمه وسميه ابن قزمان الأكبر، وهو من بيت قرطبيّ اشتهر بالعلم والنباهة والرياسة، ويبدو من اسمه أن أصول أسرته من عنصر المولدين[١]. وقد شهد ابن قزمان في بداية حياته نهاية عصر دويلات الطوائف في الأندلس، كما عاصر فترة حكم دولة المرابطين وأوائل عصر الموحدين، وعلى هذا يمكن القول بأنه كان شاهد عيان على أوضاع وحوادث عصر المرابطي، وخصوصًا عصر أمير المسلمين على بن يوسف المرابطي (٥٠٠-٥٣٧هـ/ ١١٠٦-١١٤٢م)، ولذلك حظىّ حكام المرابطين وكبار رجال دولتهم وقضاتهم بمديحه في العديد من الأزجال تقربًا إليهم من أجل المال والعطايا.

أما تاريخ مولده: فلم تحدده كتب التراجم، وإن كنا نرجح من خلال بعض أزجاله أنه وُلد بعد معركة الزلاقة الشهيرة (سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م) بقليل[٢]. وقد أشار الكثير من الأدباء ببراعة ابن قزمان في الزجل، ومن ذلك وصف ابن سعيد المغربي له بأنه "إمام الزجالين في الأندلس"، وجمع أزجاله في ديوان مشهور بالمشرق والمغرب يسمى "إصابة الأعراض في ذكر الأغراض"[٣].

ومن المعروف أن ابن قزمان عاصر فترة الازدهار والقوة لدولة المرابطين، خاصةً في عصر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (ت٥٠٠هـ/١١٠٦م) والفترة الأولى من عصر ابنه على، حيث بدأت الدولة بعد ذلك في التدهور والضعف بسبب ثورة الموحدين في المغرب بقيادة المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي سنة ٥١٥هـ /١١٢١م، ثم الصراع الحربي المستمر ضد مملكتي قشتالة (Castilla) وأراجون (Aragon)، علاوة على ثورات الأندلسيين ضد حكم المرابطين في نهاية عصرهم، وقبيل استيلاء الموحدين على الأندلس، ونتيجة لذلك كله اضطرت الدولة المرابطية إلى إثقال كاهل الرعية بالضرائب أو المغارم، مما كان له تأثيره السيء على الأوضاع الاقتصادية والمعيشية لطبقة العامة في الأندلس، كما انعكس ذلك على حياة ابن قزمان التي اتسمت بالاضطراب والتوتر والقلق الاجتماعي واتضح ذلك في العديد من أزجاله التي اشتكى فيها من سوء أحواله المعيشية[٤].

الأهمية التاريخية لأزجال ابن قزمان

لا تقتصر أهمية أزجال ابن قزمان على الجانب الأدبي فقط، بل تتعداه إلى الجوانب الحضارية وخاصة الاجتماعية والاقتصادية للأندلس خلال عصر المرابطين وتحديدًا في القرن ٦هـ/ ١٢م، حيث أن أزجاله تمثل الأدب الشعبي أو شعر العامية الأندلسية والتي استعان فيها بالعديد من الألفاظ الأعجمية أي الإسبانية القديمة المعروفة بالرومانسية.

وقد صور لنا ابن قزمان من خلال أزجاله بصدق وواقعية نبض الحياة اليومية في المجتمع الأندلسي بما فيها من أفراح واحتفالات وأحزان ومعاناة. فمن الناحية الاجتماعية ألمح ابن قزمان للكثير من البيوتات العريقة في الأندلس وخاصة في الحاضرتين قرطبة (Cordoba) وإشبيلية (Sevilla)، كما تعرض للحياة الأسرية ومشكلاتها اليومية، والملابس والأطعمة، والعديد من جوانب الحياة اليومية والظواهر الاجتماعية، والفساد الاجتماعي والمساوئ الأخلاقية في المجتمع الأندلسي خلال عصره. أما من الناحية الاقتصادية: فقد زودنا بإشارات تتعلق بالزراعة وتربية الحيوان والصناعات وأرباب الحرف والأسواق والضرائب والمعاملات المالية والتجارية، وكراء الدور وأثمانها علاوة على العملة وبعض المكاييل والموازين.

أولاً: جوانب من الحياة الاجتماعية في الأندلس

١/١-أهم البيوتات الأندلسية

أشار ابن قزمان من خلال أزجاله إلى العديد من البيوتات الأندلسية ومنها ما يلي:

بنو عبد البر[٥]: أحد بيوتات قرطبة الشهيرة، وأصلهم من موالي الأمويين في الأندلس[٦]، وقد امتدح ابن قزمان كرم أحد أفراد تلك الأسرة ويدعي أبا إسحاق بن عبد البر، ولقَّبه بالأمين والوزير[٧]، والمرجح أنه من الشخصيات المرموقة التي تولت أحد المناصب المالية والإدارية في عصر أمير المسلمين على بن يوسف المرابطي.

بنو أُبي: وهم من نبهاء الحاضرة قرطبة الذين عرفوا بالجاه والرياسة في عصر على بن يوسف، وذكر منهم: الوزير أبا سليمان ربيع بن أُبي، ووصفة بالجود والعلم والشجاعة وحُسن الخلق[٨]، والوزير أبا عامر بن أُبي الذي مدحه بعراقة نسبه وبراعته في الأدب والفقه[٩]. وهناك أيضًا ابن الحاج بن أُبي، وأشاد ابن قزمان بأدبه ورجاحه عقله[١٠]. ومن الملاحظ في مدائح ابن قزمان أنه يُلقب الكُتاب-عادة-بالوزراء، ويبدو أن هذا كان شائعًا خلال عصر المرابطين[١١].

بنو الزجالي: من بيوتات قرطبة العريقة، وينتمون إلى البربر البتر، وأصلهم من بلدة تاكرنا بجنوبي الأندلس[١٢]، وذاع صيتهم في الحاضرة قرطبة منذ القرن ٣هـ/٩م، في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد، وبرز منهم العديد من الكتاب الذين أُسندت إليهم خُطة الكتابة، ثم ارتقوا إلى الوزارة من أمثال محمد بن سعيد الزجالي وابنه حامد[١٣]. وألمح ابن قزمان إلى أحد أفراد بني الزجالي في عصر المرابطين ويُدعى أبا الوليد الزجالي، ولقَّبه بالوزير، وامتدح براعته في الأدب والفقه، علاوة على كرمه وإحاطته لبني قزمان بالرعاية والعطايا[١٤].

بنو رشد: وهم من البيوتات القرطبية المعروفة بالعلم والفقه ورياسة القضاء والمكانة المرموقة في عصري المرابطين والموحدين، وعلى رأسهم الفقيه القاضي ابن رشد الجَد[١٥]، وحفيده ابن رشد الحفيد[١٦]، وقد امتدحها ابن قزمان في بعض أزجاله، ووصفهما بالكرم والنزاهة والهمة العالية[١٧]، رغم علاقته المتوترة بالفقهاء والقضاة، لموقفهم المتشدد تجاهه وإنكارهم عليه انغماسه في حياة اللهو والمجون وشرب الخمر.

بنو الحاج: ينتسب بنو الحاج إلى أحد بيوتات، قرطبة الشهيرة التي برزت في الأدب والفقه، وقد أشار ابن قزمان إلى عدة شخصيات من تلك الأسرة منهم عبد الله بن الحاج، ونعته بالكاتب والوزير، وأنه ممن برع في الأدب والكتابة، ومدح كرمه وعراقة أسرته[١٨]، وكذلك أبي عبد الله بن الحاج[١٩](ت سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م) قاضي الجماعة بقرطبة في عصر علي بن يوسف الرابطي، وأشاد بعلمه وعدله وورعه[٢٠].

بنو حمدين: ينتمي بنو حمدين إلى قبيلة تغلب، وهم من أعيان ونُبهاء الحاضرة قرطبة، وأصلهم من بلدة باغة (Priego) من أعمال كورة قرطبة، وحظىّ العديد منهم بمديح ابن قزمان[٢١]، نذكر منهم أبا القاسم بن حمدين[٢٢]، قاضي الجماعة بقرطبة في عصر على بن يوسف، الذي وُصف في بعض الأزجال بأنه عماد الدين، واستعطفه لسوء أحواله المالية، واضطراره لمغادرة قرطبة هربًا من دائنيه، كما لم يغفل ابن قزمان القيام برثائه عند وفاته، وفاءً وعرفانًا لمواقفة الجليلة نحوه[٢٣]. كما ألمح إلى أخيه أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين بن محمد بن حمدين (ت سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م)، الذي تولى قضاء الجماعة بقرطبة عقب مقتل ابن الحاج سنة ٥٢٩هـ، وعندما اضطربت أمور المرابطين في الأندلس والمغرب نتيجة نشوب ثورة الموحدين، وخروج العديد من المناطق الأندلسية عن طاعتهم، وبدأت دولة المرابطين في الانهيار، ثار أبو جعفر بن حمدين ببلده قرطبة، ودُعي له بالإمارة وتسمى بأمير المسلمين المنصور بالله في ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، وامتدحه ابن قزمان بهدف الحصول على عطاياه، حيث وصفه بالكرم والشرف وعراقه النسب والعلم بأمور الدين والدينا، وأنه شرف الدولة وفخر الزمان[٢٤]. ولم يغفل ابن قزمان الإشارة في أزجاله إلى شخصية أبي عبد الله بن أبي القاسم بن حمدين (ت سنة ٥٠٨هـ) الذي تقلد أيضًا قضاء الجماعة بقرطبة، وامتدحه وأسرته واصفًا إياه بالكرم والجاه والأخلاق الكريمة وقوة العزيمة[٢٥]، كما حظيّ بالمديح أيضًا أبو الحسن بن حمدين[٢٦]، وأبو محمد بن حمدين وهما من أخوة أبي القاسم (سالف الذكر)[٢٧].

بنو أبي الخصال: أصلهم من قرية فرغليط (من أعمال حصن شقورة Segura) بكورة جيان (Jaen)، وبرز منهم أبو عبدالله محمد بن محمد مسعود بن أبي الخصال الغافقي الملقب بذي الوزارتين (ت سنة ٥٤٠/ ١١٤٥م)، كان كاتبًا لأمير المسلمين على بن يوسف، ووصفته المصادر بالبلاغة والعلم بالأخبار والآثار والسيّر والأشعار[٢٨]، ويضيف المراكشي أنه من أنبه الكتاب عنده وأكبرهم مكانة قبل تغيّره على أخيه أبي مروان عبد الملك بن أبي الخصال وكان من كتابه أيضًا لتجاوزه في إحدى رسائله إلى المرابطين من جند بلنسية (Valencia) إثر هزيمتهم في إحدى المعارك ضد النصاري الأراجونين[٢٩]، وقد امتدحهما ابن قزمان في بعض أزجاله[٣٠].

بنو الفرضي: وهم من بيوتات قرطبة الشهيرة، وامتدح منهم أبا علي بن الفرضي من أجل نيل عطاياه، فوصفه بالكرم والمآثر[٣١]، والراجح أنه من أعيان قرطبة، وذوي الثراء فيها، ولعله من نسل أو أحد قرابة الفقيه أبي الوليد بن محمد بن يوسف الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م) صاحب كتاب تاريخ علماء الأندلس[٣٢].

بنو شُهيد: موالي الأمويين، وأحد بيوتات قرطبة التي عُرفت بالعلم والجاه والرياسة وعلو المكانة طوال عصر الدولة الأموية في الأندلس، فمنهم عبد الملك بن أحمد بن شهيد جليس الأمير محمد بن عبد الرحمن الأسط ووزيره، كما استوزر الخليفة الناصر ابنه أحمد بن شهيد وكان أديبا شاعرًا[٣٣]، وهناك أيضًا شخصيات عديدة من بني شهيد نذكر منها أبا عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد (ت سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤-١٠٣٥م) الذي عاصر أواخر عصر الخلافة الأموية وبداية عصر الطوائف، وبرع أيضًا في الأدب والشعر، ويذكر ابن سعيد أنه كان منهمكًا في الجود حتى شارف الإملاق عند موته[٣٤]. وقد ألمح ابن قزمان إلى أحد فقهاء بني شهيد في عصر علي بن يوسف المرابطي دون أن

يحدد اسمه، وامتدحه ببعض الأزجال مستجديًا هباته أثناء فترة غلاء القمح والدقيق بالحاضرة قرطبة[٣٥].

بنو قزمان: من بيوتات قرطبة التي اشتهرت بالعلم والرياسة، وألمحت بعض المصادر إلى جدهم الأعلى ويدعى أبا الأصبغ عيسى بن عبد الملك، الذي خدم للمنصور بن أبي عامر حيث أسند إليه تأديب الخليفة هشام المؤيد بن المستنصر بالله[٣٦]. كذلك امتدح ابن قزمان عمه أبا بكر محمد بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان (المعروف بالأكبر)، الذي كان كاتبًا ووزيرًا للمتوكل بن الأفطس (٤٦٢-٤٨٨هـ/ ١٠٦٩-١٠٩٥م)، صاحب بطليوس (Badajoz) ووصفه في بعض أزجاله بالكرم وطيب الشمائل والفضائل[٣٧]، كما أشاد به ابن بسام، وذكر أنه من أهل البلاغة والبيان ولسلفه تقدم معلوم[٣٨].

بنو المناصف: من البيوتات القرطبية الشهيرة التي تميزت بالعلم والنجابة، وقد زودتنا المصادر بأسماء عدة أفراد من بني المناصف برزوا في عصر الموحدين منهم محمد بن عيسى بن المناصف الذي تولى خطة القضاء بمرسية Murcia، وبلنسية، وكان له أخوين أحدهما إبراهيم الذي كان من كبار الفقهاء ووليّ قضاء سجلماسة بالمغرب الأقصى، والآخر يدعي موسى بن عيسى بن المناصب، وكان شاعرًا بارعا، ومن أصحاب الخطط الإدارية في عصر الخليفة محمد الناصر الموحدي[٣٩]. وقد أشار ابن قزمان في أزجاله إلى أحد القضاة من بني المناصف ويدعي أبا عبدالله محمد بن أصبغ بن المناصف الأزدي (ت٥٣٦هـ وقيل ٥٣٩هـ/١١٤٤م)[٤٠]، الذي ولى قضاء الجماعة بقرطبة فترة طويلة في عصر علي بن يوسف المرابطي، وهو الذي أمر بسجن ابن قزمان (صاحب الديوان) لمجونة وانهماكه في شرب الخمر، واتهمه بالزندقة وإثارة الفتنة، وكاد يلقى حتفه بسبب تلك التهمة الخطيرة، لولا توسط الأمير المرابطي محمد بن سير بن أبي بكر بن تاشفين، فتم إطلاق سراحه[٤١].

بنو سراج: يذكر ابن سعيد أنهم من أعيان الحاضرة قرطبة ونبهائها، وجدهم الأعلى يدعى سراج بن قرة الكلابي- من صحابة النبي عليه الصلاة والسلام، وقد أصابهم في القدم سباء جعلهم في موالي بني أمية بالمشرق، ثم اتصلت نباهتهم في الأندلس يرثها خالف عن سالف مع عفة وكرم وعلوّ نفس وعدول عن خدمة الحكام[٤٢]. وبرز منهم في عصر الطوائف وأوائل عصر المرابطين أبو مروان عبد الملك بن سراج (ت ٤٨٩هـ)، ووصف بأنه مُحيي علم اللسان في الأندلس، سراج علم وأدب وبحر لغة ولسان العرب"، ويقصده طلاب العلم من كل جهات الأندلس[٤٣]. وحظي بنو سراج بمديح ابن قزمان، فوصف منهم أبا الحسين بن سراج بالكرم والبر والسخاء والعقل الراجح، متمنيًا له العيش الخصيب والحياة في نعمة وسرور[٤٤].

بنو مغيث: أمدنا الضبي بمعلومات وافية ضمن تراجمه عن بيت بني مغيث، ونوّه بنباهتهم وشهرتهم في الحاضرة قرطبة حيث تقلدوا خُطط القضاء والشورى، وذكر منهم الفقيه يونس بن عبدالله بن مغيث (ت ٤٢٩هـ)، قاضي الجماعة بقرطبة (عاش في أواخر القرن ٤، وأوائل القرن ٥هـ)[٤٥]، وأخاه الفقيه مغيث بن عبدالله (ت برصافة قرطبة سنة ٣٦٧هـ)[٤٦]، ثم أبا يونس مغيث بن يونس بن مغيث (ت سنة ٥٥٢ هـ) وهو الذي عاصر المرابطين وأوائل الموحدين وكان أحد الفقهاء المشاورين في قرطبة، وممدوح ابن قزمان في أحد أزجاله، حيث وصفه بالجود والشرف والزعامة وحاميه من نوائب الحياة[٤٧]، مما يدل على أنه ممن كانوا يعطفون عليه بالمال، ولعل ممن ينتسبون أيضًا إلى تلك الأسرة أيضًا الفقيه والموثق أحمد بن مغيث الطليطلي الذي كان عالما بالحديث والتفسير وعقد الشروط وله فيها كتاب "المُقنع في علم الشروط"، وتوفى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م[٤٨].

بنو زهر: من بيوتات إشبيلية العريقة التي عرفت بالجاه والنفوذ والثراء والنباهة والعلم، ويرجع نسبهم إلى قبيلة إياد العربية، وبرز منهم العديد في الخطط الإدارية والأدب والفقه والفتوى والطب. وجدهم الأعلى هو الوزير الطبيب عبد الملك بن زهر (عاش في القرن ٥هـ/١١م) رحل إلى المشرق ودرس الطب وتولى رئاسته ببغداد ثم مصر فالقيروان، إلى أن عاد إلى بلده الأندلس، فاستوطن دانية (Denia) في عصر الطوائف، وذاع صيته في جميع أنحاء الأندلس[٤٩]، وهناك أيضًا ابنه الوزير الطبيب أبو العلاء زهر بن عبد الملك (ت سنة ٥٢٥ هـ/ ١١٣١م)، الذي اشتهر أمره وازداد نفوذه بمدينته إشبيلية في عصر أمير المسلمين علي بن يوسف، فكان بمشورته يتم تولية الحاكم وصاحب المدينة وشهود البلد، ويتصرف في أملاك أمير المسلمين المرابطي بإشبيلية[٥٠]، ثم خلفه في المكانة ابنه الوزير الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر (ت سنة ٥٧٧ هـ/ ١١٦٢م)، صاحب كتاب "التيسير في الطب "وكتاب في الأغذية والأدوية)، وكتاب "الاقتصاد" في الطب[٥٠].

وقد أختص ابن قزمان الوزير الطبيب أبا العلاء بن زهر بمديحه في أكثر من موضع، وتقرب إليه بذلك، للحصول على عطاياه لثرائه الفاحش، ومكانته المرموقة في مدينة إشبيلية[٥٢].

بنو الزُهْري: وهم من بيوتات إشبيلية الشهيرة، ويفيد ابن قزمان أنهم من القرشيين من بني (زُهْرة)، ولذا كانت لهم مكانة متميزة خاصة في عصر علي بن يوسف المرابطي، وارتبطوا برباط المصاهرة مع بني زهر، فيذكر ابن عذاري أن الزهري، ويلقبه ابن قزمان بالوزير كان صهرًا وصديقا للوزير والطبيب أبي العلاء بن زهر، وتمتع بالجاه والنفوذ مثل صهره ابن زهر، إلى أن ساءت العلاقات بينهما، واشتكى كل منها الآخر عند أمير المسلمين على بن يوسف، فأحضرهما إلى الحاضرة مراكش، وأمر الزهري القرشي بسكناها، كما أنهى نفوذ ابن زهر بإشبيلية(٥٣). وقد اختص ابن قزمان الوزير الزهري القرشي بمديحه في بعض أزجاله، ووصفه بالكرم والشرف ومكارم الأخلاق استجداءً لهباته ومساعداته المالية(٥٤).

شخصيات أخرى من البيوتات الحاكمة والأعيان:

ألمح ابن قزمان في أزجاله إلى العديد من شخصيات البيوتات الحاكمة والأعيان في بعض الحواضر الأندلسية، ومنهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية في عصر الطوائف (القرن ٥هـ، ١١م)، ومن المعروف أن بني عباد ينتسبون إلى قبيلة لخم العربية، وكانوا من بيوتات إشبيلية الشهيرة(٥٥)، وقد امتدح ابن قزمان شجاعة ابن عباد في الحروب، وانتصاراته على أعدائه من أمراء الطوائف في الأندلس المنافسين له على النفوذ(٥٦).

كذلك أشار ابن قزمان إلى شخصيات من أمراء المرابطين وعلى رأسهم أمير المسلمين على بن يوسف، وبعض الأمراء والقادة الذين كان لهم دور كبير في عصره، من أمثال ابن عائشة (ويسميه في العامية الأندلسية عيشي قائد جيش المرابطين بشرق الأندلس)، ومزدلي الذي استرد بلنسية من أيدي القشتاليين ٤٩٥هـ/١١٠٢م، والزبير بن عمر اللمتوني والي قرطبة، وإليه تنسب منية الزبير، وأبي بكر إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن تيفلويت والي سرقسطة، ومحمد بن سير بن أبي بكر بن تاشفين-سالف ذكر- الذي توسط لإطلاق سراحه من سجنه، وقدمدحهم في أزجاله رغبة في عطاياهم، وتقربا إليهم(٥٧).

كذلك لم يغفل ابن قزمان مدح أحد أفراد بني جرج، (من بيوتات قرطبة الشهيرة) ويدعى أبا جعفر عبد الله بن جرج (ت ٥٧٥هـ) حيث استجدى مساعداته المالية في أزجاله واصفًا إياه بالكرم(٥٨)، ويضيف ابن سعيد أن ابن جرج هذا كان أحد الإعلام وفرسان الكلام في عصر الطوائف، وتولي الوزارة، لابن عمار الذي خرج عن طاعة المعتمد بن عباد واستقل بحكم بمرسيه(٥٩).

كما خص ابن قزمان بمديحه الكاتب أبا بكر بن سعيد ولقّبه بالمشرف الأجَّل، وهو المسئول عن الأمور المالية من إيرادات ونفقات ويضيف ابن سعيد أن أبا بكر كان صاحب الأعمال أي المشرف بغرناطة في عصر المرابطين(٦٠)، ومن ناحية أخرى تعرض ابن قزمان لبعض الشخصيات اليهودية التي برعت في علوم متعددة كالطب ، والفلسفة علاوة على شئون الجباية وأبرزهم إبراهيم من قُمنال الطبيب الإشبيلي الذي تولى جباية الجزية من يهود إشبيلية وكان على صلة وثيقة بأمراء المرابطين(٦١)، والطبيب الفيلسوف أبو الحسن يهودا التطيلي الذي استقر فترة بإشبيلية في عصر علي بن يوسف المرابطي والتقى هناك برفيقه ابن قمنال وقد مدحهما ابن قزمان وأشاد ببراعتهما في علم الطب(٦٢).

٢/١-الحياة الأسرية

أفادنا ابن قزمان من خلال أزجاله بالعديد من المعلومات القيمة عن الحياة الأسرية في الأندلس خلال عصر المرابطين، فأشار إلى ميل معظم الأندلسيين إلى المرأة الجميلة البيضاء والبدينة، غير أنه يُحذر من الانخداع بتلك المظاهر(٦٣)، وألمح أيضًا إلى جهاز العروس المسمى بالشوار، وكثرة الإنفاق على متطلبات الزواج من جانب أسرتيّ العروسين، ويضيف بأنه بمناسبة حفل العرس أو الزفاف تقام وليمة يشهدها الأهل والأقارب، وأثناء الحفل تجلس العروس وعلى رأسها تاج، وتحيط بها النساء من أسرتها وصديقاتها(٦٤).

كما تحدث ابن قزمان عن أحد الاحتفالات الأسرية، وهو الاحتفال بمولد الطفل، حيث كانوا يقومون في اليوم السابع من ولادته بتسميته وقص أول خصلة من شعره، ويتولى والده إعداد وليمة تسمى العقيقة، يدعو إليها الأهل والأقارب والأصدقاء(٦٥)، وأوضح أن الأب كان يرسل ابنه منذ سن مبكرة (سن التمييز فيما بين الخامسة أو السادسة) إلى أحد المكاتب (أو الكتاتيب) لحفظ القرآن الكريم على يد أحد المؤدبين نظير أجرة تسمى الحذقة ، تدفع عند ختم أو إتمام حفظ القرآن الكريم، علاوة على إرسال الهدايا إلى المؤدب في الأعياد والمناسبات الدينية(٦٦).

ومن المظاهر المعيشية للأسر الأندلسية التردد على الرَّحي لطحن القمح والحصول على الدقيق لصنع الخبز، حيث أنه من الأطعمة الرئيسية لديهم، وأضاف ابن قزمان أنهم كانوا يتبعون نظام النوبة عند الطحن، ويلتزم الجميع به، لتجنب حدوث المنازعات أو المشاجرات حول الأسبقية(٦٧)، ومن ناحية أخرى أوضح أن التعاون بين الجيران كانوا يسود معظم الأحيان،

فيشير في أزجاله إلى استعارة الحاجيات والأدوات المنزلية فيما بينهم(٦٨)، ونستنتج مما أورده أن أسر العوام كانت دائمة الشكوى من كثرة النفقات المعيشية وغلاء الأسعار، خاصة في أوقات القحط والمجاعات(٦٩)، كما يفيد بأن المؤن التي لا تخلو منها غالبية الدور الأندلسية تتركز في القمح أو الدقيق والزيت وقديد الحم والحطب (ويسميه في العامية فليق) والفحم(٧٠).

وحرص ابن قزمان من خلال أزجالة على عرض بعض المشكلات الأسرية أو الزوجية حيث أنه ممن عانوا منها مثل معظم العوام بسبب البطالة وقلة المال أو انعدامه، واضطراره إلى بيع بعض أثاث داره لمواجهة متطلبات المعيشة، وهذا أدى علاوة على إدمانه شرب الخمر ورفضه الإقلاع عنها إلى كثرة مشاجراته مع زوجته، وانتهى الأمر بالطلاق، وهو ما عبر عنه في بعض أزجاله(٧١)، كما ألمح إلى أن الكثير من المشكلات الأسرية لدى طبقة العامة ترجع إلى كثرة مطالب الزوجات من أزواجهن دون مراعاة لفقر الزوج أو ضيق ذات اليد(٧٢).

أما أثاث منزل الزوجية أو الدار حسبما ورد في بعض أزجاله كان هناك السرير، وأمامه ما يسمى عند العامة بالحنيَّة (وهي كالمخدع)، ويفرش على السرير الحصر أو لحاف من الصوف وكذلك المطرح (وهو نضيدة أي مفرش) والحنبل وهو نوع من الوطاء، وفي وسط الدار أي بالصحن توضع سجادة صغيرة للصلاة(٧٣)، ويضيف بأن من الأواني أو الأدوية المنزلية الطست والسطل الصغير (يسمى في الأعجمية أي الإسبانية القديمة القوبال) ويستخدما للوضوء، وهناك أيضًا السلال (في العامية الأندلسية قناج) والشير (أي سفط أوقفه)، والقنطبار (هي كلمة أعجمية أي الإبريق) والصحيفات والقلل والمحالب والقدور(٧٤).

ومن خلال أزجال أبن قزمان يمكن وضع تصور للدار الأندلسية، فمدخل الدار أو الباب له رتاج لإغلاقه يسمى في العامية الأندلسية طربشان (كلمة أعجمية الأصل) وهو عبارة عن عارضة خشبية قوية يُحكم بها إغلاق باب الدار من الداخل، ويلي ذلك أسطوان أي ممر ملتو – عادة- محافظة على الخصوصية، ويؤدي إلى فناء الدار (الصحن)، وفي وسطه يوجد شذوران (أي نافورة) تنبعث منها المياه أو بئر، وينفتح على الصحن عدة غرف (تسمى بيوت في المصطلح الأندلسي) منها غرفة للطهي وبها الكانون أو الفرن ويتم فيها أيضًا تخزين المؤن والأدوات المنزلية، وفي أعلى الدار توجد قصيبة (كلمة عامية) ويُقصد بها غرفة يُصعد إليها بدرج (تشبه العلية أو المصرية)، لها شراجيب أي نوافذ تشبه الشرفات يمكن أن تنظر منها النساء إلى الخارج أي الشارع، دون أن يراهن أحد من المارة وتسمى في الأندلس شمسيه (وفي مصر يطلق عليها مشربية)(٧٥).

٣/١-ظواهر اجتماعية وجوانب من الحياة اليومية

أمدتنا أزجال ابن قزمان بالعديد من الظواهر الاجتماعية وملامح الحياة اليومية في المجتمع الأندلسي وأهمها ما يلي:

ازدياد نفوذ الكتاب في عصر المرابطين، فكانوا من كبار الدولة، ولقبهم الشعراء والزجالون – غالبًا-بالوزراء، وتمتعوا بالجاه والثراء لارتباطهم الوثيق بالبلاط المرابطي، ولذا كانوا مقصدًا لابن قزمان الذي مدحهم في العديد من أزجاله لنيل أعطياتهم، من أمثال ابن أبي الخصال وابن عبد البر وابن أُبي وغيرهم(٧٦).

شهد العصر المرابطي أيضًا استمرار نفوذ الفقهاء المالكية وقضاة الجماعة بقرطبة، وكانت لهم مرموقة في الدولة، وتمتعوا بالهيبة والتبجيل في نفوس الرعايا، ونعموا بالثراء وعاشوا حياة مترفة رغدة، وكانوا من المقربين لدى أمير المسلمين على بن يوسف، وعلى رأسهم القاضي ابن رشد(٧٧)، ويفيد ابن قزمان بأنه كان يخشى جاره الفقيه، الذي ينكر عليه دائما شربه للخمر وانغماسه في حياة اللهو والمجون والملذات(٧٨).

يتضح من خلال بعض الأزجال أن الشائع في الحاضرة قرطبة جلوس القاضي في داره نهارًا للنظر في المناكح (أي قضايا الزواج) والمواريث والأحباس والديون والغصب وأموال الأيتام والجنايات، مما يدل على مدى اتساع صلاحيات القضاة وسلطتهم ونفاذ أحكامهم والحرص على إقرار العدالة بين المتقاضين(٧٩)، عكس ما حدث في نهاية عصر الطوائف وقبيل التدخل المرابطي من انعدام الأمن وانتشار الفوضى خاصة في البوادي، وعدم سريان الأحكام، لضعف الرقابة على سلوكيات الأفراد، في ظل انشغال السلطة المركزية في حواضر أمراء الطوائف بخطر الممالك الإسبانية المسيحية، الذي كان سببًا للتدخل المرابطي في الأندلس.

من الظواهر التي عبر منها ابن قزمان في بعض أزجاله والتي ظلت راسخة في الذاكرة الشعبية الأندلسية لفترة طويلة من الزمن، ذكرى انتصار المرابطين، بقيادة يوسف بن تاشفين على النصاري القشتاليين في معركة الزلاقة (Sacrajas)، الشهيرة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، وفي معركتي أقليش (معركة القوامس السبعة Batalla de los siete condes) سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م،

وإفراغه (Fraga)على نصارى أراجون سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م في عهد علي بن يوسف المرابطي[٨٠].

رصد ابن قزمان من خلال بعض أزجاله ظاهرة التنافر الاجتماعي بين الأندلسيين والبربر المغاربة باعتبارهم وافدين عليهم من المغرب، ولذا كانوا ينظرون إليهم بنظرة الشك، ويتهمونهم بعدم الوفاء بالعهود[٨١].

نستنتج من خلال أزجال ابن قزمان وجود ظاهرة التصدق على مرضى الجذام والأرامل، ومساعدتهم على تحمل أعباء المعيشة، والتخفيف من معاناتهم[٨٢]، علاوة على كثرة الأحباس أو الأوقاف على المحتاجين، مما أسهم في تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي بين المسلمين[٨٣].

ألمح ابن قزمان إلى ظاهرة قيام ذوي الحاجة بطلب المساعدة من الأثرياء عن طريق التسول، والذهاب إلى دورهم واستدرار عطفهم لتقديم العون المادي لهم، من أجل توفير قوت يومهم[٨٤]، حيث عانى معظم العامة- من بينهم صاحب الديوان- من الفقر وانعدام المؤن في دورهم في أحيان كثيرة، فهو يذكر في أحد أزجاله أنه تأتي عليه أوقات لا يجد في داره الدقيق لصنع الخبز أو الزيت أو الحطب وهي مؤن أساسية لكل دار[٨٥]، كما سجل أيضًا هموم العامة وخشيتهم من حدوث القحط أو الجفاف وغلاء الأسعار، في ظل توالي أيام الصحو، وعدم سقوط المطر[٨٦].

نلمس من خلال أزجاله أيضًا ظاهرة اجتماعية تختص بالمحيطين به أو غيره من الناس حيث أنها من الطبائع البشرية، فيذكر أن منهم الصديق المخلص مثل صديقه الثري ويدعي جوهري وآخرين كابن شراحيل وعمر الذين يسرون لسرور صديقهم، ويساعدونه في المحن، ولكن من بين المحيطين به أيضًا يوجد الحسود الحاقد[٨٧].

من المشاهد المألوفة في الحياة اليومية في قرطبة والتي سجلها ابن قزمان في بعض أزجاله مشهد صلب أحد المذنبين ممن يقام عليهم حد القصاص في الرحبة أمام المسجد الجامع أو في أحد الأماكن العامة، أو معاقبته بربطه في سارية وضربه بالفليقة (وهي عارضة خشبية) عدة مرات تأديبًا له[٨٨]، وذلك في حالة السُكر والعربدة.

من مظاهر الحياة اليومية في الحواضر الأندلسية، التي تحدث عنها ابن قزمان تجوال الأعوان أو الحرس من المرابطين (البربر) في شوارع المدن وطرقاتها وبأيديهم رماح قصيرة يطلقون عليها في لغتهم الأمازيغية أكزال[٨٩]، رغم تحذير المحتسب ابن عبدون من ذلك، في سياق حديثه عن مدينته إشبيلية، فيقول:

"يجب ألا يمشي أحد في المدينة بسلاح فإن ذلك داعية إلى الفساد ولا سيما البربر..." [٩٠].

من مظاهر الحياة اليومية التي أشار إليها أيضًا حدوث مشاجرات بين البعض، والتي تسفر أحيانا عن جروح خطيرة تُسأل منها الدماء، وهي التي يطلق عليها اصطلاحًا في كتب الفقه والنوازل اسم "التدمية" وكان على الجريح أو المصاب أن يلجأ إلى أحد كُتاب الوثائق ليكتب له وثيقة تدمية يُحدد فيها اسم المعتدي ويشهد عليه بعض الشهود العدول، وذلك ليكون من حق أهله المطالبة بالقصاص في حالة وفاته نتيجة لما حدث له[٩١].

ظاهرة الحب أو العشق في المجتمع الأندلسي، ألمح ابن قزمان في العديد من أزجاله إلى ظاهرة الحب أو العشق في أوساط المجتمع الأندلسي، مثلما تحدث عنها قبله الفقيه والفيلسوف ابن حزم القرطبي في القرن (٥ هـ/ ١١م)، وقد اختص ابن قزمان تلك الظاهرة باهتمامه في العديد من أزجاله، وأورد مثالاً لذلك في بداية الديوان لخاله ويدعي الأخطل بن نماره، وكان زجالاً أيضًا قبيل عصره، واشتهر بميله الشديد للعشق أو الغرام[٩٢].

كما أشار ابن قزمان أيضًا في أزجاله إلى عشقه العديد من الجواري مثل أم الحكم التي تغزل فيها، وأخرى تدعى ثريا وكذلك زُهرة (في العامية زهر) ومريم وأم سعد وعائشة (عيْشي في العامة الأندلسية)، علاوة على يهوديات مثل أليفة ونجيمة[٩٣]. ويضيف بأن الفرصة كانت تسنح للحبيب لرؤية محبوبته أثناء الأعياد والاحتفالات أو عند البروز أي استعراض الجيش سواء قبل الخروج للجهاد ضد النصارى الإسبان أو عند العودة منتصرًا على أعدائه، كما ألمح إلى تبادل الرسائل والهدايا بين المحبين، والجلوس أحيانًا مع محبوبته بعيدًا عن أعين الرقباء، وأنه كان يتحايل من أجل لقائها مرتديًا زيًا غريبًا، وعدة أدوات للتنكر بناءً على طلبها، ومن ذلك استخدام منديل الخبز (أي الملاءة التي يغطي بها الخبز)[٩٤].

ومن ناحية أخرى، تحدث ابن قزمان من خلال بعض أزجاله عن آلام الهوى التي يعانيها الحبيب عند وقوعه في الحب، حيث لا يمكنه كتمانه، وأن هناك من يسعى للتفريق بين الحبيبين كالواشي والنمّام والعازل، وأنهم لا يقولون إلا القول الباطل من أجل تحقيق هدفهم وأحيانا ينجحون في ذلك[٩٥].

٤/١-العادات والتقاليد

أمدنا ابن قزمان بالعديد من المعلومات القيمة عن الكثير من العادات والتقاليد الأندلسية في عصره (القرن ٦هـ/ ١٢م)

ومنها: أنهم يقولون للمسافر عند توديعه متمنين له النجاح في رحلته بعض العبارات والألفاظ مثل "يهنيكم يهنيكم، وعن قريب نجيكم"، "وسعادة"، "ومر بعد يا سعيد"، "وموفق"، "وجي بعد تيسير. وعند العودة بعد غياب يقولون: "الحمد لله على السلامة"، أما عندما يلتقي شخص بآخر فيحييه بعبارة: حياك الله"(٩٥).

كذلك كان من عاداتهم ومعتقداتهم الشعبية شعورهم بالتشاؤم من تحويل الملابس عند ارتدائها، ومن رؤية الغراب وسماع صوته، أو عند رؤية القرد لأنه في زعمهم دليل على النحس، واعتقادهم أن الجنون سببه حصوة في مؤخرة الرأس، وأن دود القز أو الحرير يفزع عند سماعه صوت الرعد، ويتسبب في موته(٩٧). ومن عادات الأندلسيين أيضًا السماح للفقراء وذوي الحاجة من العوام بقطف بعض ثمار الفاكهة من تين وعنب وغير ذلك-عند نضجها. آخر كل يوم من أيام جنيّ الثمار على سبيل الصدقة(٩٨)، ويضيف ابن قزمان أنه عند الحصاد اعتاد الأندلسيون إقامة "الخباء" أي كوخ يتم نصبه ليجلس فيه حارز لحراسة المحصول أو الثمار خوفًا من اللصوص(٩٩)، كما كانوا يتخذون الكلاب لحراسة الدور ليلاً، وقد لاحظ ذلك بنفسه أثناء زيارته أحد أصدقائه بمدينة جيان(١٠٠).

ويفيدنا ابن قزمان باعتياد الأندلسيين الاعتماد على البغال عند الرحلة للتجارة أو تفقد ضياعهم وأراضيهم الزراعية بالبادية، وقيام بعض الشباب في المناسبات بركوب الجحوش (صغار الحمير) على سبيل الفكاهة والمرح والمزاح(١٠١). ونستنتج من بعض الأزجال أنه عند غلاء الأسعار اعتاد العوام اللجوء إلى الفقهاء والصالحين بالبلدة للشكوى من سوء أحوالهم ومعاناتهم، وخاصة عند غلاء القمح والدقيق لانعكاس ذلك بصورة مباشرة على أوضاعهم المعيشية والحصول على الأقوات الضرورية(١٠٢).

وأوضح أيضًا أن عادة المرابطين خاصة الطبقة الحاكمة والقادة والحرس أو الجند ارتداء اللثام على الوجه بحيث لا تظهر إلا العين وهو لباسهم المميز، وقد حرص ابن قزمان في بعض أزجاله على مدح لثام المرابطين تقربًا إليهم، وللحصول على أعطياتهم(١٠٣). ويضيف بأن من العادات في عصره نزول الجند بدور الرعية خلال زحفهم للغزو والجهاد في سبيل الله، وقيام أصحاب تلك الدور بضيافتهم وأعاشتهم أثناء ذلك(١٠٤)، وأشار إلى أن الجند عند اشتباكهم في معركة ضد النصارى الإسبان، كان المعتاد الصيحة معًا بالصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وباسم على بن أبي طالب تبركًا ببلائه في الجهاد وشجاعته في مواجهة المشركين(١٠٥).

ويتضح عن بعض الأزجال أن من عادة نساء الأندلس إطلاق البخور في الدور(١٠٦)، وأنهن عند قيامهن بتنظيف الملابس من الأقذار يطأنها بأقدامهن، والضرب عليها بمطرقة على شاطئ الوادي عوضًا عن الصابون(١٠٧)، واعتدن أيضًا صنع الكعك وغيره من أنواع الحلوى عند قدوم الأعياد(١٠٨). كما اعتاد الكثير من الأندلسيين تصفيف شعرهم أو الفصد لدى الحجام الذي يتمركز – غالبًا- في أحد الحمامات العامة، حيث ألمح ابن قزمان في أحد أزجاله إلى عجزه ذات يوم عن دفع أجره الحجام بسبب افتقاره إلى المال(١٠٩). وكذلك كان من عادة الأثرياء اتخاذ خادمة للقيام بالأعمال المنزلية، وتخفيف الأعباء عن الزوجة، فيذكر ابن قزمان أن بداره خادمة تدعى زاد المال(١١٠).

ومن ناحية أخرى أفاد ابن قزمان أن من عادة الشعراء والزجالين الإكثار من مدائحهم للأثرياء وأفراد طبقة الخاصة وكبار رجال الدولة عند قدوم الأعياد، للحصول على هباتهم أو هداياهم فيفيد أنه استلم هدية من أحد ممدوحيه الأثرياء مساء يوم العيد(١١١). ويذكر أيضًا أنه من عادة الكثير من الأندلسيين المزاح والعربدة أثناء معاقرة الخمر، ووصولهم إلى حالة السُكر، فكان من مزاحهم قذف بعضهم البعض بثمار الفاكهة والأواني أو طليّ البعض بالزفت أونثر ريش الطيور عليهم وأحيانًا تمزيق الثياب(١١٢).

١/٥-وسائل التسلية

أمدنا ابن قزمان بالعديد من الإشارات التي تختص بوسائل التسلية عند الأندلسيين، ومن أهمها مجالس الأنس والطرب والشراب والتي يطلق عليها اسم "السمرة"، وكان هو نفسه مشاركًا فيها مع ندمائه أو أصدقائه وبعض الجواري حيث يعكفون على شرب الخمر والرقص والغناء بعيدًا عن رقابة الفقهاء أو السلطات في الحاضرة قرطبة أو إشبيلية، وكانت معظم تلك المجالس تعقد في البساتين بالبادية خارج الحاضرة(١١٣)، ومن أمثلة ذلك حضوره مجلس أنس وشراب في بستان لابن سراج- سالف الذكر- أحد أدباء وأعيان- قرطبة(١١٤)، وأحيانًا كان مجلس الأنس والشراب يتم في أحد الحمامات(١١٥)، ويتخللها- غالبًا- الغناء والرقص، ويشهدها بعض المخنثين الذين يقلدون النساء في أصواتهم وحركاتهم من أمثال قُرة وقُنبر(١١٦).

كذلك كان من وسائل التسلية الخروج في نزهة ريفية لأحد المتنزهات بصحبه بعض الأصدقاء مثل متنزه الغُرُوس أو الخليج على ضفات الوادي الكبير قرب إشبيلية[١١٧]، أو متنزه حوز مُؤَمَّل بغرناطة[١١٨]، ويضيف ابن قزمان أنه من الشائع قيام أحد الأعيان من كبار التجار الأثرياء بدعوة أصحابه للخروج في نزهة بمناسبة الأعياد، ويتولى الانفاق عليهم من طعام وشراب[١١٩]، ويتخلل ذلك الرقص والطرب والضرب على العود والطبل والدف وغير ذلك من آلات الموسيقى والغناء[١٢٠].

وأوضح ابن قزمان من خلال بعض أزجاله أن من وسائل التسلية أيضًا لعبة الشطرنج[١٢١]، ولعبة الخُمَيْسَة[١٢٢] (وهي تشبه الشطرنج ولكنها أسهل منها في طريقة اللعب). كذلك هناك حلقات (يسميها ملاعب) للمهرجين أو الملهين والحواة ولعبة القلياني (خيال الظل)، وتتمركز في الأسواق والرحبات أو الميادين والأماكن العامة، ويتجمع الناس من حولها للتسلية ومشاهدة ألعابهم البهلوانية، كما يضحكهم القُلياني أو المهرج بملابسه الغريبة الممزقة، وتقليده لأحد القرويين عند زيارته للحاضرة لأول مرة، وكل تلك الوسائل من أجل تسلية الحضور والحصول منهم على بعض النقود[١٢٣]. ومن ناحية أخرى زودنا ابن قزمان بإشارة قيمة ونادرة تتصل بإحدى الألعاب المسلية للأطفال والمعروفة لديهم بالدجاجة العمياء (وتشبه ما يعرف في مصر بالاستغماية)، وكانت تمارس خاصة في الاحتفالات والأعياد من أجل التسلية واللهو[١٢٤].

١/٦-الاحتفالات والأعياد

تحدث ابن قزمان عن العديد من الاحتفالات والأعياد في الأندلس سواء الإسلامية منها أو المسيحية، والتي شارك فيها المسلمون جيرانهم من النصارى المستعربين (المعاهدة) في أعيادهم والتي تدل على مدى التسامح والود الذي ساد العلاقات بين الطرفين منذ عصر الدولة الأموية.

وفيما يختص **بالأعياد الإسلامية**: أشار إلى عيد الفطر في أزجال قليلة، موضحًا أنه مع غرة شهر شوال يبدأ المسلمون في الاحتفال بهذا العيد ويرتدون الثياب الجديدة ويعمهم السرور، غير أنه مما يؤثر على فرحتهم، خصوصًا العوام منهم الغلاء في بعض السلع الذي يعاني منه الفقراء[١٢٥]، ويذكر مثلاً لذلك وهو رغبته في شراء ثوب جديد مبطن بالفراء يسمى "المحشو"، ولكنه لم يستطع لعدم توفر المال، حيث أن احتياجات العيد عديدة كالدقيق وأنواع الحلوى وغيرها، مما يصعب على العامة توفيرها[١٢٦].

أما عيد الأضحى فقد أفاض ابن قزمان في الحديث عنه، فألمح إلى الاستعدادات التي تتم قبيل الاحتفال به، وأنها تبدأ طوال الأيام العشرة السابقة عليه، مثل شراء الثياب الجديدة، ومن المظاهر أيضًا ازدحام الأسواق والطرقات بالنساء لشراء احتياجاتهن وعلى رأسها الدقيق والفاكهة المجففة كاللوز والجوز، والفاكهة الطازجة مثل الرمان السفري[١٢٧]، التوافد على حوانيت العطارين لابتياع الطيب والحناء وأنواع التوابل[١٢٨]. ويضيف بأن من الأعباء التي تقع على كاهل رب الأسرة ضرورة شراء كبش لأضحية العيد، حيث يحرص على ذلك كافة الناس بما فيهم الفقراء، بهدف إدخال البهجة والسعادة على أطفالهم[١٢٩]، كما أن عليهم أيضًا تجهيز القدور والصحاف والمحالب وغيرها من الأدوات المنزلية[١٣٠].

كذلك يشير ابن قزمان إلى أن تجار الماشية يبدأون وقبيل العيد في عرض ما لديهم من كباش الأضحية في الشوارع والطرقات الفسيحة، علاوة على وجود حظائر يسميها زرايب مخصصة لهذا الغرض خارج أسواء المدن، ويقوم المشترى بالتنقل بين بائع وآخر، للبحث عن الأفضل والأقل سعرًا، والمساومة قبل الشراء[١٣١]. كما كان من مظاهر الاستعداد للعيد تجهيز الأفران في الحارات والشوارعَ لتشويط رؤوس الكباش أو الأغنام لتجهيزها للطهي، حيث تزدحم تلك الأفران بالناس صباح يوم العيد[١٣٢].

ويتضح من خلال الأزجال أن الناس يستيقظون مبكرًا في صباح يوم العيد، لأداء الصلاة في المصلي الواقع في مكان واسع خارج الأسوار، حريصين على ارتداء الجديد من الثياب، والتطيب وركوب الدواب، وبعد أداء صلاء العيد يتجهون إلى المقابر للترحم على موتاهم[١٣٣]، ثم يقومون عقب ذلك بالعودة إلى دورهم لذبح أضحياتهم إما بأنفسهم أو بالاستعانة بأحد الجزارين، وعقب ذلك تبدأ كل أسرة في إعداد أطعمة من لحم الأضحية خاصة المشوي والثريد[١٣٤]. وكان من الشائع لدى الأندلسيين ادخار جزء من لحم الأضحية للاستفادة منه وقت الحاجة عن طريق تقديده أو تمليحه ثم تدخينه ليظل صالحًا للأكل لفترة طويلة[١٣٥].

أما **الأعياد المسيحية**، فقد تحدث ابن قزمان عن العديد منها وخاصة عيد يناير (رأس السنة الميلادية) في بداية كل عام جديد، وأوضح مدى الحاجة إلى توفر النقود عند قدوم هذا العيد، لشراء الاحتياجات التي تبهج الأبناء مثل الفاكهة الجافة والطازجة وإعداد الحلوى خاصة الكعك، وشراء الملابس الجديدة[١٣٦].

كما ألمح إلى عيد العَنْصَرة أو المهرجان (يسمى عند الإسبان عيد سان خوان San Juan أي ميلاد النبي يحيى عليه السلام)، وكان الأندلسيون يحتفلون به في ٢٤ يونية، واعتادوا فيه شراء المجبنات واللعب بالمقارع والعصى في الشوارع والرحبات[١٣٧]، وعلاوة على ذلك أشار إلى عيد النيروز أو النوروز[١٣٨]، ويمثل رأس السنة الشمسية عند الفرس، وهو عيد فارسي قديم، واحتفل به الأندلسيون وقت الاعتدال الربيعي في ١٧ مارس حيث كانوا يتهادون فيه، ويتبادلون التهنئة[١٣٩].

ومن الاحتفالات المحلية التي أشار إليها ابن قزمان، وحرص عليها الفلاحون في البوادي الأندلسية، الاحتفال بالعصير، وهو موسم جني ثمار العنب والزيتون، حيث كانوا يقيمون عدة أيام في البساتين والحقول لجمع المحصول في جو ملئ بالبهجة والغناء الرقص[١٤٠].

١/٧-الملابس والزينة

نستنتج من خلال الأزجال وجود نوعين من الملابس، إما المستعملة ويسميها العامة الصبري، أو الجديدة ويطلقون عليها البداري[١٤١]. والحقيقة أن ابن قزمان زودنا بمعلومات قيمة وتفصيلية عن الملابس الأندلسية خلال عصر المرابطين (القرن ٦هـ/١٢م) وبعض أسمائها عند العامة، فمن ملابس الرجال المحشو وهو كساء مبطن بالفراء (مثل وبر السمور أو فراء القنلية) ويُقبل عليه الأثرياء في الأعياد، وهناك أيضًا البيرون (يشبه البُرنس) ويعرف أيضًا بالفوقية والتي تلبس فوق الجلباب، والثوب المعروف بالقباطي ويصنع من نسيج مصريّ الأصل شاع في الأندلس[١٤٢]. وعلاوة على ما سبق هناك البرنس[١٤٣]، والغفارة[١٤٤] والسروال[١٤٥] والقميص الأبيض[١٤٦] والكنبيط[١٤٧] والقنزع[١٤٨] والفحول[١٤٩] والعمائم الدبيقية[١٥٠].

أما ملابس النساء: فأورد منها الرداء والقباء (وهو رداء واسع وطويل يرتديه الرجال أيضًا) والظهارة (وهي جلباب أبيض يُلبس صيفا) والقميص والبرنس المقنع[١٥١]. وقد أمدنا ابن قزمان بوصف لزيّ محبوبته، فذكر أنها كانت ترتدي الخُلدي الرماني الذي يلبس تحت القميص، وفوقه ثوب من الديباج الرقيق، بينما كان غطاء الرأس عبارة عن قماش رقيق من الحرير يسميه العامة "البنيقة"[١٥٢].

ومن ناحية أخرى لم يغفل ابن ابن قزمان الإشارة إلى معمل أو مصنع أهلي للمنسوجات يسميه العامة "إقامة"[١٥٣]، كان يُنسج به عدة أنواع من الأقمشة الحريرية مثل الطبري والأصبهاني واللاس أو اللاذ[١٥٤]، وهي منسوجات مشرقية الأصل شاعت في الأندلس واشتهرت بها مدينة المرية".

ونستنتج من بعض الأزجال تأنق الأندلسيين في ارتداء ملابسهم والحرص على تناسق ألوانها، فالثوب الأزرق أو السماوي كانوا يختارون له غفارة تناسبه خضراء اللون[١٥٥].

أما لباس القدم: فكان من الشائع لدى الأندلسيين-حسبما ذكر ابن قزمان إنتعالهم الأقراق[١٥٦]، وهي نعال خفيفة كانت تصنع من القُرق أي الفلين كذلك هناك إشارة إلى حذاء للسفر يسميه العامة بالأعجمية (أي الإسبانية القديمة) إلتماق، ويلبسونه خاصة في فصل الصيف[١٥٧].

ومن ناحية أخرى، أفادنا ابن قزمان ببعض وسائل الزينة في عصر المرابطين ومنها تقلد النساء الحليّ، حيث أوضح أن من بينهما ما يسمى عند العامة "عمارة" (وهي أقراط الأذن)[١٥٨]، كذلك كن يخضبن أيديهن بالحناء، والتطيب بالمسك والعنبر، ويقمن أحيانًا بتضفير شعورهن أو تركة مسدولاً على أكتافهن[١٥٩].

١/٨-الأطعمة

تحدث ابن قزمان من خلال أزجاله عن العديد من الأطعمة ومسمياتها عند العامة (وبعضها تُسمي بأسماء أعجمية)، ويأتي الخبز في مقدمة الأطعمة الأندلسية حيث أنه من الأغذية الرئيسية على المائدة وكان على عدة أنواع منها:

خبز المدهون: وكان يصنع من أجود أنواع الدقيق، وهو الدرمك الأبيض، مختلطًا ببعض النخالة، ولعله كان يدهن بزيت الزيتون[١٦٠].

الخبز المحمص: وتسميه العامة "طشطون"، وهو الخبز الذي يوضع بعد نضجه لبعض الوقت في الفرن من أجل تحميصه[١٦١].

الخبز المحزز (أي ذي حزة): وهو عبارة عن قطعة طويلة من العجين تلوى بها الخبزة، ويعتبر من أفضل أنواع الخبز[١٦٢].

خبز الذرة: وهو من دقيق الذرة، ويميل إلى الاسمرار وكان شائعًا لدى العوام[١٦٣].

وعلاوة على ما سبق هناك الخبز الذي تسميه العامة "لبطه" أو اللبطة[١٦٤]، وكان يصنع من عجين مختمر، ويتم إنضاجه إما في التنور داخل الدار أو بأحد الأفران بالسوق[١٦٥].

ونستنتج من الأزجال أن الأندلسيين شغفوا بالفطائر[١٦٦]، وهي تُصنع من عجين دون تخمير، ومنها فطائر تسميها العامة "الفُلار" وهي من الفطائر الرقيقة[١٦٧].

وكان يصنع من دقيق القمح أيضًا "الأغرثون"[١٦٨] (وهي كلمة في العامية الأندلسية) وهذا الطعام عبارة عن عصيدة من الدقيق باللبن[١٦٩] أو من جشيشه القمح باللبن وتسمى

"بلياط"[١٧٠]، أما دقيق الدرمك ناصع البياض، ودقيق السميد فكان يصنع منهما عدة انواع من الحلوى التي برع فيها الأندلسيون، ويقبلون عليها خاصة في الأعياد مثل الكعك والغزلان وهي من الحلوى المرزبانية المعروفة لدى العامة باسم "البجماط"، وأيضًا الحلوى المعروفة ب "جُوذَبَاه" أو جُوذاب"[١٧١].

وألمح ابن قزمان إلى نوع من الثريد[١٧٢]، يُعد من لحم الخراف وجبن طري وزبد وفتات الخبز وزيت الزيتون والتوابل مثل الكزبرة[١٧٣]، كما شاع لدى الأثرياء خاصة في الأعياد تناول لحم الخراف المشوي والمحشو باللوز[١٧٤]. وأشار أيضًا إلى طعام يتناولونه أحيانًا في الغداء يتكون من اللحم والبقول[١٧٥]، وآخر قوامه الفول يسمى "البيصار" أو "الفيسار"[١٧٦].

أما اللحوم فكانوا يعدون منها عدة أنواع خاصة من لحم الضأن حيث شاع لدى الأندلسيين شوي قطع اللحم بالزعفران، وذلك باستخدام السفود، وهي أعواد من الحديد تُنظم عليها قطع اللحم[١٧٧] (تشبه ما يعرف في مصر بالكباب)، كذلك تناول اللحم المقدد أو المدخن بعد تمليحه[١٧٨]، كما تناولوا لحم الأبقار وإن كان بشكل محدود[١٧٩]. كذلك ألمح ابن قزمان إلى طعام يسمى عند العامة "غرنوق"، وهو يُجهز من رئة الذبيحة إما مشوية أو مقلية[١٨٠]، ومن ناحية أخرى ألمح إلى بعض أنواع الحوت (الأسماك) مثل السردين والبوري وطعام من الحوت المقلي[١٨١].

وفيما يختص بالفاكهة التي كانت تحفل بها المائدة الأندلسية، فقد تحدث في أزجاله عن الرمان السفري والخوخ والتين والعنب، والتفاح، وكذلك الفاكهة الجافة مثل اللوز والجوز والصنوبر والبلوط وغيرها وكانوا ينزعون عنها قشورها ويطلقون عليها اسم "أنقال"، ويتم تناولها في أغلب الأحيان أثناء شرب الخمر في مجالس الأنس والشراب[١٨٢].

٩/١-بعض مظاهر الفساد الاجتماعي والانحلال الأخلاقي

لم يغفل ابن قزمان الإشارة في أزجاله إلى بعض مظاهر الفساد الاجتماعي والانحلال الأخلاقي في المجتمع الأندلسي خلال عصره ومنها التغزل بالغلمان، وكانت تلك الظاهرة منتشرة قبل عصره أي منذ عصريّ الدولة الأموية والطوائف، ولا شك في أنها أكثر شيوعًا في مجتمع الخاصة، حيث حياة الترف والمتعة واللذة التي تصل إلى حد الشذوذ، وعدم الالتزام بالقيم الدينية أو الأخلاقية. وقد تحدث في أحد أزجاله عن عشقه أحد الغلمان ويدعي إبراهيم، وأنه كان دائم التفكير فيه سواءً وهو بداره أو بالسوق[١٨٣]، كما تحدث عن صبي مرابطي يتميز بالجمال والإغراء، وأن كل من يراه يسعى إلى مخالطتة والتقرب إليه[١٨٤].

كذلك أشار ابن قزمان إلى بعض أوكار الرذيلة والفسق في الحاضرة قرطبة[١٨٥]، ومنها درب ابن زيدون، الذي كان مركزا لمدمني الخمر والمخنثين واللوطيين والنساء الفاسدات اللاتي يمارسن الرذيلة في الفندق مع من يدفع إليهن من الرجال سواء من قرطبة أو مما حولها من البوادي المجاورة، وكن يدفعن ضريبة للسلطات نظير ذلك[١٨٦]. وجدير بالإشارة هنا إلى أن ابن قزمان لم يتورع عن وصف نفسه بالفساد والانحلال الأخلاقي، حيث نستنتج من خلال أزجاله تعرضه لزوجة جاره، والتطلع إليها لغرض سيء في نفسه، ولكنها صدته، بل عيَّرته بأوضاعه السيئة، وكاد زوجها أن يبطش به لولا مسارعته بالفرار، كما اختلى بامرأة فاسدة وزني بها في دارها، وكانت زوجه لأحد البربر من المرابطين)[١٨٧].

ومن مظاهر الفساد الاجتماعي أيضًا نتيجة ضعف الوازع الديني ولين الوالي أو صاحب المدينة، وجود بعض اللصوص من محترفي السرقة، ومن أمثلة ذلك أواخر عصر الطوائف الباز الأشهب[١٨٨]، اللص الشهير في مدينة إشبيلية أثناء عصر المعتمد بن عباد، فيذكر المقري أنه كاد يتميز بالدهاء والمكر وله في السرقة كل غريبة، ومعظم سرقاته تركزت ببادية إشبيلية لسذاجة القرويين وقلة حيطتهم، إلى أن وقع في قبضتة الشرطة إلا أنه صفح عنه وأطلق سراحه بعد أن تعهد بالتوبة، وجعله المعتمد من رجال الحرس في أحواز إشبيلية[١٨٩].

كذلك كان من مظاهر الفساد والانحلال الأخلاقي انتشار ظاهرة شرب الخمر بين الأندلسيين سواءً على مستوى الخاصة أو العامة. وهناك إشارات عديدة في ديوان ابن قزمان عن أماكن شرب الخمر والمجون مثل البساتين والمتنزهات ودرب ابن زيدون بقرطبة[١٩٠]، كما تحدث عن أواني الشرب[١٩١]، والمزاح الثقيل بينهم في حالة السُكر نتيجة الأفراط في شرب الخمر[١٩٢]، وأنه هو وأصحابه من أهل الخلاعة وشاربي الخمر كانوا يتحينون فرصة انتهاء شهر رمضان للعودة مرة ثانية للانغماس في حياة اللهو والشراب بعيدًا عن رقابة أولى الأمر سواء المحتسب أو صاحب المدينة وأعوانهما[١٩٣]. ويتضح من خلال بعض أزجاله أنه من مدمني الخمر ولذا كان يخشى جاره الفقية الذي ينهاه دوما عن شربها[١٩٤]، مما كان سببًا في سجنه فترة على يد القاضي ابن المناصف[١٩٥]. وقد تصدت السلطات إلى حد ما لتلك الظاهرة السيئة، حيث يتبين من بعض الأزجال قيام أحد قضاة قرطبة

بهرق الخمور، كما تشددوا أحيانًا في هذا الصدد، فكانوا يأمرون بإقامة الحد على المذنب[١٩٦].

ثانيًا: جوانب من الحياة الاقتصادية في الأندلس في القرن ٦هـ/ ١٢م

٢/١-الزراعة وتربية الحيوان

أمدنا ابن قزمان بالعديد من الإشارات المتعلقة بالزراعة ومنها، كثرة الفحوص أي المناطق الزراعية الخصبة التي يعمرها الفلاحون[١٩٧]، كما ألمح انتشار البساتين في البوادي، والتي امتاز الأندلسيون بالتأنق في تنسيقها وغرسها بالأشجار المثمرة[١٩٨]. كما ألمح إلى بعض أدوات الري ومنها القواديس وهي من الأجزاء الرئيسية في آلات الري ورفع المياه مثل الناعورة أو السانية[١٩٩]، وكذلك تعرض للمناجل التي تستخدم في الحصاد[٢٠٠].

أما عن المحاصيل الزراعية، فقد تحدث عن زراعة الحبوب مثل القمح والشعير والذرة، علاوة على الفول والحمص[٢٠١]، ويضيف بأن طائر الزُرزور (من نوع العصفور) كان يلحق أضرارًا بالحبوب عند حصادها في إقليم الشرف بإشبيلية لكثرته في هذا الموضع[٢٠٢]. كما أشار إلى زراعة الكتان والقطن[٢٠٣]، وكذلك الزيتون خاصة في بادية إشبيلية بإقليم الشرف، الذي يعتبر أشهر مناطق زراعته في الأندلس[٢٠٤]، وأوضح أن هناك نوعًا من الزيتون البري يطلق عليه العامة اسم "زنبوج"[٢٠٥]. واختص زراعة الفاكهة باهتمامه فذكر العديد من أشجار الفاكهة التي كانت تغرس بالبساتين مثل الخوخ والرمان السفري والتين والكروم والتفاح والموز[٢٠٦]، وأشجار الليم (الليمون الحلو) والأترج[٢٠٧]. من ناحية أخرى تحدث ابن قزمان عن زراعة الرياحين والأعشاب العطرية والطبية مثل الياسمين والبنفسج والبهار والخيري والنرجس والحبق والبسباس والرازيانج (الذي كان يفيد في علاج التشنج) ورأس العديسة (وهو نبات طبي يفيد في عاج الثآليل) والباذروج (وهو نبات عطري مثل الحبق)[٢٠٨].

كما تحدث عن بعض التوابل التي لا غنى عنها في إعداد وبعض الأطعمة مثل الكزبرة (أو الكسبور عند العامة)[٢٠٩]، وهناك أيضًا إشارة إلى عشبة القرمز التي يسميها العامة العكر[٢١٠]، وكانت تستخدم في صباغة المنسوجات باللون الأحمر، علاوة على الحناء التي زرعت في البساتين واستخدمت أيضًا في الخضاب باللون الأحمر[٢١١]. أما عن تربية الحيوان والحشرات النافعة فقد أشار ابن قزمان إلى دود القز أو الحرير [٢١٢]، وانتشار رعي الأغنام أو الضأن، علاوة علي الأبقار والرماك (إناث الخيل)[٢١٣].

٢/٢-بعض الصناعات وأرباب الحرف

ألمح ابن قزمان من خلال أزجاله إلى وجود أحد مصانع النسيج الأهلية في الحاضرة قرطبة[٢١٤]، كما سبقت الإشارة علاوة على مصنع النسيج الرسمي التابع للدولة المسمى "دار الطراز" والمخصص لمنسوجات الحكام وكبار رجال الدولة، ويضيف بأن هناك عدة أنواع من المنسوجات، وهي الحريرية والقطنية والكتانية والصوفية[٢١٥]، حيث كان صُناع النسيج أو الأقمشة يبيعونها بالقطعة للعملاء الذين يقومون بدورهم بتسليمها لأحد الخياطين لحياكتها، وقد تعرض لصناعة الغزل والنسيج وما تتطلبة من جهد ووقت كما أمدنا بتفصيلات عن عمل الخياطين وكيفية إتقان الحياكة[٢١٦]، وكذلك صناعة الفراء أو الملابس المبطنة بالفراء والمعروفة باسم المحشو[٢١٧]. ومن الملاحظ أنه اختص مدينة المرية باهتمامه، وتحدث عن شهرتها في صناعة المنسوجات الحريرية من الخز والديباج[٢١٨]، ويضيف بأنها برعت في صناعة نوع من الثياب أو الأقمشة يعرف عند العامة بالسموى (أي الأزرق)[٢١٩].

كذلك عرض ابن قزمان لعدة صناعات أخرى مثل طحن الحبوب في الرحي[٢٢٠]، وصناعة الحُليّ كالأقراط[٢٢١]، وصناعة الأسلحة الدفاعية كالدرق اللمطية أي (المصنوعة من جلود حيوان اللمط) والصناعات الحديدية كالسفود سالفة الذكر-واستخدام الحدادين لآلة السندان في عملهم[٢٢٢]، والصناعات الفخارية كالقدور والصحاف والقلال والأقداح[٢٢٣]، وصناعة الطيب والأدهنة كالمسك والعنبر للزينة[٢٢٤]، وصناعة البُسط كالحصير أو الوطاء من الصوف[٢٢٥]، وصناعة الأحذية كالأقراق[٢٢٦]، وصناعة الزيوت وخاصة زيت الزيتون[٢٢٧]، وصناعة الألبان مثل الجبن[٢٢٨]، علاوة على صناعة الخمور خاصة من العنب، حيث يذكر أن البعض كان يعصر العنب في داره ثم يقوم بتخميره[٢٢٩]، وكذلك كانت هناك الصناعات الخشبية كالأثاث[٢٣٠] وصناعة الآلات الموسيقية مثل العود والمزمار والدّف والطبل[٢٣١].

ومن ناحية أخرى أمدنا ابن قزمان بإشارات إلى بعض أصحاب الحرف مثل الحطابين الذين يقومون بجمع الحطب اليابس وبيعه للناس سواء بالأسواق أو بالمرور على الدور من أجل الوقود في الأفران[٢٣٢]، وأيضًا الطحانين والقراقين (صُناع الأقراق) والحصارين والخياطين والفخارين والعطارين والحدادين وغيرهم من أصحاب الحرف والصناعات، الذين كانت تزخر بهم المدن والقرى والأندلسية[٢٣٣].

٣/٢-الأسواق والمعاملات التجارية والضرائب والعملة

تعرض ابن قزمان في بعض أزجاله للعديد من أسواق قرطبة وذكر منها: سوق المرقطال[٢٣٤] أو السقطيين (باعة الملابس المستعملة)، وسوق الخز أو البز (أي الحرير)[٢٣٥]، وكثرة وجود الحوانيت بتلك الأسواق وبقيسارية قرطبة[٢٣٦]، علاوة على الفندق[٢٣٧]، الذي من وظيفتة إيواء المسافرين أو التجار الغرباء وتخزين بضائعهم لحين بيعها، كما ألمح إلى سوق الدواب خارج أسوار قرطبة[٢٣٨]، وأوضح رواج هذا السوق في بيع الكباش قبيل عيد الأضحى[٢٣٩]، ولم يغفل أيضًا الإشارة إلى الدلالين بالأسواق والقيسارية[٢٤٠]، الذين كانوا يقومون بالنداء على السلع نظير آجر من التاجر (البائع) كما أنهم الوسيط بين البائع والمشتري[٢٤١]، كذلك تحدث عن فئة المكارين أي عمال الخدمة الذي يتوافدون على السوق منذ الصباح الباكر لنقل السلع من مكان لآخر نظير أجر معين[٢٤٢].

ومن ناحية أخرى أوضح ابن قزمان أيضًا أثمان بعض السلع بالأسواق وقيمة إكتراء أحد العقارات، فذكر أن ثمن ثوب من القماش الثمين أو الفخّم مثقال (أي دينار من الذهب المرابطي)[٢٤٣]، وأنه أكتري دويرة بدرب السجن بقرطبة بربع مثقال أو دينار ثم زاد عليه مالكها الثمن ثلاثة أثمان مثقال[٢٤٤]. وقد أمدنا أيضًا بإشارات قيمة تتعلق ببعض المعاملات والنظم التجارية والمالية في الأندلس خلال عصر المرابطين مثل الضمان[٢٤٥] والرهن[٢٤٦]، والسلف[٢٤٧] والديون[٢٤٨] والحواله[٢٤٩]، حيث أفادنا ابن قزمان بكتابة حواله على صراف يهودي يدعي ابن ميقه[٢٥٠]. أما الضرائب أو الجباية: فقد تحدث ابن قزمان عن تشدد الجباة في الضرائب الشرعية كالزكاة والخراج[٢٥١]، وخاصة في جباية ضريبة العشور من الفلاحين[٢٥٢]، والمكوس وهي من الضرائب غير الشرعية التي كانت تفرض على السلع أو الصناعات بالأسواق[٢٥٣]. كذلك ألمح إلى وظيفة المشرف في العصر المرابطي الذي كان مسئولاً عن الجباية والإيرادات والنفقات وغيرها من الشئون المالية، وتعتبر من الخطط المهمة في الدولة[٢٥٤].

وفيما يختص بالعملة: فقد أشار إلى بعض العملات في عصر المرابطين ومنها المثقال المرابطي، وأحيانًا يسميه المثقال الذهبي، وكان من الذهب الخالص، وحظىّ بثقة المتعاملين سواء داخل الأندلس أو في الغرب الأوروبي، لأنه كما تصفه المصادر "من الذهب الوازنة، وكان يفوق الدينار العبادي بإشبيلية من ناحيتي الوزن والعيار، وصرفه أحيانًا، ما بين ستة عشر عشرين درهما فضة لاختلاف قيمة الصرف من وقت لآخر[٢٥٥]، ويتضح مما ذكره ابن قزمان وجود أجزاء من المثقال فأورد ما يسمى بالرباعي[٢٥٦] أي ربع مثقال، وهناك أيضًا المثقال الذي تسميه العامة رطنط أي المدور[٢٥٧]، والمثقال الطري[٢٥٨]، وعمله ذهبية تسمى الجعفري، ويبدو أنها أقل في القيمة والوزن من المثقال ، وعلامة على ما سبق ألمح أين قزمان أيضًا إلى الدرهم الفضي، وأجزاء من هذا الدرهم تسمى قراريط، وكان القيراط يساوي نصف درهم[٢٥٩].

ومن ناحية أخرى هناك إشارات في بعض الأزجال لأسماء المكاييل والموازين خلال عصر ابن قزمان ومنها مكيال للسوائل تسميه العامة "قامة"[٢٦٠]، ومكيال خاص للنبيذ أو الخمر يطلق عليه اسم الرُدَين[٢٦١]، ومنها أيضًا الربع[٢٦٢]، والقسط[٢٦٣]، والقفير[٢٦٤]، والرطل[٢٦٥]، حيث كان القفيز القرطبي يزن ٦٤ رطلاً، بينما الرطل يساوي ١٢ وأحيانًا ١٦ أوقية[٢٦٦].

خاتمةٌ

في ختام الدراسة أمكن التوصل إلى عدة نتائج من أهمها ما يلي:

أهمية الاستفادة من المصادر الأدبية عند دراسة التاريخ الحضاري خاصة التاريخ الاجتماعي بطبقة العامة التي قلما يتعرض لها المؤرخون القدامى في مؤلفاتهم التاريخية.

أن دراسة أزجال ابن قزمان القرطبي لا تقتصر قيمتها على الجانب الأدبي، بل تتعداها إلى العديد من المظاهر الحضارية، حيث أن أزجاله تعتبر مرآة لعصر المرابطين الذي عاش فيه وصور لنا بصدق بعض تجليات الحياة اليومية في المجتمع الأندلسي.

أمدنا ابن قزمان من خلال أزجاله بكثير من الإشارات التي تتعلق بالبيوتات الأندلسية العريقة، والحياة الأسرية ومشكلاتها، والظواهر الاجتماعية في المجتمع الأندلسي، علاوة على الملابس والأطعمة والاحتفالات، والأعياد الإسلامية والمسيحية وبعض مظاهر الفساد الاجتماعي. كما زودنا بمعلومات تختص بالزراعة والأنشطة الاقتصادية الأخرى مثل تربية الحيوانات، والصناعات، والمعاملات التجارية في الأسواق.

أن دراسة وتحليل دواوين الشعر والأزجال يسد ثغرة في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للأندلس، علاوة على مصادر أخرى غير تقليدية مثل كتب النوازل والفتاوى الفقهية وكتب الحسبة والعقود، وهي مصادر أصيلة يجب أن يهتم بها الباحثون المتخصصون بالدراسات الأندلسية والمغربية.

الاحالات المرجعية:

(١) راجع ترجمته بالتفصيل في: ابن سعيد المغربي (أبو الحسن على بن موسى)، **المغرب في حلي المغرب**، تحقيق د/ شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف، د.ت.ج١، ص ١٠٠-١٠١، ١٦٧، ليفي بروفنسال، **الشعر العربي الشعبي**، ضمن (**محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها**) ترجمة د/ محمد عبد الهادي شعيرة، الإسكندرية، سنة ١٩٥١، ص ٢٦.

(٢) ابن قزمان القرطبي (أبو بكر محمد بي عيسى)، **ديوان إصابة الأعراض في ذكر الأغراض**، نشر وتحقيق كوريبنطي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة سنة ١٩٩٥، تصدير المحقق، ص ٣-٤.

(٣) **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص ١٦٧، ٢١٠.

(٤) **ديوان ابن قزمان**، تصدير المحقق ص٥، ٢٩٤، عبد العزيز الأهواني، على هامش ديوان ابن قزمان، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، مجلد ١٩ سنة ١٩٧٧، ص ٥١، شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي (الدول والإمارات في الأندلس)**، دار المعارف، سنة ١٩٨٩، ص ١٦٩.

(٥) أشارت كتب التراجم الأندلسية إلى بعض أفراد أسرة بني عبد البر التي برزت في الفقه والتاريخ وعلم الأنساب، منهم محمد بن عبد الله بن عبد البر الذي كان من الفقهاء البارزين في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر، وأحمد بن محمد بن عبد البر (ت سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) وكان مؤرخًا وفقيهًا، وله العديد من المؤلفات منها كتابًا فقهاء قرطبة، وهناك أيضًا يوسف بن عبد الله بن عبد البر (ت سنة٤٦٣هـ/ ١٠٧٠-١٠٧١م) ومن أشهر مؤلفاته كتاب "الاستيعاب في تراجم الصحابة". راجع عنهم: الضبي (أحمد بن يحيى، **بغية الملتمس**، القاهرة، ١٩٦٧م، ص ٣٠٤؛ ابن بسام (أبو الحسن علي)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ق٣ م١، تحقيق د/إحسان عباس، بيروت سنة ١٩٧٩، ص ١٢٥-١٢٦؛ أحمد الطوخي، بنو عبد البرفي الأندلس، الإسكندرية، ١٩٨٧، ص ١٣.

(٦) ابن الفرضي (عبد الله بن محمد)، **تاريخ علماء الأندلس**، القاهرة، سنة ١٩٦٦، ق١، ص ٣٨-٣٩؛ الطوخي، نفسه، ص٨ وما يليها.

(٧) **ديوان ابن قزمان**، ص ١١٩، ٢٨٩.

(٨) نفسه، ص١٠٣، ٤٠٥.

(٩) نفسه، ص ١٠٦.

(١٠) نفسه، ص ٢١٤.

(١١) ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبد الله محمد)، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، سنة ١٩٧٤، مجلد٢، ص ٣٨٨، ٥١٦-٥١٧، حمدي عبد المنعم، دولة على بن يوسف المرابطي، الإسكندرية، سنة ١٩٨٦، ص ٢٧٣-٢٧٤.

(١٢) راجع التفاصيل عن بني الزجالي في ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف)، **المقتبس**، قطعة تتعلق بعصر الأمير عبد الرحمن الأوسط والأمير محمد، تحقيق د. محمود مكي، بيروت سنة ١٩٧٣، ص ٣٥٤٥٨، ص ٤٥٩ هـ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩؛ ابن سعيد، **المغرب**، ج١، ص ٣٣٠.

(١٣) ابن سعيد، نفسه، ج١، ص ٣٣٠-٣٣١؛ المقري (أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني)، **نفح الطيب**، تحقيق يوسف البقاعي، بيروت ١٩٨٦، ص٨٣، صبحي إدريس، **بنو الزجالي**، مجلة كلية الآداب بدمنهور، سنة ٢٠٠٣، ص ٢٧٣ وما يليها.

(١٤) **الديوان**، ص ٩٤، ٩٥، ٢٨٣.

(١٥) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (ت سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م)، قاضي الجماعة بقرطبة، وصاحب الصلاة بجامعها، ومن أبرز الفقهاء المالكية في عصر المرابطين، وأحد المقربين من أمير المسلمين على بن يوسف، ومن مؤلفاته كتاب البيان والتحصيل، والنوازل المعروفة بالفتاوي. راجع التفصيل في: ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)، الصلة، القاهرة، سنة ١٩٦٦، ق٢، ص ٥٧٦-٥٧٧، النباهي (أبو الحسن عبد الله المالقي)، **تاريخ قضاة** الأندلس، بيروت، سنة ١٩٨٣، ص ٩٨-٩٩؛ ابن عذاري، **البيان المغرب**، (القسم المرابطي)، تحقيق د.إحسان عباس، بيروت سنة ١٩٦٧، ج٤، ص ٦٤.

(١٦) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد المعروف بالحفيد، من فقهاء وفلاسفة الأندلس في عصر الموحدين، اشتهر بعلمه في الفلسفة والطب، وشاع عنه انهماكه في العلوم القديمة والفلسفة، وأمتحن بسبب وشاية في عصر يعقوب المنصور الموحدي، ثم صفح عنه واستقدمه إلى الحاضرة مراكش وتوفى بها سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م. راجع: المراكشي (عبد الواحد بن علي)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ص ٣٨٤- ٣٨٥، النباهي، المصدر السابق، ص ١١١.

(١٧) الديوان، ص ٣٣٥.

(١٨) نفسه، ص ٣١٠.

(١٩) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف التجيبي المعروف بابن الحاج الشهيد، كان من كبار الفقهاء، بصيرًا بالفتوى، وله مجلس علم بجامع قرطبة، ومن مؤلفاته كتاب في نوازل الأحكام، (ابن بشكوال، نفسه، ق٢، ص ٥٨، النباهي، نفسه، ص ١٠٢)

(٢٠) الديوان، ص ٣١٠.

(٢١) نفسه، ص ٢٨.

(٢٢) هو **أبو القاسم أحمد بن محمد بن حمدين التغلبي**، قاضي الجماعة بقرطبة، كان من بيت علم ودين وفضل، نافذًا في أحكامه، وظل على القضاء حتى وفاته سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م (التباهي، نفسه، ص ١٠٣).

(٢٣) **الديوان**، ص ٤٠، ١٤٠، ٢٥٢-٢٥٣، ٣٧١؛ الأهواني، على هامش الديوان ابن قزمان، مجلة المعهد المصري بمدريد، مجلد ١٧، سنة ١٩٧٣، ص ٢٠٢.

(٢٤) **الديوان**، ص ١٣٦، محمد صوالحه، **صورة الممدوح في أزجال ابن قزمان**، رسالة ماجستير بجامعة النجاح، نابلس سنة ٢٠١٣، ص ١٨، وراجع التفاصيل عن أبي جعفر بن حمدين في (ابن الآبار، أبو عبد الله محمد، **الحلة السيراء**، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة سنة ١٩٦٣، ج٢، ص ٢٥٥).

(٢٥) **الديوان**، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٢٦) نفسه، ص ١٥٧.

(٢٧) نفسه، ص ٣٧٢.

(٢٨) ابن سعيد، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٦- ٦٨.

(٢٩) **المعجب**، ص ٢٣٧؛ ابن دحيه (أبو الخطاب عمر بن حسن)، **المطرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق إبراهيم الإبياري، القاهرة سنة ١٩٥٤، ص ١٨٧؛ حمدي عبد المنعم، المرجع السابق، ص ٢٧٧.

(٣٠) **الديوان**، ص ٢١٥.

(٣١) نفسه، ص ١٠٢.

(٣٢) ابن الفرضى، المصدر السابق، ص١، المقري، المصدر السابق، ج٢، ص٣٣٣.

(٣٣) بن سعيد، المغرب، ج١، ص ٢٠٣.

(٣٤) المغرب، ج١، ص ٧٨. وراجع التفاصيل عن بنى شهيد في: (ابن بسام، **الذخيرة**، تحقيق إحسان عباس، ق١ م ١، ص ١٩١ وما يليها).

(٣٥) **الديوان**، ص ٢١١، ٢١٢.

(٣٦) ابن سعيد، **المغرب**، ج١، ص٢١٠.

(٣٧) **الديوان**، ص٣١، ٦٨، وراجع عنه أيضًا (ابن سعيد، نفسه، ج١، ص ١٦٧)، وحول ابن الافطس، انظر التفاصيل في (سحر سالم)، **تاريخ مدينة بطليوس**، الإسكندرية، سنة ١٩٩١، ج٢، ص١٧ وما يليها).

(٣٨) الذخيرة، ق٢ م٢، ص٧٤.

(٣٩) ابن سعيد، المصدر السابق، ج١، ص ١٠٥- ١٠٧.

(٤٠) انظر ترجمته بالتفصيل في: (الضبي، المصدر السابق، ص ٦١- ٦٢؛ ابن الآبار، المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي، دار الكاتب العربي، القاهرة، سنة ١٩٦٧، ص ١٣٤).

(٤١) **الديوان**، ص ١٤٥، هـ ٣، ص ١٤٥، ومن أزجاله في مدح الأمير محمد بن سير المرابطي اعترافا بفضله قوله: يا محمد ابن سير يا حبيب كل سلطان.

يا من أخر حياتي   وبلوغ أجلي قد حان (الديوان، ص ١٤٥)

(٤٢) **المغرب**، ج١، ص ١١٥.

(٤٣) ابن بسام، نفسه، ق١، م٢، ص ٨٠٨-٨١٠، ابن سعيد، نفسه، ج١، ص١١٥-١١٦، المغرب، نفسه، ج٢، ص ١٦٥.

(٤٤) **الديوان**، ص ١٧٢، ٣٨٣.

(٤٥) بغية الملتمس، ص ٥١٢؛ النباهي، المصدر السابق، ص ٩٥- ٩٦.

(٤٦) الضبي، المصدر السابق، ص ٤١٩.

(٤٧) **الديوان**، ص ٤٣- ٤٤، ٦٣-٦٤، وراجع (الضبي، نفسه، ص ٤٧)

(٤٨) ابن بشكوال، الصلة، ق١، ص ٦٠.

(٤٩) المقري، نفسه، ج٢، ص ١٦٥.

(٥٠) ابن عذاري، نفسه، ج٤، ص ٤٩، ٦٥- ٦٦، إبراهيم بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، بيروت سنة ١٩٩٨، ص ١٥٦.

(٥١) راجع التفاصيل عن بني زهر في (ابن بسام، نفسه، ق٢، م١، ط٢، ابن سعيد، نفسه، ج١، ص ٧٠، ابن دحيه، نفسه، ص ٢٠٣، المقري، نفسه، ج٤، ص ٤٠٠.

(٥٢) **الديوان**، ص ٤٨، ٢٥٩، ٢٦٣.

(٥٣) **البيان المغرب**، ج٤، ص ٦٥، وراجع عند الزهريين (أحمد الطاهرى، **العمران القروي في الأندلس** الإسكندرية، سنة ٢٠٠٤، ص ٦٧)

(٥٤) **الديوان**، ص ٢٠، ٢٧٣.

(٥٥) راجع التفاصيل عن بني عباد في: (ابن بسام، نفسه، ق٢، م١، ص ١٥-١٩، ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص ٣٤ وما يليها، ابن عذاري، نفسه، ج٣، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، طبعة بيروت، د.ت، ص ١٩٣ وما يليها).

(٥٦) **الديوان**، ص ٣٤٧ومن مدائح ابن قزمان في ابن عباد قوله:

وأعمل بعينيك شق أبدان   من القلوب
كما عمل سيف ولد عباد   يوم الحروب

انظر (**الديوان**، ص ٣٤٧)

(٥٧) **الديوان**، ص ١٣٣، ١٣٥، ١٤٥، ٣٧٤، ٣٦٠.

(٥٨) نفسه، ص ١٣١.

(٥٩) المغرب، ج٢، ص ٣٠٥.

(٦٠) **الديوان**، ص ٢٠٦، ٣٣٠، المغرب، ج٢، ص ١٦٣.

(٦١) **الديوان**، ص ٣٦٠، هـ٢، ص ٣٦٠؛ إبراهيم بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص١١.

(٦٢) **الديوان**، ص ٢٣١، هـ ٧، ص ٢٣١، وراجع التفاصيل حول تلك الشخصيات اليهودية في: (خالد يونس الخالدي، اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس، نشر دار الأرقم، غزة سنة ٢٠١١، ص ٢٤٧، ٤٢٥، ٤٣٣، ٤٣٤).

(٦٣) **الديوان**، ص ٧٥، ١٨١؛ بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، ص٢٤.

(٦٤) نفس المصدر السابق، ص ٨٣، ٨٩؛ بوتشيش، المغرب والأندلس، ص٣٠، محمد علي دبور، **ملامح المجتمع الأندلسي كما تصورها الأمثال الأندلسية**، ندوة التاريخ الإسلامي، كلية دار العلوم، القاهرة ،٢٠٠٥، ص١٣٣.

(٦٥) **الديوان**، ص٢٨٤، ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، ترجمة د.على البمبى وأخرين، القاهرة ٢٠٠٣،ج١ ،ص ٣٤٨.

(٦٦) **الديوان**، ص ٤٧، الأهواني، على هامش ديوان ابن قزمان، مجلد ١٧، ص ١٩٨-١٩٩، وراجع أيضًا: (الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني، **المعيار المعرب** نشر وزارة الأوقاف المغربية سنة ١٩٨١، ج٨، ص ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٥٤.

(٦٧) **الديوان**، ص ٦٥.

(٦٨) نفس المصدر، ص ٥٨.

(٦٩) نفسه، ص ٧٥، ٧٦، ١٠؛ محمد علي دبور، المرجع السابق، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٧٠) نفس المصدر، ص ٢٥٠، ٢٥٩، ومن أزجاله في هذا الصدد:

نشتري لك غدًا بنيقه شقيق
ولدارك فحم وزيت ودقيق
وخروفا سمين وحملين فليق   (**الديوان**، ص ٢٥٩)

(٧١) **الديوان**، ص ٢٨، ٩٠، الأهواني، على هامش ديوان ابن قزمان، مجلد ١٧، ص ٢٢٦.

(٧٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٢.

(٧٣) نفسه ٢٦٧، ٢٩٦.

(٧٤) نفسه، ص ١٦٢، ٢٦٣، ٢٩٥؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٣٥٦؛ بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ٣٣.

(٧٥) **الديوان**، ص ٨٢، ص ٢٥، ص ٨٢، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٨، ٣٠٩، ٤١٢، ٤٤٨؛ وراجع: ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٣٥٢، توريس بالباس، **الفن المرابطي والموحدي**، ترجمة د. السيد غازي، دار المعارف، سنة ١٩٧١، ص ١٢٧، السيد عبد العزيز سالم، **في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس**، الإسكندرية، سنة ١٩٨٥، ص ١٨٤-١٨٥.

(٧٦) **الديوان**، ص ١٠٣، ١١٩، ٢١٥، ٢٨٩، ٤٠٥، محمد عبد المنعم صوالحه، المرجع السابق ص ١٣، ١٨.

(٧٧) **الديوان**، ص ٢٨، ٤٠، ٢٥٢، ٣٢٠، ٣٢٣. وراجع أيضًا ليفي بروفنسال، **الشعر العربي الشعبي** (ضمن محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ص ٢٨؛ عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، بيروت، سنة ١٩٣٨، ص ١٥٢، بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ١٤٣- ١٤٥؛ حمدي عبد المنعم، **دولة على بن يوسف المرابطي**، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(٧٨) **الديوان**، ص ٧٠، ٩٧.

(٧٩) نفسه، ص ١٦٧.

(٨٠) نفسه، ص ١٣٣- ١٣٥، ١٦١؛ الأهواني، **على هامش ديوان ابن قزمان**، م ١٨، ص ٦٦؛ صوالحه، المرجع السابق، ص ٣٤.

(٨١) **الديوان**، ص ٢٥٣. وراجع أيضًا: (كمال أبو مصطفى، **صور من المجتمع الأندلسي في عصريّ الطوائف والمرابطين من خلال نوازل ابن رشد القرطبي** (ضمن بحوث كتاب دراسات مغربية وأندلسية)، الإسكندرية، سنة ٢٠١٣، ص ٣١٠، هنرى بيريس، **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف**، ترجمة د. الطاهر مكي، دار المعارف، سنة ١٩٨٨، ص ٢١.

(٨٢) **الديوان**، ص ٢٦٨؛ الأهواني، المرجع السابق، م١٧، ص ٢٠٢.

(٨٣) نفس المصدر، ص ٥٥، هـ٧ ص ٥٥، ٢٦٨.

(٨٤) نفس المصدر، ص ٢٨٥. وراجع التفاصيل عن التسول في الأندلس في (إبراهيم بوتشيش، **ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين**، مجلة الآداب، مكناس سنة ١٩٩٢، ص١١٧ وما يليها،محمد دبور ، المرجع السابق ،ص١٢٨-١٢٩.

(٨٥) نفسه، ص ١٠٢؛ وقد عبرت الأمثال الأندلسية عن تلك الظاهرة: بقولها: "إذا بليت بالسعيّ (أي التسول) اقصد ديار الكبار" انظر (الأهواني، **أمثال العامة في الأندلس** (ضمن دراسات مهداة إلى طه حسين، دار المعارف، سنة ١٩٦٢، س ٢٤٥، أبو يحيى الراجالى القرطبي، **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق د. محمد بن شريفه، ق٢، نشر وزارة الشئون الثقافية، المغرب، د.ت، ص ١٥؛ دبور، المرجع السابق، ص١٢٩.

(٨٦) **الديوان**، ص ٢١٠-٢١١؛ الأهواني، **على هامش ديوان ابن قزمان**، م ١٨، ص ٤٥.

(٨٧) نفس المصدر السابق، ص ٣٠، ٨١، ١٧٧، ٢٩٢.

(٨٨) نفسه، ص ٨٨، ١٤٢، ١٤١؛ الأهواني، **على هامش ديوان ابن قزمان**، م ١٨، ص ٢٨؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٣٧٦.

(٨٩) **الديوان**، ص ٢٧٢.

(٩٠) **رسالة في الحسبة**، (ضمن ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة) نشر كولان وليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، سنة ١٩٥٥، ص ١١، ٣٥.

(٩١) **الديوان**، ص ٣٢٠. وراجع في التفاصيل عن التدمية في: ابن العطار (محمد بن أحمد الأموى القرطبي)، الوثائق والسجلات، نشره-وحققه بدرو شالميتا وآخرون، مدريد سنة ١٩٨٣، ص ٢٩، ابن مغيث الطليطلي (أحمد بن محمد) المقنع في علم الشروط، تحقيق فرانشيسكو سادابا، مدريد ١٩٩٢، ص ٣٦٢-٣٦٣؛ كمال أبو مصطفى، **وثائق ابن العطار القرطبي**، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، سنة ٢٠١٥، ص ١٣٧.

(٩٢) **الديوان**، ص ٣٠، هـ١، ص ٣٠. ومن أمثلة أزجاله في ابن نماره قوله: ابن نماره لم قط يوجد ل دوا العشق والموت السوم فيها سوا.

(٩٣) **الديوان**، ص ٥٤، ٦٠، ٣٤٨، ١١، ٤١٤، ومن أمثلة غزله في أم الحكم قوله: لأم الحكم خد كالجُلنار لأم الحكم عيننا سود كبار.

(٩٤) **الديوان**، ص ٦٣، ١٢٣، ٢٧١، ٣٢٤؛ الأهواني، على هامش ديوان ابن قزمان، م١٨، ص ٥١.

(٩٥) نفس المصدر السابق، ص١١١، ١١٧؛ صوالحه، المرجع السابق، ص ٥٥-٥٦؛ هنري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص ٣٦٥.

(٩٦) **الديوان**، ص ٥٩، ١٠١، ١٤٠، ٤١٦.

(٩٧) نفسه، ص ٣٧، ٨٩، هـ٧، ص ٨٩، ١٦٥؛ الأهواني، **على هامش ديوان ابن قزمان**، م١٨، ص ٦٨؛ هنري بيريس، المرجع السابق، ص ٢٧٦.

(٩٨) نفس المصدر السابق، ص ٢٠٥، ٣٥، ص ٢٠٥، ٢٦٨.

(٩٩) نفسه، ص ٢٣٧، وحول استئجار حارز لحراسة الزرع. راجع التفاصيل في: (ابن مغيث الطليطي، نفس المصدر السابق، ص ١٩٨).

(١٠٠) **الديوان**، ص ٩٢.

(١٠١) نفسه، ص ٤٦، ٢٦٠، ٤٥٨.

(١٠٢) نفسه، ص ٢١٢.

(١٠٣) نفسه، ص ٢١٨، ومن أمثلة أزجاله في اللثام: بالذي يعطيك رضا الأمير... إياك تلثم إلا كبير (نفسه، ص ٢١٨). وعن اللثام راجع أيضًا: (ابن عبدون، رسالة في الحسة، ص٢٨، بوتشيش، المغرب والأندلس، ص ٧٥-٧٩).

(١٠٤) **الديوان**، ص ٢١٣.

(١٠٥) نفسه، ص ٢٦٤.

(١٠٦) نفسه، ص ٤٤١.

(١٠٧) نفسه، ص ٣٨٣؛ الأهواني، **على هامش ديوان ابن قزمان**، م١٧، ص ٢١١.

(١٠٨) نفسه، ص ٢٢٢؛ محمد عل دبور، المرجع السابق، ص ١٣٧.

(١٠٩) نفسه، ص ٢١٢؛ الأهواني، المرجع السابق، ص ٢١٢.

(١١٠) نفسه، ص ٧٨، ٢٧٤؛ الأهواني، المرجع السابق، مجلد ١٧، ص ٢١٦، ٢٢٦.

(١١١) نفسه، ص ٣٤، ٤٠، ٦٣، ٧٠، ٧٢.

(١١٢) نفسه، ص ٨٣، ٢٨٨، ٢٩٣.

(١١٣) نفسه، ص ٦٠، ٩٩؛ بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ١٠٠، ١٠١.

(١١٤) نفسه، ص ١٧٢.

(١١٥) نفسه، ص ١٠٣.

(١١٦) نفسه، ص ٦٠، ٦١.

(١١٧) نفسه، ص ١٠٨؛ ليفي بروفنسال، **الشعر العربي الشعبي**، ص ٣١.

(١١٨) نفسه، ص ٤١. أما حوزمؤمل- المذكور بالمتن- فكان يقع إلى الجنوب الغربي من قصر الحمراء، وإلى الجنوب من ربض الفخارين، ويشتهر بمتنزهانة بساتينه، انظر (ابن الخطيب، **الإحاطة**، تحقيق عبد الله عنان، مجلدا، ص ٤٤١، هـ٦، ص ٤٩١).

(١١٩) **الديوان**، ص ١٥٢.

(١٢٠) نفسه، ص ٦٠، ٣٨١؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٣٨٢-٣٨٣.

(١٢١) نفسه، ص ٣٨، ٣٦٤؛ الطاهر مكي، **دراسات عن ابن حزم**، ص ٤٨.

(١٢٢) نفسه، ص ٣٨، هـ٤، ص ٣٦، بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ٩٧.

(١٢٣) نفسه، ص٣٢٧- ٣٢٨؛ الأهواني، المرجع السابق، مجلد ١٨، ص ٣٢. وجدير بالذكر أن ابن بسام ألمح إلى لعبة القلياني أو خيال الظل في الأندلس خلال عصر الطوائف أي القرن ٥هـ/١١م. انظر (الذخيرة، ق١ م٢، ص ٦٧٧).

(١٢٤) **الديوان**، ص ١٦٤، هـ١، ص ١٦٤.

(١٢٥) نفسه، ص ٣٦١.

(١٢٦) نفسه، ص ٣١١؛ وراجع أحمد الطوخي، **مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر**، الإسكندرية، سنة ١٩٩٧، ص ١١٦؛ بوتشيش، المغرب والأندلس، ص٨٩.

(١٢٧) **الديوان**، ص ٢٨٣.

(١٢٨) نفسه، ص ٢٦١.

(١٢٩) نفسه، ص ١٦٢- ١٦٣؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٣٧٣- ٣٧٤، ومما ذكره ابن قزمان في هذا الصدد: كبش باسم الضحية يشتريه كل مرماد

فهو ظاهر لله والقصد فرح الأولاد (**الديوان** ، ص١٦٢)

(١٣٠) نفسه، ص ١٦٢.

(١٣١) نفسه، ص ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٨٤.

(١٣٢) نفسه، ص ١٦٢.

(١٣٣) نفسه، ص ١٦٣.

(١٣٤) **الديوان**، ص ١٦٣، ٢٩١. وراجع التفاصيل حول الثريد في: (مؤلف مجهول، **كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس**، نشر إويثي ميراندا، مجلة المعهد المصري بمدريد سنة ٦١- ١٩٦٢، ص ١٨٢.

(١٣٥) **الديوان**، ص ١٦٣، ٢٨٤، ٣٥٨.

(١٣٦) نفسه، ص٢٢٢.
(١٣٧) نفسه، ص ٢٠٩. وراجع التفاصيل حول عيد العنصرة أو المهرجان في:
Fernando de la Granja, Las fiestas cristianas en al-Andalus, Rev., al-Andalus, 1969, p.2.
(١٣٨) **الديوان**، ص ٤٥٥. وراجع التفاصيل في: عريب بن سعد (أبو الحسن)، تقويم قرطبة (كتاب الأنواء)، نشر دوزى ليدن سنة ١٨٧٣، ص ١٧-١٨؛ ليفي بروفنسال، تاريخ إسبانيا الإسلامية، م٢، ج١، ص ٣٧٤-٣٧٥؛ أحمد الطاهري، عامة قرطبة في عصر الخلافة، الرباط، سنة ١٩٨٨، ص ١٧٧.
(١٣٩) **الديوان**، ص ٤٥٥. وراجع (الجرسيفي (عمر بن عثمان)، رسالة أندلسية في الحسبة، ص ١٤٢؛ الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد) الحوادث والبدع، تحقيق محمد الطالبي، تونس سنة ١٩٥٩، س ١٤٠-١٤١.
(١٤٠) **الديوان**، ص ٢٣٧. وراجع أيضًا (ابن بسام، نفسه ق١ م٢، ص ٨٨، أحمد مختار العبادي (**الإسلام في أرض الأندلس**، مجلة عالم الفكر، الكويت، سنة ١٩٧٩، ص ٣٩١؛ عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج٢، ص ١١٧.
(١٤١) **الديوان**، ص ١٠٠، هـ٣، ص ١٠٠.
(١٤٢) نفسه، ص ٣١٣؛ وراجع أيضًا (حمدي عبد المنعم، مجتمع قرطبة في عصر الدولة الأموية (رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بأداب، الإسكندرية، سنة ١٩٨٤، ص ٤٥٥). أما الفوقية المذكورة بالمتن: فيذكر دورزي أنها تسمى أيضًا الفوقانية وهي مثل الجبة ولا تختلف كثيرًا عنها. انظر (**المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب**، ترجمة د. أكرم فاضل، منشورات وزارة الإعلام، بغداد، سنة ١٩٧١، ص ٢٧٨- ٢٧٩).
(١٤٣) **الديوان**، ص ١٣٢، أما البرنس (بالإسبانية Albornoz) فهو رداء واسع من الصوف ومزود بغطاء للرأس، وكان شائعا عند المغاربة البربر، انظر: (دوزي، المرجع السابق، ص ٦١-٦٧، ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص٣٦٦، سحر سالم، ملابس الرجال في الأندلس (ضمن بحوث ندوة **الأندلس: الدرس والتاريخ**، كلية الآدب، جامعة الإسكندرية، أبريل ١٩٩٤، ص ٢٦١).
(١٤٤) **الديوان**، ص ٤١، ١٠٠، ١٦٤. والغفارة غطاء للرأس من الصوف، وكانت إما حمراء أو خضراء، حيث أن الصفراء كانت تقتصر على اليهود لتميزهم عن المسلمين، (دوزي نفسه، ص ٢٥١؛ ليفي بروفنسال، نفسه، م٢، ج١، ص ٣٦٧).
(١٤٥) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٧؛ دوزي، نفسه، ص ١٦٨-١٦٩، سحر سالم، المرجع السابق، ص ٢٥٩-٢٦٠.
(١٤٦) نفس المصدر السابق، ص ١٢٥، ١٣٦؛ دوزي، نفسه، ص٣٠٠-٣٠١؛ سحر سالم، نفسه، ص ٢٥٩.
(١٤٧) المصدر السابق، ص ٢٥٠. أما الكنبيط (وهي كلمة أعجمية) فيذكر المستشرق الإسباني كورينطي أنه ثوب من القماش دخاني اللون (**الديوان**، ص ٢٥٠، ٥ه)
(١٤٨) نفس المصدر السابق، ص ٣٢٨؛ الأهواني، المرجع السابق، م١٩، ص ٥٦، والقنزع يطلق عند العامة على غطاء طويل للرأس (الأهواني، نفسه، ص ٥٦).
(١٤٩) المصدر السابق، ص ٣٢٨. والفحول: كلمة عامية تطلق على غطاء للرأس (**الديوان**، ص ٣٢٨ ه٢).
(١٥٠) نفسه، ص ٢٦٧.
(١٥١) نفسه، ص ٤٧، ٢٥٣، ٣٧٥، ٤٠٤؛ دوزي، نفسه، ص ٢٨٤- ٢٨٥؛ الأهواني، نفسه، ص ٢٠٢.
(١٥٢) **الديوان**، ص ٢٥٩، ٥ه، ص ٢٥٩.
(١٥٣) نفسه، ص ٩١.
(١٥٤) نفسه، ص ٧٨، ٢٠٩، ٣٢٧.
(١٥٥) نفسه، ص ١٠٠، وانظر أيضًا: بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ٨٢.
(١٥٦) نفس المصدر السابق، ص ٦٦، ١٢٥، ١٢٧، ٢٧٢؛ دوزي، نفسه، ص ٢٩٢؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص٣٦٣؛ حمدي عبد المنعم، **مجتمع قرطبة**، ص ٤٦٠.
(١٥٧) **الديوان**، ص ٤١٧، ه١، ص ٤١٧.
(١٥٨) نفسه، ص ٤٣، ١٣١، ٢٢١، ٤١٧، هـ٤، ص ٤١٧.
(١٥٩) نفسه، ص ١٢؛ ليفي بروفنسال، المرجع السابق، ص ٣٦٩.
(١٦٠) نفسه، ص ٢٤٨، هـ٣، ص ٢٤٨؛ وراجع (نجلاء النبراوي، **القمح في الأندلس**، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، سنة ٢٠١٨، ص ١٥٦.
(١٦١) نفس المصدر السابق، ص ٢٨٨.
(١٦٢) نفسه، ص ٢٤٨، هـ٨، ص ٢٤٨.
(١٦٣) نفسه، ص ٣١٨.
(١٦٤) نفسه، ص ٣٣.
(١٦٥) نفسه، هـ٥، ص ٣٣.
(١٦٦) نفسه، ص ٣٣.
(١٦٧) نفسه، ص ٥٢، هـ ٦، ص ٥٢.
(١٦٨) نفسه، ص ٥٢.
(١٦٩) نفسه ص ٥٢ ه٥؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٣٠٩.
(١٧٠) نفسه، ص ٢٩٤.
(١٧١) نفسه، ص ٧٤، ٢٢٢، ٣٩٥؛ حمدي عبد المنعم، **مجتمع قرطبة**، ص ٤٦٦.
(١٧٢) نفسه، ص ٢٦٢.
(١٧٣) نفسه، ص ٢٦٢ وراجع أيضًا التفاصيل في (مؤلف مجهول، **كتاب الطبيخ**، ص ١٨٢).
(١٧٤) نفسه، ص ٢٩١.
(١٧٥) نفسه، ص ٢٩٩.
(١٧٦) نفسه، ص ٢٩٥.
(١٧٧) **الديوان**، ص ٤٢١؛ وانظر أيضًا (ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٣٥٨.
(١٧٨) نفسه، ص ٢٥٠.
(١٧٩) نفسه، ص ٨٠.
(١٨٠) نفسه، ص ٤٣، هـ٤، ص٤٣؛ بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ٧٣.
(١٨١) نفسه، ص ٢٧١، ٤٠٢.
(١٨٢) نفسه، ص ٥٦، ٧٩، ٢٢٢؛ ليفي بروفنسال، المرجع السابق، م٢، ج١، ص ٣٦٠-٣٦١. وراجع (رشا محمد فياله، **مظاهر الفساد الاجتماعي في مصر في عصر سلاطين المماليك**، نشر المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، سنة ٢٠١٩، ص ١٢٥.
(١٨٣) ومن أزجاله في هذا الصدد قوله:
قد عشقت إبراهيم عشقا ليس له مقدار
فيه نفكر في السوق فيه نفكر في الدار
انظر (**الديوان** ص ٢٢٨، ٣٥٢).
(١٨٤) ومن أزجاله في ذلك: أش ترى في فرح مرابط
أن دري وزير بقراط
بالجري يرجع مخالط
(**الديوان**، ص ٣٢، الأهواني، المرجع السابق، مجلد ١٨، ص ٢٠).

(١٨٥) نفس المصدر السابق، ص ٤١٩؛ ليفي بروفنسال، المرجع السابق، م٢، ج١، ص ٣٨٠، بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ١٠١.

(١٨٦) نفس المصدر السابق، ص ٤١٩؛ ليفي بروفنسال، نفسه، م٢، ج١، ص ٣٨٠؛ بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ١٠١ ومن أمثلة أزجاله في هذا الصدد:

أين درب ابن زيدون وأين احتفاله.
وأين حومه الجامع وأين جماله.
(**الديوان**، ص٤١٩)

(١٨٧) المصدر السابق، ص ٨٢، ٢٧٠، ٢٧١؛ بوتشيش، **المغرب والأندلس**، ص ٣٩.

(١٨٨) نفسه، ص ٢٣٩؛ دبور، نفس المرجع السابق، ص ١٣٢.

(١٨٩) **نفح الطيب**، ج٥، ص ٢٦٥-٢٦٦. كذلك أشار المقري إلى تميز العوام في الأندلس بالخبث والشر والبراعة في التلصص وفتح الأغلاق الصعبة. (نفح، ج١، ص ٢٠٧)

(١٩٠) **الديوان**، ص ٩٩، ١٠٨، ٤١٩، ٤٥٢؛ راجع التفاصيل في (حمدي عبد المنعم، **مجتمع قرطبة**، ص ٥٢٩).

(١٩١) ذكر ابن قزمان العديد من أسماء أواني شرب الخمر أو النبيذ كالشمول والإبريق والمخشير والعلاّل والقطيع والكأس والإشكال والأقداح والطنجهار والقنقال وغيرها (نفسه، ص ٥٧، ٥٨، ٩٤، ١٩٦، ٢٠٠، ٢٢١، ٣٣٩).

(١٩٢) نفسه، ص ٨٣، ١٦٣، ٢٨٨، ٢٩٣.

(١٩٣) نفسه، ص ٣٩٤، ٤٢٠.

(١٩٤) نفسه، ص ٩٧، ١٤٢، ١٤١. ونلاحظ في بعض أزجاله استخدام اللفظ الإسباني vino للدلالة على الخمر، كما ذكر عدة أسماء لها مثل المدام والراح والقهوة والطلا والحميا. (نفسه، ص ٢٨٥، ٣٠٠)

(١٩٥) نفسه، ص ١٤٢.

(١٩٦) نفسه، ص ٨٨، ٢٨٢، ٤٣٤؛ الأهواني، المرجع السابق، م ١٨، ص ٢٨.

(١٩٧) نفسه، ص ٢١١.

(١٩٨) نفسه، ص ٩٩.

(١٩٩) نفسه، ص ٢٧٩.

(٢٠٠) نفسه، ص ٢٦٤.

(٢٠١) نفسه، ص ٦٥، ١٨٩، ٣٣١.

(٢٠٢) نفسه، ص ١٨٩. ويذكر عريب بن سعد أنه في شهر أكتوبر يظهر الزرزور الأبيض والأسود انظر (تقويم قرطبة، ص١٠٠).

(٢٠٣) **الديوان**، ص ٢١٢، ٢٥٨.

(٢٠٤) نفسه، ص ٣٣٣.

(٢٠٥) نفسه، ص ٢٦٠.

(٢٠٦) نفسه، ص ٥١، ٧٩، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٨٣.

(٢٠٧) نفسه، ص ٢٢٣، ٣٠٣.

أوضحت كتب الفلاحة أن الأترج (وهو نوع من كبار الليمون) كان يعرف أيضًا باسم التفاح اليماني، منه حلو وآخر حامض، وكانت أوراقه تستخدم في الطهي لإخفاء مذاق معين على الأطعمة. انظر (ابن العوام (أبو زكريا يحيى الإشبيلي، **الفلاحة**، نشربانكيري، ج١، ص ٣١٤، مجهول، **كتاب الطبيخ**، ص ٥٣ وما يليها.

(٢٠٨) نفسه، ص ٣٨، ٥،٦٥ ص ٣٨، ٩٠.

(٢٠٩) **الديوان**، ص ٢٥٥. وأشار ابن بصال إلى الكزبرة، وذكر أنها كانت تزرع في بلده، الأندلس خلال يناير أو مارس. انظر (الفلاحة، نشر بايكروسا ومحمد عزيمان، تطوان سنة ١٩٥٥، ص ١٢٤-١٢٥).

(٢١٠) **الديوان**، ص ٣٣٩، تذكر بعض المصادر أن من أشجار البلوط شجرة أمارة القرمز يتطفل عيها دود القرمز مكونًا مادة القرمز، انظر (مؤلف مجهول، منافع الحيوان، مخطوط بالمعهد المصري بمدريد تحت رقم ٧٠، لوحة ١٥١).

(٢١١) **الديوان**، ص ٩٠، ١٢٠.

(٢١٢) نفسه، ص ١٦٥. ومن المعروف أن الأندلس كانت مشهورة بوفرة أشجار التوت، وبالتالي انتشرت في البوادي الأندلسية تربية دود القز الذي يتغذى على أوراق التوت. انظر (ابن سعيد، المصدر السابق، ج٢، ص ٥١؛ الحميري (محمد بن عبد المنعم)، **صفة جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار**، نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، سنة ١٩٣٧، ص ٧٠، وراجع التفاصيل في كمال أبو مصطفى، **تاريخ الأندلس الاقتصادي**، ص ١٨٩-١٩٠.

(٢١٣) **الديوان**، ص ٢٧٨.

(٢١٤) نفسه، ص ٩١، هـ٢، ص٩١.

(٢١٥) نفسه، ص ١٢٢، ٢٢٣، ٢٥٨.

(٢١٦) نفسه، ص١٠٠، ١٨٠، ١٨٣؛ الأهواني، **على هامش ديوان ابن قزمان**، مجلد ١٨، ص ٤٥؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٢٥٦.

(٢١٧) **الديوان**، ص ٣١٣؛ ليفي بروفنسال، نفسه، ص ٢٥٧.

(٢١٨) نفس المصدر السابق، ص ١٠٠، ١٢٢، ٢٢٣، ٣٧٧؛ وراجع التفاصيل في: عبد العزيز سالم، **تاريخ مدينة المرية الإسلامية**، الإسكندرية، سنة ١٩٨٤، ص ١٥٥ وما يليها.

(٢١٩) **الديوان**، ص ١٠٠.

(٢٢٠) نفسه، ص ٦٥.

(٢٢١) نفسه، ص ٤١٧.

(٢٢٢) نفسه، ص ١٣٤، ٤٠٤، ٤٢١.

(٢٢٣) نفسه، ص ١٦٢، ١٩٦.

(٢٢٤) نفسه، ص١٣١، ٢٢١، ٣٨٠.

(٢٢٥) نفسه، ص ٢٧١، ٣٣١.

(٢٢٦) نفسه، ص ٦٦، ١٢٧، ٢٧٢.

(٢٢٧) نفسه، ص ٢٥٩.

(٢٢٨) نفسه، ص ١٩٧.

(٢٢٩) **الديوان**، ٥٧، ٧١، ٨٣، ٢٠٠، ٢٢٠.

(٢٣٠) نفسه، ص ٢٦٧.

(٢٣١) نفسه، ص ٤١٩.

(٢٣٢) نفسه، ص ٢٣؛ الأهواني، المرجع السابق، م ١٩، ص ٢٢.

(٢٣٣) نفسه، ص ٦٥، ٦٦، ١٠٠، ١٢٧، ١٦٢، ٢٧١، ٤٠٤.

(٢٣٤) نفسه، ص ٧٧.

(٢٣٥) نفسه، ص ١٢٢، وكان سوق البز قد تعرض لحريق سنة ٥٢٥هـ، وسرقت أموال التجار في عصر على بن يوسف (ابن القطان، أبو على الحسن نظم الجمان تحقيق د. محمود مكى) ص ١٩٠.

(٢٣٦) نفسه، ص٧٨، ١٠١.

(٢٣٧) نفسه، ص ٢٤٨.

(٢٣٨) نفسه، ص ٢٤٥، ٢٤٩.

(٢٣٩) **الديوان**، ٢٤٩.

(٢٤٠) نفسه، ص ١٠١.

(٢٤١) عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي**، ص ٢٨٤-٢٨٥؛ كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

(٢٤٢) **الديوان**، ص ٢٦٠.

(٢٤٣) نفسه، ص ٧٨.

(٢٤٤) نفسه، ص ٢٦٧؛ بوتشيش، مباحث في التاريخ الاجتماعي، ص ٢١٢.

(٢٤٥) **الديوان**، ص ١٩٨.اماالضمان ويعرف أيضًا في كتب الفقه بالحمالة مثل ضمان الزوج لشورة (أي جهاز) زوجته، أو ضمان أو حماله بمال، ويشهد على ذلك بعض الشهود. وراجع التفاصيل في (ابن مغيث، المصدر السابق، ص ٣١٢؛ ابن رشد، الفتاوى، تحقيق المختار التليلي، بيروت سنة ١٩٨٣، ج١، ص ٥٨٧.

(٢٤٦) **الديوان**، ص ١٩٨، ٢٩٠، ٣٣١، وقد أشار ابن رشد إلى أمثلة من الرهن مثل رهن ضيعة ببادية إشبيلية، والسلف برهن وغير ذلك. (الفتاوي، ج١، ص ٢٤٦، ج٢، ص ٨٦٥).

(٢٤٧) **الديوان**، ص ٣٣١ انظر أيضًا عز الدين موسى، المرجع السابق، ص ٢٩٦ والسلف يشبه نظام الإقراض ويتم عينًا أو نقدًا، وكان يكتب في ذلك وثيقة سلف. راجع التفاصيل في: (ابن العطار القرطبي، **الوثائق والسجلات**، ص ١٤٠).

(٢٤٨) **الديوان**، ص ٣٣١. وكانت قضايا الديون شائعة في المعاملات اليومية بالأسواق وهي استدانة أحد الأشخاص من آخر مبلغًا من المال، وهناك إشارة في الفتاوى لأم استدانت من ابنتها أربعمائة مثقال في عصر على بن يوسف المرابطي (انظر ابن رشد، المصدر السابق، ج٢، ص ٧٣٤-٧٣٦؛ كمال أبو مصطفى، وثائق ابن العطار القرطبي، ص ١٤٣).

(٢٤٩) **الديوان**، ص ٢٨٤. والحوالة هي أن يحيل شخص ما على شخص آخر دفع مبلغ معين لأحد الأشخاص كان قد سلفه إياه (ابن العطار، المصدر نفسه، ص ١٥٠).

(٢٥٠) **الديوان**، ص ٢٨٤.

(٢٥١) نفسه، ص ٢٤٦

(٢٥٢) أحمد الطاهري، **الفلاحة والعمران القروي في الأندلس**، ص ٢٩؛ بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**، ص ٢٠٦- ٢٠٧.

(٢٥٣) عز الدين موسى، المرجع السابق، ص ١٦٧.

(٢٥٤) **الديوان**، ص ٢٠٦، ٢١٥؛ عز الدين موسى، نفسه، ص ١٧٨.

(٢٥٥) **الديوان**، ص ٧٨، ٨١، ٩٩؛ وراجع أيضًا: نوازل ابن رشد، نشر إحسان عباس مجلة أبحاث، جامعة الإسكندرية، بيروت، ص ١٣، ٣٥؛ صالح بن قربة، **المسكوكات المغربية**، الجزائر، سنة ١٩٨٦، ص ٥٤١، ٥٤٩؛ كمال أبو مصطفى، **صور من المجتمع الأندلسي** (ضمن دراسات مغربية وأندلسية)، ص ٣٢٩.

(٢٥٦) **الديوان**، ص ٢٦٧.

(٢٥٧) نفسه، ص ٨٠؛ ورطنط المذكورة بالسنة أعجمية (إسبانية) من كلمة Rotondo أي مدور) انظر الأهواني، نفسه، م١٧، ص ١٩.

(٢٥٨) نفسه، ص ٩٧، ٣٧٤.

(٢٥٩) نفس المصدر، ص ٢٨٧؛ ليفي بروفنسال، **تاريخ إسبانيا الإسلامية**، م٢، ج١، ص ٢٢٩.

(٢٦٠) نفسه، ص ٨٤، ٥ه، ص٨٤.

(٢٦١) نفسه، ص ١٩١. كان الردين يعادل نصف ربع (**الديوان**، ص ١٩١، هـ٥)

(٢٦٢) نفسه، ص ١٩١.

(٢٦٣) نفسه، ص ٢٦١. والقسط مكيال للسوائل وكان يستخدم في مملكة اراجون، ويساوي ١٢ ربعًا من الخمر (حوالي ١١٨٫٩٢ لترا). انظر (J. Vallve, Medidas de capacidad, al-Andalus, 1977, p.85

(٢٦٤) **الديوان**، ص ١٢٩.

(٢٦٥) نفسه، ص ٤٩.

(٢٦٦) ليفي بروفنسال، نفسه، ص ٢٢؛ Vallve, Op.cit., pp.74-80.

وراجع التفاصيل حول ملك الموازين والمكاييل في: (**فالتر هنتس المكاييل والأوزان الإسلامية**، ترجمة كامل العسيلي، منشورات الجامعة الأردنية، سنة ١٩٧٠، ص ٣٦-٣٧،٦٨).



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan